دير القديس أنبا مقار

المسيح
حياته ، أعماله

الأب متى المسكين

كتاب: المسيح: حياته ، أعماله

المؤلف: **الأب متى المسكين**

الطبعة الأُولى: 1998

مطبعة دير القديس أنبا مقار ـ وادي النطرون.

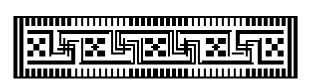
صندوق بريد 2780 القاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 97ـ15241

رقم الإيداع الدولي: 977-240-059-6

المحتويات

••••❖•••



Bibliography

Anderson, H., *Jesus and Christian Origins,* Oxford, 1964.

Anderson, N., *Jesus Christ, The Witness of History,* 1985.

Barclay, William, *Jesus as They Saw Him,* New York, 1962.

Barclay, William, *The Mind of Jesus,* SCM, London, 1960.

Barrett, C.K., *Jesus and the Gospel Tradition,* Fortress Press, 1968.

Beare, F.W., *The Earliest Records of Jesus,* Abingdon, 1962.

Bonaventure, (St.), (*ca* 1217-1274), *Meditations of the Supper of the Lord and the Hours of the Passion,* E.T. 1875.

Bornkamm, G., *Jesus of Nazareth,* Harper & Row, New York, 1960.

Branscomb, B.H., *Jesus and the Law of Moses,* New York, 1930.

Bultmann, R., *Jesus Christ and Mythology,* New York, 1958.

Burkitt, F.C., *Jesus Christ, An Historical Outline,* London, 1932.

Cartledge, S., *Jesus of Fact and Faith,* Eerdmans, 1968.

Conybeare, F.C., *The Historical Christ,* Chicago, 1914.

Dalman, G.H., *Jesus-Jeshua, Studies in the Gospel,* New York, 1929.

Dibelius, M., *Jesus,* E.T., Westminster Press, 1949.

Dibelius, M., *The Sermon on the Mount,* New York, 1940.

Edersheim, A., *The Life and Times of Jesus the Messiah,* 2 vols., 1883, repr. 1965.

Farrar, F.W., *The Life of Christ,* 1913, New illustrated ed. 1965.

Goguel, Maurice, *Jesus and the Origins of Christianity,* Vol. I: *Prolegomena to the Life of Jesus,* 1932, E.T. 1960; Vol. II: *The Life of Jesus,* French ed. 1932, E.T. 1960.

Goodspeed, E.J., *A Life of Jesus,* New York, 1950.

Guthrie, D., *A Shorter Life of Christ,* Zondervan, 1970.

Guthrie, D., *Jesus the Messiah,* Zondervan, 1972.

Headlam, A.C., *The Life and Teaching of Jesus the Christ,* London, 1936.

Kirkpatrick, D., *The Finality of Christ,* Abingdon Press, 1966.
Klausner, J., *Jesus of Nazareth,* 1926.
Knox, J., *Jesus Lord and Christ,* New York, 1958.
Knox, J., *The Church and the Reality of Christ,* New York, 1962.
Manson, T.W., *The Sayings of Jesus,* (first published as Part II of *The Mission and Message of Jesus,* 1937), SCM, 1949, repr. 1975.
Manson, T.W., *The Teaching of Jesus,* Cambridge, 1959.
Manson, W., *Jesus the Messiah,* Westminster Press, 1946.
Marshall, I.H., *The Work of Christ,* 1969.
Neander, A., *The Life of Jesus Christ,* (1st German ed. 1837, E.T. 1847).
Papini, Giovanni, *Life of Christ,* New York, 1923.
Ramsay, W., *The Meaning of Jesus Christ,* 1964.
Ramsay, W., *Was Christ Born at Bethlehem?,* London, 1898.
Rawlinson, A.E.J., *Christ in the Gospels,* Oxford, 1952.
Sanday, W., *Outlines of the Life of Christ,* Edinburgh, 1905, repr. 1930.
Sanday, W., *The Life of Christ in Recent Research,* New York, 1907.
Sanders, J. Oswald, *The Incomparable Christ, The Person and Work of Jesus Christ,* 1971.
Schaff, Ph., *History of the Christian Church,* Vol. I, 1910, repr. 1966.
Schweizer, A., *The Quest of the Historical Jesus,* 1906, E.T. 1910, 1966[10].
Scott, E.F., *The Kingdom and the Messiah,* Edinburgh, 1911.
Sheen, F.J., *The Life of Christ,* 1958, repr. 1977.
Shepard, J.W., *The Christ of the Gospels,* 1939, repr. 1986.
Taylor, V., *The Life and Ministry of Jesus,* Abingdon Press, 1955.
Vawter, B., *This Man Jesus,* 1973.
Warfield, B.B., *The Person and Work of Christ.*

تمهيـــــد:

ما قبـــــل ميــــلاد المسيح

حياة المسيح هي "**حياة**" رسمها الله لإنسان هو يسوع المسيح، يحمل اسمه وصورته، ليصنع مشيئته ويتمِّم عمله. تبدأ بدايتها حتماً من السماء إنما مخفية، لا عن قصد بل عن اضطرار. والاضطرار حتَّمه قصور وعي الإنسان عن إدراك الإلهيات ورؤيتها، فأُخفيت عنه إلى أن ينفتح وعيه فيــدركها مــن نفسه. فإن أدركها صار شريكاً فيها لأنها أُرسلت وجاءت من أجله؛ وهي حق، والحق دائماً كل مَنْ أدركه ووعاه يكون قد احتواه.

وقد تضافرت كلٌّ من السماء والأرض في الإعداد لظهور المسيح، ولكل وجه منهما دور، هــو متعة للتأمُّل، متقن غاية الإتقان، يكشف عن تدبير سمائي محكم ليعبِّر عن مقاصد الله وحبِّه للإنسان، الأمر الذي يوفِّر للإنسان الأمل الوثيق والرجاء الحي بنهاية سعيدة في شخص المسيح تعوِّضــه عــن أحزانه وشقائه في هذا الدهر. فالمسيح بحد ذاته تعبير عن محبة الله، وعن مشيئته المباركــة لإدخــال السرور والفرح في قلب الإنسان.

الوجه الأول:

السماء تتهيَّأ لنزول الابن

لقد تبارى مؤلفو قصة ‘‘حياة المسيح’’ فيما سلف من العصور لكي تأتي مطابقة تماماً لما سجَّلته الأناجيل الأربعة بدءًا من الميلاد وعبوراً بالعماد، وبعدها مرحلة الكرازة أي الخدمة والتعليم، ثم تُختم بالصَّلب والموت ـ ويلي ذلك لمحة عن أخبار القيامة.

ولكن الآن وقد تفتَّح الوعي المسيحي، وازدادت معرفة الإنسان، وازدادت بالتالي طموحاته في معرفة الأمور الفائقة، فبات الإنسان متعطِّشاً أن يعرف ما يخص المسيح في وجوده السابق على ميلاده. وقد أعطانا إنجيل القديس يوحنا، وهو الرابع بين الأناجيل، لمحة عن حياة المسيح في وجوده السابق على ميلاده إنما في اختصار شديد فيقول:

+ «في البدء كان الكلمة،
والكلمة كان عند الله،
وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله.» (يو 1: 1و2)

وبعدها يدخل على الميلاد فيقول: «والكلمة صار جسداً.» (يو 14:1)

وبالرغم من ذلك الاختصار والغموض، فنحن نشكر الله على ذلك كثيراً، إذ أن هذا هو أول شعاع من نور المعرفة الإلهية وصل إلى وعينا فيما يخص وجود المسيح السابق على ميلاده، موضِّحاً أن هناك بدءًا آخر عند الله فيما يخص أمور الله غير البدء الزمني الذي تحدَّد بالخلق. والبدء الذي يخص أمور الله هو أيضاً البدء الإعلاني **أو بدء استعلان الله لنا**، فهو بدء يخصّنا أيضاً ولكن في الأمور التي لله.

هنا نبدأ في وضع سيرة المسيح التي هي في أصلها محاولة لاستعلانه فيما يخصُّه من أمور الله، وهذا يخصّنا أيضاً، لأن هذه السيرة استعلان معرفة تختص بحياتنا ومستقبلنا. بمعنى أنها محاولة لمعرفة حقيقته الإلهية المخفية وراء شخصيته الإنسانية، والتي تبدو في كثير من مراحلها أنها صورة إنسانية عادية، وهي في الحقيقة أكثر من ذلك بكثير. لذلك فمحاولة كشف حقيقة المسيح فيما يخص الله فيه، تدخل مباشرة في مفهوم الاستعلان. فالاستعلان هو كشف حقائق المسيح التي تفوق الأمور العادية للإنسان وهي كثيرة وقوية.

على أن إنجيل القديس يوحنا لم يَعْبُرْ على تعريف المسيح "**بالكلمة**" الذي كان عند الله دون أن

يشير إلى أعماله الإلهية قبل التجسُّد، وإن كانت في عمق الزمن، فقد سجَّل لنا أن **الكلمة هو الذي خلق العالم** أو أن الله خلق العالم "**بالكلمة**": «**كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس.**» (يو 1: 3و4)

وهكذا، وفي الحال، يرتفع مفهومنا عن طبيعة "**الكلمة**" أنها منزَّهة عن الخليقة، وهذا ينعكس بدوره على "**الكلمة** المتجسِّد" أي المسيح، فبالرغم من أنه أخذ جسداً وصار في الهيئة كإنسان إلاَّ أنه ظلَّ يسمو فوق الخليقة، إذ يُحسب أنه "**الكلمة**" خالق الجميع. ويبتدئ تجسُّده يأخذ معنىً قوياً عميقاً بديعاً كونه نزل إلى خليقته ليفديها، لا ليتحوَّل إليها؛ بل ليرفعها إليه. وأخذ جسداً منها بقصد أن يلتحم بها، حتى بهذا الجسد يصير شريك آلامها وموتها، ثم بلاهوته يرفعها من الموت بقيامته ويعطيها الحياة ويورِّثها ميراثه في المجد.

كيف جاء المسيح إلى التجسُّد أو كيف صار إنساناً؟

لكي يأخذ ابن الله "**الكلمة**" جسداً ليظهر فيه كان لابد أن يتخلَّى عن أمجاد لاهوته التي لا تحتملها أعين البشر ولا إدراكهم. فالحواس البشرية وقوة الإدراك عند الإنسان محصورة في محيط الماديات. لذلك فحينما كان الله يتكلَّم مع الأنبياء كانوا يدخلون في حالة غيبوبة أو إغماءة ليتخلَّصوا من حدود الجسديات وإدراكاتها العقلية؛ لكي يتسنَّى لهم أن يروا ما هو فائق عن حواس النظر، ويسمعوا ما هو فائق عن حواس السمع، وأن يدركوا ما هو أعلى من إدراكات العقل والفكر البشري. وهكذا كانوا يتقبَّلون إعلانات الله وتوجيهاته ووصاياه ليوصِّلوها للشعب. ولكن الله هذه المرَّة أراد أن يتصل هو بالناس بنفسه، **ويكلِّمهم** ويفتح مداركهم، ويقنعهم بأمور الله أي أموره الخاصة بلا واسطة؛ فكان لابد أن يكون على مستوى حواسهم وإدراكاتهم، وله كل ما لهم حتى لا يستغربوه أو يرتعبوا منه.

فكان أهم وأخطر عمل قام به "**الكلمة**" قبل التجسُّد أنه أخفى أو تخلَّى عن كل مظاهر ألوهيته. وكان هذا التخلِّي عن أمجاده الظاهرة التي ترعب الإنسان هي البداية الحقيقية الرسمية في رسالة الله بواسطة "**الكلمة**" المتجسِّد أي المسيح. إذ جعلته للتو قادراً أن يأخذ جسداً ويحل فيه بكامل كيانه وطبيعته الإلهية دون أن يكون ظاهراً في شيء من لاهوته. وهكذا ظهر "**الكلمة**" ابن الله الروح الكامل المطلق في جسد إنسان وصار إنساناً كاملاً دون أن يلحظه إلاَّ الذين اشتركوا في أسرار ظهوره بالميلاد. ودور الإخلاء هذا الذي أكمله ابن الله في نفسه من وضعه الإلهي الروحاني الفائق إلى حالة قابلة للتجسُّد كان هو ـ كما قلنا ـ بدء عمل الله في السماء في الخفاء لخلاص الإنسان.

وعندنا آيتان رائدتان تحكيان عن هذا العمل الإلهي العظيم:

الآية الأُولى: تكشف عن تصميم الله الآب على بدء خلاص الإنسان بعملية فدية عظمى يتحمَّلها كل من الله الآب والابن دون تكليف الإنسان بأي جهد، وفيها تظهر محبة الله للعالم كله. والآية واردة في إنجيل القديس يوحنا على فم المسيح:

+ «**لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية. لأنه لم يُرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليَخْلُص به العالم.**» (يو 3: 16و17)

الآية الثانية: وردت بالوحي الإلهي على لسان بولس الرسول، وتكشف بوضوح وباستعلان عن عمل "الابن **الكلمة**" قبل أن ينزل إلى العالم كيف أخلى ذاته:

+ «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً: الذي إذ كان في صورة الله، لم يَحسبْ خُلسَةً أن يكون معادلاً لله (كالابن). **لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسانٍ**، وضع نفسه وأطاع (أباه) حتى الموت موت الصليب.» (في 2: 5-8)

واضح هنا أن الله الآب بذل ابنه الذي تجسَّد، بأن قدَّمه للموت بسبب حب الله للعالم، حتى يُخلِّص ويفدي كل إنسان يقبل الفدية الشخصية التي قُدِّمت عنه من أجل نفسه وحياته. أمَّا الابن فأطاع مشيئة الآب وقَبِلَ أن يبذل نفسه على الصليب ويموت من أجل خلاص العالم حبًّا في الإنسان، كل إنسان، كل مَنْ يقبل؛ إذ قدَّم الابن نفسه في طاعة الآب حتى الموت موت الصليب من أجل كل مَنْ يؤمن.

وبهذا انتهى دور السماء: الآب والابن؛ الآب شاء، والابن قَبِلَ تنفيذ المشيئة، الذي على أساسه بدأت الأرض تتحرَّك لاستقبال هذا الحدث الإلهي العظيم.

ملاحظة هامة:

الموضوع الخاص بالآب والابن والروح القدس في الله الواحد شرحناها في مواضع كثيرة. وباختصار شديد، هي صفات الذات الإلهية الواحدة الفاعلة والفعَّالة في الخلق، التي استُعلنت لنا في صفات الأبوَّة الذاتية والبنوَّة الذاتية والحياة الأبدية في الله. وهي الصفات التي انبعثت منها كل أبوَّة وكل بنوَّة وكل حياة في الخليقة. والمثل الحي على ذلك أن كل ذات بشرية كاملة هي بنوَّة وأبوَّة وحياة، فكل إنسان هو ابن وأب بآن واحد وهو حي له روح. هذه الثلاثة هي واحد في كل ذات بشرية واحدة، لذلك قيل إن الله خلق الإنسان على صورته، ولأن الذات البشرية متغيرة وزائلة لزم الزواج لبقاء الذات البشرية. أمَّا ذات الله فليس بمتغيِّرة ولا زائلة، فامتنع أن يكون لله زوجة لأنه باق حي هو كما هو منذ الأزل وإلى الأبد.

الوجه الثاني:

الأرض تتهيَّأ لاستقبال الابن متجسِّداً

ثلاث فئات أساسية على الأرض قامت كل منها بدورها دون أن تدري في الإعـداد للكلمـة المتجسِّد الآتي إلى العالم:

أولاً: اليهود في العالم.

ثانياً: العالم الوثني.

ثالثاً: اليونان والامبراطورية الرومانية.

أولاً: اليهود في العالم

نحاول الآن وضع خريطة روحية ـ إن صحَّ هذا التعبير ـ للعالم بكل فئاته ذات الصلة بمجـيء المسيح وذلك قبل مجيئه، واضعين نصب أعيننا العوامل الإيجابية والتطلُّعات الناجحة عند كل الطوائـف، ذاكرين ما يمكن أن نعتبره أنه كان إعداداً إيجابياً لتقبُّل البشارة بالإنجيل وميلاد المسيحية في العالم.

فإذا ابتدأنا باليهود فأمامنا المعيار الروحي الذي عبَّر به المسيح نفسه عن وضع الأُمة اليهوديـة في العالم كمتقبِّلة لمجيء المسيح بقوله للسامرية: «الخلاص هو من اليهود» (يو 22:4)، حيث كانـت تمثِّل المرأة السامرية أمامه العالم الوثني المتعطِّش لله وانتظار المسيَّا، كقول السامرية بالرغم من حالهـا الذي كان صورة صادقة مفضوحة لحال الوثنية كلها آنئذ، كما يتضح في هذا الحوار:

المسيح: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أمَّا نحن (اليهود) فنسجد لما نعلم لأن الخلاص هو من اليهود.

ولكن تأتي ساعة وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له، الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحـق ينبغي أن يسجدوا.

السامرية: أنا أعلم أن مسيَّا الذي يُقال له المسيح يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء.

المسيح: أنا الذي أُكلِّمك هو!» (يو 4: 22ـ26)

كانت اليهودية في وسط ظلام العالم الوثني، كالعُلَّيقة[1] المشتعلة بالنار، تضيء ولا تحترق، تضيء بمعرفتها ليهوه العظيم (الله)، ولكن لا تحترق بالرغم من الجو الفاسد الوثني الذي يحيط بها. فكان ناموسها المقدَّس محل رهبة واحترام في العالم كله، والذي كان يمهِّد لاستقبال المسيحية التي كانت قد قاربت أن تعطي صرختها الأولى بميلاد المسيح.

بدأت اليهودية بإبراهيم الذي صار رمزاً للإيمان في كل العالم، وبنفر قليل تغرَّب إسرائيل في مصر حيث تثقَّف هذا الشعب بثقافة أعظم دولة في العالم آنئذ، فتوفَّرت له عناصر تكوين أُمة، أخذت صورتها في داخل مصر كأُمة مهاجرة استقت من علوم المصريين وثقافتهم وآدابهم وأسرارهم في تنظيم حياة الأفراد والشعب والحكومة. ثم تدرَّب فيها أقوى شخصية ظهرت في التاريخ: موسى العملاق الذي تربَّى في بيت فرعون نفسه ونَقَلَ من الملوكية المصرية ما نَقَل من أسرار عملت كلها بعد ذلك لحساب يهوه الله. ولمَّا جاء زمن خروجها (إسرائيل) كانت قد أخذت صورتها الكاملة كأُمة متماسكة وُلدت يوم هجرتها، لتعولها في البرية يد الله أربعين سنة وتُزيح عنها ما لصق بها من نجاسات الوثنية و"أرجاس المصريين". وبجيل جديد وُلِد لها في هذا المعزل الأخلاقي، دخلت اليهودية كنعان لترث أُمماً كثيرة وتقوم على أنقاض شعوب بلعتها وأذابتها في جسمها.

بَلَغَتْ اليهودية أوج عظمتها أيام داود الملك المختار من الله والموهوب «مرنِّم إسرائيل الحلو» (2صم 1:23)، واضع أناشيد الأُمة لتصبح أعظم تراث حضاري ديني في العالم، يكفي لبناء روح أُمة بل وكل الأُمم، وهو لا يزال نبع المسيحية العتيق الذي لم يَأْسَن[2] ماؤه، كل مَنْ استقاه ارتوى بروح الله، وكأنه ينبع من مرتفعات الله السرِّية لينحدر منها جديداً كل يوم.

وبهذا، وبغير هذا، فاليهودية كانت مدرسة العالم صاحبة ثقافة وضعها لها الله على يد أنبيائه، لتظل مصباح العالم ليهتدي به الإنسان المتغرِّب على الأرض ـ فكانت وهي لا تدري تحمل للعالم سهماً من نور يتغلغل أعماقها وأجيالها، ينتقل من جيل إلى جيل حاملاً بركات إبراهيم وعهد الله معه كوعد إلهي: أن بنسله تتبارك كل أُمم الأرض ـ فكان اليهود يعيشون وكأنهم يعيشون من أجل العالم، محتفظين بهذا السهم المضيء في أيامهم المشرقة كما في سنيِّهم الحزينة تحت السبي والتأديب، ليستودعوه بالنهاية في حضن الأُمم.

---

(1) العُلَّيقة: وهي شجرة الشوك التي رآها موسى النبي وهو يتمشَّى في البرية وإذا هي مشتعلة ناراً ولكن لا تحترق، ولمَّا وقف لينظر كلَّمه الله وكأن الكلام صادر منها.

(2) يَأْسَن من أسِنَ: أي تغيُّر طعم ورائحة ولون الماء فلا يُشرب.

أمَّا حُرَّاس هذا الوعد الإلهي فكانوا نخبة من أعظم ما أنجبت الأرض من رجال: موسى المشرِّع الأول في العالم والقائد العظيم الذي قاد أُمَّة من مليونين ويزيد(3) في صحراء جرداء وبرية بلا ماء ولا غذاء لأربعين سنة، في رحلة احتُسبت أقوى منجزات الإنسان في الترحال على وجه الأرض ـ ومن بعد موسى جاء داود النبي المُلْهَم الذي ارتفع بمستوى مملكته حتى صارت المملكة الروحية الأُولى في العالم التي يقودها الله، وكأن الله فيها يجلس على عرشه غير المنظور فتخلَّدت «مملكة أبينا داود» لتصبح الصورة المصغَّرة لملكوت الله الذي باتت تحلم به الشعوب. ومن نسل داود تعيَّن النسل الموعود بحسب الجسد أن يجلس على كرسيه إلى الأبد. وينتقل ثقل النور من داود إلى إشعياء عظيم الأنبياء الذي نسَّق نبوَّاته لتَصْلُحَ أن تكون تاريخاً حيًّا نبويًّا قبل التاريخ، تؤرِّخ بالروح للمسيَّا الموعود، النسل المقدَّس، وتخصَّص في أن يصف أيامه ـ أيام المسيَّا ـ منذ أن حُبل به في البطن وذُكر اسمه بفم الله وذُكرت أيامه المشرقة ورئاسته للسلام الذي بلا نهاية: «مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام ... على كرسيِّ داود وعلى مملكته ليثبِّتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد» (إش 9: 6و7). ووصفه كيف تعظَّم وارتفع بحكمته وعلمه وروحه، ثم دخل ليل أحزانه التي ختمها بالموت على الصليب. وهكذا حُسب إشعياء أنه النبي الإنجيلي. كما أنجبت إسرائيل إيليا، وإن كان الأسبق على إشعياء، ولكنه اضطلع بروحه أخيراً في المعمدان ليكون السابق الصابغ للمسيَّا. وقد حضر من وراء حُجب الزمان السحيق ومعه موسى ـ يوم تجلِّي المسيح على جبل تابور ـ إيليا عن الأنبياء، وموسى عن الناموس؛ يُسَلِّمان معاً ليد المسيَّا كل الميراث والتراث والمواعيد: التوراة والناموس بيد موسى، والأنبياء جميعاً بيد إيليا، لأن مسيَّا الذي جاء ليكمِّل، يكمِّل ما عمله موسى وما تنبأ به الأنبياء! وهكذا حُفظت الوديعة بأفضل وأبرع حُرَّاس الموعد، إلى أن حطَّ سهم النور فوق قدوس إسرائيل.

ولكن السنين أنهكت هذه الأُمة خاصة بسبب طولها وامتدادها، وقسوة الأيام التي مرَّت بها بين الشعوب التي آلت إلى ضعف لها وأمراض استعصت على جميع الأنبياء، فشرورهم كانت مريعة ومرعبة: جافوا يهوه إلههم وأعطوه الظهر والقفا دون الوجه: «طول النهار بسطت يديَّ إلى شعب معاند ومقاوم» (رو 10:21، انظر أيضاً إش 65:2)، وتباعد قلب الأُمة عن الله، فتباعد عنها الله حتى أصبحت أُمة بلا إله!! بالرغم من كل المظاهر الادِّعائية المتلبِّسة بالتقوى والتديُّن الكاذب.

(3) كانوا بحسب تعداد التوراة 600.000 رجل من عشرين سنة فما فوق منخرط للحرب (انظر: خر 12:37). فإذا حسبنا النسبة بين الشباب أصحاب العشرين سنة في الأسرة المتكاملة كان التعداد العام مليونين ويزيد.

ومن محاسن أعمال داود التي يذكرها له التاريخ حتى اليوم أنه جعل أُورشليم مدينة ذات صبغة ملكية إلهية: «مدينة الملك العظيم» وهيكلها «بيت الله» يحج إليها يهود العالم من جميع أقطاره وأرجائه، يأتونها كفريضة دهرية ليقدِّموا خضوعهم ليهوه إلههم الخاص ملك الملوك ورب الأرباب. يتملأون من بركاتها وقداستها وترابها وحجارتها وعمرها الخالد المديد، زاداً يتزوَّدون به كل سنة وإلى مدى العمر. وكان اليهودي لا يتراءى أمام الله فارغاً، فكانت أُورشليم عاصمة الغِنَى والمجد لكل العالم. وبالرغم من هذا الامتداد الذي أجراه الملوك الأوائل والاتساعات بين الشعوب، حافظ اليهود على عزلتهم الشديدة وبأضيق حدود يحتملها شعب وتطبِّقها أُمة، سواء في لغتهم الخاصة أو اتصالاتهم الضيقة وعاداتهم الغريبة؛ فكان هذا من الأسباب التي أبقت على كيان اليهود كأُمة حتى اليوم، بالرغم من تشرذمهم في كل أقطار العالم، والسبي الذي عانته الأُمة بكاملها لسبعين سنة، إذ كان ناموسهم بمثابة السياج الذي استحال على كل قوى العالم أن تخترقه. فحينما كان الوثني يحمل آلهته معه بين أمتعته في ترحاله، كان اليهودي يسعى إلى يهوه في أُورشليم من أقاصي الدنيا. وهذا ضَمِنَ احتفاظ اليهود بتمركزهم في مدينة وطنهم ليقارب بين أُلفتهم ووحدتهم معاً مهما تعدَّدت لغاتهم وأوطانهم التي سكنوا فيها. هذا صار واضحاً، لأن بابل التي سبتهم سبياً مريراً وحرمتهم من ديارهم، ما برحت أن انحطَّت عظمتها للتراب ودفنت مدنيتها مع كنوزها وهياكلها، فلم يَعُدْ لها وجودٌ إلاَّ بالذكرى على صفحات التاريخ. بينما نجد اليهود يجدِّدون كيانهم إثر كل كارثة ويعيشون تاريخهم ومجدهم وعبادتهم حتى وإن جار عليهم الزمان.

وهكذا حفظت إسرائيل في جسمها وكيانها تاريخها وكل وعودها، وبقيت رغم آلاف السنين التي عبرت عليها شاهدة على معاملات الله، حافظة للمواعيد، وإن لم تنتفع بها. ولكن تدهور إسرائيل لم يؤهِّلها لحكم ذاتها وسط الأُمم التي أحاطتها والتي ارتفع قرنها عليها. فشاء الله أن تدخل إسرائيل تحت عبودية وانضباط الامبراطورية الرومانية. فغزاها بومبي سنة 63 ق.م وهي السنة التي وُلِدَ فيها أغسطس قيصر، وعيَّن لهم بومبي ملكاً أدومياً هو "هيرودس"، وأولاده من بعده، كما دخل بعد ذلك حكم الولاة الرومانيين ممَّا زاد سخط اليهود، لأن بدخولهم تحت الامبراطورية الرومانية دخلوا تحت قبضة الوثنية عدوِّهم الألد. فباتوا يئنُّون، وأهاج ذلك فيهم شعور الانتظار والترقُّب للمسيَّا رجائهم الأخير.

ثانياً: العالم الوثني يتهيَّأ

حينما نتكلَّم عن الوثنية لا ينبغي أن ننسى أنها بشرية أجدادنا، كنَّا مهما كنَّا، مصريين أو هنوداً أو إنجليزاً أو فرنسيين أو أمريكاناً أو أسيويين، وهي أيضاً كانت تحت عناية الله، وإن لم يتوفَّر لها مساعدة علوية لتهذيب أخلاقها أو لإنارة الطريق أمامها للتقدُّم الروحي. ولكنها أبدت في مُجْمَلها محاولات جبَّارة للتعرُّف على الله إنما بوسائلها البدائية. فآلهة المصريين وآلهة اليونان وغيرهم كلُّها كانت محاولات للتقرُّب من الإله الواحد. وبالرغم من حرمانها من كل ما تمتَّع به اليهود من تدخلات الله سواء بالأنبياء أو الملهمين، وبالرغم من أنها بلغت هي أيضاً الحد الأقصى في جهالاتها، لكنها سعت حثيثاً للتعرُّف على الحقيقة، حتى أوتي لهم في النهاية أن يتعرَّفوا على المسيَّا في الوقت الذي لم يتعرَّف عليه اليهود. فكرازة بولس الرسول بالمسيحية في كل مدن آسيا واليونان وروما أدَّت إلى تقدُّم الإنجيل بين الأُمم بأسرع مما تقدَّم به الإنجيل في إسرائيل ذاتها.

وهكذا استطاعت الوثنية أن تلاحق إسرائيل في تعرُّفها على الله الواحد والإيمان والحق عن طريق المسيح، وتختزل ألفين من السنين عاشتها إسرائيل قبلها مدلَّلة تحت عناية الله الخاصة جداً وإرشاد أنبيائها وتهذيب الناموس. وأوضح وصف توصف به محاولات الوثنية في تقرُّبها وعبادتها لآلهتها ما وصفها به بولس الرسول: «**أنتم تعبدون إلهاً مجهولاً**» (أع 17:23)، وهذا ما قاله المسيح للسامرية: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون» (يو 4:22). والملاحَظ في مستوى التعليم وسرعة الاستجابة أن السامرية أبدت استعداداً أسرع وأقوى وأصدق في تقبُّلها للمسيَّا والحق الإلهي والعبادة الصحيحة من نيقوديموس عضو السنهدرين. والمُعلِّم كان واحداً وهو المسيح!!

والمحاولات الجادة والصارخة إلى حد تقطيع أجسادهم بالسكاكين، التي كانت تقدِّمها الوثنية في عبادتها لله، توضِّح إلى أي مدى من الجدِّية والإخلاص والتضحية بلغت الأُمم في سبيل التقرُّب إلى الله ولكن بوسائل خاطئة. كما كانت تُعبِّر أيضاً عن الإحساس بالبعد عن الله. وكانوا يجيزون أولادهم في النار وأحياناً يذبحونهم إمعاناً في التقرُّب الصادق، ولكن عن جهالة. فالإنسان هو الإنسان نازعٌ دائماً نحو خالقه طالبٌ الحق، ولكن يعوزه الطريق. والأوضاع التي واجهها المسيح في تقابله مع الوثنيين في إسرائيل توضِّح مدى توقيرهم لله والحق إذا ما أحسُّوا به. فسلوك قائد المائة وهو روماني وثني تجاه المسيح جعل المسيح يشهد لصدق إيمانه: «الحق أقول لكم: لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا» (مت 8: 5-10). وقصة المرأة الكنعانية وهي وثنية، التي صارت أمثولة

بيننا، تبكِّت إيماننا وتُخجل تواضعنا، كيف كان ردُّها على المسيح وهو يقول لها: «ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُعطى للكلاب» فترد عليه: «نعم يا سيد. والكلاب أيضاً تأكل من الفُتات الذي يسقط من مائدة أربابها» مما جعله يشهد أيضاً لإيمانها: «يا امرأة، عظيم إيمانكِ! ليكن لك كما تريدين. فشُفيت ابنتها من تلك الساعة.» (مت 28:15)

ويعوزني ضيق المساحة أن أحكي للقارئ عن الشخصية المهيبة للمدعو ملكي صادق والملقَّب كاهن الله العلي، النموذج الأعلى للكهنوت، الذي جاء المسيح على مستواه! وهو أصلاً ظهر كصديق لإبراهيم ومشير له، الذي عَضَدَ إبراهيم بخبز وخمر بمفهومهما السرِّي جداً وباركه، وتقبَّل هو من إبراهيم العشور كنائب عن الله. هذا يخشى القلم أن يصفه "بالوثنية" وهو المحسوب رأساً روحياً بحد ذاته، الذي كان موجوداً قبل إبراهيم، وهو لا يمتُّ لا لإبراهيم ولا للعبرانيين بصلة.

كذلك يثرون حمو موسى كاهن مديان الذي عَضَدَ موسى وأعطاه ابنته، وكان له كما كان ملكي صادق لإبراهيم. أشخاص أمميون متفوِّقون عن نظرائهم من اليهود في الإيمان والإخلاص لله. وراعوث الموآبية التي تشرَّفت أن يأتي المسيح من نسلها، وأرملة صرفة صيدا التي عالت إيليا النبي وهو مُطارَد، وحيرام ملك صور الصديق الحميم لداود الذي لولاه ما بنى سليمان هيكلاً لله. وملكة سبأ التي جاءت من أقصى الجنوب لترى سليمان وتسمع حكمته. ونعمان السرياني ضابط أرام الذي تخطَّى حدود العداوة لإسرائيل وجاء من بلاده البعيدة يطلب صلاة نبي في إسرائيل.

بل ويكفي العالم الوثني أن يُنجب شخصية كأيوب الصدِّيق الذي صار مثلاً في فم الله للإيمان والصبر والشكر والحكمة. وهوذا بلعام بن بعور النبي الذي كان يرى رؤى القدير وهو مطروح مفتوح العينين، الذي التزم بأوامر الله ولم يخرج عمَّا أعطاه أن يتكلَّم به حرفاً واحداً، بالرغم من الوعد والوعيد.

كل هؤلاء أشخاص تألَّقوا في سماء الوثنية في العهد القديم، تفتخر بهم البشرية التي أنجبتهم وهي بلا إله ولا أنبياء!! وعندنا أيضاً أشخاص إذا ارتفعنا إلى مستوى مواهب الحكمة والمعرفة والعقل المتقن في وسط الوثنية، لا نعدم منهم جبابرة ذوي قامات وهامات شامخة ينحني تحت ضياء فلسفتها وبلاغتها وحكمتها هامات أعظم العلماء في حاضرنا. لم يكن يعوزهم إلاَّ ختم الروح القدس والتعرُّف على سر الحق فقط. وهم على مستوى أعاظم أنبياء إسرائيل: سقراط وأفلاطون وأرسطو وبندار وسوفوكليس وشيشرون وفرجيل وسينكا وبلوتارخ، هؤلاء محسوبون كمنح ممتازة فوق العادة للعالم الوثني من قِبَلِ الله! يهذِّبون عالمهم أدبيًّا وفكريًّا وخُلقيًّا حتى لا يتعوَّق أو يتأخَّر عالمهم

عن حركة التدبير العام للعالم كله ليصلحوا لاستقبال النور الإلهي. وهؤلاء الحكماء جميعاً هم شهود "**الكلمة**"، نبع الحكمة العقلية في عصر الظلام، كشعاع من نور ألقاه "**الكلمة**" في عقولهم ليضيء من بُعد بالحكمة والبلاغة والفلسفة والفن والجمال والمعرفة والأدب والشعر، بصور نادرة المثال تحكي عن قمة المواهب المنسكبة عليهم مجّاناً والتي ملأت كل روما وبلاد اليونان، ولم يكن يعوزها إلاّ سر الروح، وكأنما كانوا يمهِّدون لأقدام بولس الرسول ليرسي فوقها سر المسيح. ولمَّا دخلتهم المسيحية أخصبوها واستناروا وأناروا. وهكذا جاءت المسيحية لترث أمجاد العالم الوثني ليدخل ضمن نسيجها الروحي. وهكذا اقتسمت المسيحية العالم لنفسها: اليهود بميراثهم الزاخر بكنوز الحكمة الإلهية، واليونان بلغتهم المتقنة وفنونهم وآدابهم، والرومان بقانونهم وأنظمتهم السياسية وحكومتهم المتقنة ضبطاً وإدارة.

ويوم كتب بيلاطس البنطي عنوان المسيح المصلوب فوق رأسه بالثلاث لغات: اليهودية واليونانية واللاتينية، كان ذلك إيذاناً برفع العداوة بينهم ودخولهم في شركة المصلوب، لقيادة العالم الجديد باتجاهاته الجديدة.

ثالثاً: اليونان والامبراطورية الرومانية

ما ساهمت به اليونان وروما في التمهيد لمجيء المسيح والكرازة بالإنجيل

دور اليونان:

كان العالم يذخر بنتاج الفكر البشري في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تعتز بالتوراة والثقافة التي أسَّسها موسى في كل مناحي الحياة. فكان الجزء الأقدم من العالم، وهو الجزء المدني، ينمو في حدوده التي رسمها لنفسه، والثاني ينمو في حدوده التي رسمها له الله على يد موسى. وكأنهما كانا على ميعاد ليتقابلا معاً لتغتني البشرية من هذه الذخائر المدنية والإلهية بآن واحد، لكي تنمو البشرية بما وهبها الله على كل المستويات الروحية والمادية والثقافية لخير الإنسان.

وكأنما كانت اليونان والرومان تعدَّان القالب البشري الطبيعي المتقن فكراً وفنًّا ولغةً لكي تصبَّ فيه اليهودية أثمن ثمراتها التي بلغتها في المسيحية. وهكذا إذا تعمَّقنا الواقع النهائي لنشاط الإنسان وما وهبه الله في النهاية، نجد أن هاتين الدولتين قد ساهمتا بوضع الأساس البشري الطبيعي للإنسان الحديث، ثم أكملته اليهودية بمذخراتها فوق الطبيعية أو الروحية بالمعنى الأفضل. فهذا هو إنسان المستقبل الذي كلما تعمَّق أصوله الطبيعية يجد منابع أساساته التي بنى عليها على أرقى ما تكون

الأساسات أدباً وفنًّا ولغةً لا تكفيه عشرات السنين لكي يطَّلع على مناهجها الثمينة.

وهكذا جاء المسيح في وقت متأخِّر جداً من تاريخ العالم، فهو لم يشأ أن يؤسِّس ملكوته على أرض خربة وإنسان بدائي، بل سبق وأعدَّ منذ زمن بعيد ما يَعُدُّ وجه الأرض أمامه. فكان هؤلاء الفلاسفة والأدباء والعلماء المتضلِّعون في كل مواهب الحكمة والعلم والأدب يعملون بنشاط متعدِّد الاتجاهات، هذه المئات من السنين الأخيرة ليهيِّئوا الأساس البشري المتقن لكي يُوقِّع عليه المسيح لمساته لتبدأ رحلة الإنسان الجديد صوب الأبدية.

ولقد حبا الله الجنس اليوناني من المواهب ما يُذهل العقل، فبالرغم من نقص تعدادهم البشري، إلاَّ أن مقدار ما قدَّموه للعالم من علوم وفنون وآداب راقية للغاية ولغة فريدة في عمقها ما ملأ وجه الأرض وغطَّى حاجة البشر إلى ما شاء الله. وإن أول وأعظم ما يُذكر لهم من المعروف هو قدرة أدبائهم وشعرائهم في التخلُّص من الغيبيات القديمة التي كانت تلوِّث الشرق لتشكِّل ظلمة فكرية قادرة أن تسد منافذ النور لتقطع خط الرجعة على أي انتقال أو نهضة روحية صادقة. إذ كان يحكم فكر الشرق قوى الظلام التي تعبث بمصائر الناس، ومعها تصوير قُوى الطبيعة الغامضة كأعداء تتربَّص بالإنسان. وبتدرُّجٍ نَشِطٍ استطاع الفكر الصافي المضيء أن يتخلَّص من هذه الخرافات كما رأينا في أفلاطون الذي يسير جنباً إلى جنب مع التأملات المسيحية وهي في أوج قمتها على يد قديسيها الأماجد. ولا شك، وهذه حقيقة ثابتة، أن أفلاطون وغيره قدَّم للمسيحية بعض ما يمكن أن يكون أدواتها الممتازة للارتفاع بالروح دون خوف من السقوط أو الانحراف. وفي مجال الحق والضمير، قطعوا قبل المسيحية أشواطاً لا يُستهان بها حتى بلغوا إلى ما بلغوا إليه، مما يمكن اعتباره ضميراً سوياً إنما بحسب الطبيعة، يستطيع أن يحكم على الأعمال حكماً لا يخرج عن الأصول والحقوق كما يراها عظماؤهم الذين وضعوا أُسس التعامل وقوانين الحياة الاجتماعية.

وهكذا استلمت المسيحية دراسة منهجية متقنة عن كل مناحي الضمير الطبيعي، ما يفيده وما يضره، لتصب فيها أو عليها أعمال المسيح تجاه الضمير، من غسل وتطهير وتقديس بالنور، ليرتقي ضمير الإنسان فوق مضار كل الإحساس الثقيل بالخطية، على أساس يقين عمل الخلاص الفريد المقدَّم مجَّاناً لكل إنسان، وتلافي الوقوع في اليأس إثر أعمال الخطايا التي تترسَّب بطبيعتها في الضمير لتفسده.

فإذا خرجنا من محيط هذه الإحساسات التي لا يكفي لسردها وبحثها أمام القارئ مجلَّدات برمّتها،

لنأتي إلى اللغة اليونانية، فاللغة اليونانية للذي يعرفها ويجيدها تُحسب معجزة الدهر. فهي تعبِّر عن مضمون الفكر تعبيراً من شأنه أن يزيد نفسه عمقاً وعلواً إلى ما لا نهاية، إذ لها قدرة على تصوير الحدث تصويراً مذهلاً يفيد: متى وقع، وكيف وقع، وهل هو إلى زمن محدَّد في الماضي أو أنه ماضٍ يمتد إلى أعماق المستقبل. فندرك من الفعل صوراً للفكر يصوِّر بها الحقيقة لنراها جديرة بالفهم، بل وترقى إلى شبه القانون تُخضع الإنسان تحت الالتزام. فالفعل بتصرُّفه يشرح مضمون الحادثة ومدى أهميتها ولزومها وسلطانها.

وتعوزني المعرفة في أن أفيض وأزيد في القواعد التي تحكم لغة اليونان لتجعل منها ملحمة أدبية وأعماقاً مرسومة كأساس ثابت. فما عليك إلاَّ أن تفكِّر ثم تنطق أو تكتب لتخرج الكتابة أو الكلام له قدرة جمع شتات الفكر مرتبط أوله بآخره، وغايته مقروءة فيه دون عناء. وهكذا ساهمت اليونان بتقديم اللغة للإنجيل التي جعلت منه في لغتها أعظم المناهج الأدبية طرًّا. فأضفت اللغة على المعاني جمالاً هو جمال سماوي أو هو بهاء الله وشعاع من مجده يُبهر الفكر والقلب والروح معاً. وهكذا أعدَّ الله لكلمته وعاءها الذهني الذي يحفظ لها قوتها ورزانتها وبهاءها، يصوِّرها أبلغ تصوير ويعطيها بريقها وكأنها خارجة من فم الله(4).

وهذا الاتفاق المذهل بين إتقان الروح في إلهام الفكر في الإنجيل، واتقان اللغة عند اليونان، وكأنهما عمل من أعمال الله المرسومة بحسب مشيئته العظمى قبل الدهور؛ يجعلنا نجزم ونقول إن الروح الذي جمع هذا صنع ذاك، ليتقابلا معاً في الإعداد لملكوته، وكأنها ذبائح الإنسان ينشدها نشيداً لمسرَّة قلب الله.

وعلى مستوى هذه الموهبة التي انسكبت على هذا الشعب الموهوب في نحت اللغة بأصولها وفروعها وحركاتها وآدابها، وهبهم الله هبة النحت على الحجر لإخراج صور ومناظر تحكي كما تحكي اللغة عمَّا في قلب الإنسان وفكره. فأصول النحت عند اليونان جعلت الحجر يتكلَّم ويحكي ويصوِّر الحقيقة بغير لغة اللسان. إنها ترقى إلى إحساس الروح! هذه الموهبة أخذتها الكنيسة الغربية وصنعت بها ما صنعت لتعبِّر عن قضايا الروح فأبدعت، وإن كان طقسنا القبطي يتمنَّع في قبول النحت والتمثال في العبادة، وما ذلك إلاَّ لأننا أوتينا من الوعي الروحي والانطلاق بالرؤى إلى ما فوق كل لغة وكل نحت وكل تمثال. ولكن ليس الجميع مَنْ أوتوا هذا الوعي الذي يفوق الواقع.

---

(4) **Philip Schaff,** ***History of the Christian Church*****, 1910, vol. I, p. 77.**

ولكن العجيب حقًّا، هو ما سنراه في أمر الرومان، كيف يبعث الله مَنْ ينشر هذه اللغة عن إلزام في جميع أنحاء العالم لتكون هي لغة العالم التي تربط البلاد والقارات بنظام واحد، فكانت لغة المسيحية التي انتشر بها الإنجيل دون عناء أينما وقعت أقدام المبشرين بالخيرات.

والأعجب من أمر الرومان هو ما قام به اليهود أيضاً في هذا المضمار، إذ لَمَّا انتشرت اللغة اليونانية وغطَّت الأقطار وكل الأنحاء، رأى اليهود ضرورة أن يترجموا التوراة إلى اللغة اليونانية لحاجة اليهود في الشتات في جميع أنحاء العالم الذين فقدوا لسانهم العبري وحتى الأرامي، وباتوا جميعاً لا يتكلَّمون ولا يفهمون إلاَّ اليونانية، فخرجت من تحت أيدي سبعين عالماً يهودياً من الربِّيين المتضلِّعين في اللغة اليونانية المستوطنين في الإسكندرية، النسخة السبعينية للتوراة تتلألأ بالمعاني المتقنة كما صاغها هؤلاء العلماء اليهود الربيُّون الذين كانوا على أعلى مستوى من الإدراك الروحي والأدبي واللغوي للتوراة العبرية في أصولها الأُولى. وهكذا أيضاً حُفظت كلمة الله في القديم في وعائها الذهبي حتى تلقَّفتها المسيحية التي اعتمدت على الإلهام والنبوَّة كأساس راسخ لاستعلان حقيقة المسيَّا.

فانظر، أيها القارئ السعيد، كيف وضع اليونان اللغة، ثم كيف نشرها الرومان بسلطة واقتدار، ثم أخذها اليهود لينشروا بها توراتهم وتراثهم ... وأخيراً تمَّ تسليم هذا كله إلى يد الرسل لخدمة وانتشار الإنجيل. فمَنْ لا يلحظ هنا يد الله التي كانت تعمل في صبر وهدوء على مدى طويل في العالم لتُعِدَّ نفسها إعداداً متقناً يفوق العقل والحصر لمجيء المسيح واستعلان الله. هذا مما جعل شيشرون خطيب روما الشهير يقول:

[إن اليونانية تُقرأ في جميع الأُمم، أمَّا الرومانية فمحدودة بحدود بلادها.](5)

ثم نأتي إلى أخطر منجزات الفكر اليوناني تأثيراً على المسيحية، وهو ما وضعه كُلٌّ من أفلاطون وأرسطو من اصطلاحات لاهوتية لاستيعاب الفكر البشري للصفات والأعمال الإلهية أو الحق كما استطاعوا أن يستشفُّوه من وراء تصوُّر الآلهة. فقد صارت هذه الاصطلاحات القاعدة اللغوية والفكرية التي تشرح حركة الفكر في الاقتراب إلى الحقائق العُليا، فاعتُبرت قواعد للاَّهوت الطبيعي. هذه استطاعت المسيحية أن تصبَّ فيها الحقائق المسيحية والتعابير اللاهوتية الدقيقة جداً مثل: الأقنوم، الوجه، الجوهر، الطبيعة، الذات، التساوي، التشابه، المطلق الزمني، وكلي الوجود، وواجب الوجود، والمحدود، والخيال، وعالم الإلهيات، والحقيقة، وشبه

(5) Ibid., p. 77.

الحقيقة، والتزييف، والكذب. و لم تجد المسيحية أي معاناة في استخدام هذه الاصطلاحات مع تعديل في مفهومها لتصيغ بها حقائق اللاهوت المسيحي. وبهذا يكون الفكر المسيحي اللاهوتي قد اغتنى بنتاج الفكر الفلسفي الهلليني ـ وامتدت المعاني بكل حذر ودقة للتفريق بين الحقائق الإلهية بصورة عميقة وغنية ومفرحة للقلب الواعي. فمَنْ ذا يتصوَّر أننا نبلغ إلى تصوير اللاَّهوت المسيحي بهذه التعبيرات المسيحية الواضحة المضيئة للعقل والروح بدون هذه الاصطلاحات، والتي مَنْ يسمعها يعتقد أنها من ضمن الملهمات للروح المسيحية، مع أنها خرجت من قلوب وأفكار أشخاص عاشوا قبل المسيح بأجيال.

ثم هذا "**المنطق**" في الأسلوب اليوناني الذي كان مادة الخطابة والحوار واستعراض مناهج الفلاسفة من فوق منابر أثينا، يسمعها الشعب ويفهمها ويخرج يناقش بها بعضه ويتحاور بها حتى تتغلغل طبيعة فكرهم. هذا نفسه دخل كسلاح للدفاع عن وحدانية الله ولاهوت المسيح الابن الوحيد، لمَّا دخل أسلوب البشارة والوعظ بالإنجيل وصار وكأنه لغة الإنجيل بعد أن تعمَّد في أفواه الرسل والقديسين الذين أغنوا المنبر: كيوحنا ذهبي الفم والآباء الكبادوكيين. والذي يلزم أن نعيه، هو أن تأملات أفلاطون أصبح لها وجود في صياغة الفكر المسيحي ومدوّناته، وكذلك تأملات بلوتارخ كما يصفها شاف(6). وقد لاحظ العلماء أن بعض أفكار بولس الرسول لها ما يشبهها في أفكار سنيكا(7) الفيلسوف الروماني وهو المعاصر لبولس الرسول.

وكثير من آباء الكنيسة الذين انتفعوا من الدراسات اليونانية خاصة في الأجيال الأُولى صرَّحوا أن الفلسفة اليونانية محسوبة عملياً أنها كالقنطرة للعبور إلى الإيمان المسيحي الجزل، كمعلِّم مدرسي يقود في طريق معبَّد، ومنهم الشهيد يوستين وكليمندس الإسكندري وأوريجانوس وأغسطينوس. أمَّا الكنيسة اليونانية ذاتها فما من شك أن أساسها الأول قام على اللغة والمعرفة والفلسفة اليونانية الصرف التي أخذت طابعها الروحي المسيحي على أيدي الرسل.

ولكن على واقعنا الحي المعاصر نستطيع القول أن الطابع المسيحي الحر البسيط أخذ استقلاله في كنائس الشرق دون أن ينبني في كثير أو قليل على الفلسفة اليونانية. أمَّا اللغة اليونانية فبسبب ضعف الدارسين لها توقَّفت في كنيسة الشرق توقُّفاً حزيناً مؤلماً عن الامتداد في ميراث الآباء من جهة الشرح والتفسير للإنجيل والرسائل، والخسارة في ذلك لا تقدَّر. فنحن بسبب جهلنا باللغة اليونانية

(6) **Ibid., p. 78.**

(7) **Ibid., p. 78; cited by Lightfoot, *Commentary on the Philippians,* (3rd ed, 1873) pp. 268-331.**

انفصلنا انفصالاً حزيناً مؤلماً عن فكر الآباء وعمقهم الروحي.

ولكن يشاء الله أن عظمة اليونان وفخر لغتها وآدابها وفلسفتها وثقافتها المتعددة الأوجه تخبو وتنطفئ بظهور المسيحية، لترث الكنيسة ما هو قيِّم وصالح فيها وتتجنَّب نواحي الانحراف والفساد منها وهي كثيرة. مما يجعلنا نفكِّر أن قيام النهضات الأُولى المبكِّرة جداً في اليونان، سواء في اللغة أو الفلسفة والآداب والمواهب الأخرى، إنما قامت لتُعدَّ الطريق لتحمل بناء المسيحية الضخم، وعندما كملت الرسالة انتهى دور العالم الوثني بعد أن ورَّث المسيحية أمجد منجزاته.

دور الرومان:

بقدر ما رأينا اليونان بلد المواهب الفكرية والحكمة والأدب والفن والفلسفة واللغة المبدعة، بقدر ما نجد الرومان بلد العمل والإصلاح والقانون والسياسة. ففكرة قيام حكومة عالمية وقانون مدني موحَّد يحكم الشعوب ملأت وجدان الرومان وتغلغلت فيهم حتى الجذور. ففكرة الامبراطورية الرومانية طغت على كل طموحات أباطرتها، فتصورتها ورسمتها من الفرات حتى الأطلنطي، ومن صحراء ليبيا إلى شواطئ الراين، لتضم كل خصب الدول المحيطة في آسيا وإفريقيا وأوروبا. وقد كان. فكما تخيَّلتْ ورسمتْ في أحلامها نفَّذتْ على الواقع، وبقدر ما جرى القلم على الخرائط والورق انطلقت الجيوش تفتح وتضع الحدود وتقيم الحصون وترصف الطرق وتضع علامات الفراسخ أي الأميال (Milestones) التي تملأ آثارها المتاحف. وأصبح المثل حقيقة: "كل الطرق تؤدِّي إلى روما"، لأن كتابة الأميال عليها تبدأ من روما فتعرف وأنت سائر كم من الأميال تسير لتبلغ إلى روما. وأحصى الرومان تعداد الواقعين تحت سلطانها، فكان الرقم ما يقرب من مائة مليون نسمة(8)، وكان هذا وقتئذ يُعتبر ثلث العالم كله. ويقول العالِم المؤرِّخ شارل مريفيل في كتابه عن تاريخ روما بخصوص التعداد الكلِّي لِمَنْ هم تحت الامبراطورية الرومانية أيام أغسطس قيصر، وذلك في بدء المسيحية، أنه كان يبلغ 85 مليوناً، منهم 40مليوناً في أوروبا، 28 مليوناً في آسيا، 17 مليوناً في إفريقيا، ولم يعطِ عدداً لفلسطين(9)، ومن امتدادها الجغرافي تظهر قيمتها التاريخية والسياسية.

وإن كان الله قد منح اليونان مواهب الفكر ليسودوا على العالم باللغة والآداب، فللرومان

---

(8) **Ph. Schaff, op. cit., p. 79.**

(9) **Charles Merivale, *History of the Romans under the Empire*, London 1856, vol. IV, pp. 450, 451, cited by Ph. Schaff, op. cit., p. 79.**

وهب أصلب الأخلاق وكأنما وُلِدَت أباطرتها لتحكم العالم! وإن كان اليونان في عجرفتهم ينظرون إلى غيرهم كبرابرة – أي همج – ذلك بالنظرة الأدبية الفلسفية، فالرومان كانوا ينظرون إلى كل مَنْ ليس رومانياً أنه عدو إلى أن يخضع ويصير مواطناً تحت القانون الروماني. وكان فخر الرومان وعظمتهم في الحروب والانتصارات؛ وكما غلب الرومان العالم بالسيف، حكموه بالقانون.

وكان مفروضاً على كل إنسان أن يخضع لروما وينحني أمام مجدها ويخدم سلامها بالمال وبالفن وبالجمال. ولكن حاولت روما أن تقلِّد اليونان في حبها للفلسفة والآداب والخطابة والتاريخ والشعر!

وقد استطاع أغسطس قيصر أن يحوِّل روما من مدينة الأكشاك المصنوعة بالطوب الأحمر، إلى قصور من الرخام. واستورد كل شيء من اليونان وزيَّن المدينة بأقواس النصر والأعمدة السامقة، وجلب لها من كل أرجاء الدنيا كل ما بلغ علمه من تحف وفنون – وفي هذه الغمرة المحمومة من الإعمار، انطلق هيرودس وهو ربيبهم، في بناء الهيكل في أُورشليم وجلب له أعمدة الرخام وكل ما وصلت إليه يداه.

واستتبَّ الأمن في كل البلاد وحُفظ لكل مواطن حقوقه بالقانون، وارتقى مستوى المجتمع في كل مكان مع حقوق الحياة والحرية والكلام، ودخل كل متعدٍّ تحت العقاب مهما كان مركزه، وبدأت تطل المدنية على العالم الروماني في كل الأنحاء، وعمَّ السلام والطمأنينة؛ فانفتحت الطرق، وامتدت المواصلات للسفر والتجارة في كل أنحاء الامبراطورية، وذلك تحت راية القياصرة. وكان لأي إنسان أن يسافر إلى آخر الدنيا آمناً ومعه تجارته: الذهب والماس والأحجار الكريمة، تُرسل من الشرق إلى روما دون خوف، وتحف وتماثيل وأعمال النقش من اليونان إلى روما.

وصار العالم وكأنه مدينة واحدة تحت حُكم حكيم مُهاب! وأدق وصف ممكن أن نصف به روما مع طُرقِها وتجَّارِها وغناها وعزِّها ومجدِها يُمكن أن يُقرأ بمنتهى الدقة والوضوح في رؤيا يوحنا اللاهوتي عندما وصف سقوطها:

+ «وسيبكي وينوح عليها ملوك الأرض ... ويبكي تُجَّار الأرض وينوحون عليها، لأن بضائعهم لا يشتريها أحدٌ في ما بعد، بضائع من الذهب والفضة والحجر الكريم واللؤلؤ والبَزِّ والأُرجوان والحرير والقِرمز، وكل عود ثينيٍّ، وكل إناءٍ من العاج، وكل إناءٍ من أثمن الخشب والنحاس والحديد والمرمر، وقرفةً وبخوراً وطيباً ولباناً وخمراً وزيتاً وسميذاً وحِنطَةً وبهائم وغنماً وخيلاً، ومركباتٍ، وأجساداً، ونفوس الناس.» (رؤ 18: 9-13)

هذه صورة لمدى اتساع التجارة والعظمة والسلام والأمان والعدل والقوة والسياسة المنضبطة بالقانون التي كانت تضفيه روما على كل العالم ـ ذلك كله حينما وُلِدَ المسيح!!

فقد انفتحت أبواب العالم كله في وجه الآتي من السماء وكأن العالم صار بيتاً واحداً، ارتفعت منه الحواجز وانفتحت غُرَفُه على بعضها البعض شمالاً ويميناً وشرقاً وغرباً وعليها أقواس النصر، تُحيِّي الآتي وتُسلِّمه مفاتيح الدار.

الرومان واليهود:

كان من أقوى المُثُل العُليا عند القياصرة العظام ـ والتي سبقهم فيها الإسكندر الأكبر(10) ـ احترام أديان العالم. فكل قطر افتتحوه ضمُّوا آلهته إلى آلهتهم. وللعجب أنهم أعطوها أسماء آلهتهم أيضاً وقدَّموا لها العبادة والقرابين حسب عادة الأُمم. وهكذا اختفت الفوارق الدينية: آلهة مكدونية ومصر وسوريا وفارس!

وفي النهاية عملوا لها في روما مكان عبادة واحد يتجمَّع فيه كل الآلهة لكل الأُمم التي افتتحوها وسمُّوا المعبد بانثيون Pantheon أي معبد كل الآلهة. وهو من أجمل معابد روما على تل الكابيتول (التل الذي يجتمع فيه أعضاءِ مجلس الشيوخ والنوَّاب) حيث اعتبر الكابيتول والبانثيون عليه بمثابة عاصمة العالم الوثني أو الأُمم!!

وكان أول من تعاهد معهم اليهود، وكانوا مشتَّتين منذ سبي بابل في جميع أقطار العالم، وكان لا يوجد مكان في العالم ليس فيه يهودي كما قال يوسيفوس المؤرِّخ(11) وكذلك استرابو المؤرِّخ الروماني. وتظهر هذه الحقيقة في سفر الأعمال عندما ذكر حضور يوم الخمسين وكان في أُورشليم جماعات يهودية من كل أقطار العالم. وقد اعتبر الرومان أن الديانة اليهودية ديانة قانونية، وسهَّلوا لليهود المعيشة في أنحاء الامبراطورية. وبالرغم من عداوة اليهود المتأصِّلة من نحو الأُمم إلاَّ أنهم انجذبوا إليهم بحاسة التجارة وموهبة جمع الأموال، فاستطاعوا أن يصيروا أغنى جاليات العالم في كل مكان حلُّوا فيه.

بومبي ويهود التيبر (63 ق.م):

وقد استحضر بومبي من أُورشليم أسرى يهود إلى روما ووطَّنهم على ضفة التيبر اليمنى، وهو

---

(10) **Rev. H.H. Milman, *History of Christianity*, (London, 1840), p. 5.**

(11) **Josephus, *Bell.Jud.*, VII, 3,3; *Antiq.*, XIV. 7,2.**

بذلك يكون قد وضع أساس الكنيسة المسيحية الرومانية في المكان الذي عيَّنته نعمة الله دون أن يدري ولا درى اليهود.

يوليوس قيصر واليهود:

اشتهر يوليوس قيصر في زمانه بأنه حامي حِمَى اليهود وقد أحبُّوه حبًّا جنونياً حتى أنه لمَّا مات وقفوا أمام جثمانه ليالي عديدة يبكون عليه حتى أُحرق جسده(12). فقد منحهم حرية العبادة وأعطاهم هوية أصحاب الديانة الرسمية. ولمَّا جاء طيباريوس قيصر جدَّد هذه المنحة واستمروا في هذا الامتياز. ولكن حدثت أزمة ثقة بينهم وبين طيباريوس قيصر، وجاء بعده كلوديوس وطردهم من روما. وكان من نتائج هذه المودَّة التي لم تدم أن تأسَّست في روما معرفة بالإله الواحد ومعها دخل الرجاء المرتقب بالمسيَّا. وهكذا وُضعت بذرة الإيمان المسيحي في تربة روما على شاطئ التيبر الأيمن برجاء نموها في الميعاد.

وقد سبق أن عرفنا أن التوراة كانت قد تُرجمت إلى اليونانية قبل المسيح بـ 200 سنة، وكانت تُقرأ علناً وتُسمع في المجامع في كل مكان. وكان في كل مجمع مكان مخصَّص لمن يحضر من الوثنيين ليسمع التوراة. وكثيرون كانوا يواظبون على السماع والتعرُّف على الإله الواحد "يهوه" العظيم. وهكذا كان كل مجمع بمثابة إرسالية ثابتة تخدم مجيء المسيح بهدوء وبلا ازعاج، وتُمهِّد للرسل مكاناً رسمياً للكرازة والإقامة. وقد أعدَّت الآذان لسماع صوت الإنجيل على توقيعات النبوَّات.

ومن هؤلاء الدخلاء كانت الأفواج الأُولى من مؤمني المسيحية سيدات ورجال: ليديا بائعة الأرجوان في فيلبي، وتيموثاوس في لسترة. ومن الأمور المدهشة أن يهود الشتات تقبَّلوا الإيمان المسيحي بانفتاح ووعي وسرعة أكثر من يهود فلسطين. وكانت اللغة اليونانية العامل الأساسي لمساعدتهم على تقبُّل المعرفة على أصولها الدقيقة واستيعاب الروح أسرع وأقوى. كذلك من جراء الانفتاح والحرية التي كان ينعَم بها المواطنون اليهود في الامبراطورية الرومانية بطولها وعرضها تهيأت فرصٌ أكثر للإيمان دون أن يتعرَّض المسيحي للنقد أو المقارنة أو الملاحقة إلاَّ من اليهود المتعصِّبين أنفسهم.

كذلك نجد أن اليهود الذين خرجوا من مجامع الشتات وقد تنصَّروا ليكرزوا بالإنجيل مثل القديس

---

(12) **Sueton. *Caes.*, c. 84 cited by Ph. Schaff, op. cit., p. 86.**

بولس والقديس برنابا، كانوا هم القنطرة الممتازة التي عبر فوقها الوثنيُّون بأمان وتقبَّلوا الإيمـــان بفـــرح عظيم. وكانت حركة الكارزين في كل أقطار الامبراطورية تحت حماية القانون الروماني، وفي طـــرق معبَّدة آمنة محروسة بجنود الرومان محدَّدة بعلامات الأميال "الـــستاديوم" (Stadium). وكانـــت الكرازة بلغة واحدة وهي اليونانية التي يتكلَّم بها كل الأقطار.

وهكذا بات العالم كله مهيَّأً للبشارة بالإنجيل وسماع صوت الله.

الجزء الأول
حياة المسيح منذ ميلاده حتى بدء الخدمة

الباب الأول
دخول الابن إلى العالم

الفصل الأول

إرسالية الابن

+ «**ولكن لَمَّا جاء ملءُ الزمان، أرسلَ الله ابنه.**» (غل 4:4)
+ **[ظهر "ملء الزمان" عندما اكتملت حركـات الاسـتعداد وظهرت حاجة العالم للفداء.]** (شاف)(1)

+ «**لذلك عند "دخوله إلى العالم" يقول: ذبيحة وقرباناً لم تُرِدْ، ولكن هيَّأتَ لي جسداً، بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرَّ. ثم قلت: هأنذا أجيءُ. في دَرْجِ الكتاب مكتوبٌ عـني، لأفعل مشيئَتَك يا الله.**» (عب 10: 5ـ7)

الآيات السابقة من أدق وأهم الآيات التي تصف الانتقال من العهد القديم إلى العهد الجديـد، أو من العالم القديم إلى العالم الجديد، ويضعها سفر العبرانيين نقلاً عن (مز 40: 6ـ8) في فم المـسيح وهو داخل إلى العالم يردِّد نوع العلاقة التي تربطه بالله في مقابل العهد القديم. فعِـوَض "**الـذبائح والقرابين**" يقول المسيح لله: «**هيأت لي جسداً**». ويتكلَّم بعد ذلك عن عدم رضَـا الله ومـسرَّته: «**بمحرقات وذبائح خطية لم تُسر**»، ثم يقول المسيح: «**هأنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله**».

فبهذا التصريح السرِّي العجيب الذي جاء بفم المسيح، يصوِّر الوحي كيف ولماذا دخل المسيح إلى العالم ومعه خطة عمل متَّفق عليها مع الله؟ وعلى أساس بنودها دخل إلى العالم ليحل محل الـذبائح والقرابين، وذلك بتقديم جسده الذي هيَّأه الله لهذا السر. ونحن لا يمكن أن ننسى الآية الرائدة الأُولى في تاريخ فداء الإنسان: «هكذا أحب الله العالم حتى **بذل ابنه الوحيد**، لكي لا يهلِكَ كُلُّ مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3:16)، والبذل هنا كما قلنا، يتحقَّق الآن بتقديم جسد المسيح عِوَض الذبائح والقرابين التي انهمك بتقديمها الإنسان ألفي سنة بلا رجاء ودون مسرَّة الله! ولكن هنا بتقديم جسد الابن الوحيد نكمِّل مشيئة الله: «هأنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله.» (عب 10:9)

(1) **Ph. Schaff, *op. cit.*, p. 57.**

إذن، فميلاد المسيح لم يكن بدءًا لحياة المسيح، ولكن امتداداً متجسِّداً لسابق وجـوده الروحـي الحي الدائم، وكان الميلاد واسطة دخوله إلى العالم ليتمِّم خطة أزلية أُرسل من الله ليكمِّلها بالجسد، بحياة على الأرض هي في سرِّها ضاربة بجذورها في الأزلية وممتدَّة كما هي إلى الأبد. لذلك استطاع أن ينقل لنا كل ما عند الآب ويستعلنه في نفسه. وبعد أن أكمل عمله على الأرض أعطانا شركة في جسده وفي حياته بكل امتدادها الروحي لنحيا معه الحياة الأبدية.

وقوله العذب الجميل: «**هيأت لي جسداً**» (عب 5:10)، هو ملخَّص قصة الميلاد.

1 ـ لماذا ميلاد المسيح من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم

لماذا الميلاد من عذراء؟

بحسب منطق العقل نقول إن الشخصية الكبيرة التي ستحمل همَّ تغيير البشرية من وضعها الخاطئ الأرضي الملوَّث بالخطية والجهالة والظلمة العقلية، إلى وضعها الروحي الطاهر السماوي والعارف بالله والحق والحياة والمستنير بالروح القدس؛ نقول إنه من المستحيل أن تكون بدايتها من إنسان عـادي رازح تحت هذه الخطايا والمناقص والانغلاق الروحي عن الله والعائش في الظلمة العقليـة، والمائـت بالطبيعة.

ولأن شخصية المخلِّص سيكون عملها الأساسي في الطبيعة البشرية ذاتها لتغييرها والارتقاء بهـا أخلاقياً وسلوكياً لرفعها إلى النقيض العالي والمتسامي روحياً، لذلك كان يلزم أن يكون هذا المخلِّص شريكاً كاملاً لهذه الطبيعة يحمل ضعفاتها، وبآن واحد، أن يكون حاملاً للطبيعة الأعلى والأسمى التي سيرتقي إليها في مستواها السماوي. وهذا يعني أنه يتحتَّم أن يكون حائزاً على طبيعة بشرية خاليـة من الخطية كإنسان، حتى يستطيع أن يحمل خطايا البشرية ويتخلَّص منها بأخذ عقوبتها في جـسده، كما سنرى ذلك على الصليب، بالموت بها. ولكن لأنه هو بطبيعة خالية مـن الخطيـة كإنـسان، والحامل للطبيعة الإلهية كابن الله الذي لا يمكن أن يبقى في الموت؛ لهذا قام من بين الأموات بطبيعـة بشرية مبرَّأة من الخطية. وهذه هي الإنسانية الجديدة التي أدخلها إلى العالم.

وهكذا يتحتَّم أن يحكمنا في ميلاد المسيح عاملان: الأول طبيعي بشري خالٍ من عنصر الخطيـة التي انحدرت إليها الطبيعة البشرية؛ والثاني عامل فائق للطبيعة قادر أن يخلق بالفعل، ويغيِّر هذه الطبيعة البشرية إلى طبيعة أخرى لها الإمكانيات أن تحيا وترتقي إلى حياة روحية جديدة قادرة أن تـستوطن السماء.

وهذا هو نفسه الوضع الذي أدخلنا فيه الإنجيل بقصة ميلاد المسيح من العذراء القديسة مريم بدون رجل، حيث يتم الميلاد من الروح القدس، وذلك على مستوى التاريخ وبشهود سماويين وأرضيين استوفى كل ما فرضناه بمنطق التفكير فيما يجب أن يكون عليه المخلِّص الآتي. فكل من إنجيل ق. متى وإنجيل ق. لوقا يقصُّ علينا كيف أن عذراء قديسة بشَّرها الملاك جبرائيل بميلاد مخلِّص بقوة الروح القدس، وحملت وولدت ابناً حُسب أنه ابن الإنسان وهو ابن الله بآن واحد.

ولكن ينفرد إنجيل ق. يوحنا ليعطينا لا رواية عن الميلاد، ولكن ليؤكِّد لنا اعتماداً على رسوليته وقربه الشديد من المسيح ومن العذراء القديسة مريم، أن المسيح له وجود سابق مع الله، فهو كلمته الفعَّالة أو الفاعلة في الخلق، وهو ابنه الذاتي، أتى بلاهوته وطبيعته الإلهية إلى التجسُّد الذي هو في التعبير العملي المنظور الميلاد من العذراء، وقد سمَّاه التجسُّد، فالكلمة أتى إلى التجسُّد أو صار جسداً بشريًّا أي إنساناً. هكذا يشهد له ق. يوحنا كيف أدركه بالروح:

«والكلمةُ صار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً كما لوحيدٍ من الآب.» (يو 14:1)

الفصل الثاني

البشارة بالميلاد

2 - بشارة الملاك جبرائيل للعذراء

يوسف ومريم(1):

هنا نأتي إلى العذراء المخطوبة ليوسف، أمَّا يوسف فكانت صناعته النجارة وقد دخل في كبر السن، والعذراء يتيمة، ويقول التقليد إن أباها كان يُسمَّى يواقيم وكان فقيراً فورثت الفقر. وهكذا يقدِّم لنا الإنجيل أسرة المخلِّص لتكمِّل العثرة في الإيمان بالفادي: «أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأُمه!!» (يو 42:6)، هكذا رآها القوم لا كرامة لها، وهكذا قال المسيح موافقاً: «إنه ليس نبيٌّ مقبولاً في وطنه» (لو 24:4). وهكذا فقر يوسف ومريم أُضيفا إلى فقر المسيح الذي أجازه في نفسه بنزوله من مجده الأسنى. وهكذا: «من أجلكم افتقر وهو غنيٌّ، لكي تستغنوا أنتم بفقره.» (2كو 9:8)

وأهل الناصرة كأهل الجليل ـ كما يفيدنا العالِم إدرزهايم ـ يتميَّزون باستقامة رأي ـ دم حار ملتهب ـ شجاعة ـ وطنية متأجِّجة ـ مع مشاعر حسَّاسة وعميقة في مواجهة ظروف الحياة، شأن طباع اليهود عبر آلاف السنين، شعب يفتخر بأن ملكه الخاص هو الله!! أحرار غير ملتزمين بتعاليم الربِّيين الضيِّقة، فالبساطة والحرية تحكم أفكارهم وعوايدهم ـ حياتهم الأسرية نقية، والخطوبة لها قدسيتها كالزواج، وحفلات الزواج بسيطة وليست كباقي اليهود. والعروس لا توزَن بمالها كبقية اليهود، ولكن كأهل الحضر وأُورشليم فهي تُقيَّم بشخصيتها!

ومن جهة النسب العالي المنحدر من الآباء، فيوسف ومريم ينحدران من نسل داود؛ فهما ذا قرابة، على أن مريم من عائلة كهنوتية لأنها ذات قرابة شديدة بأليصابات التي هي بنت كاهن وزوجة كاهن، مما يوحي بأن عائلة مريم ذات أصالة من جهة العلاقة بالله. ولكن على أي حال

---

(1) **A. Edersheim, *The Life and Times of Jesus the Messiah*, 2 vols. 1883, repr. 1965, vol. I, pp. 148-149.**

كان يضمُّهما الفقر الشديد. وهذا انكشف لنا من نوع الذبيحة التي تقدَّما بها ـ يوسف والعذراء مريم ـ إلى الله عند تقديم الطفل في الهيكل: «فرخا حمام» لأن المتوسطين يقدِّمون حملاً، والأغنياء ثوراً، والفقراء زوج يمام أو فرخي حمام (لو 24:2)!! هذا يشير إلى أن خطوبتهما كانت بلا حفل ولا وليمة بل مجرَّد شهود ينطقون بالشهادة وحسب. حيث يتم العقد بتلاوة الشكر، وكأس خمر يدور على الجميع بعد أن ترتشف منه المخطوبة رشفتها الأُولى. وبعدها صارت العذراء مخطوبة رسمياً ليوسف بعلاقة مقدَّسة. والخطوبة المقدَّسة لا تُفكُّ إلاَّ بعلَّة ومحكمة وإشهار شأنها شأن الزواج.

يظهر هنا الملاك فجأة للعذراء المخطوبة ليوسف النجَّار في بيتها بالناصرة. بيت ريفي في أوضع مظاهر الحياة البشرية الممكن تخيُّله في الجليل ـ وهكذا تتم أقدس بشارة لأقدس حدث تمَّ على أرض الإنسان لميلاد مخلِّص البشرية، ليصنع خلاصاً لإنسان العالم الغارق في ظلمة الخطية والموت.

موقف العذراء القديسة مريم من بشارة الملاك:

فوجئت العذراء الصبية بنت الأربعة عشر ربيعاً ـ بحسب التقليد ـ بمنظر الملاك الفائق المجد وهو يطمئنها قبل أن يبادرها بالبشارة: «سلام لكِ أيتها المُنعم عليها! الرب معكِ. مباركةٌ أنتِ في النساء »(لو 28:1)، كان الحدث فائقاً على تصوُّرِها وعلى بساطة اتضاعها. ولكن بنطق الملاكِ بالسلام حلَّ السلام في قلبها المضطرب، وبالنطق بالنعمة حلَّت النعمة ونالت العذراء السعادة الداخلية. ولمَّا تفكَّرت ما عسى أن يكون هذا السلام وهذه التحية السخيَّة، عاد الملاك ليطمئنها أيضاً: «لا تخافي يا مريم، لأنكِ قد وجدتِ نعمة عند الله. وها أنتِ ستحبلينَ وتلدينَ ابناً وتُسمِّينَهُ يسوع. هذا يكون عظيماً، وابنَ العليِّ يُدعَى، ويعطيه الرب الإله كَرسيَّ داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكهِ نهايةٌ.» (لو 1: 30ـ33)

لم يعطها الملاك شيئاً من عنده، بل أعلمها فقط بما قد صار لها وفيها. فمع نطق البشارة كانت النعمة تعمل عملها للحال وفي التوِّ! ولمَّا ابتدأت تخاف بدَّد الملاك خوفها: "لا تخافي"، ومع النطق كان الفعل. كان كلام الملاك بعد أن دبَّ السلام في قلب العذراء وسندها النعمة، كنغمات ترنيمة عذبة في صباح مشرق. ولكنها انتبهت بعقلها لتتساءَل: أأحبل وألد وأنا لا أعرف رجلاً؟!

لقد سبقت العذراء وخطبت نفسها لله قبل أن يخطبها يوسف، فكيف تحبل وقد تقدَّس الجسد؟ والجسد إذا تقدَّس اشتعل ناراً بشبه العُلَّيقة. فالعذراء هنا لا تشكُّ في بُشْرَى الملاك، ولكنها تدافع عن عفتها التي نذرها لله وحده! فإن كان الله قد أعدَّها لنفسه، فقد أعدَّت هي نفسها لله أيضاً، فمن أين تأتيها ثمرة البطن والبطن تقدَّست لله. فإن تساءَلت: كيف يكون لي هذا؟ فهي تستدرج

الملاك ببساطتها ليبوح بالسر!

وهنا أعاد الملاك حساباته وراجع كلمات البشارة لتنطق بالسر: «الروح القدس يحلُّ عليكِ، وقوة العليِّ تُظللكِ، فلذلك أيضاً القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو 35:1). فالأمر قُضِيَ وانتهى « الرب معكِ» هنا فهمت العذراء وأحسَّت معاً، في قول الملاك يسري الفعل أيضاً. فقول الله فعـــل!! وحينئذ قالت العذراء كلمتها فكان لها كما أراد الله: «ليكن لي كقولك fiat[2]» (لو 38:1) أي ليصنع الله ما يشاء؛ حيث حلول الروح هنا هو أول حلول عُرِفَ عنه أنه لإلقاء بذرة الحياة الإلهية في رحم امرأة!

وللحال كشف الملاك الغطاء عمَّا تمَّ: فالمولود منها ''قدوس الله هو''، «فلذلك أيضاً القـــدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو 35:1). هنا «قدوس الله» ليس لقب هو بل كيان إلهـــي: «أنـــا والآب واحد» (يو 30:10). فإن كان الابن قد خرج من الحضن الأبوي فقد خـــرج ولا يـــزال الحضن يحتويه: «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو 18:1)، «وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو 13:3). فإن كان مجيء الابن إلى التجسُّد حمل معه سر الاتحاد بالآب؛ فعودته للآب، ونحن فيه متَّحدين، يعطينا ذات الاتحاد: «أنا في أبي وأنتم فيَّ.» (يو 20:14)

لأنه بمجرَّد أن اتَّحد بجسدنا حصلنا على المقابل الحتمي إذ صرنا به متحدين، فالذي أكمله مـــن الاتحاد بالإخلاء والاتضاع، نكمِّله نحن بالإيمان بذات الاتضاع. فالذي صنعه هو بجـــبروت تنازلـــه وإخلائه من المجد الذي له ليتحد ببشريتنا، طرحه لنا مجَّاناً ليكون حقـــًّا لكل بشر ـ كل مَنْ يـــؤمن ـ إذ لا يستطيع أن يمنع بشراً يطلب ما له في الله: «مَنْ يُقبل إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يـــو 37:6). لقد آمنت العذراء بهذا «فقالت: هوذا أنا أَمَةُ الرب. ليكن لي كقولك» (لو 38:1)، فكان.

عظيمة هي العذراء بنت إبراهيم؛ فكما آمن إبراهيم «فآمن بالرب فحسبه (إيمانه) له بـــرًّا ...»(تك 6:15)، هكذا آمنت العذراء بنفس الإيمان فحلَّ في أحشائها ذلك الذي به ستتبارك كل أُمم الأرض وتتبرَّر. لقد أكملت العذراء إيمان إبراهيم فأُكمِلَ الوعد! وكأن بهذا الحوار الـــذي تمَّ بـــين العذراء والملاك، أُكمِلَتْ قصة إبراهيم وتمَّ الوعد.

---

(2) ''**Fiat**'' كلمة مختصرة يقولها الملوك وتعني: ''ليكن'' أو ''يُعمل به''، ويقولها الطبيب على التذكرة الطبية لينفِّـــذها الصيدلي وهي تُستخدم لوصف كلمة الله الخالقة: ''ليكن **Fiat** نور''.

وتراءى للملاك أن يعطيها علامة ملموسة لتعلم صحة الأمر ردًّا على «كيف يكون لي هذا» إذ فاتحها عن حال نسيبتها أليصابات، كيف وهي عاقر الآن هي حُبلى في شيخوختها، وهوذا الآن لها ستة أشهر في حملها! فإن كان هذا قد صار ممكناً عند الله، فليس شيء غير ممكن لدى الله. وكأن الملاك قد أوعز إليها بزيارة نسيبتها لترى وتؤمن وتصدِّق وعد الله. فآمنت مريم المملوءة نعمة بيقين الإيمان بغير الممكن ليكون! «فطوبى للتي **آمنت** أن يتم ما قيل لها مِن قِبَلِ الرب.» (لو 45:1)

3 ـ زيارة مريم لأليصابات

وفي الحال اعتبرت مريم أن ما قاله الملاك دعوة لزيارة أليصابات نسيبتها لترى وتفرح، وكان. فقد قامت مريم مسرعة تطفر على جبال اليهودية كغزال أسلم رجليه للريح، أو حمامة خفيفة تهبط الوديان فاردة جناحيها لتنزلق مع الهواء. فكانت تطير أكثر منها تسير، الروح يدفعها والنعمة تحملها وتجدِّد أنفاسها. فكان الليل يضيء لها كالنهار، والرحلة شاقة وطويلة على مدى ثلاثة أيام بلياليها، من الناصرة إلى حبرون(3) إلى مدينة يهوذا، رحلة تشق صعوبتها على الرجال، وما نعرف هل قطعتها في ساعة أو بضع الساعة؟

فإن كان إيليا في عَدْوِه سبق فرسان أخآب الملكية، فليس كثيراً على هذه الفارسة أن تُسابق الريح. ولعلَّها عرجت على الهيكل تتنفَّس فيه عبيق الآباء والأجداد وتسجد في محراب مَنْ حلَّ في أحشائها وتتزوَّد قوة لتواصل المسير.

4 ـ نشيد مريم النبوي

تقابلت مريم مع أليصابات، وما درتا أن فيهما تقابل المعمدان مع المسيح وبهما تقابل العهدان، وتسرَّب الروح من جنين العذراء ليملأ جنين أليصابات، فامتلأ المعمدان بالروح من البطن وابتهج. ونطقت أليصابات بالنبوَّة: «فمن أين لي هذا أن تأتي أُم ربي إليَّ» (لو 43:1)؟ لأن لحظة نطق مريم بالسلام امتلأت أليصابات بالروح القدس وركض الجنين في بطنها بابتهاج وهو ابن ستة أشهر! فأدركت مريم سر البشارة وسر الجنين الذي يملأ أحشاءها ... وانطلقت تُنشد نشيدها النبوي ليردِّد صداه الأبد: «فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوِّبني» ! (لو 48:1)

---

(3) هناك رأي أن المدينة التي ذهبت إليها القديسة العذراء مريم هي مدينة يُطة، والرأي المعمول به أنها مدينة عين كارم الحديثة وبها كنيسة كبيرة تُسمَّى "كنيسة الزيارة" **(Jack Firegn, *Archaeology of the New Testament*, pp. 3-5)**.

مريم فتاة الناصرة ابنة الأربعة عشر ربيعاً آمنت بكل ما قيل لها من قِبَلِ الرب فصارت أول مَــنْ آمنت بالمسيح القدوس ابن الله، حملته في أحشائها وصارت أُمًّا لإسرائيل والكنيسة. هو على كرسي داود يجلس وهي عن يمينه كأُم الملك توزِّع البركات وتتقبَّل الكرامات. من لحمها وعظمها أخذ ابن الله له جسداً، ومنه نحن جميعاً وُلِدنا بالقيامة من بين الأموات. لَّما سمع الجنين في بطـــن أليــصابات صوت العذراء، ارتكض في بطنها وتعمَّد في بطن العجوز وامتلأ من الــروح القـــدس؛ فأدركـــت أليصابات مجد مريم وهلَّلت: «فمن أين لي هذا أن تأتي أُم ربي إليَّ» وهكذا أقامت العـــذراء مـــن عظامها خيمة داود الساقطة، واستردَّت المُلك ورِضَا الله ومسرَّته.

فانطلقت فتاة الناصرة تُنشد كنبيَّة بلغة العبرانيين:

تُعظِّم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلِّصي، لأنه نظر إلى اتضاع أمته،

فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوّبني، لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس، ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتَّقونه،

صنع قوة بذراعه، شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم، أنزل الأعزَّاء عن الكراسي ورفع المتَّضعين،

أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين، عضد إسرائيل فتاه، ليذكر رحمة كما كلَّم آباءنا، لإبراهيم ونسله إلى الأبد

نعم تعظَّمت مريم فوق العالمين، لأنها صارت أُمًّا للرب وهي عذراء.

شِعرٌ موسيقيٌّ من أربعة أبيات، وكل بيت من ثلاث وقفات. له عبيق العهد القديم ورنة الروح في العهد الجديد. تحكي فيه العذراء إشراق شمس البر بعد ليل وحزن مقيم، وكأن إسرائيل تستيقظ مـــن حلم كابوس الزمن وتفتح عينيها على نور المستقبل المشرق. هي رؤية الأجيال انعقدت على قلبـــها بالمجد والتطويب، وهي تُطلع الحاضر على مستقبل عظائم القدوس الذي صنع والذي سيصنع، وهي أُخرويات المستقبل البعيد، تسندها رحمة القدير وتعطُّفات الأزل. افتتح بها الله سر ملكوته بذراع المـــسيَّا، والذين ادَّعوا السلطان أقالهم، والمترئسون خلسة أنزلهم، ورفع المتضعين وأجلسهم. جائعو الـــبر أشـــبعهم والمستغنون ببرهم جاعوا. مجَّد إسرائيل فتاه، وجدَّد مراحم العهد للآباء الأولين حسب الوعد!

وليس من فراغ تُعظِّم العذراء الرب، فالعظيم القدوس اسمه احتلَّ هيكلها، وتهليلها هـــو نطـــق بالروح يعبِّر عن غِنَى ما صنع، وجمرة نار الروح فيها تعبِّر عن لهيبها، تحمل نار الله كمركبة خلاص لتعبر كراديس الظلام وتدخل بنا فجر الأبد. رآها زكريا النبي من على بُعد سحيق فأخذ ينشد لها: «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أُورشليم. هوذا ملكُكِ يأتي إليكِ ... وديعٌ.» (زك 9:9)

تطلَّعت العذراء عبر هامات الأجيال المتلاحقة فسمعت بأذنها كيف أن الأجيال كلـــها تطوِّبهـــا.

ونظرت ورأت كيف أن بقوة ذراع الرب صنع القوات، وبنفخة شفتيه أباد المستكبرين، وبموته أنزل الجبابرة عن كراسي الظلم، وبقيامته رفع المستضعفين، ومن جسده كسَّر وأشبع الجياع خيرات، والذين رفضوا واستغنوا ذهبوا فارغين. رفع رأس إسرائيل حبيبه، وحقَّق الوعد لإبراهيم خليله. فكان نشيدها نشيد العهدَيْن.

انظروا فها هي البشرية قد أصابها انفتاح على الله، فلولا أن أفرزت البشرية عذراءها هذه ما تنازل ووجد المسيح كياناً يسكن فيه. ولمَّا حملت به عذراؤنا، حملنا ابن الله. ولمَّا تقدَّست بالذي حلَّ في أحشائها، تقدَّسنا بالذي قدَّسها. فإن كانت العذراء قد استضافته في أحشائها تسعة أشهر، فقد استوطنت البشرية فيه أبد الدهر. وإن كان قد صار ابنها، فقد صار ابننا حتماً: «لأنه يُولَد لنا ولد ونُعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه.» (إش 6:9)

وما عادت السماء وما عاد أبوه يستردُّه منَّا، إلاَّ ونحن فيه!! فكما أخذ جسده منها مولوداً، أخذنا نحن جسده قائماً من بين الأموات. وكما «ظهر الله في الجسد» ظهر الإنسان أمامه في ذات الجسد! فورث منَّا الجسد، وورثنا فيه بنوَّة الله ومُلْك الأبد.

لم تكن هذه البشارة مجرَّد إطلالة من السماء على بُعد، بل انفتاحاً سماوياً عريضاً وعميقاً على الإنسان! حقـًّا فإن العذراء هي عذراء الله التي اختارها بالنبوَّة على فم إشعياء النبي «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش 14:7)؛ ولكن بآنٍ هي عذراؤنا، أفخر مَنْ خرج من صُلب آدم وبطن حواء. عيِّنة أفرزتها البشرية بتدخُّل إلهي لتصمدَ أمام حدث السماء هذا الرهيب، ومَنْ يحتمله؟ تحمل في أحشائها جمر اللاهوت، ومَنْ يطيق؟ تُجنِّسنا بجنس السماء لننسلخ من آدم والخطية!! وقد حذَّرنا الملاك أكثر مما وَعَّانا أنه «يكون عظيماً» ومَنْ هو عظيم إلاَّ الله!

الفصل الثالث

ميلاد المسيح

5 ـ ميلاد المسيح

تعوَّقت العذراء القديسة مريم عند أليصابات نسيبتها ثلاثة شهور، رجعت بعدها إلى الناصرة. ولمَّا رآها يوسف وهي حُبلى في ثالث شهر أخطأ الظن بها، وبعض الظن إثم؛ ولكنه تكتَّم الخبر ولم يشأ أن يشهرها أي يُعلن طلاقها أمام السنهدرين، بل أراد تخليتها سرًّا عطفاً عليها. ويتلقفنا هنا إنجيل ق. متى: «**ولكن فيما هو متفكِّر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع، لأنه يُخلِّص شعبه من خطاياهم.**» (مت 1: 20و21)

في تلك الأيام صدر أمر من أُغسطس قيصر أن تُكتتب المسكونة. فالقياصرة مغرمون بتعداد رعاياهم، مضافاً إليها حسابات الضرائب والجزية التي كانوا يصرفون الكثير منها على تحسين معيشة البلاد التي تحت رعايتهم، من تعبيد الطرق لتأمين المواصلات، إلى إنشاء المدن والموانئ حتى تعود الفوائد على البلاد وعلى روما لتنشيط التجارة واستتباب الأمن والسلام. ومن هذا الاكتتاب وملابساته استطاع العلماء بشيء من التدقيق أن يحدِّدوا زمن ميلاد المسيح؛ إذ رجَّحوا أن يكون في سنة 4 أو 5 قبل الميلاد.

والذي ضبط تحديدها لأقرب سنة هو موت هيرودس الملك سنة 4 ق.م وقد وُلد المسيح قبل موت هيرودس بقليل، كذلك موعد الاكتتاب الذي كان في زمن كيرينيوس عندما كان والياً على سوريا، وحدث في أيامه اكتتابان: الأول سنة 8 ق.م (أع 37:5) والثاني سنة 6 ق.م. وقد وُجِدَت السجلات التي تشير أنه كان اكتتاب في سنة 746 لروما وهي المرادفة لسنة 8 ق.م، وقد وجِدَت السجلات في مصر التي تشير أن هذا حدث أيضاً في سنة 6 ق.م، ومعروف أن تعداد فلسطين حدث بعد مصر بسنة واحدة. وهكذا انحصر بوجه ما ميلاد المسيح في سنة 5 ق.م على أنه من المعروف أن موت هيرودس حدث بعد خسوف القمر، وهذا الخسوف بحسابات الفلك الدقيقة

وقع في مارس سنة 750 لروما(1) وهي المقابلة لسنة 4 ق.م.

على أنه من المعروف أن المسيح وُلِدَ قبل موت هيرودس بحسب إنجيل ق. متى؛ وحيث أنه من المؤكَّد تاريخياً أن هيرودس الملك مات سنة 4 ق.م، فهذا يجعل ميلاد المسيح بصورة شبه مؤكَّدة سنة 5 ق.م.

على أن يوحنا المعمدان بحسب القديس لوقا قد بدأ خدمته في السنة الخامسة عشر لطيباريوس قيصر عن عمر ثلاثين سنة وهذا يجعل ميلاده (يوحنا) في بكور سنة 749 لروما، فيكون ميلاد المسيح تمَّ (في شتاء) سنة 5 ق.م.

كذلك يمكن ضبط تاريخ ميلاد المسيح على حساب بدء بناء هيرودس للهيكل (يو 20:2) الذي كان في السنة الثامنة عشرة من حكمه(2). والذي استغرق 46 سنة في بنائه. وهذا يعطينا سنة 26 بعد الميلاد وهي سنة بدء خدمة المسيح. ويؤكِّد لنا أن ميلاده تمَّ سنة 5 ق.م ويرجِّح أنه كان 25 ديسمبر(3).

أمَّا تعييد أقباط مصر للميلاد فكان ولا زال في 29 كيهك الذي كان موافقاً لـ 25 ديسمبر في الخمسة عشر قرناً الأُولى. وفي سنة 1582 اكتشف الفلكيُّون فرق بضع دقائق في السنة الشمسية، فحسبوها منذ ميلاد المسيح إلى ذلك الحين فوجدوها عشرة أيام. فأجروا التعديل الغريغوري بحذف هذه العشرة أيام حيث باتوا في 4 أكتوبر 1582 واستيقظوا باكراً في 15 أكتوبر وفي تلك السنة صار 29 كيهك موافقاً لـ 4 يناير بفرق العشرة أيام. ثم من سنة 1700 صار 29 كيهك يقابل 5 يناير. وفي سنة 1800 صار يقابل 6 يناير. ومنذ سنة 1900 صار يقابل 7 يناير. ولكن الأقباط ظلُّوا ملتزمين بتاريخ 29 كيهك، معتبرين أن التراث الديني لا يقوم على الضبط الزمني بالدقائق والثواني، فاليوم هو يوم والسنة هي سنة قلَّت دقائقها أو زادت.

وحسب عادة اليهود كان يُكتتب كل واحد في مدينته، فذهب يوسف مع خطيبته إلى بيت لحم مسقط رأسه، وهي مدينة داود الذي رعى أغنامه فيها وألَّف أشعاره ولعب بمزماره «مرنِّم إسرائيل الحلو» (2صم 1:23). علماً بأن مريم كانت في شهرها التاسع، على أنها امرأته، بحسب أمر الملاك. كان لابد أن تلد في بيت لحم في اليهودية حسب أقوال الآباء والأنبياء وترقُّب حساب الربيِّين.

---

(1) Josephus, ***Antiqu.,*** **17.16.4.**

(2) E. Schürer, ***History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ,*** **vol. I, p. 410.**

(3) J.W. Shepard, ***The Christ of the Gospels,*** **pp. 29,30.**

وكان ذلك بتدبير من الله حتى يُسجَّل اسم المسيح كابن لداود في مدينة أبيه «أنه وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب.» (لو 2:11)

وكانت الرحلة شاقة بكل المقاييس: الجو شتاء وبرد فلسطين قارس، والرحلة تستغرق ثلاثة أيام سفر بلياليها، والعذراء حامل في شهرها التاسع. ومما زاد المشقَّة على الوالدة أنها بمجرَّد أن دخلوا مشارف بيت لحم وافاها المخاض، ولم يكن موضع في المدينة، فقصدوا خاناً كان مزدحماً هو الآخر، فالتجأوا إلى المغارة الملحقة بالخان وكانت مربطاً للبهائم. وهناك صدر الأمر الإلهي بأن يولَد المسيح في مذود للبقر، وأسندت الأُم ظهر مولودها على أرضية المذود بعد أن لفَّته بالخرق، حالة ميلاد لفقر مدقع!

ولم يأتِ المذود مصادفة في حياة المسيح، بل كان محصِّلة حسابات كثيرة ليس بالنسبة للزمان والمكان، فهذا أمر سهل على السماء؛ ولكن كان يتحتَّم أن يكون الاختيار مناسباً للرسالة، ومن أين تبدأ علاقتها بالإنسان؟ «وحتَم بالأوقات المعيَّنة وبحدود مسكنهم» (أع 17:26). فللمذود والصليب في حياة المسيح بالقياس اللاهوتي معنى وقيمة في أمر خلاص الإنسان كامتحان أشد ما يكون الامتحان لقدرة الإنسان على الإيمان، متخطِّياً كل ما هو معقول وغير معقول. والذي قال يوماً: «انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ... تأمَّلوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل» (مت 6: 26و28)، اهتمَّ أن يكون لميلاده هذه الصورة عينها. فالبساطة توَّجت ميلاده، والعوز والفقر كانا زينتها. فالذي تخلَّى عن مجده السماوي كان حَريًّا به أن يكون في ميلاده على مستوى اللاشيء.

لم تُعْطِنَا الأناجيل في شأن ميلاد المسيح كثيراً، لأن العوز حرم القصة من الاسترسال في شيء: «وبينما هما هناك تمَّت أيامها لتلد. فولَدَت ابنها البكر وقمَّطَته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل (اللوكاندة الريفية katalÚmati)» (لو 2: 6و7)، وبهذا الخبر أُسدل الستار على سر الميلاد المقدَّس(4).

مغارة الميلاد:

يعطينا القديس يوستين الشهيد شهادة عن ميلاد المسيح في مغارة، وهذا القديس الشهيد عاش في الجيل الأول بعد المسيح، فقد وُلِدَ سنة 100 م، واستشهد سنة 165م. ولأنه مولود في شكيم (نابلس) في السامرة، فهو مواطن فلسطيني. وقد بُنيت فوق هذه المغارة فيما بعد كنيسة الميلاد ودير عُرف

(4) A. Edersheim, *op. cit.*, vol. I, p. 185.

باسم دير مغارة الميلاد. على أنه تأتينا شهادة أخرى مبدعة من قديس آخر عالِم وخطيب وهو جيروم – إيرونيموس – الذي ترجم الإنجيل إلى اللغة اللاتينية، هذا ذهب إلى بيت لحم سنة 386م. ومكث الثلاثين سنة الأخيرة من حياته في مغارة ملاصقة لمغارة بيت لحم، عاشها صائماً مصلّياً متأمِّلاً[5]. فالمعروف والمسجَّل تاريخياً أنه عاش في بيت لحم من سنة 386م حتى توفِّيَ سنة 420م. واسمه يوسابيوس إيرونيموس المولود في ستريدو بجوار أكويلا بإيطاليا.

---

(5) Frederic W. Farrar, *The Life of Christ* (1913, repr. 1965), p. 5.

6 ـ الملاك يبشِّر الرعاة

«برج القطيع» مجدال عدار Migdal Eder

بجوار بيت لحم في الطريق إلى أُورشليم يوجد أكمة عليها برج قديم غاية القِـدَم، وفي التقليد كانت هناك نبوَّة تقول: إن من فوق مجدال عدار ستُعلَن بشارة المسيَّا (مي 4:8). كذلك مذكور في المشناه(6) أن الخراف المحيطة ببرج مجدال عدار هي الخراف التي تُربَّى بعناية خاصة لتكـون ذبـائح للهيكل، وبالتالي فإن رعاتها المنوطين بتربيتها وحراستها يكونون من المدرَّبين على شروط معاملة هذه الخراف تحت رعاية الربيِّين. على أن خراف الفصح ينبغي أن تبقى في البريـة ثلاثـين يومـاً قبـل الذبح(7). هذه البيانات تعطينا ملامح جيدة على أن ميلاد المسيح قد تعيَّن في هذا المكان من تحـت برج القطيع ـ باعتباره حمل الله الذي للفصح الأبدي! وأن استعلانه سيتم من فوق الـبرج للرعـاة الذين يحرسون قطعان غنم الفصح، وهذا ما قد تمَّ:

+ «وكان في تلك الكورة رُعاةٌ مُتَبَدِّينَ يحرسون حراسات الليل على رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفاً عظيماً. فقال لهم الملاك: لا تخافوا. فها أنا أُبشِّركم بفرحٍ عظيمٍ يكون لجميع الشعب: أنه وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داود مُخلِّـصٌ هـو المسيح الرب. وهذه لكم العلامة: تجدون طفلاً مُقمَّطاً مضجعاً في مذود. وظهر بغتةً مع المـلاك جمهورٌ من الجند السماوي مُسبحين الله وقائلين:

المجد لله في الأعالي ∴ وعلى الأرض السلام ∴ وبالناس المسرَّة.» (لو 2: 8ـ14)

ويقول العالِم اليهودي المتنصِّر إدرزهايم إن هذا النشيد من ثلاثة مقاطع في مقابل الثلاث نفخات الـتي تدوي في الهيكل من الأبواق الفضية بواسطة الكهنة إشارة إلى أن الذبيحة قد وُضِعَت على المذبح!! وهي متوازية مع منطوق البشارة المثلث: وُلِدَ لكم اليوم ∴ مخلِّص ∴ هو المسيح الرب!! وكأنه معبِّر عن نوع الحدث ومعناه ونتيجته. وهكذا عبَّر الملائكة عن مجيء الملكوت بظهور الملك(8).

وحينما انسحبت الملائكة، انطلق الرعاة إلى بيت لحم وكان الظلام حالكـاً يلـف المدينـة؛ إلاَّ

---

(6) Mishnah, shek. vii, 4.

(7) A. Edersheim, *op. cit.,* vol. I, p. 187.

(8) A. Edersheim, *op. cit.,* pp. 188 f.

مصباحاً كالنجم يضوي، وضعه أصحاب الخان على مدخل المغارة. فهداهم المصباح إلى حيث كان الصبي في المذود بحسب وصف الملاك. وقدَّم الرعاة مما رزقهم الله جبناً وزبداً مع صوف ولحم(9). ثم أخذوا يقصُّون على يوسف ـ والعذراء تسمع ـ عن بشارة الملاك وتسبيح جند السماء، وكل الذين سمعوا تعجَّبوا من كلام الرعاة، لأنه يبدو أن مجيء الرعاة أثار فضول الناس الذين تجمهروا ليسمعوا قصة فرحهم كقول الملاك.

فشاعت الأخبار في المحيط الذي يعمل فيه الرعاة في الهيكل، وبلغت الأخبار سمعان الشيخ والأُم حنَّة النبيَّة، فاستعدا لرؤياه. أمَّا مريم فقد احتفظت بهذا الكلام في قلبها.

(9) Giovanni Papini, *Life of Christ*, 1923, p. 23.

7 ـ زيارة المجوس

حكماء من المشرق يمثِّلون الأُمم:

[جاءوا على الجمال المطهَّمة المزركشة بأجمل الحليات.
حكماء قطعوا دجلة والفرات والصحراوات.
عبروا على القبائل والأسباط حتى بلغوا البحر الميت وأرض اليهودية.] بابيني(10)

كانت بشارة الرعاة، بمثابة استعلان المسيَّا لإسرائيل، أمَّا مجيء المجوس على هَدْي نجم السماء فكانت كاستعلان خاص للأُمم، هداهم النجم كما هَدَى الملاك الرعاةَ إلى حيث كان الصبي في المذود. كانوا حكماء علماء يعرفون ويشتغلون بالفلك: «**ولما وُلِدَ يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أُورشلِيم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له.**» (مت 2: 1و2)

ولكي نحدِّد زمان مجيء المجوس بالنسبة لميلاد المسيح، نتحرَّك في مسافة زمنية قليلة جداً، علماً بأننا نعلم أن هيرودس أساس هذه القصة مات بالتحقيق بعد خسوف القمر الذي كان بحسب الأرصاد الدقيقة في 12 أو 13 مارس سنة 4 ق.م، والمعروف أن المسيح وُلِدَ في 25 ديسمبر سنة 5 ق.م، أي أن الفترة الزمنية التي يمكن تحديد مجيء المجوس فيها لا تتعدَّى ثلاثة أشهر. وفي هذه الفترة يتعيَّن أن يكونوا قد جاءوا فيها وزاروا المسيح وقدَّموا هداياهم ثم انطلقوا إلى بلادهم.

ويتساءل العلماء: هل جاء هؤلاء المجوس من بلاد مادي وفارس؟ أو من بلاد بابل؟ لأن كلتا الدولتين كانتا تشتغلان بالنجوم وحساباتها ورصد الحوادث عليها. ولكن كلمة "المجوس" حسمت الأمر لأنها فارسية الأصل، وقد وجدها العلماء في كتاب هيرودوت، وتأكدوا أن المجوس إحدى القبائل في بلاد مادي وفارس، وكانوا دارسي فلك ومولعين برصد حركات النجوم وعلاقتها بالحوادث التي تجري على الأرض. وفي نفس الوقت كانوا على درجة عالية من التعبُّد ويؤمنون بالإله الواحد ويمارسون الخير والصلاح ويعفُّون عن الشر ويؤمنون بالصلاة ويعملون في الزراعة(11).

ويتفق الآباء: كليمندس وذهبي الفم وديودورس من طرسوس وكيرلس الإسكندري في أن المجوس

---

(10) Ibid., p. 24.

(11) W. Hendriksen, *Bible Survey*, pp. 59-62.

هم حكماء فارس. ويُعتقد أنه منذ سبي بابل في القرن السادس قبل الميلاد ووجود اليهود هناك؛ فقد كان لهم أكبر الأثر في تهذيب هؤلاء الفرس، وغرس أصول العبادة، ومخافة الله، والإيمان بوحدانية الله. ولا ننسى أن كثيراً من اليهود استوطنوا بلاد فارس و لم يعودوا من السبي وتزاوجوا من أهل البلاد ونشروا ثقافتهم الدينية هناك. كما استلم الفرس من اليهود ترقُّب مجيء المسيَّا ملك اليهود الذي سيخلِّص الشعب والأُمم(12).

أمَّا عدد المجوس فيقدِّرهم البعض بعدد الهدايا: ذهباً ولباناً ومُرًّا. والقصص في أمرهم كثيرة وأسماؤهم ووظائفهم، ولكن الذي استقر في التقليد أن أسماءهم: ملخيور، وبلتاصر، وكاسبار.

أين المولود ملك اليهود؟ وترصُّد هيرودس:

جاءوا وعلى شفاههم هذا الاستفسار: «أين المولود ملك اليهود» مما أثار حركة سواء في قلوب اليهود أو قلب هيرودس الملك الأدومي المعيَّن بالقوة على اليهود مِنْ قِبَل روما، والذي يخشى أي غريم له وإلاَّ يكون قد قُضِي على ملكه هو وأولاده من بعده، إن كان هذا حقًّا ملكاً لليهود!

هذا كان هدف المجوس من رحلتهم الشاقة التي استغرقت ما لا يقل عن ثلاثة أشهر ليعبروا مناطق شاسعة في الشرق حتى يصلوا إلى بيت لحم، وقد غمرهم الفرح عندما سمعوا من شيوخ إسرائيل والربيِّين أن الملك الذي سيظهر سيُولَد في بيت لحم وهي قريبة من أُورشليم. إذن، فقد تحقَّق صدق دعواهم وحساباتهم وظهور نجمهم.

أمَّا النجم فيقول العلماء إنه نجم حقيقي وليس كوكباً، وضوؤه ذو لمعان فريد بين النجوم، ولكن معروف ضمناً لدى الفلكيين أن كوكب جوبتر (برجيس) وهو إله الرومان يرافق ظهوره ميلاد الملوك. فإذا اجتمع جوبتر مع ساتورن (زُحَل) في برج السمكة ظهر شبه مذنَّب له ذيل شديد اللمعان يقترب كثيراً من الأرض وهو يشير عند المنجِّمين إلى تحقيق رجاء عالمي. ويمكن رؤيته بالعين المجرَّدة، ولكن المدهش والجديد علينا قولهم إنه يمكن رصده بالقلب إذ يوجد علاقة وجدانية في الإنسان مع هذا النجم، لذلك يمكن أن يتحرَّك الإنسان وفق حركة ظاهرية للنجم. ويؤكِّد أصحاب هذا العلم أن المنجِّم الموهوب لا يُضلَّل. وكل ما أُوحِيَ للمجوس أن هذا النجم له صلة بميلاد ملك اليهود لأنه رجاء عالمي وملوكيته تشملهم، أمَّا قولهم رأينا نجمه في المشرق فيعني أنهم رصدوا شروقه.

وليس لنا أن نقول في ذلك شيئاً إلاَّ أن الله ألهمهم بواسطة علمهم بهذه الحركة الفريدة من

(12) W. Hendriksen, *Exposition of the Gospel According to Matthew,* p. 151.

نوعها والتي صارت مؤكَّدة وصَدُق حدسُها عندهم، كما يقول بهذا ذهبي الفم(13).

ونرى أن هذا كان تدبيراً من الله ليكونوا شهوداً على خيبة أمل اليهود الذين لهم معرفة الأزمان والمواعيد المحدَّدة بواسطة الأنبياء مثل دانيال الذي حسبها بالأسبوع!

وهذا النجم له علاقة ما بنبوَّة بلعام بن بعور، وهو أيضاً منجِّم تنبَّأ وقد تكلَّم عن هذا النجم، ولكنه سمَّاه كوكباً، ذلك قبل المجوس بألف وخمسمائة سنة، وكان كلامه نطقاً مباشراً من الله كنبوَّة صادقة أُخذت رسمياً أنها تشير إلى المسيَّا ملك اليهود الآتي. وبلعام نبي من بين النهرين من أرام بلد إبراهيم من جبل المشرق، هذا لمَّا استأجره بالاق عدو اليهود لكي يلعن له اليهود الذين اصطفوا لمحاربته، وافاه الملاك في الطريق وقال له: «**إنما تتكلَّم بالكلام الذي أُكلِّمك به فقط**» (عد 35:22)، فوضع الرب كلاماً في فم بلعام (عد 38:22). فلمَّا راوده بالاق ملك موآب ليلعن إسرائيل ردَّ عليه: «من أرام أتى بي بالاق ملك موآب من جبل المشرق، تعال العن لي يعقوب وهلم اشتم إسرائيل. كيف ألعن مَنْ لم يلعنه الله؟ وكيف أشتم مَنْ لم يشتمه الرب؟ ... لتمت نفسي موت الأبرار ولتكن آخرتي كآخرتهم» (عد 23: 7-10)، «فأجاب وقال أمَّا الذي يضعه الله في فمي أحترص أن أتكلَّم به» (عد 12:23)، «ولو أعطاني بالاق ملء بيته فضة وذهباً لا أقدر أن أتجاوز قول الرب لأعمل خيراً أو شرًّا من نفسي، الذي يتكلَّمه الرب إيَّاه أتكلَّم.» (عد 13:24)

ثم أخذ بلعام ينطق نبوَّة تُحسب أنها أقوى وأوَّل نبوَّة قيلت عن المسيح وعن نجمه من فم هذا النبي الأُمي: «وحي بلعام بن بعور، وحي الرجل المفتوح العينين، وحي الذي يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلي، الذي يرى رؤيا القدير ساقطاً وهو مكشوف العينين: أراه ولكن ليس الآن، أُبصره ولكن ليس قريباً (أكثر من 1400 سنة فرق زمن) يَبْرُزُ (يُشرق) كوكبٌ من يعقوب ويقوم قضيبٌ (ملك) من إسرائيل فيحطِّم طرفي موآب ويهلك كل بني الوغَى.» (عد 24: 15-17)

وهكذا وبناءً على نبوَّة بلعام، يكون نجم المجوس حقيقة وتصديقاً لنبوَّة سابقة من فم الله نفسه على لسان نبي أُمي. والمجوس وبلعام من بلد واحد وزملاء مهنة واحدة ورؤيا واحدة مشتركة. بلعام رأى والمجوس طبَّقوا الرؤيا على الواقع. وهكذا حقَّق المجوس ما رآه جدُّهم بلعام منذ 1400 سنة، وواضح أن الله هو المتكلِّم رسمياً مع الأول، فيكون من الإنصاف أن يكون الله أيضاً هو الذي هدى المجوس بواسطة النجم. وهكذا اشترك الأُمم في فرحة المجيء للمسيَّا وقدَّموا له هداياهم.

---

(13) Chrysost. *On St. Matthew, Hom.* 6,14, N.P.N.F, 1st ser, vol. X, p. 38.

8 ـ هيرودس يتحرَّك ليقتل المسيح

[لقد فدى أطفالُ بيت لحم فادي البشرية،
وقدَّموا دماءهم شركة في دم الصليب.] بابيني

كانت العلاقات بين هيرودس واليهود مضطربة، وكانت له عيون وآذان تتسمَّع وتتلصَّص على أخبار الشعب وأعماله. وأخيراً وصلت أخبار هؤلاء المجوس، وأثاره موضوع ''ميلاد ملك الملوك''، فجمع رؤساء الكهنة وسألهم: أين يُولَد المسيح؟ فأخبروه أنه يكون في بيت لحم بحسب نبوَّة ميخا: «أمَّا أنت يا بيت لحم إفراتة وأنت صغيرةٌ أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلِّطاً على إسرائيل» (مي 2:5). «حينئذ دعا هيرودس المجوس سرًّا وتحقَّق منهم زمان النجم الذي ظهر» (مت 7:2). وطبعاً من سؤاله الخبيث يُفهم أنه أراد أن يعرف زمان ميلاد الصبي ليخطِّط لقتله والأطفال الذين في حدود هذا السن. ولكن بمجرَّد أن تحرَّك الشرير تحرَّكت السماء وأُرسل الملاك ليوسف في الحلم: «قُم وخُذ الصبي وأُمه واهرب إلى مصر.» (مت 13:2)

وأرسل هيرودس المجوس في طريقهم على أن يعودوا ويخبروه متى وجدوه ليذهب هو أيضاً ويسجد له. ولمَّا أَخَلُّوا بوعدهم ورجعوا من طريق أخرى بحسب إرشاد الله لهم، جُنَّ جنون الملك وأرسل وذبح أطفال بيت لحم وما حواليها من ابن سنتين فما دون. ولكن لئلاَّ يدخل الشك قلب القارئ نعطيه وصفاً لأخلاق هيرودس الملك ومنه يستطيع أن يتأكَّد أنه قتَّال. والكلام للعالِم فارار صاحب كتاب حياة المسيح:

[لقد اصطبغت أيام حُكمه بدم القتلى، لقد ذبح كهنة ونبلاء، وأفنى السنهدرين وتسبَّب في إغراق كبير الكهنة والنبيل أرسطوبولس، وأمر بخنق زوجته الحشمونية المحبوبة الأميرة الجميلة مريمن مع أنها كانت أحب الناس إليه، وقتل أولاده إسكندر وأرسطوبولس وأنتيباتر، وعمَّه يوسف، وعم زوجته أنتيجونس وأبوها إسكندر، وحماته إسكندرة وقريبه كورتوبانس. وقد نجا ابنه أرخيلاوس من الموت الذي دبَّره له أبوه بأعجوبة. وامتاز هذا السفَّاح بالخنق، وتمزيق الجسد نصفين، والقتل الخفي، وانتزاع الاعترافات بالتعذيب، وموبقات أخلاقية أخرى يعفُّ عنها القلم.](14)

---

(14) Frederic W. Farrar, *The Life of Christ,* 1913, repr. 1965, p. 20.

9 ـ الهروب إلى مصر

مصر تؤدِّي واجب الضيافة (مت 2: 13–15):

[في غسق الليل تسلَّلت العذراء حاملة يسوع ومعه حملت رجاءها في قلبها لعودة سريعة. فأشرقت الشمس عليها وهي على حدود مصر.] (بابيني)(15)

لم تكن مصر غريبة عن اليهودي، فهي الوطن الثاني بعد فلسطين؛ إذ أقاموا فيها إقامة دائمة دامت 400 سنة.

[المسيح ابن ثماني سنوات يتكلَّم: يسوع: أماه! أنا أتذكَّر جيداً كل ما كان يعمله موسى وحتى المكان الذي وُلِدَ فيه والصحراء التي تغرَّب فيها! مريم ترد: يا ابني لم تبلغ الثامنة من عمرك كيف تتذكَّر هذه وهي منذ آلاف السنين؟ يسوع: أواه، أنا أتذكَّر حجارة مصر الكبيرة كالجبال المخروطة (الأهرام) وهي تلقي بظلها الكبير على الأرض، فوق الرمال. وأتذكَّر النهر الواسع الساكن، لقد عبرناه يا أمَّاه في قارب بثلاثة أشرعة بيضاء، هُناك وُلِدَ موسى. ورأيت الصحراء التي سار فيها مع شعبنا إسرائيل وأمضوا فيها أربعين سنة. أنا لم أنسَ شيئاً من هذا.] (تأمُّل للكاتب أوتوهمفري)(16)

لقد كانت وظلَّت مصر حلم اليهود، وكان في مصر جالية يهودية كبيرة يقول عنها فيلو الفيلسوف اليهودي إن هذه الجالية سنة 40م كانت تقدَّر بنحو مليون يهودي. وكانوا متمركزين في بابليون (مصر القديمة) والإسكندرية وصعيد مصر.

فقام يوسف وأخذ الصبي وأُمه ونزل إلى مصر. ولا شك أن الذهب الذي أعطاه المجوس غطَّى مصاريف الرحلة والإقامة في مصر. وكانت الطرق التي عبَّدها الإسكندر الأكبر وأقام فيها نقط حراسة وعلامات الطريق قد أعطت أمناً وسلاماً وراحة للمسافرين. وقد وصف المؤرِّخون المواضع التي أقام فيها المسيح في مصر وأهمها المطرية بالقاهرة بجوار المدينة العتيقة القديمة التي كان اسمها ليونتوبوليس، وقد ذكرها العالِمان الألمانيان باولس وشوبيرت(17).

---

(15) G. Papini, *op. cit.*, p. 30.

(16) Otho Fairfield Humphrey, *The Unknown Years of Jesus*, p. 20.

(17) Paulus & Schubert, cited by H.A.W. Meyer, *Gospel of Matthew*, p. 65.

أمَّا في تقليد الكنيسة القبطية فيذكر التقليد أنها أقامت في مصر القديمة موضع كنيسة "أبو سرجة" الآن في المغارة التي أسفلها وهي مزار عالمي. وعاشت في بابليون مصر العتيقة، ونزلت إلى قسقام وأسيوط وجبل الطير في الطريق. ولقد تباركت ديار مصر جميعها بنزول المخلِّص هارباً من وجه الغاضب؛ كما هرب يوسف من غضب إخوته، فكان أن أحيا مصر والبلاد المجاورة بمخازن القمح. وهكذا نزل المسيح، وهو خبز الحياة، ليُحفَظ قليلاً من أجل حياة كل العالم.

وما كان دعاء داود عن الكرمة والابن الذي أخذه من مصر وهو يكلِّم الله، سوى دعاء توصية لحفظ الابن: «كرمةً مِنْ مصر نقلتَ (شعب إسرائيل) ... يا إله الجنود ارجعَنَّ، اطَّلع من السماء وانظر وتعهَّد هذه الكرمة، والغرسَ الذي غرسته يمينُكَ والابن الذي اخترته لنفسِكَ» (مز 80: 8و14و15). ولكن المسيح كشف سر الكرمة والابن معاً فإذا هو هو المخلِّص!!

«وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني» (مت 2:15). هذه النبوَّة قالها هوشع النبي متَّخذاً من دعوة إسرائيل للخروج من مصر تعبيراً مسيَّانياً لدعوة المسيح الابن الوحيد من مصر. وأصل الآية جميل: «لَمَّا كان إسرائيل غلاماً أحببته، ومن مصر دعوت ابني» (هو 11:1). وهنا يزيد الانطباق جداً، فهوشع هنا غير مشغول بالتاريخ، ولكن النبوَّة مسلَّطة على شخص الابن وهو صغير.

و لم تَدُمْ إقامة المسيح في مصر كثيراً بعكس كل الظنون، لأن هيروس مات بعد ذلك بقليل.

الفصل الرابع
الاستعداد لبدء الخدمة العلنية
10 ـ العودة إلى إسرائيل

جاء الصوت الإلهي ليوسف في الحلم أيضاً: «فلما مات هيرودس، إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً: قُم وخذ الصبي وأُمه واذهب إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي. فقام وأخذ الصبي وأُمه وجاء إلى أرض إسرائيل. ولكن لَمَّا سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضاً عن هيرودس أبيه، خاف أن يذهب إلى هناك. وإذ أُوحي إليه في حلمٍ، انصرف إلى نواحي الجليل. وأتى وسكن في مدينة يُقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل بالأنبياء: إنه سيُدعى ناصريًّا» (مت 2: 19ـ23)، وهي المدينة التي كانت تعيش فيها مريم قبل رحلة الاكتتاب.

أمَّا قول ق. متى: ''إنه سيُدعى ناصريًّا''. فذلك لأن ''ناصريًّا'' أتت من اسم الناصرة، والناصرة أصلها ''نسر أو نتسر'' وهو الغصن الذي يخرج من الجذر وهو عديم النفع والإثمار. فالنبوَّات جاءت على اسم ''الغصن''، والآية: «ويخرج قضيب من جذع يسَّى (أي ملك) وينبت **غصن من أصوله**» (إش 11: 1). فكلمة غصن هي التي فُهمت ضمناً أنها ناصري: «عبدي الغصن» (زك 3: 8). والقصد من ذلك هو تحقير لمدينة الناصرة، ومن هنا جاء المثل: «أَمِنَ الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟» (يو 1: 46)

على أنه لا ينبغي أن يفوت علينا التطابق بين هروب موسى من وجه فرعون، ثم العودة بصوت الرب أن: «ارجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» (خر 4: 19)؛ وبين هروب المسيح من هيرودس والعودة بالصوت الإلهي: «قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي» (مت 2: 20)، وهذا التطابق مقصود إذ حُسب فيه أن المسيح هو موسى الجديد(1). كذلك أنه هو ''إسرائيل الجديد'' بمقتضى نزول شعب إسرائيل للتغرُّب في مصر من جراء الجوع الذي

---

(1) انظر مقالة ''الهروب إلى مصر'' في كتاب: ''أعياد الظهور الإلهي'' طبعة 1992 صفحة 317-326.

أصاب أرض إسرائيل الذي حُسب كنبوَّة لنزول المسيح إلى أرض مصر للتغرُّب من جراء الضائقة.

لماذا الجليل؟ ولماذا الناصرة؟

بكل قياسات السماء لمساحات الأرض اختير الجليل ليكون وطناً للمسيح، ومن كل الجليل اختيرت الناصرة. وكان هذا الاختيار الإلهي تحدِّياً صارخاً للفكر الأكاديمي الربَّاني. فكون المسيَّا الآتي يُنسب إلى الجليل والناصرة فهذا أمر مرعب لكل الربيِّين وعلماء اليهود، فالمسيَّا عندهم هو قمة الحكمة العالية، أمَّا الجليل وربيبته الناصرة فقمة الجهل والجهالة. فالجليل منجَّس بوجود الأُمم الغلف، ومن الناصرة لا يخرج شيء صالح ـ «أجابوا وقالوا له: ألعلَّك أنت أيضاً من الجليل فتِّش وانظر إنه لم يقم نبي من الجليل.» (يو 52:7)

ولكن هي إرادة التعيين الإلهي لكي يصنع من الجليل والناصرة عثرة كعثرة المذود والصليب حتى مَنْ أراد أن يخلُص يتحتَّم عليه أن يتخطَّى هذه العثرات: «ها أنا أضع في صهيون حجر صدمة وصخرة عثرة، وكل مَنْ يؤمن به لا يخزى» (رو 33:9). وهذا قول ق. بولس الذي أخذه من إشعياء حيث تتضح الآية بقوة: «ويكون مَقْدساً وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتي إسرائيل ... وفخاً وشركاً لسكان أُورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون» (إش 8: 14و15)، «هأنذا أُؤسِّس في صهيون حجراً، حجر امتحان، حجر زاوية كريماً أساساً مؤسَّساً مَنْ آمن لا يهرب.»(إش 16:28)

الآن يتأكَّد القارئ أن إرسال الملاك جبرائيل إلى الجليل وإلى الناصرة بالذات في أدنى البلاد هو جزء لا يتجزَّأ من لاهوت الخلاص الداخل في سيرة المسيح وحياته.

الجليل:

كلمة "**الجليل**" تفيد "الدائرة". وكان الجليل في ذلك الوقت مركز اتصالات بين الأُمم المجاورة، وهو مليء برعايا من هذه الأُمم، لذلك سُمِّيَ جليل الأُمم، علماً بأن كل ما هو أُممي منجَّس عند اليهودي. والجليل تخترقه طرق القوافل للتجارة، وهو نفسه مركز تجاري، ولكن أرضه خصبة تغطِّي الزراعة كل مساحاته، وشعبه زراعي نشط.

وباتجاه الشمال في الأفق البعيد يُرى جبل حرمون كعملاق يغطِّي الأفق تعلوه الثلوج تتلألأ كتيجان من ذهب، وفي الأفق المقابل تجاه الغرب يُرى جبل الكرمل القرمزي الداكن، ومن بعيد وبين ثناياه يُلمح البحر الأبيض يلمع كالفضة. وأمَّا من جهة الجنوب الشرقي فتظهر قمم جبل تابور

بغاباته الكثيفة الداكنة وحوله طرق معبَّدة تمر فيها القوافل يصحبها أقوام المناطق المجاورة بأرديتهم التي تحكي عن أجناسهم.

الناصرة:

أمَّا **الناصرة** فتقع على صدر تل، وفي شمالها الغربي عين ماء تتدفَّق بانتظام، وحولها يتجمَّع الأهالي ويستريح المسافرون، وتصطف حولها البيوت بأسطحها المكشوفة وحدائقها الصغيرة المليئة بأشجار التين والزيتون والنخيل والرمّان والبرتقال والعنب بروائحها المنعشة، وزهورها وأطيارها تملأ الجو بهجة بأشكالها وألوانها الزاهية، والحقول حولها مليئة بزراعاتها.

والناصرة وإن كانت فقيرة في شعبها ولكنها غنية بطبيعتها، ويخترقها أحد الطرق الثلاثة المعبَّدة التي تسير فيها القوافل ليلاً نهاراً بلا انقطاع من عَكَّا على الساحل إلى دمشق في الأعماق عبر البحيرة(2).

[كانت دائماً تعتبر مدينة وكان تعدادها قديماً بحسب يوسيفوس المؤرِّخ حوالي 20.000 مواطناً، ولكن الآن بحسب دائرة المعارف البريطانية حوالي 10.000. والمرجَّح أنها كانت مدينة ذات حكومة داخلية وعلائق تجارية، وهي الآن لا تزيد عن قرية صغيرة. وبقايا الأعمدة الرخامية وألواح الرخام المحطَّم توضِّح مقدار علو شأن المدينة في السابق. وكانت ذات مجمع متميِّز وشعب يعتز بأصوله، زراعي متمرِّس غنيّ بملكياته الزراعية وحقوله المثمرة.](3)

ويصف العلاَّمة اليهودي المتنصِّر إدرزهايم الناصرة هكذا:

[مدينة صغيرة تقع على منحدرات تلال الجليل الأسفل عند الحدود الشمالية لأرض زبولون. ترقد عند مدخل سهل خصيب، بيوتها حجرية بيضاء، كحمامة مُخبَّأة بين الصخور، تشتهر بشوارعها الضيقة. وإذا تسلَّقنا التل الذي تقع في منحدره ينكشف أمامنا منظر الجليل بأرضه الخضراء الخصبة وزهوره ذات الألوان الزاهية ومناظره الطبيعية الخلاَّبة. أمَّا أطفالهم كما يصفهم السائحون فوجوههم وردية وعيونهم زرقاء وجمالهم ملفت للنظر. فلا عجب أن نرى صورة العذراء تبدو بنفس الجمال ويسوع على صدرها يحمل نفس السمات.](4)

---

(2) Herzog Encycl., vol. XV, pp. 160 f.

(3) Rev. Arthur C. Headlam, *The Life and Teaching of Jesus the Christ,* 1923, repr. 1936, pp. 99 f.

(4) A. Edersheim, *op. cit.,* pp. 146 f.

ويصف فارار في كتابه ''حياة المسيح'' الناصرة كشاهد عيان:

[الطريق المؤدِّي إلى الناصرة أخدود ضيِّق وعميق منمَّق بالحشائش والأزهار ومناظره ليست فخمة ولكن جمالها جذَّاب، ويتفرَّع الممر يميناً إلى سهل منبسط عرضه حوالي الربع ميل، مقسَّم إلى حقول صغيرة وحدائق ممتدة ملآنة بالتين الشوكي التي إذا أصابها الغيث في الربيع صارت ذات منظر أخضر لا يوصف جماله بهدوئه. وإلى جانب الممر الضيق توجد عينا ماء متقاربتان، والسيدات اللواتي يستقين الماء منها أكثر جمالاً مما يصادف الإنسان المسافر في أي مكان آخر. وكذلك الأولاد الذين يلعبون بجوار العين، حمر الوجوه عيونهم صافية بملابسهم الشرقية البهجة الألوان، وهم أذكى وأجرأ وأسعد من غيرهم.

ثم ينفرج السهل المنبسط رويداً رويداً وينتهي إلى مدرَّج طبيعي من التلال يعلوه تل يرتفع نحو 500 قدماً تقع على سفحه مدينة الناصرة كعش نسر على جبل، شوارعها ضيقة بها كنيسة صغيرة ودير شامخ البناء، بيوتها بُنيت بالحجر الأبيض تتخلَّلها حدائق من أشجار التين والزيتون وزهر البرتقال العطري ونوَّار الرمَّان الأحمر القاني، وبها نافورة طبيعية غزيرة المياه، ويظهر المكان سِيَّما في الربيع مبهجاً. وهنا قضى المسيح زهاء ثلاثين عاماً من حياته على الأرض.](5)

ويعطينا العالِم الألماني كلاوزنر في كتابه ''حياة المسيح'' وصفاً بديعاً للناصرة:

[المنظر الذي ينكشف للرائي على تلال الناصرة الآن يعتبر كأجمل مناظر فلسطين عامة، فناحية الغرب تلال منخفضة تترامى تباعاً حتى شاطئ البحر الأبيض الذي زرقة مياهه تتحوَّل إلى فضة مصهورة تحت أشعة الشمس. وفي الجنوب سهل يزرعيل الخصب يحدِّده سلسلة جبال عارية على سفوحها خضرة داكنة تُرى كأنها بحار من الزراعات والأشجار. ويرتفع فوق السهل تلال موره حيث مواقع حروب جدعون قائد إسرائيل جبَّار البأس، وجبال جلبوع حيث وقع شاول صريعاً كغزال مذبوح. ونحو الشرق جبل تابور المستدير تكسوه خضرة الغابات الكثيفة. ونحو الجنوب الغربي جبل الكرمل المكتث أو المكتظ بالأشجار العالية والمنحدرة حتى شاطئ البحر. ونحو الشرق البعيد عبر وادي الأُردن تظهر جبال جلعاد ذات البلسان تتخلَّلها خطوط عميقة من صنع رياح الصحراء الجافة. وناحية الشمال جبال نفتالي المتاخمة للجليل الأعلى، وعلى الأفق البعيد شماليها قمم جبال حرمون

---

(5) **Frederic W. Farrar, *The Life of Christ*, vol. I, pp. 24 f.**

تكسوها الثلوج تلمع وكأنها تيجان من ذهب. وبعدها تظهر قمم جبال لبنان الشاهقة. هذه هي المناظر الجميلة التي اكتحلت بها عينا المسيح منذ كان يحبو حتى بلغ الثلاثين يتأمَّل ويسترجع تاريخ البلاد والرجال ومعاملات الله مع الإنسان. ونحن نعلم كيف كان يمضي المسيح الليالي في الجبال منفرداً يصلِّي.](6)

أمَّا إشعياء النبي فيعطينا وصفه النبوي عن الجليل وكيف انقشعت ظلمته السادرة وكأنها عتمة الليل أصابها فجر مضيء:

+ «ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق،
كما أهان الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالي،
يكرم الأخير طريق البحر عبر الأُردن جليل الأُمم!
الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً،
الجالسون في أرض ظلال الموت، أشرق عليهم نور.» (إش 9: 1و2)

ثم بسرعة يكشف إشعياء الستار ويظهر ولد صغير كان هو النور الذي يضيء لكل إنسان:

+ «لأنه يولد ∴ ونعطى ابناً ∴ وتكون الرياسة على كتفه،
لنا ولد ∴ مشيراً إلهاً قديراً ∴ أباً أبديًّا رئيس
ويُدعى اسمه ∴ على كرسي داود وعلى مملكته ∴ السلام،
عجيباً ∴ غيرة رب الجنود تصنع هذا!» ليثبِّتها ويَعْضُدها بالحق والبر،
لنمو رياسته وللسلام لا نهاية
من الآن إلى
الأبد
(إش **9**: **6**و**7**)

ولا يستطيع الإنسان أن يتمالك نفسه من قوة هذه التعبيرات لهذه الرؤية النافذة خلال أحقاب الزمن السحيق لتكشف وتفرِّق بين الظلمة والنور ـ يعطى الجليل كرامة ترتفع إلى عنان السماء، والنور الذي انفجر فيها حوَّلها إلى لآلئ. وفي النهاية يُرفع الستار ويُستعلن المولود ابناً للإنسان وهو إله بآنٍ!

كان المسيح يقرأ هذه التعبيرات فيلتهب قلبه! لأنه كان يرى في ثناياها الصليب!

---

(6) J. Klausner, *Jesus of Nazareth*, 1926, p. 236.

11 ـ فتى الناصرة حتى الثلاثين

سؤال يملأ وجدان كل مَنْ ارتبط بالمسيح بالمحبة: ماذا كانت أيام صبوته الأُولى وشبابه الغض ورجولته اليافعة؟ لأنه منذ أن كان وهو في الثانية عشرة، عندما قصَّ علينا ق. لوقا زيارة العائلة والمسيح معهم إلى أُورشليم في عيد الفصح، لم نسمع عنه شيئاً ...

في سنِّ الثانية عشرة:

+ «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أُورشليم في عيد الفصح. ولمَّا كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أُورشليم كعادة العيد. وبعدما أكملوا الأيام بَقيَ عند رجوعهما الصبي يسوع في أُورشليم، ويوسف وأُمُّه لم يعلما. وإذْ ظنَّاه بين الرفقة، ذهبا مسيرة يومٍ، وكانا يطلُبانه. وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل، جالساً في وسط المعلِّمين، يسمعهم ويسألهم. وكُلُّ الذين سَمِعوه بُهتوا من فهمه وأجوبته. فلمَّا أبصراه اندهشا. وقالت له أُمُّه: يا بُنَيَّ، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوكَ وأنا كُنَّا نطلبك معذَّبَين! فقال لهما: لماذا كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟ فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما. ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما.» (لو 2: 41ـ51)

اندهشا من كلامه واندهش هو من كلامهما، كيف يطلبانه في غير ما هو لأبيه؟ وكيف تقول أُمه أن أباه كان يطلبه معذَّباً، وهو جالس مع أبيه الوحيد الذي له؟ «ينبغي أن أكون في ما لأبي»

معروف في طقس تربية الأولاد عند اليهود أنه بمجرَّد أن يبلغ الصبي اثنتي عشرة سنة من عمره، يجوز اختباراً ويُقدَّم في الهيكل لكي يأخذ لقب "ابن التوراة" ويدخل كعضو عامل في الشعب اليهودي، وعليه بعد ذلك أن يحضر ثلاثة أعياد سنوياً في أُورشليم (خر 34: 22و23). والمسيح قدَّموه هكذا في الهيكل للشيوخ والمعلِّمين في الهيكل لينال بركات الصلوات التكريسية(7) .

أمَّا نحن فيكفينا هذه الحادثة الهامة جداً، فهي بالنسبة لسؤالنا عن حياة المسيح منذ كان في هذا السن ـ الاثنتي عشرة ـ حتى سن الثلاثين. إذ واضح جداً، ومن تقرير المسيح نفسه عن مبدأ عمله وحياته أنها كانت فيما لأبيه. فالذي جلس بين المعلِّمين يسمع ويسأل، أي يحاور ويُعلِّم، كان له

(7) J.W. Shepard, *op. cit.*, p. 51.

ولابد معرفة تؤهِّله لهذا الموقف وهو ابن اثنتي عشرة سنة. هذا يكشف لنا عن حياة بدأت جادة في دراسة التوراة والأنبياء والمزامير، ربما في السنين الأُولى على يد الأسرة ثم مجمع القرية، ولكن بعد ذلك كان تعليم المسيح بالاجتهاد الشخصي مع تلقين الروح. فللمسيح وعي مفتوح على الآب ينمو ويتدرَّج في النمو وبقدر ما يتسع للمعرفة تُزيده المعرفة اتساعاً، ولم يكن للمسيح إلاَّ التركيز على الاستيعاب بقدر ما تتدفَّق المعرفة في قلبه المفتوح، فكان كمَن يقرأ في كتاب. والمسيح لمَّا كان يتكلَّم لم يكن يتكلَّم كمَنْ يأخذ من مستوى أعلى بل كمَن ينفتح وعيه ليتسلَّم ما هو لائق وعلى مستوى وعيه. ولا ينبغي أن ننسى أن المسيح هو ''كلمة الله''، بمعنى أنه كان القوة الإلهية الواعية والناطقة، ونطقها فاعل. فالكلمة هي كلمة وفعل بآن واحد. فالجسد كان يرتفع جاهداً ليكون على مستوى ما للمسيح من وعي لا نهائي، الذي كان يعبِّر عنه أنه ليس من نفسه كان يتكلَّم بل كما يسمع كان يتكلَّم. وكما يرى يفعل! وعبَّر عنها لاهوتياً بقوله: «كل ما للآب هو لي» (يو 15:16)، «ليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن» (مت 27:11). فمعرفة الآب والابن واحدة، لأن الآب والابن هما واحد. فَصِلة المسيح السرِّية بالآب هي سر معرفته الكليَّة الكاملة.

بهذا نُدرك أن المسيح لم يتعلَّم: «فتعجَّب اليهود قائلين: كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلَّم؟» (يو 15:7). والقصد من أنه لم يتعلَّم أي لم يسلك سلوك الربيِّين في الجلوس تحت أقدام المعلِّمين الكبار حتى ينقل ما عندهم من معرفة. فالمسيح لم يلتحق قط برابٍّ أو فرِّيسيٍّ ليتعلَّم، بل كانت معرفته من الآب وحده. فكانت السنين التي انقضت كلها قبل ظهوره محاولة هادئة لبلوغ هذا المستوى في الوعي بأن كل ما للآب هو له، إنْ في المشيئة أو المعرفة أو العمل. فطابق الكلمة الأزلي الابن المتجسِّد تماماً، حتى صار «أنا والآب واحد» (يو 30:10). وقد انطبعت التوراة على قلبه وفكره، والتاريخ والآباء والأنبياء والماضي السحيق أصبح عنده صفحة مقروءة، حتى أكمل كل ما أعطاه الآب ليكمِّله: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو 4:17)، «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني.» (يو 16:7)

وهكذا لا نعتقد أن السنين الطويلة التي قضاها المسيح في حياته بالناصرة بين الثانية عشرة والثلاثين، والتي حُجبت عنَّا تماماً، أنها انقضت دون حركة داخلية ودون امتداد بالمعارف التي أبداها وهو صبي. فلابد أن هذه السنين الطوال، والتي هي زهرة العمر في المعرفة والاستيعاب وانفتاح الوعي على الواقع المحيط وما فوق الواقع وما فوق الطبيعة؛ كانت له مدرسة كمدرسة الأنبياء،

حيث المعلِّم الوحيد هو روح الله ليعطيه ما يؤهِّله أن يكون المعلِّم المتميِّز فوق كل علم ومعلِّم لإسرائيل. فالمسيح لم يتعيَّن أن يكون نبيًّا ليأخذ من الروح ما يكفيه بل هو الابن الوحيد المحبوب، وعلمه لابد أن يبلغ علم الآب في كل شيء. فالذي جاء ليكمِّل الناموس حتماً يكون أعلى ممَّنْ وضع الناموس: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء ... أمَّا أنا فأقول لكم» (مت 21:5و22)، «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو 8:8)، وهنا أعظم من موسى وأعظم من الهيكل (مت 6:12)!! إذن، فنحن حقًّا وبكل يقين أمام الابن الوحيد الذي أخذ شكل العبد، فعلينا ألاَّ نتوه في الشكل أو نظن فيه مظنَّة العبيد.

فبقدر ضخامة المهمَّة العظمى التي ألقاها الله أبوه عليه، لكي يكون نوراً للعالم، ومعطي الحياة الأبدية، وفادياً ومخلِّصاً، ورافعاً خطية الإنسان، ومُبطلاً للموت؛ لابد أن يكون قد بلغ فيها جميعاً حدَّ الألف والياء، الأول والآخر معاً، البداية والنهاية جميعاً! أي يكون ختام معارف الإنسان والسموات معاً، وأقصى ما بلغه الآباء والأنبياء وكل صاحب سلطان: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت 18:28)؛ ليصلح أن يكون ديَّاناً للأحياء والأموات، وكاسر شوكة الموت، وساحق رأس الحية، ورافعاً الإنسان من تراب الأرض الذي منه أُخذ ليحضره إلى حضرة الآب التي منها نزل. فلم يكن ميلاده العذري (من العذراء) من الروح القدس إلاَّ توطئة للبلوغ بالإنسان إلى مستوى الطهارة الكلِّية والقداسة التي بها يرى الإنسان الله من جديد، والتي تليق بالشركة في الحياة الأبدية مع الآب والابن جميعاً. فميلاده العذري من الروح القدس بلا أب كان القاعدة الضخمة التي انطلق منها ليصنع خلقة جديدة للإنسان من لحمه ومن عظامه ليؤهِّله لشركة المجد مع الله.

وظهور جمهور جند السموات يسبِّحون لحظة ميلاده، ويعطون المجد لله في السماء، والسلام على أرض اللعنة والشقاء، والسرور بين الناس الذين هدَّهم الحزن وسحقهم الحرمان؛ إنما كانوا ليكشفوا ويُعلنوا ويبتهجوا بسر هذا الميلاد السمائي الذي لهم فيه مدخل وبشارة، والذي به ضمنوا للإنسان شركة معهم ـ ملائكية ـ في خدمة الآب السماوي. وبنشيدهم وهتافهم أُعلن انفتاح ملكوت السموات ليغشاه الإنسان، لا كعبد بعد ولا كضيف زائر، بل كوريث مع المسيح في كل ما لله: «أمَّا قدِّيسو العَليِّ فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين ... والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماءِ تُعطى لشعب قدِّيسي العَليِّ. ملكوته ملكوت أبدي، وجميع السلاطين إيَّاه يعبدون ويطيعون.» (دا 7: 18و27)

فمنذ ميلاد المسيح، والمسيح يستجمع في ذاته كل ما يؤهِّل الإنسان في شخصه ليقف بالنهاية أمام أبيه بلا لوم في المحبة لمدح مجد نعمته التي أنعم بها لنا في المحبوب يسوع! ويرث فيه كل ما للآب. والآن على الإنسان وكل عالِم ومتعلِّم أن يقيس بكل قياس النعمة والروح والبصيرة المفتوحة ماذا كان يعوز المسيح لكي يتمِّم هذا ويبلغ بالإنسان الخاطئ إلى هذا القدر الفائق؟!

هكذا لَّما بلغ المسيح سن الثلاثين (وهي السن الرسمية التي يدخل فيها اللاوي للخدمة)، كان على أتم استعداد للقيام بهذه المهمة المستحيلة!!

فلمَّا بلغ الإحساس بالرسالة في قلب المسيح أقصاه، وشعر بالدعوة وقد ضغطت على فكره وثقَّلت على قلبه، وفرض الصوت الداخلي نفسه؛ سار الهُوَيْنا يحدوه الفكر العميق أنه قد جاء ملء الزمان، وقد حطَّت الملائكة على كتفيه نير الجهاد المقدَّس. فبخطوات ثابتة اتَّجه نحو بيت عبرة، حيث كان المعمدان يعمِّد!

12 ـ ما قبل ظهور المعمدان والمسيح

[كان السكوت بين البشارة بميلاد المسيح وظهور المسيح للخدمة، ثلاثين سنة، هذا تدبير إلهي تسجَّل في الإنجيل، وكان يوحي بأشد ما يكون الإيحاء أن ما سيأتي الحديث عنه أصيل وإلهي ومُلهم. كما يعطي توضيحاً أن ما سبق هذا الصمت هو تاريخ خاص للغاية في حدود الأخصاء جداً، لم يُسمح له بالانتشار بالرغم من مظاهره السماوية العلنية. وكان لإعداد المسيح فيما لذاته.

وأخيراً انكسرت موجة الصمت التي طالت بإعلان يوحنا المعمدان لنظام وخدمة محيِّرة للغاية كخدمة إيليا تماماً في زمانه. وفي الحقيقة كلا النبيَّين لهما سمات واحدة، خاصة بمجتمع مزدهر وباذخ، ولكن بآن واحد متدهور نحو الهلاك بأمراض مستعصية خبيثة أصابت النخبة الدينية بالأساس، تُنبئ بانقلاب حتمي لا رجاء فيه. وبالرغم من بأسه وبؤسه فهو يحمل بذار تجديد ممكن احتماله، حتى أنه استلزم ظهور إيليا والمعمدان كلٍّ في زمانه. ظهر كل منهما ليهدِّد بدينونة مخيفة ولكن بآن واحد إمكانية صلاح يبدو غير محتمل، لأن ظهورهما جاء في وقت لا يحتمل فيه صلاح، ولا يُرْجَى بأي حال، فهو يتطلَّب أخلاقاً غير موجودة وغير متوافقة مع واقع أليم. يوحنا جاء فجأة من البرية في اليهودية، كما جاء إيليا في براري جلعاد. وجاء الثاني حاملاً صفات ومميزات الأول. فرسالة يوحنا هي مكمِّلة لرسالة إيليا،

ومعمودية يوحنا جاءت في فرادتها وعجبها كالذي ابتدعه إيليا على جبل الكرمل حينما ذبح أربعمائة نبي على نهر قيشون، ليتوازى النبيَّان في نوع انفتاح الوعي والذاكرة على الرجاء المنتظر. وبالرغم من دقة المشابهة بينهما إلاَّ أن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه. فهو دائماً أبداً يكمِّل بالنهاية ما بدأه بالبداية. لذلك فالذي نراه ونستطيع أن نقوله إن يوحنا المعمدان هو تكميل لإيليا عندما اكتمل الزمان.](8)

وللأسف اكتمال الزمان لم يُعرف بتحديد ميعاده من المسئولين عن معرفة الأزمنة والأوقات، ولكن عُرف سواء في روما أو فلسطين بشدَّة الحاجة إليه.

[وإن الاعتقاد الشديد الذي اعتنى به ق. لوقا ليُحدِّد زمان مجيء المعمدان وعمله، لم يكن في حقيقته اعتناءً تاريخياً محضاً بل لكي يحدِّد مدى دقة الوقت اللازم لظهور ملكوت الله، أو الإعلان عن ظهوره!!](9)

[أمَّا بخصوص ملكوت الله الذي كان هو رسالة المعمدان الأُولى وعمل المسيح الأعظم، نقول هنا: إنها هي بعينها العهد القديم كله في حالة الارتقاء به، وهي بآن واحد العهد الجديد عندما يتحقَّق فيه هذا. فحقيقة الملكوت لم تكن مخفية في العهد القديم لتُستعلن فقط في العهد الجديد؛ بل من المعروف أن حكم السموات وملكوت يهوه كان هو طبيعة العهد القديم وعلى أساسه قامت دعوة إسرائيل ورسالتها، ومعنى كل وصاياه سواء في الأمور المدنية أو الدينية. فملكوت الله كان هو القاعدة التحتانية لقيام كل معاملات يهوه مع الشعب، والمنظور الذي يُرى منه ويصفه الأنبياء، وبدون مُلك الله في إسرائيل يصعب فهم العهد القديم. فكل تعاليم العهد القديم امتدَّت على أساس الملكوت ودامت وأخذت سلطانها وهيبتها. وكل هذا الملكوت الذي لله في شعب إسرائيل هو الذي يفرِّق ويميِّز شعب إسرائيل عن بقية شعوب العالم، ويعطيه امتيازه الحقيقي. ولذلك يُحسب العهد القديم كله إنما هو إعداد وتقديم لحكم السماء وتملُّك الله.](10)

أمَّا الذي ميَّز العهد الجديد بصورة عظمى وجهارية هو أنه تحدَّد ظهور الملكوت بمجيء الله ذاته ودخوله إلى العالم، الذي رفع مستوى الملكوت في الحال من وضعه الخاص لشعب إسرائيل إلى وضعه

---

(8) A. Edersheim, *op. cit.*, vol. I, pp. 255 f.

(9) Ibid., p. 260.

(10) Ibid., p. 265.

العام للعالم كله. وبعد أن كان الله في القديم يدبِّر الملكوت بواسطة الأنبياء والكهنة، أصبح في العهد الجديد يدبِّره بنفسه! الذي كان قد ألمح عليه يهوه بأنبيائه أنه ''مسيًّا''. فمسيًّا لم يكن إلاَّ صورة ليهوه نفسه يأتي ويدخل العالم ويستعلن عمل ملكوته بروحه القدوس. فأصبحت العلاقة بين يهوه والشعب، حيث يهوه هو الله والشعب هو العالم كله، قائمة لا بنبي ولا بكاهن، وإنما بنفسه وروحه القدوس بلا حواجز مادية أو عنصرية أيًّا كانت. وهذا ما رآه دانيال النبي: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سُحُب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدَّامه. فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأُمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول. وملكوته ما لا ينقرض.» (دا 7: 13و14)

[وهذه هي صفات ملكوته: **أولاً**: عامة عالمية شاملة، **ثانياً**: سماوية، **ثالثاً**: دائمة دوام الأبد**!** فاتساعها باتساع مُلْك الله، مقدَّسة كقداسة السماء بالنسبة للأرض والله بالنسبة للإنسان، دائمة دوام الأبد.](11)

[وها هو الملكوت حيث يدبِّر الله ويحكم ظاهراً وباطناً بالمسيح (المسيَّا): منظوراً من خلال عمل الكنيسة، ينمو تدريجياً وسط العوائق، منتصراً بالمجيء الثاني للمسيح حيث تُعلن النهاية، ليكمل الملكوت في الحياة الأخرى.](12)

---

(11) Ibid., p. 266.

(12) Ibid., p. 270.

الباب الثاني
ظهور المعمدان والمسيح للعالم

الفصل الأول

خدمة المعمدان كإعداد لخدمة المسيح

13 ـ دعوة المعمدان وكيف أحيا روح الترقُّب لمجيء المسيَّا وأعد الطريق بالتوبة والعماد

[كانت قد لوَّحته الشمس، جاء وله اشتياق ناري للملكوت القادم يحترق كالنار في أعماق نفسه، ويدعو لانتظار الآتي بعده الذي سيعمِّد بالروح القدس ونار.] بابيني(1)

كانت مهمة المعمدان شاقة، لأن الشعب كان قد نعس من اليأس وكَلَّ من الرجاء والانتظار، وأكلته الخطية وساد عليه الشيطان يُخرِّب في عبادته وآماله وسلوكه. فأنْ تخرج من وسط هذا الركام والخراب دعوة لملكوت الله؛ فهذا الأمر وحده كان كفيلاً ليقظة مفاجئة. ومن تحت الاحتلال الروماني والشعب مداس تحت أقدام المستعمرين، أنْ يُسمع بالخلاص؛ فكان هذا وحده عودة للروح. ومن وسط ظلام الأيام التي تسير بطيئة متثاقلة، أنْ تشرق شمس ومعها دعوة لانتظار يوم الرب المضيء؛ كان هذا بمثابة جرعة إنعاش لمحتضر. كان هذا عمل المعمدان الأول، وكان هذا أهم إعداد لبدء قيام المسيَّا بعمله.

ولكن كان من أخطر ما يمكن أن يُفسد عملية المعمدان والمسيح معاً، أن يظن الشعب أن يوحنا المعمدان هو المسيَّا القادم. فكان لزاماً على المعمدان لحظة أن ينادي بقرب الملكوت أن يُسرع ليملأ الأسماع أنه ليس هو المسيَّا الآتي، ولكنه هو المُرسَل قدَّامه ليعدَّ الطريق أمامه. لذلك كان تشبُّث المعمدان بنبوَّة إشعياء التي تضع المعمدان كمجرَّد صوت صارخ في البرية ينادي بإعداد الطريق للآتي بعده من أهم مقوِّمات دعوة المعمدان:

+ «وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أُورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: مَنْ أنتَ؟
فاعترف و لم ينكر، وأقرَّ أني لست أنا المسيح،
فقالوا له: مَنْ أنت، لنعطي جواباً للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟ ...
قال: أنا صوت صارخ في البرية، قوِّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي.» (يو 1: 19-23)

---

(1) G. Papini, *op. cit.*, p. 55.

وفي الحال أدرك الفرِّيسيون أنه مجرَّد المنادي بالمسيَّا.

ولكن لم يكتفِ المعمدان بأن يقول: مَنْ هو، بل وجد أن من وظيفته أن يُعرِّف الشعب بمَنْ هو المسيَّا، ومَنْ هو بالنسبة لنفسه. فقال عن المسيَّا الآتي: إنه من فوق وهو فوق الجميع، وهو الذي أرسله الله ومن الله يتكلَّم. أمَّا عن نفسه فقال: إنه من الأرض ومن الأرض يتكلَّم، وإنه إنما يعمِّد بالماء، وإنه ليس أهلاً أن يحلَّ سيور حذاء المسيَّا، وقال: «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده» (يو 35:3). وهكذا كشف المعمدان عن هوية المسيح أنه من السماء، وقد أرسله الله، وهو ابن الله، وأنه سيعمِّد بالروح القدس. وبالنهاية قال: إن المسيَّا هو العريس، وأمَّا هو فصديق العريس؛ والمسيَّا ينبغي أن يزداد، وأمَّا هو فينبغي أن ينقص.

كانت روح المعمدان روح وثَّابة مُستمَدَّة من روح إيليا والأنبياء، ولكن المعمدان جاء بغير ما جاء به إيليا، إيليا كان موبِّخاً عنيفاً كالصاعقة على الأنبياء الكذبة والملك (الذي يعبد الأصنام)، وقد ذبح أربعمائة نبي منهم على نهر قيشون. أمَّا المعمدان فجاء كنور الفجر الخافت ليبدِّد الظلمة القاتمة التي خيَّمت على الشعب مئات السنين ليوقظهم بصراخه كالمبشِّر أن الفجر أتى والنور قادم، ويوم الرب على الأبواب، فقد «اقترب ملكوت السموات» (مت 2:3). إنه كان بالنسبة للشعب كمجدِّد للرجاء، ومذكِّر بالوعود والمواعيد، وقد أدخلهم في حلم من أحلام الآباء السعداء. وهذا في الحقيقة كان المدخل الصحيح للمسيَّا، لأن عمل المسيَّا كان أيضاً في واقعه تحقيقاً صادقاً وعملياً وفعَّالاً لكل أحلام الآباء وشهوة قلب إبراهيم صاحب الوعد الأول بمجيء المسيَّا.

فإن كان كل جهد المعمدان قد تركَّز في دفع الشعب للتوبة، فهو بقصد تجديد الأفكار بالتعليم والأبدان بغسيل المعمودية. وقد شهد عنه يوسيفوس المؤرِّخ هكذا:

> [كان رجلاً صالحاً وواحداً من الذين دفعوا اليهود لممارسة الفضيلة، سواء كان بالحق والبر نحو بعضهم البعض، أو بالتقوى في عبادتهم لله. وهذا كان عمل المعمودية حتى بغسل الماء يصيرون لائقين ومقبولين لكي تُرفع خطاياهم. وليس ذلك فحسب بل وأيضاً ليصيروا أطهاراً بالجسد بعد أن صاروا أبراراً في نفوسهم بالاعتراف بالخطايا.](2)

---

(2) Josephus, *Antiq.*, XVIII, 116-119.

هذا كله في واقعه كان خلاصة شهوة الأنبياء في نبوَّاتهم كأقصى ما يقدِّمه العهد القديم تمهيداً للملكوت الآتي، على يد يوحنا المعمدان.

على أنه لا ينبغي أن نخطئ فنعتبر أن المعمدان قد خطا بالشعب أول خطوة في مجال العهد الجديد، لأن خدمة المعمدان اقتصرت على التنبيه والتوعية وإعداد الأفكار والقلوب بالملكوت الآتي، ولكن قط لم يخطُ ولا خطوة واحدة عملية في العهد الجديد، أي في ملكوت الله. لذلك كان تقرير المسيح النهائي عن المعمدان بعد أن مدحه كثيراً ومطوَّلاً أنَّ: «الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه »(مت 11:11). فكان لسان حال المعمدان عندما خطا المسيح أول خطوة لافتتاح عهد الملكوت أن قال: «إذاً فرحي هذا قد كَمَلَ. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يو 3: 29و30)

ولكن الذي سبَّب هذه الرؤية كأن المعمدان خطا خطوة في مجال العهد الجديد، كون الأناجيل جميعاً قد أعطته تكريماً وتعظيماً ـ من وجهة نظر مسيحية بلغت قمتها ونهايتها ـ فقرَّبته جداً من حدود المسيحية، حتى اختلط الأمر وأخذ المعمدان صورة مسيحية ليست صحيحة وليست له. ولكن شهادة المسيح تضع هذه الحقيقة في حدودها الصحيحة: «أنا (المسيح) لا أقبل شهادة من إنسان. لكني أقول هذا لتخلصوا أنتم. كان هو السراج الموقَد المنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره **ساعة**. وأمَّا أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا ...» (يو 5: 34و35)

14 ـ المعمدان كمعلِّم في البرية

انعزل المعمدان في برية الأُردن غرب البحر الميت وعاش هناك عيشة النُسك الصارم والحرمان من كل ملذات الدنيا، وكان ذلك بدافع حزنه الداخلي المرير لفساد الأُمة اليهودية شأنه شـأن أنبيـاء أواخر العصور اليهودية، واكتفى من الطعام بما قدَّمت له الطبيعة من عسل أفرزه النحل بين الصخور وجراد كان يشويه ويأكله. أمَّا لباسه فكان كلباس إيليا خشناً من وبر الإبل، وعلى حقويه منطقـة من جلد، شأن السهارى الذين يقيمون الليل ساهرين واقفين يعبدون.

وهكذا كان المعمدان غارقاً في حزنه وهمومه على شعبه كدانيال في أيامه: «أنا دانيـال كنـت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام، لم آكل طعاماً شهياً، و لم يدخل في فمي لحـم ولا خمـر و لم أدَّهـن ... »(دا 10: 2و3). وقد مدحه الملاك لَّما جاء يفتقده: «فقال لي: لا تخف يا دانيال لأنه مـن اليـوم الأول الذي فيه جعلت قلبك للفهم **ولإذلال نفسك** قُدَّام إلهك سُمع كلامك وأنا أتيـت لأجـل كلامك» (دا 12:10). وبالأكثر كان حزن المعمدان على خطايا الشعب التي أحسَّ بأنها سـتكون شغل المسيَّا الشاغل. وكان الشعب حقـًّا في اضمحلال مريع. فالليل كان قد بلغ أقصى سـواده، وكانت طلبة المعمدان حقـًّا وبالضرورة أن يأتي الآتي، الذي جاء هو ليعدَّ الطريق أمامه، وقد أحسَّ بالتأكيد أن المسيَّا خلفه على الأبواب، الأمر الذي شجَّعه وأعطاه فماً ليتكلَّم كنار تحـرق وتطهِّـر. وتأكَّد المعمدان أن عليه أن يحكي للشعب ما قد صار في قلبه من تأكيد إلهي أن المسيَّا آتٍ. فكـان عليه وعلى الشعب أن يعدّوا القلوب للعصر الجديد.

وأخيراً بلغ الدفع الإلهي داخله إلى مداه فتشجَّع وترك وحدته خلفه وتقدَّم نحو الناس ينادي نداء السماء: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت 2:3)، والآتي على الأبواب.

ويقول العلاَّمة إدرزهايم المؤرِّخ واللاهوتي اليهودي المتنصِّر:

[إن ذلك كان في خريف سنة 779 لروما، وكان ذلك موافقاً لسنة سبتية من خريف سـنة 779 تشرين (سبتمبر / اكتوبر) حتى سنة 780 حيث يتوقَّف كل عمل وتتوقَّف الزراعـة. فكان سهلاً على الشعب أن يخرج إليه زرافات ووِحْدَانا وانتشر الخبر في الأرض المـستريحة كانتشار الريح. وتجمَّعوا حوله في عين نون بقرب ساليم أول مكان بدأ فيه المناداة، وبيـت

عبرة، التي تقع شمالي بيسان الحالية.](3)

و لم يكفَّ عن هذا النداء بكل ما أوتي من صدق وأمانة لتأدية الرسالة. ومن تشبيهاته التي أرعبت اللاهين والمتلاهين، أن الله سينقّي شعبه كما ينقّي صاحب الحقل بيدره، القمح من التبن، ليرفع هذا ويحرق ذاك. فالملكوت لا يدخله غير المستحقين. وقد أنكر على الشعب بشدَّة المبدأ الغاش السائد آنذاك أن عظماء الشعب ورؤساءه وأصحاب السلطان والجاه والمتمسّكين بأشكال العبادة والتقوى المظهرية لهم مكان في ملكوت الله. فلا مناص من التوبة لمن أراد أن يكون له نصيب عند الله. ونادى بأن المعمودية بالماء التي يجريها للتائبين والمعترفين بخطاياهم هي المدخل الوحيد لتكريس النفس لقبول ملكوت المسيَّا الآتي. وكانت المعمودية قد شاع ذكرها بين اليهود أنها للتطهير في أيام المسيَّا، إذ كان قد تكلَّم عنها الأنبياء: «وأرشُّ عليكم ماءً طاهراً فتُطهَّرون. من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أُطهِّركم. وأُعطيكم قلباً جديداً، وأجعل روحاً جديدةً في داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأُعطيكم قلب لحم» (حز 36: 25و26). كذلك ذكرها زكريا النبي باعتبارها أنها ستكون عملاً جديداً من الله في أيام المسيَّا: «في ذلك اليوم (يوم المسيَّا) يكون ينبوعٌ مفتوحاً لبيت داود ولسكان أُورشليم (اليهود فقط؟؟) (للخلاص من الخطية والنجاسة)» (زك 13:1). وكذلك أيضاً نبوَّة ملاخي آخر الأنبياء ويظهر فيها أن المعمودية للتفريق بين الصديق والشرير: «ها أنا أُرسل ملاكي (يوحنا المعمدان) فيُهيِّيء الطريق أمامي. ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرُّون به. هوذا يأتي قال رب الجنود ... مثل نار الممحِّص ومثل أشنان القصَّار فيجلس مُمحِّصاً ومُنقِّياً ... فتعودون وتميِّزون بين الصِّدِّيق والشرير، بين مَنْ يعبد الله ومَنْ لا يعبده» (ملا 3: 1و3و18). فإن كان الأنبياء قد تنبَّأوا عمَّا سيسبق مجيء المسيَّا بمجيء المعمدان، فذلك للتطهير والتمحيص وفرز الصِّدِّيق من الشرير وتبييض القلوب كما يبيِّض القصَّار الملابس من سوداء إلى بيضاء. ويقيناً أن المعمدان أحسَّ بأنه الملاك المدعو، كما يقول حزقيال النبي بوضوح، ليرش على الشعب ماءً مطهِّراً فيطهَّرون من كل نجاساتهم ومن عبادة الأصنام، ويصير لهم قلب لحم عِوَض قلب الحجر، ليتم القول الذي نطق به النبي من فم الله.

وهكذا بدأ المعمدان بالفعل يعدّ الطريق أمام المسيَّا.

---

(3) A. Edersheim, *op. cit.*, vol. I, p. 278.

15 ـ علاقة المعمدان بالشعب وبتلاميذه

كل الذين تحرَّكت قلوبهم من نداء المعمدان وتحذيره ودعوته للعودة بقلوبهم إلى الله واعترافهم بخطاياهم وقبولهم العماد من يديه، وجدوا بالفعل في المعمدان معلِّماً للحق والفضيلة والتوبة والعودة إلى الله، لأن المعمدان كان صادقاً مع نفسه ومع دعوته. أحسَّ به المقرَّبون إليه وأحبُّوه، فكلامه واضح وإرشاده للنفوس التائبة بسيط ومتواضع، وليست له متطلبات أكثر من توبة القلب وأعمال تليق بالتائبين. وأوضح وصاياه الجيدة والصحيحة للغاية، أنه لم يأمر أحداً أن يترك عمله مهما كان، بل يُحسِّن سيرته في عمله ويكون صادقاً مع نفسه والله، وهكذا مع الجنود، وهكذا مع العشَّارين. فجذب إليه هذه الفئات وأحبُّوه. فعين المعمدان كانت مصوَّبة على قلب الشعب وليس على أعماله ووظائفه، فالكل مدعو للصلاح والأمانة والشرف والصدق مع نفسه والله.

وبالمقارنة بتعاليم المسيح يبدو المعمدان فعلاً وكأنه ممهِّد للقلوب والأفكار وليس مجدِّداً بأي حال من الأحوال، ولا يتطلَّب بالتالي طلبات جوهرية مصيرية كالتي طلبها المسيح أول ما طلب أن يسلِّم الإنسان المشيئة لله ويضحِّي بكل انحرافات العواطف والأهواء والشهوات. وهذا يرجع أساساً إلى ما يحمله كل من المسيح والمعمدان من قوى وإرادة ومشيئة وسلطان روحي إلهي. فالمسيح يأمر أو يعطي الوصية ليس كما كانت تعطي التوراة حتى تنفَّذ بقدرة الإنسان وعلى قدر التنفيذ يكون الجزاء والعقوبة، وهنا نشأ برّ الذات؛ ولكن المسيح يأمر بالوصية وهو يسندها بقوة روحه، ويضمن نفاذها بنعمته إن صدَّق الإنسان وآمن من كل قلبه وبدأ يعمل، تسنده الطاعة والأمانة للمسيح. فالمسيح يعطي الوصية من مركز إلهي قادر مقتدر.

أمَّا المعمدان فكان يؤمن تماماً أن تغيير القلوب يحتاج إلى عمل إلهي تركه للمسيَّا الآتي بعده «الأقوى مني» (مت 11:3)، فاقتصرت وصاياه على تنفيذ أمر الله في حدود رسالته أن يمهِّد ويعلِّم وينصح ويرشد بكل إخلاص وصدق. عالماً أن التغيير للتجديد سيتم بعمل الله في المسيَّا. يدعو إلى السلوك الأخلاقي الصادق والأمين، ولكن إعطاء قوة لتجديد الحياة ليس من عمله. فالمعمدان لم يخطئ النظرة إلى نفسه قط، فهو يعرف نفسه وحجم رسالته. فبالرغم من الغيرة النبويَّة الملتهبة إلاَّ أنه لم يخرج عن حدود كونه نبيًّا، يُنبْئ ولا يعطي، يُعلِّم ولا يُغيِّر، ينصح ولا يرتقي بالنفس. كان أداة طيبة وطائعة لروح الله في حدود إعداد الطريق أمام صاحب الروح. يُدرك أن هناك حتماً قادماً مَنْ

سيعطي الخليقة جدَّتها وروحانيتها، ولكنه لا يزيد عن كونه يبشِّر بها بفرح وينتظرها كالباقين. لذلك لم يستطع تلاميذه أن يرفعوه فوق ما هو، ولا أن يفتخروا به أكثر مما يقول ويعمل في حدود رسالته المتواضعة «لست أهلاً أن أحمل حذاءه» (مت 11:3). لقد تأكَّد تلاميذه أنه من الله، وأنه مُرسل من الله، ولكنه كالمصباح الذي يُوقَد في الليل حتى الفجر، فإذا انبثق نور الشمس خبا نور المصباح حتى ولو لم ينطفئ!

16 ـ علاقة المعمدان بالمسيَّا

العماد بالماء والعماد بالروح والنار

لمَّا أحس المعمدان أن الشعب بدأ يُخطئ في فهم شخصيته وظنوا أنه ربما يكون هو المسيَّا، بدأ يكشف العلاقة بينه وبين المسيَّا القادم، بوضوح وبلا تردُّد: «لست أنا المسيح» (يو 20:1). فلما سألوه «وقالوا له فما بالك تعمِّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أُعمِّد بماء ...» (يو 1: 25و26). والمعنى أنه يطهِّر بالماء ويعدّ فقط للآتي الذي سيُقدِّس بالقوة الإلهية. بهذا يرفع المعمدان المسيَّا الآتي إلى موقعه الحقيقي من الله ومن الأُمة. وما هو إلاَّ السابق المنادي بالآتي الذي سيعمِّد بالروح القدس ونار. ولسان حال المعمدان: أنا أغسل الجسد وأغطِّس في الماء، ولكنه هو سيطهِّر النفس من الداخل ويغمر بالروح القدس الذين يؤمنون به. وأمَّا النار فهي طبيعة الروح القدس التي تحرق الشوائب وتجلِّي الخليقة الجديدة المطهَّرة كما بنار. فهي تحرق وتضيء بآن واحد. فالذي يؤمن يجلِّيه الروح القدس ويعدُّه ليشترك في المجد العتيد، والذي يرفض فالروح يحرق ليلاشي كل ما هو ليس لله. فالذي لله يضيء: «فليضئ نوركم» (مت 16:5)، والذي ليس لله يسير في الظلمة وينتهي إلى خدمتها.

ويصف المعمدان المسيح بأنه هو صاحب الحقل وحصَّاد الأيام الأخيرة الذي ينقِّي بيدره أي ملكوته من غير المستحقين للدخول إلى ملكوته الذين يصفهم بأنهم كالتبن؛ فالقمح يُرفع أمام الله كخبز الوجوه، أمَّا التبن فيُلقى في التنور لتلتهمه النار.

17 ـ حقيقة ملكوت الله عند المعمدان

أول حقيقة طرحها المعمدان عن الملكوت هي رفض وإسقاط المعلومة الشائعة لدى الأُمة كلها أن كل الذين انحدروا من إبراهيم كأولاد بالنسل التسلسلي، الذين يحفظون السبت والختان وأشكال العبادة الطقسية التي للآباء، سيدخلون حتماً ملكوت المسيَّا. وبذلك يتبقَّى المرفوضون وهم أهل الأُمم أي الوثنيون.

وعلى النقيض فإنه يجعل الملكوت القادم وقفاً على الذين يتحتَّم عليهم أن يكونوا قد أكملوا توبتهم إلى الله وأصلحوا أخلاقهم وسلوكهم وأدركوا مدى خطورة الخطية وإفسادها للحياة بالاعتراف بخطاياهم كضرورة حتمية، ليتهيَّأوا لقبول العماد بالروح القدس والنار الذي سيجيء المسيَّا ليهبه للذين أكملوا توبتهم إلى الله. وقد أجمل هذا المعنى كله في مفهوم التوبة إلى الله، بمعنى الرجوع عن الخطايا وعبادة الأصنام وطاعة وصاياه.

ولكنه كان يفهم الملكوت الآتي أنه منظور ومُعاش على الأرض بشبه مملكة داود، وأنه الأرض الهنية والبهيَّة، ولكنها تكون روحية على نوع ما، يقودها ويعطيها روح الله، يكون المسيح هو الملك عليها كملك منظور وممجَّد كابن الله. وكان يعتقد أن الأُمم سيكون لهم نصيب عوض المرفوضين من اليهود. وبظهور المسيح سيفرز غير المستحقين. وكان يعتقد أن الذين حوَّلوا قلوبهم إلى الله واستعدُّوا بالانتظار والإيمان بمجيء المسيَّا، سيتعرَّفون عليه لحظة مجيئه ويتبعونه وينالون منه الحياة الأبدية. أمَّا الذين رفضوا التوبة والعودة إلى الله سينكرونه وسيمكث عليهم غضب الله. وأوضح قولٍ قاله في هذا المضمار:

+ «الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد، وشهادته ليس أحد يقبلها. ومَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادقٌ، لأن الذي أرسله الله يتكلَّم بكلام الله. لأنه ليس بكيلٍ يعطي الله الروح. الآب يُحب الابن وقد دفع كل شيء في يده. الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله.» (يو 3: 31-36)

هكذا كان وعي المعمدان الروحي على أقصى انفتاحه في إدراك المسيَّا وملكوته: فالمسيَّا هو ابن الله المحبوب الذي دفع الله كل شيء في يده، وملكوته حياة أبدية، والذي تأهَّل للمجيء إليه ينال الحياة الأبدية، أمَّا الذين يرفضونه فسيمكث عليهم غضب الله، بمفهوم أنهم يبقون ويدومون في عقاب الموت الذي وقع عليهم مع آدم واللعنة التي أصابتهم. وهذا يدخل في معنى أن المسيَّا سيرفع عقوبة

الموت واللعنة، أي غضب الله، عن الذين يؤمنون به، وينالون الحياة الأبدية معه.

الفصل الثاني

معمودية المسيح

[وكانت معمودية المسيح بالماء إعداداً لمعموديته بالدم،
كان لابد للحمل أن يُغسل بالماء قبل أن يُقدَّم لذبيحة المحرقة،
وكان لابد للمسيح أن يظهر بين الخطاة.
في معمودية الأُردن شارك الخطاة، وفي معمودية الموت حمل خطاياهم.] (شين)(1)

18 ـ المعمدان يُعطي المعمودية للمسيح

وأخيراً وصل المسيح بعد رحلة طويلة من الناصرة حتى بيت عبرة. كانت الرحلة بأيامها الثلاثة فرصة كبيرة ومهولة ليسترجع فيها المسيح كل ما سمع من أُمه عن كيف تقبَّلت البشارة من الملاك، وكيف أن البشارة بميلاده هو شخصياً تقوم أساساً على إرساء عملية الخلاص الكبرى على أكتافه ليخلِّص الشعب من خطاياهم.

كان يسير وهو يتصوَّر ثقل الرسالة، ولكن الروح كان يعدّ فكره لتقبُّل حركات السماء لتستعلن له كل ما يختص بإرساليته أولاً بأول وعملاً بعمل، بل وتوجيهاً دائماً بالصوت الداخلي.

صحيح أن إعطاء المعمودية بالماء للمسيح وهو بلا خطية يُربك القارئ البسيط إن لم يُسعفه الشرح اللاهوتي الحقيقي والمناسب جداً. إذ لا يمكن أن يتصوَّر أحد أن المسيح يخضع للمعمودية بالماء على مستوى فكر الآخرين وحالهم ونفس غرضهم؛ إذ تنعدم كلية أيَّة علاقة للتوفيق بين العماد بالماء من المعمدان ووجود الخطية أو حتى افتراضها في شخص المسيح للتطهير، لأنه هو نفسه الفادي الذي جاء ليرفع الخطية ويبطلها بدمه.

ولكن الحاصل أمامنا أن المسيح تقدَّم ليتقبَّل المعمودية من المعمدان تحت فرض هذه المعاني! وإلى هنا كان يمكن للمعمدان أن يستمر في ظنه أن المسيح كان في حاجة إلى معموديته لو لم ترتفع رؤيته باستعلان داخلي ليُدرك فيها مدى الهوَّة التي تفصله عن قامة المسيح الإلهية. وهذا نراه بوضوح في إنجيل ق. متى وحده المحسوب أنه الإنجيل الكنسي الطقسي الأول، عندما تمَّت المقابلة لأول مرَّة؛ إذ

(1) Fulton J. Sheen, *Life of Christ*, (1958 [illegible] 1977), p. 57 f.

بادر المعمدان المسيح بقول واضح اعترف فيه بعدم استحقاقه هو أن يُعمِّد المسيح، بل وبالتالي أنه هو نفسه الذي يحتاج أن يعتمد من المسيح.

+ «**حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأُردن إلى يوحنا ليعتمد منه. ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاجٌ أن أعتمد منكَ، وأنت تأتي إليَّ!** فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل برٍّ. حينئذ سمح له.» (مت 3: 13ـ15)

أمَّا الشرح الكتابي، فالبر هو بر الاتضاع بالنسبة للمسيح.

أمَّا الشرح اللاهوتي، فالمسيح جاء إلى المعمودية وهو حامل البشرية كلها في جسده، فهو ليس من أجل نفسه جاء لأنه ‘‘القدوس ابن الله’’ بشهادة الملاك، ولكن من أجل البشرية التي يحملها في نفسه. فبعماده يكون قد أكمل للمعمدان عماد كل إنسان ـ قبل أن يعتمد منه ـ يهوداً كانوا أو أُمماً!!

ولكن قدَّم لنا المعمدان نفسه تفسيراً آخر غاية في الحبك والإبداع، يقوم على أساس أنه إنما جاء ليُعمِّد حتى يُستعلن المسيَّا في شخص يسوع حينما يأتي إليه كإنسان عادي، فتشهد السماء أنه المسيَّا وابن الله هكذا: «وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليُظهَر لإسرائيل لذلك جئت أُعمِّد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً: إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأُعمِّد بالماء، ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه، فهذا هو الذي يُعمِّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو 1: 31ـ34)

وكما عبر موسى بشعب إسرائيل ـ في البحر الأحمر ـ لنقله من العبودية إلى الحرية، هكذا عَبَرَ المسيح في مياه الأُردن(2) وفي كيانه البشرية بأجمعها. ولمَّا نزل عليه الروح القدس بشبه حمامة كان كأن الله يُقدِّمه ذبيحة للفقراء معلناً أن ‘‘هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت’’، فهو ذبيحة سماوية. وسواء حمامة أو حمل فهو ذبيحة عن الخطية مقدَّسة بالروح القدس. وهو ارتضى أن يعتمد في مائنا ليشترك فيما لنا من خطية، لنعتمد نحن في موته لننال ما له من فداء وخلاص.

ولمَّا خرج من الماء وأخذ يصلِّي انفتحت السماء ونزل الروح بشبه حمامة واستقر عليه، فكان وكأنه نوح الجديد(3) والمياه الجديدة، مياه النجاة للتجديد، والحمامة استقرت عليه كما على الأرض الطيبة. وكأنما نحن في طوفان جديد ونجاة وسلام لحياة رضا من الله ومسرَّة.

---

(2) Fulton J. Sheen, *op. cit.*, p. 59.

19 ـ السماء تتدخَّل لتدعيم استعلان المسيح كابن الله

حدث هذا عند خروج المسيح من ماء الأُردن بعد العماد مباشرة، إذ بينما كان واقفاً يصلِّي ـ كالتحام مباشر بين الابن والآب ـ انفتحت السماء وجاء «صوت من السموات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ.» (مت 17:3)

وهذا هو الذي أعطى للمعمدان الشهادة التي شهد بها: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو 34:1)

وبهذه الشهادة المضاعفة من يوحنا المعمدان النبي، ومن الآب من السماء المفتوحة، دخل المسيح إلى خدمته مؤيَّداً بصوت النبوَّة من الأرض وصوت الآب من السماء.

20 ـ استمرار المعمدان في خدمته بعد عماد المسيح

لأول وهلة وبالقراءة السطحية يصير هذا نفسه سؤالاً ضد المعمدان، فإن كان نور الشمس قد أشرق وسطع ودخلنا يوم الرب، فلماذا بعد مصباح الليل؟

ولكن على القارئ أن يتأنَّى في الحكم. فصحيح أن المعمدان أدرك سر المسيَّا في شخص يسوع ونسب إليه بالضرورة كل ما سبق وقاله العهد القديم بجميع أنبيائه، باعتباره مؤسِّس الملكوت الموعود. ولكن مِنْ هذا المنظور نفسه كان يعتقد المعمدان وكان ينتظر أيضاً أن يُعلن المسيح عن عمله الإلهي ويباشر بأعماله استعلان نفسه وعمله من جهة هذا الملكوت، فلا يعود يحتاج بعد إلى شهادة المعمدان أو عماده بالماء! وحينئذ كان عليه أن يكفَّ مباشرة وفي الحال عن خدمته وعمله ورسالته التي أخذها من السماء، وكان بناءً على ذلك مفروضاً أن يوجِّه تلاميذه إلى اتِّباع المسيَّا، إذ لا يكون لهم ولا له عمل بعد.

ولكن لعدم حدوث ما كان يتوقعه المعمدان من المسيح بعد استعلانه في المعمودية ونزول الروح القدس عليه، اضطر أن يحتفظ برسالته كما هي: يُعدُّ الطريق لملكوت المسيَّا، ويستمر في ذلك إلى أن يُعلن المسيَّا ملكوته بل ويفتتحه باعتباره الملك الآتي للخلاص، ويرفع راية ملكوته حتى ينضوي الكل تحت عمله. أمَّا الإعلان عن ملكوته كما كان ينتظره المعمدان فبإعلان واضح سماوي تلتزم به الأرض ليجلس ملكاً على إسرائيل جهاراً.

إذن، فالمعمدان كان صادقاً لرسالته وأميناً للدعوة في استمراره للإعداد للملكوت حتى يكمُل

ظهور المسيح(4). يزكِّي هذا التصرُّف مدى خصوصية رسالة المعمدان بينه وبين الله، وليس للشعب دخل في ذلك. وبالتالي لا تدخل العلانية في تصرفاته التي حتَّمت عليه هذا السلوك.

(4) يشترك في هذه النظرة الواضحة والصحيحة كل من العالِم والمؤرِّخ اليهودي المتنصِّر نياندر والعالِم وينر:

A. Neander, *The Life of Jesus Christ* (1st German ed. 1837; Eng. tr. 1847), pp. 59 f.

Winer, *Biblisches Realwörterbuch*, I, 692 (2nd ed.)

21 ـ المعمودية وماهيتها عند المعمدان وعند المسيح

+ «**الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.**» (يو 5:3)

الأمر في معمودية يوحنا استوفته الأناجيل. فقد اتضح أن المعمدان إنما جاء ليعمِّد حسب قوله، لكي يتقبَّل علامة من السماء أثناء العماد حينما يأتي المسيح إليه فيعرفه ويقدِّمه للشعب. وكان قد سبق وأعلن ذلك حتى لا يختلط الأمر على الناس فيظنونه أنه هو مسيًّا.

أمَّا المعمودية بالنسبة للمسيح، أي لماذا اعتمد المسيح؟ فبحسب روح الإنجيل، إن كانت خبرة المعمدان عن المعمودية هي كونه ينفتح على إعلان من السماء ليعلن له عن المسيَّا القادم إليه، تكون المعمودية غير مقبولة بهذا الوصف بالنسبة للمسيح وتتعارض كلية مع طبيعته وشخصه كابن الله. ولكن تعليل معمودية المسيح يتحتَّم أن يبتدئ من نقطة جوهرية وأساسية وهي الإيمان المطلق بلاهوت المسيح، القائم فيه، وغير المستحدث بأي حال من الأحوال. وحينئذ ممكن أن نرى أن اللوغس الإلهي باتخاذه جسد البشرية **لكي يجدِّده أو يخلقه خلقاً جديداً روحياً** من طبيعته، كان يلزمه بالضرورة قبل أن يتعامل معه بالروح القدس للميلاد الثاني من فوق أو الخلقة الجديدة بالروح، أن يعبر به معمودية يوحنا التي بالماء. وواضح لدينا من حادثة عماد المسيح أنه بعد أن أكمل معمودية الماء من يد المعمدان، انفتحت السموات للتو، ونزل الروح القدس واستقر على المسيح. وبذلك يكون قد قَبِلَ المسيح الروح القدس من السماء ليدعِّم به البشرية التي عبر المعمودية بها، والتي اتَّخذها لنفسه من العذراء تمهيداً لدخوله الخدمة والمناداة بالملكوت.

ولكن لا يُقبل بأي حال من الأحوال أن نفهم أن الروح القدس حلَّ على المسيح لأنه لم يكن فيه الروح سابقاً فامتلأ من الروح القدس في المعمودية، لأن المسيح مولود بالروح القدس وملء الروح القدس لم يفارقه لحظة واحدة ولا طرفة عين كونه هو الإله ابن الله الذي أخذ ناسوته من العذراء. بهذا نفهم تماماً أن الروح القدس حلَّ على البشرية التي يحملها المسيح كما هو حال فيه أصلاً، فكان حلوله على المسيح كالمثيل على المثيل. فإن قيل كما في الإنجيل إن المسيح رجع من نهر الأُردن وهو ممتلئ من الروح القدس، فهذا إشارة إلى امتلاء البشرية التي فيه؛ أمَّا هو فلم يوجد قط لا قبل الميلاد ولا بعد الميلاد بدون ملء الروح القدس.

وكما جاز المسيح الآلام بالجسد فقيل إننا تألَّمنا معه، وأيضاً جاز الموت بالجسد فقيل إننا متنا معه؛ هكذا جاز المسيح العماد بالجسد فينبغي أن يُقال إننا اعتمدنا معه. فكون المسيح هو ابن الله الذي لا يموت، فهذه حقيقة مطلقة، ولكن لم تمنعه من أن يموت بالجسد مشتركاً مع البشرية في عقوبة موتها ولعنتها حتى يوفي الموت واللعنة معها ليرفعها عنها إلى الأبد بقيامته. كذلك فالمسيح لم يكن بحاجة أن يعتمد كما أنه كان ليس بحاجة أن يتألَّم ويموت، ولكنه اعتمد من أجل البشرية التي فيه، وامتلأ بالروح القدس النازل من السماء من أجل البشرية التي فيه. إذن، فكل ما جازه المسيح في حياته على الأرض على المستوى البشري كان ضرورة لكي تَكْمُل البشرية التي فيه بالكمال اللاهوتي الذي له. كذلك كل ما حصل عليه من الاستعلانات والإلهامات الإلهية النابعة من أعماقه كانت أيضاً لكمال البشرية التي فيه. فالمسيح كان يحيا ويعمل بانسجام كلِّي ومطلق بين اللاهوت والناسوت أي البشرية التي فيه.

فالمسيح لمَّا تقدَّم للعماد كان على وعي كلِّي وإلهي أنه ابن الله المدعو للقيام بعمل مسيَّا الدهور بحسب الأنبياء، وكان يعلم علم اليقين حينما ذهب إلى العماد أنه إنما ذهب ليعتمد بهذا الجسد ليكمِّله إلى الكمال اللائق أن يجوز به الفداء. فكما كان يتحتَّم على ذابح خروف الفصح أن يتأكَّد من غسله بالماء وتطهيره أولاً وإلاَّ لا يذبحه، هكذا الفصح الذي قدَّمه المسيح بجسده كان يليق به أن يغتسل أولاً في الأُردن. لقد نزل المسيح المعمودية، والمعروف عنه عند الناس أنه ابن مريم، وخرج من المعمودية وقد عُرِف يقيناً بصوت الله من السماء أنه ابن الله بشهادة الآب من السماء والمعمدان يسمع ويشهد! الذي لم يكن إلاَّ مجرَّد استعلان عن واقع.

ماء المعمودية وعمله:

إنه يُحسب كتعبير قوي وبليغ أن المسيح يحمل بشرية موحَّدة ومصالحة معه بمعمودية واحدة للجميع فيه. وذلك بحسب جوهر القصد من معمودية يوحنا: «أنا أُعمِّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني ... هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار» (مت 11:3). إذن، فمعمودية الماء هي إعداد وتمهيد لمعمودية الروح القدس، تماماً كما نفهمها في العهد الجديد في طقس سر المعمودية في الكنيسة، حيث معمودية الدفن في الماء باسم الثالوث تهيِّئ للخروج من الماء (القيامة) وتَلَقِّي الروح القدس بالميرون.

فإذا أخذنا معمودية المسيح نفسها كرمز نبوي، يكون اعتماده بالغطس تحت الماء ثم الخروج لتقبُّل الروح القدس من السماء هو تصوير قوي لما سيجريه المسيح في نفسه بعبور الموت ثم القيامة بقوة الروح القدس.

الفصل الثالث

التجربة على الجبل

(مت 4: 1-11، مر 1: 12و13، لو 4: 1-13)

+ «**لأنه فيما هو قد تألَّم مجرَّباً يقدر أن يعين المجرَّبين.**» (عب 2: 18)

+ «**مجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية.**» (عب 4: 15)

▫ **[لقد ودَّع المسيح خدمته بين الناس بعشاء المحبة، ولكنه بدأ خدمته بوحدة عنيفة وصوم ثقيل.]** بابيني(5)

▪ "**آدم تجرَّب وسقط أمام عدوه، والمسيح تجرَّب وأسقط عدوه**".

▪ "**الذي قاله الشيطان للمسيح: «إن كنت ابن الله قل ...»، قاله أيضاً رئيس الكهنة للمسيح: «إن كنت ابن الله انزل ..»**".

22 ـ أهمية أن يُجرَّب المسيح من الشيطان قبل أن يبدأ خدمته

الآن قد استلم المسيح الرسالة بالصوت المسموع والرؤية العلنية للروح القدس، وهو يؤازره بالمنظور حتى يدرك المسيح أن الروح القدس سيعمل معه على المكشوف الذي يراه كل بشر. ولكن لا يزال يعوز الخدمة أن يتمرَّس المسيح كإنسان على أسلحتها في مواجهة الشرير وأعماله ويستوثق هو من سلطانه الأقوى في مواجهة رئيس هذا العالم. فاقتاده الروح للمقابلة الرسمية مع العدو وهو في عقر داره في القفر.

فإن كان المسيح قادماً ليفتتح ملكوت الله في صميم العالم، فهذا معناه اقتحام سلطة الشيطان رئيس هذا العالم ونهب داره أولاً الذي سلَّحه بأسلحة الخطية المتعدِّدة. إذن، فقد لزمت المواجهة.

وهكذا تقدَّم المسيح أعزل من سلطانه الإلهي، إذ قد تخلَّى عمداً عمَّا له، لكي يستطيع أن يقف موقفنا ويأخذ دورنا: [ففي كل ما انتصر فيه المسيح معناه أننا انتصرنا](6). وفي هذه المواجهة الساخنة مع الشيطان انتصرت البشرية فيه على مستوى البشر لأن كل ما انتصر فيه جسدياً انتصرنا فيه حتماً.

يلزمنا أن نتعرَّف أولاً على ما حدث في تجربة الشيطان للمسيح بناءً على رأي الرب يسوع في

---

(5) G. Papini, *op. cit.*, p. 63.

العلاقة التي بين المسيح والشيطان، وهي على مستوى المثل الذي قدَّمه المسيح لتلاميذه ليدركوا مَنْ هو المسيح ومَنْ هو الشيطان، وماذا فعل المسيح للشيطان كمحصِّلة للتجربة التي مرَّ بها على الجبل وفي خدمته بطولها بالنسبة للأشفية وإخراج الشياطين. وهو مَثَل أعطاه المسيح نفسه وهو يحمل سر قوة المسيح. والمَثَل الذي ساقه المسيح لقياس القوة بين المسيح والشيطان يأتي هكذا: «ولكن إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين، فقد أقبل عليكم ملكوت الله! أم كيف يستطيع أحدٌ أن يدخل بيت القوي وينهب أمتعته، إن لم يربط القوي أولاً، وحينئذ ينهب بيته؟» (مت 12: 28و29)

واضح من هذا الكلام أن المسيح:

أولاً: قد افتتح ملكوت الله وأصبح بيت إسرائيل بشخصه هو ملكوت الله.

ثانياً: إنه جاء وفيه الروح القدس كقوة رادعة للشيطان الذي هو الروح أو الملاك الساقط من السماء.

ثالثاً: ومن المَثَل أن المسيح ربط القوي وهو الشيطان أولاً، ثم دخل بيت القوي وهو القفر ونهب أمتعته! والسؤال متى وأين ربط المسيح هذا الشيطان القوي؟

واضح لدينا الآن أن بدخول المسيح إلى الشيطان في البرية القفر وعلى جبل التجربة، استطاع أن يدخل بيته وأن يربطه، بمعنى أن يشل حركته، أي يعرِّي أساليبه. وسوف نرى ذلك في موضوع التجربة على الجبل.

ولكن يعطينا ق. لوقا في إنجيله معلومة مضافة كالآتي: «حينما يحفظ **القوي** داره متسلِّحاً تكون أمواله في أمان. ولكن متى جاء مَنْ هو **أقوى منه** فإنه يغلبه وينزع سلاحه الكامل الذي اتَّكل عليه ويوزِّع غنائمه» (لو 11: 21و22). هنا إضافة ق. لوقا تأتي بخصوص الربط، إذ يضيف عليها أنه ينزع سلاحه الكامل الذي اتَّكل عليه قبل أن يوزِّع غنائمه، بعد أن يربطه ويغلبه.

وهذا يعطينا معلومة أن نزع السلاح الكامل يأتي بعد أن يغلبه. ويغلبه لأن المسيح هو الأقوى! وهذا كله يضاف إلى مفهوم تجربة المسيح على الجبل.

23 ـ التجربـة (مت 4: 1-10)

أول ما يسترعينا في هذه القصة أن الروح هو روح المسيح: [فروحه هو الذي اقتاده إلى البريــة](7)، [وبآن واحد نقول: إن روح الله هو الذي اقتاده إلى البرية.](8)

(أ) «ثم أُصعد يسوع إلى البرية "من الروح ليُجرَّب" من إبليس»:

إذن، فالتجربة أساساً موضوعة في تدبير الله كجزء من منهج رسالة المسيح وخدمته قبل دخوله في بدء الخدمة. ولذا فهي تختص أساساً بالخدمة، إذ يستحيل أن ينزل المسيح إلى الخدمة والشيطان حــرٌّ طليق يعبث بالناس ويعطِّل عمل المسيح! بمعنى أنه لَزِمَ أولاً أن يُربَط الشيطان ويُنْزَع سلاحه الكامــل الذي اعتمد عليه والذي جعله يطمئن على بيته وهو الإنسان؛ بعد أن يتغلَّب المسيح على الــشيطان "القوي" ويربطه لأن المسيح هو "الأقوى" ـ وهنا الروح القدس وارد بمعنى أن المــسيح يحمــل اللاهوت فهو أقوى ليس بالروح القدس، ولكن الروح القدس مرافق للاهوته لأنه الابــن بــشهادة الآب، وهذا هو سر قوته الفائقة على قوة الشيطان ـ حينئذ تبدأ جولة المسيح في مواجهة الــشيطان في الناس الذين تسلَّط عليهم إلى أن يتقابلا أخيراً عند الصليب.

(ب) «فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلةً، جاع أخيراً»:

واضح أن الصوم يجيء هنا كأول وأساس لعملية التجربة. والمعنى واضح أن التجربة ستبدأ مــن الجسد أي بصفة أن المسيح حامل البشرية. فبالتالي من حق الشيطان أن يتقدَّم ويجرِّب المسيح. لذلك لزم للمسيح أن يُعِدَّ جسده أو بشريته للتجربة بالصوم. أمَّا جوع المسيح بعد هذه المدة فهو إثبــات قاطع أن الجسد الذي يحمله انتهت طاقته في احتمال الانقطاع الكلِّي عن الأكل والشرب عند هذا الحد.

وعند هذا الحد تقدَّم الشيطان، لأنها أضعف لحظة للمسيح فيها يستخدم الشيطان الضغط علــى الجسد بالجوع والعطش ليقدِّم تجربته. فالجوع يُنشئ "شهوة" للطعام جارفة، ومن "الشهوة" سابقاً أُسْقطَ آدم وامرأته. فالشيطان متمرِّس في إسقاط الإنسان بعراكه مع شهوة الجسد، وهذا هــو أول أسلِحة الشيطان الكاملة. فتقدَّم الشيطان رافعاً سلاحه.

---

(7) A. Edersheim, *op. cit.*, p. 303.

(8) Ibid.

(ج) «**فتقدَّم إليه المجرِّب وقال له: إن كنت ابن الله فَقُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزاً**»:

هنا استغل الشيطان فرصة الجوع والعطش الشديد ليحرِّك فكر المسيح أن يعمل عملاً يتنافى مع رسالته ويستخدم لاهوته في إشباع جوعه بدلاً من إشباع جوع مَنْ جاء ليخلِّصهم. وهنا يكون المسيح قد خضع لمشيئة نفسه بإيحاء من الشيطان، وهي مخالفة صريحة مباشرة لقانون المسيَّا والخلاص: «لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني» (يو 38:6). وقد وضع الشيطان تجربته في قالب مناسب غاية المناسبة. فمنذ قليل وبعد المعمودية جاء الصوت من السماء يؤكِّد أنه ابن الله. فما المانع أن يتأكَّد هو من هذه الحقيقة، وبسلطان ابن الله يحوِّل الحجارة خبزاً؟ وهكذا يكون الشيطان قد حبك التجربة لتخلخل علاقة المسيح بالآب السماوي وتوحي للمسيح أن يستقل بإرادته عن مشيئة الآب. وعلى هذا الخبث **كان رد المسيح** لينزع سلاح الشيطان الكامل في العمل على استقلال مشيئة الإنسان عن مشيئة الله أو ابن الله عن الآب!

(د) «**فأجاب وقال: مكتوبٌ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله**»:

هنا التجاء المسيح وهو ابن الله إلى كلمة الله توضيحٌ لمصدر ''الأقوى'' عند المسيح، وهو ''سلطان الكلمة'' التي بها انتزع سلاح الشيطان الكامل الذي يقوم على استخدام مشيئة الإنسان بعيداً عن مشيئة الله، أو الابن عن الآب، لتكميل شهوة الجسد. فالخبز مهما كان ليس هو مصدر حياة الإنسان، بل كلمة الله التي تخرج من فمه لتُحيي وتُميت.

يُلاحَظ هنا أن رد المسيح: ''بكلمة الله التي تخرج من فمه'' (انظر: تث 3:8) هي بعينها لو طبقناها على التوراة ككل تصير ''كل وصايا الله''. حيث الاتجاه التعليمي يكون الطاعة لوصايا الله وإرادته، وهي التي عبَّر عنها المسيح بقوله: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمِّم عمله.» (يو 34:4)

فالشيطان يستغل الجوع ويُظهر عطفه لئلاَّ يموت الإنسان، مُحرِّضاً إيَّاه ليعمل الخطأ والممنوع (يسرق مثلاً) لكي يحيا ولا يموت، وردَّ المسيح أن الحياة ليست من الخبز بل الحياة في كلمة الله.

وهنا انتهى الشيطان من التجربة القائمة على شهوة الجسد بتكسير سلاحه وانتزاعه. فابتدأ يصوِّب التجربة الثانية، وهي قائمة على رد المسيح أنَّ بكلمة الله يحيا الإنسان. فهنا تقدَّم الشيطان بمشروعه الثاني القائم على الاعتماد على كلمة الله.

(هـ) «**ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدَّسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوبٌ: أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجرٍ رجلك**»:

وهذا وارد حقـــاً في المزمور (91: 11و12).

وهنا يستخدم الشيطان سلاحه القائم على أساس استخدام كلمة الله للفخـــار والمجـــد الـــذاتي. فسلاح الشيطان هنا مصوَّب نحو كلمة الله لكي يجعلها أساس التجربة. فبهذه المناسبة نجـــد ســـلاح العدو من نفس صنف سلاح الفرِّيسيين الذين طلبوا من المسيح آية، فكان ردّه أنه لا تُعطى لهم آيـــة إلاَّ آية يونان النبي، والتي كانت قائمة على استخدام كلمة الله لتبكيت أهل نينوى وإنذارهم بـــالهلاك إن لم يتوبوا. هذا هو سلاح الكلمة الأقوى. فكان رد المسيح:

(و) «**قال له يسوع: مكتوبٌ أيضاً: لا تجرِّب الرب إلهك**»:

هنا القوة الأقوى انبرت لتحطيم سلاح العدو بسلطان الكلمة نفسه لتظل كلمة الله ضد العـــدو قادرة أن تحطِّم أسلحته وفخاخه على أساس أن عدم تجربة الله يستند على الثقة بالله. وهنـــا تقـــدَّم الشيطان بسلاحه الأخير، مصوِّباً إياه نحو رسالة المسيح القائمة على أساس تحمُّـــل الآلام والـــصَّلْب والموت لخلاص العالم، وهي أيضاً مشيئة الله الآب.

(ز) «**ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبلٍ عالٍ جداً، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أُعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدتَ لي**»:

هنا سلاح العدو مصوَّب ضد "الآب" نفسه الذي أرسل الابن لخلاص العـــالم مبـــذولاً علـــى الصليب. فقدَّم الشيطان مشروعه في المقابل: أن يكسب العالم كله لحسابه لو عصى الآب وأطـــاع الشيطان. وهو بهذا يتجنَّب الآلام والصليب. ولذلك كان رد المسيح حاسماً وقاطعاً ضد تجربته.

(ح) «**حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان! لأنه مكتوبٌ: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد**»:

على أساس أن نوال مُلك العالم من دون الله خيانة لله. لذلك فهذا الرد الإلهي يستند على الأمانة المطلقة لله.

كانت التجربة الأخيرة التي قدَّمها الشيطان هي نفسها التي كان قد سقط فيها الشيطان نفسه؛ إذ عصى الله قديماً فأُسقط من رتبته التي كانت رئاسته العُليا على بقية الملائكة، وأخذ رئاسته الـــسُّفلى على العالم المادي، وذلك بمشيئة الله كمجرِّب أو كحزب معارضة ضد تعـــاليم الله، وليمكنـــه أن يستولي ـ إن استطاع ـ على الإنسان الذي خلقه الله على صورته لكي يعبـــده، والله عـــالم أنـــه سيستعيده بقدر ما يكتشف الإنسان الحق. وهكذا انتقلت رئاسة الشيطان مـــن وضـــعها الإيجـــابي الروحي العالي ـ قبل سقوطه ـ إلى وضعها المادي الأسفل والسالبي، وبدل أن كانت للخير كخادم

لله صارت للشر كمقاوِم ومجرِّب ولكن تحت انضباط الله. هنا المسيح صوَّب سلاحه الأقوى والغالب لتحطيم سلاح الشيطان الأخير، ذلك بالرجوع إلى الله مصدر السلطات والمجازاة والعطايا، بأنه يتحتَّم السجود لله وحده والطاعة الكاملة مع العبادة، مذكِّراً الشيطان بجريمته.

إلى هنا يكون المسيح قد حطَّم سلاح العدو الكامل وبالتالي ربطه، حيث الرباط والتقييد هنا هو نتيجة حتمية لتحطيم سلاحه الكامل الذي اعتمد عليه، وهو أنواع المراوغة ووسائل الخداع لإسقاط الإنسان بعيداً عن الله ووصاياه.

(ط) **«وينهب أمتعته»**: (مت 29:12)

وبعد أن ينتزع سلاحه ويربطه «ينهب أمتعته» وهنا عملية الخدمة بطولها، حيث كان عمل المسيح مُرَكَّزاً بصورة أساسية ومُلفتة إلى إخراج الشيطان بقوة واقتدار وسلطان. ففضح الشيطان وحرَّر مئات وربما ألوفاً من الذين كان قد استولى عليهم الشيطان وصاروا من ممتلكاته أو أمتعته التي يتمتَّع ويتسلَّى بتعذيبها كخليقة الله التي وقعت في يده فريسة.

وهكذا ينكشف منهج المسيح بوضوح كيف نزع أسلحته قبل بداية الخدمة وقيَّده، فلم يَعُدْ له قدرة على مواجهة المسيح. ثم نزل المسيح إلى بيت الشيطان الذي اختبأ فيه هو والأشخاص الذين استولى عليهم وسكن فيهم سُكنى المتاع والاستمتاع، وهناك أخرجه عنوة وفضحه. وهذه أمثلة من صراخه:

+ «وإذا هما قد صرخا قائلين: ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟ أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذِّبنا؟»(مت 29:8)
+ «آه ما لنا ولك يا يسوع الناصري. أتيت لتهلكنا. أنا أعرفك مَنْ أنت: قدوس الله.»(مر 24:1)
+ «أستحلفك بالله أن لا تعذبني.» (مر 7:5)
+ «أطلب منك أن لا تعذبني.» (لو 28:8)

وبهذا كله كان المسيح يرد على الشيطان فيما عمله في خليقة الله التي أهانها وعذَّبها: «والمعذَّبون من أرواحٍ نجسةٍ. وكانوا يبرأون.» (لو 18:6)

هذا طبعاً مضافاً إليه كشف المسيح لأفكار الشيطان وأعماله في سلوك الناس وتلويث عبادتهم.

بقيت في حركات الشيطان وأعماله عملية واحدة لها علاقة هنا بالتجربة "**في البرية**" إذ السؤال: لماذا ذهب المسيح بنفسه مُقاداً بالروح إلى "البرية" ليُجرَّب من إبليس؟ والجواب قدَّمه المسيح في

موضع آخر هكذا:

(ي) «**إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء، يطلب راحة ولا يجد. ثم يقول: أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيأتي ويجده فارغاً مكنوساً مزيَّناً. ثُمَّ يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أُخر أشر منه، فتدخل وتسكن هناك، فتصير أواخر ذلك الإنسان أشرَّ من أوائله. هكذا يكون أيضاً لهذا الجيل الشرير.**» (مت 12: 43-45)

واضح هنا أن البرية هي المكان المفضَّل للعدو الذي يجعله مركز تجمعه وراحته. فالمسيح بذهابه إلى البرية، دخل إلى الشيطان في عقر داره بصفته الأقوى، ونازله وانتزع أسلحته وربطه ونزل إلى الخدمة ونهب أمتعته.

(ك) «**ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين.**» (لو 4:13)

واضح من هذه الآية، أنه بعد أن فقد الشيطان جولته مع المسيح وخرج منهزماً ومربوطاً، فارقه إلى حين، بمعنى فارقه ليتقابل معه على الصليب؛ حيث أنهى المسيح معه جولته الأخيرة وانتزع كل سلطانه المؤسَّس على الخطية التي هي آخر أسلحته وأمضاها:

+ «مسامحاً لكم بجميع الخطايا، إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض، الذي كان ضدًّا لنا، وقد رَفَعَهُ من الوسط (بيننا وبين الله) مسمِّراً إياه بالصليب، إذ جرَّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً، ظافراً بهم فيه.» (كو 2: 13-15)

24 ـ نظرة إلى مجموع التجارب وهدفها

إن أهم ما يمكن أن نقوله بخصوص هذه التجارب التي جازها المسيح: إنها لم تُصوَّب إليه كونه "ابن الله" فهذا مستحيل ولا يستطيعه الشيطان، ولكنه لَّما تجسَّد الابن الكلمة وأخذ جسد الإنسان، أي صار بشراً، أصبح في متناول الشيطان لأنه جرَّب مع آدم ونجح. فالتجارب مصوَّبة للمسيح ابن الله المتجسِّد باستغلال أخذه ضعف الإنسان أي جسده.

وبالمقابل فإن المسيح دخل إلى تجربة الشيطان وهو حامل البشرية وممثِّلها بقصد مباشر هو أن يجيز البشرية التي فيه، وهي أضعف ما فيه، كل تجارب الشيطان، ثم يغلب الشيطان، وبجسده الضعيف، يحطِّم أسلحته وقوته وذلك لحساب الإنسان الجديد أو الخليقة الجديدة التي ستقوم به وفيه من بين الأموات. لذلك قالها المسيح واثقاً مما عمله بفم الإنسان الجديد الذي فيه قبل أن يجوز به الموت لينهي منه قوة الخطية إلى الأبد: «**لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء**»

(يو 14:30). فقد صفَّى المسيح حساب الشيطان مع الإنسان قبل أن يدخل بجسده الموت حتى لا يُمسك منه في الموت؛ بل قام به جديداً منيراً خليقة جديدة لحساب الإنسان.

على أن التجربة مع الشيطان كانت تمهيداً للتجارب والمصادمات التي كانت تنتظره مع الكتبة والفريسيين، وأعطته الإحساس الداخلي كيف يتعرَّف على التجربة من أين هي آتية وإلى أين هي مصوَّبة. فقد أدرك أفكار العدو وكشف حيله، فلم تكن التجارب بعد ذلك خارجة عن متناول معرفته وسلطانه.

لقد جاز المسيح تجارب الشيطان والكتبة والفرِّيسيين ورؤساء الكهنة، وبالنهاية قال لتلاميذه: « دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم» (مت 18:28و19). لقد تخلَّى المسيح عن مظاهر المجد والقوة وحارب الشر والأشرار ببرِّه الذاتي الشخصي، فغلب واسترد كل سلطان له ليحكم ويدين.

لقد كان القصد والغاية من التجربة التي جازها المسيح إزاء الشيطان أن **يختبر علاقة المسيح بالله أبيه.** بالرغم أن التجربة في ظاهرها أصابت الجسد حيث تتركَّز التجربة في: (أ) شهوات الجسد الطبيعي، (ب) الشهوات النفسية للطبيعة الإنسانية، (ج) شهوة الإعجاب بالذات والتكريم من الآخرين وامتلاك القوة.

أمَّا جوهر التجربة الحقيقي فهو موجَّه نحو الدعوة التي دُعِيَ إليها المسيح، فهي مصوَّبة بإتقان لتخريب العلاقة بين المسيح والله لإصابة طاعته وثقته وأمانته في الله. وهذا واضح جداً في عرض الشيطان للمسيح بأن يُسلِّمه مملكة العالم كله إن هو سجد له. أمَّا ثقة المسيح في الله فتعرَّضت للتجربة بتقديم فكرة طرح المسيح لنفسه من فوق جناح الهيكل. وأمَّا طاعة المسيح لله في كل شيء فامتحنها الشيطان بعرض فكرة تحويل الحجر إلى خبز، الأمر الذي ازداد وضوحاً برد المسيح عليه: « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله» أي الوصايا والطاعة لها. كما جاءت في (تث 3:8)، حيث تكون الحياة في خضوع كلِّي لمشيئة الله.

من هنا يظهر لنا أن المعمودية وبعدها التجربة هما فصل واحد متماسك ومتشابك في بدء حياة المسيح وخدمته، حيث **في المعمودية** يتم اختيار الله للمسيح وتعيينه للعمل، يقابله **في التجربة** رد فعل المسيح في المحافظة على هذا الاختيار بمنتهى حرية المسيح **والأمانة** الكلِّية لله الآب، **والثقة** فيه، **والخضوع** والطاعة له **كملك.**

وهكذا وقبل أن يبدأ خدمته تعيَّن المسيح رسمياً من الله كمختار الله للعمل في تأسيس ملكوته

على الأرض، كما تمَّ إثبات أمانة المسيح وثقته وخضوعه لله كملك لملكوته على الأرض، وأن كل ما سيتم في هذه الخدمة سيكون من أجل الله، مع الله، وتحت الله؛ حيث المسيح سيكون العامل الأمـــين الكامل للملك الكامل.

الأناجيل تُثبت وتوضِّح هذا الأمر:

+ «إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله.» (مت 12:28)

هنا واضح أن القوة التي سيُمارس بها المسيح إخراج الشياطين هي قوة الله الملك.

+ «ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أُمي وإخوتي، لأن مَنْ يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي.» (مر 3: 34و35)

وهنا واضح أن المسيح جاء ليصنع مشيئة الله بدليل أن كل مَنْ يصنع مشيئة الله يكون منتسباً إليه: "بيت الله".

+ «وأمَّا الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلاَّ للذين أُعدَّ لهم.» (مر 10:40)

+ «وأمَّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلاَّ الآب.» (مر 13:32)

وهنا واضح أن المسيح يترك ما لله في يد الله وليس له إلاَّ أن يصنع مشيئته.

الجزء الثاني
منهج الخدمة عند المسيح من واقع الإنجيل

[بعد أن أكمل ردع الشيطان على الجبل جهاراً،
نزل ليردعه في الناس نهاراً.] (بابيني)(1)

سنقدِّم تحت هذا البند ستة وثلاثين اتجاهاً كانت أساساً لخدمة المسيح

(1) G. Papini, *op. cit.,* p. 68.

1 ـ الفكر والمشيئة والفعل هم واحد عند المسيح

الفكر لا يسع الأعمال العظيمة دفعة واحدة، بل الأعمال العظيمة هي التي تُلهم الفكر. فـالفكر خادم الإلهام.

ولكن في المسيح كان الإلهام والفكر شيئاً واحداً، لأن الفكر في المسيح إن حسبناه في دائـرة البَشري أو الإلهي فهو واحد، وهذا ما يميِّز المسيح عن كل نبي أو عالم، لأن طبيعة المسيح موحَّـدة الأصل والمنبع، لها كل ما للإنسان وكل ما لله بآن واحد.

فكل ما شاءه المسيح وفكَّر فيه عمله، وكان عمله مطابقاً لمشيئته وفكره، لأن الكلمة والفعل في المسيح هما واحد.

ولكن المسيح لم يكن آلة في يد الله كمجرَّد إنسان أو نبـي، بل كان كيانه منفتحاً على الله؛ إذ كان في الآب والآب فيه، **فكان الفكر والمشيئة أو الكلمة والفعل مصدرهما واحد الله والمـسيح.** لذلك كانت كلمة المسيح نافذة في الحال. وكل ما قال عمل. وكان القول الذي يقوله يستعلنه هو نفسه، أي أن القول يستعلن المسيح، وكذلك الفعل يستعلنه مَنْ هو: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال» (يـو 37:10و38). بمعنى إن لم تؤمنوا بأقوالي آمنوا بأعمالي، فهذه وتلك هما من الله.

2 ـ أساس عمل المسيح هو إعداد الملكوت الذي يتَّسع لكل العالم

إن أول إعلان قدَّمه المسيح ليتصدَّر العمل في العهد الجديد كان هو الإعلان عن اقتراب ملكوت الله: «**من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكـوت الـسموات**» (مت 17:4). بمعنى أن المسيح قد جاء ليؤسِّس ملكوت الله بين الناس، لا كأنه عمل بلا أساس أو دون مقدِّمة كاملة الصورة! فالعهد القديم تأسَّس كعمل خاص ليهوه الله العظيم، وكان يبدو وكأنه خاص باليهود، لكنه شمل في مفاهيمه وأسراره احتياجات البشرية كافة، وإن كان تطبيقه على هـذا الشعب القليل قد كشف مستوى افتقاد الله للإنسان كعيِّنة.

إذن، فملكوت الله الذي جاء المسيح ليعلنه كان قد وُضع أساسه في العهد القديم على مـستوى كيفية افتقاد الله للإنسان. هذا إذا أدركناه جيداً فإنه يوفِّر علينا السؤال عن منهج المسيح وخطته في الكشف عن ملكوت الله وعمله، الذي ابتدأ به بالقول والعمل.

على أن الفارق الكبير الذي يمتاز به ملكوت الله ـ الذي جاء المسيح ليستعلنه ـ أنه بقدر ما كان القديم منظوراً في شكله الظاهري ومنحصراً في شعب اليهود القليل المحدود الفكر والرؤيا، قد جاء المسيح ينادي بملكوت يتَّسع للعالم كله في شركة إنسانية غير منحصرة في لون أو جنس. فهي ترتفع عن مستوى البشر عامة لتأخذ صفتها ووجودها في الله ذاته، الذي فيه تأخذ وحدها السرِّية الكبرى لحياة هي النموذج الأمثل لإنسان الله الذي يليق لكل البشر. فعِوَض أنْ كان الله يحكم إسرائيل بحكومة تتناسب مع بداءة الإنسان وتهذيبه إنسانياً، جاء المسيح لينادي بملكوت الله للإنسان الكامل المؤيَّد بالنعمة والمسنود بالروح القدس.

وبدل أن كانت قوانين الحكومة الأُولى ـ الناموس ـ تعالج كافة متعلقات الإنسان الجسدية من نحو حياته على الأرض وعلاقته بالله بواسطة أشخاص تعيَّنوا من الله، يأخذون إلهامهم الأوَّلي من الله سواء كانوا أنبياء أو كهنة أو ملوكاً؛ جاء ملكوت الله الذي نادى به المسيح ليقرِّب الإنسان إلى الله. الأول كان يعالج عنصر الخطية المتأصِّل في الطبيعة البشرية المتغربة عن الله، أمَّا الثاني فجاء لينزع هذا العنصر ـ عنصر الخطية ـ من الطبيعة البشرية التي وُلد بها المسيح بدون الخطية. فكانت طبيعة المسيح بالتالي هي التي تؤخذ منها مكوِّنات هذا الملكوت الروحي: «تعلَّموا مني ...» (مت 29:11). ولهذا الأمر بالذات، أي الاقتداء بالمسيح في الإعداد للملكوت، صار استعلان الله في تعاليم المسيح يُقرِّب الإنسان أكثر فأكثر نحو الله! فأصبح نداء المسيح وعمله باقتراب ملكوت الله من الإنسان هو بعينه الوسيلة العظمى لاقتراب الإنسان من الله. وهو المحور الأساسي في الكرازة بملكوت الله. لا لشعب إسرائيل بعد بل لكل العالم!

3 ـ معنى ملكوت الله وعلاقة الملكوت بالخلاص

معنى الملكوت منذ القِدَم هو ''حكم الله كملك''. فالملكوت هو العلاقة الأبدية التي تربط الله بالإنسان. ولا مجال للسؤال هنا هل هي علاقة في الحاضر أو المستقبل؟ بسبب عدم صحة السؤال هل أبوَّة الله هي في الحاضر أو في المستقبل؟ فالعلاقة بين الله والإنسان تسمو فوق الإحساس بالزمن والمكان، أي أنها علاقة مطلقة أبدية. فهي تقوم من قِبَل الله بالمحبة الأبوية وتقوم مع الإنسان بالخضوع البنوي. فقبول الله على هذا الوضع هو بعينه قبول ملكوت الله. وهكذا لحظة أن يقبل الإنسان الله كآب يحبّه ويرعاه؛ يكون ملكوت السموات قد تحقَّق له كحقيقة حاضرة معه وله. وبهذا يكون استعلان ملكوت الله في الحاضر يعني وجود مؤمنين خاضعين لله من كل قلوبهم وطائعين لمحبته **يعيشونه**. أمَّا في نهاية الزمان حينما يبلغ الملكوت مِلأه، حينما يأتي المسيح ويُستعلن المجد النهائي، فهذا هو ملكوت المستقبل الذي **يترجّونه**. فالملكوت هو حقيقة قائمة فوق الزمان والمكان، وحقيقة معاشة في الحاضر الزمني، وحقيقة نرجوها في المستقبل، برجاء قوي صادق كما وصفها بولس الرسول:

+ «وبعد ذلك النهاية، متى سلَّم (المسيح) المُلك (الملكوت) لله الآب، متى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة. لأنه يجب أن يَمْلكَ (الملكوت الآن في الحاضر) حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه. آخر عدوٍّ يُبطَلُ هو الموت. لأنه أخضع كل شيء تحت قدميه ... ومتى أُخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل، كي يكون الله الكل في الكل.» (1كو 15: 24ـ28)

واضح غاية الوضوح التفريق بين الملكوت كحقيقة واقعة حاضرة معلنة في حياة الناس الآن، وبينه في النهاية العامة التي بها يبلغ المُلك النهاية على الأرض في الحاضر الزمني ويُستعلن الدهر الآخر، حيث الملكوت يدخل الأبدية تحت مُلك الله ليكون بالنهاية الله الكل في الكل. فالملكوت في الحاضر الآن هو ملكوت يسوع المسيح الذي يتحتَّم أن يملك ويحكم حتى يضع جميع أعدائه تحت قدميه، ثم يأتي المنتهى حينما يزول آخر عدو ويُخْضَع، وهو ''الموت'' الذي يتلاشى بالظهور الإلهي المجيد، ويقوم الجميع في قيامة واحدة، أي الذين هم للمسيح يسوع. حينئذ يسلِّم المسيح ملكوته المتكامل لله أبيه مصدر كل قوة وسلطان ومجد، الذي تبلغ به النصرة منتهاها.

ولكن مفهوم الملكوت بالنسبة للإنسان المسيحي، المنحصر في العلاقة بين المسيح وبينه، لا يخرج

عن مفهوم الخلاص. فالمسيح نفسه بحسب اسم يسوع الذي تسمَّى من الملاك ليوسف هو ''الخلاص''، وسمعان الشيخ لمَّا حمله على يديه عندما دخل به أبواه الهيكل قال: «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك» (لو 2: 29و30). فترجمة ملكوت الله بلغة العلاقة الشخصية مع المسيح هو الخلاص والفداء، الذي هو عمل المسيح، وهو حادث الآن ولكن لن يكمل إلاَّ بالنهاية. فالخلاص هو الصورة الزمنية المصغَّرة للملكوت.

4 ـ إخفاء المسيح لمسيَّانيته كان أمراً هاماً في رسالته

المسيح كان يعي مسيَّانيته منذ بدء نزوله للخدمة حتى ختامها، ولكن لم يكن إعلانه عنها في البدء كما كان في الختام. إذ كان حذراً أشد الحذر في بداية خدمته ـ بعد أن كشف عن سلطانه الفائق على الشيطان والأمراض بكل أنواعها وعلى الطبيعة ـ أن يكتشف الناس أنه مسيَّا الآتي. والسبب في ذلك لم يكن في شيء ينقصه؛ بل للتعاليم الخاطئة التي سَرَتْ بين الشعب بكل فئاته أن المسيَّا الآتي سيكون على مستوى السياسة: ملك مُحارب، وعلى مستوى الخلاص يخلِّص الشعب من عبوديته تحت أيدي الرومان. حيث فُهمت الآيات في النبوَّات والمزامير فهماً خاطئاً يتناسب مع عقلية الشعب وتصوُّراته، فالمسيَّا ''سيضرب الأُمم بعصا من حديد''، «تحطِّمهم بقضيب من حديد مثل إناء خزَّاف تُكسِّرهم» (مز 2:9)، «أَفِضْ رجزك على الأُمم الذين لا يعرفونك وعلى الممالك التي لم تدعُ باسمك.» (مز 79:6)

لذلك حرص المسيح أشد الحرص أن لا يفهم الشعب أنه المسيَّا الآتي للحرب والسياسة والخلاص من أيدي الرومان والأعداء. فكان يوعِّي تلاميذه أن لا يقولوا إنه المسيَّا، وأيضاً المرضى وكل الذين أخرج منهم الشياطين أمرهم أن لا يقولوا لأحد. والشياطين التي كانت تعترف أنه ابن الله وأنه جاء ليعذِّبهم كان ينتهرهم حتى لا يتكلَّموا. كل ذلك كان بقصد أساسي أن لا يخطئ الشعب في فهم مسيَّانيته. ولكن عدا ذلك كان يقولها صراحة أنه ابن الله وأنه جاء ليخلِّص من الخطية والعدو الحقيقي وهو الشيطان. ولمَّا سأل المسيح تلاميذه ماذا يقولون عنه: مَنْ هو، واعترف بطرس أنه المسيح ابن الله الحي، تهلَّل المسيح بالروح وعلَّق على ذلك بأن الآب نفسه ـ وليس لحم ولا دم ـ هو الذي أعلن له هذا. وبعدها ابتدأ المسيح يُعلن عن آلامه المزمعة وموته وقيامته.

بمعنى أن المسيح كان يتمشَّى في إعلانه عن نفسه بالقدر الذي يتساوى مع إمكانية التلاميذ والشعب في إدراك مسيَّانيته الإدراك الحقيقي والصحيح.

أمَّا في أواخر خدمته للملكوت فابتدأ يُعلن صراحة ـ سواء بأقواله أو بأعماله ـ أنه هو مسيَّا الآتي. كما أعلن ذلك صراحة ومواجهة لرؤساء الكهنة: «فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع أنت قلت، وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء.» (مت 26: 63و64)

أمَّا الشعب فقد استخدم معهم التعليم المتدرِّج والتعبيرات المخفية، مثل: ابن الإنسان، وهو الاصطلاح النبوي الذي تكلَّم عنه دانيال أنه هو مسيَّا الآتي، صاحب الملكوت والمملكة الآتية، ذلك حسب التقليد. وبالرغم من ذلك لم يستطع أن يمنع الشعب ـ الذي أطعمه من الخمس خبزات والسمكات القليلة ـ من أن يكتشف أنه هو المسيَّا الملك الآتي إنما بمفهوم الخلاص المادي والحربي ومُعطي خبز الراحة. فقاموا قومة واحدة وانضم لهم التلاميذ ليمسكوه عنوة ويجعلوه ملكاً، مما جعل المسيح يُلزم تلاميذه بركوب السفينة في الحال وبأن ينطلقوا عبر البحيرة. واستطاع بسلطانه أن يهدِّئ هذه الزوبعة وانطلق وحده في الجبل ليُصلِّي، إذ كانت هذه تجربة قد ساقها العدو ليفسد عليه استعلان ملكوته الروحي.

لذلك ولا محالة قد خسرنا كثيراً جداً من إمكانيات استعلان المسيح لنفسه على المكشوف أثناء تعليمه وخدمته. أمَّا هو في ذاته فكان إحساسه بمسيَّانيته وبنوَّته لله أمراً واضحاً شديد الإشعاع، مع تواضع ووداعة فائقة التصوُّر. اسمعه وهو يتكلَّم عن نفسه: «فالذي قدَّسه **الآب** وأرسله إلى العالم، أتقولون له: إنك تجدِّف، لأني قلت **إني ابن الله!**» (يو 10:36). ثم اسمع تواضعه العجيب في احتجاج لطيف: «قال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا **إنسان** قد كلَّمكم **بالحق الذي سمعه من الله**، هذا لم يعمله إبراهيم» (يو 8: 39و40). فمن هذين التصريحين نتيقَّن كيف كان يحمل الإحساس المتعاظم جداً بلاهوته والمتواضع جداً ببشريته!! فلما أرادوا إحراجه أن يكشف عن نفسه علانية، زادها خفاءً دون أن يُنقص من حقيقة نفسه: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلِّق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً. أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي» (يو 10: 24و25). إلى هذا الحد كان حريصاً جداً أن يترك لهم هم أن يقولوا: مَنْ هو؟ وكانوا متحيِّرين ومنقسمين بسبب تدخُّل الفرِّيسيين في التقليل من تعاليم المسيح ومعجزاته: «وها هو يتكلَّم جهاراً ولا يقولون له شيئاً! ألعلَّ الرؤساء عرفوا يقيناً أن هذا هو المسيح حقاً؟» (يو 7:26)

5 ـ حركة الامتداد بالملكوت على أساس وجود المسيح الذاتي وتعليمه

لقد ابتدأ المسيح بضرورة التوبة لأن ملكوت السموات قد اقترب، و لم يكن في الحقيقة يقصد إلاَّ نفسه. فالملكوت اقترب باقتراب صاحبه ومُعلنه. ليس بتجسُّده فقط بل وبكرازته. أمَّا التوبة عند المعمدان فكانت بمعنى الرجوع من البُعد عن الله وعبادة الأصنام بأشكالها إلى عبادة الله كما هي معلنة لهم في الناموس؛ وأمَّا مناداة المسيح بالتوبة فهي على أساس العودة بالقلب إلى الله بالإيمان بشخصه: «أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي.» (يو 6:14)

فإن كان الملكوت **قد اقترب إليهم** بدخول المسيح في الخدمة والتعليم، أي على أساس استعلان ذاته أنه ابن الله، فالملكوت امتد أول امتداده واضحاً ومشهوداً له بإخراجه الشياطين عنوة بكلمة واحدة آمرة ناهرة: «ما هذا؟ ما هو هذا التعليم الجديد. لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه» (مر 27:1). لذلك صرَّح بإعلانه الثاني عن الملكوت أنه قد "**أقبل إليهم**": «**ولكن إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله**» (مت 28:12). وهنا الإقبال بالنسبة للملكوت يعني رفع أكبر عائق كان يحجزه عن الشعب المكبَّل تحت سلطان الشيطان، سواء في الجسد بالأمراض والاستحواذ، أو بالفكر في الضلالات وتلويث العبادة. على أن رفع هذه العوائق كلها كانت بمجيء المسيح أو إقباله على الشعب بالخدمة والكرازة.

فهكذا بقدر ما كانت أعمال المسيح تتقدَّم في الارتقاء بالشعب من الظلمة ـ بكافة أركانها الفكرية والنفسية والجسدية والروحية ـ إلى نور الحق والحرية والحياة؛ بقدر ما كان استعلان المسيح لنفسه كابن الله وقبول الشعب الإيمان به وامتداد الملكوت، كان يزداد.

6 ـ نقل الملكوت من وضعه الخاص لإسرائيل إلى وضعه العام لجميع الأُمم

ظهرت هذه الحقيقة كبذرة صغيرة في لحظة دخول المسيح الهيكل وهو طفل على ذراعي أُمه، حينما حمله سمعان البار الذي أُوحي إليه بالروح القدس أن يتقدَّم وترى عيناه خلاص الله. فلمَّا حمله قال نبوَّته: «لأن عينيَّ قد أبصرتا **خلاصك الذي أعددته قدَّام وجه جميع الشعوب، نور إعلان للأُمم** ومجداً لشعبك إسرائيل.» (لو 2: 30ـ32)

كانت بداية الإعلان عن ملكوت الله أنه الخاص جداً بخراف إسرائيل الضالة. فقد صرَّح المسيح للمرأة الكنعانية بوضوح عندما ألحَّت عليه أن يرحمها، هكذا: «لم أُرسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت 24:15). بل وحينما أرسل تلاميذه للخدمة أوصاهم قائلاً: «إلى طريق أُمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »(مت 10: 5و6). هذا يشكِّل لنا بحسب الظن بداية منهج الخلاص والملكوت. وهذا بالتالي يكشف لنا بحسب هذا الظن أنها كانت أيضاً هي أصل رسالة الآب للمسيح في عملها الأول: «لم أُرْسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» وكان رجاء البشرية أن يقبل اليهود هذه الرسالة المخصَّصة لهم كأُمة كانت محبوبة ومختارة، وعليهم وبهم يكمل المنهج كما كُنَّا نظن: أن تقوم إسرائيل المجدَّدة بدور المسيح لتكون نوراً للعالم. هذا هو الذي كنَّا نفهمه من النبوَّات بخصوص المسيح أنه ''مجد إسرائيل''، ''ونور للأُمم''. فالمجد إذا كَمُل وتجلَّى في إسرائيل صار نوراً للأُمم بالضرورة. لأن قيام أُمة مستنيرة بالله ومدفوعة بالنعمة وقوة الخلاص لتبشير العالم أسهل من كرازة واحد. هذا كان في ظن الإنسان، بل إن ما أبداه المسيح من نحو إسرائيل لآخر لحظة كان لتكميل هذا الأمل.

ونحن لا يمكن أن ننسى البداية المشرقة التي أعلنها المسيح بنفسه عن نفسه ـ كما حكى إشعياء النبي منذ سبعمائة سنة ـ وهو يقرأ نبوَّته في مجمع الناصرة حيث تربَّى، مؤكِّداً للشعب أنه اليوم قد تمَّت النبوَّات وانفتح على إسرائيل باب مراحم الله لعهد جديد، عهد رحمة وشفاء مجَّاني وسنة مقبولة للرب. واختتم النبوَّة الطويلة بروح مبتهجة وبكل أملٍ ورجاء:

+ «فدُفع إليه سفر إشعياء النبي. ولمَّا فَتَحَ السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه: روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأُنادي للمأسورين

بالإطلاق والعمي بالبصر، وأُرسل المنسحقين في الحريَّة وأكرز بسَنَةِ الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلَّمه للخادم وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: إنه اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم.» (لو 4: 17ـ21)

ولقد استجمع المسيح كل ما يمكن أن يستوعبه ملكوت الله من صفات وأعمال وشحنها شحناً في عظته الخالدة على الجبل، كمن يلقي خطاب العرش، ويستعرض مناهج خدمته وتعليمه التي بذل فيها كل ما يملك من وسائل تعليم وآيات ومعجزات. بل ورأى أن تجديد الأُمة وشيك إن انفتحت آذانهم وعيونهم، فخاطب تلاميذه واعداً: «أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً ...» (مت 28:19). ولكن واحسرتاه، منهج التجديد أُكمل حتى الغاية والنهاية، ولكن رفضته إسرائيل بإصرار وحكمت على نفسها بالحرمان منه لتتلقَّفه الأُمم.

7 ـ رفض إسرائيل للملكوت هو الذي نقله للأُمم

لَّما رفضت إسرائيل الملكوت نهائياً بكى عليها المسيح وهو في موكبه كملك يطلب مُلْكَه، عندما دخل أبوابها راكباً على جحش رمز اتضاعه، وتلاميذه والجموع من أمامه وخلفه تصرخ له: «مبارك الآتي باسم الرب! مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب!» (مر 11: 9و10). ولكنه رثاها وهو يبكي عليها وكأنه يعاتبها: «كم مرَّة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها و لم تريدوا» (مت 37:23)، «وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً: إنكِ لو علمتِ أنتِ أيضاً حتى في يومكِ هذا ما هو لسلامكِ ولكن الآن قد أُخفي عن عينيكِ» (لو 19: 41و42). فالمسيح ظلَّ يرجو لهم ملكوت الله إلى آخر لحظة، وفي آخر يوم من خدمته أدرك مصير الأُمة، فواجه اليهود بمثله عن الكرَّامين الأردياء، الذي اختتمه بسؤال حرج جعلهم هم الذين ينطقون بما ينبغي أن تكون العقوبة: «فأخذوه وأخرجوه (ابن صاحب الكرم) خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم، ماذا يفعل بأولئك الكرَّامين؟ قالوا له: أُولئك الأردياء يُهلكهم هلاكاً رديًّا، ويُسلِّم الكرم إلى كرَّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها» (مت 21: 39ـ41). فكان تعقيب المسيح على حكمهم هذا: «لذلك أقول لكم: **إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأُمة تصنع أثماره.**» (مت 43:21)

8 ـ العقبات والمصادمات
كانت تدفع المسيح أكثر للخدمة وتكميل الرسالة

لم يكن المسيح متغاضياً أو مستهيناً بحركات المقاومة التي بدت مبكِّرة، ولا المصادمات المتوالية مع الكتبة والفريسيين، أو أنه قد غاب عنه إدراك مدى الضعف في روح الشعب وقدرة الكتبة والفرِّيسيين ورؤساء الكهنة في السيطرة عليه والاستحواذ على صوته وضميره. ولكن كل هذه العقبات والعثرات والعداوات لم تقلل من سرعة اندفاعه في الكرازة والخدمة ومن مستوى استعلانه لنفسه وللملكوت، ولكنه التجأ أخيراً إلى أسلوب الأمثلة التي أخفى فيها سر ملكوت الله حتى لا يستعلنه إلاَّ للذين أُعطي لهم. لأن رؤيته للمخدومين ارتفعت لتشمل الآتين من بعيد، كل صنوف الأُمم مع الأخصاء من التلاميذ والخواص المختارين من رجال ونساء انفتحت عيونهم واستوعبوا التعليم وترجُّوا الآتي. فلم يؤثِّر تقهقر الكتبة والفرِّيسيين والرؤساء وكثير من الشعب وحتى التلاميذ على امتداد وعمق الاستعلان لشخصه وللملكوت. فالمنهج ظلَّ بقوته وعمقه واندفاعه للنهاية، لأنه وُضع أصلاً للإنسان الذي يطلب وجه الله. فلمَّا استعفت إسرائيل، صار الذي كان لها بالكامل للآخرين وأزيد، وخرجت هي من الملكوت مأسوفاً عليها!

وبعد أن انجلى كل شيء وأكملت إسرائيل جريمتها، وقام المسيح من بين الأموات، طرح المسيح مشروعه الضخم على أكتاف التلاميذ **ليكرزوا به هو نفسه إلى كل العالم**: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتَلْمِذُوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به.» (مت 28: 19و20)

ولكن لا ينبغي أن نقلِّل من أهمية كرازة المسيح لإسرائيل، لأن إسرائيل لم تعدم أبناءً فيها آمنوا وقبلوا المسيَّا وانفتحت عيونهم وقلوبهم ليفهموا المكتوب في الأسفار ويمسكوا بالمسيح والخلاص والملكوت ويصيروا كما أراد الله تماماً: "نوراً للعالم"، ويكرزوا لجميع الأُمم وإلى أقصى الأرض كمطلب المسيح.

كذلك فإن كرازة المسيح لإسرائيل بكل ظروف هذه الكرازة من عنت ومصادرة من كل فئات المتعلِّمين والرؤساء، أعطت لنا أعمق التعاليم عمَّا يميِّز وصايا الملكوت عن وصايا التوراة والناموس ونواحي الضعف في العهد القديم. علماً بأن المسيح كان ينطلق في تعليمه عن الملكوت من العهد

القديم كأساس ليبني فوقه متطلبات الملكوت اللائقة به في العهد الجديد. فلولا الأساس، أي كرازة المسيح عن أصول التوراة والناموس، ما بلغنا إلى الصورة الكاملة للملكوت في العهد الجديد.

وكان القليلون الذين يسمعون لصوت الابن ويجتذبهم الآب ليتبعوا المسيح، نقطاً مضيئة وعلامات واضحة في خدمة الملكوت، كشهادة صلاحية للإنسان الذي يعي الكلام ويؤمن. أمَّا الذين انتحوا ناحية الرفض فكانوا ومازالوا حتى اليوم عبرة للسائرين في طريق الملكوت.

9 ـ رسالة الملكوت نجحت بالمؤمنين والرافضين

فالملكوت نجح بالمؤمنين وبالرافضين، هؤلاء شهادة صحة وأولئك عِبْرَة. كذلك فإنه لم يستطع الرافضون والمعوِّقون والمعاندون أن يقلِّلوا أو يضغطوا من عمل المسيح في الإعلان عن ذاته والتعليم عن ملكوته. فكان المسيح يرصد طاقة التجديد التي ينشرها على القِلَّة التي تتبعه، ويقتنع بقوتها وفاعليتها التي ستنتهي يوماً إلى موجة عارمة من التجديد المسيحي على وجه كل الأرض. فكان يقولها وهو عالم بمدى فعلها وأثرها: «أنتم نور العالم» «أنتم ملح الأرض» (مت 5: 14و13). أمَّا الغيوم والعواصف التي كان يفتعلها الرافضون فلم تكن في نظر المسيح سوى عثرة زائلة: «اتركوهم، هم عميان قادة عميان.» (مت 14:15)

ولم يغب عن فكر المسيح مدى عنف المعارك التي سيعبر عليها مع الكتبة والفرِّيسيين ورؤساء الكهنة منذ أول لحظة دخل فيها شاهراً الطهارة والقداسة والتقوى في تعليمه عن ملكوت الله كوصية الآب. بل والأكثر من ذلك فقد استطاع أن يُصوِّر من واقع أفكارهم وقلوبهم أي ميتة بدأوا يدبِّرونها له.

10 ـ الملكوت ازداد قوة بعد ذهاب المسيح

في كل هذا كان عمله للملكوت يزداد نمواً وارتقاءً في الفكر والضمير البشري، ولم يشعر ولا في لحظة واحدة أن عمله للملكوت سيتراخى أو يضمر بعد ذهابه. بل في أمثاله السبعة عن الملكوت أكَّد على نمو الملكوت. وفي مَثَل الزوان يتضح أنه سينمو حتى وقت الحصاد أي الدينونة!!

كما أوضح أن نمو الملكوت من الداخل هو كما تنمو حبة الخردل حتى تصير شجرة، هكذا ينمو الملكوت في قلوب الناس ولا يلحظه أو يراه أحد في نعمة التجديد التي تنضح بها حياتهم الداخلية في النهاية.

11 ـ المسيح يُعلن أنه أعظم من الهيكل، فهو يبقى إلى الأبد والهيكل يُهدم إلى التراب

حينما تجرَّأ الفرِّيسيون وآخذوا المسيح: كيف يفعل تلاميذه ما لا يحل فعله في السبت؟ رآها المسيح تمس شخصه، فرد عليهم مؤنِّباً: كيف أن داود دخل خيمة الاجتماع (وهي بمثابة الهيكل) وأكل خبز الوجوه هو ورجاله الذي لا يحلُّ أكله إلاَّ للكهنة؟ أو كيف أن الكهنة يوم السبت يكسرون قوانين السبت لأداء خدمتهم داخل الهيكل. ثم وازن بين هذين المَثَلين ومَثَل تلاميذه وهم يأكلون الحنطة من سنابلها يوم السبت **في وجوده**، وعلَّق على ذلك بقوله: «**ولكن أقول لكم**: **إن ههنا أعظم من الهيكل!**» (مت 12: 1ـ6). هذا هو المسيح يُعلن عن ارتفاع قامته القدسية عن هيكل العبادة والتقديس! فماذا يعني ومَنْ يكون؟

أمَّا الهيكل فهو أقدس مكان في إسرائيل، بل وفي العالم كله في نظر اليهودي على الأقل، وفيه فقط تجب العبادة وينبغي التقديس. وبحسب التوراة يكون مكان حضرة الله في ركن قدس أقداسه الداخلية حيث لا يدخله إلاَّ رئيس الكهنة، ومرَّة واحدة في السنة، وليس بدون دم المحرقة في يديه ينضحه أمامه ليكفِّر عن خطايا الشعب. كل هذا ويظل الهيكل بكل مقدَّساته دون قامة المسيح القدسية! مما يُعلن في الحال أن المسيح هو مجد الله، وبه تصح العبادة لله بالقدر الذي تكون عبادة الهيكل من دونها، ويكون المسيح أعظم من الهيكل. فإن أشرق المسيح فليغرب الهيكل، وإن صلبوه فليُهدم!

والتلاميذ من حول المسيح كهنة من داخل هيكل يكسرون السبت لأنهم في حضرة رب السبت. والمسيح معلِّماً تلاميذه هو يهوه فوق جبل موسى يعطي الإنجيل بأعلى وأعمق مما تكون التوراة والناموس. وحديث التلاميذ إليه هو عبادة وصلاة، والله في السماء يسمع ويُجيب.

وأكل سنابل الحنطة أمامه هو بعينه أكل الكهنة لخبز الوجوه أمام وجهه!!

فلماذا تزعجون تلاميذي وتتحدَّثون عن السبت وأنتم تجهلون رب السبت؟

ثم أليس هذا الكلام بعينه هو ما فهمه ق. استفانوس الشهيد وردَّده جهاراً ووجهه يُشرق نوراً: «لأننا سمعناه يقول: إن يسوع الناصري هذا سينقض هذا الموضع (الهيكل) ويغيِّر العوائد التي سلَّمنا إياها موسى» (أع 6:14). هذا قاله ق. استفانوس عن رؤية وسمع سماوي، وهذا عينه ما شهد به التاريخ باليوم والساعة، وأليس هذا عينه هو ما نعيشه نحن اليوم بعد أن تمَّ وتغيَّر كل شيء؟

12 ـ عبادة الله بالروح وبلا هياكل "حديث المسيح مع السامرية"

نحن ننتقل هنا من رواية في إنجيل ق. متى إلى رواية في إنجيل ق. يوحنا، وللقارئ أن يحكم إن كان هناك فرق! أو إن كان هناك ما يُشبه هذا القرار الواضح في أيٍّ من الأسفار قاطبة أو أي كتب كانت.

لقد سار المسيح وتعب من المسير فجلس على حافة بئر لأنه كان عطشاناً، وعطشه لا يرويه إلاَّ ما يصنعه لتكميل مشيئة أبيه. فساقت الأقدار الإلهية في وقت الظهيرة بحرِّها القائظ امرأة سامرية جاءت لتستقي، لأنها ارتوت بمسرات الدنيا الكثيرة وظلَّت عطشانة هي والذين معها. وجاءت بقدْرها دون أن تدري لتَرِدَ(2) ماء الحياة الذي تكلَّم عنه المسيح، هذا كان قَدَرُها. طلب منها المسيح أوَلاً أن تسقيه ـ مودَّة ـ فأنكرت عليه طَلَبَهُ لأنه يهودي وهي سامرية، ولأنه رجل وهي امرأة. ولكنه لما بدأ يتحدَّث معها عرفته في الحال ـ ليس كالكتبة والفرِّيسيين ـ أنه نبي. فظلَّ يتحدَّث فأدركت أنه أكثر من نبي، فمَنْ يكون؟ لعلَّه ولعلَّه، فأرادت أن تسأله لتحرجه ليكشف لها عن نفسه: «آباؤنا سجدوا في هذا الجبل (جرزيم) وأنتم (اليهود) تقولون إن **في أُورشليم "الموضع" الذي ينبغي أن يُسجد فيه؟** قال لها يسوع يا امرأة صدِّقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل **ولا في أُورشليم تسجدون للآب.**» (يو 4: 20و21)

إذن فالعبادة عند هذا النبي ليست بالمكان والزمان والإنسان؟

تعجَّبت المرأة وزادت حيرتها، ولكنها بادرت بإحراجه بمعلومة تحمل ما يشبه الفخ لتُخرجه نهائياً عن صمته ليكشف لها عن نفسه، فصدُقَ حدسها ونجح فخّها. قالت له والقول يحمل سهماً أصاب كبد الحقيقة: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيَّا الذي يُقال له المسيح يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء (والمعنى قُلْ الحقيقة). قال لها يسوع: **أنا الذي أُكلِّمك هو!**» (يو 4: 25و26). هذا هو المسيَّا نفسه، وهذا هو تقريره عن الهيكل والعبادة. فما قاله في إنجيل ق. متى وثَّقه في إنجيل ق. يوحنا: إنه أعظم من الهيكل، فمتى جاء المسيح فليذهب الهيكل والعبادة فيه. لأنه قال للسامرية ضمن ما قال: «تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ... الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.» (يو 4: 23و24)

---

(2) تَرِدُ: تعني تأتي إلى الماء لترتوي.

فإنْ ارتفع معنى ''الهيكل'' من حجارة إلى «الرب الروح من السماء» ارتفعت العبادة بالضرورة من الجسد إلى الروح ومن الأرض إلى السماء.

فأن يقول المسيح بنفسه إنه أعظم من الهيكل، فبذلك تكون المسيحية قد ضربت جذورها في السماء، وارتفعت العبادة بالتالي مما هو للجسد إلى ما هو للروح.

وهذا هو يسوع المسيح الذي قال عنه الملاك في بشراه للعذراء: «هذا يكون **عظيماً** وابن **العَلِيِّ** يُدعى.» (لو 32:1)

فهو وُلد ليكون أعظم من الهيكل، ويتقبَّل العبادة كالعليّ.

13 ـ المسيح أكمل الناموس ليهدم الناقص فيه

إن قلنا إن المسيح هدم الناموس نكون قد أخطأنا، وإن قلنا إنه جاء ليكمِّل الناموس فقط نقع في نفس الخطأ. ولكن الحقيقة أنه هدمه ليكمِّله وأكمله ليهدمه. فقد هدم ما هو ناقص فيه ليصير كاملاً، وأكمل ما نقص فيه لكي يهدم الناقص منه. فهو لم يمس كمال الناموس.

فإن كان المسيح قد هدم شيئاً من الناموس فقد هدم ما هو ليس كاملاً فيه، هنا يلزم أن نمسك بقوله: «ما **جئت** لأنقض بل **لأُكمِّل**» (مت 17:5) وهو الجزء الإيجابي. قاله كبرهان وتأكيد أنه لم يجيء لينقض الناموس أو الأنبياء.

وجئت ''لأكمِّل'' هي الواقع العملي في كل تعليمه خاصة فيما يتعلَّق بالعهد القديم. فلولا مجيء المسيح وأعماله لبقيت جميع النبوَّات بلا معنى ولا تفسير ولا تكميل. ولكن بأعماله كملت نبوات الأنبياء بكل صدق وأمانة. والناموس كان يضجُّ من خطايا الناس، والناس كانوا يضجُّون من الناموس؛ فلا الناموس قادر أن يرضى الناس ويريح ضمائرهم ويكمِّل مطالب نفوسهم وشهوة حبهم لله، ولا الناس راضون عن الناموس الذي بكثرة بنوده وأوامره ونواهيه تاهت نفوسهم عنه وعن العمل به. وفي نفس الوقت عجز الناموس عن أن يُشبع قلوبهم من عبادة مقبولة لدى الله. فجاء المسيح ورفع **الخطية التي هي نقطة العجز في الناموس ونقطة العجز في الناس**، التي منعتهم من العبادة الحُرة المفرِّحة لله. وألغى كثرة بنود الناموس وأوامره ونواهيه التي أضافها جماعة الربيِّين والمعلِّمين للناموس على طول المدى، فصار ثقلاً لا يمكن حمله أو احتماله. فبهذا أكمل المسيح ما يمكن أن يجعل الناموس كاملاً في نظر الناس، وأكمل عقوبة الخطية ولعنتها في جسده وبرَّأ الإنسان وبرَّره، فبلغت العبادة منتهى كمالها في نظر الله والناس. فقيل إنه أكمل مطالب الناموس حتى إلى

منتهى الكمال الذي أرضى الله والناس: «قد أُكمل» [3] (يو 19:30). فمن جهة الحذف والنقض والإلغاء، نعم، حذف ونقض وألغى ما هو عاجز وما هو ناقص في الناموس الذي جعله غير نافع للعبادة ولا كُفواً أن يوصِّل الإنسان بالله. ومن جهة أنه أكمل، نعم، أكمل الناموس ليجعله صالحاً لعبادة توصِّل الناس إلى الله، وتُدخِل الخاطئ إلى ملكوت الله.

فالذي يقول إن المسيح نقض التوراة والناموس خاطئ هو ومُفْتَر، لأن المسيح لم ينقض إلاَّ ما هو ليس كاملاً، ونقض ليكمِّل الناموس. فكلمة "**النقض**" تحمل في طيَّاتها وصميمها في أعمال المسيح كلمة "**التكميل**". فلا يمكن أن يُذكر النقض خُلْواً من تكميل، ولا التكميل خُلْواً من نقض**!!**

والمسيح أمعن في إتقان عملية الهدم والبناء هذه حتى جعل الإنسان وعبادته على مستوى الإنسان النموذجي الكامل أمام الله والمسيح، لا بالمعنى اللاهوتي للعبادة الروحية وحسب، بل على الواقع الحي في العالم على طول المدى كما رآها بولس الرسول وعبَّر عنها: «لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح (الكنيسة)، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل ( ) إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف 4: 12و13)

هذه هي العبادة الكاملة التي أسَّسها المسيح بتعليمه وعمله ودمه ـ في ناموس واحد كامل ـ قادر أن يخلق لله إنساناً كاملاً على قياس قامة ملء المسيح.

14 - ما يعنيه المسيح من لقب ابن الإنسان وعلاقة ذلك بلقب ابن الله

لمَّا تجسَّد المسيح وأخذ هيئة الإنسان و «شكل العبد» لم يَزْدَرِ بالطبيعة البشرية التي اتَّحد بها، ولا أسكنها في حياته ركناً مظلماً فيه؛ بل رفعها وعلاَّها لتُشارِك لاهوته في كل ما له، في بنوَّته لله، في سكنى السماء، في شركة وخدمة الملائكة، والجلوس على السحاب. ثم خُصِّص له من الآب دور الدينونة لأنه ابن الإنسان، وقدَّم الجسد والدم فيه ليكونا واسطة باللاهوت الذي فيهما ليستطيع الإنسان بتناولهما أن يحصل على الاتحاد الفعلي والشركة السرِّية مع ابن الله، وليكون للإنسان ما لابن الله من كرامة ومجد؛ بل وأجلسه معه عن يمين الله ليتقبَّل الإنسان فيه كرامات الابن الوحيد ومحبة الآب للابن الوحيد، ويرث معه ميراث الابن في الحياة الأبدية.

---

(3) آخر كلمة قالها المسيح على الصليب.

والقول الذي ألمح إليه المسيح إنه العريس، أوضح لنا أن الكنيسة أو الإنسان في مجموعه البشري هو العروس، وأعطى البشرية فيه مفهوم سر الزيجة على مستوى السر الأعظم، حيث يصير المسيح والبشرية وِحْدَةً سِرِّية عالية، جسداً واحداً فائقاً على مفهوم الإنسان، لا نستطيع أن نستعلن واقعه فينا طالما نحن لابسين جسد الخطية هذا.

فابن الإنسان يحمل للكنيسة ـ أي للبشرية ـ قمة المجد وسر محبة الآب وميراث الحياة الأبدية والخلود. فإن كان للإنسان عزاء في أرض شقائه هذه فهو في ابن الإنسان الذي تبنَّى شقاءنا وأورثنا ملكوته. اسمع المسيح وهو يفتخر أنه إنسان: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا **إنسان** قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يو 40:8). فهنا يفتخر أنه إنسان يتكلَّم بالحق، ولكن لئلاَّ يستغلّها المفسدون كمَّل قوله: «الذي سمعه من الله» فهو إنسان نعم، ولكن يتكلَّم بما سمعه من الله**!!**

فحينما يقدِّم لنا المسيح نفسه باعتباره الملك الإلهي، يكون هو الذي بواسطته يمكن الدخول إلى ملكوت الله الذي يقوم المسيح بتدبيره ونموه.

علماً بأنه هو الذي أعطى نفسه لقب ابن الله: «فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدِّف لأني قلت **إني ابن الله**.» (يو 36:10)

كما أنه هو الذي أعطى لنفسه لقب ابن الإنسان: «فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع: أنت قلت، وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون **ابن الإنسان** جالساً(4) عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء» (مت 26: 63و64). فالمسيح نفسه هو القائل لنثنائيل: «الحق الحق أقول لكم: من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على **ابن الإنسان**.» (يو 51:1)

كذلك: «وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء **ابن الإنسان** الذي هو في السماء»(يو 13:3). ويُقرن المسيح اللقبين معاً هكذا: «لأنه كما أن **الآب** له حياة في ذاته، كذلك أعطى **الابن** أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه **ابن الإنسان**.» (يو 5: 26و27)

وكلا هذين اللقبين منصوص عنهما في العهد القديم أنهما يشيران إلى المسيَّا، ولكن المسيح استخدم هذين اللقبين على مستوى أعلى مما كان سارياً بين اليهود.

---

(4) وتحقيقاً لقول المسيح، شهد ق. استفانوس قبل أن يرجموه بأن المسيح كابن الإنسان قائم عن يمين الله: «ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله.» (أع 56:7)

على أن هذين اللقبين لا يُفهم أحدهما بدون الآخر، فكل واحد منهما يبرِّر وجود الآخر ويرتبط به، لأن لقب ”ابن الله“ لم يُعرف قط إلاَّ على أساس تجسُّد الكلمة، فلما تجسَّد ابن الله استعلن لنا أن الله أبوه. إذن، فهو ابن الله لأول مرَّة على الواقع الفكري للإنسان.

كذلك فابن الله لَمَّا تجسَّد وصار إنساناً مولوداً من العذراء القديسة مريم ومن الروح القدس صار إنساناً ولكن بدون رجل، بدون آدم، فاعتُبِرَ أنه ابن الإنسان تخطِّياً لكلمة آدم. فعندما نسمع كلمة **”ابن الإنسان“** ندرك في الحال أنه **هو ابن الله** المتجسِّد.

وقد انتهى العالم ”سانداي“ من بحثه المطوَّل عن لقب ابن الإنسان بهذه الحقيقة: [نستطيع أن نقول على هذا إن (لقب) ”ابن الإنسان“ إنما يتعمَّق (أو يشرح) fathomed سر تجسُّده.](5)

وحينما نسمع كلمة ”ابن الله“ نُدرك في الحال علاقته بالله الخاصة جداً، وأنه الحامل لشخص الآب السماوي، وأنه والآب هما الله ـ لذلك أصبح اللقبان وقفاً على المسيح: يُستخدم الواحد لكي يكشف لاهوته وعلاقته بالله أبيه، ويُستخدم الآخر ليُستعلن أنه هو ”ابن الإنسان“ بدون أن يذكر اللقب.

على أن أول مَنْ ذكر لقب ابن الإنسان هو دانيال النبي حينما جاءته النبوَّة ليعبِّر عن المسيَّا ابن العلي: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان، أتى وجاء إلى القديم الأيام (الله)، فقرَّبوه قدَّامه، فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأُمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (دا 7: 13و14)

وليُلاحَظ أن القول بمن يأتي على السحاب هو تعبير دائم عن الله. وهكذا اختلط على دانيال الأمر فكأن الله جاء وقرَّبوه إلى الله، ولكنه رآه بهيئة إنسان. فلم يَقُلْ: إنساناً، بل قال: ابن إنسان، ليتماشى الخلط في شخصية هذا الآتي على السحاب؛ إذ كيف يكون هو الله وهو إنسان.

والمعروف في أيام المسيح أن لقب ”ابن الله“ كان هو التعبير الساري عن أنه المسيَّا. وأوضح من عبَّر عن هذه العلاقة بين المسيَّا وابن الله هو بطرس الرسول بناءً على استعلان كشفه الله الآب في ذهنه فقال: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» (مت 16:16). وأمَّن على ذلك رئيس الكهنة لَمَّا أراد أن يُوْقِعَ المسيح في اعترافه أنه ابن الله ليأخذها حجة لقتله هكذا: «فأجاب رئيس الكهنة وقال أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟» (مت 63:26). كما نطقها نثنائيل أحد تلاميذ الرب ولكن بإلهام واضح: «قال له: يا معلِّم أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل» (يو 49:1).

---

(5) William Sanday, *The Life of Christ in Recent Research,* 1907, p 130.

على أن لقب ملك إسرائيل هو لقب المسيَّا!

وهكذا تضافرت الرؤى والاستعلانات والإلهامات معاً، ومع تصريح المسيح، أن المسيح هو ابن الله وابن الإنسان. ويقول شلايرماخر عن لقب المسيح ابن الإنسان هكذا:

[لم يكن المسيح ليستخدم هذا اللقب إن لم يكن على وعي كامل من أنه يشير إلى مشاركته الكاملة للطبيعة البشرية، غير أن استخدام هذا اللقب لا يكون ذا معنى إذا لم يكن استعماله يُعطي المفهوم الخصب للمفارقة الأساسية بين المسيح وبقية الناس.](6)

وفي الحقيقة، لقد كرَّم المسيح البشرية التي أخذ منها جسده بهذا اللقب ورفعها لتكون على مستوى بنوَّته لله في كل شيء، إذ نسمع عن أعماله هذا التقرير: «فلما رأى الجموع تعجَّبوا ومجَّدوا الله الذي **أعطى الناس** سلطاناً مثل هذا» (مت 8:9). وفي قول المسيح في (يو 51:1): «الحق الحق أقول لكم: من الآن تَرَوْنَ السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» تعبير خفي ولكن عميق، وفيه تمجيد فائق للطبيعة البشرية. فهكذا صيَّر المسيح البشرية سُلَّماً للسماء تتآخى مع القوات السمائية تمهيداً إلى تجاوزها للملائكة في الكرامة أمام الآب، لأننا نكون متَّحدين بالابن واقفين أمام الآب مباشرة نمدح مجد نعمته. كذلك عندما قال: «ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو 13:3)، هكذا جعل الطبيعة البشرية صالحة أن تسكن السماء متَّحدة به! وقوله إن الله أعطاه سلطاناً أن يدين «لأنه ابن الإنسان» فهكذا أُعطيت له الدينونة بصفته ممثِّل البشرية، لكي يكون رحيماً فيما لإخوته!! بل وأعطاه سلطاناً أن يغفر الخطايا على الأرض. وحينما دخل السماء ليتراءى أمام الله أبيه دخل كسابق من أجلنا فهو يُعتبر المتقدِّم عنَّا في كل شيء، ولما دخل كباكورة لنا فوجد لنا فداءً أبدياً. وحينما قال لتلاميذه: «أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعددت ... آتي أيضاً وآخذكم إليَّ» (يو 14: 2و3)، كان هذا المكان هو عن يمين عرش الله، الذي احتفظ به لنا وحجزه لنا بجلوسه بالجسد لكي نكون معه حيث يوجد ونرى مجده، وأسماؤنا مَعْروفٌ موضعُها كالعربون، حينما نذهب نجد نصيبنا هناك محجوزاً، لأنه كالميراث الذي للابن لا يَفْنَى ولا يتدنَّس ولا يضمحل، محفوظ في السموات مع المسيح لأجلنا. نعيشه منذ الآن بالرجاء الحي رفيق الإيمان بالقيامة من بين الأموات: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق» (كو 1:3) ـ لأنه صار لنا ما فوق ملكاً أبدياً ـ حيث المسيح جالس بجسدنا بانتظارنا، لأن المسيح أصعدنا بجسده معه إلى السموات، فصار ذهابنا إلى فوق طريقاً محجوزاً بالاسم، نحمل قوة صعودنا

---

(6) Schleiermacher, *Dogmatik,* ii. 91, (3nd ed.), cited by A. Neander, *The Life of Jesus Christ,* (1837, E.T. 1847), p. 99.

إليه بجسده ودمه اللذين بهما اتحدنا به. فجسده هو هو الحجاب ـ الذي كان في القديم يفصل الإنسان عن الله ـ الذي صار لنا طريقاً حيًّا حديثاً، ودمه بطاقة الدخول إلى الأقداس، لأنه دم كفَّارته الذي انسكب من أجلنا خارج أُورشليم.

فباختصار، علينا أن نعلم أن المسيح قدَّم بشريتنا فيه: "محرقة كفَّارة" عظمى كفَّرت عن كل خطايانا، فنحن الذين متنا مع المسيح وقبلنا اللعنة على الصليب في الجسد، لم تَعُدْ علينا عقوبة ولا ضدنا لعنة، فالكل دفعه المسيح في جسدنا وبجسدنا لكي يحصل لنا وفي جسدنا على براءة أبدية، ضمَّ إليها برَّه وقداسته وحياته الأبدية، فصرنا مبرَّئين ومبرَّرين!! مجداً لله.

وحينما قال المسيح مشيراً إلى سر الإفخارستيا: «الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو 53:6)، كشف أعمق أسرار اتحاد لاهوته ببشريته، لكي إذا تناولناها في سر كسر الخبز نكون قد تناولنا اللاهوت فيها ونصير إلى ذات الاتحاد. وهكذا يعبِّئ لنا المسيح بهذا اللقب المعاني والأسرار التي رفعت البشرية إلى مستوى التبنِّي لله والاتحاد. والحقيقة الإلهية القائمة عليها هذه الأسرار جميعاً هي أن لقب ابن الإنسان ملتحم بلقب ابن الله، فالتعامل مع ابن الإنسان هو هو التعامل مع الله!!

15 ـ ما يعنيه المسيح من لقب ابن الله

إن أكثر الأناجيل انطلاقاً في هذا المجال الروحي العالي الذي يحيط بالمسيح والتركيز على الجوهر اللاهوتي الساكن فيه هو إنجيل ق. يوحنا. ولا يمكن تعليل ذلك بأي علَّة غير العلاقة الروحية التي ربطت ق. يوحنا بالمسيح، وجعلت المسيح يرتاح إليه ويُعلن له ما لم يعلنه لآخرين. كذلك، ومن قراءة وفحص إنجيل ق. يوحنا، يتحقَّق لنا بوضوح مدى عمق وأصالة تقليد ق. يوحنا كَمُلْهَم وموهوب. وبالرجوع إلى أحاديث المسيح الروحية في إنجيله نُدْرِك في الحال أن المسيح يستفيض من أعماق روحه، وأن ق. يوحنا يستوعب ما لا تطيقه قدرة إنسان عادي. فمستوى التعليم والكشف والتعمُّق فيه أكثر من أي إنجيل آخر. كذلك فالرجوع إلى بشرية المسيح لاستيعابها يأتي في إنجيل ق. يوحنا بإنصاف ووعي يرفع عن إنجيل ق. يوحنا أي انحياز لأي نظرية أو مبدأ غير ما هو في المسيح وله.

ولكن لا نعدم في إنجيل ق. متى أيضاً من التعابير التي أتت معبِّرة عن حقيقة وأصالة مفهوم ابن الله، ما يضارع ما جاء في إنجيل ق. يوحنا، كقوله: «كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن، ومَنْ أراد الابن أن يُعلن له» (مت

27:11). يكشف إنجيل ق. متى هنا بلسان المسيح العلاقة السرِّيَّة والخاصة جداً بين الآب والابن. ولكي يتأكَّد القارئ تماماً أن المسيح هنا هو القائل هذا بنفسه، فقد عاد وقاله للفرِّيسيين ممتحناً مدى إدراكهم للتوراة والمسيَّا والله، إذ سألهم في نفس الموضوع: «ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَنْ هو؟ »(مت 42:22). وما كان قصد المسيح من ذلك إلاَّ ليفتح أعينهم لكي يدركوا حقيقة المسيَّا أنه ابن الله على مستوى واقع التوراة وليس من تخريجاتهم. لأن بقية المزمور تكاد تنطق أن المسيَّا هو رب داود وإن جاء بالجسد ابناً لداود: «قال الرب لربي اجلس عن يميني!!» (مز 1:110)

هذا هو المسيَّا الذي يُدعى اسمه عجيباً حقاً، لأنه ''وهو لم يزل إلهاً أتى وصار ابن بشر ... فلنسبِّحه ونمجِّده ونزيده علواً!!''(7)

وحينما قال بولس الرسول إن «الله ظهر في الجسد» (1تي 16:3)، كان يعني بذلك أن المسيح حامل لطبيعة الله.

فكما أن آدم لم يكن يَمُتُّ إلى البشرية بل البشرية هي التي صارت تمتُّ إليه، **كذلك المسيح لم يكن واحداً من الناس بل كان هو "الناس". فهو حامل طبيعة الإنسان بصورة جديدة منتسبة إلى الله، لذلك فالمسيح هو الإنسان الجديد المنتسب إلى الله الذي ظهرت فيه البشرية الجديدة بحالتها السماوية الجديدة بالقيامة من بين الأموات. وإن كانت البشرية الجديدة تنتسب إليه لكنه هو لا ينتسب إلى البشرية إلاَّ باللقب كابن الإنسان، لأنه يضمّها كلها في كيانه، فهو ممثِّل البشرية ورأسها، آدم الجديد، فهو البشرية الجديدة بجملتها. لذلك فهو ليس مخلوقاً ولكنه هو الذي خلق بشريتنا الجديدة منه وملتحمة فيه، وبدايته هي في الله ليس كعمله بل كحامل لجوهره، وبالتالي فهو أزلي وليس له نهاية. وهو يحمل بشرية الله الجديدة المخلوقة على صورته في البر وقداسة الحق وليس بشرية آدم العتيقة.**

وإنه من الخطأ أن نقول إن المسيح إله كامل وإنسان كامل كما يقولون كأنهما اثنان، بل هو الإله الإنسان أو الإله المتأنِّس الحامل لجوهر اللاهوت والناسوت معاً وبلا تفريق. فالمسيح ليس اثنين: الله وإنسان، بل واحد، الإله المتأنِّس أو المتجسِّد! «الله ظهر في الجسد» واستعلان الله كآب وابن لم يظهر إلاَّ بعد التجسُّد حيث أخذ الابن جسداً وظهر فيه وهو يخاطب الله على أنه أبوه، فاستُعلنت لنا صفة جديدة علينا أظهرت الله أنه آب وابن بجوار كونه الله الأبدي اللازمني، وأصبح الروح القدس

---

(7) استخدمت الكنيسة هذه التعبيرات في التسبحة المقدَّسة السنوية (مرد الثيؤتوكية يومي الخميس والجمعة).

الذي في الآب والابن هو الذي ينقل لنا ما للآب والابن(8) ويضمنا في روح الأبوَّة والبنوَّة لله.

ونداء الآب من السماء مرتين على المسيح: «هذا هو ابني الحبيب» هو ليس استعلاناً فقط، بل هو تقديس أيضاً وإرسال «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب ... **أرسلني**» (إش 1:61). فالمسيح وهو ابن اثنتي عشرة سنة اعتبر بصورة قاطعة ومنتهية أن الله أبوه «ينبغي أن أكون في ما لأبي» (لو 49:2). على أن قمة إحساس المسيح بالله أبيه عبَّر عنها بقوله: «أنا والآب واحد» (يو 30:10). هذه رؤية صافية لا يعكِّرها شيء من نقائص عقل الإنسان. هذا الإحساس نابع من جوهر يتدفَّق باللاهوت معبِّراً عن كيان المسيح بالنسبة لله. إنه قمة الانسجام الفكري الإلهي لا يعوِّقه أي اهتزاز. هذا هو نبع اللاهوت الذي تفجَّر في قلب توما حينما لمس جروح الرب فصرخ قائلاً: «ربي وإلهي» (يو 28:20).

16 ـ لقب المعلِّم ما يعنيه ومدى عمله

أمَّا ملكوت الله الذي جاء المسيح ليؤسِّسه بين الناس فهو روحي، فتحتَّم أن يكون معلِّم الملكوت روحياً أيضاً.

وكانت مهمته من جهة الملكوت أن يستعلنه من الداخل ليُعرف في الخارج ومن الخارج. ولأن الملكوت كما قلنا هو روحي، فلَزِمَ أن تكون كافة الوسائل التي يستخدمها المسيح لاستعلان الملكوت روحية. هذه الحقيقة شرحها المسيح لبيلاطس عندما سأله بيلاطس: «أنت ملك اليهود؟ ... أجاب يسوع: **مملكتي ليست من هذا العالم** (ملكوته روحي هو) ... فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول **إني ملك، لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق!**» (يو 18: 33و36و37)

هذا الحقائق الثلاث التي أعلنها المسيح لبيلاطس وللعالم، تفيد أنه هو حقًّا صاحب الملكوت، وأنه حقًّا هو ملك ووُلِدَ لذلك (بمعنى أنه أتى إلى العالم بتدبير الله من أجل ذلك)، وأنه حقًّا جاء إلى العالم ليشهد للحق ويعمله.

وواضح من منطق المسيح أنه جاء ليؤسِّس الملكوت بطريق الشهادة للحق، على أنه شهد في موضع آخر: «أنا هو الحق (الطريق والحق والحياة)» (يو 6:14). والمعنى يصبح واضحاً أنه جاء ليشهد للحق باستعلان نفسه بالكلمة والعمل، فيكون هذا هو أساس الملكوت: استعلان الحق وامتلاكه.

---

(8) W. Sanday, ***op. cit.,*** **pp. 233 f.**

لم يعد هو مُعلِّماً وحسب ولا معلِّماً روحياً فقط، بل المعلِّم والملك والحق الإلهي معاً وصاحب ملكوت المسيَّا: «(الله) الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى **ملكوت ابن محبته**، الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا» (كو 1:13و14). كانت إقامة المعلِّم الإلهي التي استأثرت بتعليمه وعمل معجزاته هي في الجليل ثم في أُورشليم. وكان اليهود شغوفين برؤية الآيات بالدرجة التي استنفدت كثيراً من جهد المسيح وعطَّلت كثيراً من تقبُّلهم التعليم، سواء كان في الجليل أو في أُورشليم. ولكن كان شعب الجليل بسيطاً سريع التأثُّر والرجوع والتوبة، ولم يكن تأثير الفرِّيسيين عليه شيئاً يُذكر. أمَّا في أُورشليم فكان الفرِّيسيون يمثِّلون الطبقة الأكثر وجوداً والأكثر مقاومة.

ولكن شعب الجليل البدائي ـ وكانت لهم رؤية ضيقة بالدين والروحيات ـ لم يروا في المسيح لا شكل المسيَّا ولا حتى كرامة النبي، إذ أن ما ساد على تفكيرهم وأفسد رؤيتهم هو تعرُّفهم على المسيح، فهو من ذات الوطن، إذ عرفوه أنه ابن النجَّار، وتعرَّفوا أيضاً على أُمه وإخوته وأخواته من يوسف، فلم ترتفع نظرهم أو تنفتح آذانهم إلاَّ على قدر ابن نجار يعظ وابن مريم، وهبه الله لساناً يتكلَّم وآيةً يعمل. وهكذا أُعطي له من الكرامة والإصغاء ما لنجار الناصرة الذي يقول إنه أُرسل من الله.

ولكن وقد علَّم في أُورشليم وتفوَّق على الربيِّين والكتبة والفرِّيسيين، عاد إلى وطنه وقد ارتفعت قيمته في أعين مواطنيه: «فلما جاء إلى الجليل قبله الجليليُّون، إذ كانوا قد عاينوا كل ما فعل في أُورشليم في العيد.» (يو 4:45)

وهكذا دخلت خدمته إلى مرحلتها ذات التأثير في عقول أهل أُورشليم وقلوب أهل الجليل.

17 ـ مميزات تعاليم المسيح

[لقد علَّم المسيح وكانت تعاليمه قوية وأصيلة، ولقد احتفظ التقليد بتسجيل دقيق ومتقن لتعليمه، ويصفه القديس مرقس في اختصار: «كان يعلِّمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة »(مر 1:22). وقد استرعى انتباه سامعيه الفارق بين تعليم المسيح الذي يتكلَّم مباشرة باسم الله وبسلطانه، وليس كمثل الربيِّين الذين اقتصر تعليمهم بالتعليق على الموجود في الأسفار المقدَّسة ونقل أقوال آباء قدامى.

أمَّا تعليم المسيح فإن مقدار الغِنَى الذي يحتويه جعله لا يتأثَّر بشكل الآية وتغييرها من إنجيل لإنجيل، فالانتباه يتركَّز بشدة ودقة على الحق الذي ينطقه المسيح. والواقع أن كلمات المسيح

تحمل مفارقة بالمقارنة مع أعظم ما أنتجته أفكار الأدباء بدرجة لا يمكن أن تُجارَى.](9)

ويعلِّق سفر العبرانيين على ما علَّم به المسيح هكذا:

+ «فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلُّم به، ثم تثبَّت لنا من الذين سمعوا شاهداً الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة ومواهب الروح القدس حسب إرادته.» (عب 2: 3و4)

كما يصف العالِم الألماني ك. وايدل تعاليم المسيح قائلاً:

[إن الشكل الذي يصبُّ فيه المسيح تعاليمه، والطريقة التي يُلْبِس بها حياته في الداخل بكلمات يعلِّم بها، تحمل مهارة وذوقاً لم نألفه قط. فغِنَى الأسلوب الذي يتكلَّم به فائق، فهو بمستطيع أن يقول قصصه بطريقة حيَّة مبسَّطة تمسك بالقلب قبل الفكر. فهو قدير أن يُحرِّك عقول سامعيه بقوة، وعند الضرورة يصبُّ احتقاره بطريقة لا تخطئ في الوقت الذي يستطيع أن يُعزِّي بلطف فائق، كما يخفِّض من كبرياء الذي يتحدَّاه بسخرية مُرَّة، وحينما يغضب يسخط بقوة، وحينما يُسرّ يفرح بشدَّة. فبكل الوسائل وفي كل الحالات يستعلن أصالته الخلاَّقة. ولكن كل شيء باختصار وكل كلمة مقالة تُصيب هدفها بكل تماسك. فلا توجَّه له كلمة زائدة، وكل كلامه يبرهن بذاته على صدقه ويطابق مقصده بالتمام. وكل هذا يكشف أن تعليمه يصدر من الداخل من واقع حي تلقائي.](10)

[والكلمة والمقولة عند المسيح فطرية تلقائية لا يوجد فيها اصطناع، كما لا تهدف إلى أن تصنع تأثيراً بحد ذاتها. فالمسيح لم يحاول أن يُبهر أو يُدهش سامعيه بفصاحة منمَّقة. فالأسلوب عند المسيح منضبط بدقة مدهشة حتى لا يستولي على الانتباه، بل ينبِّه. فالكلمات هادئة منزلقة شفافة تشف عن فكره، ولكن تسمو عنده البساطة وتعلو جداً عن التفاهة. والبساطة عنده هي نتيجة كفاءة مقتدرة قادرة أن تصيغ أقوى المعاني الحيوية في أبسط أسلوب وبلا تكلُّف لتحمل أعمق الأفكار.

ولو أن المسيح لم يستحدث أساليب للكلام إلاَّ أنها تحتفظ بأصالتها الخاصة، فهو لم يستخدم تقاليد محفوظة بطريقة تقليدية. والمسيح لم يسبقه أي معلِّم كانت لديه هذه القدرة

---

(9) Maurice Goguel, *Jesus and the Origins of Christianity,* vol. II: *The Life of Jesus,* (1932, E.T. 1960), pp. 280 f.

(10) K. Weidel cited by M. Goguel, *op. cit.,* p. 281.

على تطويع الأشكال والمضامين بالمرونة والدقة في التعبير التي أوتيها، مما جعل للمسيح مزيداً من فرادة مطلقة في التعليم. ثم كون تعليمه يخلو من الاصطناع أو طلب التأثير على السامع جعل تعليمه لا يفصله أي فاصل عن السامع غير الحق الذي فيه. لهذا أصبح كل قول من أقواله يسمح لنا أن نرى ما بداخل المسيح، وكأنَّ كل جملة طاقة تفتح على نفس المسيح من الداخل، أو استعلان صادق لشخصه. وهذا هو السبب الذي بالرغم من أن شخصيته تظل متعمِّقة في سرِّها الخاص جداً على مستوى التاريخ، فهي في نفس الوقت شفافة في تعليمه أقصى ما تكون الشفافية.

على أن المسيح يعتمد في خطابه على استدراج الإرادة وليس العقل، وإذا ألحَّ على الإقناع فهو ليحظى بالطاعة والخضوع. لذلك اعتُبِرَت كلماته أفعالاً، وبآن واحد، لا يمكن التفريق بين كلماته وبين ذاته وشخصه ... فكل مقولة للمسيح هي مجرَّد انسياب من شخصيته الخفَّاقة بالحياة.](11)

أسلوب المسيح في التعليم:

كان أسلوب المسيح طيِّعاً في فمه، يرفعه ويخفِّضه على مستوى آذان سامعيه وقلوبهم. والمسيح استخدم جميع طرق التعليم بكافة أصنافها المتداولة عند المتخصِّصين في التعليم، لأنها في حقيقتها عبارة عن طرق كل منها يلائم موقفاً من المواقف ونوعاً من السامعين ومعلومة من المعلومات. وفي أواخر أيام تعليمه استخدم الأمثال ليركِّز فيها المعارف وخاصة ملكوت الله، وغرس فيها سر الملكوت الذي كشفه لتلاميذه ليكون المثل بالنسبة لهم، مذكِّراً بحقيقة هامة من حقائق الملكوت لا تُنسى. فمَثَل الزرع الجيد والزوان ينتهي بحقيقة هامة للغاية وهي أن البار يعيش مع الأثيم معاً بلا تفريق في المعاملة إلى يوم الحصاد أي الدينونة. وبهذا المَثَل أعطى تنويراً شديداً للمؤمنين حتى لا نفرِّق بين الناس هذا صالح وهذا شرير، فالذي سيفرِّق هو الله هناك يوم الدينونة، أمَّا الآن فالكل يعيش تحت رحمة الله في ظروف واحدة بلا تفريق. وهكذا فكل مَثَل يُعطي درساً يأخذ طريقه في الحياة كأساس.

كما استخدم المسيح طريقة الخطوة خطوة في الإعلان عن الحقائق ونقلها من وضعها في العهد القديم إلى وضعها الجديد، وخاصة بالنسبة لملكوت الله، فاستطاع أن يُلْبِس الحقيقة القديمة ثوبها الروحي الجديد.

---

(11) M. Goguel, *op. cit.*, pp. 281 f.

18 ـ المسيح يضع بذور التعليم في أمثاله ويشجِّع على التعمُّق في المعرفة

أخبر المسيح تلاميذه في نهاية تعاليمه عن انتهاء عصر الأمثال قائلاً: «قد كلَّمتكم بهذا بأمثال، ولكن تأتي ساعة (بعد ذهابه) حين لا أكلِّمكم أيضاً بأمثال بل أُخبركم عن الآب علانية» (يو 25:16). والمعنى أنه كان يخفي الحقائق في الأمثال لأن الوقت والظروف لا تسمح بالعلانية. ولكن تأتي ساعة، وقد جاءت بعد ذهابه وبواسطة إرسال الروح القدس، يكون فيها تعليمه علانية، وبالأكثر فيما يخص العلاقة اللاهوتية بين الآب والابن، التي احتفظت بها الكنيسة بالفعل، والتي تجلَّت أكثر بالاستنارة التي فاضت على علماء الكنيسة وآبائها من الروح القدس. وكذلك فَهْم الأسرار في أقوال المسيح وأمثلته السابقة لدى شُرَّاح الإنجيل والوعَّاظ. وهذا يجعلنا لا نندهش من أن كثيرين من الذين عاصروه لم يفهموا كلامه، لأنه كان مخفياً إلى ما بعد قيامته لمعرفته في الحين الحسن بالروح القدس. فهذا النوع من التعليم يجعل المعرفة مؤجَّلة إلى ما بعد استعلان الحقيقة، وكأنها بذور يلقيها الزارع الذي خرج ليزرع. على أن نمو هذه البذور معمول حسابه أن بعضه ينمو ربما لعشرة أو عشرين أو خمسين سنة حسب ما كان يقيس المسيح ويدبِّر بالروح القدس. فكان يلقي بذاراً يمكن أن تنكشف لنفس الجيل وممكن أن تبقى لجيل آخر، وهذا نوع فذّ في التعليم لا يمكن أن يُدرِك أصوله وفنونه إلاَّ الله وحده. فلا نستغرب إن كنا الآن وبعد مرور ألفي سنة تقريباً على تعاليم المسيح نكتشف معان مدفونة وأفكاراً كانت مخفية، وهي تناسبنا الآن أكثر من أي وقت مضى، وهذا الأمر أدركه العلاَّمة شلايرماخر وعلَّق عليه هكذا:

[إن كل تقدُّمنا في معرفة الأمور الإلهية إنما يعتمد أساساً على مقدار ما نفهمه كل مرَّة فهماً صحيحاً، وخاصة بما يناسب عقولنا بقدر ما نقترب إلى هذه الحقائق التي للمسيح.](12)

ويقول العلاَّمة نياندر معلِّقاً:

[إن كل أصناف وطرائق تعليمه سواء كانت أمثالاً أو مبادئ مقرَّرة أو تناقضاً ظاهرياً، كان المقصود منها مجرَّد حثّ العقل ليتَّجه إلى فهم أعمق للمقصود، حتى ينفتح الوعي الإلهي داخل النفس، وبالنهاية يتعلَّم الإنسان أن يعرف حقيقة الأمور التي كانت في البدء تتحدَّى

---

(12) Schleiermacher cited by A. Neander, *The Life of Jesus, p. 106, n.1.*

العقل.](13)

وهكذا كان يلقي المسيح أموراً في البداية تبدو غير مفهومة، ولكن القصد منها أن تضغط على العقل وتتحدَّاه لينفتح لفهمها بقدر تعمُّق الإنسان في الحياة الروحية والانشغال بالله. وهكذا تصير هذه الأمور عينها بعد ذلك منبعاً دائماً للنور الإلهي.

وبذلك صارت كل العقائد الإلهية التي طرحها المسيح في تعليمه ليست مجرَّد عقائد وتقليد فكري أو مفهومات محصورة، ولكن عندما نتقبَّلها باعتبارها ''روحاً حيًّا'' ويتقبَّلها العقل بسرور ومشيئة راغباً في التعمُّق، فإنها تدخل الوعي وترتفع به لأنها حقائق روحية حيَّة.

على أن رفض العقول المغلقة والآذان المسدودة لتعاليم المسيح أصبح عاملاً منذراً لكي ننتبه نحن إلى ما تضمَّنته من معانٍ عميقة وحياة: مثل حديثه عن الجسد المأكول والدم المشروب، الذي حدا بجزء كبير من تلاميذه أن يتركوه ولم يعودوا يسيرون وراءه بحجة أن هذا الكلام صعب مَنْ يحتمله.

19 ـ روح السامع والقارئ عليها المعوَّل الأول لفهم تعليم المسيح

كان المسيح يعوِّل كثيراً على روح السامعين ويشدِّد بأن تنفتح الآذان جيداً لسماع كلامه، وكان يعني من هذا أن يستيقظ فيهم الوعي الروحي ليكون على مستوى الحقائق الروحية الكبيرة والهامة والخطيرة بالنسبة لحياتهم. وهذا ظلَّ إلى الآن عقدة هذا الجيل، أنهم يريدون أن يفهموا كلام الحياة الأبدية والملكوت ومعرفة الروحيات وأسرار المسيح والله على مستوى ما يقرأون وما يسمعون من أفكار وحوادث العالم في الجرائد والمطبوعات الرخيصة. إنها مصيبة المتعلِّمين قبل أن تكون عثرة الجهلة وضعفاء العقول، وهي بديهية ومفضوحة، إنهم يريدون أن تكون المعرفة في أمور الله والخلاص والحياة الأبدية على مستوى لغة الجرائد والراديو.

والفارق الكبير بين معارف الله والروح ومعارف الإنسان والعالم يقع داخل الإنسان وليس في المقروء أو المسموع. فأمور الإنسان والعالم يكفي أن ينتبه لها الفكر ليستوعبها جميعاً. ولكن أمور الله والروح والحياة الأبدية لا يمكن أن يقف عليها العقل ويفهمها بأي حال من الأحوال، لأنها لا تخصّه ولكن تخص النفس والروح، لذلك فالعقل ينتبه لها أولاً ويقف عندها إلى أن ينفتح لها وعي

(13) A. Neander, *op. cit.*, p. 106.

النفس أو الروح في الداخل لتستقر في أعماق الشعور واللاشعور معاً حتى تستوعبها النفس. فالإنسان الذي يريد أن يستفيد مما يقرأ عليه أن يقرأ، على مهل ثم يستعيد ما قرأ، على أن يقف عند الأمور الهامة ليستوعبها جيداً ويستزيد من تعمُّقها وفهمها ليكشف المعاني المخفية فيها ـ أمَّا الذي يقرأ متعجِّلاً فهذا لن يستفيد روحياً من القراءة مهما قرأ. فالله يخاطب الوعي الداخلي النفسي والروحي للإنسان. والذي يقرأ ويفهم فهذا يحسبه المسيح صاحب أذن مفتوحة على القلب، يأخذ المعلومة ويستودعها القلب لتختمر وتتفرَّخ وتنمو، لتصير معرفة ثابتة قادرة أن تؤثِّر وتغيِّر في الحياة كلها. وصاحب الأذن المسدودة صاحب قلب غليظ أو قاسٍ في عُرف المسيح، أمَّا صاحب الأذن المفتوحة فهو صاحب قلب مفتوح.

وأصحاب الآذان والقلوب المفتوحة يتعامل الله معهم ـ باعتبارهم ذوي الوعي الداخلي المفتوح ـ تعاملاً يزداد ويرقى حتى يتدرَّب الوعي يوماً بعد يوم على الانفتاح حتى يصل إلى مستوى استعلان حقائق وأسرار الإنجيل بسهولة.

وهكذا أصبحت نتائج أحاديث المسيح وتعليمه متوقفة على درجة انفتاح الآذان والقلوب، ودرجة الاشتياق والجوع والعطش إلى الكلمة الحية. ووفقاً لهذا الكلام كان المسيح يُقدِّم تعليمه بطريقة مشوِّقة جداً في قصص وأمثال تجذب الفكر والقلب، وتشجِّع السامع على التعمُّق للبحث عن المعنى المقصود. فكان المسيح في ذلك معلِّماً من طراز روحي نفساني فريد، بسيط أقصى البساطة وعميق أقصى العمق. لأن هدفه هو تحريك النفس لتجديد الروح: التوبة أولاً ثم التغيير ثم التجديد. فأصبح على القارئ أن يُتقن القراءة والتعمُّق والفهم ليغتني من غِنَى كنوز التعليم التي تُشبع الروح وتسعد الإنسان. وكان التلاميذ ينتهزون فرصة ذهاب الجموع لكي يسألوا المسيح عن المعنى المخفي، فكان المسيح يحزن لذلك لأنه كان يريدهم أن يتدرَّبوا على انفتاح وعيهم ليفهموا بأنفسهم بحسب النعمة التي أعطاهم: «أما تعلمون هذا المَثَل (مَثَل الزارع) فكيف تعرفون جميع الأمثال؟» (مر 13:4)، «قد أُعطي لكم أن تعرفوا (بالروح) سر ملكوت الله» (مر 11:4). وهكذا يكشف المسيح أن الإنسان المجتهد الذي يعطش إلى الله ويجوع إلى كلامه الحي يفتح الله وعيه ليتقبَّل سر ملكوت الله، فيصبح قادراً على معرفة كل أمور الله بروحه. أمَّا الذي لا يعطش ولا يجوع وترفض نفسه أقوال الله ولا ترتاح نفسه إلى الإنجيل أو سماع الكلمة، فيظل وعيه الروحي مقفولاً، يسمع ولا يفهم ويقرأ ولا يعي ما يقرأ، لأن قلبه مسدود من جهة الله. فهذا يكون هو المسئول عن حرمانه من غِنَى الله وسر الملكوت.

20 ـ تعليم المسيح عن الملكوت ينمو بمقدار نمو الملكوت عند سامعيه

إن طبيعة تعليم المسيح عن الملكوت كانت تُحدث انفتاحاً ويقظة روحية على الملكوت، وكان المسيح يتمشَّى مع هذا الانفتاح عند تلاميذه، بحيث أنه على قدر نمو وعي التلاميذ ترتفع درجة تعليمه. على أن تعليمه لم يكن مجرَّد كلام للفهم، بل توصيل حقائق ثابتة قادرة أن تغيِّر وتمتد بالوعي في سر الملكوت. بحيث لو قنّنا درجة نمو الإحساس بالملكوت فيهم نجد أنها كانت دائماً على مستوى نمو تعليم المسيح في قلوبهم.

والمُلاحَظ هنا أن المسيح لا يسبق في تعليمه نمو الواقع عند السامع أو القارئ، فبقدر ما ينمو السامع في استيعاب أمور وأسرار الملكوت يرتفع التعليم ويزيد وينمو ليعطي الأكثر والأعلى. وكأن مستوى السامع في نموه هو الذي يحدِّد مستوى التعليم الذي ينبغي أن يقدِّمه المسيح. وبهذه الصورة تنقطع معاملات المسيح في تعليمه وإرشاده وقيادته عن النفس الرافضة للامتداد والنمو في معرفة أسرار الملكوت والحياة مع الله. وهنا تجيء الآية: «فإن مَنْ له سيُعطى ويُزاد. وأمَّا مَنْ ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه» (مت 12:13). لأن المتوقِّف في طريق الملكوت لا يظل متوقِّفاً بل تتسرَّب منه مكاسبه وتضعف معارفه على المدى. فالنمو هو قانون الحياة الأبدية: بقدر ما تنمو تأخذ وليس للأخذ نهاية وحتى في السماء. أمَّا البلادة والاستهانة والاستهتار في التعامل مع تعليم الإنجيل فهي كفيلة بأن تفرِّغ قلب الإنسان من الروح حتى يصبح الإنسان وكأنه بلا هدف ولا رجاء يحيا له.

21 ـ إنجيل ق. يوحنا متماسك التركيب وعميق الأحاديث وذلك لروحانية ق. يوحنا

على ضوء ما سبق وتكلَّمنا نجد أن الذي يأخذ من المسيح ليكتب إنجيلاً سيكون حتماً محصوراً ومتأثِّراً بأمرين أساسيين: الأول مدى عمق وانفتاح وعي الإنجيلي نفسه، والثاني مقدار ما استوعب من شخصية المسيح وأحاديثه. فالثلاثة أناجيل المتناظرة نجدها ذات طابع متقارب، سجَّلت الأحاديث كما هي واستوعبت من تعاليم المسيح قدراً متساوياً، لا نستطيع أن نقول إنه بسيط أو عادي، ولا نستطيع أن نقول إنه عميق بما يوازي حقيقة المسيح تماماً. فسواء أقواله المسترسلة الطويلة نوعاً ما أو القصيرة ذات المعاني الواضحة العملية فكلها تحمل طابعاً واحداً من التعليم المدرسي اللائق بملكوت الله. فإذا جئنا إلى إنجيل ق. يوحنا نجد منذ البداية العمق والحكمة، بل والحكمة العالية جداً والأحاديث الطويلة العميقة الهادفة لأهداف قوية روحانية. كذلك في التعاليم الخاصة بالحياة الروحية والملكوت نجدها عميقة لا تقل عمقاً عن الأحاديث الطويلة، كل منها يهدف إلى غاية عالية وكلها ذات ارتباط وهدف واحد منسجم وعميق. فلماذا هذا الفارق الكبير؟ هذا كان موضوع نقاش وعراك بين العلماء الذين التزموا بالروح والإلهام، وفسَّروا أن هذا هو طابع إنجيل ق. يوحنا عن أصالة؛ والآخرين والنُقَّاد الذين أساءوا إلى أصالة الإنجيل ووحدة منبعه وعصره وكاتبه.

ولكن الذي يعي الكلام الذي قلناه بخصوص الأوصاف التي راعاها المسيح في تعليمه معتمداً على سامعيه ومعتمداً على مدى تأثير الكلمة ونموها واستيعابهم لها، وارتفاعه أو هبوطه بمستوى العمق والإيضاح بما يناسب الذين يسمعون ويتعلَّمون، يكتشف علة اختلاف مستوى ومضمون وشكل الكلام الذي كان يقوله في الجليل والذي علَّم به في أُورشليم، أو بين ما كان يعلِّم به الجموع الملتفة حوله على بحيرة طبرية، وبين نقاشه مع الكتبة والفريسيين، ومع رؤساء الكهنة. ثم بين هذا كله وبين ما كان ينتهي إليه في تعليم تلاميذه. والأمر نفسه نقوله بين تلميذ وتلميذ. فالحادث فيما يخص إنجيل ق. يوحنا أن التلميذ نفسه وهو ق. يوحنا كان على مستوى من الروحانية والعمق والعاطفة ما أهَّله أن يستوعب من المسيح القدر الذي أراده المسيح من العمق الروحي البديع، وأيضاً وبالأكثر هذا مكَّن المسيح نفسه أن يفيض في الحديث معه ويسترسل في العمق والروحانية والحكمة، وهو

واثق أن الذي يسمعه هو على نفس المستوى من الوعي والحفظ. هذا ويتحتَّم إضافة ما منحه المسيح خاصة من الحب ومعه عطية انفتاح البصيرة. وباختصار كان المسيح بالنسبة للتلاميذ معلِّماً مدرسياً على مستوى روحاني، أمَّا بالنسبة للقديس يوحنا فكان تعليم المسيح على مستوى الاستعلان الذي صادف قدرة هائلة من ق. يوحنا في استقبال هذه الاستعلانات، أضف إليها الأسئلة من ق. يوحنا وأجوبة المسيح التي كانت عاملاً كبيراً في توسيع مدارك ق. يوحنا واتساع دائرة رؤيته وقدرته في السرد والرواية.

وباختصار، وحتى الآن، فالإنسان المسيحي لا تقاس روحانيته ومعرفته الإلهية بمقدار تعلُّمه واستذكاره، أو كثرة قراءته أو قدرته على الكلام والكتابة؛ ولكن تقاس روحانيته وتُعلن قولاً أو كتابة على مقدار انفتاح وعيه المسيحي وقدرته على إدراك ما في الاستعلان من أسرار. فالعمق في المسيحية ينادي العمق الأكثر، والاستعلان هو لذوي القلوب المفتوحة والقادرة على الاستيعاب كذلك.

فلو دخلنا إلى التحليل في عرضنا لإنجيل ق. يوحنا بالنسبة للثلاثة أناجيل الأخرى، نجد مثلاً أن الأمثال، وهي أقوال المسيح التي اعتمدت على النقل الشفاهي والتي كُتبت بلغتنا، وهي صورة جيدة لوسيلة المسيح في التعليم الذي يُنقل شفهياً، فإن ق. يوحنا وعلى مستوى إنجيله لم يذكر شيئاً من الأمثال الموجودة في الثلاثة أناجيل الأخرى. **أولاً**: لأنها لا تتناسب مع أسلوبه وطريقة التعليم فيه الذي هو على مستوى الاستعلان الذي قبله من المسيح. **ثانياً**: لأنه يَعْلَمُ بوجود الأناجيل التي اهتمَّت بالتعاليم العامة المدرسية مثل إنجيل ق. متى. هذا وإنجيل ق. يوحنا لم يتخلَّ كلية عن الأمثال، ولكنه قدَّم نوعاً من الأمثال يتمشَّى مع مستوى أسلوبه وإنجيله، كمَثَل الراعي والخراف وكان مَثَلاً عميقاً مما أحدث أزمة في نفوس التلاميذ: «هذا المثل قاله لهم يسوع، وأمَّا هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلِّمهم به» (يو 6:10). وواضح جداً الآن أن ق. يوحنا فهمه وسجَّله، وأمَّا بقية التلاميذ فلم يفهموه و لم يسجِّلوه ولا حفظوه، لذلك غاب عن الأناجيل الثلاثة!

فإذا جئنا إلى مثل المسيح في إنجيل ق. يوحنا: أنا الكرمة وأبي الكرَّام وأنتم الأغصان، فلأول وهلة نجد أنه من الاستحالة أن يكون التلاميذ قد فهموه، فهو يحوي أعمق سر للاَّهوت الذي يجمع بين الآب والابن والكنيسة، حيث الأغصان هي جسم المسيح. لذلك نجده قد غاب في الأناجيل الثلاثة. ولكن شكراً لله وللقديس يوحنا لأنه من دعائم التعليم بسر المسيح والكنيسة.

22 ـ توافق المسيح مع إمكانيات سامعيه

لقد تميَّزت تعاليم المسيح بالتنوُّع في العمق والمستوى. ففي الأساس يبدأ المسيح على المستوى العام ويترفَّق بالجهال وضعاف الفكر، فينزل إلى أقل مستوى، الذي حينما نواجهه نحن نتضجَّر، ولكن ما أن يحس أن السامعين قد استوعبوا الفكر، فإنه يرتفع قليلاً قليلاً ليبلغ بهم الحقائق الهامة والجوهرية. فهو ينزل إليهم ليرفعهم إليه. وهذا هو أسلوب الله نفسه مع كل البشرية. والمسيح يستخدم هذا الأسلوب من البداية حتى وإلى أقصى ارتفاعه، فهو يتباسط مع الجاهل، ولكن يرتفع إلى مستوى العارف ويمدّه بأرفع من معرفته ليرفعه هو الآخر إلى مستواه. وفي الطريق فإن الذي ابتدأ يعرف يمدّه بقوة روحية كاشفة إضافية ليزداد في معرفته حتى النهاية. ونحن نقرأها في نهاية تعاليم المسيح بالنسبة لتلاميذه: «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو 45:24). فحتى إذا كانت هناك معلومة جديدة يودّ أن يُدخلها في أذهانهم، فإنه يبدأ من مستوى الدرجة التي يعرفونها والمعلومة التي يكونون متأكدين منها، ومن هذه يرتفع إلى الجديد والأعلى. بهذا الأسلوب بدأ مع تلاميذه لينير ذهنهم بالحياة الأبدية. علماً بأن المسيح كمعلِّم إلهي كان يستخدم قدرته الروحية في توسيع مدارك التلاميذ حتى يستوعبوا الأمور الإلهية: «إلى مَنْ نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك» (يو 68:6). واضح هنا أن المسيح وضع بذرة المعرفة التي بدأت تفتح ذهنهم. وإلى الآن فقارئ الإنجيل إن كان نشطاً وأميناً تنسكب عليه النعمة فينفتح ذهنه ويُدرك أسراره، إنها نعمة الإنجيل الخاصة بمحبيه: «ليس أحد ترك ... لأجلي ولأجل الإنجيل» (مر 29:10). الإنجيل هنا هدف حياة!! ومعروف أنه لولا أن المسيح تنازل إلينا متجسِّداً من علو مجده ما كان ممكناً للطبيعة الإلهية أن تترفَّق بالإنسان هكذا، نزولاً وارتفاعاً لكي تتوافق مع إمكانياتنا الضعيفة لتبلغ نفس الإمكانيات التي يريدها الله.

ولكن تظل طبيعة المعلِّم الإلهي الفائقة العلو والقداسة قادرة أن تتنازل إلى خامات معاكسة أو عقول كريهة، كالتي للكتبة والفرِّيسيين. فالتنافر كان على أشده حينما كانت تبتدئ هذه العينات في المحاجاة والمعاكسة. فالكلمة عند المسيح روح وحياة، لا تسكن إلاَّ في العقول والقلوب التي صارت على مستواها. فالتلميذ أو قارئ الإنجيل الذي يريد أن يتعلَّم لابد أن ينقِّي قلبه وفكره أولاً لكي يرتاح فيه سر الإنجيل وتسكن فيه قوة الكلمة والحكمة.

والمسيح زارع حق، وزرعه لا ينبت ولا ينمو إلاَّ في التربة الجيدة التي تتوافق مع الحق، وشمسه طاهرة لا تغذِّي بأشعتها الشافية إلاَّ مَنْ خضع لقداسة نورها وحرارتها، وغيثه ينسكب منه ماء الحياة لا يسقي ولا يروي إلاَّ الذي توفَّرت لديه النعمة.

وقدرة المسيح على تغيير القلوب والأفكار حاضرة ومستعدة دائماً، فالذي يُجبر الكسيح ليقوم ويطفر، يُجبر عجز الطبيعة إن هي شاءت وخضعت، والذي أقام الميت بكلمة كم يكون استعداده أن يقوِّم جهالة الجاهل إن هو سعى نحو الحكمة وطلبها باشتياق!

23 ـ المسيح يستشهد بالعهد القديم

التجاء المسيح للعهد القديم كان بأن يستقرئ منه ما يُعلِّم به أو يعمله، وليس كما كان يقتبس منه الإنجيليون. فالإنجيلي يُوصِل الحقيقتين معاً القديم بالجديد ليزداد يقين الجديد بشهادة القديم. أمَّا المسيح فكان يستقرئ من القديم الحق والحقيقة المخفية ويعلنها هو، لكي يُثبت أن الحق والنور اللَّذين كانا محجوبين في القديم صارا مُعلنين في الجديد. والقصد الأساسي هو تأكيد بلوغ الحق منتهاه على يديه وتكميل فكر القديم بكمال فكره. فهو بذلك يشهد للحق وحده والكمال والنور. وعندما قال: «ما جئت لأنقض بل لأكمِّل» كان صادقاً منتهى الصدق.

فلمَّا قال: ''قيل لكم في القديم، أمَّا أنا فأقول لكم''، لم يكن ليعطي الضد أو المضاد للقديم، بل ليعطي الحق في القديم كماله ويزيد جماله. فاعتراف الرجل الحكيم بجهالة صباه لا ترده إلى جاهل ولا تعيب صبوته، بل تُلبس هذا وذاك كمال الترقِّي وجمال التغيير إلى الأفضل.

24 ـ اختيار الرسل وتدريبهم

كان اختيار المسيح لتلاميذه كانتخاب مادة الأساس لملكوت الله الذي سيبني فوقه ملكوته. فالقصد من اختيارهم، لا أن يصيروا معلِّمين عِوَضاً عنه، ولا لتستمر الرسالة ـ مع أن هذا وارد ـ ولكن كان بالأساس لينقلوا المسيح نفسه إلى الآخرين. فأساس الملكوت وبابه وأسلوبه هو المسيح بالدرجة الأُولى. ولكن كان عمل هؤلاء هو نقل صورة المسيح ونشرها ليعمل المسيح ويظل يعمل عمله: «مبنيِّين على أساس الرسل والأنبياء **ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية**» (أف 20:2). هؤلاء لا يعملون بأنفسهم بل المسيح يعمل بهم وفيهم. فالرسول لا يعمل متشبِّهاً بالمسيح، بل يعمل بالمسيح لأنه ـ خريستوفورُس (أي حامل المسيح) ـ «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل 20:2). فقد كشف المسيح سرَّها: «فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو 57:6)، «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو 51:6). المسيح هنا يصف سر وجوده فينا والعمل بنا، فالذي يتم في سر التناول هو توضيح عملي كيف يدخل المسيح حياتنا ويعمل فينا؟!

بمعنى أن المسيح لَمَّا كان يُعلِّم الرسل ويدرِّبهم كان بالنهاية يجعل وجوده فيهم فعَّالاً في كل مكان وزمان. فالتلمذة الحقيقية للمسيح ليست هي التي تعمل بالمسيح، ولكن هي التي يعمل بها المسيح من أجل انتشار الحق والروح والحياة في كل العالم.

25 ـ لماذا الاثنا عشر بالذات؟

كان الشعب اليهودي قد بدأ في الانحلال، وبعد السبي ضاعت معالم الأسباط، ولم يَعُدْ من السبي إلى استيطان الأرض البهيَّة إلاَّ سبطان: بنيامين ويهوذا، وباقي الأسباط ذابت في الأُمم. هنا المسيح يعيد شعباً لله كاملاً كما كان. وهكذا عيَّن لهذا الشعب التلاميذ الاثني عشر ليكونوا بمثابة رؤساء الأسباط (مت 28:19). وأمَّا اختيارهم بالاسم والشخصية بحسب رؤيته فتمَّ بناءً على عوامل خاصة فرضها فيهم: «لست أقول عن جميعكم، أنا أعلم الذين اخترتهم. لكن ليتم الكتاب الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عقبه» (يو 18:13). واختيار يهوذا الإسخريوطي لم يأتِ ذكره بالمرَّة، كيف اختاره ولماذا اختاره؟ ولكن المسيح ألمح إلى هذا بقوله: «أليس أني أنا اخترتكم الاثني عشر وواحد منكم شيطان» (يو 70:6). ولكن كون المسيح عَلِمَ مبكِّراً جداً بأن يهوذا خائن ويسرق الصندوق ويثير المشاكل بين التلاميذ واحتمله إلى آخر لحظة، ففي هذا يكمن سر اختياره أنه أراده بوضعه هذا حتى إلى اللحظة الأخيرة: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو 27:13)، مع أنه ذهب ليُعِدَّ له الصليب. من هذا نفهم أن يهوذا ضريبة قُبلت ليتم به ما تمَّ. والمسيح ينفي أن التلاميذ اختاروه، بل هو الذي اختارهم (انظر: يو 16:15). وفي إرسالية المسيح الأخيرة للتلاميذ بحسب إنجيل ق. متى يظهر بالنهاية أن المسيح اختارهم ودرَّبهم ليكرزوا كشهود عيان لشخصه في العالم كله (انظر: مت 19:28)، «وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء» (يو 27:15). وهذه القيمة والميزة الرسولية حاول الرسل تغطيتها عندما فُقد واحد من الاثني عشر (يهوذا)، إذ اجتمعوا وتشاوروا: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنَّا، يصير واحد منهم شاهداً معنا بقيامته ... ثم ألقوا قرعتهم (آخر قرعة في الكتاب المقدَّس لأن الروح القدس حلَّ بدل عمل القرعة)، فوقعت القرعة على متياس، فحُسب مع الأحد عشر رسولاً» (أع 1: 15ـ26). أمَّا القديس بولس فهو الوحيد الذي دعاه الرب من السماء مباشرة بعد الصعود بمدة زمنية ليكون له رسولاً خاصاً للأُمم.

غير أن بعض الرسل مثل بطرس ويوحنا كانوا رجالاً ذوي هِمَّة ومقدرة وصفات ممتازة، الذين أثبتوا بمُثلهم الحيَّة أن البشرية فيها عينات غنية بطباعها وأصولها. هؤلاء لَمَّا قبلوا المسيحية ارتفعوا بها إلى مستواها الحقيقي، وكشفوا مدى حكمة المسيح في اختيارهم. أمَّا الآخرون فأثبتوا بمحبتهم وترك

كل شيء واتِّباع المسيح حتى النهاية أنهم كانوا عيِّنات مختارة من واقع البشرية والعالم، الذين نجحوا في الشهادة للمسيح وحمل صورته واسمه في نقاوة وطهارة فريدة.

26 ـ أُميَّة التلاميذ

إنه أمر ملفت للنظر أن المسيح يختار تلاميذه من رجال أُميين لم يتعلَّموا، مع أنه كان قادراً أن ينتخبهم من نخبة المتعلِّمين الذين أحبُّوه وصادقوه، على مثال نيقوديموس وغيره كثيرين من الكتبة والفرِّيسيين الذين تعاطفوا معه في الخفاء.

ولكن الذي يبدو لنا أنه كان يرى فيهم روح الطفولة والبساطة التي أحبَّها الآب أيضاً فيهم وسكب عليهم من معرفته وإعلاناته كما أعطى لبطرس، الأمر الذي صرَّح به المسيح لمَّا قال: «وفي تلك الساعة تهلَّل يسوع بالروح وقال: أحمدُك أيها الآب، رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماءِ وأعلنتها **للأطفال**. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرَّة أمامك.» (لو 10:21)

وروح الطفولة البسيطة مهما كانت عديمة العلم، فهي كنز بالنسبة للمسيح، لأن التلاميذ أطاعوه من أول نداء وأحبُّوه بإخلاص وتركوا كل شيء وتبعوه، لا بنوع التضحية في نظرهم، بل لسبب الحب والثقة والكفاية التي وجدوها في المسيح. فكل ما كانوا يحتاجونه في الحياة وجدوه معه: المشاعر الأُسريَّة، المحبة الأبوية، الرعاية الصحية، والكفاية المادية؛ فماذا بقي في العالم ليغريهم بأن لا يلتصقوا به؟ ولمَّا حدث أن تبعه بعض التلاميذ الذين كانوا متعلِّمين نوعاً ما، عندما سمعوه يتكلَّم عن جسده النازل من السماء الذي يؤكل كما أُكل المن، وأن الذي يأكله لا يموت بل يحيا إلى الأبد؛ حكموا بحسب معرفتهم وعلمهم أن هذا الكلام صعب مَنْ يحتمله، و لم يعودوا يسيرون وراءه من تلك الساعة: «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، و لم يعودوا يمشون معه. فقال يسوع للاثني عشر: ألعلَّكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟ فأجابه سمعان بطرس: يا رب، إلى مَنْ نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي.» (يو 6: 66ـ69)

هذه الحادثة تكشف مدى تعلُّق التلاميذ الأُميين بالمسيح، وكيف قبلوا الكلام الصعب على أنه سهل ومقبول وهو كلام الحياة الأبدية، ولا يوجد أحد غير المسيح يستطيع أن يُشبع قلوبهم وإيمانهم: «إلى مَنْ نذهب» ! إذن، فقد نجح المسيح في اختيار تلاميذه من أدوات خاصة بسيطة أُميَّة أمكن أن يصبَّ فيها كلام الحياة الأبدية فتقبل وتُثمر أيضاً!! والواقع والإنجيل يقول لنا: إن ما سمعوه أودعوه في قلوب قدِّيسة واعية، واستطاعوا لمَّا حان الوقت وقبلوا الروح القدس، أن يستعلنوه أكثر

ويذيعوه ويعلِّموه للناس. وهكذا ـ وكما سبق وأن شرحنا ـ أن المسيح كان يستخدم التكيُّف في التعليم ليليق لمثل هؤلاء، ثم يرتفع بهم وبالتعليم لينمو ملكوت الله فيهم يوماً فيوماً. وهكذا ثبت بكل تأكيد أن الطاعة للمعلِّم كفيلة أن تجعل من الأطفال عمالقة جديرين أن يبشِّروا بملكوت الله! وواضح أن شخصية المسيح الوديعة والمتواضعة أيضاً استطاعت أن تطبع صورتها الإلهية بكل يقين ووضوح في قلوبهم: «ونحن قد **آمنا وعرفنا** أنك أنت المسيح ابن الله الحي» وهكذا دخلت شخصية المسيح الإلهية أعماقهم لتهذِّب من أفكارهم وكلامهم وآمالهم وحبهم وسلوكهم! وترفع من روحهم لتلتحم بهدوء في تقوى بروح المسيح، فتنتقل وداعة المسيح الإلهية وتواضعه الربَّاني إلى نفوسهم، ليصبحوا أغصاناً مثمرة في الكرمة الحقيقية تستقي من عصارتها، وتقدِّم أفخر ثمارها كما شبَّه المسيح نفسه وتلاميذه في إنجيل ق. يوحنا (يو 15: 1ـ7).

ولكن لكي يكمِّل المسيح تلاميذه بالكمال المسيحي بحسب قانون تكميل التوراة والناموس، أضاف إلى جماعة التلاميذ الأُميين ـ بعد أن قدَّمهم في الكنيسة للعالم كأئمة ورُسل للتبشير بالإنجيل ـ إنساناً آخر كان قد تهذَّب بكل تهذيب التوراة إلى أقصى ما بلغ الربيُّون العظام، دعاه لكي يُظهر قوَّته فيه، أعاده أُميًّا فألغى علمه وتعليمه وفخاره وافتخاره بتهذيب التوراة والربيِّين وحمَّله الصليب، صليب الجهالة عند اليونان والعثرة عند اليهود، وأرسله يكرز بما كان يكرز به الرسل الأُميُّون: « لكن ما كان لي ربحاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة، بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربِّي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح وأُوجد فيه.» (في 3: 7ـ9)

فانظر عزيزي القارئ، كيف انخفضت هامة ذلك الفرِّيسي الجبَّار لتنحني تحت الصليب، وبتواضع شديد تأهَّلت أن تحمله فوق كتفيها، ليبشِّر العالم كله بضعفه وقوة المسيح. وإن كان الاثنا عشر قد بشَّروا فلسطين وما حولها، فقد حمل ق. بولس جميع الأُمم على كتفيه.

27 ـ من عبيد إلى أحبَّاء

حينما بدأ التلاميذ علاقتهم مع المسيح كانت قائمة على الطاعة وواجبات المحبة كما تمليها عليهم الظروف من الخارج. ولكن بعد مدة دخلت العلاقة إلى وضع أعمق من مفهوم الطاعة والمحبة المفروضة بحسب الواجب والظروف، إذ بدأ القلب والفكر معاً يتحرَّكان ليتقبَّلا من قلب المسيح وفكره علاقة أخرى تقوم على صلة أخرى عميقة وذات إحساسات فائقة عن مستوى الطبيعة. وكانت استجابتهم في البداية لوصاياه ومطالبه تقوم على الثقة وإيمانهم بالحق الذي في المسيح وفي

إرادته من نحوهم. ولكن شيئاً فشيئاً أصبحت عشرتهم به كافية للدخول أكثر فأكثر في إدراك نفس شخصه وإرادته وأفكاره وأعماله. ومنها بدأت تتأثَّر أشخاصهم بشخصه، وإدراكهم بإدراكه، وإرادتهم بإرادته، وأفكارهم بأفكاره، كانسياب الحرارة من جسم ساخن إلى جسم بارد بالالتصاق، حتى بعد فترة أصبحنا نحس بالتلاميذ يتكلَّمون ويتصرَّفون كصورة ـ وإن كانت ضعيفة ـ لصورة كلام المسيح وتصرُّفاته. ولكن بالأكثر، فالمحبة الصادقة والطيبة التي سكبها المسيح في قلوبهم، استجابت لها قلوبهم واستوعبتها ثم عكستها عليه شخصياً. فأصبحوا يحبُّونه بشدَّة بحب يقارب حبه لهم، حتى أخيراً نسمع المسيح يتكلَّم عن سر أعماق هذه المحبة قائلاً: «أمَّا يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحبَّ خاصته الذين في العالم. **أحبهم إلى المنتهى**» (يو 1:13). بمعنى أحبَّهم أقصى غاية المحبة!!

ولكن الذي يدهشنا أن محبة المسيح لهم كان دورها الإيجابي في نقلهم من حالة العبيد إلى حالة الأحباء، ليس مجرَّد حب عاطفي أو خلق مناسبات لكي يُظهر لهم فيها حبَّه وعطفه؛ ولكن كانت تغذية قلوبهم وأفكارهم ونفوسهم في الأعماق بكشف علاقة الآب به وبهم، ووصف حب الآب من نحوهم لا كسرد وقائع ولكن كتسليم واقع. وقد صرَّح هو بذلك واصفاً هذه الحقيقة العجيبة والفريدة في تعليم وتسليم المحبة ورفع الإنسان من حالة عبد إلى حالة محبوب! «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم، ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. **أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به.** لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. **لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي.**» (يو 15: 12ـ15)

بمعنى أن ارتفاع معرفة التلاميذ إلى معرفة الآب وكل ما عرَّفهم المسيح به من علائق الآب من نحوهم ونحو المسيح الابن كان كفيلاً أن يرفعهم من حالة بشر عبيد إلى حالة أبناء أحباء، وهو الأمر الذي حوَّله المسيح إلى فعل وإلى تضحية وبذل وموت بحسب مشيئة الآب، وقيامته وذهابه إلى الآب وهو حامل البشرية في صميم كيانه. وباختصار فإن منهج المسيح التعليمي كإنجيل كان كافياً بحد ذاته أن يرفع التلاميذ من حالة عبيد إلى حالة أحبَّاء: «**لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي**». ثم أضاف إلى **العلم والمعرفة العمل أيضاً**، ليبلغ الحب حالة واقع واتحاد: «**أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به**». ثم في موضع آخر أضاف للتلاميذ عاملاً ثالثاً أساسياً لبلوغ ملكوت الله: «أمَّا مَنْ عمل وعلَّم فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات» (مت 19:5). وهنا أضاف التعليم أيضاً، فأصبح قانون ملكوت الله يُقدَّم على ثلاثة: ”علم، وعمل، وتعليم“. وهذا ما انتهى إليه مستوى الرسل. فمن عبيد إلى أحبَّاء إلى معلمين عظماء لحساب الملكوت.

ولكن لا نستطيع أن نعبر على حالة المحبة التي بلغها التلاميذ دون أن نشير أنها بلغت مع المسيح إلى مستوى تآلف نفساني وروحي شديد العمق، الذي بلمسة الروح القدس صار بعد ذلك حالة شركة واتحاد محسوبة أنها لحساب الآب، بلغت حالة التصالح والبنوَّة.

28 ـ المستوى الخاص الذي كان يُدرِّب به المسيح تلاميذه

كان من المُتَّبع سواء في مدارس الفرِّيسيين أو غيرهم من المعلِّمين ـ مثل المعمدان ـ أن يدرِّب المعلِّم تلاميذه بوضع تداريب خاصة بالصوم والصلاة والخلوة والصمت وأمور أخرى كثيرة، لكي بحسب ظنهم يرتقوا إلى المستويات الروحية. أمَّا المسيح فلم يسلك هذا الطريق، وهذا واضح لمَّا جاء تلاميذ يوحنا يستفسرون من المسيح بنوع من النقد والمراجعة: لماذا لا يصوم تلاميذك: «لماذا نصوم نحن والفرِّيسيون كثيراً، وأمَّا تلاميذك فلا يصومون» (مت 14:9)؟ هنا يتضح أن المسيح لم يستخدم طرق النسك وطرائق العبادة المختلفة لتدريب تلاميذه كالمعمدان والفرِّيسيين.

ولكن قبل أن نخوض في الأسباب يلزم أن نعلم أن المعمدان ظهر إلى العالم وهو على أعلى درجة من النسك، فلا طعام ولا شراب ولا بيت ولا أولاد ولا راحة ولا متعة، بل ولا علاقة مع أحد. وعكس ذلك تماماً جاء المسيح يأكل ويشرب وله بيت وعلاقات شديدة بالآخرين لحساب رسالته. فهو على منوال حياته بدأ يعلِّم ويدرِّب تلاميذه، وعنوان مدرسته ومنهجه أن لا تؤخذ رقعة من ثوب جديد ويُرقَّع بها ثوب عتيق، ولا يضعون خمراً جديدة في زق عتيق، فالتلف يتربَّص بهذا وذاك. إذ اعتبر المسيح أن وصايا النسك لا تستقيم مع إعداد تلاميذه ليحملوا ملكوت السموات باتساعه وعلوه ومسرَّاته وأفراحه الأبدية.

فلم يسنَّ لهم قوانين صوم ولا تقشُّف ولا انعزال للتمرين، ولا فرض عليهم الصمت والتأمُّل؛ بل دفعهم دفعاً للاختلاط مع الجموع للتعليم مباشرة بعد أن زوَّدهم بالروح والمبادئ الأساسية.

وكان المسيح يعتبر أن مجيئه ووجوده في وسط التلاميذ كعريس بين أصدقاء العريس، كما عبَّر عنها المعمدان نفسه: «فقال لهم يسوع (ردًّا على سؤالهم: لماذا لا يصوم تلاميذه؟): هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؟» (مت 15:9). بمعنى عندما تنتهي أفراح وجود المسيح، فعندما يُرفع العريس حينئذ يصومون ويشتهون يوماً من أيام ابن الإنسان، أي يشتهون هذا الفرح عينه.

هنا لو أخذنا بالشرح التقليدي أنه حينما يرتفع المسيح من الأرض ـ أي بالقيامة والصعود ـ حينئذ يبدأ الصوم حيث يليق الحزن. هذا في الحال يقف معارضاً للمَثَل الذي فرضه المسيح أن لا تؤخذ رقعة من

ثوب جديد ـ وهو ثوب الخلاص بالمسيح وحياة الفرح في العهد الجديد ـ ويُرقَّع بها ثوب عتيق وهو تعاليم الفرِّيسيين والمعلمين القدامى بالأصوام والنسك. ولا الخمر الجديدة أيضاً التي هي فرح الروح القدس تصلح أن توضع في زقٍ عتيق، أي في قوانين الصوم والنوح وقرع الصدر. فالمسيحية بروحها الجديدة لا يمكن أن تُمَارَسْ بروح وتقاليد العهد القديم. يبقى أمامنا شرح وحيد لمعنى يُرفع العريس عنهم، فهو غياب المسيح بالمفهوم الروحي وليس الجسدي، بمعنى توقُّف الإحساس بالخلاص والرجاء والفرح، هذا هو معنى أن يفقد الإنسان الإحساس بوجود المسيح. هنا يمكن للإنسان أن يصوم ويحزن ويبكي ويعتكف إلى أن يعود الفرح وبهجة الخلاص في القلب، هذا يعني أن يكون عمل الإنسان في غياب المسيح عن القلب هو الندم والتوبة ومراجعة النفس وضبط واستعباد الجسد بأصوام وصلوات وتضرُّعات: بهذا فقط يكون منهج المسيحية سليماً: «افرحوا كل حين، صلوا بلا انقطاع، اشكروا في كل شيء» (1تس 5: 16ـ 18)، «افرحوا في الرب كل حينٍ وأقول أيضاً افرحوا »(في 4:4). أمَّا الأصوام الكنسية فهي لتمجيد تذكارات خاصة.

ولكن بالعودة إلى تعليم التلاميذ وتدريبهم بمفهوم وجود المسيح كعريس بينهم، نفهم أن المسيح لم يستخدم تداريب الصوم وأنواع الصلوات والعزلة عن الناس والضوابط الخلقية، وهي التي تعبِّر عن الطريقة السلبية في التعليم؛ بل تركهم على سجيتهم الطبيعية، وبدأ يغرس فيهم المبادئ الروحية الإيجابية، ويدرِّب حواسهم الروحية ليقظة النفس حتى تتقبَّل نفوسهم وأرواحهم مفاعيل النعمة. هنا يحدث الانضباط الجسدي والسلوكي، ليس بالقهر ولكن بالاستعلاء، أي بأن يحس الإنسان أنه ليس على مستوى الكذب والسرقة والغضب والشتيمة والانتقام؛ بل صار في عمق إحساسه القلبي على مستوى الأمانة والصدق لله والناس، ولا يشعر أنه محتاج لشيء ولا يشتهي شيئاً، ويحس بروح المحبة والسماحة فلا يُغْلب من روح الغضب. وعِوَض النقمة يكون روح الاحتمال والوداعة. وهكذا يصبح هيكل ومواد وأدوات التعليم والتدريب وبناء النفس عند المسيح هي على مستوى الروح والبناء الإيجابي. وهذا ينسجم تماماً مع بنود العظة على الجبل التي كان القصد منها عرض منهج الحياة الروحية للملكوت كوسيلة تعليم أساسية تركها المسيح للكنيسة الخالدة.

29 ـ الخطية والخطاة عند المسيح

أمَّا تعريف الخطية في مفهوم المسيحية فهي عدم التوافق مع ناموس الله، أو هي التعدِّي على وصايا الله من أي نوع أدبية أو عبادية روحية. والخطية التي كان يتعامل معها المسيح لم تَزِدْ عن كونها مرضاً أصاب النفس، والخطاة مرضى كمرضى الجسد: «لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى

التوبة ... لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى» (مت 9: 13و12). والخطايا هي ثمار حياة الإنسان، كثمار الشجر؛ فالشجرة الرديئة المريضة تنتج ثمراً رديئاً مريضاً. وكذلك الخطية والشر هي نتاج كنز القلب الشرير. تماماً كالحمى أو الألم يكشف عن مرض داخلي. **لذلك دعوة المسيح إلى التوبة تعني في الأساس تغيير الداخل المريض الشرير وليس تصحيح السلوك، لأن السلوك هو ناتج الصحة أو المرض الداخلي**. فالمطلوب ليست الأنظمة والقوانين التي تضبط السلوك، بل شفاء المرض الذي أنتج السلوك الشرير.

وشفاء المرض والنفس لا يكون بمعالجة الأعراض والظواهر، ولكن بالبحث أولاً عن نوع العلَّة والسبب الذي أمرض القلب والضمير. والمسيح كطبيب حقيقي للنفس المريضة كشف في مواضع كثيرة أن علَّة مرض النفس والخطية والسلوك الشرير هو محبة الذات، حيث الذات قد أزاحت الله واحتلت مكانه. لذلك تكون كل أعمالها ضد الله لأنها أصبحت غريمة وعدوَّة لكل ما هو لله. فمن محبة الذات تنبع كل الخطايا والشرور والتعديات على وصايا الله ومشيئته، ومحبة الذات تلد الاعتداد بالذات وتفضيلها وانغماسها في شهوات العالم وملذاته: «لأن من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة: زنى فسق قتل سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل، جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجِّس الإنسان.» (مر 7: 21-23)

لذلك أصبح إنكار الذات هو أول محاولة لقمع الخطية وتغيير القلب الشرير: «ودعا الجمع مع تلاميذه وقال لهم: فإن مَنْ أراد أن يأتي ورائي **فلينكر نفسه** ويحمل صليبه ويتبعني. مَنْ أراد أن يخلِّص نفسه يهلكها ومَنْ يُهلك نفسه (الرديئة الشريرة) من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلِّصها »(مر 8: 34و35). فإن أردت أن تكون مسيحياً، فعليك أن تفحص ذاتك وميولها وتتعلَّم كيف تقمع أنانيتها وشهواتها الخاصة. ولكي تأخذ قوة ومعونة على ذاتك لتردعها؛ قدِّم المحبة مع المسيح، وتقرَّب إليه، واخضع لوصاياه، وتعلَّم طاعته، والصِق قلبك به على الدوام.

وتقديم المحبة للآخرين هي ثمار الروح التي تؤكِّد أن الشجرة صارت جيدة.

وفي مَثَل الابن الضال تصوير بديع للخاطئ، إذ بدَّد ما له وأصبح مديناً بسبب محبته لذاته، وهنا ظهر الله كأب ظل ينتظر عودته باستعداد أن يغفر ويسامح بالدين.

30 ـ المنهج الأخلاقي عند المسيح

مطالب المسيح الأخلاقية تنجمع كلها في معنى التغيير في الطبيعة والميل والاستعداد، لا عن طريق التمرين أو القمع، ولكن عن طريق التجديد والانحياز للروح، حتى يأتي التغيير كثمرة روحية أو كإشعاع نور من بعد ظلمة، كفعل روحي وإلهي معاً في القلب. ولكن الاعتراض على ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يغيِّر طبيعته ولا عاداته، ولكن الرغبة الملحَّة مع الإيمان بالله وبالحق وبما هو أفضل يهيئ التغيير في القلب والطبيعة. لذلك فالمسيح يعتمد على حركة القلب وليس حركة الفكر أو الجسد للتغيير، باعتبار أن الذي يلوِّث الإنسان ويجعله إنساناً غير صالح وغير مقبول لدى الله، ليس هو بسبب الذي يدخله، بل بسبب الذي يخرج منه: «يُخرج من قلبه الشرور» فالقلب هو هدف التغيير عند المسيح وليس السلوك: «الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يُخرج الصالحات. والإنسان الشرير من الكنز الشرير يُخرج الشرور.» (مت 35:12)

لذلك فالاعتناء بالقوانين التي تحكم الأخلاق والسلوك هو بمثابة تطهير الصحفة(14) من الخارج لتظهر نقية. وتمادي التدقيق في الاعتناء بالمظهر يخفي داءً داخلياً هو الرياء.

لذلك يتمسَّك المسيح بتغيير الداخل لتغيير الأخلاق والسلوك. لذلك كان العراك بين الفرِّيسيين والمسيح عراكاً بين النواميس التي تضبط السلوك الموضوعة بصرامة، وبين تغيير القلب الداخلي. وبذلك اعتبر الفرِّيسيون أن المسيح مخرِّب للناموس ويهدِّد وجوده وبقاءه، وبالتالي يلزم قتله.

ذلك في الوقت الذي يرى فيه المسيح أن تغيير القلب في الداخل بالإيمان بالله ومحبة الحق مسألة حياة أو موت بالنسبة للإنسان الساعي في طريق الملكوت. لذلك فتعليم المسيح ليس هو ناموساً جديداً أو تعديلاً بسيطاً لقوانين العهد القديم، أو هو نظام وقانون جديد عِوَض نظام موسى؛ ولكنه تغيير، وتغيير كلِّي في المفهوم والسلوك والإيمان والحياة، بأن القلب الصالح هو الذي يقنِّن للإنسان سلوكه. فالخير والصلاح والبر والتقوى تأتي ليس بالقانون والسلوك بل بتغيير القلب: «قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدِّد في داخلي.» (مز 10:51)

والمسيح لا يمكن أن يُعطي وسائط عملية للحصول على الأخلاق الجيدة، ولكن يعطي نماذج. يعطي نفسه أولاً: «تعلَّموا مني» ثم يُعطي النموذج في القصص: كالسامري الصالح، وكمريم التي

---

(14) وتعني الوعاء.

اختارت النصيب الصالح، والكنعانية التي اختطفت الملكوت من يد المسيح بإيمانها وباتضاعها المنسحق جداً، وبقائد المئة بإيمانه العالي.

المسيح يتحاشى إعطاء القوانين، فلما طلب منه المتشاجران على الميراث أن يتدخَّل ليعطي كلمة العدل والفصل رفض، وقال لهما تحرزا من الطمع. وهكذا حلَّ المشكلة داخلياً.

وأخيراً، فالمسيح يعتمد على النموذج الأخلاقي المنبعث من قناعة داخلية وتغيير وليس على إدراك وتمييز الصالح والجيد. والذي يميِّز المسيح في التعليم الأخلاقي عن الكتبة والفرِّيسيين هو أن اليهودية تعتبر السلوك الجيد والصالح هو جزء من الدين، أمَّا المسيح فيرى أن الصلاح هو ثمرة الدين. وأعظم مَثَل لذلك: المحبة عند المسيح. فالمسيح عُرف عنه يقيناً أنه مُحب للعشَّارين والخطاة. هذا معناه أنه يحب غير المحبوبين وغير المقبولين وغير الصالحين، بل ويحب رديئي الأخلاق والسلوك والطباع، لماذا؟ لأنه يحب من قلبه وليس من فكره وعينيه، فتختفي كل الحواجز والموانع، فلا يستطيع أي عائق أن يمنعه من أن يُحب!! وهو يحب مَنْ هو في أشد الحاجة إلى المحبة. وهو واثق أن بالمحبة سيغيِّرهم من خطاة إلى قديسين.

31 ـ الكنيسة وعملها في تدريب النفس وبنائها

[لم يعتبر المسيحيون الأوائل أنفسهم كمجتمع جديد، ولكن كان في صميم شعورهم الذي يتحرَّكون به أنهم "شعب الله"، بمعنى أنهم جزء لا يتجزَّأ من الشعب القديم، شعب الآباء والأنبياء الأُول؛ انفصلوا عن الذين رفضوا المسيَّا، الذين قطعوا أنفسهم من «مواعيد الله لإسرائيل» فكثير من الأنبياء تحدَّثوا عن البقية التي تبقى لإسرائيل أنها هي التي سوف تتوب وتخلص (والقصد كان أنهم هم الرسل والذين آمنوا بالمسيح من الكتبة والفريسيين وبقية شيوخ الشعب). وأنبياء أخر قالوا إن الأُمم أيضاً سيأخذون نصيبهم في المسيَّا ونصيبهم في إسرائيل. هذا هو وضع المسيحيين بالنسبة للمسيح، معتبرين أنفسهم أنهم هم وحدهم الذين يفهمون، وقد فهموا الأنبياء وخضعوا وأطاعوا النبوَّات وحصلوا على الوعد. غير أن الذين رفضوا المسيح من إسرائيل هم الجزء الأكبر، أي أكثر مما كان يظن الأنبياء، وهذا هو الذي أضعف الرؤيا عندهم. كذلك فإن الجزء الذي قَبِلَ المسيح من الأُمم ودخل في الشعب الواحد هو أعظم بكثير جداً مما تصوَّر الأنبياء. ولكن هذا لم يغيِّر في أساس الرؤيا عند الأنبياء، وأن الذين سيقبلون المسيَّا هم المعتبرون "إسرائيل الله" برغم ما فيهم من كثرة طاغية من

الأمم.](15)

وبحسب تحقيق بولس الرسول، يحتسب أن هذه الحقبة التي كان يمر فيها (أيام بولس الرسول) هي حقبة تمتاز بأن ملكوت الله في صميم معناه ومبناه قد تحقَّق بالتدريج وهو لا يزال إلى أن يسلِّمه (المسيح) كاملاً إلى الله أبيه (1كو 15: 20ـ28).

فشعب الله الآن أو إسرائيل الجديد هم الذين تحت إلهام المسيح وقيادته، يعملون بكل الجهد لاكتمال ملكوت الله. وما كانت تُحارب فيه إسرائيل بواسطة الغيورين فيها من أجل الخلاص من الأعداء الذين استولوا على البلاد، أي التخلُّص من ملكوت الأُمم والعالم، تُحارِب فيه الكنيسة الآن ضد ملكوت الشيطان وأعداء المسيح بالروح، وأسلحتها صارت روحية بالضرورة: "الحق"، "البر"، "السلام"، "الإيمان"، "الخلاص"، "كلمة الله السيف ذو الحدين" (أف 6: 14ـ17). في هذا المجال تعمل الكنيسة في العالم بكل جهد في جيش ملكوت السموات للنصرة فوق كل قوة روحية معادية لاكتساب العالم للمسيح ولملكوت الله بالنهاية: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات ... إذاً يا إخوتي الأحباء والمشتاق إليهم، يا سروري وإكليلي، اثبتوا هكذا في الرب أيها الأحباء.» (في 3:20، 1:4)(16)

فالكنيسة تجاهد وتحارب على الأرض وتنمو وتزداد في السماء! فالكنيسة لها وجودان ووجهان: على الأرض جهاد وحرارة وتضحية وبذل، وفي السماء فرح وسرور وابتهاج وإكليل مجد؛ والوجهان يسيران معاً ولو أن الواحد لا يرى الآخر. وهذه بعينها هي صورة الملكوت المتحرِّك عَبْرَ الزمان على الأرض لحساب الخلود والمجد السماوي.

فبتدريب التلاميذ وتعليمهم على المستوى الروحي الذي يعيشونه ويسلكون بمقتضاه بما يتناسب مع ملكوت الله، يكون المسيح قد وضع أول صورة للكنيسة. لأن فاعلية الحياة الروحية بسلوك روحي يتناسب مع ملكوت الله يُنشئ ـ من تلقاء ذاته ـ وحدة جماعية تشعر بقوة روحية تجمع الأفراد معاً، لأن المبادئ والفهم والسلوك والهدف يكون قد أخذ شكله الواحد بحسب ما يطبعه المسيح على النفس والروح، فيكون التجمُّع الذي يجمعهم ليس صناعياً يحتاج إلى إقناع أو ضغط أو رجاء، بل يكون قوة نابعة منهم أنفسهم، لأن الذي جمعهم هو المسيح وروح الله، والهدف هو ملكوت الله وطاعة وحب المسيح والآب. هذا يتم بحسب مشيئة الله وبقيادة روح الله، لأن خلقة

---

(15) B. H. Streeter, *The Primitive Church,* pp. 47 f.

(16) T.W. Manson, *The Teaching of Jesus,* Cambridge 1959, pp. 189 f.

كنيسة في وسط العالم بهذه الصورة الروحية المتحدة عضوياً وفكرياً وسلوكياً هي منتـــهى مـــشيئة

الآب، وغرض المسيح الذي جاء من أجله إلى العالم ليكوِّن من البشرية التي تمزَّقت ـ بسبب خطية آدم وتدخُّل الشيطان ـ وحدة إنسانية بشرية روحية كجسد واحد روحاني، له صفات الله في الطهارة والبر والقداسة. وبذلك وبناء عليه، يستحيل استحالة قاطعة القبول بأن الكنيسة نفسها تنقسم وتتعدَّد وينقسم فكرها وتتباعد علاقتها من الداخل وتتعادى.

فالكنيسة محسوبة أنها دعامة البشرية الجديدة المطلوب دخولها إلى الله في السماء لميراث الملكوت المعد. فهي الأصل والأساس الجديد الذي ينبثق منه الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق. وهكذا أصبح من ألزم الفروض فيها أن تكون موحَّدة الفكر والرأي والمنهج وأسلوب التعليم وحل مشكلات الإنسان، للبلوغ بالبشرية الجديدة إلى هدفها الروحي الواحد في السماء.

فأصبح المطلوب منها أن تتخطَّى كل المعوِّقات من تعدد الأجناس والشعوب والعادات والثقافات، مستخدمة كل طاقتها المسيحية المتسامية جداً بالروح فوق كل هذه الفوارق والعثرات والمعطِّلات. فالكنيسة لها ملء ما للمسيح نفسه بحسب رؤية بولس الرسول الصادقة والأمينة والمدعَّمة بروح المسيح. وأرجو من القارئ أن ينتبه إلى متابعة بولس الرسول في الآية القادمة، كيف أخذ مكاسب المسيح كلها من أجل البشرية (الكنيسة) وصبَّها فيها، لتكون كلها لها بلا تمييز ولا نقصان هكذا:

+ «مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاءُ دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمةُ قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدَّةِ قوَّته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويَّات، فوق كل رياسة وسلطان وقوَّة وسيادة، وكل اسمٍ يُسمَّى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضع كلَّ شيءٍ تحت قدميه، وإيَّاه جعل **رأساً فوق كل شيءٍ للكنيسةِ**، التي هي جسده، (وهي) ملءُ الذي يملأُ الكلَّ في الكلِّ.» (أف 1: 18ـ23)

فلو سمح القارئ وأعاد هذه المكاسب العظمى ثم وقف مليًّا عند قوله في النهاية أنه جعلها للكنيسة ـ بسبب أنه صار هو نفسه رأساً لها ـ كرأس لجسده، فالكنيسة أصبحت جسده الذي جلس به عن يمين الله فوق كل هذه القوات والسلطات، وهو بقي رأساً لها يحس ويُدبِّر ويرفع ويدافع عنها إلى أن تبلغ مكانها الذي أعدَّه لها وحجزه باسمها. هذا هو مفهوم الكنيسة عند المسيح وق. بولس. وقد أعطى العلاقة بين المسيح والكنيسة ـ علاقة عريس بعروس ـ وذلك من واقع كلمته هو: «هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام **العريس** معهم» (مت 15:9). وهذا تعبير

عن الاتحاد القائم بين المسيح والكنيسة الذي هو واقع اتحاده هو بجسد الإنسان. فإن كان المسيح وهو ابن الله الذي اتَّحد بجسم البشرية هو واحد مع جسده، فهو كذلك مع كنيسته!

ولكن أين بذرة الاتحاد الأُولى؟ أليست هي اتحاد الإنسان المؤمن بأخيه الإنسان في نفس الإيمان بعامل قوة المسيح والروح القدس المشترك بينهما؟ بهذه البداية ومن هذه البذرة الأُولى: اتحاد الإنسان بالمسيح ثم اتحاد الإنسان بالإنسان بالتالي، تبدأ الكنيسة لتنتهي بالمسيح كعريس وعروس يؤهِّلها لنوال كل ما للابن عند الله أبيه.

فإذا سألتني: ما هي إذن أخلاقيات الكنيسة وقيمها ومُثُلها العليا، وعلى أي أساس يكون تعليمها للمؤمنين وتدريبهم؟ أقول:

الإجابة واضحة مما سردنا أعلاه. كيف جمع المسيح تلاميذ أميين، وبدأ يدرِّبهم ويعلِّمهم تعليماً يخلو من جميع السلبيات والضوابط والضواغط على الأخلاق والسلوك وإعطاء تدريبات الصوم والنسك وتقشُّفات الجسد بشبه المعمدان وتلاميذه، وارتفع بالتعليم والمعلِّمين إلى المستوى الروحي لغرس مبادئ الروح لتكون هي مبادئ الأخلاق والقيم الروحية العليا التي كشفها واستعلنها المسيح لتنتقل الكنيسة بأبنائها وعابديها من مستوى العبيد إلى مستوى الأحباء والأخصاء الذي يليق بهم البذل حتى الصليب. هكذا تتعلَّم الكنيسة وهكذا ترتفع بتعليمها وبذلها لتكون مثل المسيح لتلاميذه. وليس من عندها تأتي الكنيسة بهذه الروح وهذه التعاليم وهذا البذل، بل من المسيح رأسها. فهو مدبِّرها ومعلِّمها الأعظم، والروح القدس الذي صار المعزِّي الآخر والمدبِّر المباشر: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلَّم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلَّم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجِّدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو 16: 13و14). إذن، لقد ضمنت الكنيسة المصدر الذي تأخذ منه حياتها وتعليمها الذي لا ينضب إلى الأبد.

ولكن الذي يتحتَّم أن تعرفه الكنيسة الآن تماماً أنه بدون هذا المصدر الذي هو الرأس المسيح والروح القدس في كل شيء وكل زمان وحال، فلا تعليم ولا أبناء لله والملكوت. وإن نَزَعَتْ للعودة إلى الرُقعة الجديدة على الثوب العتيق فثوب الخلاص سيتمزَّق، أو إن مالت للرجوع إلى الزِّقِّ العتيق لكي تضع فيه خمر الروح القدس فالخمر سينسكب على الأرض!

والمسيح حينما يشعر أن الكنيسة وضعته مثلاً فوق الرأس ومصدر التعليم والتدبير، وإن شعر الروح القدس أنه أخذ وضعه وكرامته، فسوف يعمل المسيح والروح لرفع الكنيسة من الهوَّة التي استقرَّت فيها.

فالمسيح يعلم حقـــًّا وتماماً ما آلت إليه أمورنا، والروح انطوى حزيناً بانتظار أن نملِّك المـــسيح علينا بالصدق وندعو الروح القدس ليعمل! وستظل الكنيسة هي النجم الذي يهدي الحكماء حيـــث المسيح! والصوت الآمر بروح التقليد والميراث للعودة إلى الطرق الأُولى واتِّباع أقوال الآباء ومشورات الروح القدس، وقبل كل شيء الإنجيل كأساس!

32 ـ الأصول الأُولى التي نبعت منـها الكنيسة الأُولى

حينما قلنا تحت العنوان السالف إن المسيح حينما بدأ يجمع تلاميذه ليلقِّنهم سر الروح ويعـــدّهم للخلاص والملكوت، كان في الحقيقة ينشئ أول ''صورة'' للكنيسة (لاحظ أننا نقـــول صـــورة لا جوهر)، يتبادر للذهن هل ينطبق اسم الكنيسة ''اكليسيا'' أيضاً على هذه البدايـــة؟ والمعـــروف أن الاكليسيا في السبعينية مأخوذة أصلاً من معناها العبري الذي يُنطق kahal، **وهذه الكلمة تعـــني في اليهودية معنى الأُمة الإسرائيلية حينما تجتمع معاً أمام الله.** وهذا يصوِّر المعنى الوارد في سفر التثنيـــة حيث تجتمع كل الجماعة: «فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النـــشيد إلى تمامه» (تث 30:31). والمثيل له جاء في سفر الأعمال: «هذا هو الذي كان في الكنيسة في البريـــة مع الملاك الذي كان يكلِّمه في جبل سيناء، ومع آبائنا. الذي قَبِلَ أقوالاً حيَّة ليعطينـــا إياهـــا» (أع 38:7). ويقصد هنا كل الشعب مع موسى في حضرة الله، وأيضاً: «أخبر باسمك إخوتي وفي وسط الكنيسة أُسبِّحك» (عب 12:2). وهنا الكنيسة تعني الشعب كله مجتمعاً يصلِّي، أو ''الجماعة'' في حضرة الله. ثم تخصَّصت الكلمة قديماً في معنى ''السيناجوج'' أي الجماعة المخصَّصة للصلاة للمثول أمام الله. وهذا ما كان المسيح يقصده عندما قال: «وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشَّار» (مت 17:18). حيث الكنيسة هنا هي المجمع المجتمع باسم الله. على أن كلمة المجمع تعني جميع الشعب بلا استثناء. وبما أن المسيح كان يكلِّم تلاميذه، فالمسيح كان يقصد ما سيتكوَّن من الرسل وغيرهم لتمثيل المجمع في المسيحية.

وبذلك يكون الرسل مع المسيح هم أول "**صورة**" لمجمع مسيحي أمام الله أي kahal أي كنيسة. وبعد أن اتسعت دائرة الرسل بعد المسيح أخذت الكنيسة "**صورتها**" الحقيقيـــة الأُولى أي الـــشعب المجتمع لعبادة الله. وهكذا تُعتبر الكنيسة على طول المدى هي التي صنعها المسيح من روحه وســـلَّمها للأجيال، مع دوام العلائق الحية التي تربط الكنيسة بالمسيح، خاصة بالمعمودية والإفخارستية، حيـــث يُعمَّد العضو الجديد باسم الآب والابن والروح القدس، بمعنى أن يحمل اسم الله ويتعهَّد بعمل وصاياه وهو حامل في كيانه الروحي جسد المسيح ودمه. ومن هنا وضـــح غايـــة الوضـــوح أن الكنيـــسة

هي جسد المسيح، وأن الروح القدس يعولها ويرعاها ويدبِّرها، والآب ينظر عليها من فوق لأنها حاملة لصورة ابنه الجوهرية. لذلك فالكنيسة بوضعها العام ملهمة بالروح القدس، أو كما نقول نحن إنها مرتشدة بالروح القدس، وهي تحمل في طيَّاتها التاريخية الحية الآباء والأنبياء والرسل. بمعنى أن الكنيسة جوهرها إلهي ومظهرها بشري. لذلك هي محسوبة كائناً حيًّا على صورة الله في البر وقداسة الحق، ينمو نموًّا متواصلاً نحو مصدرها. فغاية الكنيسة النهائية مربوطة ببداية مصدرها. فألف الكنيسة وياؤها هو المسيح، الأول والآخر فيها ولها لأنه رأسها. لذلك فجسمها جسم المسيح على الأرض، ورأسها هو المسيح في السماء.

والكنيسة زُفَّت إلى المسيح كعروس لعريس يوم ميلاد الرب من العذراء القديسة مريم، ويومُ عرسها توثَّق لما تخضَّب جسد المسيح بالدم على الجلجثة، وقد رفعها عريسها معه إلى السماء لِيُجلسها في مقرها الأبدي معه عن يمين القوة والعظمة والمجد للآب، لترث ميراث الابن فيما لله الآب.

والكنيسة تحمل في كيانها عملية فصل التبن عن القمح، فعريسها لا يزال يحمل مذراته، ولكن تنكشف عملية تذرية (من المذراة) القمح من التبن في نهاية الدهور. فالكنيسة المنظورة على الأرض تحمل الصالح والطالح، ولكن غير المنظورة هي جماعة الأبرار القديسين الذين تجمَّعوا عَبْرَ الدهور في أهراء (صوامع القمح) السماء. وهي ستُستعلن في نهاية الدهور لتظهر للعيان كأنوار أو كهالة من نور تنير المسير وتتبعه أينما يسير.

جوهر الكنيسة:

هذا كله من حيث مضمون الكنيسة، ولكن إذا بحثنا في نقطة تلاقي وجودها بالمسيح أو لحظة خروجها من كيان المسيح، نستطيع أن نقول إن الكنيسة خرجت إلى الوجود في العالم من جسم القيامة. لا كبداية زمن أو تاريخ، ولكن بداية حياة وحركة وكيان حي. ومعروف على وجه اليقين أن الكنيسة أخذت مبدأ كيانها ووجودها من الروح القدس المنسكب على التلاميذ يوم الخمسين. ومعروف أن يوم الخمسين هو اليوم المنبثق من القيامة، فلولا القيامة ما كان يوم الخمسين. لذلك نكون منصفين أكثر لو قلنا إن منشأ الكنيسة الحي والجوهري لم يبدأ بعمل المسيح على الأرض بقدر ما بدأ بعمل القيامة عند انسكاب الروح القدس. فهي حقًّا تمثِّل جسد القيامة! ولو لاحظنا التنبُّؤ الوحيد الذي تنبأ به المسيح عن الكنيسة أنه على هذه الصخرة ـ صخرة منطوق إيمان بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» ـ سيبني المسيح الكنيسة كفعل مستقبل؛ نتبيَّن أن عملية البناء ستتم بعد عملية التعليم والفداء على الصليب. كذلك قول المسيح الظاهر والعلني إن أبواب الجحيم لن تقوى عليها، هذا من واقع أنها محسوبة أنها

"جسد المسيح الحي القائم من الموت" الذي لا يسود عليه الموت بعد!!

علماً بأن كلمة **اكليسيا** أي: "كنيسة" ــ كما قلنا ــ هي ترجمة للكلمة الأرامية kahal وهي تعني: "**تواجد الأُمة اليهودية عندما تجتمع مع الله**". فلو علمنا أن المسيح اسمه بالميلاد "الله معنا" أي عمانوئيل، أدركنا أنه يحمل حقيقة الكنيسة في جسده، أو كما علمنا مؤخراً أن الكنيسة هي جسده بالحقيقة بمعناه الروحي "الله معنا"!! لذلك دأبت الكنيسة أن ترى ذاتها كشعب الله الحاصل على شركة مع المسيح القائم من الموت، شعب يحمل واقعه الأُخروي، الذي رآه دانيال شعب قدِّيسي العليِّ الذين سيرثون المملكة (دا 7:18). وعلى هذا الأساس تعيِّد الكنيسة كل يوم أحد عيدها الأخروي في شركة حيَّة مع المسيح كحالة قيامة حقيقية معه، تطلب فيها بإلحاح أن يأتي المسيح وينتهي العالم: «ماران أثا»

33 ـ ظهور المعمودية في الكنيسة "كطقس تأسيس"

المعروف أن المسيح نفسه لم يكن يعمِّد، بل تلاميذه، لأن العماد ليس هو طقس تكريس بل طقس ميلاد. ففي أيام المسيح كان التلاميذ يشتركون مع المسيح في كسر الخبز، فأصبحت لهم شركة مع المسيح. وإلى الآن كل مَنْ يتناول من جسد المسيح ودمه يُعتَبر أنه دخل حالة الشركة مع المسيح. ففي المعمودية تلد الكنيسة أعضاءً جدداً في جسد المسيح، وبالإفخارستيا يدخلون الشركة مع المسيح، والشركة مع المسيح هي شركة مع المسيح والآب بالروح. والروح القدس أصلاً هو الذي اضطلع بعملية الولادة من فوق والماء. والكنيسة تحسبها خلقة جديدة عِوَض الخلقة القديمة التي فسدت بالخطية، وهي خلقة على صورة الله في البر وقداسة الحق عِوَض الصورة التي مزَّقتها الخطية فوُجد الإنسان متغرِّباً عن الله.

والمسيح لَمَّا أراد أن يعمِّد الكنيسة الأُولى بالروح القدس ممثَّلةً في تلاميذه أو رسله القديسين، أعطاها طقس الاستعداد بالصوم والصلاة، الذي حدَّده الله من عنده بعشرة أيام قبل حلول الروح القدس، الذي قام بتعميد الكنيسة بالروح القدس ونار. وكانت ألسنة اللهب غير الحارق ظاهرة على رؤوس المجتمعين في العُلِّيَّة. والنار هي تعبير عن عملية الإحراق للتقديس والإحراق للتطهير، لا تعمل فيها النار للإفناء إلاَّ لشوائب الخطية، أمَّا فعلها الإيجابي فهو الإنارة أو الاستنارة، وهي عملية داخلية لإنارة كل خفايا أسرار الله وأعماله وفتح الذهن لفهم الكتب وكلام الله.

ولكن التعميد بالنار مع الروح القدس كان للرسل فقط برسم الميلاد الطاهر للكنيسة بالروح القدس، فأصبح الذي يولد من جرن معموديتها الذي هو برسم "بطن البتول" يولد قدِّيساً وابناً لله

برسم المسيح. والكنيسة بجملتها محسوبة جسداً للمسيح قدِّيسة وطاهرة وبلا عيب، لذلك يُقال ـ وهو حق ـ إن المُعَمَّد يعتمد للمسيح أي يُحسب له.

كذلك فالكنيسة احتسبت العماد بالتغطيس في ماء المعمودية هو بمثابة الموت والدفن مع المسيح، وجعلته على ثلاث مرَّات باسم الثالوث الأقدس وكتعبير عن الموت الكامل لثلاثة أيام وثلاث ليال، وهذا هو عوض النار. فأن يجوز المُعَمَّد في ماء المعمودية مدفوناً ومُقاماً يكون وكأنه جاز الموت والدينونة أيضاً وعقاب الخطية (النار) وقام مبرَّراً قديساً متَّحداً بالمسيح. لأن في القيامة ينال الإنسان الحياة الأبدية التي قام المسيح من بين الأموات ليعطيها لكل مَنْ يؤمن به. ويمثِّلها في المعمودية إقامة المعمَّد من تحت الماء وإلباسه الثوب الأبيض.

وهكذا يكون العماد في الكنيسة كعملية شركة في موت المسيح وقيامته تتم بسر الكنيسة، ليكمِّلها المعمَّد بالإيمان بالروح وبالسلوك العملي في الموت عن شهوات العالم لنوال إكليل الحياة الأبدية. وهكذا تضطلع الكنيسة بتكميل سر الموت والقيامة في أعضائها الجدد، ثم بعدها تطعمهم من جسد المسيح ودمه بسر الإفخارستيا. وبذلك تكون قد أعطت العضو الجديد كل ما يؤهِّله للملكوت إن هو سلك عملياً بمقتضى هذا الميلاد الجديد وسر الشركة مع المسيح والآب. علماً بأن هذه الأسرار تهب نعمة وتؤهِّل وتساعد الإنسان لتكميل عمل الكنيسة في حياته العملية.

لذلك اعتُبر طقس العماد في الكنيسة كطقس تأسيس، أي تأسيس حياة مؤهَّلة للملكوت.

34 ـ المعجزات وعلاقتها بالتعليم

إذ قد سبق وأوضحنا أن المعجزات التي كان يجريها المسيح كانت أساساً تهدف إلى استعلان نفسه، لذلك والأمر كذلك تُعتبر داخلة ضمن وسائل تعليمه، فيما يختص بطبيعة المسيح كابن الله وابن الإنسان. كما أنها كانت واسطة لترفع ذهنية الشعب من الأمور المادية الصمَّاء إلى الروحانية الفائقة للعقل كوسيلة حتمية للدخول في حقائق الله والروح. كما أنها كانت قديرة فعلاً بفك عقل الإنسان من المظاهر الجامدة إلى ما يمهِّد لإدراك جواهر الأمور. فأن يقوم ميت أمام عين الإنسان كفيل بأن يجعله يستهين بالموت ويخشع أمام الله خالق الحياة، وأن يبصر إنسانٌ مولودٌ أعمى كمعجزة، فهي قادرة أن تجعل الإنسان يهزأ من الحتميات والقدريات المادية ليسأل أين هذه القوة الخالقة وكيف أتعرَّف عليها؟ فالمعجزة طريق مفتوح للقلب وليس للذهن للانطلاق لتصوُّر الله والخشوع أمامه.

35 ـ العنصر الإيجابي في المعجزة والغاية منها

المعجزة في مفهومها الفائق عن الطبيعة تنتمي مباشرة إلى مجال الله الفائق كُلِّي المعرفة وكُلِّي القوة. فالمعجزة في مفهومها الأوَّلي من جهة غايتها يمكن أن نعتبرها مبادرة من الله يتدخَّل فيها بإظهار وجوده على مستوى غير مشروح وغير مفهوم عقلياً، ولكن كحادث منظور وواضح أمام أعيننا كأعمى يصير بصيراً. فبهذا الحادث المنظور والملموس والمحسوس، ننطلق مباشرة إلى السر غير المنظور ولا ملموس ولا محسوس الذي أتى بهذه المعجزة. هنا استعلان واضح مبرهن عليه لقوة الله الصانعة للمعجزة، لسبب واضح وهو الارتفاع بفكر الإنسان ووجدانه للإحساس بوجود الله.

فلو نحن عُدنا للطبيعة وتأملنا كيف خُلقت الشمس والأرض والبحر والجبال والأنهار لا نعثر على الله فيها، مع أنه ترك بصمته واضحة عليها في خلقتها، شأنها شأن إنسان بصير نراه فلا نقول إن الله أعطاه معجزة النظر. ولكن إذا حدث أن أعمى مولوداً هكذا من بطن أُمه صار بصيراً نقول إن هذه معجزة حتماً، وأن يد الله وبصمته على الحادث وعلى الرجل.

إذن، لأننا لم نَرَ العالم ولا الشمس والأرض والبحر والجبال قبل أن تُخلق ـ نقول في جهالة ـ بعد أن خُلقت إنها كانت موجودة وليست معجزة، مع أننا لو تصوَّرنا هذه المخلوقات كيف أتت إلى الوجود من العدم نستطيع أن نقول حقاً إنها معجزة كما أتت عينا الأعمى من العدم فصارت معجزة مؤكَّدة عندنا.

والسؤال: لماذا لا نحس بالله في العالم والخليقة، وأنها صنعة يديه؟ السر في ذلك أننا فقدنا النظرة الفائقة للطبيعة التي خُلقنا بها بتأثير الخطية والبعد عن الله. وهذه النظرة الفائقة للطبيعة هي الوسيط النشيط الذي كان يستعلن لنا الله في العالم والخليقة المخلوقة، فكنَّا نرى كل شيء في الله، أو نرى الله كأساس لرؤية كل شيء، ولم يكن أي شيء يُرى عندنا بذاته بدون الله. والدليل على ذلك أنه حينما استعاد الإنسان موهبة الرؤية الفائقة للطبيعة، عاد في الحال يعترف ويؤكِّد بأن العالم وكل ما فيه هو في الله قائم، مخلوق به وبدونه لا يقف أي شيء في مكانه. فالله لم يتغيَّر بالنسبة للعالم المخلوق، ولكن الإنسان هو الذي تغيَّر وفَقَدَ الصِّلة بين رؤية العالم وحقيقة الخليقة من عدم، فقال: إن العالم مخلوق بذاته وكأنه إله ثانٍ.

هنا المعجزة جاءت عند المسيح ضرورة لرفع رؤية الإنسان من المنظور المادي الجامد الذي كان

يعتبره منفصلاً عن الله ومخلوقاً بذاته، إلى رؤية الفائق للطبيعة في المعجزة، فيرى الله في خلقه عيناً جديدة للأعمى. فمع أن العين الجديدة مادية، ولكن المعجزة الفائقة على الطبيعة جعلته يرى الله فيها. وهكذا ربطت المعجزة مرَّة أخرى بين الخليقة وخالقها بصورة مؤكَّدة محسوسة، لأنها أعطته رؤية "جديدة" لما هو فوق الطبيعة!

لهذا يُقال إن الخليقة الجديدة بالميلاد من الماء والروح هي خليقة فوق الطبيعة أو ميلاد جديد سماوي. لأنها أخذت أصولها من فوق الطبيعة. لذلك أيضاً يتحتَّم أن يرتفع الإنسان في معرفته إلى ما فوق الطبيعة حتى يُدرك خلقته الجديدة ويحققِّها.

والمعجزات بهذا الوضع تقدِّمنا بالاستعلان الذي فيها من نحو الله الخالق والقادر على كل شيء كدرجة هامة جداً لتعيد علاقتنا ثم شركتنا مع الله بالإيمان. كما أنها تعطي الانطباع إلى الإنسان الذي يتوقَّف مفكِّراً عند معجزة الإقامة من الموت أن الإنسان يستمد حياته من الله وليس من أي مصدر آخر. وبهذا القدر من التداخل في محيط الفائق للطبيعة يقترب الإنسان من الله بحسّه الداخلي الذي يُزكِّي الإيمان.

ولكن القصد من المعجزة لا يزال مخفياً في طيَّات المظهر الخلاَّب للعقل، ولكن بشيء من المنطق نرى أن إقامة المسيح لإنسان من الموت بكلمة هو استعلان مصدر الحياة لهذا الميت الذي قام، وأيضاً للإنسان الحي القائم على رجليه. وهذا الكشف أو الاستعلان عن حقيقة مصدر الحياة الطبيعية وهو محور المعجزة، يهدف إلى ما هو أعظم من إعلان مصدر الحياة الطبيعية، بل استعلان مصدر الحياة الفائق للطبيعة التي جاء المسيح لكي يهبها للإنسان مجَّاناً. والأمر يحتاج إلى الفهم الأكثر عمقاً في موضوع إقامة الميت إلى الحياة بكلمة، إذ أن هذه المعجزة تكشف عن أن القوة التي أقامت الميت هي قوة فائقة للطبيعة، فبالرغم من أنها أعطت بالقيامة من الموت حياة طبيعية إلاَّ أنها هي بحد ذاتها قوة فائقة للطبيعة. إذن، فالقصد من المعجزة لا ينتهي عند الإيمان بالمسيح أنه هو صاحب هذه القوة الفائقة للطبيعة أي أنه المسيَّا ابن الله، إله في جسد إنسان، بل وإلى أنه قادر أن يُعطي حياة فائقة للطبيعة ذات صلة بالله. إذن، فالمعجزة تمهِّد لمفهوم الفداء أي إلى نقل الإنسان من الموت إلى الحياة الأبدية. كما أنها تكشف بكل وضوح أن المسيح نفسه هو أعظم معجزة ظهرت على الأرض، كونه وهو إنسان صاحب القوة الفائقة للطبيعة التي تعبِّر عن شخص الله.

ولكن لا تزال المعجزة تحمل في طيَّاتها حقيقة وعملاً فائقاً جداً للطبيعة **يحصل عليه المؤمن بالمسيح الذي يُعطي هذه الحياة الأبدية اهتمامه الأول**، وهي كما يقول المسيح في إنجيل ق.

يوحنا: «الحق الحق أقول لكم: مَنْ يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها، لأني ماضٍ إلى أبي ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالابن. إن سألتم شيئاً باسمي فإني أفعله.» (يو 14: 12-14)

هذا يعني أن بالإيمان بالمسيح ينفتح الإنسان على المسيح، وهذا يعني أنه حينما يبلغ الإنسان إلى منطقة الفائق للطبيعة بالإيمان بالمسيح - "صاحب القوة الفائقة للطبيعة" - فإنه يصبح على صلة اتحادية بالمسيح إلى الدرجة أن المسيح فيه يعمل بواسطته أيَّ عملٍ فائق للطبيعة، سواء معجزة أو غيرها من الأمور الفائقة للطبيعة عندما يسأل أو يطلب عن إيمان وضرورة بثقة: «وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه» (مت 21:22). هنا المعجزة كواسطة للدخول في ما هو فائق للطبيعة، فبالإيمان بالمسيح يتأهَّل الإنسان أن يعمل أعمالاً فائقة للطبيعة، حيث لا تعود تُحسب الأعمال الفائقة للطبيعة أنها معجزات، لأن الحكم على العمل الفائق للطبيعة أنه معجزة هو لأن الإنسان واقع ومحكوم تحت سلطان الطبيعة، فإذا ارتفع الإنسان إلى ما هو فوق الطبيعة بالإيمان بالمسيح تصبح الأعمال الفائقة على الطبيعة هي مجرَّد أعمال وليست معجزات. بمعنى أن المعجزات تظهر الآن كذلك لنا لأننا نحيا ونعيش بعقول محكومة بقوانين الطبيعة كما قلنا، فأي عمل يخترق الطبيعة ويخترق قوانينها يُحسب معجزة. ولكن حينما نرتفع بالإيمان بالمسيح الآن وندخل في حيِّز الفائق للطبيعة لا تعود الأعمال الفائقة الطبيعة معجزات، بل تكون مجرَّد أعمال ملكوت الله غير المحكومة بقوانين الطبيعة والتي لها سلطان على الطبيعة وقوانينها. وأظهر عمل من هذا النوع عمله المسيح لمَّا انتهر الرياح العاصفة والبحر الهائج، فسكتت الريح في الحال وهدأ البحر: «ثم قام وانتهر الرياح والبحر، فصار هدوء عظيم. فتعجَّب الناس قائلين: أي إنسان هذا فإن الرياح والبحر جميعاً تطيعه» (مت 8: 26و27). هذه معجزة في نظر التلاميذ لأنهم محكومون بقوانين الطبيعة، ولكن هذا العمل نفسه عند المسيح ليس معجزة لأنه غير محكوم بقوانين الطبيعة، لذلك له سلطان عليها.

وبهذا المعنى والفهم، عندما نرتفع إلى السماء بالقيامة ونعيش الحياة الأبدية ستكون جميع أعمالنا وأفكارنا فائقة للطبيعة - أي غير محكومة بقوانين الطبيعة. وبهذا تكون المعجزة الآن هي بمثابة سَبْق مَشْهد وسَبْق إحساس وتذوُّق لما ستكون عليه الحياة فوق!!

ومعروف أن الإنسان لمَّا فقد الحياة مع الله بسبب الخطية، وهبط إلى مستوى الأرض محكوماً بقوانين الطبيعة، أصبح بين **الطبيعة** وقوانينها **وخطية** الإنسان علاقة وثيقة (رو 8: 20-22). ولأن النزول إلى الطبيعة بقوانينها كان عقوبة من الله بسبب الخطية، دخلت الخطية مع الطبيعة بالضرورة

في دائرة العقاب. فأصبحت كل الأمراض التي يُصاب بها الإنسان هي من إفرازات الطبيعة والخطية معاً. فلمَّا جاء المسيح ليرفع الإنسان من تحت ثقل الطبيعة والخطية، ابتدأ يعطي نموذجاً لعمله العظيم هذا المزمع أن يعمَّ البشرية. فابتدأ يشفي أمراض الناس مهما كانت بكلمة: «مغفورة لك خطاياك» وهذا يعني أنه يرفع العقوبة عن الإنسان بأن يحلّه من نير قوانين الطبيعة وآثارها. فكان المسيح إمَّا يختار أن يحل الإنسان من تحت نير الطبيعة بالشفاء المباشر، أو من تحت نير الخطية بغفرانها، سيَّان. فإما أن ينتهر المرض نفسه، أو ينتهر الخطية. وهذا ظهر بوضوح في المريض بالفالج الذي قدَّموه إليه مدلًّى من السقف، فلما رأى إيمانهم قال للمريض: «مغفورة لك خطاياك» فلمَّا تذمَّر الفرِّيسيون راجعهم قائلاً: "أيهما أيسر أن أقول: مغفورة لك خطاياك، فيُشفى؛ أو: قُمْ واحمل سريرك". وهو بذلك يشرح لهم أن الخطية هي أساس المرض أكثر من أن تكون الطبيعة، ولكن ليؤكِّد سلطانه على الطبيعة وعلى المرض معاً قال له: «قم واحمل سريرك وامش» فقام وسار حاملاً سريره. هذه المعجزة هامة جداً لأنها كشفت أن المسيح له سلطان على الطبيعة وعلى المرض وعلى الخطية جميعاً. كما أن هذه المعجزة كشفت لنا مسلسل المصائب التي وقع فيها الإنسان لسقوطه من حياة ما فوق الطبيعة كعقاب بسبب مخالفته لله ولقوانين الحياة لِمَا فوق الطبيعة، بمخالفة أوامر الله التي هي نفسها قانون ما فوق الطبيعة. فهكذا سقط الإنسان تحت قوانين الطبيعة التي لا ترحم متضافرة مع الخطية التي تُمرض، والمرض يؤدِّي إلى الألم والموت، وهذا عقاب الخطية. والآن واضح أمام القارئ أيّما وضوح أن المسيح جاء ليرفعنا من تحت قوانين الطبيعة وسلطان الخطية والموت إلى حياة ما فوق الطبيعة التي هي حياة الله. وهو بالمعجزة يذيقنا عربون عمله العظيم الذي سيكمِّله بالفداء.

36 ـ معجزة إخراج الشياطين

من هو الشيطان؟ يلزمنا في البداية أن نأخذ فكرة عن الشيطان الشخصي والأسطورة والقوة المخرِّبة.

أسماء الشيطان: إبليس، الحية القديمة، لوسيفورس (أي حامل النور)، بعلزبول (إله الذباب). أمَّا الاسم "الشيطان" فمعناه: الخصم أو العدو أو المقاوم، كما جاءت في الأسفار ولكن بدون تحديد الشخصية. وأمَّا ظهوره بشخصية متكلِّمة فأول ما جاء في سفر أيوب باعتباره واحداً من أبناء الله، يحمل اسم الشيطان كعضو في الهيئة السماوية للملائكة، وله الإذن أن يدخل حضرة الله، ولكن ليس كبقية الملائكة:

+ «وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله (الملائكة) ليَمْثُلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم. فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟ (لائماً) فأجاب الشيطان الرب وقال: من

الجولان في الأرض ومن التمشِّي فيها (أصلاً ليس هو على الأرض). فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض، رجل كامل ومستقيم يتَّقي الله ويحيد عن الشر. فأجاب الشيطان الرب وقال: هل مجَّاناً يتَّقي أيوب الله؟ أليس أنك سيَّجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية؟ باركت أعمال يديه، فانتشرت مواشيه في الأرض. ولكن ابْسِطْ يدك الآن ومَسَّ كل ما له، فإنه في وجهك يجدِّف عليك. فقال الرب للشيطان: هوذا كلُ ما له في يدك، وإنما إليه (إلى نفسه وروحه) لا تَمُدَّ يدك.» (أي 1: 6ـ12)

هذه القصة تمدنا بكل ما يخص هذه الشخصية المخاصمة والعدوَّة والمقاومة للإنسان. فواضح أنه ملاك ساقط من رتبته لأنه عصى الله، كما عرفنا في موضع آخر: «إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلَّمهم محروسين للقضاء» (2بط 4:2)، «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم، حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام.» (يه 6:1)

وللشيطان أعوان على مستوى الرؤساء والسلاطين ولكن أشرار، يذكرهم بولس الرسول كيف أن المسيح ظفر بهم جميعاً على الصليب وجرَّدهم من رتبتهم: «إذ جرَّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب).» (كو 15:2)

والشيطان كان مقرُّه في السماء في الهواء: «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً، حسب دهر هذا العالم، **حسب رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية**» (أف 2: 1و2). والمسيح رآه ساقطاً من السماء: «رأيت الشيطان ساقطاً مثل **البرق** من السماء.» (لو 18:10)

والمعروف عنه أنه يستطيع أن يجعل هيئته **مضيئة** «شبه ملاك نور» (2كو 14:11). ولكن نوره غاش وكاذب، فهو نور ينطفئ، أمَّا نور الله فهو نور حقيقي لا ينطفئ قط.

ومعروف أنه هو الحيَّة التي أضلَّت حواء وأغرتها لتأكل من الشجرة المحرَّمة وتعصي أمر الله، لذلك سُمِّي بالحية القديمة. ويجمع سفر الرؤيا له صفات كثيرة هامة هكذا: «فطُرِح **التنين** العظيم **الحية القديمة** المدعو **إبليس والشيطان** الذي يضل العالم كله، **طرح إلى الأرض** وطُرحت معه **ملائكته** ... طُرح **المشتكي** على إخوتنا الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً» (رؤ 12: 9). وكذلك أيضاً: «فقبض على التنين، الحية القديمة، الذي هو إبليس والشيطان.» (رؤ 2:20)

وكما رأيناه في سفر أيوب مشتكياً ضد أيوب الصدِّيق، لأن الله سيَّج حوله بعنايته فلم يستطع

الشيطان أن يمسّه. فاشتكى أن أيوب يعبد ويُسبِّح الله لأنه مُسيِّج حوله وحول كل ما له، فلمَّا فك الله السياج ضربه الشيطان بضربات فظيعة صارت عبرة للإنسان؛ ولكن لم يستطع أن يميته، فأنجده الله أخيراً ونجَّاه وأعاد له ما كان له مضاعفاً من كل شيء. لذلك فعمل الشيطان كما قال هو: أن يجول في الأرض يلتمس شكاية على الأبرار والقديسين ليأخذ تصريحاً لتجربتهم وضربهم.

من هنا استشف العلماء أن وظيفة الشيطان هي مراقبة أعمال الناس وحياتهم ليشتكي على أي محاباة من الله لأولاده حتى يختبرهم هو. أمَّا الله فلا يتخلَّى عن مختاريه بل يردّ لهم ما فقدوه أضعافاً إن كانوا مظلومين. فالشيطان يحقد على الإنسان المحبوب من الله، ولكن حقده يجعل الله يزيد المحبة والعناية. وبالنهاية الإنسان الصالح يربح من حقد الشيطان ومقاومته وعداوته وإساءته. فوجود الشيطان هو لصالح الإنسان وليس لضرره، ذلك بالنهاية وعلى المستوى الروحي.

ومقاومة الإنسان للشيطان لا تحتاج إلى قوة ولا مهارة ولا حرص ولا أي فضيلة إلاَّ الصراخ لله. لأن أيوب أمامنا كان رجلاً باراً تقياً يخاف الله ويحيد عن الشر، وضربه الشيطان ضربات مريعة حقًّا وبإذن من الله. إذن، لا التقوى نفعت ولا البر ولا أي فضيلة إلاَّ صراخ أيوب بالنهاية مع صبره واحتماله وشكره على طول المدى. لذلك فمعركة الشيطان مع أيوب بعد أن انجلت لمَّا حلَّلها الآباء لم يجدوه قد غلب إلاَّ "**بالصبر**"، فدخل الصبر كأقوى سلاح ضد محاربات الشيطان، مع الشكر الذي لم يتخلَّ عنه أيوب في أحلك ساعاته: «الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً.» (أي 21:1)

ومعروف أن عقاب الشيطان سيأتي في النهاية، وذلك باعتراف الشيطان نفسه. فالرجلان اللذان كان عليهما شيطان لمَّا وجدا المسيح قادماً عليهما صرخا: «ما لنا ولك يا يسوع ابن الله أجئت إلى هنا **قبل الوقت** لتعذِّبنا؟» (مت 29:8). أمَّا الوقت الذي يعرفانه فهو في النهاية عند الدينونة.

والمسيح يقول بوضوح: إن الشيطان وأعوانه من رؤساء وسلاطين وملائكة ساقطين يكوِّنون مملكة: «فإن كان الشيطان يُخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته. فكيف تثبت **مملكته**» (مت 26:12). إذن، فهي مملكة الشر المدرَّبة على كل صنوف الشرور لإيقاع الإنسان. ومعروف أن الشيطان له قدرة أن يحارب الملائكة: «وحدثت حرب في السماء: ميخائيل وملائكته (الند للشيطان) حاربوا التنين (الشيطان)، وحارب التنين وملائكته ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء.» (رؤ 12: 7و8)

والشيطان له سلطان أن يجرِّب ويحارب الإنسان ويضربه ـ بسماح من الله ـ لتزكية إيمان وأعمال مختاريه: «ولئلاَّ أرتفع بفرط الإعلانات أُعطيت شوكة في الجسد: ملاك الشيطان ليلطمني لئلاَّ أرتفع. من

جهة هذا تضرَّعت إلى الرب ثلاث مرَّات أن يفارقني. فقال لي: تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكْمَلْ. فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل عليَّ قوة المسيح.» (2كو 12: 7-9)

ومعروف أن الشيطان أخذ رتبة ''رئيس هذا العالم المادي'' بعد سقوطه من السماء كمجال لعمل ضلالاته: «ومتى جاء ذاك (الروح القدس يوم الخمسين) يبكِّت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أمَّا على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأمَّا على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وأمَّا على دينونة فلأن رئيس هذا العالم (الشيطان) قد دِين.» (يو 16: 8-11)

ومعروف أن إزاء أعمال إبليس كلها التي زرعها في العالم وفي الطبيعة البشرية جاء المسيح ليبطلها ويُبطل مفعولها: «مَنْ يفعل الخطية فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطئ. لأجل هذا أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس.» (1يو 3:8)

موقف المسيح من الشيطان:

يؤكِّد المسيح وجود مملكة الشر (انظر: مت 26:12) وأنها ذات قوة، والشيطان هو شخص محدَّد يترأَّس على مملكة الشر. ويؤكِّد أن الشيطان وأعوانه هم وسائط ومنبع كل مصائب الإنسان التي تظهر أنها طبيعية وهي من فعل الشيطان، من أمراض متعدِّدة الأشكال والأنواع والأسماء، كلها من فعله (انظر: لو 16:13)، وكذلك المصائب الخُلُقيَّة التي رُزِئ بها الإنسان هي من حبكه ومن عمل يديه. فهي تظهر طبيعية وعادية، ولكن الأصل والمنبع فيها الشيطان والخطية، وهذان لهما صلة وثيقة معاً. ومن جهة محاربة الوعظ والخدمة يقول المسيح، إن الشيطان يحارب الإنجيل وكلمة الوعظ بكافة الطرق: «وهؤلاء هم الذين على الطريق: حيث تُزرع الكلمة، وحينما يسمعون يأتي الشيطان للوقت وينزع الكلمة المزروعة في قلوبهم.» (مر 15:4)

ولكن موقف المسيح من الشيطان وطريقة عمله كشفها المسيح بتصوير غاية في الدقة والواقعية. فالمسيح ردًّا على الكتبة والفرِّيسيين الذين كانوا يقولون إن المسيح بواسطة الشيطان كان يُخرج الشياطين، كان ردُّه بتصوير واقعي كالآتي: « حينما يحفظ القوي داره متسلِّحاً تكون أمواله في أمان. ولكن متى جاء مَنْ هو أقوى منه فإنه يغلبه، وينزع سلاحه الكامل الذي اتَّكل عليه، ويوزِّع غنائمه.» (لو 11: 21و22)

1 - واضح من هذا المَثَل الذي قدَّمه المسيح ليُقارِن بين نفسه وبين الشيطان، أنه اعتبر الشيطان "**القوي**" رئيس ملائكة سابق وصاحب مملكة الشر، ولكن اعتبر المسيح نفسه أنه "**الأقوى**". وطبعاً إن كانت للشيطان مملكة شر، فمملكة المسيح تكون هي ملكوت الله

للخير والصلاح. وهي بالتالي الأقوى.

2 ـ ومن المَثَل يبدو للعين اللمَّاحة أن هناك عداوة وثأراً ونيَّةً مبيَّتة من الشيطان للحرب والمقاومة، ودليلنا على ذلك أنه سلَّح داره بالسلاح الكامل. وأسلحته منها الأسلحة الكبرى التي حارب بها المسيح، والمسيح حطَّمها له. أمَّا الأسلحة الصغرى للناس فهي متعدِّدة ومعروفة: الخطية بالأساس وما يتبعها من غش وكذب ومراوغة ودهاء وحقد للإيقاع بفرائسه. وهذه كلها حطَّمها المسيح بتعليمه.

3 ـ كذلك هناك عند المسيح خطة وسياسة وتدبير سماوي من طرف الآب للنزول من السماء والإطباق على الشيطان في عقر داره وهو العالم، وتحطيم حصونه، وهي حصون الشر، لاستخلاص غنائمه. وذلك بإرسال ''الأقوى'' وهو الابن الذي لا تعلو عليه قوة ولا يعلو عليه فكر أو إرادة.

4 ـ ويتحتَّم أن يكون في الخطَّة بحسب مَثَل المسيح ضرورة ربط القوي ثم نزع سلاحه.

5 ـ بعد ذلك يسهل على المسيح نهب بيت القوي هذا وتوزيع غنائمه. فأمَّا البيت فهو العالم الذي يرأسه، وأمَّا غنائمه فهم الأشخاص الذين استولى عليهم وكبَّلهم بالحديد تحت سلطانه وسحقهم بالأحزان والأمراض والهموم واليأس.

تنفيذ الخطة:

وقد جاء الأقوى ابن الله متجسِّداً مخفيًّا في هيئة إنسان،

واختلى بالشيطان على جبل التجربة وبدأ في تحطيم أسلحته سلاحاً وراء سلاح، حتى توقَّف الشيطان عن الحركة وكأن المسيح قد ربطه (بانتظار الصليب، حيث يجرِّده على الصليب من كل سلطانه).

وبعدها نزل المسيح إلى الخدمة لمواجهة أعمال الشيطان واستيلائه على النفوس التي استحوذ عليها وربطها بسلطانه. فبدأ المسيح يُخرِج الشيطان عنوة بالأمر النافذ، وبكلمة ''اخرج'' يخرج في الحال. ثم بدأ «يشفي جميع المتسلِّط عليهم إبليس» والذين ربطهم بالأوجاع والأمراض والعمى والصمم والخرس والشلل، ما كان منها مصطنع من عمل العدو، وما كان منها من الطبيعة، ولكن إصبع الشيطان فيها أيضاً. فهو الذي أفسد الطبيعة وأخضعها للباطل والضعف.

أمَّا على الصليب فقد عمل المسيح عملين أساسيين بالنسبة للشيطان:

العمل الأول: هو إبطال الخطية أن تكون عنصراً قاتلاً، وبهذا انتزع أقوى أسلحة الشيطان الذي بدونه لا يساوي شيئاً.

العمل الثاني: أمسكه، وتقول الرسالة إلى أهل كولوسي إنه ظفر بالشيطان وبكل السلاطين والرياسات التابعة له، وجرَّدهم جميعاً من رتبتهم وسلطاهم ليوم الدينونة (كو 15:2). ولكن بقي لهم عمل يتناسب مع ضعفهم حتى إلى ذلك اليوم.

ومن هذه الجولة مع الشيطان يتأكَّد القارئ أن الشيطان ليس وهماً ولا خيالاً؛ بل إن الاستهزاء به والتقليل من قيمته أو نفي وجوده هذا من عمل الشيطان أيضاً لكي يخلو له الجو ويشتغل دون مقاومة!!

كذلك فإن الشيطان لم يفقد وجوده نهائياً، بل لا يزال يعمل ولكن تحت ضبط وفي أضيق الحدود لمنفعة الإنسان، لأن عين الله ونعمته ساهرة على أولاده. إنما الواضح أنه يطيح الآن في عالم اليوم وكأنه استرد قوته كذباً، ذلك لغياب سلطان المسيح. فالكنيسة كادت تفقد تأثيرها على العالم، لأن الحقيقة انقلبت والعالم هو الذي استعاد تأثيره على الكنيسة.

وبهذا نكون أكملنا النقط الأساسية التي قام عليها منهج المسيح التعليمي.

الجزء الثالث

خدمة المسيح على مدى ثلاث سنوات وعمله الفدائي

مقدِّمة
مقارنة بين رواية الأربعة أناجيل

أولاً: التوزيع الزمني للخدمة بين الأناجيل:

قبل أن ندخل في صميم خدمة الكرازة والتعليم ينبغي أن نوضِّح مدى التفاوت بين الأناجيل في التوقيعات الزمنية، لأن الإنجيل الرابع للقديس يوحنا يورد توقيعاً زمنياً مرتبطاً برحلة ذهاب المسيح إلى أُورشليم ـ وذلك لثلاث مرَّات أو ربما أربع ـ لحضور الفصح على مدى ثلاث أو أربع سنوات. أمَّا الأناجيل الثلاثة المتناظرة فاكتفت بزيارة واحدة قام بها المسيح إلى أُورشليم وحضر الفصح وأكمل الرسالة هناك بالصليب والقيامة.

وهذه الملاحظة ولو أنها هامة فيما يخص التعليم، لأن تعليم المسيح في الجليل كان يتميَّز بنمط معيَّن يتناسب مع الجو البدائي وبساطة الشعب الأُمِّي؛ أمَّا في أُورشليم، كما نرى في إنجيل ق. يوحنا، فارتفع التعليم جداً إلى المستوى اللاهوتي الدقيق والتعرُّض للمواضيع الخاصة المحسوبة أنها من أسرار العلاقات التي تربط الآب بالابن، وأفاض المسيح فيها حتى صارت بحد ذاتها منهجاً متميِّزاً في عمقه وأهميته؛ ولكن هذا لا يؤثِّر في مجمل تعاليم المسيح الخاصة بملكوت الله. فالأناجيل الثلاثة استوفت تعاليم المسيح بصورة موازية تماماً لتعاليم ق. يوحنا في أُورشليم. فالذي يتعمَّق منهج المسيح يحق له أن يندهش جداً ويُذهل لأن التعاليم التي قدَّمها المسيح لتلاميذه وتأثيره الشخصي على وعيهم الروحي مع فتح ذهنهم بالنعمة التي قادتهم لمعرفة الحق، بلغت في النهاية ما بلغته تعاليم ق. يوحنا وبولس الرسول بأسلوبهما الروحي السرائري واللاهوتي؛ إذ تلاقى ما جاء في تعاليم الجليل مع تعاليم أُورشليم ومعه تعاليم ق. بولس في بلوغ الغاية الواحدة، وهي الخلاص فهماً وإيماناً وعشقاً وكرازةً.

علماً بأن مجموع التعاليم التي جمعها أي إنجيل من الثلاثة يمكن توزيعها على ثلاث سنوات، على الرغم من أن تعليم أُورشليم انحصر في الثلاثة أناجيل في موضوع النهاية بالموت والقيامة. لذلك من حيث التوزيع الزمني تتلاقى الأناجيل معاً في مواضيعها وليس في تواريخها.

ثانياً: التوزيع الجغرافي بين الجليل وأُورشليم:

ومن حيث مكان التعليم إن بحثناه بالنظرة السريعة، نجد أن الأناجيل الثلاثة قد جمعت كل التعليم في حدود ربوع الجليل تقريباً، والباقي في الطريق إلى أُورشليم، والقليل للغاية هو الذي تسجَّل في أُورشليم وعلى جبل الزيتون، ولم يكن تعليماً بل تنبؤات عن أواخر الأيام. فالذي يستقرؤه العلماء هنا هو أن المسيح لابد وبالضرورة قد غادر الجليل إلى أُورشليم مرَّات ومرَّات، في جميع الأعياد المنصوص عنها، ليوفي واجبات المعلِّم والأب الحريص على تعليم أولاده بالذهاب والإصغاء إلى الدروس التي تُلقى والطقوس التي تُجرى والتقاليد التي يعلِّمها الشيوخ والرابِّيون الكبار. وهذا منصوص عنه في التلمود:

[لا يُستثنى أحد من بين البالغين ما عدا الصم والمرضى والمجانين والشيوخ الطاعنين في السن من أن يمثلوا بالالتزام في الهيكل ليحضروا الأعياد الرئيسية في أورشليم.](1)

وطبعاً هذا بالنسبة لمواطني إسرائيل ولا يسري على الذين في الشتات، إذ يحدّهم قانون آخر بإرسال بعثة وذبائح وأموال ... إلخ.

وواضح أن الإنجيليين الثلاثة **إذ ركَّزوا على تعاليم المسيح فقط**، أسقطوا عن قصد كل هذه الأسفار مع الحوادث والتعاليم التي جرت في هذه المناسبات، واكتفوا بزيارة واحدة لأورشليم.

وبهذا نجد أن الأخذ بالتوزيع الجغرافي لا ينبغي أن يُنظر إليه بحد ذاته لتقييم تعليم المسيح، فالأناجيل الثلاثة استوفت تعليم المسيح لا من واقع الأماكن أو الأسفار أو الزمن؛ بل من واقع المواضيع التي قدَّمها المسيح لكي يحفظوها وينقلوها ليكرزوا بها.

على أن الرد على السؤال: لماذا لم يظهر المسيح مع تلاميذه في الأناجيل الثلاثة في مناسبات هذه الأعياد في أُورشليم؟ هو أن المسيح أبقى على ظهوره العلني في أُورشليم ـ بل ودخوله الملكي في موكبه الاستعلاني: أوصنا في الأعالي يا ابن داود، مباركة هي مملكة أبينا داود ـ إلى أن تأكَّد أن تلاميذه على مستوى حمل المسئولية والمناداة بهذا الملك وهذا الملكوت. وهذا يؤكِّده إنجيل ق. لوقا وإنجيل ق. متى، أن المسيح وهو داخل أُورشليم **للمرَّة الأخيرة** بكى عليها، ومن هذا القول الذي رصده الإنجيل يُفهم تماماً **أنه جاء إليها عدة مرَّات**، وهذا أيضاً سجَّله المسيح بقوله لأُورشليم:

«**كم مرَّة** أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا ... »(مت 23:37، لو 13:34). **فهذا التصريح فيه أكثر من كفاية من طرف الإنجيليين ليؤكِّدوا على أن المسيح قد جاء إلى أُورشليم مرَّات كثيرة: «كم مرَّة».**

---

(1) Chagigah,c.ii, cited by A. Neander, op. cit., p. 164, n.

الباب الأول

من بدء الخدمة

حتى دخول المسيح إلى أُورشليم للمرة الأخيرة

الفصل الأول

المسيح والمعمدان (28-29م)

[ثلاثون سنة من الصمت المهيب، لم يقطعها المسيح إلاَّ بزيارات خاطفة للهيكل. وقد حان الوقت للانتقال من الحياة اليومية بروتينها الخاص، إلى الحدث الذي يهز العالم. كان ظهور المعمدان كسابق يُعِدُّ طريق المسيح متوافقاً مع أيام حكم الطاغية طيباريوس قيصر حاكم روما. وكان أيامها عمر بليني مؤرِّخ روما الذي تكلَّم عن المسيح، لا يزيد عن أربع سنوات، أمَّا فسباسيان الذي سيخرِّب أُورشليم مع ابنه تيطس ويحرق هيكلها فكان في تلك الأيام ابن تسع عشرة سنة. وكان وقتها أيضاً الاستعداد لحفلة زواج بنت جرمانيكوس التي أنجبت بعد تسع سنوات من هذا الزمان الطاغية نيرون مضطهد المسيحية المشهور، الذي نكَّل بالمسيحيين وحوَّل الجيل الأول إلى شهداء. نعم في ذلك الزمان كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في بريَّة الأردن.]
شين(1)

نعتمد هنا في التوزيع الزمني على إنجيل ق. يوحنا، لأنه الوحيد الذي يحتفظ بذلك.

كان همّ المعمدان الوحيد القيام بمهمته كمُرسَل قدَّام المسيَّا ليُعِدَّ له الطريق. ولكن المعمدان ارتأى أن يمتد بخدمته ويكون له تلاميذ لمعونته في مهمته، وكان المفروض في خدمة المعمدان أن تنتهي عند نقطة انتقال الخدمة إلى المسيح.

1 - السنهدرين يُرسل سفارة للتحقُّق من شخصية المعمدان

كان المعمدان ينتقل بين شاطئ الأُردن شرقاً وغرباً يعمِّد وتلاميذه معه. وكان السنهدرين اليهودي وهو على أعلى مستوى إكليريكي قد أعطاه التصريح أن يعمِّد. وبينما كان على الضفة الشرقية في بيرية عند بيت عبره – أي موضع عبور العبَّارة التي تنقل الناس والبضائع من الشرق إلى الغرب والعكس، وبعد أن اتسعت خدمة المعمدان وصار له تلاميذ وابتدأت الجموع تتكلَّم عنه أنه هو المسيَّا، اضطر السنهدرين أن يُرسل بعثة قضائية للتحقيق في الأقوال التي سُمعت عنه ولأخذ ردود من فمه.

---

(1) **Fulton J. Sheen, *Life of Christ,* p. 55.**

أمَّا يوحنا فلم يعطهم إجابات واضحة في الأول كما يريدون، ولكن اكتفى فقط بأن يقول: «إني لست أنا المسيح» (يو 20:1)! مما اضطر البعثة أن تضغط عليه بأسئلة أخرى متتابعة. فمع أنه معروف أنه قد جاء بروح إيليا بمعنى شخصيته، بل وكان هو أيضاً يعرف ذلك؛ إلاَّ أنه لمَّا سُئل: «إيليا أنت» نفى ذلك أيضاً، واكتفى بأن يقول إنه صوت ينادي بالتوبة وإنه إنما يعمِّد بالماء، ولكن الآتي بعده وهو أقوى منه سيعمِّد بالروح القدس ونار. وأضاف أن هذا الأقوى منه موجود في وسطهم ولم يعرفوه، وحجز بقية الكلام أنه يعرفه لأن هذا التحقيق جرى بعد معمودية المسيح وتعرّف المعمدان عليه.

وقد أحس المعمدان بعدم رضا السنهدرين على عمله، لذلك أعطى الأجوبة السلبية والمبتورة بتحفُّظ شديد.

2 ـ المعمدان يشهد للمسيح ويلمِّح على آلامه

وحدث أن عبر المسيح على المعمدان الواقف هو وتلاميذه (يو 29:1). فلمَّا رآه المعمدان من بعيد نطق بالروح وقال: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» وكان هذا أول إعلان غير مقصود عن آلام المسيح المزمعة. وهذه الصورة التي أعطاها المعمدان تعلن عن "القدوس" كيف سيتألَّم عن الشعب دون أن يدري الشعب، كما أعطى إشعياء النبي في أصحاح (53)، وكأنه سبق ورأى ما سيكون من الرؤساء الحاقدين. ووقوف المسيح أمامه بهدوئه ووداعته واتضاعه أعطاه الإلهام أنه "الحَمَل" الذي اختاره الله لرفع خطايا "العالم" دون أن يدري معنى الكلمة! ولو أن الكلمة الأرامية المستعملة تعني "البشرية" وليس العالم(2). وقد اعتُبر نطق المعمدان أنه نطق نبوي، وأردف الشهادة بقوله أيضاً: «هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدَّامي لأنه كان قبلي.» (يو 30:1)

منظر خلاَّب أن يتلاقى العهدان القديم والجديد في شخصين كل منهما يمثِّل تمثيلاً واقعياً العهد الذي يتبعه. فالمعمدان نبي، وكما وصفه المسيح أعظم من نبي، جاء ليمثِّل النبوَّة بكل مذخراتها وأفخر ما فيها من آباء وقديسين وأنبياء، حاملاً روح إيليا النارية ضد العبادة المنحرفة والأنبياء الكذبة؛ ومسيًّا رجاء كل الماضي ومجد كل الحاضر والمستقبل ممثِّلاً العهد الجديد باعتباره عمانوئيل الله معنا، ليس بعد على أرض سيناء بل على أرض الجليل.

عملية تسليم عالية القدر من مجد إلى مجد، مجد الرؤى والأحلام ومسيرة السنين والأيام، وأرض

---

(2) A. Neander, *op. cit.*, p. 169.

زيتون وكروم وبركات الثدي والآكام الدهرية، إلى مجد ابن الإنسان، الله ظهر في الجسد، ورُفـع في المجد، وميراث البنين في ملكوت الله.

3 ـ حركة مدّ التلمذة من المعمدان إلى المسيح

نطق المعمدان بنبوَّته وتلاميذه يسمعون لقوله: «هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدَّامي لأنه كان قبلي» (يو 30:1). وهذه النبوَّة تسجَّلت هنا في الترجمة بمعنى ضعيف جداً، لأن أصل اللغة اليونانية يعني: بالرغم أنه – من حيث الزمن – جاء بعدي، ولكنه ـ من جهة الكرامة ـ هو قبلي. لأن قوله: "لأنه كان قبلي prîtÒj mou Ãn"، واستخدام الفعل الماضي أn بدلاً من أن يكون ™st…n ؛ يشير إلى أن المقصود هو الوجود الجوهري إزاء الوجود الزائل(3). فالكلام هنا نبوي قاله المعمدان بمعناه الإلهي العميق جداً دون أن يفهمه هو. فالإشارة هنا إلى مسيَّا ابن الله وملكوته الفائق. فشكراً للقديس يوحنا الذي سمع هذا الكلام بأُذُنه ونقله لنا عن المعمدان بحروفه دون أي تفسير أو تعديل لها لتُفهم: «**لأنه كان قبلي**». **كإفاده نبويَّة عن أزليته.**

وعندما تكلَّم المعمدان هكذا أيضاً في الغد أمام تلميذيه يوحنا وأندراوس وسمعاه، أدركا **أنه يتكلَّم بوضوح عن المسيَّا**. فللحال تركا المعمدان وتبعا المسيح. وكانت الساعة بحسب إنجيل ق. يوحنا حوالي الرابعة بعد الظهر (العاشرة من النهار)، فانسحبا من جوار المعمدان دون أن يثيرا مشاعره. فلمَّا رآهما المسيح يتبعانه سألهما بلطف ـ سؤال العارف ـ عن ماذا يطلبان؟ أمَّا هما فلم يوضِّحا له مقصدهما، إنما بخوف وأدب سألاه عن أين يقطن؟ فردًّا على سؤالهما دعاهما لزيارته، وأمضيا معه الساعات المتبقية من النهار. وكان هذا هو الانطباع الأول الذي أخذاه عن المسيح.

أمَّا يوحنا فدعا أخاه يعقوب، وأمَّا أندراوس فدعا أخاه بطرس، وهكذا بدأ دخول التلاميذ الذين تبعوه من بيرية إلى الجليل.

---

(3) A. Neander, *op. cit.*, p. 170.

الفصل الثاني

البدء بالخدمة والتعليم

4 - معجزة صيد السمك الوفير وتأثُّر بطرس

المسيح يبدأ التعليم بوصوله إلى الجليل.

لمَّا بدأ المسيح خدمته بدأها خارج المجمع (السيناجوج)، وذلك في الجماعات التي كانت تلتف حوله. ولكنه لم يذهب في البداية إلى الناصرة وطنه إنما اتجه إلى بلدة كفرناحوم الصغيرة التي تقع على بحيرة الجليل. وكان التلاميذ الذين انضموا إلى المسيح في إقليم بيرية بشرق الأُردن من سكان المدن الصغيرة حول كفرناحوم وبيت صيدا، وكان المسيح يتحيَّن الوقت المناسب ليضمّهم إليه. وأخيراً جاءت الفرصة المناسبة، إذ بينما كان سائراً على شاطئ البحيرة في المكان المدعو جنيسارت ـ وهي كلمة مختصرة من ''جنة السرور'' ـ وإذ بمجموعات متزايدة تهرع إليه ليسمعوه بشغف كثير. ووجد جماعة صيَّادين كانوا قد عادوا في الفجر بسفينتين بعد محاولة صيد فاشلة طول الليل، وكان الإرهاق والحزن بادياً عليهم وقد تركوا سفنهم على الشاطئ ونشروا شباكهم الفارغة. هنا ابتدر المسيح أحدهم ـ وهو سمعان الذي كان يملك أحد القاربين الذي دخله المسيح ـ وطلب منه أن يدفع مركبه في البحيرة بعيداً قليلاً عن الشاطئ. وابتدأ يكلِّمهم من السفينة كلاماً حلواً: «ولمَّا فرغ من الكلام قال لسمعان: ابعد إلى العمق وألقوا شباككم للصيد. فأجاب سمعان وقال له: يا معلِّم، قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً. ولكن على كلمتك أُلقِي الشبكة. ولمَّا فعلوا ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً، فصارت شبكتهم تتخرَّق ... وملأوا السفينتين حتى أخذتا في الغرق (بالفعل). فلمَّا رأى سمعان بطرس ذلك خرَّ عند ركبتي يسوع قائلاً: اخرج من سفينتي يا رب، لأني رجلٌ خاطئٌ. إذ اعترته وجميع الذين معه دهشةٌ على صيد السمك الذي أخذوه. وكذلك أيضاً يعقوب ويوحنا ابنا زبدي اللذان كانا شريكي سمعان. فقال يسوع لسمعان: لا تخف! من الآن تكون تصطاد الناس! ولمَّا جاءوا بالسفينتين إلى البر تركوا كل شيء وتبعوه.» (لو 5: 4-11)

وهكذا كان يختلق المسيح المناسبات بإحكام بديع ليضمّهم عن قناعة ورضا. هذه قصة البداية في

اختيار المسيح لتلاميذه، وهي قصة حيَّة عميقة المعاني وتشير عن بُعد كيف أمضى سمعان ومَنْ معه عمرهم السالف في ليل وضنك ولم يفوزوا في حياقم بشيء، والآن دخلوا في كار آخر كثير النفع والمنفعة. وواضح لنا من مخاطبة سمعان بطرس للمسيح بلقب "يا رب" أن المعجزة قد كشفت له عن حقيقة شخصية المسيح. فالمعجزة استطاعت أن ترفع نظرة بطرس من الوضع المادي الميئوس منه. فالصيد بقرب الشاطئ لا يوفِّر سمكاً لأي صيَّاد شباك، وتجربة الليل كله التي أنهكت قواه جعلته ينظر إلى الأعداد الوفيرة للسمك الذي اصطادوه نظرة أخرى. لقد انتقل بطرس من الواقع المادي الميت إلى الواقع الروحي الحي المُفرح مرَّة واحدة. هذا هو الذي رفع الستار عن عيني بطرس ليرى في المسيح هذه النقلة عينها. صحيح أنه في الظاهر إنسان مثلهم، ولكن العمل الذي عمله لا يعمله إلاَّ مَنْ له قوة فائقة للعقل والطبيعة والعُرف والتقليد المهني. فرؤية بطرس للمسيح كرب هي من واقع ناطق أمامه، الأمر الذي أدخل فيه الرهبة وجعله يسجد تحت رجلي المسيح سجود التوقير والعبادة، ويرى أنه ليس من اللائق بعد أن يوجد المسيح الرب في سفينته، هذا أعلى من استحقاقه!

بهذا يفهم القارئ كيف اجتمع التلاميذ إليه، وكيف صاروا من الأمناء المخلصين التابعين بالقلب والروح، وكيف تركوا كل شيء وتبعوه بفرح وقناعة. لقد أنساهم المسيح بحديثه وآياته العالم والبيت والمهنة والمستقبل وكل شيء. إنه الرب!! «إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي ... وأوجد فيه.» (القديس بولس: في 3: 8و9)

وكانت لحظة أن قال لهم هلموا ورائي فأجعلكم صيَّادي الناس لحظة الحسم.

ولكن تظل هذه اللحظة التي فيها يرى الإنسان ويقرِّر الفرق بين المادي والفائق عن الطبيعة لحظة حرجة للغاية قلَّ مَنْ رصدها، ولكن كل مَنْ رصدها ترك كل شيء وتبع!! فهي نفسها الرؤية التي يرتفع فيها نظر الإنسان للمسيح من إنسان إلى رب. فالمعجزة أول ما تَسْتعلن تَستعلِن المسيح نفسه فيقع الإنسان على وجهه ساجداً، وبعدها لا يطيق الانحصار في ما هو مادي زائل، لأن القوة الفائقة التي عملت في المعجزة حينما يستوعبها الإنسان بروحه ينفتح على مجالها ويعيشها!

كانت هذه الأيام عند التلاميذ وظلَّت أيام ذكرى لعيد امتدَّ بهم عبر مآسي العالم دون أن يحسُّوا، كما كانت عند المسيح أقوى ذكريات حبِّه: «ستأتي أيام فيها تشتهون أن تروا يوماً واحداً من أيام ابن الإنسان» (لو 17:22). لقد انفتحت عيونهم على الأبدية السعيدة، وذاق المسيح فيهم وذوَّقهم مسرَّة الكرازة من أول لحظة.

5 ـ دعوة نثنائيل

كانت لكل تلميذ من التلاميذ لحظته الحاسمة وذكرى عيد دعوته الذي لن ينساه، بل وذَكَرته وتذكره له الكنيسة كل يوم. لقد شاركناهم أعيادهم ونحس ونسعد بدعوهم ونرى فيها عيد دعوتنا الدائم.

كانت البداية مع يوحنا لما انفتحت بصيرته على كلام المعمدان فيما يخص الحمل الوديع الذي يحمل خطية العالم. فلم يطِق أن يقف بعد ذلك في مجال التوبة الضيق في محيط المعمدان، فانطلق هو وأندراوس أخو بطرس والتحقا معاً بمعيَّة المسيح. وقد رأى يوحنا "الحَمَلَ" لأول مرَّة فرأى فيه حياته وخلاصه ورآه المسيَّا الموعود: «وجدنا الذي كتب عنه موسى.» (يو 45:1)

أمَّا نثنائيل فيبدو أنه كان أكثرهم عناداً كالسمكة التي تشاغل الصنَّارة، فلم يصدِّق حينما أخبروه عن كيف وجدوا الذي قال عنه موسى؟ ويبدو هنا أهم كانوا يتدارسون معاً مَنْ هو مسيَّا ومتى يأتي. فكان جوابه لَّما علم أن المسيح من الناصرة: «أَمِنَ الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح» (يو 46:1)، فكان أول مَنْ عثر في المسيح وفي وطنه. وكان فيلبُّس قد تعرَّف على المسيح قبله فلم يستطع أن يقنع نثنائيل، غير أنه دعاه ليأخذ خبرته بنفسه: «تعال وانظر» (يو 46:1). فلمَّا رآه المسيح قادماً رأى حَيلَه(1) وعناده في الحق كإسرائيل فسُرَّ به وقال له يداعبه: «هوذا إسرائيلي حقَّاً لا غش فيه» (يو 47:1)، ورآه يصلح لملكوته. أمَّا نثنائيل فلمَّا رآه وسمعه طفر قلبه بين ضلوعه وكأن قوة قد اندفقت فيه، وسأل المسيح من أين تعرفني؟ فلمَّا قال له المسيح إنه رآه وهو تحت التينة (المكان الذي كان واقفاً فيه قبل أن يدعوه فيلبُّس، ويبدو أنه كان واقفاً يفكِّر في أمر المسيَّا)، أدرك نثنائيل أن المسيح سبق أن سمعه وعرفه ورآه فصار كأنه عريان مكشوف أمامه. وفي الحال انفتحت بصيرة نثنائيل وأدرك الذي لا يُدرك. لقد رفعت النبوَّة رؤية نثنائيل ليُبَادِل المسيح معرفة بمعرفة «يا معلِّم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل» (يو 49:1). وتزاحمت شخصية المسيح في معرفة نثنائيل، فرآه ليس المسيَّا تحت غلالة الجسد، بل ابن الله في أصله وملك إسرائيل في غايته.

فارتاح المسيح إذ أحسَّ في نثنائيل أن ملكوته قد صار مكشوفاً لعيون هؤلاء المبتدئين، وإيمانهم بدأ يتحرَّك بحركة الكرازة، فانطلق المسيح في استعلان نفسه بقدر ما احتملت أسماع نثنائيل بإيمانه

(1) الحَيل: القوة والمقدرة.

الفيّ، إنه: «من الآن (من هذا الإيمان وبهذه الروح) ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو 51:1). المسيح النازل من السماء يصنع من جسد ابن الإنسان سلّماً يصل الأرض بالسماء، فيتآخى الجسد مع الملائكة ويصير هو باب السماء المفتوح. الآن نراه ولكن بالإيمان نصعد نحن أيضاً عليه بعد أن جعله على الصليب طريقاً حيًّا حديثاً عِوَض الحجاب، أي جسده، وبثقة ندخل إلى الأقداس ومعنا دم كفّارته لنجد فداءً أبدياً.

ونحن نتعجَّب كيف أن المسيح وهو يتحدَّث مع نثنائيل الذي آمن لتوِّه؛ يكشف له سرّ البداية والنهاية، سرّ جسده الواصل إلى السماء، سر ابن الإنسان على الأرض وهو في السماء، سر الملائكة تخدم الخلاص وقد اتخذت من تجسُّده طريقاً وسلّماً تنحدر عليه إلينا وتصعد به إلى الآب.

وهكذا، وبالمقارنة مع الثلاثة أناجيل الأخرى، نجد أن بدء كرازة المسيح فيها «بقرب الملكوت والدعوة إلى التوبة» يجيء في إنجيل ق. يوحنا على مستوى سر التحقيق بالرؤيا والإيمان، حيث فُتحت السماء واتصل جسد ابن الإنسان من الأرض بالسماء، وبدأت الملائكة كرُسل السلام للملكوت تعمل عملها لتُسلِّم الأخبار أولاً بأول.

6 ـ عُرس قانا الجليل وتحويل الماء خمراً طيبا

[في العهد القديم كانت العلاقة بين يهوه الله وإسرائيل كعلاقة عريس بعروس، ولكنه في غضبه خاطبهم: «أين كتاب طلاق أمكم؟» (إش 1:50)

في العهد الجديد نفَّذ الله الوعد أكيداً فخطب المسيح لنفسه البشرية. ولكن هذه المرَّة ضمّها لنفسه باتحاد الجسد. وهكذا دخلت الكنيسة كبشرية مفديَّة بالدم: «أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها» (أف **25:5**). **لهذا بدأ خدمته باشتراكه في أفراح عُرس كمدخل صادق لملكوته]**.

قانا الجليل(2) لها ذكرى حسنة في الإنجيل، فمنها كان تلميذ المسيح الإسرائيلي الذي لا غش فيه ـ نثنائيل ـ الذي يذكره إنجيل ق. يوحنا بعد القيامة: «كان سمعان بطرس وتوما الذي يُقال له

(2) قانا الجليل غير قانا التي في أرض جنوب لبنان التي ضربتها إسرائيل بالقنابل وقتلت شعبها وأطفالها وجنوداً من الأُمم المتحدة، وقانا الجليل تبعد تسعة أميال شمال الناصرة وتسمَّى الآن ''خربة قانا''.

التوأم **ونثنائيل الذي من قانا الجليل ...»** (يو 2:21). فالقصة هنا ذات صلة وثيقة باختيار التلاميذ، والمسيح كان في قانا لأنه التقط منها تلميذه الذي أحبَّه، الذي كان قد رآه تحت التينة يوم أخبره صديقه فيلبُّس عن المسيَّا «الذي كتب عنه موسى.» (يو 45:1)

واسم نثنائيل في التلمذة هو برثولماوس أو "ابن تيما" بحسب رأي الكنيسة مؤخراً، وله في التاريخ الكنسي ذكرى حسنة، إذ يقول يوسابيوس القيصري المؤرِّخ إن العالِم الإسكندري بنتينوس (150ـ200م) لمَّا سافر إلى الهند وجد هناك إنجيل ق. متى بالعبرية الذي كان قد تركه في يد برثولماوس أحد الرسل(3). وتقول عنه الروايات في التقليد الكنسي إن برثولماوس طار وهو حيّ إلى البانوبوليس في أرمينيا. وتُعيِّد الكنيسة له في الغرب في 24 أغسطس وفي الشرق في 11 يونية. وتُعيِّد له الكنيسة القبطية في أول توت أي 11 سبتمبر.

وبهذا يأتي عُرس قانا الجليل هنا في هذا الموضع بالذات لدخوله ضمناً في مجال اختيار المسيح لتلاميذه. ويُلاحِظ القارئ الرباط الوثيق الذي يربط آخر مقابلة مع نثنائيل التي فيها كشف المسيح عن انفتاح الملكوت بانفتاح السماء، والصلة الأساسية التي سترتبط البشرية بالله في تجسُّده الذي ربط الأرض بالسماء، وعُرس قانا الجليل الذي أكمل فيه سرّ استعلان حقيقته بعمله الفائق للطبيعة في تحويل الماء إلى خمر كعربون لما سيتم في ملكوت الله من تحويل القديم إلى الجديد في خلقة الإنسان، وتقديم صورة مصغَّرة لكيف سيجعل من الخمر يوماً ما فصحاً جديداً بدمه؛ حينما يشرب الإنسانُ الجديدُ بالروح بالإيمان دمَ ابن الإنسان، حيث يكون التحوُّل بالإعلان في داخل الإنسان الجديد. على أن حقيقة التحوُّل هنا في عرس قانا الجليل من ماء إلى خمر طيِّب تعطي أيضاً انطباعاً مبدئياً لِمَا يحدث سرًّا في قوة المعمودية، حيث بالنداء بالاسم والصلاة وحضور الروح القدس يصير من الماء والروح القدس تحوُّل في كيان الإنسان من حياة طبيعية ساذجة عديمة الفعالية إلى حياة فائقة على الطبيعة، روحية ذات فعالية لتغيير مستقبل الإنسان لتؤهِّله إلى حياة الملكوت، الذي يُعبَّر عنه بالميلاد الثاني أو الجديد أو من فوق. لأن تحوُّل الماء في عُرس قانا الجليل كان تحوُّلاً في طبيعة الماء ليعطيها طبيعة أخرى تماماً هي طبيعة الخمر. وكل من الماء والخمر يحمل سرًّا من أسرار الروح. أمَّا التحوُّل في المعمودية فيقع في طبيعة الإنسان وليس الماء.

وتبدأ القصة بوجود العذراء كمدعوة للعرس، فلمَّا جاء يسوع من رحلته المضنية من بيت عبرة إلى الناصرة (حوالي 90 ميلاً) دُعي في الحال، إذ يبدو أن العرس كان لذوي قرابة. ثم يبتدئ

---

(3) Eusebius, *H.E.*, V. X. 3.

الحديث بفراغ الخمر من أيدي المدعوين والداعين، فتقدَّمت العذراء القديسة مريم لترفع خجل العريس والعروس، فتوسَّلت لدى ابنها وهي واثقة من قدرته، أن يسد هذا النقص المفاجئ، مع رغبة غامرة منها أن يُظهر نفسه للعالم. هذا كلّه أحسَّه المسيح منها ورأى فيه شيئاً من التعجُّل لبدء استعلانه، ولكنه استجاب من أجل عوز الموقف وحرج المناسبة وتوسُّل أُمه بعد أن أرسل لها في الخفاء رسالة عتاب: «مالي ولك يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد» (يو 4:2)، لأن الأُم العزيزة لم تكن تعلم أن باستعجالها لظهوره استقدمت ساعة موته. وهكذا حينما نتدخَّل في شئون أولاد الله نسيء إليهم دون أن ندري!!

ولكن لو نظرنا إلى حفلة العرس هذه بجملتها نجدها إشارة بحد ذاتها إلى أن العريس قد حضر وهو يعلن عُرسه علانية. فالحفلة بكل جزئياتها هي استعلان بدء ملكوت الله. وعلى القارئ أن يعرف أن المسيح لمَّا قدَّم لتلاميذه أمام الكتبة والفرِّيسيين مثلاً عن واقع ملكوته من الرافضين قدَّمه هكذا: « إنسان ملك صنع عُرساً لابنه» وضمَّنه بالتورية رفض الكتبة والفرِّيسيين الحضور وكان ما كان: « أهلك أُولئك القاتلين وأحرق مدينتهم.» (مت 22: 1-7)

بل وأكَّد دور العريس في مَثَل الملكوت مرَّة أخرى مشيراً إلى نفسه في قصة العشر عذارى وحرمان الخمس الجاهلات من الدخول إلى العُرس، أمَّا الحكيمات أصحاب السهر والزيت فدخلن مرحباً. بل ولمَّا عيَّر تلاميذ المعمدان تلاميذ المسيح بأنهم لا يصومون، أجاب المسيح مشيراً إلى نفسه قائلاً: إن ما دام العريس معهم فلا يليق أن يصوموا. وهكذا، وفي هذا المَثَل المبكِّر جداً في إنجيل ق. يوحنا عن بدء الملكوت، يؤكِّد المسيح أنه عريس البشرية. لقد حضر العُرس مجرَّد حضور، عُرساً شرَّفته أُمه بحضورها فشرَّف مقدمها وصنع خمراً جديداً كطلبها ليبهج الحاضرين بوجوده. فالخمر في العهد الجديد تعبير عن بهجة الخلاص ومنها استقينا كأسها من يديه وكان بدمه. وهكذا كان مناسباً لافتتاح ملكوت الله عند المسيح تحويل فرح الناس في الأرض إلى بهجة خلاص وفرحة السماء في حدود السر المخفي حتى يأتي زمانه.

أمَّا عن نقص الخمر وانقطاعه فجأة فكانت النبوَّة قديماً: «اصحوا أيها السكارى وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر على العصير لأنه انقطع عن أفواهكم» (يؤ 5:1). وها قد جاء العريس الحقيقي ليكمِّل عجز النبوَّة في حينها. وفيها نطق نفس النبي يوئيل بالنبوَّة: «فتُملأ البيادر حنطة **وتفيض حياض المعاصر خمراً** ...» (يؤ 24:2). نعم وقد فاضت في عُرس قانا الجليل. فعدد الأجران التي كانت مملوءة ماءً للتطهير ستة أجران لستة أيام الأسبوع، فالسابع راحة ليس فيه

تطهير، والجرن الواحد يسع مطرين، وبالتحويل إلى مقاييسنا تكون عدد الجالونات التي حوَّلها المسيح من ماء إلى خمر 134 جالونا، علماً بأن الجالون يساوي 4.54 لتراً. والمعنى هنا عميق: فانظر وتأمَّل عزيزي القارئ كيف تحوَّل ماء التطهير للجسد والأواني إلى خمر للبهجة والفرح، وكأن الله استجاب للتطهير ودعاهم لدخول ملكوت الله الذي هو بمثابة العرس ... ألم يقل إنه جاء ليكمِّل**!!**

ولكن السؤال هو: هل صنع المسيح من الماء خمراً ليجعل شرب الخمر كالماء، أم ليؤكِّد قدرته على تحويل الماء إلى خمر لينقل فكرهم من شرب الخمر إلى سلطانه الأعظم؟ فالآية تنتهي بهذا المعنى: «هذه بداية الآيات، فعلها يسوع في قانا الجليل **وأظهر مجده**، فآمن به تلاميذه» (يو 2:11). فكل الآيات التي صنعها يسوع عملها أساساً لا لكي ننتفع بها مادياً ـ لأن الماديات كلها فانية ـ ولكن لترفع إيماننا ليلتصق به فنصبح نحن أنفسنا آية**!** ونربح الحياة الأبدية.

الفصل الثالث

الذهاب إلى أُورشليم لحضور الفصح

من قانا الجليل انحدر المسيح وأُمه وتلاميذه إلى كفرناحوم. إذن، فقد تركوا الناصرة لأنه لم يلقَ كرامة في وطنه، ولكن بالأكثر لم يستطع أن يعمل هناك آيات لعدم إيمانهم! ويلاحظ أنه لا يُذكر هنا يوسف ويُعتقد أنه قد انتقل في ذلك الوقت: «وأتى فسكن في كفرناحوم التي عند البحر» (مت 13:4). ومن الملاحَظ أن إنجيل ق. يوحنا اختص بذكر خدمة المسيح في أُورشليم قبل أن يبدأها جديًّا في الجليل. وقد ركَّز في أُورشليم على تعاليمه اللاهوتية حيث كانت محاجاته مع حكماء إسرائيل من الكتبة والفرِّيسيين والناموسيين، المالكين لناصية المعرفة في التوراة والتقليد اليهودي، لأنه كان يثق أن: «الخلاص هو من اليهود» (يو 22:4)، كما قال للسامرية. فإلى يهود أُورشليم وجَّه أقوى تعاليمه وآياته وحججه، أمَّا تلاميذه في الجليل فقد سلَّمهم سر الملكوت الذي هو بحد ذاته قمة المعرفة والفهم، وقد قبلوا ببساطتهم هذا السر في الوقت الذي امتنع عن حكماء إسرائيل بسبب عجرفتهم وتمسُّكهم بالناموس الذي حجب عنهم بساطة الملكوت.

وتعليمه في أُورشليم تركَّز في الأعياد، لأنه على خلفية الأعياد استعلن أعمق أسراره. ففي عيد المظال لَمَّا كانوا يملأون الجرَّة ماءً ليكسروها فوق المذبح ويصبُّوا الماء عليه لتجري المياه وتفيض، تذكاراً للصخرة التي تابعتهم في البرية؛ نادى المسيح قائلاً: «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب» (يو 37:7). فلولا هذا العيد في أُورشليم بطقسه ما استلمنا تعليم المسيح أنه هو ينبوع الماء الحي. وفي عيد التجديد لما أوقدوا المنارات الذهبية لتضيء الهيكل وقف ونادى: «أنا هو نور العالم» (يو 12:8)، فلولا خلفية هذا العيد ما استلمنا حقيقة أن المسيح هو النور الحقيقي وهو نور العالم.

والعجيب أن ق. يوحنا كان يرى في أُورشليم المسرح الأهم في تعاليم المسيح، وأنه التجأ إلى أُورشليم يعلِّم فيها قبل الجليل التي قوبل فيها أولاً بازدراء. فلمَّا ذهب إلى أُورشليم وعلَّم فيها وعمل آيات، ثمَّ عاد إلى الجليل، ارتفعت قيمته في أعين الجليليين جداً: «**فلمَّا جاء إلى الجليل قبله الجليليون، إذ كانوا قد عاينوا كل ما فعل في أُورشليم في العيد،** لأنهم هم أيضاً جاءوا إلى العيد.» (يو 45:4)

كان لابد أن يبدأ المسيح خدمته وإعلان ملكوته في اليهودية وليس في الجليل، وخاصة في

أُورشليم التي هي عاصمة اليهودية. فجميع النبوَّات أرسلت أضواءها في كل العصور وعلى فم جميع الأنبياء وسلَّطتها على اليهودية وعلى أُورشليم المدينة المقدَّسة.

إشعياء النبي:

+ «لأنه من صهيون تخرج الشريعة، **ومن أُورشليم** كلمة الرب.» (إش 3:2)
+ «الأمور التي رآها إشعياء بن آموص من جهة **يهوذا وأُورشليم**.» (إش 1:2)
+ «الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه **ورؤسائهم**.» (إش 14:3)
+ «ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يُترك في أُورشليم يُسمَّى قدوساً. كل مَنْ كُتب للحياة **في أُورشليم**.» (إش 3:4)
+ «إذا غسل السيد قذر بنات صهيون ونقَّى دم **أُورشليم** من وسطها بروح القضاء وبروح الإحراق.» (إش 4:4)
+ «ويأتي الفادي إلى **صهيون** وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب.» (إش 20:59)

عاموس النبي:

+ «الرب يزمجر من صهيون ويعطي صوته من **أُورشليم**.» (عا 2:1)

إرميا النبي:

+ «الرب من العلاء يزمجر، ومن **مسكن قدسه** (الهيكل) يطلق صوته.» (إر 30:25)

لذلك كان من الأمور المتيقنة لدى منتظري الفداء لإسرائيل أن يظهر المسيَّا أول ما يظهر في أُورشليم واليهودية أيضاً. ويقرِّر صوت النبوَّة أن المسيح يأتي إلى هيكله بعد أن يُعِدَّ المعمدان طريقه: «هأنذا أُرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي، ويأتي بغتة **إلى هيكله** السيد الذي تطلبونه.» (مل 1:3)

إذن، فالقديس يوحنا على حق حينما بدأ خدمة المسيح العلنية وظهوره في أُورشليم بعد بقائه في الجليل أياماً قليلة. وبهذا يأخذ هيكل التعليم العام للمسيح أساسه اللاهوتي العميق في أُورشليم أولاً، فهو لم يَكُفّ في كل تعاليمه في أُورشليم عن استعلان علاقة الآب بالابن كأعمق ما يكون اللاهوت. ثم طرح الأسرار الإلهية سواء في المعمودية بالميلاد الجديد الذي من السماء وهو عينه الذي من الماء والروح والمحسوب أنه "**خليقة جديدة للإنسان**"(1)، أو تأسيس سر الإفخارستيا ليلة العشاء

(1) بولس الرسول هو صاحب هذا التعبير المبني على أساس الميلاد الجديد من فوق (انظر: 2كو 17:5، غل 15:6) دون أن يشرح هذه الآيات، وقد أخذت الكنيسة عنه هذا التعبير كالمقابل والمساوي للميلاد الجديد

الأخير، أو السر المنبثق منه بأكل الجسد وشرب الدم، وسر الخبز الحيّ والماء الحي والنور الحقيقي والكرمة الحقيقية بعمقها الكنسي، عوَض كرمة إسرائيل التي جفَّت، والراعي الصالح وخرافه التي تسمع صوته وتتبعه. وهكذا أغنت أُورشليم منهج المسيح التعليمي بأفخر وأعلى مستويات الروح.

7 ـ المسيح مع نيقوديموس وسر الميلاد من فوق

[جاءه هنا ليتعلَّم، ليلاً،
ودافع عنه في السنهدرين، ليلاً،
فذهب مع يوسف الرامي ليدفن الجسد، ليلاً.] شين(2)

كانت أيام المسيح في أُورشليم مزدحمة بالمقابلات، وكان من أظهرها وأهمها مقابلة نيقوديموس. ونيقوديموس رجل فرِّيسي من رؤساء اليهود في السنهدرين. وكما تقول القصة جاء إلى المسيح ليلاً، أي خفية بعيداً عن أنظار بقية الفريسيين، لأن بعضهم كانوا قد ابتدأوا يصادمونه، على أن المسيح لم يكفَّ عن مراجعتهم في تعدياتهم على الحق والعدل والإيمان، بل وعلى روح الناموس؛ فأصبحوا متحفِّظين تجاه المسيح. لم يكونوا قد بلغوا حد المقاومة والتحدِّي، لكن كان بعضهم يُظهر الود والإخلاص والإيمان سرًّا مثل نيقوديموس هذا، ويوسف الرامي الذي عرفناه هناك عند دفن الجسد المقدَّس، وكثيرين غيرهم. وكان نيقوديموس قد شاهد معجزات المسيح وتأكَّد من صحتها وتعجَّب منها، ولكنه لم يصل بها إلى حقيقة المسيح إلاَّ كونه معلِّماً من الله يعمل الآيات لأن الله معه (يو 3:2). هذا جاء ليستزيد معرفة عن ملكوت الله الذي نادى به المعمدان فأيقظ مشاعرهم. وها هو المسيح يتكلَّم عنه بوضوح. فما هو ملكوت السموات؟ فابتدأ المسيح يصيغ له التعليم والعمل الذي يناسبه بحزم واختصار شديد، فكان وقعه على مسامعه غريباً كل الغرابة بعيداً عن فهمه وتصوُّره كل البعد: كيف؟

قال له المسيح:

+ «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله!» (يو 3:3)

كيف، كيف يولد الإنسان وهو شيخ؟ «ألعلَّه يقدر أن يدخل بطن أُمه ثانية ويولد.» (يو 3:4)

المسيح هنا يتعرَّض لمفهوم ملكوت الله في العهد الجديد، فهو فوقاني سماوي وليس أرضياً بشرياً

(2) Fulton J. Sheen, *Life of Christ*, p. 86.

ترابياً. وعِوَض أن يقول له هذا مباشرة، قالها بالنسبة للمؤهَّلين له إذ يلزمهم أن يولدوا من فـــوق!! والمعنى واضح أن الملكوت فوقاني سماوي هو، والذين يدخلونه يتحتَّم أن تتغيَّر ســـيرهم وســـلوكهم وحياهم إلى المستوى الذي يستطيعون فيه أن يكونوا مواطنين سمائيين. هذا "**التغيير**" حتمي هو، وهو ليس عمل إنسان أو بالإرادة أو السلوك الشخصي، بل هو عمل خلقي جديد من الله يتدخَّل فيـــه الله ليكمِّله مباشرة بروحه القدوس!

المسيح يتكلَّم عن الميلاد من الداخل، بتجديد الخلقة تجديداً جوهريـــاً يتعمَّقهـــا إلى أقـــصاها. ونيقوديموس يفكِّر عن ظاهر الميلاد.

المسيح يتكلَّم عن تدخُّل قُوَى الله من فوق ليتم الميلاد من فوق، ونيقوديموس مـــشغول كيـــف يدخل بطن أُمه ويولد ثانية.

المسيح يتكلَّم عن تعرِّي الإنسان من سابق حياته وإرادته وبرِّه لتتـــدخَّل قُـــوَى الله في أعماقـــه، ونيقوديموس لا يريد أن يتخلَّى عن برِّه، بل يريد أن يدخل به بطن أُمه ويخرج به والذي يتغيَّر هـــو مجرَّد شكله.

المسيح يتكلَّم عن ملكوت الله كخليقة جديدة، ونيقوديموس يستثني التجديد؛ بل يصر على تكرار القديم. وأمَّا الميلاد الثاني أو الجديد الذي يقول به المسيح فهو التغيير الكلِّي لحياة الإنسان من الداخل، حيث التبعية الكاملة لله الذي منه يولد الإنسان سرًّا بالروح، فينتقل من التبعية للعالم ومشيئة الجسد إلى الالتصاق بكلمة الله ومشيئته بالروح. فالميلاد الثاني بحسب المسيح هو تغيير كلِّي لقيم الإنـــسان وطبيعته وأخلاقه واتِّباع الرب بالروح في كل شيء، لأن المولود الجديد هو مولود روحي لله ليحيـــا ملكوته بالروح.

وبالاختصار، كان كلام المسيح بالروح للارتفاع بالإنسان إلى خليقة جديدة بـــالروح، وكـــان نيقوديموس متشبِّثاً بالجسد! كيف يولد الإنسان وهو شيخ؟ الوضع هنا استحالة بالتصوُّر الجسدي.

الميلاد من الماء والروح:

+ «أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو 5:3)

لقد انتقل المسيح من الميلاد الجديد المطلق من الروح غير المنظور حينما عجز نيقوديموس عـــن أن يتقبَّله أو يفهمه، إلى الميلاد الجديد بتوسُّط الماء، الماء هو الوسط الوحيد المادي الذي يعمل فيه الروح

للخلقة. فالروح كان يرفُّ على وجه المياه منذ البدء (تك 2:1)، تعبيراً عن الاستعداد للخلق المادي. فأصبح وكأن في باطن المياه في الخفاء يخلق الروح الخليقة الجديدة. فعنصر المياه هنا هو الوسط الوحيد الذي يأتلف مع الروح القدس لتتم فيه الخلقة الروحانية الجديدة. والماء كمادة لا يعطي وجوداً للخليقة الروحانية الجديدة، ولكن كونه قابلاً للتقديس بالروح وبالصلاة ليصير ماءً مقدَّساً بحلول الروح القدس عليه، يصير واسطة روحية وليست مادية للميلاد الجديد. ويرفع ق. بطرس هذا المعنى حينما يقول إن واسطة الميلاد الثاني في الحقيقة هي "**كلمة الله**"، إذ اعتبرها أنها زرع الله "sperma" الذي لا يفنى: «مولودين ثانية، لا من زرع (رجل) يفنى، بل مما لا يفنى (زرع الله)، بكلمة الله الحيَّة الباقية إلى الأبد» (1بط 23:1). وهنا ارتفع ق. بطرس بمفهوم الميلاد الثاني أنه "**فعل خلق**" غير معروف وغير منظور، صحيح أنه يُجرى على الإنسان طالب العماد، ولكن لا يعتمد على المادة؛ بل هو فعل خلق فائق على المادة حيث يتقدَّس الماء أولاً بالكلمة وبالكلمة يكون الخلق.

المولود من الروح هو روح:

ولكي يزيد المسيح توضيحاً لعملية الميلاد الثاني من الماء والروح أنها لا تعتمد على مادية الماء، فالماء لا يزيد عن كونه وسيط خلقة؛ أوضح أن الأساس في الميلاد الثاني هو الروح، بأن المولود من الروح هو روح، بتفرقة كاملة عن الجسد وميلاد الجسد، إذ أكملها المسيح: «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو 6:3)، بمعنى أن الإنسان يولد من الروح بعد أن يولد من الجسد. ولكي يقرِّب المسيح فكرة الميلاد من الروح (من فوق) أعطى مثل الريح:

+ «**لا تتعجَّب أني قلت لك: ينبغي أن تولدوا من فوق.**
الريح تهُبُّ حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب.
هكذا كل مَنْ وُلِدَ من الروح.» (يو 3: 7و8)

والمعنى عظيم الأهمية، إذ أنه لا ينفي أن يكون للمولود من الروح عمل وفعل واضح وحياة واضحة، ولكن الإنسان نفسه لا يعلم ما بداخله كيف يعمل الروح فيه؟ ومن أين يأتي وحتى إلى أين يذهب؟ ولكن الإنسان يثق أن الروح فيه وقد أكمل عمله بتجديد حياته وخلقته، وأنه أصبح مخلوقاً جديداً لله بتأكيد الروح نفسه: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله (مخلوقين جديداً بالميلاد الثاني).» (رو 16:8)

هذا هو العمل السرِّي للروح القدس الذي يبلغ أقصى مداه في المعمودية ... كيف؟

+ «**أجاب نيقوديموس وقال له: كيف يمكن أن يكون هذا؟**» (يو 9:3)

لقد اقتنع نيقوديموس بكلام المسيح، ولكن استحال عليه فهمه، فهو أراد أن يُخضع العمل اللامحدود - أي الحياة بالروح - للفكر المحدود - أي الحياة بالجسد - كمن يريد أن يمسك بالهواء أو يحتوي الروح في وعاء.

هنا المسيح أنكر عليه هذا السؤال، لأن ما يتكلَّم به المسيح تقوم عليه كل معرفة الله والحياة وكل أعمال الله، ولهذا أنَّبه المسيح كيف وهو معلِّم إسرائيل لا يُدرك بديهيات الأمور التي استؤمن عليها من جهة معرفة الإلهيات. فبدون عمل الروح الخفي تصبح كل حقائق الإلهيات مائتة بلا معنى أو وجود. فالله نفسه يوجد ولا أحد يراه أو يفهمه، والأنبياء يتنبَّأون ولا ندري كيف يكلِّمهم الله. ثم زاد المسيح على ذلك بقوله:

+ «**الحق الحق أقول لك: إننا إنما نتكلَّم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا.**» (يو 3:11)

وهذا يعني أني أتيت إليكم بأمور تخص الله والروح، وأنا أتكلَّم بما أعلمه ورأيته، لأني - كما يقول نيقوديموس نفسه - أتيت من الله معلِّماً بما هو عند الله من أجلكم وفيما يخص حياتكم. وها أنتم لا تقبلون شهادتنا، والآن أنت يا نيقوديموس تقول: كيف، كيف، كيف؟

+ «**إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات؟**» (يو 3:12)

والمسيح يقصد من ذلك أن الميلاد الجديد من الماء والروح يخص حياة الإنسان الجديد بالروح التي تبدأ من هنا على الأرض، وها أنت لا تريد أن تقبلها أو تفهمها، فكيف تؤمن إن شرحت لك عمل ومستقبل الإنسان الجديد المولود من الماء والروح هناك في السماء؟!

ومعنى كلام المسيح أنني لست فرِّيسيًّا مثلك أشرح لك أمور السماء بمعلومات أرضية حتى تفهمها، أنا أتيت من السماء لأخبركم بما هو في السماء، وهي كلها أمور جديدة تحتاج إلى فكر جديد ووعي جديد وإيمان جديد، وعملي الآن يختص بأن أعطيكم هذه كلها بالميلاد الجديد من الماء والروح، فأنا أنقل لكم ما هو فوق لأني نزلت من فوق ولا أزال أكلِّمكم عمَّا هو فوق:

+ «**ليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.**» (يو 3:13)

هنا بدأ المسيح يرتفع بفكر نيقوديموس لكي يسرِّب له مفهوم الحياة الجديدة، من أين هي وكيف

هي ومن هو الذي يأتي بها؟ وابتدأ بنفسه معبِّراً عن نفسه "بابن الإنسان"؛ **فالمعلِّم الذي الله معــه، والذي يعمل الآيات، والذي أتى من الله**، على حد تعبير نيقوديموس، هو نفسه ابن الإنسان. هنـــا ابتدأ المسيح يعرِّف نفسه على المستوى السرِّي العالي، وأضاف المسيح أنه أصلاً **"هـــو في الـــسماء" ونزل**، لذلك إن **صعد إلى السموات** فهذا من صميم عمله وقدرته.

ولكن لماذا يصعد ابن الإنسان إلى السماء وكيف يصعد؟

وهنا بدأ المسيح يستخدم التوراة التي يدرسها نيقوديموس عن ظهر قلب، فابتدأ من الحيَّة النحاسية.

8 ـ الحيَّة النحاسية

وقصتها كالآتي: لَّما عصى شعب إسرائيل الله في برية سيناء وتذمَّروا، أهاج الله علـــيهم الحيَّـــات السامة وكانت عضّتها قاتلة. فلمَّا صرخ الشعب إلى موسى صرخ موسى بدوره إلى الله، فـــأمره الله أن يصنع حيَّة من نحاس ويرفعها على عصا مرتفعة في وسط المحلة، وكل مَنْ عضَّته الحيَّة يرفع نظـــره إلى الحيَّة النحاسية فكان يُشفى!

أمَّا هذا الرمز فكان عجيب الإحكام. فالحيَّة تذكِّرنا بالحيَّة التي أغوت حواء وســـبَّبت ســـقوط الإنسان وموته. وكونها من نحاس يعني أنها ميتة. فكان هذا رمزاً للمسيح الذي بموته أمات الخطيـــة (عضَّة الحيَّة) بالصليب، الذي عليه أيضاً ظفر بالشيطان وجرَّده من سلطانه (كو15:2)، والحيَّة تعبير مستيكي عن الشيطان. وبهذا كان رَفْع الحيَّة في البرية من أقوى الرموز النبوية عن مـــوت المـــسيح بالجسد على الصليب والانتصار على الشيطان الحيَّة القديمة. والرمز ينحصر في مجرَّد رفع الحيَّة الميتـــة على العصاة ثم شفاء كل مَنْ نظر إليها، يقابلها مجرَّد رفع المسيح وموته بالجسد، الذي بـــه ماتـــت الخطية على الصليب، ثم النظر إليه بالإيمان للخلاص من الخطية وعقوبة الموت.

وهكذا استعار الأسلوبُ الكنسي اللاهوتي رفعَ الحيَّة على العصاة ليطبِّقه على رفع المسيح علـــى الصليب. وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى النص الذي استعاره المسيح من التوراة ليفتح به وعي نيقوديمـــوس عن معنى وقيمة موت المسيح المزمع أن يكون على الصليب، والذي به يُبطل عمل الخطية والشيطان والموت ذاته، لكي تُشرق الحياة الجديدة والإنسان الجديد وميلاده الثاني من الماء والروح، إذ قال:

+ «**وكما رَفَعَ موسى الحيَّة في البرية، هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يَهْلِكَ كـــل**

(**من ينظر إليه) مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.**» (يو 3: 14و15)

وهناك آية تنص على أن النظر، مجرَّد النظر (القلبي)، للمسيح فيه خلاص الإنسان: «**التفتوا إليَّ واخلصوا** يا جميع أقاصي الأرض» (إش 22:45). وهنا تصبح المطابقة شديدة بين موقف الحيَّة النحاسية والمسيح.

ثم عاد المسيح ليوضِّح أن ''رَفْع ابن الإنسان'' حتى لا يهلك كل من يؤمن به، يعني بحد ذاته بذل ابن الله للموت: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو16:3)

وإلى هنا يكون المسيح قد كشف لنيقوديموس كيف يولد الإنسان من جديد؟ بإيمانه بموت المسيح الفدائي ليأخذ حياة جديدة. وأوضح له جواب كيف يولد الإنسان وهو شيخ؟ بأن يؤمن بالمسيح الذي مات من أجله فيُعطى حياة جديدة بميلاد روحي جديد.

والآن نعود بالقارئ إلى ذهاب المسيح إلى أُورشليم في بداية خدمته ليعطي ويرسي المبادئ اللاهوتية العليا في وعي المتعلِّمين من الفرِّيسيين والربيِّين، ويؤسِّس منهج الخلاص القائم على مبادئ حيَّة روحيَّة رفيعة المستوى. هذه كلها التقطها ق. يوحنا الرسول وجمعها في إنجيله وصارت أساس الإيمان المسيحي ولاهوته.

+ «وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية، ومكث معهم هناك، وكان يعمِّد.» (يو 22:3)

الفصل الرابع

المسيح في عين نون

لم يستمر المسيح مدة طويلة في أُورشليم، هذه المرَّة، بل انتقل بعدها مباشرة إلى منطقة تُسمَّى عين نون، وهي منطقة بالقرب من مدينة ساليم أو ساليموس. وكلمة ''عين نون'' تفيد ''تجمُّع مياه''، وابتدأ هناك يعمِّد: «وكان يوحنا أيضاً يعمِّد في عين نون بقرب ساليم، لأنه كان هناك مياه كثيرة، وكانوا يأتون ويعتمدون. لأنه لم يكن يوحنا قد أُلقي بعد في السجن.» (يو 3: 23و24)

وقد أمضى المسيح مع تلاميذه في عين نون بحسب تقرير العالِم نياندر من بعد الفصح حتى أواخر زمن الحصاد، وكان القصد من وجوده في عين نون أن يدرِّب تلاميذه في هذا المكان الهادئ بعيداً عن مناورات الفرِّيسيين، وأيضاً بقصد عمل صلة مباشرة مع المعمدان.

9 ـ الغيرة تدب في صدور تلاميذ المعمدان

وما أن ابتدأ المسيح يُعلِّم حتى التفَّ حوله جمع غفير من الناس، وهكذا ابتدأت الغيرة تدب في صدور تلاميذ المعمدان الذين ظنوا أنه لا يوجد إلاَّ معلِّمهم، ولم يأخذوا عنه كيف هو يعمل ليهيئ الطريق لغيره القادم بعده وهو قبله وأعظم منه. ولكنهم ظنوا أنه بفضل شهادة معلِّمهم عن المسيح قد صار المسيح إلى ما صار إليه! وما كان يجب أن يرتفع فوق المعمدان ـ قلب حال ـ ولمَّا اشتكوا لمعلِّمهم، وضع المعمدان الأمور أمامهم على حقيقتها:

+ «لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أُعطي من السماء.» (يو 27:3)
+ «أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح، بل إني مُرسَلٌ أمامه.» (يو 28:3)

ما أنا إلاَّ صديق العريس (وهو الملك وصاحب الملكوت)، وقد هيَّأتُ الشعبَ له كعروس. أمَّا صديق العريس فهو يفرح بعد أن أنهى مهمته. إذن، ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص (انظر: يو 3: 29و30).

ولكن لم يكمِّل المعمدان فرحه، إذ بعد أن عَبَرَ نهر الأُردن نحو الضفة الشرقية قبض عليه هيرودس

أنتيباس ـ الذي كان يحكم على إقليم بيرية شرق الأُردن ـ وسجنه، لأن المعمدان وبَّخ الملك على اتخاذه امرأة أخيه زوجة له مخالفاً للناموس. وبحسب قول يوسيفوس المؤرِّخ: إن الملك خشي أن مثل هذه الحقيقة تُشاع عنه فيثور الشعب ضدَّه(1). وكان سجنه في قلعة ماخيروس Machaerus.

فإذا قلنا: إن المعمدان بدأ خدمته قبل المسيح بستة شهور، وأن السجن حدث تقريباً بعد الفصح الأول الذي حضره المسيح، تكون خدمة المعمدان قد امتدَّت إلى سنة كاملة تقريباً، حسب تقدير العالِم نياندر(2).

---

(1) Josephus, *Antiqu*., xviii, v, 2.

(2) A. Neander, *op. cit.,* p. 191 note.

الفصل الخامس

عودة المسيح إلى الجليل عبر السامرة (يو 4)

10 ـ المرأة السامرية والعبادة بالروح والحق

+ «أصغيتُ إلى الذين لم يسألوا. وُجدت من الذين لم يطلبوني. قلت هأنذا هأنذا لأُمة لم تُسمَّ باسمي.» (إش 1:65)(1)

لقد تحسَّنت أفكار الجليليين عن القيمة العالية التي للمسيح بعد أن رأوا وسمعوا كلماته ومحاوراته وآياته في أُورشليم، وفي نفس الوقت شعر المسيح بمقاومة الفرِّيسيين تزداد في اليهودية لَّما رأوا تقاطر الجموع عليه. ففضَّل أن يذهب إلى الجليل، الأكثر هدوءاً والمناسب لتعليمه، فشعب الجليل كان فعلاً أكثر بساطة وقبولاً. لذلك عوَّل على الانطلاق إلى هناك من أقصر الطرق عبر السامرة. وتتطلَّب الرحلة ثلاثة أيام على القدم لأن المسافة أكثر من 60 ميلاً. وكان من الطبيعي أن يكرز بالرسالة في عبوره السامرة، فالبلاد أصلاً هي إسرائيل قبل أن تنقلب العبادة فيها ويتبدَّد الشعب. والسامريون كانوا ينتظرون تغييراً لحالهم أيضاً، لأن انتظار المسيَّا دخل في إيمانهم بدون الفكرة السياسية ومقاومة الرومان.

وكان زمان الصيف قد ولَّى ومعه الخريف أيضاً، وجاء زمان الزراعة أي بذر البذور وهي مدة بين أكتوبر حتى منتصف ديسمبر. فنحن الآن في نوفمبر، وبلغ المسيح منطقة شكيم الخصبة، وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ من طول الترحال، فجلس على فم البئر وكانت الظهيرة.

وكان البئر بئر يعقوب، جلس وحده بعد أن أرسل تلاميذه ليشتروا طعاماً، ولو أن كل ما يُباع من السامريين هو نجس، إلاَّ أنهم تغاضوا عن هذا لشدة التعب والحاجة.

وبينما هو جالس على البئر جاءت امرأة سامرية لتستقي ماءً في جرّتها، فطلب منها ماءً ليشرب،

---

(1) Fulton J. Sheen, *Life of Christ,* p. 94.

وكان ذلك بالأكثر محاولة انتهاز الفرصة ليكلِّمها عن الخلاص الذي ينتظرونه، فلمَّا تمنَّعت وأبدت عجبها كيف يطلب منها ماءً وهو رجل يهودي وهي امرأة سامرية ـ فالمفارقة في التقليد شديدة ومانعة ـ أجاب يسوع وقال لها: «**لو كنتِ تعلمين عطية الله ومَنْ هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب لطلبتِ أنتِ منه فأعطاكِ ماءً حيًّا**».

دعوة المسيح للتعرُّف عليه هي خطوة حاسمة لقبول الخلاص، فالتدريج يأتي هكذا: **إن كل الذين عرفوه أظهر لهم ذاته أو حقيقة ذاته، فآمنوا به، وهؤلاء هم المختارون منذ البدء!** فالمسيح يعرض نفسه دائماً أبداً لكي نتعرَّف عليه ويتمنَّى ذلك. وهذا واضح جداً في قصة هذه المرأة المختارة التي اعتنى الإنجيل أن يقدِّمها لنا كدعوة يقدِّمها المسيح للأُمم في شخص السامرية، لتنال فيه الاختيار والتبنِّي أيضاً.

وهنا يستهويها المسيح بعطية الله لأنها تفوق تصوُّرها، ويتمادى في ترغيبها لتتعرَّف عليه، ذلك الذي تنبع منه أنهار ماء حي تفيض إلى حياة أبدية. فأُخذت المرأة من سخاء العرض وَسَعَتْ وراءَ العطية، ونجح المسيح في استدراج الخاطئ لقبول الحياة. وفي صدق الطفولة وبراءتها طلبت منه هذا الماء العجيب:

«**يا سيِّدُ أعطني هذا الماء، لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي**»!

لقد صوَّرت لنفسها هذا الماء الذي إن شرب منه أحد لا يعطش فيغنيه عن سعي الذهاب إلى ينابيع مياه معطشة. لقد صوَّرت لنفسها الخلاص كما يطيقه عقل بشر، ورسمت لنفسها الحياة الأبدية بعالم يهرب منه الحزن والكآبة والتنهُّد. وهكذا تكون قد نجحت بامتياز، وما عاد إلاَّ أن يَفُكَّ المسيح لها المعادلة، ولكن لابد من تصفية الماضي.

«**قال لها يسوع: اذهبي وادعي زوجكِ وتعالي إلى ههنا**»:

لا يزال هنا المسيح يركِّز عليها هي نفسها، وما دعوة الزوج إلاَّ دعوة الماضي للظهور والتصحيح! فالجديد في المسيح لا يُلبَس على عتيق، والروح لا يستقر في القلب إلاَّ بعد تطهير. والعجيب أن المرأة كانت من الألمعية وحصافة الفكر وصفاء الرؤية حتى أدركت القصد على التو، وتوافق ضميرها مع ضمير المسيح فكشفت في الحال عن نجاسة الماضي وعار السيرة وفضيحة السريرة. لقد كانت في عرفها فرصة العمر، بل لحظة القَدَر للخلاص من حمأة الطين والنجاة بالحياة من ظلمة الموت!

«**أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوجٌ. قال لها يسوع: حسناً قُلتِ ليس لي زوجٌ، لأنه كان لكِ خمسةُ أزواجٍ، والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ. هذا قُلتِ بالصدق**»!

لقد استطاعت هذه المرأة وهي في مستوى الحضيض والمذلَّة أن تفوز من المسيح بشهادة ''الصدق''، لقد نجحت بامتياز حينما استجابت لدعوته وطلبت هذا الماء الذي وعد به!! وها هي هنا تفوز بشهادة ''الصدق'' عندما أقرَّت عن حالها بأمانة. والإنجيل بهذا وذاك يعرض علينا إمكانية الخاطئ كيف "**ينجح بامتياز**" في قبول دعوة المسيح للخلاص حتى دون أن يدري عمقها أو علوها، ثم كيف يمكن أن يبلغ شهادة "**الأمانة**" بكشف عاره وذلة حاله، فيفوز من المسيح بشهادة ''الصدق أمام الله في اعترافه'' وهو لا يزال في نجاسة حاله وبؤس حياته!

لقد استحسن المسيح جرأة المرأة وبارك اعترافها «**حسناً قُلت**»، مما أثلج صدر المسيح وأوعز إليه أن يفتح لها أول باب على نفسه لترى منه: «**مَنْ هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب**»، إذ بادرها هو ببقية اعترافها الذي قالت: «**لأنه كان لكِ خمسة أزواج والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ**». وكأنه يقول لها أنا فاحص الكلى وكاشف السرائر والقلوب، فأعمال الظلمة جميعها عندي محصاة. والمسيح بكشفه سر مأساة السامرية أمام عينيها إنما يوحي إليها بقدرته على محوها، وها هو يكمِّل اعترافها من عنده ليستعيد لها صحة نفسها لتعود مبرَّأة القلب والضمير مفتوحة العينين. فبادرته المرأة في الحال:

«**قالت له المرأة: يا سيِّدُ أرى أنك نبيٌّ**»!

لقد أحسنت الرؤية بأقصى ما هو مستطاع، كآخر درجة يفوز بها أعظم متصوّف محترف في فحص ''الإنسان'' يسوع المسيح قبل أن يسعفه الرب بالاستعلان الكلِّي ليُدرِك فيه ما لا يُدرَك. لقد أدركت المرأة القوة الخفية وراء الذي يكلِّمها، أحسَّتها وتأكَّدت منها، ولكن لم تستطع أن تحيط بها. ولكن واضح التدرج الذي سارت فيه هذه المرأة الموهوبة: فرأته أولاً **رجلاً يهوديًّا** لا يليق به أن يتكلَّم مع امرأة سامرية، وكأنه بحديثه يخدش عفتها!! ولمَّا تنازلت واستجابت وطلبت منه هذا الماء الذي مَنْ يشرب منه لا يعطش رأته "**السيد**" القادر أن يعطي، ولمَّا كشفت ما وراء قلبها رأته "**نبيًّا**". لقد استراحت نفسها أخيراً إليه وإلى حديثه، فهل يدلّني على أي مكان أعود فيه إلى الله تائبة لأعبده بروحي؟

مَنْ يصدِّق أن هذه النفس العفنة تنقلب بهذه السرعة إلى تائبة تطلب مكاناً أميناً تتعبَّد فيه، مكاناً يسمع فيه الله صوتها ويقبل دموعها وندامتها. أمر لا يشغل إلاَّ بال الأتقياء؛ ولكن في حضرة المسيح يصير الخاطئ تقيًّا، والمريض الكسيح يحمل سريره ويذهب إلى بيته صحيحاً عفيًّا. هكذا تجرَّأت المرأة وطرحت هواجسها أمام المسيح:

«**آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أُورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه**».

المعروف أن يعقوب إسرائيل أبا الأسباط عَبَدَ الله في جبل جرزيم قرب مدينة شكيم: «ثم أتى يعقوب سالماً (من رحلة فدان أرام ليأخذ من بنات لابان زوجة له) إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان. حين جاء من فدان أرام ونزل أمام المدينة، وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور أبي شكيم بمئة قسيطة. وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل إله إسرائيل» (تك 33: 18ـ20). وهكذا فإن في توراة السامريين مكتوب أن المذبح الذي أُقيم للعبادة الأُولى كان على جبل جرزيم، حيث وضعوا اسم هذا الجبل عوضاً عن جبل عيبال في الآية (تث 27: 4ـ8). والسامرية بقولها هذا تضع التقليد السامري المؤكَّد عندها في مواجهة التعليم اليهودي غير المستند على وثائق. والذي يزيد صدق كلام السامريين في نظرهم هو أن السامرة كلها كانت هي أولاً بلاد إسرائيل وكانت عاصمتها شكيم! بالقرب من مدينة السامرة التي تحوَّل اسمها أيام هيرودس إلى سبسطية نسبة إلى **أغسطس** قيصر (على أن كلمة أغسطس باللاتينية التي تعني صاحب السمو يقابلها باليونانية كلمة سبستوس). وقد بُني فيها بالفعل فيما سبق هيكلٌ منافس لهيكل أُورشليم(2) الذي هدمه اليهودي المدعو يوحنا هركانوس أحد المكابيين سنة 128 ق.م، ولكن ظل السامريون يعبدون في نفس المكان ويقيمون الفصح والصلاة في مواعيدها ويتجهون نحوه بالصلاة كقبلة إذا كانوا بعيدين عنه. صورة حزينة لحيرة الإنسان أين يعبد ومَنْ يعبد. السجود لله.

«**قال لها يسوع:**
يا امرأة، صدِّقيني أنه تأتي ساعةٌ، لا في هذا الجبل، ولا في أُورشليم تسجدون للآب».

هذه هي البشارة المفرحة للعهد الجديد، وهذه الساعة هي ساعة المسيح الجالس أمامها، لأنه بذبيحة المسيح وصليبه أُلغيت الذبائح وأُلغيت الهياكل، وصار المسيح هو الذبيحة الروحانية الوحيدة على المذبح الناطق السمائي في هيكل الله غير المصنوع بالأيادي، الذي أقامه الرب لا إنسان، حيث العبادة والسجود بالروح والحق لله آب الجميع.

واضح هنا جد الوضوح أن المسيح **يدعو السامرية والعالم كله إلى العبادة الموحَّدة لله "آب الجميع"**، ردًّا على قولها: «آباؤنا سجدوا في هذا الجبل» فلم يَعُدْ بعد فرصة لتعصُّب البشر لعبادة غير الله، ولا تعصُّب لمكان وبلاد وهياكل من حجارة، فهيكل السماء يجمع البشر جميعاً كأبناء للآب الواحد دون نزيل أو غريب. فطوبى لهذه المرأة التي بسببها انكشفت لنا العبادة الواحدة الحقة بالروح الواحد للآب الواحد في السماء، نقدِّمها أينما كنَّا ومهما كنَّا، وسامع الصلاة في السماء

(2) Josephus, *Antiq,* XI, 321-4.

يسمع ويجيب. وهذا حق منتهى الحق، لأنه إن كانت العبادة والسجود بالروح والحق، فالله أبو الأرواح جميعاً قابل الجميع، وليس ما يميِّز روحاً عن روح إلاَّ بمقدار الحق الذي تلتزمه في حياتها وفي عبادتها.

ولا يمكن أن نتغاضى عن قول المسيح للسامرية: "صدِّقيني"، فالقول هنا قول حق وإن زالت السماء والأرض فهو لا يزول.

ولكن يعود المسيح ويكشف أصل العبادة ومصدرها وكيف بدأت على الأرض وكيف تنتهي في السماء، فيقول: «**أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أمَّا نحن فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص هو من اليهود**» (يو 4:22). المسيح هنا يستدرك القول لئلاَّ تتوه عبادة يهوه العظيم بين أُورشليم وجرزيم قبل أن تبطل هذه وتلك في هذه الساعة التي أتت. فعبادة اليهود المقدَّمة ليهوه العظيم هي وحدها المؤهَّلة لتتوقَّف على الأرض لتنتقل إلى السماء، بانتقال واقع العبادة من السجود بالجسد إلى السجود بالروح والحق، لارتقاء البشرية في المسيح بموته وقيامته إلى بشرية قائمة من الموت، لتستوطن السماء كخليقة جديدة بالروح والحق.

ويقول: «**ولكن تأتي ساعةٌ، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق**».

المسيح هنا يعلن إعلاناً للعالم كله ولكل إنسان أن عبادة الله بالجسد قد انتهت هذه الساعة، فهي ساعة التحوُّل العظمى من خليقة عاشت تحت ثقل الجسد وشقائه، إلى خليقة مدعوَّة من الله لتبدأ حياتها وإيمانها وعبادتها وسجودها بالروح لا بالجسد.

لقد نزل الكلمة ابن الله إلى العالم ولَبِسَ جسد البشرية مع عقوبة الموت واللعنة على الصليب. ومات بالجسد والبشرية كلها فيه لينفض عنها كل ما لحقها من الآثام، وينفض عنها عقوبة الموت ذاتها، ثم قام بالجسد والبشرية فيه مبرَّأة ومبرَّرة ببر طاعته للآب حتى الموت. وهكذا انتقلت البشرية في المسيح من حالة شقاء الخطية إلى حالة نقاء الروح، من خليقة ترابية تحيا في شقاء العالم بالجسد محكومة بالخطية والموت، إلى خليقة جديدة روحية قائمة من بين الأموات غير مستعبدة للخطية ومحرَّرة من سلطان الموت، مصالحة مع الله، تحيا بالروح وتعبد وتسجد لله بالروح والحق، وتنتظر الانطلاق إلى موطنها النهائي في السماء مع الله.

وهكذا كشفت لنا قصة السامرية عن وضع البشرية الذي جاء المسيح ليفتتحه في نفسه كخليقة

جديدة روحانية مدعوَّة للعبادة لله الآب بالروح والحق.

ويقول: «**لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له**».

هكذا يعلن المسيح على الملأ أن العبادة لله والسجود له ليست هي بعد مطلباً بشريًّا يسعى إليه الإنسان طائعاً أو مجبراً، بل هي مطلب سماوي من فم الآب ومن كل قلبه ومشيئته. فليس للإنسان بعد أن يضع شروطها وواجباتها، بل هو الله الذي يدعو ويطلب ولا يطالب إلاَّ بنقاوة القلب وعبادة صادقة بالروح والحق. فلم تَعُدْ عبادات، بل عبادة واحدة؛ ولا بأشكال وطرائق مختلفة، بل بالروح الواحد الصادق الذي يتحرَّك بالحق.

ويقول: «**الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا**».

المسيح يعلن هنا إعلاناً واضحاً صريحاً أن العبادة والسجود بالجسد قد انقضى زمانها، وإن كانت في السابق لها أنظمتها وطقوسها فلأن الله لم يكن قد استُعلن بعد، وكانت ماهيته مخفية عن عقول بني البشر. فكان الإنسان يعبِّر عن شعوره من نحو الله بالجسد والجسديات. ولكن الآن يعلن المسيح أن الله روح، فروح الإنسان هي المنوط بها التعبُّد والسجود والتقرُّب إلى الله: «وأمَّا أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك، وصلِّ إلى **أبيك** الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية.» (مت 6:6)

كل هذا يوضِّح أن المسيح إنما يفتتح عهداً جديداً للإنسان فيه تأخذ العبادة ويأخذ السجود وضعه الروحي الصادق. والذي يقصده المسيح من العبادة والسجود لله بالروح والحق هو أن تكون لنا علاقة حيَّة مع الله الآب بروحنا مهما كان وضعنا، سواء كنا ساجدين أو راكعين أو واقفين. فليس وضع الجسد هو الذي يحدِّد السجود، بل حالة الروح المرتفع والملتصق بالله وحده.

كانت هذه النقلة بالنسبة للسامرية كبيرة لم تستطع أن تستوعبها، فاستغاثت بمَنْ يوضِّح لها هذه العبادة الجديدة العالية:

«**قالت له المرأة:**
أنا أعلم أن مسيًّا ـ الذي يُقال له المسيح ـ يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء».

كان من أثر إحساس السامرية بالمسيح أن نضح عليها الشعور الطاغي بقربه. لقد أوحى إليها المسيح بكلامه وحكمته وعطفه الأبوي بروح المسيَّا الآتي. وكان هذا بطبيعة الحال هو الانفتاح

القلبي بعينه الذي بدأ فيها دون أن تدري فأدخلها في مجاله.

لقد أربكها كلام ذلك النبي اليهودي، كيف وهو يهودي يقول إنه لن تكون عبادة في أُورشليم؟ إنه يتكلَّم بأعلى مما ينطقه نبي، إنه يتخطَّى أُورشليم والهيكل في أُورشليم. فمَنْ يكون؟ وقفت السامرية أمام المسيح حائرة: ألا يكون هو المسيَّا نفسه؟

«**قال لها يسوع: "أنا هو" الذي أُكلِّمكِ**»!

لقد أعلن المسيح ذاته لمَّا عرفته، فلم يكن المسيح قادراً أن يحجز إعلانه عن نفسه بعد ما تلاقت هكذا معه عن قرب. لقد بلغت الحقيقة وتوقفت عند حدودها تستقرئ في الجالس أمامها صدق ما بلغت. فأصدقها حدسها وأفاض عليها من نوره. فبقوله: «أنا هو» يكون قد كشف عن أنه "مسيَّا" الذي تترجَّاه ويهوه الذي لا يمكن أن تراه. إذن، فليس هو الآتي ليرد المُلك لإسرائيل ويُخرج الرومان من الديار، بل هو الذي جاء ليرتفع بالإنسان يهوديًّا أو سامريًّا أو أُمميًّا من مستوى الجسد إلى مستوى الروح، ليسجد الجميع لله بالروح والحق كطلب الله، ويرتفع الإنسان عامة بالعبادة من هياكل الأرض المنصوبة بالأيادي والحجارة إلى هيكل الله الحي في السماء الذي نصبه الله لا إنسان!

لقد سقط عن السامرية ثوبها المدنَّس من الجسد لمَّا انفتحت عيناها ورأت المسيح، لقد ولَّت عنها شياطين الظلمة في الحال ولفَّها نور المسيح. نعم لقد لَبِسَتْ الأُمم فرحتها يوم لَبِسَتْ السامرية ثوب الخلاص.

وذهبت السامرية مسرعة تدعو كل مدينتها أن يأتوا ويروا ويسمعوا المسيَّا!!

عودة التلاميذ ورؤية المسيح للملكوت القادم:

بعد أن أعلن المسيح أنه هو المسيَّا للمرأة السامرية، جاء التلاميذ ورأوا المسيح معها فتعجَّبوا أنه يتكلَّم مع امرأة سامرية. ثم ذهبت السامرية تنادي مدينتها، وبدأت المدينة تتقاطر من بعيد فرادى وجماعات، وبَدَتْ الجموع الزاحفة بملابسها البيضاء وكأنها حقول ابيضَّت للحصاد:

«**وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين:**
يا معلِّم كُل. فقال لهم: أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم».

ولمَّا لم يفهموا الكلام إذ ظنوا أن أحداً أحضر له طعاماً ليأكل، قال أيضاً:

«**طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمِّم عمله**».

وهنا ابتدأ المسيح يغيِّر مجرى الكلام ونفسه مفعمة بفرحة خلاص مدينة وانفتاحها على الملكوت القادم، وعينه على أفواج الشعب السامري وهو يزحف من بعيد ويتقاطر مجموعات. فقال لتلاميذه وهو يعني الملكوت القادم:

«**أما تقولون إنه يكون أربعة أشهر** (نحن في ديسمبر أو قبله بقليل) **ثم يأتي الحصاد، ها أنا أقول لكم: ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضَّت للحصاد** (عن الشعب وهو يتسابق في المجيء)، **والحاصد** (التلاميذ) **يأخذ أجرةً ويجمع ثمراً للحياة الأبدية، لكي يفرح الزارع والحاصد معاً،**

لأنه في هذا يصدق القول: إن واحداً يزرع وآخر يحصد. أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم».

كانت رنَّة صوت المسيح بالفرح من أجل الثمر المتكاثر، ولكن كان يشوبها إحساس بالحزن، إذ ينبغي أن تقع حبَّة الحنطة أولاً وتموت حتى يُرى هذا الحصاد الوفير. فقد تراءت أمامه أحزانه القادمة وكأنها هي التي ستوفِّر للحصاد وجوده وللحصَّادين عملهم. أمَّا قوله لتلاميذه لي طعام لآكل لستم تعرفونه، لكن عرفه إشعياء: «**ومن تعب نفسه يرى ويشبع**» (إش 11:53). فها هي حقول الحصاد القادم طعام نفسه حتى الشبع!!

11 - المسيح يمكث يومين في السامرة

إنها حَدَثٌ عند اليهود: كيف وكيف، كيف يأكل، وكيف يتعامل مع سامريين، وكيف يُعلِّم قوماً منبوذين؟ ولكن الذي جاء ليفدي الإنسان من نجاسات قلبه لا يصدّه عن سبيله نجاسة إنسان، فهو لم يأتِ إلى الأطهار بل من أجل الخطاة والمنجَّسين، ترك مجده في السماء ونزل من أجل هؤلاء!

يا لفرحة السامرة والسامريين، لقد حيت نفوسهم بعد موات واستعادوا مجدهم الذي ذوى، ورأوا في المسيح رضا الله وموسى والعهد الجديد. لقد تزاحمت أفراحهم بين استعادة ماضٍ كان قد صار حلماً وبين امتلاءٍ من حاضر هو رجاء اليهود وشهوة كل الأُمم. لقد دخلت السامرة والسامريون عهد الله الجديد ونالت نصيباً مع أُورشليم بمقتضى وصيته الأخيرة: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في أُورشليم وفي كل اليهودية **والسامرة** وإلى أقصى الأرض.» (أع 8:1)

وقد بلغتنا أخبار البشارة وأفراحها هناك في سفر الأعمال: «ولكن لمَّا صدَّقوا (السامريون) فيلبُّس وهو يبشِّر بالأمور المختصة بملكوت الله وباسم يسوع المسيح اعتمدوا رجالاً ونساءً ... ولمَّا سمع الرسل الذين في أُورشليم **أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا**، اللذين لمَّا نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذ وضعا الأيادي عليهم **فقبلوا الروح القدس**.» (أع 8: 12-17)

وهذه هي بذرة الروح التي غرسها المسيح على مدى يومين في السامرة. والعجيب أنهم آمنوا بالمسيح دون أن يعمل في وسطهم آية واحدة، لأن محبة المسيح لهم وفرحتهم به تلاقيا بالروح فخرجت شرارة الإيمان ملتهبة وانتظرت مدفونة في أعماق اللاشعور حتى أحياها الرسل بالروح القدس.

وكان السامريون أول مَنْ نطقوا بكلمة «**مخلِّص العالم**»: «لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة **المسيح مخلِّص العالم**.» (يو 42:4)

الفصل السادس

الخدمة في الجليل

12 - شفاء ابن خادم الملك

بعد أن قضى المسيح يومين في السامرة انحدر إلى الجليل، حيث ذهب أولاً إلى مدينة "قانا التي في الجليل". وبينما هو هناك جاءه خادم الملك (هيرودس أنتيباس) وتوسَّل إليه أن ينزل معه إلى كفرناحوم حيث كان ابنه مريضاً ليشفيه، لأنه كان قد قارب حالة الخطر. وكان المسيح قد جاء لتوّه من عند السامريين الذين آمنوا به من كل قلوبهم دون أية معجزة ظاهرة؛ أمَّا الجليليون فكانوا إن لم يروا آيات ظاهرة فلا يؤمنون، فواجههم المسيح بهذه الحقيقة.

ولكن على أية حال كان الجليليون أكثر استعداداً للإيمان بالمسيح بعد أن رأوا آياته ومعجزاته وتعاليمه في أُورشليم في العيد، لأنهم كانوا هناك. وزاد استعدادُهم وقبولهم بعد شفاء ابن خادم الملك في كفرناحوم.

13 - شفاء حماة سمعان

وكان المسيح يذهب في السبوت إلى المجامع، ولكنه اختار كفرناحوم لتكون مركز إقامته وخدمته، وقد بدأ يشفي كثيرين هناك. وفي أحد السبوت بعد أن أكمل الخدمة في مجمع كفرناحوم رافقه تلاميذه إلى بيت سمعان، حيث كانت حماة سمعان مريضة بحمَّى، ولكن المسيح شفاها فقامت متعافية وصارت تخدمهم وقدَّمت لهم الطعام.

وبينما كان يسوع في بيت سمعان طار الخبر إلى جميع الجهات أن المسيح قد حضر وهو في بيت سمعان. فما أن انتهى السبت وصار الغروب حتى تقاطرت الجموع من كل مكان وأحاطوا بالبيت، وقد تزاحم الشعب والتفُّوا حول البيت يطالبونه بأن لا يغادر المدينة، فشفى مرضى كثيرين. ولكن لمَّا صار النهار خرج وذهب إلى موضع خلاء ليصلِّي، وكانت الجموع تتقاطر عليه فجاءوا إليه وأمسكوه لئلاَّ يذهب عنهم، فقال لهم: ينبغي أن أبشِّر المدن الأخرى أيضاً بملكوت الله لأني لهذا قد أُرسلت.

14 - المسيح في مجمع الناصرة

+ **«لأن موسى منذ أجيال قديمة له في كل مدينة مَنْ يكرز به، إذ يُقرأ في المجامع كل سبت.»** (أع **21:15**)

[وقراءة الناموس تتبع طريقة معيَّنة، فبعد قراءة فصل من الأسفار الخمسة (البنتاتيوخ) يكمِّلون بقراءة الأنبياء، على أن القارئ يقرأ باللغة العبرية الرسمية للتوراة ثم يترجم شفاهياً للشعب باللغة الأرامية، لأن القليل جداً وخاصة في الجليل من كان يعرف اللغة العبرية، ثم يبدأ بشرح ما تلاه على مسامع الشعب. وعادة الذي يقرأ في السبت هم الكتبة والفرِّيسيون، ولكن أي معلِّم متعلِّم يمكن أن يُعزم عليه ليقوم ويقرأ ويعلِّم إن كان ذا معرفة. وقد أُعطي للمسيح أن يقرأ في مجمع الناصرة، وكان الجزء الثاني من مقرر قراءة اليوم وهو الأنبياء، فقرأه بالعبرية وترجمه بالأرامية ثم شرحه، وكان الشعب يعتبرون قراءته وشرحه أفضل جداً من الكتبة والفريسيين: «فبهتوا من تعليمه لأنه كان يعلِّمهم كمَنْ له سلطان وليس كالكتبة» (مر 22:1).](1)

[ويسوع يختلف كثيراً عن الكتبة في التعليم، لأن الكتبة لا يعلِّمون إلاَّ بالقراءة من المصدر الذي يقرأونه وليس بشيء من أنفسهم. ولكن المسيح كان يشرح ويعلِّم من قلبه دون الرجوع إلى قراءة أحدٍ من الربيِّين.](2)

[والمسيح اختلف كثيراً في تعليمه عن الكتبة والفرِّيسيين، بما استخدمه من الأمثال والتشابيه بكثرة عوض الرجوع إلى المحفوظات المكتوبة التي كان يرجع إليها الكتبة والفريسيون، وكان قصد المسيح تبسيط الفكر وإدخال روح الانتعاش في السامعين، بالإضافة إلى سهولة الحفظ والرسوخ في الذهن.](3)

ومن كفرناحوم اتَّجه المسيح إلى الناصرة حيث كان قد تربَّى في صباه، وكان قد سبقه إليهم أخبار أعماله العظيمة والكثيرة في كفرناحوم. ولكن كان أهل وطنه يعرفونه أنه نجَّار القرية، فلمَّا ابتدأ يعلِّم دهشوا جداً من تعليمه، إذ لَمَّا أخذ السفر وفتحه جاء الموضع الذي يتكلَّم فيه إشعياء النبي

(1) J. Klausner, *Jesus of Nazareth*, 1926, p. 263.
(2) Ibid., p. 264.
(3) Ibid., p. 265.

عن مجيء المسيَّا (إش 61: 1و2)، في القراءة الخاصة بسنة اليوبيل المقبولة، والتي فيها يتكلَّم النبي عن مجيء المسيَّا ومسحه بالروح القدس وأوصافه وأعماله المطابقة تماماً لأعمال المتكلِّم في ذلك اليوم، أي المسيح: «ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه: روح الرب علي لأنه مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلَّمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: إنه اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم» (لو 4:17-21). لقد قال لهم علانية إن ما سمعوه اليوم من النبي قد تحقَّق أمامهم في شخصه. وهكذا أعلن نفسه صراحة أنه هو المسيَّا الذي تكلَّم عنه الأنبياء محقِّقاً كيف انفتحت عيون العمي، وأُعطيت الحرية للذين سباهم إبليس في الخطية، وكُرز بسنة الرب المقبولة.

ولكن للحزن والأسى لم يكن يعي السامعون أنهم هم الذين سباهم الشيطان مكبَّلين تحت سلطان الخطية والموت، ولا دروا أنهم العمي الذين ستطلق عيونهم لترى النور، ولا شعروا بأنهم في حاجة إلى الشفاء وبالتالي إليه كطبيب. أمَّا الكلمة الجميلة التي سمعوها فقد حرَّكت فقط حسدهم وحقدهم عليه: كيف وهو ابن الناصرة يكرز أولاً في كفرناحوم ويعمل فيها الآيات الكثيرة ويترك وطنه! كما استكثروا عليه وهو النجار ابن يوسف أن يعمل ويقول هذه العظائم: «وكان الجميع يشهدون له ويتعجَّبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون: أليس هذا ابن يوسف؟ فقال لهم: على كل حال تقولون لي هذا المثل أيها الطبيب اشفِ نفسك. كم سمعنا أنه جرى في كفرناحوم فافعل ذلك هنا أيضاً في وطنك» (لو 4: 22و23)، مما اضطرّه أن يقول لهم: «ليس نبيٌّ مقبولاً في وطنه» (لو 24:4). وفي الحقيقة لم يستطع أن يعمل آيات في وطنه لأنهم لم يكونوا يؤمنون به. وهكذا أظهرت الناصرة معدن اليهود الذي واجهه المسيح في كل مكان. وإزاء غلظة قلوبهم واجههم المسيح بمعاملات الله نحوهم قديماً؛ إذ اختار في أيام إيليا امرأة أرملة أُممية في صرفة صيداء لتعول النبي أيام الجوع دون بقية أرامل إسرائيل، وفي أيام أليشع النبي كانت إسرائيل مليئة بالبرص ولكن الله لم يشفِ على يديْ النبي إلاَّ رجلاً عدوًّا غريباً من سوريا، قائداً عسكرياً وهو نعمان السرياني. «فامتلأ غضباً جميع الذين في المجمع حين سمعوا (تعييره لهم) هذا. فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيَّة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أمَّا هو فجاز في وسطهم ومضى.» (لو 4: 28-30)

وهكذا كانت الناصرة مدينته التي تربَّى فيها ووطن صباه قاسية شريرة قاتلة من نحوه بصورة طبق الأصل من إسرائيل ورؤسائها الذين بالنهاية قتلوه. ويشهد عليهم بيلاطس أنهم أسلموه إليه حسداً.

15 - صورة من تعاليم المسيح بالأمثال

مَثَل الزارع:

كان الوقت الذي أمضاه المسيح في الجليل منذ شهر نوفمبر وهو أوان الزرع إلى ميعاد ذهابه إلى أُورشليم لحضور عيد الفصح القادم في شهري مارس وأبريل، هذه المسافة الزمنية وتقدَّر بحوالي خمسة أو ستة أشهر قضاها المسيح وهو أيضاً يبذر بذار الملكوت بين أبناء شعب الجليل. وفي الحقيقة نجد أن معظم ما سجَّله الإنجيليون الثلاثة متى ومرقس ولوقا، كان حصاد هذه الأيام لهذه الشهور الخمسة أو الستة.

وقد أمضى غالبية وقته على شواطئ بحيرة جنيسارت (ومعناها: جنة السرور) يُعلِّم ويصنع الأشفية والمعجزات، وكان الموسم موسم زراعة كما هو أيضاً موسم صيد السمك في البحيرة. فمن واقع الأرض قدَّم لهم مَثَل الزارع، ومن واقع البحر قدَّم لهم مَثَل الشبكة المطروحة في البحر. وهكذا من صميم الطبيعة والواقع شكَّل المسيح أسلوب تعليمه، فكان تأثيره شديداً على أفكار وتصوُّرات الشعب، وبالأخص التلاميذ الذين انفتح وعيهم واحتفظوا بهذه الذخائر حتى سجَّلوها لنا في الأناجيل.

ولكن لم يطرح المسيح أمثاله كنماذج تعليم مستقلة، بل جاءت كنهاية حديث تعليمي لتطبيق الفكر النظري على الواقع العملي المنظور والمحسوس. كما أعطانا هذه الصورة ق. مرقس باختصار في إنجيله هكذا:

+ «وابتدأ أيضاً يعلِّم عند البحر، فاجتمع إليه جمع كثير حتى إنه دخل السفينة وجلس على البحر، والجمع كله كان عند البحر على الأرض. فكان يعلِّمهم كثيراً بأمثال وقال لهم في تعليمه: اسمعوا (وابتدأ يقص عليهم هذا المثل الجميل والفلاحون حولهم يزرعون الأرض): هوذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته. وسقط آخر على مكان محجر، حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض، ولكن لمَّا أشرقت الشمس احترق، وإذ لم يكن له أصل جفَّ. وسقط آخر في الشوك، فطلع الشوك وخنقه فلم يعطِ ثمراً. وسقط آخر في الأرض الجيدة، فأعطى ثمراً يصعد وينمو، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة. ثم قال لهم مَنْ له أذنان للسمع فليسمع.» (مر 4: 1ـ9)

وقد قصد المسيح من مَثَل الزارع أن يقسِّم الذين يسمعون الكلمة إلى عينتين رئيسيتين:

(أ) **العينة الأُولى**: مَنْ يسمعون الكلمة ولا يثمرون.

(ب) **العينة الثانية**: الذين يسمعون الكلمة والكلمة تُثمر فيهم.

أمَّا في **العينة الأُولى** فقسَّمها إلى صنفين: **صنف غير قابل للتأثُّر كلِّية، وصنف يتأثَّر بالكلمة ولكنه لا يعطي ثمراً**. والذي لا يعطي ثمراً نوعان: نوع قلبه حجري يقتل الكلمة، ونوع ينمو ولكن الشوك يخنقه.

أمَّا غير القابل للتأثُّر كلِّية:

فهو الذي يمثِّل البذرة التي لا تخترق الأرض نهائياً بل «**تبقى وحدها**» على السطح، فإما تدوسها الأقدام أو تأكلها الطيور. وهو البعض الذي سقط على الطريق. وهؤلاء هم العائشون بعقلهم وإحساسهم مشغولين ومهمومين بأمور العالم ففقدوا القدرة على التأثُّر بكلمة الله، لا يفهمونها ولا يريدون أن يفهموها.

أمَّا الذي يتأثَّر ولا يعطي ثمراً فهو نوعان:

النوع الأول: **عثرته داخلية:** فقلبه منفعل لكل شيء وهو البذرة التي تقع على أرض حجرية تربتها قليلة فتنمو سريعاً وتتأثَّر سريعاً بالكلمة، ولكن لا تحفظها في داخلها، لأن سرعة تأثُّرها أيضاً بالأمور العالمية تحرم الكلمة من النمو، وكلمة الله تحتاج إلى عناية عنيدة ضد مجاذبات العالم لتستقر في قلب واعٍ.

النوع الثاني: **عثرته خارجية:** فالجو الذي يعيش فيه جو موبوء بمؤثرات عالمية باطلة، إمَّا شهوات بكل أنواعها، وإمَّا انشغالات زيادة عن الحد، وإمَّا تأثيرات فكرية ضارة من كل لون. فبمجرَّد أن تنمو كلمة الله تضغط عليها هذه المؤثِّرات وتقتلها. فالحق لا يعيش ولا ينمو بين الباطل.

وأخيراً نأتي إلى **العينة الثانية**: **الذين يسمعون الكلمة، والكلمة تؤثِّر فيهم:**

وهؤلاء يشبهون البذور التي نزلت في أرض طيبة، تُرسل جذورها إلى ما تشاء الطبيعة. بمعنى أن الكلمة تنمو وتثمر بمقدار ما يملك الإنسان من الاتجاهات المتعددة الطيبة، فيأخذ الحق الإلهي طابعه بحسب قدرات ومواهب كل شخص ليأتِ بثماره المتنوعة.

والآن إذا تأملنا هذا المثل الدقيق المحبوك نجد أن المسيح يصوِّر السامعين بصورة عملية شديدة التحديد والوضوح والواقعية. والمَثَل ذو جاذبية للعقول المنفتحة للتعليم والفهم، الأمر الذي جعل امرأة من وسط الجمع ترفع صوتها في مناسبة أخرى مثل هذه وتقول: «وفيما هو يتكلَّم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له: طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما» (لو 27:11)،

ولكن لم يقبل المسيح هذا الانفعال الخارجي وردَّه إلى ما ينبغي أن يكون عليه الانفعال الداخلي الصحيح: «بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه.» (لو 11:28)

ثم أضاف المسيح في شرحه لَمَثَل الزارع بعد أن استوفاه لتلاميذه على انفراد مَثَلاً آخر يتعلَّق به أشد التعلُّق، إذ قال لهم: «هل يؤتى بسراج ليوضع تحت المكيال أو تحت السرير. أليس ليوضع على المنارة؟ لأنه ليس شيء خفي لا يُظهَر ولا صار مكتوماً إلاَّ ليُعلَن» (مر 4: 21و22). بمعنى أن كل الذي سمعتموه مني سواء في الأمثال بأسلوبها المخفي أو كأسرار في المخدع، فهذا أظهروه وأعلنوه وعظوا به. أمَّا السراج فهو التلميذ الذي أشعل المسيحُ نورَ الإيمان والمعرفة بالله في قلبه فصار أداة تنوير، وبذلك لا ينبغي أن يُخفى تحت "مكيال" البيع والشراء، بمعنى هموم التجارة والعالم، ولا أن يعتزل في داره، بل لابد أن يخرج ومن على منابر التعليم يُعلِّم.

وهذا يعني أن الأمثال التي أعطاها المسيح كانت شعلات نارية تُوقِدُ وتنير القلب والذهن في يوم الكرازة. لذلك أيضاً أوصاهم أن ينتبهوا إلى سماع الكلمة بانفتاح ذهني ووعي: «فانظروا كيف تسمعون، لأن مَنْ له (الوعي المفتوح) سيُعطَى، ومَنْ ليس له (المقفول البصيرة) فالذي يظنه له (من معرفة) يؤخذ منه.» (لو 8:18)

16 - الشبكة والبحر والسمك

والآن والمسيح جالس على المركب والشعب جالس على الشاطئ يستمع، رفع المسيح عينه إلى صيَّاد يصطاد عن قرب منه، وهو يطرح الشبكة في البحر بشبه دائرة متسعة، تَنْقَضُّ على البحر لتمسك السمك الذي يتجمَّع على صوت وقوعها في الماء. منظر مألوف، ولكن المسيح استخرج منه مَثَله عن الملكوت وكيف يطرح الله شبكته لتمسك الصالح والطالح. فهو يريد أن يعلِّم التلاميذ أن ليس كل الذين يتجمَّعون حوله عند سماع صوته وهو يطرح عليهم كلامه العذب الجميل في شبكة نعمته هم المختارون، بل يوجد بعضهم غير نافع للملكوت شأنهم شأن السمك الرديء الذي يدخل الشبكة صدفة. فهو يُفرز ويُلقى في البحر مرَّة أخرى، أمَّا السمك الفاخر فيذهب على مائدة الملوك. هذا يكون شأن الدينونة حينما يفصل الله بين صانعي المعاثر والذين يتقبلون دعوة الملكوت من المختارين المعيَّنين للملكوت والحياة الأبدية.

17 - القمح والزوان[4]

هنا يكشف المسيح سر طول أناته في معاملة المشاكسين والذين يعطِّلون خدمته بمصادراتهم واحتجاجاتهم والمسيح صابر عليهم، يرد عليهم ويعاملهم كأنهم يريدون أن يتعلّموا وهم صانعو معاثر. على هؤلاء قال المسيح مَثَله البديع وهو القمح والزوان: كيف ينموان معاً، فإذا حاول الفلاح أن يقتلع الزوان يقلع معه القمح أيضاً لأن الجذور متشابكة. كما أنه من الصعب أن يفرِّق حسب الظاهر بين القمح الجيد والزوان الرديء، لذلك نصَّ في مَثَله أنه لا ينبغي أن يُقلع الزوان طالما هو ينمو وسط القمح، أمَّا في النهاية وعند الحصاد فينكشف القمح عن الزوان ويُجمع الزوان ويُطرح في التنور (الفرن). وتطبيق المثل واضح وجميل بل وخطير، أنه في العالم لا يفرِّق الله بين الصالح والشرير؛ إذ يشرق شمسه عليهما، ويمطر مطره لكليهما، والهواء يداعب هذا ويلاطف ذاك، والماء يجري لهذا وأيضاً بالمثل لذاك. ولكن بالنهاية يؤخذ الواحد أو الواحدة ويُتْرَك الآخر أو الأخرى. لذلك يقول المسيح أيضاً أن لا ندين أحداً هنا، فنحن لا نعرف المخطئ من صاحب الحق، ولكن الدينونة بالنهاية في يدي الذي يحكم على هذا ويبرِّئ ذاك. لذلك فمَثَل القمح والزوان مَثَل يصلح جداً أن يكون منهج حياة وسلوك في المعاملات.

18 - إسكات الريح العاصف والبحر الهائج

إن ما يقابل الكارز من مخاطر وعثرات مفاجئة تكون على مستوى أصعب من قدراته قادر أن يُربك كرازته ويُقلِّل من فاعليته، لذلك ارتأى المسيح أن يجوز هذا الاختبار مع تلاميذه حتى يقوِّي عودهم ويزيد من إيمانهم ورباطة جأشهم. فحينما كان التلاميذ ومعهم المسيح مبحرين بسفينتهم الصغيرة من الشاطئ الغربي نحو الشاطئ الشرقي للبحيرة، كان المسيح مجهداً للغاية فنام في ''خُنّ'' المركب. وبينما هو نائم هبَّت عاصفة هوجاء عنيفة وعلا موج البحر وأخذ يتقاذف السفينة، وبلغ الخطر حد الغرق. فاضطروا أن يوقظوه، فقام وانتهر الريح بسلطان وأمر البحر أن يصمت، فهدأت الريح في الحال وصمت البحر وكأن الطبيعة أصبح لها آذان تسمع وإرادة تخضع. ثم عاد على التلاميذ يوبِّخ عدم إيمانهم: أين ثقتكم في الله واعتمادكم عليه؟ ولكنهم ظلوا مذهولين: «أي إنسان هذا. فإن الرياح والبحر جميعاً تطيعه؟» (مت 27:8). ولكن لم تكن تمثيلية هذه التي صنعها المسيح

(4) الزوان: نبات ضار ينمو مع القمح وساقه تشبه ساق القمح.

مع تلاميذه و لم يكن مجرَّد أمر للريح والبحر، ولكنه تسليم وتسلُّم إذ منحهم إيمانه وصلابة سلطانه على الطبيعة كما على باقي المخاطر والمعاثر. فالمسيح لم يكن معلم نظريات، بل مدرِّب روحيات ومواقف لمعارك خفية ومنظورة. و لم يكن كمَنْ يُسلِّم مهنة وأسرارها، بل إنه يُعطي إمكانيات وسلطات لرسل منوط بهم أن يؤسِّسوا معه ملكوت السموات، لذلك وبَّخ عدم إيمانهم!!

19 - إخراج شيطان من إنسان كورة الجدريين

عندما انطلقت السفينة قاصدة الشاطئ الشرقي عرَّجت قرب مدينة تُدعى جدره بناء على رغبة المسيح، ويبدو أنه كان يعلم أن له هناك عملاً رحيماً. فبمجرَّد أن رست السفينة على الشاطئ انطلق نحوه إنسان به روح نجس قيل عنه إن مسكنه كان في القبور و لم يقدر أحد أن يربطه ولا بسلاسل، لأنه رُبط كثيراً بقيود وسلاسل فقطع السلاسل وكسر القيود، فلم يقدر أحدٌ أن يذلِّله. وقد أثبت العلم الحديث المعروف بالأبحاث الباراسيكولوجية أن القوة الروحية (الشريرة) قادرة فعلاً على تقطيع السلاسل وكسر أشد قيود الفولاذ بسهولة، لأن المادة الصلبة عند الأرواح كأنها الهواء. فالروح قادر أن ينفُذ من جدار الصُّلْب ويخترق الزجاج دون أن يخدشه، وهكذا فإن الإنسان إذا سكنه روح شرير يقدر أن يصنع به هذا كله. وكان ذلك الإنسان دائماً في الجبال والقبور يصيح ويجرح نفسه بالحجارة. أمَّا سكنى الشيطان أو الأرواح (النجسة) فهي في القبور وفي الجبال، فكما قال الرب إنها تذهب في البراري والقفار حيث لا ماء لترتاح. والقبور بالذات مكان تجمُّع الأرواح المعذَّبة التي بعد أن فارقت أجساد أصحابها تظل بجوارها. ومن هنا طقس الكنيسة بالصلاة في المقابر في اليوم الثالث لصرف الروح من عالمنا بهدوء وبسلطان الله لتذهب إلى المقر المعد لها. أمَّا كون ذلك الإنسان يصيح ويجرح نفسه فهي في لذة الشيطان في تعذيب الإنسان الذي يستحوذ عليه. لذلك كان من أهم أعمال المسيح للخلاص قبل الصليب هي إخراج الشياطين سواء التي استحوذت possession على الناس الذين سكنت فيهم أو مسَّتهم مسًّا للإيذاء سواء بمرض أو عاهة أو اضطراب عصبي أو نفساني. والمس هو obsession وهو يشبه الصرع أو هو نوع من التسلُّط: إما تسلط روح أو فكرة أو خيال، أما هذه إذا كانت مرضية وليست من عمل الأرواح فعلاجها الطبي معروف.

فلما تقابل الإنسان المريض بالمسيح، صرخ الشيطان الذي فيه بصوت عظيم: «مالي ولك يا يسوع ابن الله العلي. أستحلفك بالله أن لا تعذبني. لأنه قال له: اخرج من الإنسان يا أيها الروح النجس» (مر 5: 6-8). هكذا استُعلن المسيح في الحال، خاصة أن المعروف عند الشيطان أن ابن الله نزل ليربط الشيطان تمهيداً لإلقائه في مصيره الأخير. وكلمة "قبل الأوان" أي قبل النهاية.

ولمَّا سأله المسيح ما اسمك؟ وهنا يخاطب المسيح الشيطان وليس الإنسان، لأن الشيطان يسلب من الإنسان شخصيته وإرادته وتفكيره، فأجاب اسمي لجئون أي أرواح كثيرة مجتمعة فيه. وهنا توسَّل الشيطان لدى المسيح أن لا يرسلهم بعيداً؛ بل أن يسمح لهم أن يدخلوا الخنازير التي كانت ترعي في ذلك المكان، فأَذِنَ لهم المسيح. فرأى المسيح أن تموت الخنازير ولا يموت الإنسان. وبالفعل دخلت الشياطين في قطيع الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر واختنق. وهكذا كان الإنسان عند المسيح أفضل من خنازير كثيرة.

فلمَّا جاء أصحاب الخنازير ورأوا الإنسان الذي كان معذَّباً بالشياطين جالساً لابساً عاقلاً تحت رجلي المسيح، خافوا. ويبدو أهم كانوا وثنيين، لأن اليهود لا يقتنون الخنازير. فطلبوا من المسيح أن يذهب من كورتهم. ولمَّا طلب الإنسان الذي كان معذَّباً أن يبقى مع المسيح ويتبعه لم يدعه المسيح بل قال له: اذهب إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع بك الرب ورحمك.

+ «وكان يشفي جميع المتسلِّط عليهم إبليس.» (أع 38:10)

20 - العودة إلى الشاطئ الغربي
إقامة ابنة يايرُس وشفاء نازفة الدم

قصة هي في حقيقتها قصتان ومعجزتان تداخلتا معاً في حبك جيد يشهد ببراعة الإنجيلي، فبمجرَّد أن وصل المسيح وجد جمعاً غفيراً يترقَّب وصوله. وكان بينهم شخصية مرموقة في عين اليهود، وهو رئيس مجمع، عندما تلاقى مع المسيح سجد له. وهذا عمل فريد لم نسمع به من قبل، ولكن الحاجة والضيقة تذلِّل طبع الإنسان.

وكان هذا الرئيس الذي يُدعى "يايرُس" قد جاء لأن ابنته ذات الاثنتي عشرة سنة مريضة، وقد دخلت في حالة الخطورة القصوى بانتظار الموت كل لحظة. لهذا اخترق هذا الرئيس وسط الجموع بسرعة وترجَّى المسيح أن ينقذ ابنته، فاستجاب المسيح واتَّجه معه نحو البيت.

وهنا اندسَّت امرأة في الخفاء كانت قد أصيبت بنزيف حاد استمر معها اثنتي عشرة سنة، وتعالجت كثيراً و لم تُشْفَ، أو حسب قول ق. مرقس: «تألَّمت كثيراً من أطباء كثيرين وأنفقت كل ما عندها و لم تنتفع شيئاً، بل صارت إلى حال أردأ» (مر 26:5)، ولكن لمَّا جاء ق. لوقا يروي هذه القصة وهو طبيب، لم يذكر هذا الاتهام ضد أرباب مهنته بل قال بلباقة مدهشة: «و لم تقدر (هي) أن تُشفى من

أحدا!» (لو 43:8). هذه لَّما سمعت بيسوع جاءت في الجمع من ورائه ومسَّت هدب ثوبه: «لأنها قالت إن مسست ولو ثيابه شُفيتُ، فللوقت جفَّ ينبوع دمها وعلمت في جسمها أنها قد برئت من الداء »(مر 5: 28و29). ولكن لم يتركها المسيح تمر، بل التفت نحو الجمع «شاعراً في نفسه بالقوة التي خرجت منه وقال: مَنْ لمس ثيابي؟» (مر 30:5). وكان ينظر حوله فرأى التي فعلت هذا فجاءت وهي خائفة وسجدت وقالت الحق كُلَّه. معنى هذا أن من جسم المسيح تسرَّبت قوة فعلاً ودخلت جسم المرأة وشفتها في الحال! ولكن المهم أين ذهبت آلام صاحبة النزيف وأوجاعها التي لازمتها اثنتي عشرة سنة؟ نقول: وكأنه حدث تبادل، فالقوة خرجت من المسيح وذهبت للمرأة وصنعت شفاءً وراحة وسلاماً، والآلام والضيقات والأحزان والأوجاع تسرَّبت من المرأة ليحملها المسيح في جسده! ألم يكن إشعياء صادقاً هنا حينما قال: «لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمَّلها ...» (إش 4:53). ولكن تذوب الأحزان في صدر المسيح الواسع والأوجاع تتلاشى بمجرَّد أن تمسَّه، لأنه هو القدوس!

وهنا يبدأ يدخل الإنجيل في قصة يايرُس التي ابتدأها فيقول: إنه بينما المسيح يتكلَّم مع المرأة إذ برُسُل من بيت يايرُس جاءوا على عجل ينعون للرجل موت ابنته، وزادوا من عندهم أن لا تتعب المعلِّم. وكأن كلمة الموت قادرة أن تلغي عمل المسيح. فانبرى المسيح يلطِّف من وقوع الخبر على يايرُس بقوله: لا تخف!! آمن فقط. إنها كلمة خرجت من فم المسيح لتعمل عملها في الحال سواء في قلب الرجل أو في الراقدة على فراش الموت.

واجه المسيح المعزِّين وهم يضجُّون بالزمر والطبول كعادة القوم، وأراد أن يسكتهم ففاجأهم بقوله إن الصبية لم تمت لكنها نائمة، باعتبار سلطان المسيح الذي سيوقظها من نوم الموت. لم يفهموا الكلام، فضجُّوا بالضحك وهم لا يدرون أنهم يضحكون على أنفسهم.

ودخل المسيح ومعه الثلاثة الذين اختارهم دائماً للمثول معه في المناسبات الهامة: بطرس ويعقوب ويوحنا. ولَّما دخل أخرج الجميع من أمام الصبية إلاَّ الأب والأُم فقط. وتقدَّم المسيح نحو الصبية المائتة وأمسك بيدها، وبأمر نادى الصبية: «طليثا، قومي» (مر 41:5)، فقامت الصبية في الحال؛ إذ أطاعت الروحُ ربَ الروح، وأذعنت لصوت المسيح وقامت ومشت أمام والديها «فبُهِتُوا بَهتاً عظيماً » (مر 42:5)، وقال المسيح أن تُعطى لتأكل وأوصى أن لا يقولوا لأحد.

21 - إقامة الشاب الميت بقرب نايين

هذه المعجزة من المعجزات القليلة التي تكشف عن تصوُّرات قلب المسيح ونوازع نفسه التي تدفعه لعمل الرحمة. فهنا معجزة لم يطلبها منه أحد، وأصحاب الميت كانوا يشيِّعونه راضين بموته، ولكن المسيح وحده لم يرضَ. والقصة باختصار يحكيها ق. لوقا: «فلما اقترب (المسيح) إلى باب المدينة (نايين) إذا ميت محمول ابن وحيد لأُمه، وهي أرملة، ومعها جمع كثير من المدينة» (لو 12:7). لا شك أن المسيح قد عرف ذلك كله، واعتبر حال هذه الأرملة الحزينة حاله، فقد تبنَّى أحزان الإنسان بمعنى أنه كما يقول إشعياء النبي: «**أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمَّلها**» (إش 4:53)، فوجد أن الحِمل ثقيل على قلب المرأة وعسير عليها أن تتحمَّله وحدها. فلم يكتفِ بأن يعزيها ليشاركها حزنها، ولكنه عوَّل أن يرفعه جملة؛ فاقترب من النعش ولمسه فوقف المشيِّعون، وبادر بنداء الشاب الميت بصفته أبي الأرواح، فأجاب الشاب بالطاعة وقام وجلس على نعشه أمام ناظري أُمه والجمع المذهول الذين أخذهم الخوف، ولكنهم مجَّدوا الله في المسيح. فدفع الشاب لأُمه وكأنه ما مات وكأنها ما فقدته، فأخذته في حضنها وعادت إلى بيتها. هذا هو المسيح معزِّي الحزانى، مريح التعابى، مفرِّح القلوب!!

22 - شكوك المعمدان ورسالة من السجن

كان المعمدان قد أُلقي في السجن في قلعة ماخيروس بأمر هيرودس الملك، وكان قد مضى عليه عـدة شهور في حبسه المظلم يترقَّب الموت، فتألَّبت عليه الأفكار وثارت الشكوك، فيما يخص رسالته: هل هي انتهت؟ وهل أكون بذلك أكملت السعي؟ هل أعددت الطريق للآتي بعدي؟ ثم امتدَّت الشكوك، ولماذا لم أتلقَّ رسالة من المسيح بخصوص عملي إن كان قد انتهى واستوفى القصد؟ وإن كانت رسالتي لم تكمل بعد فلماذا السجن والتهديد بالموت؟ ثم امتدَّت الشكوك: هل المسيح الذي رأيته واعتمد مني هو الآتي بعدي حقـاًّ؟ أم ننتظر آخر؟ وهكذا دارت به الشكوك. كل هذا كان يحتاج كلمة حاسمة من المسيح نفسه ومن فمه. فأرسل يوحنا التلميذَيْن يستفسر: هل أنت الآتي أم ننتظر آخر؟

ولكن السؤال الذكي الذي يفرضه سرد معجزة إقامة ابن أرملة نايين علينا في هذا الموقف بالذات هو: هل من علاقة بين إقامة هذا الابن الوحيد لهذه الأرملة الحزينة وبين بعثة يوحنا من التلميذين؟ هل صنع المسيح هذه المعجزة وتلميذا المعمدان حاضران لكي يعطي التلميذين الحائرين مع معلِّمهما صورة للملكوت الذي افتُتح، وها هي آخر آياته جميعاً «الموتى يقومون» وبذلك تكون هذه المعجزة في وضعها الصحيح تماماً بالنسبة لترتيب ق. لوقا الذي جمع إرسالية التلميذين وإقامة ميت نايين معاً لإعطاء صورة حيَّة كيف أن المسيح هو الآتي ولا داعي للقلق؟

وبعد أن ترك المسيح تلميذي المعمدان يتابعان مع التلاميذ أعمال المسيح، وبعد أن رأيا وسمعا ما حدث أمامهم: «وفي تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة، ووهب البصر لعميان كثيرين. فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما: إن العمي يبصرون والعرج يمشون والبُرص يُطهَّرون والصم يسمعون **والموتى يقومون** والمساكين يُبشَّرون، وطوبى لمن لا يعثر فيَّ.» (لو 7: 21-23)

وبهذا قدَّم المسيح شهادة لعمل الملكوت على الواقع المنظور والمسموع، غير أن هذه السلسلة من الأعمال بترتيبها هذا هي استشهاد بما قاله إشعياء النبي في وصفه لعلامات الملكوت حينما يبدأ عمله. وبهذا يكون المسيح قد أحال المعمدان وهو نبي إلى إشعياء ليتأكَّد أن الملكوت قد بدأ حقـاًّ وفعلاً، إذ يقول إشعياء: «وحينئذ تتفقَّح عيون العمي وآذان الصم تتفتَّح. حينئذ يقفز الأعرج كالإيل ويترنَّم لسان الأخرس» (إش 35: 5و6)، «روح السيد الرب عليَّ، لأن الرب مسحني لأبشِّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق ... لأعـزِّي

كل النائحين.» (إش 61: 1و2)

بهذا يكون المسيح قد قدَّم نفسه للمعمدان أنه هو مسيَّا الذي أتى، وأن الأعمال تشهد له كـالنبوَّات، صحيح أنه لم يعلن نفسه بصفة الملك الآتي ليفتتح ملكوت الله بالقوة والاقتدار، ولكن المسيح أكمل كل أعمال المسيَّا اللائقة برسالة الخلاص. لذلك قال في نهاية كلامه: «وطوبى لِمَنْ لا يعثُر فيَّ»

23 - المسيح يمتدح المعمدان

وبعد أن مضى تلميذا المعمدان ابتدأ المسيح يرفع اللَّبْس عن موقف المعمدان الذي دخل صدور تلاميذه عن كيف يشك المعمدان في المسيح. أن المعمدان أُجبر أن يسأل سؤاله ليس عن انحراف في إيمانه، إذ قال المسيح: إن المعمدان ليس قصبة تحرِّكها الريح، بمعنى أنه ليس عن أفكار طارئة يتحرَّك أو يُفكِّر فهو أثبت من أن يكون قد تزعزع. ثم استمر يعدِّد صفاته، كونه كان يتزيَّا بزي النُّسَّاك والمتعبِّدين بالصوف الخشن لا بالثياب الناعمة كقاطني القصور. فإن قلتم نبيٌّ هو أقول أنا وأفضل من نبيّ، فالنبي يتنبَّأ أمَّا هذا فجاء يكرز ويخدم وينادي كسابق لِمَنْ سيأتي بعده: «هذا هو الذي كُتب عنه: ها أنا أُرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيِّئ طريقي (طريقك) قدَّامي (قدَّامك)» (مل 1:3، لو 27:7). ويُلاحظ القارئ الفرق بين أصل النبوَّة وما عدَّله المسيح فيها، وهو بحد ذاته إعلان واستعلان عن أنه هو هو يهوه الله في القديم. لأن أصل الآية يكشف أن الروح فيها يتكلَّم بفم يهوه نفسه "طريقي"، "قدَّامي"، هذا حوَّله المسيح لَمَّا حوَّل الآية من المتكلِّم بفم الله إلى ما يتكلَّمه هو بفمه: «طريقي ... قدَّامي» وهذا نوع من الاختفاء الذي لا يُخفى، بل نوع من الاستعلان لا يدركه إلاَّ الأذكياء ذوو البصيرة.

ويكمِّل المسيح من عنده: «لأني أقول لكم: إنه بين المولودين من النساء ليس نبيٌّ أعظم من يوحنا المعمدان» وهذا يعني أن المسيح يفرِّق بين المولودين من النساء والمولودين من الله. وهذا يعني أن المعمدان وهو محسوب من طغمة الأنبياء يكون أعظمهم من جهة الدعوة لافتتاح الملكوت والاستنارة، ولكن حينما يُقارَن المعمدان بالمولودين من الله في العهد الجديد لا يكون أعظم بل أقل. لذلك وضَّح المسيح القول قائلاً: «ولكن الأصغر في ملكوت الله - (وهم المولودين من الله) - أعظم منه» (لو 28:7). على أن المعمدان بخدمته كان أول مَنْ أفرز من الشعب قوماً يعطون **البر لله** وليس بالناموس وذلك بمشورة الله، وبهذا استثنى الفرِّيسيين والناموسيين بقول يحتاج إلى فهم واستيعاب: «وجميع الشعب إذ سمعوا والعشَّارون **برَّروا الله** معتمدين بمعمودية يوحنا. وأمَّا الفرِّيسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله - (أو دعوة السماء) - من جهة أنفسهم غير معتمدين

منه» (لو 7: 29و30)، وقد زادها المسيح وضوحاً لَمَّا سأل سؤالاً لرؤساء الكهنة والذين معهم: معمودية يوحنا هل كانت من السماء أم لا؟

وبعدها أوضح المسيح سر المعمدان بالنسبة لإيليا النبي تحقيقاً لقول ملاخي النبي أن بيوحنا النبي يكون إيليا النبي قد جاء فعلاً، ولكن ليس بالكيان الجسدي بل من جهة روحه النارية التي وبَّخت الملوك وأفزعتهم، وأهانت زوجاتهم وفضحتهم. ولكن كل منهما دفع الثمن: فإيليا استودع النبوَّة لغيره، والمعمدان استودع النبوَّة بالسجن والموت.

24 - المسيح والمعمدان ونظرة اليهود الرافضة للجديد والقديم

ثم ابتدأ المسيح يحكي للذين حوله عن مستوى فكر اليهود الذي استقبلوا به المعمدان وهو الصورة المتزنة للعهد القديم الذي يبشِّر بالجديد، مقارنة بما استقبلوا به المسيح كمناد للجديد وحرية الحق. واستخدم في ذلك رواية يمثِّلها الأولاد في الأسواق؛ إذ تقف مجموعة وتجلس قبالتها مجموعة أخرى، ففرقة تدَّعي تمثيل الفرح إذ يزمِّرون، فتستجيب لها في العادة الفرقة الأخرى بالرقص، ثم يبدِّلون الدور إلى تمثيل الحزن إذ يبتدئون ينوحون كنساء المآتم والآخرون يبكون.

هنا يطبِّق المسيح هذا الأمر على اليهود الذين جاء إليهم يوحنا المعمدان لا يأكل ولا يشرب خمراً فقالوا إن به شيطاناً، ثم جاء إليهم ابن الإنسان فقالوا عنه إنه أكول وشريب خمر محب للعشَّارين والخطاة. ثم يُعقِّب المسيح على مسلك اليهود أنهم قد جانبتهم الحكمة، إذ في المعمدان كانت حكمة النسك والعبادة، وفي المسيح حكمة العزاء والمواساة. فقال المَثَل: إن الحكمة تُبرَّر من بنيها، أمَّا الغرباء عنها فالحكمة عندهم جهالة.

ثم عاد في تواضعه وبساطة روحه يعرض حبه ومساعدته وحكمته ومعرفته لراحة وسلام كل نفس هكذا:

+ «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم (أزيل حملكم). احملوا نيري (تعليمي) عليكم وتعلَّموا مني (المثال الحي)، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيري هيِّن وحملي خفيف.» (مت 11: 28-30)

وعن هذه الآيات الأخيرة يقول العالم نياندر(5) إنها كانت في الأصل تأتي مباشرة بعد المقارنة بين

---

(5) A. Neander, *op. cit.*, pp. 216,217, n.t.

المسيح ويوحنا المعمدان (مت 11: 16-19) وذلك لشدة مناسبتها، وبها يقارن المسيح بين تعليمه والناموس، مخاطباً الخطاة والحزانى والبؤساء والضعفاء الذين سحقهم الناموس وأسقطهم من المجتمع اليهودي، فاعتبرهم المسيح: «المتعبين والثَّقيلي الأحمال» الذين هم موضوع كرازته والمدعوون لملكوته. وحينما أعلن أنه ''وديع'' فهو لكي يجذب كل الضعفاء والمرفوضين: «مَنْ يُقبل إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يو 6:37)، وحينما قال: لأني «متواضع القلب» فلكي يُطمئن منكسري القلوب أن لهم قلب الله.

25 - لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة

كانت المناسبة هامة وخطيرة. فقد دعا المسيح ''لاوي'' الذي صار فيما بعد القديس متى الإنجيلي ليترك جباية العشور ويتتلمذ وراءه، فاستجاب لاوي وعمل لذلك وليمة في بيته ودعا إليها العشَّارين المحسوبين أنهم خطاة، وأصدقاء لاوي وهم أيضاً خطاة، وجلس المسيح في وسطهم: «وبينما هو مُتَّكئ في البيت إذا عشَّارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتَّكأوا مع يسوع وتلاميذه. فلمَّا نظر الفرِّيسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلِّمكم مع العشَّارين والخطاة؟» (مت 9: 10و11)

كنَّا لتوِّنا نتكلَّم عن الحكمة في سلوك المعمدان التي ظهرت كحياة نسك وتقشُّف شديدة، فلا خبز ولا طعام ولا لباس ناعم ولا بيت للمبيت، فالجبال تحتضنه أو هو يحتضنها ويبيت على أصوات الوحوش، ويستيقظ مع الفجر لينادي باقتراب الملكوت والتوبة التي تليق بالملكوت. وكنا نتكلَّم عن الحكمة في سلوك المسيح كيف جاء للحزانى ومنكسري القلوب وللنائحين والمتعبين وثقيلي الأحمال. فكان عمل المسيح الأساسي أن يرفع أحمالهم عنهم ويهبهم نعمته ويشفي كسر قلبهم بعزاء روحه القدوس. والذي نوى أن يسفك دمه من أجلهم أراد أن يشاركهم فقر حياتهم ليشتركوا في غِنَى حبه وعطفه، يأكل لقمتهم ويشرب من كأسهم تمهيداً ليشتركوا هم بالسر في جسده والشرب من كأس دمه: [هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له]، هكذا تسبِّح الآن الكنيسة له. اشترك في فقرنا لنشترك نحن في غناه، ذاق مرارة حياتنا لنتذوَّق نحن السعادة في الحياة معه.

ولكن من أين الحكمة للذين رفضوا بر الله ليضمنوا بر أنفسهم؟ فإن كانت عيون الفرِّيسيين قد أُغلقت عن معرفة المسيَّا فليس كثيراً أن يذموا سلوكه. وإن كان قد أخفى عن قلوبهم وأفهامهم كيف سيفدي الخطاة بسفك دمه فكيف يفهمون لماذا يجلس مع الخطاة والعشَّارين ويأكل من

لقمتهم ويشرب من كأسهم؟

لهذا كان رد المسيح على سؤالهم: «لماذا يأكل معلِّمكم مع العشَّارين والخطاة» (مت 11:9)؟ أنه جاء من أجلهم كطبيب يشفي جراح قلوبهم، أما هم الأصحاء فليس لهم فيه نصيب ولا تطبيب. جاء ليحمل عن الخطاة خطاياهم ويسلِّمهم برَّه الشخصي، أمَّا الفرِّيسيون فلأنهم أبرار عند أنفسهم تركهم في خطاياهم! ثم خاطبهم: «فاذهبوا وتعلَّموا ما هو (مطلب الله) إني أريد رحمة لا ذبيحة!» (مت 13:9)

26 - رقعة من ثوب جديد على ثوب عتيق، وخمر جديدة في زقاق عتيقة

واضح من كلام المسيح في هذين المثلين أن الطبيعة القديمة لا يمكن أن تتجدَّد بإضافة عمل خارجي. والكلام جاء بعد سؤال تلميذي المعمدان: لماذا لا يصوم تلاميذك؟ والعمل الخارجي الذي يراد به التجديد هو الصوم والنسك والصلوات المحفوظة كما قالها ومارسها تلاميذ المعمدان. ولكن مهما كانت التدريبات المفروضة على الإنسان فهي لا تستطيع أن تغيِّر الطبيعة القديمة. هذا من جهة التلاميذ الذين يُراد تجديد طبيعتهم بالصوم والنسك. كذلك وبنفس الاستحالة لا يمكن أن مبدأً روحياً من العهد الجديد نطبِّقه على إنسان يعيش على مبادئ العهد القديم كالفريسيين مثلاً، إذ يستحيل أن الفرح الروحي وحرية الإيمان تليق أو تنمِّي طبيعة إنسان فرِّيسي يهتم لذاته ومسرَّاته ويفرح بالتحيَّات في الأسواق والتسابق إلى الولائم. والقصد الأساسي من هذا المثل أن الطبيعة العتيقة ينبغي أن تتحوَّل بجملتها إلى طبيعة جديدة بالإيمان بالمسيح. فلا رقعة من الجديد تصلح لتجديد طبيعة عتيقة، ولا رقعة من العتيق تصلح لطبيعة جديدة.

كذلك فمن كلام المسيح من واقع المثلين نفهم أنه لا يمكن التجديد من الخارج، فالمسألة لا تحتمل الترقيع. فالتجديد يبدأ بميلاد جديد ـ التي هي كما دعاها بولس الخلقة الجديدة بالروح ـ كما شرحها المسيح لنيقوديموس. كذلك في مسألة الخمر الجديدة التي إذا وُضعت في زقاق عتيقة تمزِّقها بسبب تفاعلاتها الداخلية التي لا يحتملها جلد الزقاق العتيق. هذا يعني بوضوح أن هيكل التعليم في العهد القديم ضيِّق ومحدود لا يحتمل قوة الروح والنعمة والحرية التي للمسيح.

ولكن الاحتراس الوحيد الذي يلزم هنا أن ننبِّه عليه ذهن القارئ والشارح والواعظ هو قول المسيح إنه ما دام العريس معهم فلا يصومون، ولكن متى رُفع العريس عنهم حينئذ يصومون. فلو فهمنا أن ارتفاع المسيح هو صعوده إلى السماء، يختل المعنى ويصير مرَّة أخرى وكأننا نضع رقعة من ثوب عتيق هذه المرَّة في الثوب الجديد. وهنا كما سبق وقلنا في موضعه صفحة 121-122 أن

ارتفاع المسيح يعني غيابه بالروح. بمعنى أنه إذا غاب المسيح عن القلب وعن الوعي الصافي، فحينئذ يتحتَّم البكاء والنوح والصوم ولبس المسوح، حتى يعود المسيح ويأتي ويملأ القلب فرحاً ونعيماً وسروراً. بغير هذا المعنى يكون المثل أعلاه فاقداً قوته، وتكون رجعة إلى وضع الخمر الجديدة في زق عتيقة قد تشقَّق جلدها. فالمنهج الروحي المسيحي الكامل لا يقبل بأي حال من الأحوال اقتطاع جزء منه واستخدامه دون أن يكون متَّصلاً اتصالاً كاملاً بالكل.

27 - الصلاة الربَّانية

حينما سمع التلاميذ المسيح وهو يصلِّي! «وإذ كان يصلِّي في موضع لمَّا فرغ قال واحد من تلاميذه يا رب علِّمنا أن نصلِّي كما علَّم يوحنا أيضاً تلاميذه» (لو 11:1)، حينئذ دخلت رغبة الصلاة في قلوبهم دون ضغط أو إلزام. وهذه هي فلسفة المسيح في تعليم الصلاة بل وتعليم كل شيء: أن تأتي الرغبة أولاً من الداخل بالروح، وهذا يعني في فن التربية تفتُّح الوعي الداخلي للحقيقة، حيث يصبح التعليم ليس من الخارج ولا بإلزام، بل من الداخل وبحرية الرغبة الشخصية. فقد اشتاق التلاميذ أن يصلُّوا لما سمعوا المسيح يصلِّي، وطلبوا هم أن يعلِّمهم الصلاة وليس أن المسيح هو الذي فرض عليهم الصلاة. وهكذا كانت حياتهم الروحية تنمو من الداخل وبالمشيئة الحرَّة. أمَّا عمل المسيح ودوره في أمر الصلاة فهو أن يعرِّفهم بضرورتها وأنَّ لا غِنَى عنها، وكيف يصلُّون صلاة صحيحة تحوي كل عناصر الصلاة اللائقة بالله، بمعنى أهمية مضمونها. وليس هذا فقط، بل وأعطاهم مثلاً قيِّماً جداً شرح فيه طبيعة الصلاة المستجابة عند الله: ذلك في مَثَل صديق نصف الليل (لو 11: 5-13)، الذي ذهب إلى صديقه في هذا الميعاد المتأخِّر ليطلب ثلاث خبزات لضيف حلَّ عنده، فلمَّا تمنَّع الصديق محتجاً بأن الليل قد انتصف وأولاده في حضنه - ويبدو أن الوقت كان شتاءً أيضاً - أخذ السائل يلح لشدة عوزه، فاستجاب الصديق أخيراً من أجل لجاجته وقام وأعطاه قدر حاجته. وهكذا قدَّم المسيح في هذا المَثَل اللجاجة كأهم عناصر طبيعة الصلاة لتكون مستجابة. فالله ولو أنه سامع الصلاة ولكن يُسرُّ باللجاجة. وشفعها في موضع آخر بقوله: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُملَّ» (لو 18:1). وقد علَّق على مَثَل صديق نصف الليل قائلاً: «اسألوا تُعطوْا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم. لأن كل مَنْ يسأل يأخذ ومَنْ يطلب يجد ومَنْ يقرع يُفتح له» (لو 11: 9و10)، وهي ثلاث درجات للصلاة. وقدَّم المسيح نصيحته الروحية الثمينة في إعطاء نموذج للصلاة التي تبني النفس وتشبع الروح وتكوِّن علاقة وطيدة مع الله: «وأمَّا أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية.

وحينما تصلُّون لا تكرِّروا الكلام باطلاً كالأمم، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. فلا تتشبَّهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه» (مت 6: 6-8). وبهذا يكون المسيح قد استجاب لسؤالهم: "**عرِّفنا يا رب كيف نصلِّي**"!! وابتدأ المسيح يعطيهم نموذجاً يحمل العناصر الكاملة للصلاة كما يجب أن نقدِّمها إلى الآب السماوي.

«**أبانا الذي في السموات**»:

فأول ما تحوي صلاة "أبانا الذي"، هو مخاطبة الله: "أبانا"، لأن المسيح جعلنا أبناءً له محبوبين، إذ وحَّدنا في شخصه كابن الله. فنحن نخاطب الله بدالة البنين وكأننا نطلب باسم المسيح ابنه المحبوب. ويُلاحَظ أننا نتكلَّم في الصلاة هنا بالجمع، لأن وقوفنا أمام الله لا يكون كأننا وحدنا، لأن المسيح جمعنا كأعضاء في جسده ووحَّدنا في نفسه لنخاطب الله باعتباره "أبانا".

والصلاة هنا مقدَّمة لله الآب بنوع الدالة الجديدة في المسيح الذي جعلنا أبناءً ولنا صفة خاصة عند الآب «وأمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو 1:12). لذلك فقولنا له يا أبانا يوحي لنا بأننا مسموعون لديه على مستوى الأولاد، ولكن لا يمكن أن يفارقنا الشعور أننا خليقة الله، نحن على الأرض وهو في السماء، فحينما نرفع أعيننا إلى فوق ونخاطبه: "أبانا الذي في السموات"، نشعر بوجوده الكلِّي في السماء وعلى الأرض، كما نشعر بالصلة التي تربطنا بالله وتجعل حياتنا منظورة وقلوبنا مرفوعة إليه.

«**ليتقدَّس اسمك**»:

ألوف ألوف وربوات ربوات الملائكة يقدِّسون اسم الله، فحينما أعطانا المسيح هذا الحق الإلهي أن نقدِّس اسم الله، فمعنى هذا أنه أعطى لنا حق الدخول في الخدمة مع الملائكة وكافة الروحانيين في السموات. وخدمة تقديس اسم الله والهتاف: "قدوس قدوس قدوس" هو أصلاً كان وقفاً على السمائيين وحدهم، ولكن لما نزل الابن القدوس إلى أرضنا واشترك في لحمنا وعظمنا أخذنا هذا الحق السمائي، ودخلت الأرض بلسان الإنسان المفدي في المسيح في خدمة مجد الله القدوس بالتسبيح المتواتر. فنحن في المسيح الابن المبارك القدوس اختارنا فيه الله وباركنا بكل بركة روحية في السماويات للقصد الواحد الوحيد المبارك أن ندخل في حق البنوَّة مع المسيح لله، لنقف أمامه بلا لوم في القداسة لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب يسوع (انظر: أف 1: 3-6).

فكون المسيح يعطينا الحق أن نقف أمام الله الآب "لنقدِّس اسمه" بالتسبيح المتواتر، فهذا معناه أنه قد حلَّت علينا كل بركة روحية في السماويات من أجل المسيح الذي احتوانا في جسده، ليكون لنا

الجراءة والقدوم إلى الآب به كل حين مسبِّحين مهلِّلين مادحين شاكرين ممجِّدين إلى أبد الآبدين. على أن كل فم استطاع أن يصيغ نفسه صياغة ليكون أداة تقديس لاسم الآب على الدوام وبلا انقطاع سواء بالصوت المسموع أو في القلب الملتهب بالمجد، هذا يكون قد تقدَّس وصار كآنية الهيكل لأنه يحمل الاسم على الدوام. فطوبى للفم الذي حمل الاسم القدوس بالتقديس الليل والنهار لأنه يكون قد صار عضواً في هيكل الرب.

«ليأتِ ملكوتك»:

كانت كرازة المسيح الأُولى هي المناداة بالملكوت، وحينما قال إن الملكوت قد اقترب فلأن الرب صار قريباً. فهو بالحقيقة الملك الآتي وهو الملكوت، فحينما علَّمنا أن ننادي الآب السماوي ونطلب أن يأتي ملكوته، فهو بهذا يكون قد أدخلنا في شركة استعلان مجيئه، لأن الذين يطلبون مجيء الملكوت من أعماق الروح وبكل القلب، يُسجَّلون أنهم أصحاب الحق في دخوله عند مجيئه. فمَنْ ذا الذي يسمع ذلك ولا يهتف من عمق أعماق القلب بالليل والنهار ولا يكف ولا يمل. وهذا عينه هو الذي أراده المسيح لنا ليكون لنا هذا النصيب المبارك أن نكون في لقياه عند مجيئه، ونكون من المدعوين والأصحاب.

«لتكن مشيئتك»:

إن أعظم دعاء دعا به بولس الرسول لأهل كولوسي: «لم نَزَلْ مصلِّين وطالبين لأجلكم أن تمتلئوا من معرفة مشيئته في كل حكمة وفهم روحي» (كو 1:9). فالذي يعرف مشيئة الله يعرف الله والله يعرفه، والذي يمتلئ من معرفة مشيئة الله يمتلئ من معرفة الله والله يملأه بمعرفته. هكذا كل مَنْ ينادي لتكن مشيئة الله فمشيئة الله حتماً تكون له، كموسى الذي توسَّل لدى الله يهوه العظيم: **«فالآن إن كنتُ قد وجدتُ نعمة في عينيك فعلِّمني طريقك حتى أعرفك لكي أجد نعمة في عينيك ... فقال: وجهي يسير فأريحك. فقال له: إن لم يَسرْ وجهك فلا تصعدنا من ههنا»** (خر 33: 13-15). والآن هكذا علمنا المسيح أن نتوسَّل بكل توسُّل أن تكون لنا مشيئة الله قائدة لنا ورائدة لطريقنا، تعلِّمنا طريق الله، حتى نعرف الآب. فهذه منتهى مسرَّة الله الذي حتماً يكون الرد علينا كما ردَّ على موسى بكل سخاء الأبوَّة: «وجهي يسير فأريحك» ! إذن، فطلبتنا التي ينبغي أن لا تزول من فمنا وقلبنا وروحنا الليل والنهار هي: «**لتكن مشيئتك**»، لأنها تعني تماماً «علِّمني طريقك حتى أعرفك» وتعطينا الوعد «وجهي يسير فأريحك» فمَنْ يصدِّق أن بهذا الدعاء الواحد: «**لتكن مشيئتك**» نفوز بحضرة الله السائرة أمامنا، تعرِّفنا الطريق وتعرِّفنا الله. فمَنْ ذا الذي

لا يعرف هذا ولا يصرخ من كل كيان روحه وقلبه أن: «**فلتكن مشيئتك**» فعرِّفني الطريق، وعرِّفني ذاتك: «**وإن لم يسر وجهك (أمامنا) فلا تصعدنا من ههنا**»!!

«كما في السماء كذلك على الأرض»:

لقد سمع إشعياء هذا وعاين وارتعبت نفسه فيه: «في سنة وفاة عُزِّيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسيٍّ عالٍ ومرتفعٍ وأذياله تملأُ الهيكل، السرافيم واقفون فوقه ... وهذا نادى ذاك وقال: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ ربُّ الجنود مجده ملءُ كل الأرض. فاهتزَّت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأَ البيت دخاناً. فقلتُ (إشعياء): ويلٌ لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكنٌ بين شعب نجس الشفتين، لأن عينيَّ قد رأتا الملك ربَّ الجنود.» (إش 6: 1-5)

هكذا صار إلى لحظة «كما في السماء كذلك على الأرض» فمَنْ يطيق؟ ولولا أن المسيح علَّمنا أن نطلب هذا، وهو ضمين سترنا من بهاء عظمة مجده، والحاجز عنَّا ضجَّة القوات السمائية التي صوتها يزعزع لا أساسات كل الأرض وحسب بل وسماء السموات، لما احتملنا ذلك. ولكن لولا أنها مشيئة الله الآب القدوس أن نطلب أن يكون لنا على الأرض كما هو في السموات، ما لقننا المسيح هذا الدعاء الذي ترتعب منه القوات في السموات العلا. لأنه يبدو أن فرحة الآب بنا والتنازل إلى أرضنا عنده أشد مسرَّة من ضجة الشاروبيم وهتاف الساروفيم. ألم يُرسل ابنه ليتجسَّس على حالنا ويعدَّ له مكاناً بيننا فأعطى اسم ابنه كالعربون: «ويُدعى اسمه عمانوئيل الذي تفسيره **الله معنا**»

وإن كان قد قيل عن الابن: «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سُرِرْتُ» (مز 40:8)، فماذا يكون لنا حينما نصنع هذه المشيئة يا تُرى؟!

وإن قال المسيح: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمِّم عمله» (يو 4:34)، فماذا تصير مشيئته في حياتنا يا تُرى؟!

«خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم»:

كلمة "**الغد**" واضحة باليونانية pioÚsion™، وترجمتها بالإنجليزية واضحة كذلك belonging to the morrow وتعني: «الذي للغد» 6)، وترجمها الآباء الكنسيون الكبار إلى "الخبز الجوهري". والذي يزكِّي أن الخبز الذي نطلبه هو الخبز الجوهري أو الروحي أو السمائي هو أن المسيح قد أعطى وصية أن: «لا تطلبوا أنتم ما تأكلون» (لو 12:29)، وأيضاً: «اعملوا

---

(6) هكذا جاءت في النسخة القبطية البحيرية: «خبزنا الذي للغد»، وفي القبطية الصعيدية: «خبزنا الآتي».

لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو 6:27). كذلك: «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء، لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ... أنا هو خبز الحياة مَنْ يُقبل إليَّ لا يجوع» (يو 6: 32و33و35). علماً بأن الخبز المادي يعطيه الله للخليقة كلها بدون سؤال: «لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها» (مت 6:32). والمدهش حقًّا أن المسيح نفسه، وفي تعليمه عن الصلاة وعن طبيعة الصلاة يقول: «فمَنْ منكم وهو أب يسأله ابنه **خبزاً** أفيعطيه حجراً؟ ... فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري الآب الذي من السماء **يعطي الروح القدس** للذين يسألونه (خبزاً)؟» (لو 11: 11-13). فمن غير المعقول بعد تأكيد المسيح المتكرِّر أن الخبز عنده هو الخبز السماوي والحقيقي ومعطي الحياة والروح القدس، أن نحوِّله نحن إلى الخبز البائد. وهذا هو الذي حدث في تجربة الشيطان للمسيح حينما قال له: إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً، فكان رد المسيح عليه وهو جائع حقًّا: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت 4:4). إذن، فكأننا نُدخل أنفسنا في تجربة إن طلبنا خبز الجسد!

إذن، فقد وضح المعنى أشد وضوح، فحاجتنا "**اليوم**" وكل يوم ليست إلى خبز حنطة يُخبز في التنور نأكله ونموت، ولكن الحاجة يا إخوة أشد الحاجة في شقاء يومنا وموتنا الذي نموته كل يوم هي إلى خبز حي نأكله ولا نموت!! نأكله في شقائنا هذا لنحيا حياة لا يقربها شقاء ولا موت!! خبزاً نأكله فتنفتح أعيننا على الحياة وتلتهب قلوبنا فينا بحضرة المسيح ونقوم نبشِّر بالقيامة والخلاص: «فلما اتكأ معهما (تلميذي عمواس) أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى... **فقاما** في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم... وهم يقولون: إن الرب قام بالحقيقة...» (لو 24:30-34).

ولكن أليس هذا عجباً أنه حتى خبز الحياة الأبدية، يعطينا المسيح الحق أن **نطلبه** ليقتحم يومنا وموتنا، ليحوِّل يومنا الزمني إلى يوم من أيام ابن الإنسان كيوم عمواس!! ما هذا؟ إن صلاة «أبانا الذي في السموات» قد سلَّمنا إياها المسيح كمفتاح سرِّي: نغيِّر بها واقعنا كله! حتى «خبز اليوم» إذ نأكله بحضرة المسيح نعيِّد للقيامة ونحيا الخلاص والملكوت!! وهكذا فوصية «خبز الغد» تعود بدورها وتصير هي هي «ليأتِ ملكوتك» بل وتعييداً مستمراً لمجيئه!! وهكذا كلُّ مَنْ يصلِّي «أبانا الذي...» ويدخل بروحه وقلبه وفكره إلى «خبز الغد» عليه أن يُحلِّق ويطير بالروح ويعبر يومه

وزمانه ليحطَّ على الخلود، ليذوق طعام الحق وترياق عدم الموت، ويعود ليبشِّر بالحياة وبسرِّ الخبز النازل من السماء!

«واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا»:

عقدة الإنسان المستعصية كيف يغفر ذنوب الآخرين تجاهه حيث تقف الذات والخصال وميراث الأحقاد، وسرعة الانفعال وعدم التفريط في الحقوق، والغضب، وحب الانتقام، وعدم الاحتمال، وادِّعاء التأديب. كلها تتجمَّع معاً لتجعل مغفرة أخطاء الآخرين أو تعدِّياهم أو مساسهم بحقوقنا أو استهتارهم بقيمنا أمراً أصعب مما يتصوَّره الإنسان.

فلو أدرك الإنسان أن نصف هذه العوامل المهيِّجة للنقمة وعدم غفران ذنب الآخرين هو ميراث حيواني وحشي، والنصف الآخر هو من دس الشيطان للقضاء على حياة الإنسان ومستقبله، إن لم يكن بالمرض وإتلاف الأعصاب فبالدينونة الأخيرة وغضب الله؛ فأي مكسب للإنسان من كتم حقده في قلبه حتى يمزِّقه؟ لذلك تأتي طلبة الصلاة متضمِّنة أن نغفر ذنوب الآخرين حتى يغفر الله لنا ذنوبنا كعملية إنقاذ من الموت والهلاك الأبدي.

هنا نرى أن الوضع انقلب بالنسبة لطلب: «**خبز الغد**» ليأتي «**اليوم**»، حيث الخلود يقتحم الزمن، أما هنا فالزمن هو الذي يقتحم الخلود!! مَنْ يصدِّق؟؟ فالفعل الذي نأتيه زمنياً بأن نكون قد غفرنا للمذنبين إلينا على واقع الساعة واليوم، نأخذها وثيقة موثَّقة ونطير بها بجُرأة كمَنْ عمل عملاً سماوياً، نخترق به حاجز الخلود لنتراءى أمام الله ونطلب بالمقابل فعلاً أبدياً، إذ نطلب غفران خطايانا من لَدُنْ الله!! الذي في معناه هو هو قوام الحياة الأبدية! فما هذا الأمر؟ أنشتري بالفعل الزمني فعلاً خالداً أبدياً؟ نعم. ثم ما سرُّ هذه المقايضة العجيبة البديعة المُغرية جداً؟

اسمع يا صديقي وَعِ! فالذي استطاع أن يغفر الخطايا ـ كل الخطايا ـ للآخرين كل الآخرين، الخطايا التي تخص ذاته وكرامته واسمه وشهرته ووظيفته وحَسَبه ونَسَبه وماله وعياله وممتلكاته وحياته، هو في حقيقته إنسان تحدَّى العالم وصُلب له! هو حقاً وبالحقيقة إنسان «ليس من هذا العالم» فإن كان قد صار ليس من هذا العالم، فقد بلغ قامة الصليب والمصلوب: «(هؤلاء) ليسوا من العالم، كما أني أنا لست من العالم» (يو 14:17). إذن، فكيف يحسب الله عليه خطية؟

واضح أن مَنْ استطاع أن يغفر للناس، كل الناس، خطاياهم من نحوه، فقد تعانق فعلاً مع صليب الموت والمصلوب الميت!! «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم، قدِّسهم في حقِّك» (يو 16:17و17)، لقد تعانق مع المصلوب وصار شريكاً له في قوله: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا

يعلمون ماذا يفعلون» (لو 34:23)، فكيف تُحسب عليه خطية؟

فانظر يا صديقي وانتبه، إن هذه الطلبة أو هذا الفعل العجيب، أي طلب مغفرة خطاياك، هو العمل الوحيد الذي يأتيه الإنسان من ذاته وينال به شركة سهلة في استحقاقات المصلوب، دون أي جهد أو اجتهاد، دون أن يعتمد على علو علم أو عمق معرفة، أو صوم أو صلاة، أو سهر أو مشقَّة، ولا يستغرق أزمنة ولا أياماً، كما لا يحتاج إلى معلِّم أو مرشد أو حكيم. هو عمل تأتيه في لحظة من لحظات يقظة النفس، وأنت رافع رأسك وقلبك وروحك ويديك نحو السماء، مُمسكاً بالإنجيل وقابضاً بالروح على زمام الروح، وهاتفاً باسم الله الحي أن تغفر كل الخطايا لكل الناس!

«**ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير**»:

هنا بدأ المسيح يلقِّنهم "**صرخة الاستغاثة**"، يفزعون بها إلى الله لحظة الخطر عند مجيء ساعة التجربة العتيدة أن تأتي على العالم لتبتلي كل ذي جسد. وهذه الصرخة تحمل سر النجاة، إن أحسن الإنسان لحظة نُطْقها، فهي صرخة فعَّالة **قبل** أن تقع التجربة!!

«لا تُدْخِلنا» فنحن ندرأ التجربة بصراخنا للقادر أن ينجِّي. ولكن إن توانينا، باغتنا العدو وأصاب منَّا مَقتلاً: «فاخضعوا لله، قاوموا إبليس فيهرب منكم، اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم» (يع 7:4و8). فنحن نقترب إلى الله حقاً وفعلاً بصراخنا إليه أمام التجربة، فإن اقتربنا إلى الله بصراخنا، ابتعد العدو مدحوراً وولَّى هارباً، هذه الكلمات صادقة ومملوءة حقاً!!!

والله لا يُدخلنا التجربة إلاَّ إذا تعالينا وتكبَّرنا وانتفخت ذواتنا ونسينا ضعفنا واستغنينا عن الله. بطرس الرسول وقف هذا الموقف: «إن شكَّ فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً» (مت 33:26)، «يا رب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت» (لو 33:22). هكذا انتفخ بطرس وكأنه سينقذ المسيح ويسنده في محنته ويشاركه في سجنه وآلامه. والآن ماذا يعمل المسيح أمام هذه المكابرة؟ لو تركه هكذا فسوف يأكله الشيطان، ولكن بطرس طيِّب وحلو، فماذا يعمل الرب؟ لقد عمل عملين: الأول أنه أدخله التجربة: «يا بطرس: لا يصيح الديك اليوم قبل أن تُنكر ثلاث مرَّات أنك تعرفني» (لو 34:22). والعمل الثاني سرِّي: «ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك.» (لو 32:22)

إذن، فقول الصلاة: «لا تدخلنا في تجربة» هي بعينها احفظنا من الاعتداد بالذات والكبرياء والتعالي على الله وعلى الناس. ومعروف أن الله لا يجرِّب أحداً ولكن الإنسان هو المسئول عن التجربة التي يدخل فيها، فهو الذي يجلبها على نفسه: «لا يقل أحد إذا جُرِّب إني أُجرَّب من قِبَل

الله، لأن الله غير مجرَّب بالشرور، وهو لا يجرِّب أحداً. ولكن كل واحد يُجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته.» (يع 1: 13و14)

- بمعنى أن الله لا يدخلنا التجربة إلاَّ إذا كنا سبباً لها.
- وهو حينما يدخلنا التجربة يتشفَّع المسيح فينا حتى لا يفنى إيماننا.
- وإذا دخلنا التجربة لا يمكن أن يسمح الله أن تفصلنا عنه.
- ومهما كانت خسائر التجربة فالرب يعوِّض عن كل خسارة. وحياة أيوب تشهد بهذا.
- والله أحياناً يسمح بأن يسوق الشيطان علينا بالتجربة لنتعلَّم الاتضاع.
- والمسيح نفسه قيل إنه تعلَّم الطاعة مما تألَّم به، ليس عن تجربة بل عن بذل.
- والله لَمَّا يُرسل علينا الآلام مهما كانت صعبة، فهي ليست تجربة؛ بل تمحيص لإيماننا وتزكية لصبرنا ورجائنا.
- والآلام بالنسبة للإنسان المسيحي هي نوع من طعامه اليومي لأنها مربحة لحياته: «... أننا موضوعون لهذا.» (1تس 3:3)
- القديس بولس صلَّى ثلاث مرَّات أن تُرفع عنه التجربة فكان رد الله: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكْمَل.» (2كو 9:12)

«لكن نجنا من الشرير»:

إن أنسب وقت للشيطان ليضرب الإنسان هو حينما يقع في تجربة، حيث تتضايق نفسه وتتمرَّر عيشته وينغلق فكره وصدره. فهنا الشك في رحمة الله، والتذمُّر على عدله، ورفض نصيبه، وفقدان البصر، وانعدام الرجاء. وهذه بالتالي تدخله في أخطر الحالات: اليأس من رحمة الله، والتسليم للشيطان؛ حيث الوقوع في المحظورات القاتلة من خمر ومخدَّرات ونجاسات، حتى يسقط في القاع وتلتف عليه شبكة الشيطان. هنا صراخ الإنسان ليرمي خطورة التجربة على رحمة الله لكي يتدخَّل وينجِّيه من تربُّص الشيطان وأفكاره ومشوراته السوداء. لأن التجربة من الخارج محكومة، ولكن إن دخلت في الداخل فهي أصعب من أن يضبطها الإنسان، إذ تحتاج إلى معونة سماوية. هنا التوسُّل يلزم أن يكون عن وعي وإصرار ورجاء بالاستجابة وانتظار سرعة التدخُّل من الله: «ادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجِّدني!!» (مز 15:50)

28 - الصلاة بلجاجة: قصة صديق نصف الليل

يعطي المسيح هنا قصة إنسان تحت الحاجة وشدة العوز التجأ إلى صديق في وقت غير مقبول في نصف الليل، الميعاد الحرج لمجيء العريس والناس نيام، وقرع بابه خَجِلاً وَجِلاً، وكانت الحاجة والعوز شديدين. وظلَّ يقرع ولكن الصديق المتأذِّي من هذا القرع والنداء استيقظ ليسمع من جاره أنه محتاج إلى ثلاثة أرغفة عيش. فبمنتهى الضيق اعتذر لأن استيقاظ أسرة بصغارها وأطفالها في نصف الليل شيء مزعج، فاعتذر أن يلبِّي طلب الصديق الملحاح، ولكن الصديق لم ينثنِ فالحاجة ملحَّة، وكرَّر السؤال يسنده العذر والرجاء. وأخيراً استجاب صاحب الدار وقام وأعطاه ما يريد. صورة جميلة للعوز الذي يسنده الرجاء، هذا هو الذي نخرج به من هذه القصة، كيف استطاع المحتاج أن يفوز بحاجته رغم صعوبة الطلب؟ هذا الوجه من الاستجابة تحت الإلحاح، والإلحاح الذي تحت شعور شديد بالعوز يفوز أخيراً. والرب أراد بهذه القصة المُرتَجَلَة أن يصوِّر نفسه أو يصوِّر الله بصاحب الخبز، والصديق الملحاح بالإنسان الذي استخدم هذا السلاح وهو اللجاجة. وطلب المسيح أن نأخذ منه هذا التصوير على أساس أنه تعهُّدٌ من قِبَلِه لاحترام لحاجة الإنسان في الصلاة، إنما إن كانت حقاً قائمة على عوز شديد. والقصة بجملتها تقف على أساس أن تكون اللجاجة في صلاتنا عن حاجة صادقة وعوز في القلب شديد.

«ثم قال لهم:

مَنْ منكم يكون له صديقٌ: ويمضي إليه نصف الليل ويقول له: يا صديق أقرضني ثلاثة أرغفة»:

الصيغة اليونانية هنا تجيء بمعنى: ''هل يمكن أن نتصوَّر هذا''، باعتبار أن الإلحاح لابد مستجاب، حيث يصوَّر الصديق أنه الله والمحتاج أنت، والطلب ثلاثة أرغفة. أمر شديد العلاقة بالحياة، فلا غنى عن الخبز للجائع. هكذا أراد المسيح أن يصوِّر لنا على أي مستوى تكون الصلاة التي نقدِّمها لله. وبأي إحساس نتقدَّم بها بإلحاح، فالقصة تعطي إحساساً أن المحتاج أرغمته الحاجة أن يخرج ويلتجىء إلى صديقه في وقت حرج وغير مناسب، ثم الإلحاح بعد الرفض. أرجو من القارئ العزيز أن يرفع إحساسه ليتوافق مع القصة. فالمطلوب أن تكون الصلاة على مستوى صادق من الإحساس بالعوز الشديد، لأن من هذا المستوى تدخل الصلاة إلى قلب الله. حتى ولو كانت صلاة شكر أو تسبيح يلزم أن تكون بإحساس مَنْ يتوسَّل ليُقبَل شكره أو يُقبَل تسبيحه. فالله في ذاته غير محتاج لا لشكر ولا لتسبيح، ولكن أنت المحتاج أن يدخل شكرك إلى قلب الله وأن يصغى إلى تسبيحك ويرضى به.

وعلى القارئ أن يلاحظ أن الصفة التي أعطاها المسيح لله ولنفسه هي "**صديق**"، بمعنى أن صلاتك التي تقدِّمها له شعوراً منك بالعوز يتحتَّم أن تكون على أساس أنك تطلب **مصلِّياً إلى صديق**، بمعنى أن يكون لك دالة حقيقية معه. وهكذا أعطى المسيح شكلاً للصلاة المقدَّمة إلى الله وإليه بأن تكون بإحساس الحاجة والعوز وبدالة مع الله والمسيح كصديق حقيقي وبلجاجة لا تفتر.

«**لأن صديقاً لي جاءني من سفر، وليس لي ما أُقدِّم له**»:

يصوِّر المسيح هنا الحرج الشديد الذي يقع فيه الإنسان ويحاول إدخال الإحساس به إلى قلوبنا، حيث من هنا تبدأ الصلاة. وهذا الحرج هو: كيف يتقدَّم الإنسان إلى الله وهو تحت الشعور الشديد بالحاجة إلى ما يصلِّي لأجله، حتى ولو كان لراحة الآخرين؟ ويضع المسيح هنا هذا الميعاد المتأخِّر من الليل ليزيد الحرج إلى أشد مستوى لتخرج الصلاة من قلب منفعل بالحاجة والحرج معاً؛ بل والعدم، إذ ليس له ما يقدِّمه. كل ذلك ليكسر حالة الجمود والبرودة وعدم المبالاة في الصلاة والروتين الذي ينهي على الروح الجديَّة في الصلاة. المسيح هنا يحاول إيقاظ الإنسان المتكاسل في الصلاة والمتواني وغير المكترث ليضعه في حالة الصلاة التي يطلبها الله.

«**فيجيب ذلك من داخل ويقول: لا تزعجني!**
الباب مغلق الآن، وأولادي معي في الفراش. لا أقدر أن أقوم وأعطيك»:

يحاول المسيح أن يصعِّب الاستجابة ويجعلها قرب المستحيل، ليرفع من لجاجة المصلِّي ويزيد من التوسُّل، لأن الصعوبات التي وضعها هنا المسيح لا تنطبق على الله والمسيح، ولكن أراد المسيح أن يصوِّر صعوبة استجابة الصلاة من أول مرَّة عند الله. فهو يهملها ويهملها مرَّات ومرَّات حتى ترتفع حرارة اللجاجة والرجاء إلى المستوى الذي يساوي استجابة الصلاة. ليس هذا قسوة من الله ولا هو يرجع إلى عدم استحقاق المصلِّي للاستجابة، ولكن لكي يدخل الإنسان عملياً في سر استجابة الصلاة ويتدرَّب على معرفة كيف يسمع الله الصلاة وكيف يستجيب؟ وهذا بحد ذاته أعظم أسرار العلاقة التي تربطنا بالله عبر المسيح. فكل درجة نرتفع إليها في اللجاجة يقابلها درجة في الصعود على سُلَّم السر الإلهي في الصلاة. وحينما تسمع بأن هناك رجال صلاة مرموقين ولهم قوة ودالة، فاعلم أن هؤلاء تدرَّجوا طويلاً على سر سلم الصلاة: رفض ولجاجة ولجاجة ورفض إلى أن ينفتح الباب. لأن الباب مغلق حقًّا ولا ينفتح إلاَّ بعلامة السر. وعلامة السر هي اللجاجة بلا حدود إلى أن تبلغ حدودها، وحينئذ يكون سر الصلاة قد صار مِلْكَ قلبك: «يا سامع الصلاة إليك يأتي كل بشر.» (مز 2:65)

«أقول لكم: وإن كان لا يقوم ويعطيه لكونه صديقه،
فإنه من أجل لجاجته يقوم ويعطيه قدر ما يحتاجُ»:

هنا يكشف المسيح عن سر خاص يقوله ببساطة، ولكنه من أعجب أسرار الله والمسيح، وهو أن الله له حدود في معاملاته مع أحبائه وأصدقائه بالروح؛ ولكن أُعطي للإنسان، والإنسان فقط دون كافة الخلائق العليا، أن يجعل الله يتخطَّى حدود ''الصداقة'' عندما تنفتح أحشاؤه بالحنان والرحمة ويعطي للإنسان ما هو ليس من حقه. وكان أكثر الأنبياء استغلالاً لمحبة الله وصداقته هو **"موسى"**، وقد استخدم موسى اللجاجة مع الله وربح في كل مواقعها، الذي بسبب لجاجته تراجع الله عدّة مرَّات عن أن يفني الشعب الغليظ الرقبة في البرية:

+ «فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فأُصَيِّرك شعباً عظيماً. فتضرَّع موسى أمام الرب ... فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه.» (خر 32: 10-14)

29 ـ ثلاث طاقات في السماء مفتوحة

«وأنا أقول لكم: اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم.
لأن كل مَنْ يسأل يأخذ، ومَنْ يطلب يجد، ومَنْ يقرع يُفتح له»:

عاد الرب هنا ليعطي صورة حقيقية عن موقفه حيال المصلِّي ليزيد الإنسان ثقة بالله سامع الصلاة. ولكن الأمر متعلِّق بالإنسان، فهو الذي يحدِّد الاستجابة بنوع الصلاة التي يصلِّيها، فكلُّ درجة حرارة في الصلاة لها ردّها عند الله.

وعلى من يتقدَّم إلى الله بالصلاة بإحدى هذه الدرجات الثلاث: السؤال، والطلبة، وقرع الباب، إن كان يريد حقّاً أن يفوز بالاستجابة، أن يثق في إيجابية الله ووعوده ثقة كاملة. ولكي يصل إلى هذه الثقة الكاملة عليه أن يثبت ذلك بأن يتصوَّر نفسه وقد نال ما يريده ويرسِّخ هذا التصوُّر لعدة أيام وهو يسأل ويطلب ويقرع الباب. أي يعيش حالة استجابة لصلاته بالفعل شاكراً مهلِّلاً معترفاً بفضل الله عليه. بهذا الوضع يكون الإنسان قد بلغ مستوى عطية الله بالفعل فيأخذها، لأنه يكون في نظر الله قد استحقها بلجاجته الواقعية والعملية على أساس إيمانه الواثق بصدق وعود الله. فالإنسان لا يتوهَّم أنه أخذ سؤاله: بل هو تحقيق على مستوى الإيمان!! وهذا استناداً على وعد المسيح لقائد المائة: «ثم قال يسوع لقائد المائة اذهب، وكما آمنت ليكن لك» (مت 8:13). إنه قانون الاستجابة عند المسيح: «**اذهب، وكما آمنت ليكن لك**». قليل جداً مَنْ انتبه إلى هذا القانون، فقائد المائة آمن في قلبه فعلاً أن المسيح سيشفي أو قد شفى غلامه ثقة منه بالمسيح، فكان

إيمانه ـ فعلاً ـ فعَّالاً تقدَّم به إلى المسيح فقُبِلَ في الحال. إذن، مرَّة أخرى: **علينا أن نؤمن أننا أخذنا قبل أن نأخذ وبهذا نأخذ**، أي أن مستوى إيماننا باستجابة الصلاة هو الذي يتحكَّم في الاستجابة، لأن هذا معناه أننا نوقِّع صدق الله على إيماننا فيفوز الإيمان في الحال لأنه مدعَّم بصدق الله. وهذا الوضع يُحسب اختراق مجال الله بالإيمان والصلاة لنوال سؤالنا وطلبتنا، وكلمة السر هي تصديق وعود الله!! «**كما آمنت ليكن لك**»، حيث يكون أول مهنِّئ للإنسان بنوال طلبته قبل أن يأخذها هو الروح القدس، إذ يُسِرُّ إلى القلب "هنيئاً قد أخذت"! ومنها يبدأ الإنسان فرحه وتهليله وتمجيد الله، كل ذلك قبل أن يأخذ!! وهذا حق وجيد أن تكون ثقتنا في الله أكبر من الطلب الذي نطلبه.

ثم الآية الأكثر وضوحاً: «لذلك أقول لكم **كل ما تطلبونه حينما تصلُّون فآمنوا أن تنالوه**(7)، **فيكون لكم**» (مر 11:24). وهنا وضع المسيح الاستجابة في أمر **المستحيل** ليوضِّح معنى قوة الإيمان السابق على العمل: «لأني الحق أقول لكم: إن مَنْ قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له.» (مر 11:23)

أ ـ «اسألوا تُعْطَوْا»:

الفعل "تُعْطَوْا" مبني للمجهول، والفاعل واضح أنه هو الله الذي يعطي: «الحق الحق أقول لكم: إن كل ما طلبتم من الآب باسمي **يعطيكم**. إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً» (يو 16: 23و24). وهي قد تأتي بمعنى أنه يجب أن تسألوا حتى تأخذوا، وعكسها صحيح أنه إن لم تُصَلُّوا فلن تأخذوا شيئاً، أو لن تأخذوا شيئاً حتى تُصَلُّوا من أجله. ومعنى الكلام هنا أن الله بواسطة تدخُّل ذبيحة ابنه مستعد للرد على كل سؤال "**باسم المسيح**". فالمسيح يضع هنا نفسه ودمه ضامناً لاستجابة صلواتنا عند الآب أبيه. لذلك يكون المعنى: إذا صلَّيتم فينبغي أن تتأكَّدوا أنكم ستأخذون ما تطلبون.

ب – «اُطلبوا تجدوا»:

فعل "اطلبوا" هنا يأتي دائماً في طلب وجه الله: «قلت اطلبوا وجهي، وجهك يا رب أطلب» (مز 27:8). وطلب وجه الله يعني الصلاة مباشرة، لأن طلب وجه الله يعني حضرته أو حضوره: «وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة فطلب داود وجه الرب فقال الرب: هو لأجل شاول ... »(2صم 21:1). ولكن في العهد الجديد تعني طلب الله مباشرة: «لكي يطلبوا الله لعلَّهم يتلمَّسونه ـ (يلمسونه عن قرب) ـ فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً » (أع 17:27). «اجتهدوا أن

---

(7) وقد جاءت في أقدم المخطوطات: «آمنوا أنكم قد نلتموه فيكون لكم».

تدخلوا من الباب الضَّيِّق. فإني أقول لكم: إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون.» (لو 24:13)

والمعنى ينحصر في الحركة، يطلبون وجه الرب أو يطلبون وجهه، ومَنْ يطلبه حتماً **يجده**. فهنا يُعْتَبر هذا المقطع من الآية: «اطلبوا تجدوا» لا يعني الصلاة من أجل شيء أو طلب شيء، ولكن طلب الله ووجه الله كحالة صلاة قائمة بذاتها: «اطلبوا الرب ما دام يوجد ادعوه وهو قريب» (إش 6:55)، «وُجدتُ من الذين لم يطلبوني، وصرت ظاهراً للذين لم يسألوا عني» (رو 20:10)، ويقصد هنا الأُمَم الذين لم يطلبوه ولكنه وُجد لهم. فهنا الصلاة هي دعاء لوجود الله أو الوجود في حضرته. وآخر الآية توضِّح أن الله يُظهر نفسه ويُوجَد للأُمم. والمعنى هنا أن الله منتظر مَنْ يطلبه حتى يوجد له: «إن طلبتموه يوجد لكم وإن تركتموه يترككم» (2أي 2:15). وهنا وعد عظيم ليس هيِّناً أبداً، أن الله واقف منتظر مَنْ يطلبه ومَنْ يسعى إليه إمَّا بالمخافة أو التوبة أو مجرَّد الرجاء: «**ثم إن طلبت من هناك الرب إلهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك**» (تث 29:4)، «وتطلبونني **فتجدونني، إذ تطلبونني بكل قلبكم**.» (إر 13:29)

ح – «اقرعوا يُفتح لكم»:

القرع هنا كناية عن الصراخ. هنا الصلاة دخلت في مرحلتها الأخيرة والعالية حيث يقف الإنسان على باب الله: «أنا هو الباب» (يو 9:10)، وكأن بصلاته يقرع الباب (بمعنى يرفع صوته) ويقرع باب تحنُّنات الله ومراحمه، وهي تعطي صورة شحاذ يشحذ وقف على الباب وظل يقرع وهو يطلب شيئاً ويجتهد في طلبه، ويتوسَّل معتمداً على مراحم الله التي لا تُحَدُّ. وقول الرب: «اقرعوا يُفتح لكم» تكشف أن الله داخل الباب منتظر مَنْ يقرع أو هو على استعداد أن يفتح إن كنَّا نقرع بلجاجة: «ومَنْ يُقبل إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يو 37:6). وحتى لا يشعر الإنسان بصغر النفس حينما يقول المسيح إن مَنْ يقرع يُفتح له، قال بالمقابل: «هأنذا واقف على الباب وأقرع (هنا كلمة "أقرع" تأتي بمعنى أُثابر)، إنْ سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل ...» (رؤ 20:3). فالقرع على الباب يصف أشد حالات السؤال بمثابرة وعناد. فإن كان المسيح يقرع بابنا ويطلبنا أفكثير علينا أن نقرع نحن بابه ونطلب وجهه؟

30 - المسيح يغفر الخطايا الكثيرة مقابل المحبة الكثيرة

في البداية جداً وضع المسيح لنا أساس مغفرة الخطايا عند الآب بأنها تقوم على المحبة الخالصة من الله للعالم، ليس لأي سبب في العالم بل لسبب جوهري في قلب الله جعله يضحِّي بابنه في سبيل غفران خطايا العالم: «**هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك (خاطئ) كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.**» (يو 3:16)

فلمَّا نزل المسيح بالفعل وتجسَّد وحمل لنا هذه الهدية العظمى «محبة الله الآب» كانت هي السبب والدافع الوحيد والعظيم الذي جعله يكرز بالملكوت ويُعلِّم ويصنع الآيات والمعجزات ليكشف عن محبة الله من نحونا، بل وكانت هي المحرِّك الأساسي والوحيد لكي يقدِّم نفسه على الصليب ويموت ليكمِّل مشيئة محبة الله من نحو الخطاة، لكي تُغفر لهم خطاياهم بمحرقة جسده العظمى التي قدَّمها على الصليب من أجل خطاة العالم. هذا جيد جداً، ولكن هل من مَثَلٍ يوضِّح لنا عِظَم هذه المحبة؟ فكانت هذه القصة:

والقصة كانت مع: «امرأة خاطئة في المدينة» وامرأة خاطئة في المدينة يعني أنها أشهر من نار على علم كما يقولون. يحوم حولها الذئاب والكلاب ويتصارع عليها الشيوخ والفتيان. سيرتها مفضوحة في كل مكان ومعروفة بالوجه لدى كل إنسان! وحدث أن رجلاً فرِّيسيًّا صنع وليمة للمسيح، والفرِّيسي وهو عظيم في نفسه قابل المسيح على الباب بتحيَّة مقتضبة ليس فيها إحساس المحبة ولا الصداقة، فلا حرارة ولا قبلة ـ لئلاَّ يُنتقد من بقية الفرِّيسيين ـ ولمَّا دخل لم يعمل له أصول الضيافة عند الشرق من غسل الرجلين بالماء الدافئ، وتقديم بعض الزيت المعطَّر لدهن الرأس، كل هذا ألغاه من حساب الدعوة، ورأى أنه يكفي أن فرِّيسياً مثله يتواضع ويقبل إنساناً مكروهاً من الرؤساء في بيته مثل المسيح!! هكذا ارتأى في نفسه. وبعد أن امتلأ البيت تسلَّلت المرأة إياها وهي تحاول أن تخفي وجهها وتمسك في يدها قارورة طيب غالي الثمن لتعبِّر عن محبة ورهبة مكتومة لذلك السيد المعلِّم، الذي سمعت عنه أنه يقبل الخطاة والخاطئات وما ردَّ خاطئاً خائباً أو خاطئة بلا غفران، بل وصار معلوماً في إسرائيل كلها أنه يأكل مع العشَّارين والخطاة!! وكان يغفر ذنوبهم بكلمة فتُرفع عن كاهلهم للحال، ويستمدون منه حياة جديدة بريئة طاهرة بلا لوم. هكذا كانت كل هواجسها أن تدهن رجليه بالطيب، وكان حلمها الفريد الذي داعب قلبها لكي تطرح عنها حياة الخطية والإثم إلى الأبد.

كان المسيح جالساً متَّكئاً على شلتة وثيرة، ورجلاه مثنيتين وراء ظهره كعادة القوم في الاتِّكاء على الأرض. تسلَّلت المرأة بهدوء وبسرعة غير ملحوظة، ودون أن يلحظها أحد وقفت من ورائه باكية تسحّ دموعها سحًّا بلا صوت ولا ضوضاء، وانكفأت على رجليه تبلِّلهما بالدموع وتدهنهما بالطيب وتمسح دموعها بشعرها، ومعروف أن شعر المرأة هو لها كرامتها، ولكنها ألقت بكرامتها على قدميه.

أمَّا الفرِّيسي فما حطَّت عيناه عن متابعتها بكل غيظ وكان ينظر إلى هذا المنظر بعدم الرضا ودان في قلبه المسيح، إذ كيف يدَّعي هذا أنه نبي ولم يعرف أن هذه المرأة خاطئة نجسة، وبالأكثر فالغضب ملأ حلقه إذ كيف تتجرأ وتدخل بيته لتنجِّسه!

علم المسيح بقلبه كل ما كان يجول في فكر الفرِّيسي، وابتدره بقصة صغيرة استدرجه فيها حتى يدفعه إلى استحسان عمل هذه المرأة رغماً عن أنفه. وكان اسم الفرِّيسي سمعان، فقال له: «يا سمعان عندي شيء أقوله لك. فقال: قُلْ يا معلِّم. كان لِمُدَاينٍ مديونان. على الواحد خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً. فَقُل: أيُّهما يكون أكثر حبًّا له؟ فأجاب سمعان وقال: أظن الذي سامحه بالأكثر. فقال له: بالصواب حكمت» وهكذا أخرج من فمه مديح المحبة التي في قلب المرأة تجاه المسيح دون أن يشاء. وابتدأ المسيح يوبِّخ سمعان هذا الذي دان المسيح ولم يدرِ أنه الديَّان، وفي توبيخ المسيح إشارة ذكية أنه هو هو ديَّان المسكونة بالعدل: «ثم التفت المسيح للمرأة وقال لسمعان: أتنظر هذه المرأة؟ إني دخلت بيتك، وماءً لأجل رجليَّ لم تُعطِ. وأمَّا هي فقد غسلت رجليَّ بالدموعِ ومسحتهما بشعر رأسها. قُبلةً لم تقبِّلني، وأمَّا هي فمنذ دخلتُ بيتك لم تَكُفَّ عن تقبيل رجليَّ. بزيت لم تدهن رأسي، وأمَّا هي فقد دهنت بالطيب رجليَّ. من أجل ذلك أقول لك: (إنه) قد غُفرت (لها) **خطاياها الكثيرة** لأنها **أحبت كثيراً**. والذي يُغفر له قليلٌ يحبُّ قليلاً. ثم قال لها: مغفورة لكِ خطاياكِ. فابتدأ المتَّكئون معه يقولون في أنفسهم: مَنْ هذا الذي يغفر خطايا أيضاً؟ فقال للمرأة: إيمَانُكِ قد خَلَّصكِ! اذهبي بسلام.» (لو 7: 36-50)

لقد لمح المسيح الإيمان والحب ومذلَّة النفس وانسحاقها من وسط الدموع والقلب المكسور النادم! لقد قدَّمت المرأة حبها الكثير بصمت واتضاع!

هذه عيِّنة من سخاء ربنا يسوع المسيح في مغفرة الخطايا، دون محاسبة ودون مراجعة، دون تبكيت، ودون شروط، دون مطالب وتنفيذ وصايا؛ بل مجَّاناً، وبلا جهد. وهكذا محبة كثيرة استطاعت أن توازن خطايا كثيرة وثقيلة. وكان أمامنا الفرِّيسي الذي حجز خطاياها دون مغفرة بل وبدينونة وفضيحة وازدراء، حيث المحبة الكثيرة كانت أمامه وفي عرفه محتقرة ومحسوبة ضمن

الخطايا، هذا هو الناموس بكل بشاعته، وهذا هو المسيح بكل وداعته.

الفرِّيسي لم يغفر لها، فلم يُغفر له ولن يُغفر أيضاً. لأن بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم ويُزاد.

أمَّا المسيح فقيَّم إيمانها الخفي الصامت: «**إيمانك خلَّصكِ**»، وأعلن على الملأ، **محبتها الكثيرة**، وكأنها هي التي اجتذبت لها الغفران بإيمانها وحبها الكثير.

31 - المواقف التي وقفها المسيح بسبب عطفه على الخطاة وانتقاد الفرِّيسيين له

1 – موقف المسيح من الفرِّيسيين الذين راجعوا تلاميذه: «**لماذا يأكل معلِّمكم مع العشَّارين والخطاة**» (مت 9:11)؟ في وليمة متى العشَّار كان النقد عن حقد ومقاومة، لذلك كانت هذه من أشد المواقف التي دافع فيها المسيح عن منهج تعليمه واستعلن شخصيته من التوراة: «فاذهبوا وتعلَّموا ما هو. إني أريد رحمة لا ذبيحة» (مت 9:13). وهو نص من هوشع النبي: «لذلك أقرضتهم بالأنبياء أقتلهم بأقوال فمي والقضاء عليكَ كنورٍ قد خرج. إني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقاتٍ» (هو 6: 5و6)، إنه جحد لتديّن الفرِّيسيين الظاهري.

ثم عاد يؤنِّبهم: «لأني لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مت 9:13)، فهي رسالته الوحيدة، والخطاة هم عمله.

2 – الأمثلة التي قالها مقابل انتقاد الكتبة والفرِّيسيين على احتضان المسيح للعشَّارين والخطاة:

(أ) مَثَل الخروف الضال ومَثَل الدرهم المفقود:

«**وكان جميع العشَّارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه، فتذمَّر الفرِّيسيون والكتبة قائلين: هذا يقبل خطاة ويأكل معهم**» (لو 15: 1و2). ولكن النقد هنا يأتي عن جهالة وليس عن قصد المقاومة. لذلك نجد المسيح يرد عليهم بإعطاء مَثَل الخروف الضال ويشرح لهم ـ بمحبة دون تأنيب ـ كيف أن صاحب الخروف الضال إذا وجده يفرح به ويحمله على منكبيه، ثم يخرج من المَثَل المادي إلى الوضع الروحي العالي: «أقول لكم: إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة» (لو 15:7)، ثم كرَّر ذلك في مَثَل الدرهم المفقود. ويقصد من هذين المثلين أن يمس مشاعر الفرِّيسيين والكتبة حتى يدركوا مقدار محبته واهتمامه بالخطاة والعشَّارين.

(ب) مَثَل الابن الضال:

وكان القصد منه شرح موقف المسيح من الخاطئ باعتباره ابناً له ضلَّ الطريق. وكشف موقف الفرِّيسيين عندما وازنهم بسلوك الابن الأكبر، والأب واحد للاثنين. وكان الأب لمَّا عاد الابن الأصغر من ضلاله الطويل محيَّراً بين فرحه من أجل عودة الابن الأصغر الذي كان ضالاً فوُجِدَ، وبين غضب الابن الأكبر ومكابرته على أبيه: «فغضب و لم يُرِدْ أن يدخل» (لو 28:15)، لأنه استكثر على الأب أن يفرح بابنه الأصغر العائد من الضلالة واستكثر عليه أن يذبح له العجل المسمَّن. وبالنهاية أعطى المسيح السبب القوي: لماذا يفرح بخاطئ واحد يتوب؟ ولماذا يحتضنه كخروف ضلَّ من القطيع؟ إذ يقول: «**كان ينبغي أن نفرح ونُسرَّ لأن أخاك (الخاطئ) هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجِدَ**» (لو 32:15). هنا المسيح استكثر على الكتبة والفرِّيسيين أن يغضبوا لأن المسيح يحب الخطاة والعشَّارين ويأكل معهم، بل كان يحق له أن يُزيد ـ بحسب مضمون القصة ـ أن لا يأكل معهم فحسب، بل يصنع لهم وليمة خاصة ويطعمهم بيديه طالما أنهم جاءوا إليه يطلبون العودة إلى الله والإيمان به. كما اعتبر الخاطئ المنبوذ من المجتمع أنه ميت وموته خطيتنا نحن، وحياته نحن مسئولون عنها وعودته عيد ووليمة.

وكان همّ المسيح الأكبر في قصة الابن الضال أن يوضِّح بحسب التصوير البشري الذي قدَّمه للأب وابنيه الأصغر والأكبر، مدى محبة الآب السماوي بأشد الخطاة حينما يعود إليه تائباً، وفي هذه العاطفة الصادقة القوية التي صوَّرها المسيح للآب السماوي بالنسبة للخطاة تكمن مغفرة الخطايا بل نسيانها دون أدنى توبيخ أو ملامة، وهذا هو الذي كان يستمد منه المسيح عمله وشعوره وعاطفته التي أهَّلته أن يقوم بدور الكفَّارة العظمى وتكميل خلاص الخطاة، كوسيط أعظم بين الآب السماوي والبشرية الملوَّثة بخطاياها. فالمسيح وهو جالس وسط العشَّارين والخطاة يلاطفهم ويجاملهم ويعزِّيهم ويشجِّعهم، كان في حقيقته ينوب عن الآب السماوي نفسه، بل ولهذا أرسل الآب ابنه متجسِّداً ليستطيع أن يعمل عمل الآب ظاهراً وبمشاعر بشرية محسوسة يحسّها الخطاة فيمجِّدون الآب!

32 - الفرِّيسي والعشَّار يصلِّيان

أقوى وأوضح ما قدَّم المسيح لعمل المفارقة بين شعور الفرِّيسي عند نفسه وما يقابله من شعور الآب السماوي نحوه، وفي نفس الوقت شعور العشَّار الخاطئ عند نفسه وما يقابله من شعور الآب السماوي من نحوه أيضاً.

إذ لَّما قام الفرِّيسي ليصلِّي قال: «**اللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس** الخاطفين الظالمين الزناة، ولا مثل هذا العشَّار. أصوم مرَّتين في الأسبوع وأعشِّر كل ما أقتنيه.» (لو 18: 11و12)

وقام أيضاً العشَّار ليصلِّي: «**وأمَّا العشَّار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء، بل قرع صدره قائلاً: اللهم ارحمني أنا الخاطئ**»(8).

وهنا المسيح يعطينا ماذا قال الله عن كل منهما: «**أقول لكم: إن هذا نزل إلى بيته مبرَّراً دون ذاك**». ويعلِّق المسيح على ذلك: «**لأن كل مَنْ يرفع نفسه يتضع ومَنْ يضع نفسه يرتفع.**» (لو 18:14)

فإذا وازناها بما هو حاصل الآن لدينا نحن المسيحيين تكون المقارنة بلا مبالغة بين إنسان مسيحي يشعر ببره الشخصي ورتبته العالية من الناس أو من واقع أعماله الخيرية وعطاياه فيتصدَّر الكنيسة في اجتماعاتها، وشحاذ أو زبَّال متواضع منسحق لا يكاد يرفع رأسه ويجلس في آخر الصفوف في الكنيسة لا يرفع حسه. فهذا هو الذي يبرَّر في السماء دون ذاك.

وهكذا فالبر الذاتي والاعتماد على الدرجات والوظائف أو الأعمال قادر أن يحرم الإنسان من الخلاص المجاني الذي ورثه مجَّاناً، بل ويؤدِّي به إلى الهلاك. فالتمسُّك بالتواضع وانسحاق النفس قادر أن يرفع الإنسان عند الله ويوقفه أمام الله مبرَّراً: «طوبى للمساكين بالروح»

واضح من هذا المثل قيمة الخاطئ عند الله عندما يذهب إليه مطاطئ الرأس!

فالمسيح كان يبحث عن هؤلاء **ليقدِّمهم لله أبيه: فهو محب للعشَّارين والخطاة لحساب الآب!**

---

(8) على القارئ أن ينتبه أن لسان حال العشَّار هو إنسان يهودي يشعر بمخالفته للناموس. ولا يصح أن يكون هذا لسان حال إنسان العهد الجديد – مهما كان – أمام المسيح، لأن المسيح دفع من دمه ديون جميع الخطايا لجميع خطاة الأرض، قديمها وجديدها. فإصرار الإنسان المسيحي (الذي فداه المسيح واعتمد) على أنه خاطئ يقرع صدره ويعفِّر وجهه بالتراب بعد ما قدَّم المسيح جسده ذبيحة خطية عنه بالذات؛ فهذا يعتبر إنكاراً للصليب، وتجديفاً على الكفَّارة، وافتراءً على محبة الله، ويُحسب عدم إيمان وازدراء بالدم؛ بل وحتى مجرَّد الشعور بالخطية في الضمير، بعد الاعتراف بها وبعد أن مسحها المسيح بدمه، يحسب إنكاراً لعمل الدم. لذلك من الخطر جداً أن يؤخذ مَثَل العشَّار والفرِّيسي كمَثَلٍ تعليميٍّ في المسيحية دون الإشارة إلى مغفرة الخطايا بدم المسيح مجَّاناً. أمَّا كل ما يطلبه المسيح من الإنسان المسيحي، فهو الدوام على الصلاة باتضاعٍ ودون تعالٍ أو كبرياء على الناس أو على الله.

الفصل السابع
رحلة المسيح الثانية إلى أُورشليم

كان المسيح قد أمضى الشتاء في الجليل، ويقول ق. يوحنا في (1:5) أن عيداً لليهود قد أتى ميعاده، وبحسب رواية ق. يوحنا في الأصحاح السادس (4:6) الذي يقول إن عيد الفصح كان قريباً، يُستدل على هذا أنه عيد البيوريم الذي هو عيد أستير الذي يسبق عيد الفصح بعدة أسابيع. ولكن بعض العلماء ومنهم يهود يقولون إنه عيد الفصح.

33 - شفاء مريض بركة بيت حسدا

ولكن الذي دعا ق. يوحنا أن يذكر هذه الرحلة هو الحدث الرئيسي الذي صادفه المسيح في أُورشليم، من جراء شفاء مريض له 38 سنة مُلْقى بجوار بركة بيت حسدا، بالقرب من باب الضأن؛ إذ كان ذلك يوم سبت فجرت مشادة ليست بقليلة مع اليهود انتهت بمحاولة قتل المسيح. والقصة ذاهّا مثيرة.

فهذه البركة كان يجتمع حولها المرضى بسبب حوادث شفاء كثيرة كانت تحدث في مواسم خاصة عندما يحدث تحريك الماء، الذي كان يُظن أنه بواسطة ملاك، فعند تحريك الماء فإن أول مريض ينزل البركة كان يُشفى. وكان ملاصقاً للبركة فسحة ذات أعمدة مسقوفة كان يجلس تحتها المرضى، سُميت هذه الفسحة أو الصالة موضع الرحمة وبالعبرية: "بيت حسدا". هناك في يوم سبت كان المسيح يتجوَّل فيها فوجد مريضاً مُلقى هناك منذ 38 سنة، ويبدو أنه كان لا يقوى على النزول إلى البركة بمفرده. وكانت رجله مشلولة يعرج عليها بصعوبة و لم يجد مَنْ يساعده على نزول البركة كأول، فاستوطن بجوارها هذه السنين التي تقارب عمر إنسان بأكمله. وأخيراً جاءه اليوم السعيد الذي ارتقبه بصبر يضاهي صبر أيوب، إذ وجده المسيح وعَلِمَ أنه له هذا الزمان، فتحنَّن عليه وبدأ يداعبه: «أتريد أن تبرأ» فأخذ يشكو له عجزه، وأخيراً قالها المسيح: «قم احمل سريرك وامش» فحالاً برئ الإنسان وحمل سريره ومشي، وكان ذلك يوم سبت (يو 5: 1-9). ولكن ليس مجَّاناً كان يشفي المسيح الناس في تلك الأيام، إذ كان يستوجب عليه أن يُساءَل بعنف ويُقاوَم بمرارة وبتهديد القتل. وكأن الرحمة أصبحت في إسرائيل ثمنها الموت.

فلمَّا سأل اليهود الذي شُفي: كيف تحمل سريرك يوم السبت؟ أجابهم إن الذي أبرأه قال له ذلك. فلمَّا استفسروا: عمَّنْ أبرأه؟ لم يعرف، لأنه تقبَّل الشفاء امتناناً دون أن يتعرَّف على هذا الذي شفاه. وأخيراً وجده المسيح في الهيكل فعرفه، أمَّا المسيح فنبَّه عليه أن لا يعود يخطئ لئلاَّ يكون له أشر، إذ يبدو أنه كان قد مرض نتيجة خطاياه، والمسيح أنقذه ليردّه إلى الحياة الأبدية. فذهب هذا المريض لَّما عرف أن المسيح هو الذي شفاه وأخبر عنه. لذلك كان اليهود يطلبون يسوع ليقتلوه!

34 - مقاومة اليهود
وإجابات المسيح المضيئة فيها استعلان لذات الابن

ولكن يلزم أن يُفهم أن مقاومة اليهود لم تقتصر على المشادة الكلامية وحسب، بل تخلَّلها محاولات جادة للقتل. وكان كسر السبت هو علَّة المقاومة.

ويُلاحَظ أن دفاع المسيح عن نفسه لم يكن على مستوى عقلية القتلة، وإنما ارتفع بإعلانه عن نفسه عن مستوى التهديد والمهاترات ليواجههم بالحق الإلهي الذي جاء أصلاً ليعلنه: "أنا هو الحق"، وواضح أن المسيح كان أعلى من أن يدافع عن نفسه. ومن الحقائق التي أعلنها المسيح عن نفسه:

الحقيقة الأُولى: الابن يعمل مع الآب: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»:

«أجابهم يسوع أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو 17:5)، ذلك ردًّا على: «كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت» (يو 16:5). وهي تأتي في اليونانية بمعنى الاستمرار: «بسبب ما تعوَّد أن يعمله» وكانت هذه أول مرَّة يعلن فيها اليهود عن عداوتهم بالقتل بالنية والتربُّص للقتل، وطبعاً كان ذلك بسبب المغالاة التي بلغت العنف في حفظ حدود السبت، حتى بلغت إلى الحد الذي تساءل فيه كبار الفرِّيسيين والربيِّين عن مدى خضوع الله نفسه لوصية السبت، وانتهى أعظم أربعة ربيِّين منهم وهم غمالائيل الثاني ويشوع بن حنانيا والعازر بن عزاريا ورابِّي عقيبا سنة 95م إلى القرار: [إن الله يحفظ وصية السبت لأنه لا يعمل خارج حدود مسكنه، أي السماء والأرض، ولا يسير مسافة أطول من قامته، لذلك فعمل الله هو في الحدود المسموحة](1)، فانظر وتعجَّب!!

من هنا جاء رد المسيح عليهم يشمل نفسه والله أباه: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» بمعنى

(1) C.H. Dodd, *The Fourth Gospel,* (1953), p. 320.

أن الله لم يتوقَّف عن عمله قط وإلاَّ تتوقَّف الحياة. فالله لم يخلق الخليقة بواسطة الكلمة اللوغس (الابن) ثم تركها تعمل من ذاتها، كما يقول الذين لا يؤمنون بالله. فالله يُحيي ويُميت ويدير الخليقة بنواميس دائمة لا تخضع لفكر الإنسان.

وهنا يضع المسيح نفسه مع الله الآب كمسئول عن عمل الخليقة ودوامها، وبالأكثر جداً من جهة فدائها من السقوط وتجديدها وإعادتها إلى رتبتها الأُولى، كما جاء في سفر العبرانيين: «الله ... كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين، الذي، وهو بهاء مجده ورسم جوهره **وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته**، بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي» (عب 1: 1ـ3). وينقل بولس الرسول في سفر العبرانيين أيضاً عن المسيح: «وأمَّا عن الابن (فيقول) كرسيك يا الله (الابن) إلى دهر الدهور قضيب استقامة قضيب ملكك ... وأنت يا رب (الابن) في البدء أسَّست الأرض **والسموات هي عمل يديك**، هي تبيد ولكن أنت تبقى، وكلها كثوب تبلى وكرداءٍ تطويها فتتغيَّر، ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى »(عب 1: 8-12). كما يكشف بولس الرسول في الرسالة إلى أهل أفسس كيف يدبِّر الله ليجمع الخليقة كلها في المسيح: «إذ عرَّفنا بسر مشيئته حسب مسرَّته التي قصدها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة، **ليجمع كل شيء في المسيح** ما في السموات وما على الأرض في ذاك (أي المسيح).» (أف 1: 9و10)

بهذا يتضح لنا جداً قول المسيح عن نفسه: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» لذلك واجههم المسيح صراحة بمقدار علو قامته عن مفهوم السبت عندهم: «ثم قال لهم: السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت. إذاً ابن الإنسان (المسيح) هو رب السبت أيضاً.» (مر 2: 27و28)

فالمسيح بعمله معجزات الشفاء العديدة في يوم السبت إنما كان يقوم في الحقيقة بعملية تكميلية ظاهرة للخلق ومساوية في مضمونها للخلق ذاته، فالذي أعطى للمولود الأعمى عينين ينظر بهما وللأعرج من بطن أُمه رجلين يجري بهما إنما يعمل عملاً هو من صميم الخلق. وهذا أكبر إثبات أن عملية الخلق لم تنتهِ في نظر الله في يوم السبت.

أمَّا إذا تطلَّعنا بأكثر دقة وعمق في عمل المسيح من جهة آلامه وصلبه بجسد البشرية الذي أخذه منَّا، وكيف مات موتاً حقيقياً لنكمِّل فيه عقوبة الموت واللعنة التي ورثناها من آدم، ثم قيامته من الموت بجسده الروحاني الجديد الذي هو ذات الجسد الذي مات به وعليه جروحه ودمه، معلناً علناً وجهاراً دخول خليقة جديدة للإنسان مبرَّرة وممجَّدة وليس للموت سلطان عليها لكي تحيا مع

المسيح والله إلى الأبد، التي وهبها لنا بسر المعمودية والإيمان به؛ هذا أصبح أعظم من كل أعمال الخليقة الترابية الأُولى التي مآلها إلى الموت والزوال. إذن، فقد حقَّ للمسيح أن يقول عن صحة ويقين: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»

علماً بأن موت المسيح ثم نزوله إلى القبر كان يوم السبت الذي حُسب الراحة العظمى للمسيح ومعه البشرية: «لأن الذي دخل راحته استراح هو أيضاً من أعماله (في القبر) كما الله من أعماله (في الخليقة)، فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة» (عب 4: 10و11). «لأنه إن كنا قد صرنا متَّحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته» (رو 5:6)، «فإن كنا قد متنا مع المسيح (في ذات الجسد) نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.» (رو 8:6)

وهكذا بموت المسيح وقيامته **كعمل** الفداء الأعظم أعطى البشرية قيامة من الموت وحياة جديدة معه في السماء، هذا هو تجديد الخليقة الأُولى الترابية أو هذه هي الخلقة الجديدة الروحية بالإيمان بالمسيح. فالمسيح بصفته الكلمة الابن الذي اضطلع بالخلقة الأُولى الترابية هو الذي اضطلع بواسطة التجسُّد بتجديد هذه الخلقة إلى خليقة روحانية سماوية تحيا في السماء إلى الأبد.

الحقيقة الثانية: الابن لا يعمل بمفرده شيئاً:

«**أجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك**» (يو 19:5). قال هذا ردًّا على اتِّهام اليهود: «فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم يَنْقُض السبت فقط، بل قال أيضاً **إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله.**» (يو 18:5)

حينما يقول المسيح إن الله أبوه موضِّحاً أنه ابن الله فيكون بذلك حقًّا قد عادل نفسه بالله. فإن ظهر هذا كتجديف في نظر اليهود، إلاَّ أن المسيح لا يقدِّم هنا مجرَّد تعليم يمكن فحصه بالعقل على تعاليم أخرى سابقة، بل هو يعطي هنا استعلاناً جديداً لله يخص صميم طبيعة الله في ذاته، التي لم تكن معروفة إطلاقاً من قبل. بل إن المسيح باعتباره ابناً لله، قد نزل من السماء خصيصاً لكي يستعلن لنا هذا الإعلان الجديد عن الله: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب (تعبيراً عن الاتحاد الكلِّي المطلق) هو خبَّر» (يو 18:1). وبهذا كان أول إعلان له عن الله أنه أبوه وأنه هو ابن الله بالحق. وهنا الأبوَّة والبنوَّة في الله سماوية روحية ليس لها شكل ولا تحديد منظور. فالله روح مطلق منزَّه عن الولادة، لأن الألوهة مُنزَّهة عن التغيير والتجديد والفناء. فالله موجود بذاته أباً لابن شأن الذات الكاملة المحبِّة والمحبوبة. فالآب موجود في الابن والابن موجود في

الآب: «... أني في الآب والآب فيَّ» (يو 11:14). أصبح بعد أن نعرف أن التساوي مطلق بينهما يكون الآب والابن في الله واحداً أحداً مطلق الوحدانية ومنزَّهاً عن الوحدة العددية القابلة للتقسيم. من هنا نقول: إن الله روح واحد، آب وابن متساويان، ليس بالتساوي العددي أو المادي. ولكنه واحد مطلق، روح غير محدود. وهكذا بالرغم من تعدُّد صفات الله التي من ضمنها صفة الآب والابن إلاَّ أنه واحد كلِّي الوحدانية.

فالأبوَّة والبنوَّة في الله وحدة روحية: الآب ذات كامل والابن ذات كامل، والآب والابن ذات واحدة كاملة، لأن التساوي بين الآب وصفاته والابن وصفاته هو تساوٍ مطلق، فتحتَّم بحسب المنطق أن يكون الله هو ذات واحدة ـ روح أعظم. وإن لَزِمَ التطبيق، ولكن على المستوى المادي العاجز والناقص، نقول: إن كل إنسان هو أب وابن معاً وذات واحدة، فالإنسان كان ابناً وصار أباً محتوياً البنوَّة في ذات واحدة بالرغم أن البنوَّة فيه كانت ذاتاً بحد ذاتها، والأبوَّة صارت ذاتاً بحد ذاتها، وكل منهما كانت لها صفات متعدِّدة، إلاَّ أن الإنسان بالنهاية أصبح ذاتاً واحدة. ولكن الإنسان مخلوق ترابي مادي فهو متغيِّر زمني وزائل يموت حتماً، لذلك لكي يبقى الإنسان لزم الزواج والإنجاب باستمرار حتى لا يزول الإنسان من الوجود. ولكن الله روح خالق أزلي غير متغيِّر ولا هو زمني ولا يزول؛ إذن، **فهو لا يحتاج إلى زواج ولا إلى ولادة** لتجديد وجوده، بل هو قائم دائم بكيانه الروحي اللانهائي: آب كلِّي الكمال في الأبوَّة، وابن كلِّي الكمال في البنوَّة.

ولَمَّا استعلن لنا المسيح طبيعة الله هذه كآب وابن بروح واحدة، وهو الخالق الذي فيه الأبوَّة والبنوَّة أزلية، أدركنا في الحال سر دوام الخليقة على أساس قيام الأبوَّة والبنوَّة. لأن أبوة الله هي السر الذي خرجت منه كل أبوة في الخليقة إنساناً أو حيواناً. وبنوَّة الله هي سر قيام كل بنوَّة قائمة في العالم إنساناً كان أو حيواناً، بمعنى أن أساس قيام الخليقة ودوامها هو أنها قائمة في ذاتها تستمد خلقتها وحياتها وصفاتها من ذات الله كآب وابن، بحيث لو كان الله أباً فقط لتوقَّفت الخليقة عن الاستمرار وتلاشت، كذلك لو كان الله ابناً فقط لتوقَّفت أيضاً الخليقة عن الاستمرار وتلاشت. إذن، فبقاء وقيام أبوَّة الله وبنوَّته هو السر العجيب المستتر لبقاء ودوام العالم المخلوق.

إذن، فقول المسيح: «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» أصبح هذا القول الآن واضحاً، بل ودخل في سر الوجود والدوام للعالم!!

كما يتضح لنا السبب في عجزهم وقصورهم عن إدراك ما هية المسيح لَمَّا صارحوه: «.. وأنت

إنسانٌ تجعل نفسك إلهاً» (يو 10:33)، والحقيقة لو أحسنوا الرؤية وفهموا سر المسيح لرأوا فيه العكس، أنه وهو إله جعل نفسه إنساناً!!

الحقيقة الثالثة: تكريم الابن هو من تكريم الآب وهو أمر حتَّمه الله نفسه:

«لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يحيي مَنْ يشاء» وأيضاً: «لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن، "**لكي**" يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. مَنْ لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.» (يو 5: 21-23)

المسيح هنا يعلن لاهوته بلا مواربة، بل يطالب الذين يمجِّدون الله الآب أن يمجِّدوه، وإلاَّ لا يقبل الله تمجيدهم. هنا يكشف المسيح عن إرساليته كوسيلة متاحة للإنسان وواسطة مقبولة لتكريم الله الآب. لأنه كيف يمكن للإنسان أن يكرم الله الذي لا يراه ولا يعرفه ولا يعرف عنه شيئاً؟ من أجل هذا أرسل الله ابنه خصيصاً لكي يكون لدى الإنسان من الأسباب والأعمال ما يمكن أن يكرم بها الآب. فالمسيح هو "كلمة" الله، والكلمة في أقوى صفاتها هي "الفعل"، لذلك أصبح المسيح هو عمل الله المنظور والمحسوس والمفهوم، وبالتالي أصبح عمل الله الذي جاء المسيح ليحقِّقه منظوراً على الأرض يعبِّر عن مشيئة الله وإرادته تماماً. من أجل هذا تحتَّم تحتيماً أن الذي يريد أن يمجِّد الله ويُكرمه عليه أن يمجِّده ويكرمه في عمله الذي يعمله المسيح لحساب الآب.

فقول المسيح: «كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يحيي مَنْ يشاء» يؤكِّد لنا أنه بإقامته الأموات أمام أعيننا إنما هو يعمل عمل الآب، حتى إذا كرَّمنا الابن بسبب إقامته الأموات نكون بالحقيقة قد كرَّمنا الآب. فالمسيح حقَّق لنا عمل الآب الذي يقيم الأموات، ولكن بصورة علنية منظورة وملموسة. فقد وقف أمام قبر لعازر وأمر لعازر الميت أن يقوم فقام في الحال وهو مربوط بكفنه، مع أنه كان له أربعة أيام في القبر. هنا الآب منظور في المسيح، وعمل الآب منظور في عمل المسيح. وهكذا في كل أعمال المسيح كغفران الخطايا وشفاء الأمراض وعمل كل المعجزات هي كلها استعلان لقوة وعمل الآب في المنظور على يد المسيح. وهكذا أصبح لنا آلاف الأعمال والأسباب الظاهرة التي يمكن أن نكرم بها الآب بعد أن كانت كل أعمال الله غير منظورة وغير معروفة قبل أن يُرسل ابنه متجسِّداً.

كذلك في قول المسيح: «لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن» كشف لنا عن حتمية المرور بالابن أولاً قبل أن نصل إلى الله الآب. لأن الابن وهو المسيح سوف تُعقد الدينونة على يديه، فإن كان القضاء الإلهي الأخير في يد الابن وهو المسيح، فأصبح من المحتَّم الخضوع

والتسليم للابن والإصغاء لصوته وطاعة كلمته ووصاياه لأنه بها سيتم الحكم، وعلى أساسها تكون الدينونة بالحياة أو بالهلاك. والآب أعطى الدينونة للابن عن قصد يظهر من قول المسيح بكل وضوح وصراحة: «**لكي** يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. مَنْ لا يكرم الابن لا يكرم الآب **الذي أرسله**» وبقوله هنا: «الذي أرسله» يوجِّه المسيح أبصارنا إلى أن كرامة المُرسَل هي من كرامة المُرسِل: «الذي يقبل من أُرسله يقبلني، والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني» (يو 20:13)، «والذي يحبني يحبّه أبي، وأنا أحبه، وأُظهِر له ذاتي.» (يو 21:14)

الحقيقة الرابعة: هدف الآب والابن من العمل واحد:

أوضح صورة لهذه الحقيقة التي يظهر فيها أن الآب والابن لهما هدف واحد في العمل الذي أُنيط بالابن أن يعمله على الأرض هي الآية التي تقول: «**هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية**» (يو 16:3). ففي هذه الآية يتضح أن هدف الآب والابن قد توحَّد بصورة مطلقة في خلاص الإنسان وإعطائه الحياة الأبدية. فالآب أراد وشاء ذلك، والابن نفَّذ ما أراد الآب وشاءه بكل طاعة وخضوع الابن للآب، مما كلَّف الابن أن يقدِّم ذاته ذبيحة حسب صميم مشيئة الآب. وفي هذا العمل الهائل اشترك الآب والابن بصورة سرِّية فائقة على العقل. فكون الآب "يبذل" معناه أنه دخل في صميم عملية موت الابن بالجسد. "فالبذل" هو التضحية بالذات، فالآب ضحَّى من صميم أبوَّته بالابن، هنا أعمق أحزان الابن وآلامه وقع حملها على الآب بصورة سرِّية غاية في العمق الذي لا يمكن أن يُبلغ قراره. فحينما استودع المسيح (الابن) مشيئته للآب بعد معركة نفسية أليمة وحزينة بلغت حد الموت مع نفسه، وهو مرتاع من كيفية تصوُّر أن يقف على الصليب حاملاً عار الإنسان، وأخطر ما فيه خطية التجديف على الله نفسه، ولثلاث مرَّات بعد أعنف صلاة سمعها الإنسان عن ابن الإنسان الذي كان عرقه يتصبَّب على الأرض كالدم، سلَّم أخيراً نفسه للآب إن كانت هذه مشيئة الآب أن يقبل على نفسه أن يحمل ابنه عار التجديف عليه؛ إذن، فلتكن مشيئته!! هنا تلاقت مشيئة الابن مع مشيئة الآب على حمل عار البشرية وخطاياها. وبهذا يُفهم كيف يتحمَّل الآب بذل ابنه على الصليب كذبيحة خطية مقدَّمة إليه!! هنا شركة الآب والابن معاً وبالتساوي المطلق في عملية خلاص الإنسان بحمل خطيته وعاره لإمكانية غفرانها بالكامل، ونقل الإنسان من تحت عقوبة الموت لقبول الحياة مع الله.

وتحت هذا الهدف الأعظم من كل الأعمال التي شاءها الآب ونفَّذها الابن حسب مشيئة الآب تماماً تدخل جميع الأعمال الأخرى التي عملها الابن: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني» (يو 4:9)،

«الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي» (يو 10:25)، «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو 10: 37و38)، «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمِّم عمله» (يو 4:34)، «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجمونني» (يو 10:32)، «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية. وأمَّا الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يو 15:24)، «لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأُكمِّلها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» (يو 5:36)، «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ؟ الكلام الذي أُكلِّمكم به لست أتكلَّم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال» (يو 14:10)، «صدِّقوني أني في الآب والآب فيَّ، وإلاَّ فصدِّقوني لسبب الأعمال نفسها.» (يو 14:11)

الحقيقة الخامسة: أُعطي الابن أن تكون له الحياة في ذاته:

«لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته».

الكلام هنا في صميم الطبيعة الإلهية والمسيح يستعلن موقعه من الله الآب. فحياة الآب هي حياة الابن. فالذات الإلهية كما قلنا واحدة آب وابن معاً بالتساوي المطلق، هذا التساوي الذي هو على وجه الإطلاق هو الذي حدَّد وحدانية الله المطلقة. هنا يتحتَّم أن تكون حياة الآب هي حياة الابن، فالحياة التي للابن ليست ممنوحة من الآب، ولكن خاصية واحدة للآب كما للابن.

وعلى القارئ أن يلاحظ دقة الصيغة التي قيلت بها الآية، فليس أن الآب أعطى الحياة للابن، بل الآب أعطى أن يكون الابن له حياة في ذاته. فحياة الابن في ذاته له كحياة الآب في ذاته له. وفي هذا تعبير واضح للتمييز بين حياة الآب وحياة الابن ـ للتمييز فقط بين الأبوَّة والبنوَّة. فالآب ليس هو ابناً والابن ليس هو آباً، ولكن الآب والابن واحد في حياة واحدة متميِّزة. فالآب يعطي حياة الأبوَّة والابن يعطي حياة البنوَّة للخليقة، وهي حياة الله التي تحيا بها الخليقة.

الحقيقة السادسة: الآب أعطى الدينونة كلها للابن:

«لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن»

1 – «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان»:

هنا يستعلن لنا المسيح سلطانه الخاص الذي ناله بسبب بشريته، فهنا امتياز الدينونة أخذه المسيح باعتباره ابن الإنسان. وهذا يكشف عن منتهى عدالة الله إذ جعل الديَّان الذي يقضي لبني الإنسان

هو «ابن الإنسان» أي يحمل جنسية مَنْ يقضي لهم: «من ثَمَّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء، لكي يكون (قاضياً) رحيماً، ورئيس كهنة أميناً فيما لله حتى يكفِّر عن خطايا الشعب. لأنه فيما هو قد تألَّم مجرَّباً يقدر أن يعين المجرَّبين ... لأن ليس لنا رئيس كهنة (ديَّان) غير قادر أن يرثي لضعفاتنا، بل مجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية. فلنتقدَّم بثقة إلى عرش النعمة (كذلك الدينونة) لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه» (عب 2: 17و18، 4: 15و16). لذلك أصبح من خصائص المسيح العجيبة أن يكون هو الديَّان وهو نفسه يشفع في المذنبين: «فمن ثمَّ يقدر أن يخلِّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدَّمون به إلى الله، إذ هو حيٌّ في كل حين ليشفع فيهم» (عب 25:7). وبمعنى آخر قد حقَّ للمسيح بسبب كونه ابن الله المتجسِّد وبسبب بشريته، أن يكون ـ بآن واحد ـ قاضي البشرية ومحاميها الأول. وهاتان الصفتان يجمعهما بولس الرسول باقتدار مدهش هكذا: «مَنْ هو الذي يدين؟ المسيح الذي مات بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فينا» (رو 34:8) (ترجمة مصحَّحة عن اليونانية).

ومن هنا تظهر الخطورة المريعة إذا رفضنا المسيح كشفيع، فحينئذ لا يبقى لنا منه إلاَّ الدينونة.

2 – وأعطاه أن يُقيم من بين الأموات لمواجهة الدينونة العتيدة:

«لا تتعجَّبوا من هذا. فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة».

واضح أنه كان من سلطان المسيح إقامة الموتى أمام أعين الناس، ولكنه هنا يمتد بهذا السلطان لإقامة الموتى جميعاً في اليوم الأخير. فسلطانه الأول على قيامة الموتى لاستعادة الحياة على الأرض كلعازر كان تمهيداً شديد الضغط على تفكير الإنسان، أنَّ المسيح هو الديَّان الذي بصوته سيُقام الموتى من القبور لمواجهة الدينونة العتيدة، إمَّا لقبول الحياة الأبدية أو الموت الأبدي! فصوت المسيح الذي رنَّ في الهاوية: «لعازر هلم خارجاً» هو نفس الصوت الذي سيزلزل لا الهاوية فقط بل والسماء، لتتجمَّع جميع أرواح بني البشر أمام كرسي الديَّان لقضاء الدينونة الأخيرة؛ حيث سيواجهها المفديُّون بالفرح والتهليل، أمَّا الرافضون فبالبكاء وصرير الأسنان!

3 – ولكن دينونة المسيح مستمدَّة من عدالة الآب وحسب مشيئته:

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني».

هنا يظهر المسيح متكلِّماً بشخصه "أنا" بعد أن كان يتكلَّم المسيح عن "الابن" كناية عن نفسه:

- «لأن مهما عمل ذاك (الآب)، فهذا يعمله الابن كذلك»
- «لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله»
- «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء»
- «لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن»

ولكن هنا يتكلَّم المسيح بـ"أنا"، حيث التحديد قاطع من جهة مستوى العمل الذي يقوم به المسيح أنه ليس خارج مشيئة الآب أو بدون عمله. فالتصريح شديد النبرة: «أنا لا أقدر أن أفعل» حتى يُلفت نظرنا إلى مصدر قدرة الآب المتحدة بقدرته، حيث تأتي أحكام الدينونة هنا صادرة من الآب منطوقة بالابن «كما أسمع أدين» وعلى أساس هذا الاتفاق العجيب بين نطق الآب الذي يسمعه الابن ونطق الابن الذي تسمعه البشرية، يأتي الحكم بالدينونة عادلاً. واضح هنا أن وظيفة الابن هي استعلان صوت الآب بنطق الابن. هنا عمل المسيح يتركَّز بصورة كاملة في كيفية استعلان الآب غير المنظور وغير المسموع. فالابن يرى ويسمع ما عند الآب وينقل لنا ما يراه ويسمعه، والابن يعرف مشيئة الآب وينفِّذها أمام الناس كما هي: «لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني» أمَّا ما هي مشيئة الآب؟ فقد كشفها لنا المسيح:

+ «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتْلفُ منه شيئاً، بل أُقيمه في اليوم الأخير. لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل مَنْ يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير.» (يو 6: 39و40)

4 ـ إمكانية تخطِّي الدينونة من الآن وقبول الحياة الأبدية:

«مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، **ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة**»

تحمل هذه الآية أعمق أسرار المسيح وتكشف عن سلطانه الفائق على الدينونة، فهو وهو الديَّان يكشف لنا عن قوة الحياة الأبدية التي فيه، وكيف يستطيع أن يهبها للمؤمنين به السامعين لكلامه ليعبروا به الدينونة منذ الآن. وهنا ترتفع كلمة الإنجيل إلى أقصى قوتها وسلطانها، فقوله: «مَنْ يسمع كلامي» يشير إلى سر الإنجيل وقوة الكلمة فيه القادرة أن تورِّث الإنسان الحياة الأبدية منذ الآن.

«ولا يأتي إلى دينونة»:

هنا يتخطَّى المسيح قاصداً عامداً كل مجهودات الإنسان وقدراته، لأن الدينونة تقوم أصلاً على أساس أعمال الإنسان وسلوكه، ولكن المسيح تخطَّاها: «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى

رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس» (تي 3:5). هذا تحدٍّ صارخ لبر الإنسان وأعماله وتقويض أركان الدينونة بالنسبة للذين آمنوا بالمسيح، وكما يقول هو عن الذين سمعوا كلامه بحركة القلب الداخلية وانفتاح الوعي الروحي لتقبُّل سر الخلاص الذي أسَّسه بدمه على الصليب.

الذي يسمع هنا إنما يسمع سر المسيح المختفي في كلامه، وهو نفسه سر الحياة الأبدية. فالذي يضع يده على سر المسيح يضع يده على الحياة الأبدية: «الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه (بالروح)، ولمسته أيدينا (بالإيمان)، من جهة "كلمة" الحياة. فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا (في المسيح). الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأمَّا شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (1يو 1: 1-4). المسيح يضعها هنا باختصار مدهش: «مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» ! وكأنما استودع المسيح نفسه: وبالتالي استودع حياته الأبدية لكلمة الإنجيل، لكي مَنْ يسمعها يحيا إلى الأبد. وهكذا أصبحت كلمة المسيح في الإنجيل مصدر الفرح الأبدي والسرور الدائم للإنسان، وبهجة الروح ومجد السماء، مَنْ يلتصق بها يلتصق بالمسيح ويذوق عمانوئيل حقاً، وبالفعل يحيا معيَّة المسيح ويعيش حضرته في ملء عزاء السماء ونصرة الدهور. هذه هي الحياة الأبدية التي كانت مخفية عند الآب مكنوزة لملء الزمان كعطية الآب لبني الإنسان وأُعلنت لنا في المسيح بالروح، لتنقلنا بحق من الظلمة إلى نوره العجيب ومن الموت إلى الحياة، عبوراً بالدينونة دون أن نُمسك فيها، لأننا غلبنا الموت وورثنا القيامة منه والحياة الأبدية. «فمَنْ يسمع كلامي» يسمع أناشيد الخلاص وترنُّم بني الملكوت أمام الآب؛ «ومَنْ يؤمن بالذي أرسلني» يذوق مجد الله الموهوب لِمَنْ ظفروا بالقيامة مع الميت على الصليب، ويحيا حب الآب الذي استُعلن في بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.

فالحياة الأبدية مذخرة في كلمة المسيح المختومة بالروح. والحاذق هو الذي يفك أختامها بالروح لتنهمر عليه أنهار الحياة ليشرب ملء وعيه واتساعه، ولن يعطش أبداً.

والذي أدرك سر المسيح في الكلمة حينما يسمعها كرنين أجراس القيامة، ينفتح وعيه وينطلق يهلِّل تهليل الذين انتُشلوا من جذوة نار العالم وظلمة هذا الدهر وعبروا الدينونة كأعظم من منتصرين، وانتقلوا محمولين على أجنحة الصليب من ظلمة القبر إلى نور الحياة. وطوبى لِمَنْ يجلس إليَّ ساهراً كل يوم يسمع كلماتي ويستنشق رائحة الخلود.

الفصل الثامن

العودة إلى الجليل والعظة على الجبل

مما يؤسف له أن هذا الصدام العنيف مع الفرِّيسيين في أُورشليم سريعاً ما امتد في طــول بــلاد اليهودية وعرضها. لذلك فالجولة الثانية في اليهودية والجليل لم تكن بالروح الأُولى، إذ بدأ الفرِّيسيون التربُّص بالمسيح للمقاومة وإثارة الشعب، إذ أشاعوا في الجليل عن كسر السبت والتجديف والخروج عن التقليد. مما جعل المسيح يبدأ بشرح علاقة العهد الجديد والملكوت الذي جاء ليفتتحه، بالعهــد القديم: توراته وناموسه وتقاليده البالية. وهذا هو مضمون العظة على الجبل! التي استطاع المسيح أن يصيغها غاية في الإتقان وعلى مستوى عقول الشعب بما يناسب الوضع والزمن، وأرجأ اســتعلانات الروح فيها إلى عمل الروح القدس الذي سيأتي زمانه بعد أن يكون قد أكمل الكــل فيمــا يخــص التعليم.

35 ـ العظة على الجبل: ظروفها وخصائصها

[صعد موسى على الجبل ليستلم لوحي الشهادة والوصــايا العشر المكتوبة بأصبع الله، وصعد المسيح على الجبل لينقش الوصايا الجديدة على قلب الإنسان، ويستودع الاســتعلان وعي الإنسان].

مقدِّمة:

[تعتبر العظة على الجبل ذات قيمة أساسية في العهد الجديد، فهي إحدى الوثائق الهامة القائمة بذاتها ذات الاتصال المباشر والشمولي بالحياة المسيحية في العالم. وهي محسوبة أنهــا المعيــار الأول لكيفية الحياة والسلوك للإنسان المسيحي، لأنها تحمل الأصول ذات الوزن العالي جــداً للأخلاق المسيحية. لذلك فهي ينبغي أن تكون الهدف الأول للاَّهوتيين لفحــص محتوياتهــا وتقييمها.](1)

وبالحري يتحتَّم أن تكون موضع دراسة مكثَّفة لكل مسيحي طامع في حياة مسيحية فُضلى.

---

(1) Martin Dibelius, *The Sermon on the Mount,* (1940), pp. 5 f.

[وهي تقدِّم لنا الرب جالساً ومعلِّماً، وكان السامعون يؤمنون، وكذلك القارئون الأوائل، أن الذي يتكلَّم هنا ليس مجرَّد معلِّم ولكن مخلِّص وفاد. فالكلام ليس كلام حكمة يَسرُّ السامع، ولكنه استعلان مقدَّم ليس من رابِّي، ولكن كرسالةً من فم الله. والكنيسة أخذت بهذا الكلام بكل إيمان ووقار. وبهذا يمكن لنا أن نبلغ إلى التعليم والفهم الصحيح للعظة على الجبل. ولهذا نشعر أن واجب اللاهوتي الأول أن يشرح لمن يقرأ هذه الوثيقة قيمتها الأُولى عند المسيحيين الأوائل حتى يكون في مأمن من تيارات العالم الحاضر.](2)

[والذي يهمنا الآن هو هل لا نزال نعتبر العظة على الجبل أنها تقدِّم لنا الشروط الإلهية للحياة اليومية كرسالة من الله.](3)

[والعظة على الجبل تحوي وصايا ودعاوي نبوية وأقوال حكمة، فهي تُقرأ كناموس إلهي. والقديس متى يقدِّمها بترتيبها الحالي دون تحديدات زمنية لتكون فرضاً أو شريعة تحكم الجماعة. على أن طبيعتها المنهجية تقدِّمها كنموذج للحياة المسيحية ـ ويقدِّمها ق. متى باعتبارها القاعدة الأخلاقية للحياة المسيحية في الكنيسة على مدى الدهور. وحينما قُدِّمت التطويبات في مطلعها فهي لكي تستعلن الفضائل التي على المسيحي أن يتمسَّك بها باعتبارها ميراث الحياة الأبدية، كرد على سؤال: مَنْ الذي يدخل ملكوت الله؟ بل، وما هو حال الذي يبشِّر بالملكوت؟ وذلك في قوله: «فليضئ نوركم هكذا قدَّام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجِّدوا أباكم الذي في السموات» (مت 16:5). وهكذا تكشف العظة عن شخصية المواطن السماوي وهي تستعرض إرادة ومشيئة الله من وراء وصايا متعدِّدة. ومن لهجة المسيح فيها تبدو أنها تتطلَّب الأمانة المطلقة في تنفيذها وتكميلها باهتمام.](4)

(أ) **المكان والظروف:**

كان الوقت صيفاً وكان المسيح عائداً من رحلة طويلة في الجليل، وإذا بجمع كثير يتبعه طمعاً في السماع والتعليم، وكان قريباً من كفرناحوم ومعه تلاميذه. ولمَّا رأى الجموع انتقى مكاناً عالياً وصعد نحو القمة والتفَّ تلاميذه من حوله، والجموع افترشوا الأرض بغاية النشاط والفرح، وابتدأ المسيح يعلِّم ما كانوا يتوقَّعون سماعه، وكان المسيح حريصاً أن يفنِّد دعاوي الكتبة والفرِّيسيين كلما اقتضى الأمر ذلك.

---

(2) Ibid, p. 10.

(3) Ibid, p. 11.

(4) Ibid, pp. 18_23.

(ب) موضوع العظة الأساسي:

كان قصد المسيح أن يبدأ العهد الجديد ليكشف بذور ملكوت الله التي وضعها الله بعناية في كل تعاليم العهد القديم، والتي بدورها تمهِّد الطريق إلى افتقاد الله الجديد. لذلك كان محور العظة هو الانتقال الدائم من الناموس إلى الإنجيل أي البشارة الجديدة المفرحة. وهكذا كان المسيح يصوِّر المسيحية باعتبارها الوجه الروحي لليهودية مستعلَناً بالنعمة. والموضوع الأساسي هو ملكوت الله ومن ورائه شخص المسيَّا الذي جاء ليستعلنه على أصوله الأُولى.

وجاءت العظة على هيئة موضوعات مطروقة بحكمة وتدبير ودراية، لكي توقظ الوعي الروحي للسامعين، وتنقله من جمود الحرف إلى رحب الروح المتسعة والفَرِحة، مع اهتمام المسيح الشديد أن يُصيغ الكلمات لتكون بمثابة محفوظات مفردة تُحفظ في القلب ليتلوها المؤمنون عن ظهر قلب على مستوى: "اسمع يا إسرائيل"، وكأنها بنود الحياة الجديدة، لتبقى بذاراً حيَّة في قلوب الناس على مدى الأجيال. وهذا ما تمَّ بنعمة فائقة على التصوُّر. ولكن صاغها أيضاً المسيح وإنجيل ق. متى لتكون موضوعاً واحداً يجمع شمل التعليم كله كجسمٍ حيٍّ يُحفظ من الزيادات والتخريجات.

(ج) تخصُّص إنجيل ق. متى وإنجيل ق. لوقا في العظة:

والمصدر الذي يمكن أن نرجع إليه نحن لهذه العظة مسجَّل في إنجيل ق. لوقا (6:20-49)، وإنجيل ق. متى (الأصحاحات 5،6،7)، وكل منهما أعطى جسم العظة أن تكون ذات بداية ووسط ونهاية، علماً بأنها جُمعت بلا شك من مصادر وأفواه متعدِّدة بل وتقاليد أيضاً متعدِّدة. فإذا قارنّا العظتين في كلٍّ من الإنجيلَيْن، نجد أن العظة عند إنجيل ق. متى أكمل وأكثر دقة في التفاصيل وتفصح عن أصلها الأرامي. ولكن إذا أخذنا المشترك بينهما نحصل على جسم العظة كاملاً رائعاً.

(د) المنبع الذي تستمد منه العظة التعاليم:

والعظة في الإنجيلَيْن تنضح بالاهتمام في جعل الملكوت لا يأخذ جذوره من اليهود، بل من الله رأساً، كمصدر أساسي حي للتعليم والمعرفة. كما جاءت في القديم مئات المرَّات: «يقول الرب» «أنا هو تكلَّمت» فالتوراة أصلاً خرجت من قلب الله، وليس من الجنس اليهودي. وهكذا ينبغي ويتحتَّم أن يلتصق فكر الإنسان بها على هذا الأساس. لذلك تشير العظة إلى القلب اللائق للتعليم بحسب متطلبات ملكوت الله. وكذلك يتَّجه المسيح إلى قلع كل الجذور التي أدَّت إلى المفاهيم

الخاطئة للتوراة متخطية المقاصد الإلهية الواضحة في التعليم(5).

(هـ) الأساس الذي تقوم عليه العظة:

لا يقدِّم المسيح في العظة على الجبل منهجاً للتعليم ولا مدرسة ذات مبادئ، بل يقدِّم ملكوته الذي جاء ليؤسِّسه على الأرض. وملكوته يؤسَّس على أُخُوَّة أو أخويَّة ذات طابع معيَّن مرتبطة به تصلح للحياة الأبدية. ولو نلاحظ نجد أن المسيح بدأ بهذا المفهوم باختيار تلاميذه ليصنع منهم أُخُوَّة أو أخويَّة متصلة به أشد الصلة: «ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين» (رو 29:8). ومن هذه الأُخُوَّة تنبثق التعاليم التي تهيِّئ روح هذه الإخُوَّة إلى الملكوت. وبين التلاميذ والملكوت يقع المسيح كصلة أساسية. لمَّا رأوه أولاً أحبُّوه، ولمَّا أحبُّوه تعلَّقوا به ثم آمنوا به، وبهذا بدأوا يتعلَّمون الحقائق المتصلة به.

ومن هنا تختلف العظة على الجبل عن أي نوعية من التعاليم قاطبة قديماً وحديثاً، صحيح أن تعليم المسيح فيها يعطي حدوداً جديدة للأخلاق، ولكن أي تعليم أخلاقي يكون مقصده أن يُصلِح بالتمرينات والاختبارات لكي يبلغ بالإنسان إلى حد معيَّن أو غاية ونهاية. ولكن المسيح يبدأ بهذه الغاية والنهاية ليضع تلاميذه والمؤمنين به في هذه الغاية والنهاية (الملكوت).

وهنا يُثار السؤال: وأين الطريق؟ الجواب: هو المسيح، الطريق والحق والحياة، وبواسطته يصل المؤمنون إلى صميم غايته ونهايته ''إلى الملكوت''. فإن كان كل تعليم وتدريب واختبار وتحفيظ وتسميع ينتهي إلى غاية هامة، فالمسيح يضع محبِّيه في هذه الغاية الهامة.

كل معلِّم وكل تعليم مسيحي في العادة يكون غايته الوحيدة أن يصنع من التلاميذ أبناءً للملكوت، إلاَّ المسيح فهو يُعطي حق البنوَّة مجَّاناً بلا تعليم، بلا مدرسة، وذلك بعمل نعمته: «اليوم تكون معي في الفردوس» (لو 43:23). هذا هو الملكوت عند المسيح: كل ما يشقى الإنسان سعياً من أجله، يعطيه له المسيح بدون شقاء ولا سعي.

كل معلِّم يبدأ تعليمه بأن يطلب طلبات، والمسيح يبدأ بالعطاء، لأنه جاء ومعه غفران مجاني ورحمة مجانية وخلاص مجاني. لذلك لا نستطيع أن نقول إن في العظة على الجبل ناموساً جديداً ولا منهجاً أخلاقياً، ولكن عرضاً للدخول المجاني إلى ملكوت الله.

فلو انتبهنا إلى قول المسيح للمعمدان حينما أراد أن يمنع المسيح من العماد: «اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل برٍّ» (مت 15:3)، وكيف أن غاية تعليم المسيح ابتدأ بها عندما قال:

---

(5) A. Neander, *op. cit.*, p. 242.

«قد كَمَلَ الزمان واقترب **ملكوت الله**» (مر 15:1)، فهذان الأساسان: الأول: البر، والثاني: ملكوت الله؛ هما كل تعليم المسيح. والبر هنا تعبير عن إرادة الله، **فنحن نصنع البر لأنه إرادة الله** خلواً من زمان ومكان وغاية وظروف. غير أن هذا البر سيبلغ منتهى تجلِّيه وصدقه في الملكوت. وواضح هنا أن إرادة الله لا تعتمد على رجاء قادم أُخروي، **فإرادة الله بالخلاص والملكوت والحياة الأبدية قائمة بذاتها خلواً من أي عوامل أخرى زمانية أو غير زمانية. لأن إرادة الله أزلية البدء وأبدية النهاية، أي لا بداية لها ولا نهاية. فإرادة الله كالله. هذه هي تعاليم المسيح: التصاق بإرادة الله، وهذا هو البر والملكوت والحياة الأبدية**. وعلى سبيل المثال نجده لا يُعلِّم طريق الكمال، ولكن يأمر به لأنه يعطيه كاملاً: «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (مت 48:5). هنا يُثار السؤال بلهفة: كيف نكون كاملين؟ يقول المسيح آمنوا بي! وكل مَنْ اختبر هذا الإيمان الحي بالمسيح يعرف كيف تمَّ له هذا!!

وإن أراد السامع والقارئ المزيد يقول له المسيح: «فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو 57:6)، أي تكون له الحياة الأبدية التي هي **الشركة الكاملة مع الآب ويسوع المسيح** بحسب القديس يوحنا (انظر 1يو 3:1).

لذلك حينما يقول المسيح: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات» ـ لتلاميذه ولكل الذين على شاكلتهم ـ (في إنجيل ق. متى يخاطب التلاميذ)، ومعها التطويبات الأخرى، فهي بحسب ما شرحنا أعلاه لا يمكن أن تُحسب هذه التطويبات كجزاء لعمل سابق!! أو كنتيجة لتعليم سابق. والمعنى أنه لا يكون بحسب هذه الطوبى أن الإنسان مجرَّد أن يكون مسكيناً بالروح يصير له ملكوت الله، أي أن المسكنة بالروح تؤدِّي إلى ملكوت الله، هذا ليس من تعليم المسيح؛ إذ لا يزال بين المسكين بالروح والملكوت وَصْلَة ذات أهمية عظمى **هي المسيح**. إذن، فليفهم القارئ **أن المسيح لا يقدِّم منهج تعليم، بل يفتتح ملكوت الله عبوراً بشخصه. فالمسيح يقف بين حاضرنا ومستقبلنا الروحي، بين عجزنا وقصورنا الفاضح، وبين الكمال المسيحي الذي يرضيه ويفرِّح قلب الآب**.

والمعنى هنا أن المؤمن بالمسيح يصير مِسْكيناً بالروح حقًّا، فالمسيح يحمله على كتفيه ويدخل به الملكوت. والمعنى بأكثر وضوح أن وعد المسيح للمسكين بالروح لمن يؤمن به ـ وبقية التطويبات ـ أن يكون له ملكوت الله، وهذا هو وعد نعمته ومحبته وصليبه(6).

---

(6) A. Edersheim, *The Life and Times of Jesus the Messiah,* 1883, repr. 1965, pp. 528 f.

المسيح هنا في العظة على الجبل يكشف حياة صالحة لَمنْ يؤمن به مهيَّئة للملكــوت، تبنَّاهــا بنعمته وختمها بدم صليبه. ولكن بعد التطويبات الثمانية (مت 5: 3ـ12)، أعطى المسيح تعقيبــاً هاماً للغاية على التطويبات التي كشفها فيما يخص تلاميذه، إذ أوضح ضرورة استمرارهم في وضعهم الطوباني هذا لامتداد صورة الملكوت على مدى الأجيال. فقال لهم: «**أنتم ملح الأرض**»، «**أنتم نور العالم**»، «**فليضئ** نوركم هكذا قدَّام الناس، **لكي يروا أعمالكم** الحسنة، **ويمجِّدوا أباكم الــذي في السموات**.» (مت 5: 13و14و16)

36 ـ التطويبات
ثمانية تطويبات والتاسعة جزاءٌ للتعيير والطرد والشتيمة

[كان الفقراء والمساكين والحزانى أقرب الناس إلى قلب المسيح،
لأنهم كانوا أكثر الناس احتياجاً إليه وإلى العزاء.] بابيني(7)

أبسط تعليم يمكن أن نستخلصه من مجموعة التطويبات بحسب إنجيل ق. لوقا أنها مسألة موازنــة بين ميراث أرضي وميراث سماوي. فكل المؤمنين بالمسيح الذين حرمهم العــالم والبــشرية الظالمــة وجحود الرؤساء والحكومات من حق ميراثهم في الأرض ـ من راحة وسعادة وإقامة وأمان وهنــاء وعدل وسلام ـ **يعطيهم المسيح مجاناً ميراثاً عنده في ملكوت الله!!** هذا بحسب إنجيل ق. لوقا.

ولكن ق. متى **يزيد** على المحرومين من ميراث الأرض والعالم المؤمنين أيــضاً بالمــسيح الودعــاء والرحماء وأنقياء القلب وصانعي السلام. فمنطقياً وبحسب قياس ما جاء في تطويب المحرومين، يكون هؤلاء المؤمنين أيضاً لهم نصيب في الميراث السماوي، **لأنهم كانوا عوامل إســعاد وفــرح وراحــة وسلام لإخوتهم المحرومين.**

كذلك فإن ق. متى أضاف على «طوبى للمساكين» عند ق. لوقا إضافة أخرجتها مــن معــنى الحرمان المادي حينما قال: «طوبى للمساكين **بالروح**» كذلك أضاف «للجيَّاع والعطــاش» مــا أخرجهم عن فئة المحرومين مادياً إذ قال: «الجيَّاع والعطاش **إلى البر**» وأدخل هؤلاء وأولئك في عداد الأتقياء، ولكن ليس بالعمل بل بالإيمان بالمسيح والرجاء فيه فقط.

وهنا في حالة التطويبات كما جاءت في إنجيل ق. متى بهذا الوضع الجديد، إنما تهدف إلى تقــديم

(7) G. Papini, *op. cit.*, p. 87.

صفات كأنها مطلوبة في المسيحية من شأن أصحابها أنهم يرثون ملكوت السموات. فالفارق في تطوبيات ق. لوقا واضح أنه للتعويض عن حرمان مما على الأرض بسبب مظالم الناس وجحودهم، ولكن باحتساب المسيح كوسيط. أمَّا التطوبيات عند ق. متى فهي صفات وفضائل في المسيح تورِّث الملكوت. ولكن بالنهاية فإن الفئتين ترثان ملكوت الله عن طريق المسيح بالإيمان والحب.

فالتطوبيات عند ق. لوقا يمكن التعبير عنها كما جاء في المزمور: «الذاهب ذهاباً بالبكاء حاملاً مِبْذَرَ الزرع مجيئاً يجيءُ بالترنُّم حاملاً حزمه» (مز 6:126)(8). وهذا الاتجاه أصيل جداً في تعاليم المسيح، ولكن على أساس «**في المسيح يسوع**». لأن عظة الجبل برمتها تُحسب إعداداً للملكوت **على أساس المسيح كوسيط**، وهي تعبِّر بالفعل عن ملكوت الله في المسيح.

والتطوبيات(9) هي التي ابتدأ بها المسيح العظة على الجبل، وعددها بحسب اعتبار مقصد المسيح للحالة الداخلية سبعة عند ق. متى، ولكن إذا أضفنا إليها تطويب الذين يُضطهدون من أجل البر ومن أجل المسيح يصير عدد التطوبيات تسعة.

أمَّا من حيث التطوبيات عامة فعددها كثير ويليق بنا هنا أن نجمعها معاً، فهي جزءٌ لا يتجزَّأ من فكرة العظة على الجبل:

+ «طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع.» (مت 16:13)
+ «طوبى لك يا سمعان بن يُونَا، إنَّ لحماً ودماً لم يُعْلِن لك، لكن أبي الذي في السموات.» (مت 17:16)
+ «طوبى لِمَنْ لا يعثر فيَّ.» (مت 6:11)
+ «طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا (يعطيهم طعامهم في حينه).»(مت 46:24)
+ «طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه.» (لو 28:11)
+ «طوبى للذين آمنوا و لم يروا.» (يو 29:20)

وبينما نجد إنجيل ق. متى يحتوي على 13 طوبى، نجد إنجيل ق. مرقس لا يحوي شيئاً منها.

ونحن إذا عدنا إلى كتاب المزامير نجده يفتتح المزامير أيضاً هكذا، إذ يضع التطوبيات وبعدها

---

(8) M. Dibelius, *The Sermon on the Mount,* pp. 62-64.

(9) Alfred Plummer, *An Exegetical Commentary on the Gospel According to St. Matthew,* (1915, repr. 1982), pp. 57-61.

الويلات على النمط الذي اتخذه المسيح في التطويبات على أنها تحمل نفس رنة المزامير:

+ «طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس، لكن في ناموس الرب مسرَّته، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً. فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه التي تعطي ثمرها في أوانه وورقها لا يذبل. وكل ما يصنعه ينجح. ليس كذلك الأشرار ...» (مز 1: 1-4)

والقديس أمبروسيوس يرى أن عدد التطويبات في إنجيل ق. متى ثمانية فقط، ويصف أسلوبها ونغماتها بثمانية أجراس ذات أصوات متعدِّدة ولكن منسجمة في لحن واحد(10).

والثمانية تطويبات لا تصوِّر ثماني درجات للمختارين، ولكن ثماني مسرَّات وتطويبات مجتمعة معاً في واحد هو قائلها. فالمسكين بالروح هو بلا شك وديع، وصانعو السلام هم رحماء، والذين يجوعون ويعطشون إلى الملكوت يكشف جوعهم وعطشهم عن قلب نقي بلا جدال. والمضطهدون من أجل البر هم باكون حتماً وحزانى، وبالنهاية يتعزّون بالضرورة.

وهكذا الثماني تطويبات تكمِّل الكمال المسيحي في صور متعدِّدة ولكن متداخلة، وكأنها تنبع من مصدر واحد هو الروح الذي يوزِّعها. ولا شيء يماثلها على الإطلاق في العبادة اليهودية ولا الفلسفة الأُممية.

ولا يعدم السامع من أن يكتشف رنة الألوهة والملوكية تسري فيها جميعاً كملك يوزِّع الهدايا على رعيته مجّاناً، وكإله يمنح بركاته بسرور على عبيده المتطلِّعين إليه في شوق وسعادة وفرح غامر كأنهم في العيد، وكلهم تغمرهم فرحة مع عدم تصديق، لأنه يُلقي في حجرهم بلا حساب كنوزاً لا يستحقونها. لقد تعوَّدت الآذان على سماع طوبى للذين يحسنون على الفقراء، ولكن لم يُسمع قط أن «طوبى للفقراء» ! كما قالها ق. لوقا حرفياً!! قد يُطلب منَّا أن نبكي على حالنا، ولكن أن يُقال لنا طوبى للباكين، فهذا أمر جديد غير مصدَّق. ولكن كما سبق ونبَّهنا، فإن السر الأعظم يبقى في قائلها وهو المسيح الذي جاء ليحمل كل هؤلاء على كتفه ويدخل بهم السعادة الأبدية: «لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مت 13:9)، «محب للعشَّارين والخطاة» (مت 19:11)، ويأكل معهم. «حينئذ غضب رب البيت (الذي صنع الوليمة) وقال لعبده: اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة (والعشوائيات) وأزقَّتها، وأَدخِل إلى هنا المساكين والجُدْعَ والعرج والعمي، فقال العبد: يا

(10) **Ambrose, *De offic.*, I. 6.**

سيد، قد صار كما أمرت، ويوجد أيضاً مكان. فقال السيد للعبد: اخرج إلى الطرق والسياجات (المطرودين خارج المدن) **وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي.**» (لو 14: 21-23)

أيها القارئ العزيز هذه هي صورة الملكوت، وهذه هي وليمة الملكوت بعينها!

فالفقير والباكي والوديع بدون المسيح ينال نصيبه بجهاده، ولكن مع المسيح فالملكوت هو نصيبه. لذلك فالتطوبيات تلقي الضوء الكافي والكاشف لموضوع العظة كله، لأن العظة لا تخص الذين يريدون أن يدخلوا ملكوت الله، بل القائمين فيه والمعيَّنين له على أساس أن **المسيح معهم وفيهم**، فالمسيح جاء ورسالته أمامه، فقد سُمِّي من البطن عمانوئيل أي الله معنا، فإن صار الله معنا فنحن في الملكوت. كان في القديم إذا حلَّ الله في وسط الجماعة تتقدَّس الجماعة وتصير شعب الله. هكذا صارت البشرية التي تطلب وجه الله في شخص يسوع المسيح، فالمسيح يحل في وسطها فتصبح جماعة الله، ملكوت الله، الكنيسة، جسده! هكذا فالمسيح يرتاح في المساكين بالروح وفي الجياع والعطاش إلى البر الآتين إليه، والمسيح لا يطلب منهم شيئاً ولكن يبشِّرهم أنهم صاروا من خاصته.

ما هو قصد المسيح من هذه العظة وهذه الأقوال العجيبة؟

الشعب اليهودي مُعثَر في الله، والمعلِّمون استخدموا وصاياه وناموسه ليزيدوا الشعب همًّا على همّه وقلقاً على قلقه وبؤساً على بؤسه. المسيح جاء ليكشف لهم قلب الله المحب والرحيم، ويكشف عن الوجه الحقيقي للناموس أنه وُضع ليمسك أصلاً بيد الإنسان ليعبر به من الظلمة إلى النور، فتعثَّر على أيدي المعلِّمين وعاش الشعب في ظلمة وخوف وموت معاً. المسيح جاء ليقنع الشعب بأن الله غني، وغني جداً، لا يريد منهم شيئاً ولا يطلب منهم شيئاً، إنما جاء ليعطيهم عطايا كانوا يتمنونها ولكن كانت كالخيال، بعيدة بُعد السماء. المسيح جاء وحقَّق لهم بركات السماء وهُم على الأرض.

الطوبى الأُولى: «طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات»:

+ «لأنه هكذا قال العاليُّ المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه: في الموضع المرتفع المقدَّس أسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأُحيي روح المتواضعين ولأُحيي قلب المنسحقين.» (إش 57:15)

الله هنا حاضر!! وبدون الله لا قيمة لأي شيء.

+ «ترنَّمي أيتها السموات وابتهجي أيتها الأرض، لتُشِد الجبال بالترنم، لأن **الرب قد عزَّى شعبه وعلى بائسيه يترحَّم.**» (إش 49:13)

هذا قاله النبي قديماً وهذا هو التحقيق من نفس أقوال النبي: «روح السيد الرب عليَّ، لأن الرب

مسحني **لأُبشِّر المساكين** ...» (إش 1:61). وأمَّا المسيح الذي قال هذا هو نفسه أكمل القول: « اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم.» (لو 21:4)

أمَّا الفقراء والباكون والمساكين في المسيح فليس لهم انتظار في الأرض ينتظرونه، ولكن ينتظرون ما لله في المسيح «إليك رفعت عينيَّ» (مز 1:123). وقد ألقوا بأنفسهم على القدير وصرخوا: « حقِّي عند الرب» (إش 4:49)، هم شحَّاذو الله، مطرودو العالم والمدن والأحياء النظيفة، فقدوا كل عزاء على الأرض، باكون ولا يمسح أحد دمعتهم(11).

كان منظر المسيح وهو جالس وسط العشَّارين والخطاة على مائدة زكَّا، صورة لهذا الملكوت. وعودة الابن الضال إلى أبيه والأب فارد ذراعيه مرحِّباً، كان أيضاً صورة للملكوت(12).

ولكن يعطينا العالِم هيدلام(13) معنى أكثر روحانية لكلمة "المساكين":

إن كلمة "المساكين" هي اللقب السائد في العهد القديم الخاص بالمتدينين والأتقياء الضعفاء: « قم يا رب. يا الله ارفع يدك لا تنسَ المساكين، لماذا أهان الشريرُ الله ... إليك يسلِّم المسكين أمره ... احطم ذراع الفاجر ...» (مز 10: 12ـ15). واضح هنا أن المسكين هو الرجل التقي الذي يخاف الله بعكس الشرير الذي لا يخاف الله. ومعروف أن في المزامير نغمة مبتكرة مؤدَّاها أن الله لا ينسى المسكين، وأن الرب ملجأ للمسكين (انظر: مز 6:14)، «أمَّا أنا فمسكين وبائس. الرب يهتم بي. عوني ومنقذي أنت يا إلهي لا تبطئ.» (مز 17:40)

أمَّا الشرير فهو عدو المسكين، والعداوة هنا تأتي بسبب بُعد الأول عن الله وقرب الثاني منه: « يكمن في المختفى كأسد ... يكمن ليخطف المسكين. يخطف المسكين يجذبه في شبكته. فتنسحق وتنحني وتسقط المساكين في براثنه ...» (مز 10: 9و10)

لذلك فالمساكين إنما كلمة تعبِّر عن مجموعة الأشخاص الفقراء **الذين تمسَّكوا بالله في مقابل** الأغنياء المتسلِّطين والأشرار. **المساكين مسرَّتهم كلها في اتِّقاء الله** وصنع ما يرضيه، وتمسُّكهم بالله كحصن لهم أمام اضطهاد الأشرار والمتسلِّطين عليهم ظلماً. ففي العهد القديم كانت كلمة الأتقياء "حسيديم" تعني فئة خاصة من الناس متمسِّكين بالله، ومنهم الفقراء أي المساكين، ومنهم أيضاً الذين انحرفوا فصار منهم الفرِّيسيُّون.

---

(11) Günther Bornkamm, *Jesus of Nazareth,* pp. 75_76.

(12) Ibid. p. 81.

(13) Rev. Arthur C. Headlam, *The Life and Teaching of Jesus the Christ,* pp. 214 f.

لذلك يؤكِّد العالِم هيدلام أن المساكين هم الذين تخلُّوا عن الغنَى والممتلكات الأرضية وفضَّلوا **الغِنَى السماوي. فهم فقراء بإرادهم بسبب التقوى والتمسُّك بالسمائيات**. وهم بطبيعتهم متواضعون. وهم الذين يجوعون ويعطشون من أجل البر. وهم أمناء ومخلصون بقلوبهم لوصايا الله. قادرون أن يحتملوا الاضطهاد والفقر والجوع **من أجل الله** حتى الموت.

لذلك يسميهم القديس متى في إنجيله: «**المساكين بالروح**»، وهي التسمية الصحيحة التي تكشف عن واقعهم الحقيقي المتميِّز عن مجرَّد الفقراء والمساكين البعداء عن الله والتقوى. فنظرة ق. متى نظرة تَمُتُّ إلى التراث اليهودي التقليدي في العهد القديم. أمَّا ق. لوقا فلم يذكر "بالروح" بل المساكين فقط وهذا تعبير عن مساكين الأرض. وكلا النظرتين تدخلان في نصيب ملكوت الله. هؤلاء من أجل تقواهم، وهؤلاء من أجل حرمانهم، ولكن هذا وذاك في المسيح.

الطوبى الثانية: «**طوبى للحزانى، لأنهم يتعزَّوْن**»:

حتى الباكون الذين كانوا يُحسبون عالة على الأخلاق الصلبة والسوية، فتح المسيح أحضانه لهم، ناداهم لا تيأسوا ابكوا لا تخافوا، ابكوا لأني سمعت بكاءكم وفتحت لكم أبواب مملكتي السمائية. ودموعكم هي التي أحدرتني من السماء، فجئت لآخذكم عندي. طوبى للباكين الآن، لأنهم يتعزون في الملكوت؛ ولكن ليس الذين يبكون موتاهم أو أموالهم أو حظوظهم، بل الذين يبكون من أجل الجوع إلى الله ومن أجل الرحمة ومن أجل البر والقداسة، لشعورهم بالعجز والضعف والتقصير. فدموعهم هي قربانهم المقبول ولا يريد المسيح معها شيئاً. ولكن لا فقر الفقراء ولا دموع الباكين أهَّلتهم للملكوت، بل المسيح الذي من أجله افتقروا ومن أجله ذهبوا يبكون.

الطوبى الثالثة: «**طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض**»:

+ «**تعلَّموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم.**» (**مت 29:11**)

أمَّا تطويب الودعاء، فأحاله المسيح على النصيب المذكور في المزامير(14) أنهم يرثون الأرض (انظر: مز 11:37)، باعتبار أن الأرض بمفهوم الملكوت هي أرض الميعاد الحقيقية بمفهومها الأُخروي: "الأرض الجديدة" التي يسكن فيها البر، والتي هرب منها الحزن والكآبة والتنهُّد في نور القديسين. والودعاء لا يمكن تفريقهم عن المساكين أو الفقراء بالروح، إلاَّ أن المساكين بالروح قد بلغوا درجة العدم في الحرمان؛ أمَّا الودعاء فلا يزال رصيدهم في الدنيا كبيراً يعطيهم القدرة على

---

(14) A. Plummer, *op. cit.*, p. 64.

العمل والتملُّك، ولكن لحساب الملكوت.

الطوبى الرابعة: «طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون»:

+ «**ومَنْ أكلني عاد إليَّ جائعاً.**» (**ابن سيراخ 29:24**)
+ «**إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب.**» (**يو 37:7**)

الذي يجوع إلى الخبز ولا يجده يهزل وربما يموت، هذا حال مَنْ يجوعون ويعطشون إلى المسيح، فهو معيار الملكوت الذي لنا به علاقة وحقوق. وكما لا يمنع الأب الخبز عن أولاده، يفعل الله كذلك، فالجوع إلى الله يقلق الله إن لم يملأه. فالشبع المادي من الخبز هيِّن على الموسرين، والشبع الروحي لله أهون لأن الله غنيٌّ حقاً: «فمَنْ منكم، وهو أب، يسأله ابنه خبزاً، أفيعطيه حجراً؟ ... فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا (جسدية) جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء، **يعطي الروح القدس** للذين يسألونه» (لو 11: 11-13). ومن هذا التصريح الخطير نفهم بالحري أن الجياع والعطاش إلى البر يعطيهم الله الروح القدس حتى الشِّبَع. مجداً لله!! نعم طوبى للجياع، وألف طوبى للعطاش. يا رب أعطنا الجوع إليك والعطش لروحك!!

جاع إشعياء لله جداً ذات مساء وبقي جوعه يطوي عليه نفسه حتى الصباح فأخذ يقول: «بنفسي اشتهيتك في الليل. أيضاً بروحي في داخلي إليك أبتكر!» (إش 9:26). ولكن منذ متى شبع أحد من الله، ومنذ متى ارتوى به إنسان؟ فيقول في سفر الحكمة: «مَنْ أكلني عاد إليَّ جائعاً ومَنْ شربني عاد ظامئاً» (ابن سيراخ 29:24). لأن البر والحب ولطف الله يلهب قلب كل مَنْ أكل منه فيطلب المزيد، وروحه تؤجِّج النفس بالعطش طلباً لمزيد: «أفغِر فاك فأملأه!» (مز 10:81)

فالعظة على الجبل تكشف عن مشيئة الله؛ كيف نحتال عليها بفقرنا، ونجتذبها بجوعنا، ونستولي عليها بعويلنا، وروحه رهن العطاش!

الطوبى الخامسة: «طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون»:

ما أقسى الإنسان على أخيه الإنسان، سمعناها ونحن أطفال ووعيناها ونحن رجال واكتوينا بها ونحن شيوخ!! ما أغلى هذه السلعة "الرحمة" في عالم الإنسان، وما أندرها عند الرؤساء والمتولِّين! فلمَّا عزَّت الرحمة بين الإنسان والإنسان ولم تجد رحمة الله لها مكاناً تستريح فيه بين الناس، وضع المسيح قانونها الذي حتَّمه تحتيماً كما بقسم، أنَّ الذي لا يرحم أخاه لن يذوق من رحمة الله! وعليك أيها القارئ العزيز أن تنتبه للمعنى، فالمعنى خصب وعميق، إذ هو يعني أننا نحن نستدر رحمة الله علينا لو بادرنا برحمة الفقير والمسكين والضعيف والمظلوم.

فإذا اشتكينا أننا مظلومون، فالشكوى مردودة علينا بشكوى أننا ظلمنا الآخرين؟

وإن عزَّت رحمة الله علينا فلأنها كانت شحيحة في قلوبنا، وبالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم ويُزاد.

بهذا لا يتعجَّب القارئ أن ملكوت الله يُرحِّب بالذي جعل الرحمة طبعه ولذَّته وعمله وهوايته، لأن هذه هي طبيعة الله! فإن كان العالم يحتاج إلى الدرجة القصوى في كل شيء إلاَّ أن حاجته إلى الرحمة قد فاقت كل حاجة. فالرجال صاروا قساة حتى على أطفالهم، والنساء فقدن حنانهن حتى على بناتهن! فمن أين نطلب رحمة الله وعلى مَنْ يسكبها الله؟!

الطوبى السادسة: «طوبى لأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله»:

+ **«مَنْ يصعد إلى جبل الرب ومَنْ يقوم في موضع قدسه؟**
الطاهر اليدين والنقي القلب.» (مز 24: 3و4)

وكأنها النتيجة الحتمية لمجموع التطويبات الخمسة السابقة. وبهذه الصفة ليس فقط يكون لهم ملكوت السموات، بل ويعاينون الله.

رآها داود أنها سر معاينة الله = نقاوة القلب! على مستوى الصعود إلى ملكوت الله!

+ «مَنْ يصعد إلى جبل الرب ومَنْ يقوم في موضع قدسه؟ الطاهر اليدين **والنقي القلب** ... يحمل بركة من عند الرب وبرًّا من إله خلاصه.» (مز 24: 3-5)

الله يُرَى ويُحَسّ ويُحَبّ بالقلب، فالقلب إذا تصفَّى من شوائب العالم ومعاثر الجسد يصير كالبلورة الشفافة النقية، مَنْ حدَّق فيها يرى صورة الله. فالعجيب أن نقي القلب ليس هو فقط الذي يعاين الله، بل يُرَى الله من خلاله ومن أحاسيس قلبه! كان أقسى توبيخ يوبِّخ الله به الذين لا يشعرون به ولا يفهمون مقاصده، أنهم غلاظ القلوب. فغليظ القلب هو معتم القلب لا يُرى فيه إلاَّ السواد، ولا يُرى به إلاَّ ما تعكسه عليه الدنيا وأطماعه وشهواته.

القلب النقي صفحة واحدة بيضاء شفافة تُرى عليها انعكاسات مضيئة من الإنجيل ومن أعاجيب أعمال الله ونور وجه المسيح! لأن القلب النقي يرصد وجه الله: «وهم (أنقياء القلب) سينظرون وجهه واسمه على جباههم» (رؤ 22:4)، «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يُظْهَر بعد ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذا أُظهِرَ نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.» (1يو 3:2)

وقديماً قال القديس إيرينيئوس: [إن رؤية الله تورِّث عدم الموت][15]، إنها تتم هنا لنأخذ عربون عدم الموت؛ أمَّا هناك فتكون هي سعادة الأبد أو «طوبى الملكوت»

«قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله!» (مز 51:10)، هكذا هتف داود من شدَّة شوق قلبه لرؤية الله وهو يرتد كل مرَّة فيصرخ: «قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله» كان يستحيل على قلب الإنسان أن يصل إلى النقاوة التي يرى بها الله أيام موسى النبي: «لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر 33:20)، إلى أن دفع الابن الوحيد ضريبة الموت من أجل الإنسان. إذن، فالقلب النقي مهما كانت نقاوته فبدون المسيح يستحيل أن يعاين الله. وهذا هو استعلان الملكوت، أن يكون للإنسان قلب نقي ويرى الله ولا يموت!!

الطوبى السابعة: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْن»:

علامة بني الملكوت:

+ **«اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب.»** (عب 12:14)

في الرسالة إلى العبرانيين (12:14) يجمع بولس الرسول السلام مع القداسة كمدخل لرؤية الله: كل فعل منهما مختص بنوعيته، فالسلام مع جميع الناس والقداسة لله، لأن القداسة وحدها تحتاج إلى شهادة الآخرين (1تي 3:7). فالسلام أولاً مع الناس يعطي للقداسة انطلاقها بلا عائق، لأن السلام مع الناس بمثابة إخلاء طريق الإنسان إلى الله من العوائق. ويؤيِّد ذلك: «إن قدَّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكَّرت أن لأخيك شيئاً عليك. فاترك هناك قربانك قدَّام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدِّم قربانك» (مت 5: 23و24). فالسلام مع الناس بمثابة إخلاء طرف الإنسان من العالم، حتى يُقْبَل لدى الله. على أن القداسة لا يمكن أن نضحِّي بها في سبيل السلام، فالسلام مع الناس خادم القداسة ويبرِّرها لتصلح أن تقدِّمنا كأولاد لله.

المسيح يُدعى رئيس السلام، لذلك فصانع السلام يمت بصلة سرِّية لرئيس السلام، وملكوت الله الذي جاء ليؤسِّسه المسيح هو ملكوت السلام. فواضح أن صانعي السلام يعملون لحساب الملكوت ويؤسِّسون مع المسيح ملكوته بين الناس. لذلك فقد صارت لهم هذه الطوبى أن يُدعوْا أبناء الله أو أبناء الملكوت: «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله. من أجل هذا لا يعرفنا العالم لأنه لا يعرفه» (1يو 3:1). جاء المسيح رئيساً للسلام، وأبغضه العالم لأنه ليس من العالم، لذلك كل مَنْ يصنع السلام لا يعرفه العالم ويبغضه العالم: «إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد

(15) Irenaeus, *Adv. Haer.* IV, XXXVIII, 3.

أبغضني قبلكم» (يو 18:15). والبنوَّة لله نلناها بالإيمان بابن الله لمَّا قبلناه: «أمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله» (يو 12:1)، «الذين ... وُلدوا من الله» (يو 13:1). فهنا سر صنع السلام راجع لأنهم مولودون من الله، أبناء الله، أي لأنهم أبناء الله فهم يصنعون السلام، أو يصنعون السلام لأنهم أبناء الله يُدعوْن.

ولكن صنع السلام لا يهيِّئ الإنسان أن يصير ابناً لله، بل عندما يصير الإنسان ابناً لله فهو يصنع السلام. فالطوبى هنا معقودة على أولاد الله فهم وحدهم الذين يصنعون السلام.

وإذا عدنا إلى أساس سر الطوبى كلها نجد سرها «**في المسيح**»، فالطوبى «في المسيح» وسبق أن أوضحنا أن المسيح هو الذي أعطانا السلطان أن نصير أولاد الله (صفحة 194) إذن، فطوبى لصانعي السلام هذا «في المسيح» وهم أولاد الله يدعون هذا لأنهم «في المسيح» فالمسيح بهذه الطوبى السابقة يعلن عن حقيقة الملكوت والمسيح الذي أسَّسه.

وهكذا في هذه التطويبات السبع يكون المسيح قد أعطى صورة الملكوت قائمة في الإنسان المسيحي الكامل. إن كان للمسكين بالروح، أو الباكي من أجل الله، أو الوديع لحساب الله، أو الجائع أو العطشان إلى الله، أو الرحيم برحمة الله، أو النقي القلب الذي يرى الله، أو صانع السلام كابنٍ لله!

الطوبى الثامنة: «طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات»:

+ «**والعالم أبغضهم، لأنهم ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم.**» (يو **14:17**)

وهي الأخيرة في التطويبات!

هنا ينبري العالم لمناوأة أصحاب الطوبى بكل أنواعها، لأنها غير معروفة ولا مقبولة للعالم، لأن حامل الطوبى هو لحساب الله، ولكن العالم لا يعمل لحساب الله، "فالعالم لم يعرف الله" (انظر: يو 25:17)، وكل مَنْ هو ليس من هذا العالم يبغضه العالم. لقد أبغض العالم المسيحَ وهو يبغض كل مَنْ هو للمسيح.

هنا اكتسب المسيح للإنسان المسيحي "إنسان الملكوت" طوبى جديدة ليست نابعة من داخله، ولكنها شاهدة له. فإزاء اضطهاد العالم وبغضته لإنسان الملكوت الطوباني، تضاف إليه الطوبى وتزداد. هذا هو مصدر التطويب الجديد، غير أن المسيح لا يعاقب المضطهدين لأولاده لأنه «يحب العالم» ولا يزال له من بين المضطهِدين أنفسهم أولاداً، فهو يعطي الطوبى للمضطهَد ويترك المضطهِدين إلى أن يأتي دورهم.

كذلك فإنه يسمح بالطرد والإهانة والاضطهاد ليستطيع أولاد الله أن يمارسوا الصفح والصبر وطول الأناة ومحبة الأعداء، فيزداد رصيدهم الروحي وتزداد تزكيتهم للملكوت. لذلك فصاحب الطوبى الذي يقع تحت الاضطهاد والطرد ينال الطوبى مرَّة أخرى بالفائض ليستطيع أن يثابر في موهبته شهادة للمسيح. بمعنى أن أصحاب التطويبات السبع مدعوون إلى مزيد من الطوبى باضطهاد العالم لهم. والعجيب أن الذي يذوق الطوبى مرَّة لا يكف عن السعي في إثرها: «بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي ... وأوجد فيه» (في 3:8و9). هذا هو الإنسان المسيحي الكامل.

+ «لا تخف لأني فديتك، دعوتك باسمك أنت لي.» (إش 43:1)

هذا كله انطبق على التلاميذ والرسل القديسين، وهو ينطبق الآن وكل يوم على الكنيسة. لذلك يعطي المسيح الطوبى الأخيرة واضحة للتلاميذ بالمخاطب:

الطوبى التاسعة: «طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة، من أجلي، كاذبين. افرحوا وتهلَّلوا، لأن أجركم عظيم في السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم»:

+ **«والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه، وغَطَّوْه وكانوا يضربون وجهه.»** (لو 22: 63و64)

هنا جاءت «من أجلي» لتساوي «من أجل البر» وقول المسيح: لأنهم هكذا طردوا الأنبياء، أُضيف إليها الآن: وهكذا المسيح أيضاً.

هنا في الطوبى الثامنة والتاسعة ولأول مرَّة تأتي الطوبى جزاءً لعمل سلبي، لأن في جميع التطويبات السبعة السابقة هي من واقع حال إيجابي وليست عِوَضاً لشيء أو لعمل. فأن يُضطهَد إنسان لأنه ابن الملكوت وابن الله، فهذا أجره عظيم في السموات. هنا الامتياز فوق الطوبى أو فوق المواطنة السمائية، لذلك كان الشهداء والمعترفون والذين أُهينوا وأُذلوا من أجل البر (الملكوت) أو من أجل المسيح (صاحب الملكوت) لهم امتياز في الكنيسة. والكنيسة تذكرهم بالفخار والمجد وتعيِّد لذكرى آلامهم!!

37 ـ «أنتم ملح الأرض ... أنتم نور العالم»

هذا هو الأثر الطيب الذي يتركه التلميذ والإنسان المسيحي المتجدِّد عموماً كابن للملكوت نحو العالم.

«**أنتم ملح الأرض**»: «ليكن كلامكم ... مُصْلَحاً بملح.» (كو 6:4)

الملح مادة حافظة تحفظ الطعام من الفساد، وتعطيه طعمه المقبول، فالآن هؤلاء الطوباويون هم بالنسبة للعالم الذي يعيشون وسطه قادرون بالإنجيل والكلمة والقدوة أن يؤثِّروا في الوسط الذي يعيشون فيه، كما يؤثِّر الملح في الطعام ليعطيه قيمة وحفظاً من الفساد. ويصوَّر الملح بالقداسة، لأنه له فعل تطهير، ومعروف أن الذبائح لا تقدَّم على المذبح إلاَّ إذا مُلِّحت بملح. وهكذا يصبح الملح له دور في فعل الذبيحة من جهة التقديس. ولكن أي شيء إذا فسد قد يكون له منفعة إلاَّ الملح فإنه إذا فسد صار خطراً وبيلاً على كل شيء يلمسه. هكذا القدوة إذا كانت حسنة وروحية صار تأثيرها ممتدًّا للصلاح؛ ولكن إذا كانت القدوة فاسدة، فأثرها لا يُطاق ولا تصلح لشيء مثل الملح إذا فسد يُلقى كالزبالة. والزبالة قد تكون مفيدة إلاَّ الملح الفاسد. هكذا الرجل العاق الشرير الذي يبدو في صورة واعظ أو مبشِّر وهو سيئ العمل والقول والفكر.

لذلك فالطوباويون يصبحون أصحاب مسئولية كبيرة في العالم، إذ عليهم يضع الله والمسيح الآمال في التغيير والنمو والتقدُّم في المعرفة والنعمة ومخافة الله. ولكن إن هم ضلُّوا أضلُّوا المئات والألوف وراءهم.

«**أنتم نور العالم**»:

+ **«وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو 22:17)، كناية عن نور الاستعلان.**

النور الحقيقي واحد وهو المسيح، وهو الوحيد الذي جاء ليضيء العالم. فالتلاميذ بجملتهم مشعل الإنجيل ومجد اسم المسيح، قادرون أن يكونوا أداة صالحة في يد الرب ليصنع بهم عملاً في العالم. وكلما علت الشمس فإنه يشتد نورها وضياؤها للمسكونة كلها، هكذا كلما ارتفع التلاميذ عن مستوى العالم في لهوه وفساده كلما شعَّ نورهم. لذلك يقول المسيح ينبغي أن يُوضَع المصباح على المنارة ليضيء لكل مَنْ في البيت. والكنيسة هي بيت الله، وقد صنع الآباء الأُوَل للكنيسة منارة، لا لكي يوضع فوقها مصباح، بل لكي تكون هي المصباح المضيء الذي تبتهج به البشرية كل العمر، تحيا أعلى من مستوى العالم وترتفع عن نجاسات الدنيا وأعمالها الشريرة. هكذا تصبح الكنيسة

مصدر إشعاع نور ومعرفة وتقوى ومخافة الله. فالكنيسة هي بعينها المدينة المنيرة الموضوعة على جبل.

ويقول الرب: «**فليضيء نوركم هكذا قدَّام الناس، لكي يَرَوا أعمالكم الحسنة، ويمجِّدوا أباكم الذي في السموات**» (مت 16:5). النور هنا لا يخرج عن معنى «المسيح الذي فيكم» والمعنى قوي للغاية. فإن كان المسيح هو الذي يضيء داخلياً، أي هو نورنا، فهو حتماً سيخرج خارج محيطنا المحدود وسيُسمع من بُعد ويُرى أيضاً. وحينئذ تصبح أعمالنا مضيئة لأن المسيح يكون منظوراً فيها. لأن أعمالنا بدون المسيح لا يمكن أن تُضيء: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (في 13:2). وهنا يرجع للطوبى سرها الإلهي: فسرُّ الطوبى هو المسيح، فإذا غاب المسيح غابت الطوبى، فإن نُظرت الطوبى ومُدحت فهذا يعني أن المسيح موجود وعامل فيها. هكذا أعمال الطوباويين، النعمة ظاهرة فيها ونور الحق يشع من ثناياها: «ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحاً بملح» (كو 6:4)، حيث الملح هنا هو نعمة المسيح!!

لهذا نفهم، لماذا جاء عمل الطوباويين بعد عرض صفاتهم في التطويبات السابقة؟ لأن الطوبى ليست هوية أو عطية نلهو بها، بل هي أمانة ورسالة، هي حمل ونير. إن لم تعمل عملها صارت ثقلاً علينا لا نحتاجه ولا نحتمله. فالطوبى عملها لصيق بالآخرين كالتصاق ذرات الملح الخفيفة بالطعام لترفع من قيمته وتجعله يقاوم الفساد المحيط. ثم الطوبى عملها يسبق صاحبها إلى بعيد، تُرى وتُسمع ويكون الحق فيها منظوراً من الناس ومبهجاً للنفوس ومبدِّداً للظلمة وكاشفاً لأستار القلوب.

لهذا يعتبر أكابر الشُّرَّاح أن هذا الجزء من العظة إلى هذه الآية (3:5ـ16)، هو عرض مختصر لعظة الملكوت والهدف الذي وضعه المسيح في البداية.

38 ـ ناموس الحياة في المسيح يسوع

+ «**الكلام الذي أكلِّمكم به هو روح وحياة.**» (يو 63:6)

إن آخر آية قالها المسيح في القسم الأول من العظة كانت «فليُضِئ نوركم هكذا قدَّام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجِّدوا أباكم الذي في السموات» **هذا حضٌّ على التعليم عن السلوكيات**، والتعليم الذي يقصده المسيح، ليس بحسب الكتبة والفرِّيسيين ومن واقع التوراة والناموس، ولكن من واقع كشف مطالب العهد الجديد والأسس التي تقوم عليها أعماله وتعاليمه. هنا مهَّد المسيح بالآيات من (17ـ20)، إذ اعتبرها ضرورة قصوى أن يفهم الناس على أي أساس سيبدأ المسيح يضع تعاليم العهد الجديد. فالمعروف في التعليم اليهودي أن أي معلِّم يقف للتعليم عليه أن يوضِّح المرجع الذي يرجع إليه في التعليم: إن كان رابِّي من الرابيِّين المعترف بهم ذوي الحيثية والمصداقية الرسمية لدى السنهدرين، أو من التلمود نفسه مستشهداً بالنص وموضعه بتدقيق بحيث لا يقرأ النص إلاَّ وهو في حالة خشوع واضح، واضعاً الطاقية الرسمية التي للقرَّائين على رأسه تحشُّماً من حضرة الله. كان المسيح يَعْلم هذا تمام العلم. وإن كان قد شاع عنه بواسطة الكتبة والفرِّيسيين أنه لا يتمسَّك بالناموس، ولا بالتقليد الذي انحدر من الشيوخ، ولا بأي معلِّم سابق. هنا أراد المسيح أن يصحِّح مفهوم موقفه أولاً أمام الجمع فقال: «ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل.» (مت 17:5)

(أ) «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل»:

+ «**فلما أخذ يسوع الخل قال قد أُكمل**» (يو 30:19)

المسيح يَرُدُّ على الذين روَّجوا الإشاعة من الكتبة والفرِّيسيين. يقولها المسيح بهدوء ملكي يسنده سلطان الألوهة. والمسيح يقولها على أساس أنه هو المسيَّا المنوط به هذا التكميل، ومن كلام المسيح وألفاظه الموزونة بالميزان المسيحي الراسخ والقوي، يحس الإنسان على التو أن هنا مَنْ هو أقوى من موسى والناموس والأنبياءِ جميعاً، هنا مَنْ يقول ويسند قوله ببرِّه المطلق وشهادته بالحق الناطق والمنطوق. ويقول بعض الكُتَّاب: إن المسيح في هذه العظة التي يصحِّح ويكمِّل فيها معارف الناموس والتوراة، يتكلَّم من موقع تاريخي، وكأنه على قمة جبل يطال السماء: «قيل للقدماء ... وأمَّا أنا فأقول لكم» هنا صوت العهد الجديد النازل من السماء وبيده مفاتيح الملكوت ومغاليقها: «صوت الرب على المياه. إله المجد أرعد.» (مز 3:29)

وهو لا يقصد بالتكميل أن يخضع هو لها، بل أن يكمِّل عجزها ـ أي عجز وصايا الناموس ـ

يمسك بيدها من حيث وقفت غير قادرة أن تلبِّي حاجة الإنسان المريض الساقط تحت ثقلها، يعطيها روحاً جديداً يرفعها من مستواها المتدنِّي إلى المستوى الروحي، حيث يرفع الإنسان فوق نفسه، يرفع وجه الإنسان الساقط غير القادر أن يتطلَّع إلى وجه الله، ويقدِّمه في إحساس الدَّالة والثقة والإيمان نحو الله في درجة التبنِّي، حتى أنه بعد الحزن والأنين ومرارة السقوط لهذه الآلاف من السنين يعود الإنسان الخاطئ يطلب الله بدالة الابن: يا أبَا الآب!! لا يعود يعرقله الناموس بحروفه، بل يطير الإنسان بروحه بلا عائق في سماء الحب والفرح والسلام المنسكب عليه من قلب الله. فالمسيح جاء ومعه كل حب الآب وحنانه وعطفه. والمسيح جاء ليرفع الغطاء الثقيل من فوق الناموس ليرى الإنسان صورته الأُولى ـ إنسانه الجديد ـ الخارجة من لدن الله ثانية، التي استطاع الناموسيون والفرِّيسيون والربيُّون أن يحجبوها بتعاليمهم وتخاريجهم، فلم يعد يُرى الناموس إلاَّ في صورة هؤلاء المعلمين بعقلهم المنحصر ووجوههم العابسة، والعصا بيد وحجر الرجم باليد الأخرى. فالمسيح جاء ومعه ناموس حب الآب: «**هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية**» (يو 16:3)، كنور سلَّطه على بنود الناموس وحروفه فنضحت كلها بالحب وأخرجت من أعماقها ودًّا ومصالحة. وعِوَض الذبائح الحيوانية التي كانت تقف عند خطايا السهو لا تتعدَّاها، جاء المسيح وبيده دم الابن الوحيد ليرفع خطايا العَمْد ويغسل الضمير منها، ويطهِّر القلب، ويجدِّد الروح، ويقدِّم الإنسان أمام الله قديساً وبلا لوم!!

وعِوَض ما قدَّمه الناموس من ضرب العِصِيِّ ورجم الحجارة والقتل بلا رحمة، جاء الابن الوحيد يحمل الخاطئ على كتفه ليعبر به أهوال الموت، وليضعه كوديعة غالية أمام كرسي رحمة الآب.

فالناموس أخذ زمانه في التأديب والجفاء بحسب غضب الله، وجاء زمان الحب والسلام واللطف المنسكب بيد الابن من قلب الله!

فالمسيح لم يجيء ليلغي الناموس، بل ليكمِّل تأديبه بحبه الإلهي، وضرب العصا بقبلات فمه. وما بدأه المعلِّم الحق بالعصا يكمِّله بالنُّصح والمودَّة. وما حفظه التاريخ من دموع الإنسان، سجَّلته له السماء بحروف من نور: «اجعل أنت دموعي في زقك.» (مز 8:56)

«ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (لو 17:16). فقد احتُسب تأديب الإنسان من نصيب الابن: «**تأديب سلامنا عليه**» (إش 5:53). فهو الذي وازن التأديب بدمه!! ومشيئة الله جمعت هذا وذاك: التأديب والرحمة معاً!! والله لا يتغيَّر، ولكن الإنسان هو الذي يتحتَّم أن يتغيَّر بل يتجدَّد.

«**المحبة هي تكميل الناموس**» (رو 13:10):

لَمَّا لخّص المسيح تعاليم العهد القديم بجميع بنوده لخَّصه كالآتي: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ... وتحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلَّق الناموس كلــه والأنبياء» (مت 22: 37ـ40). بمعنى أن المسيح كشف في البدء أن قاعدة الناموس القديم هي محبة الله ومحبة القريب ـ التي جاءت في الوصايا العشر ـ والآن يبتدئ المسيح تطبيق هذا علــى العهــد الجديد، بمعنى أن يعيد العهد القديم إلى قاعدته الأُولى التي انبثقت منها كل التعاليم. وإن كان الإنسان قد عجز عن تنفيذ وصايا المحبة في القديم، فلأن الحياة كانت تحتاج إلى تجديد ونعمة، وهذا مــا جــاء المسيح ليكمِّله.

(ب) **لا تقتل: الوصية السادسة من الناموس:**

+ «**قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. ومَنْ قتل يكون مستوجب الحكم. وأمَّا أنا فأقول لكم: إن كل مَنْ يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم.**» (مت 5: 21و22)

لقد رفع المسيح صوته في العظة على الجبل لكل أذن ليصل إلى أقطار الأرض وإلى أقصى الــزمن والتاريخ، ولكي يُحيي به الإنسان ويهنئه أنه قد بلغ الطوق وزمان الحب: «ليقبِّلني بقــبلات فمــه »(نش 1:2)، «لا أعود أسمِّيكم عبيداً ... لكني قد سمَّيتكم أحباء، لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي (عن الحب).» (يو 15: 15و16)

وحينما يقول: «قد سمعتم» فهو يخاطب قوماً لا يقرأون ولا يكتبون، يُساق إليهم التعليم شفهياً ويحفظونه بسماع الأذن. وحينما يكشف الغطاء عن الوصية القديمة: «لا تقتل» يُظهر أساسها الذي انتهى بالمخالفة إلى القتل: "وهو الغضب". فقال المسيح: «**أمَّا أنا فأقول لكم: إن كل مَنْ يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم**»، وهكذا عاد بالوصية إلى أصولها الأُولى النفسية أي الوجه الروحي لأصل الوصية. هذا لا يهدم الوصية، بل يُجلِّيها ويعطيها المعنى والمبنى الإلهي الأصيل الــذي ينبغي أن يكون لإنسان شبَّ على الانفعال القاتل الذي لا يليق إلاَّ بالوحوش. فالمسيح يطلــب ردع الغضب من القلب. لأن وصية «لا تقتل» لا تليق بإنسان يتهيَّأ لميراث السماء. فالوصية الجديدة دعــوة للإنسان أن يتخلَّى عمَّا هو للأرض، ويستعد لكي يستوطن الملكوت.

+ «**ومَنْ قال لأخيه: رَقَا، يكون مستوجب المجمع، ومَنْ قال: يا أحمق، يكــون مــستوجب نــار جهنم.**» (مت 5:22)

وحينما يسترسل المسيح في توابع الآية من حيث الشتيمة ـ «يا أحمق» وما يماثلها، بقصد إثارة النفس

التي تفضي بها إلى العراك والقتل ـ فهذه يجعل عقوبتها رادعة أيضاً. فهو يجتث الغضب أيضاً من أصوله.

وحينما يقول المسيح: «مَنْ يغضب على أخيه "**باطلاً**"» يقصد الغضب الخارج من قلب شرير، فالغضب الباطل هو الغضب الذي تكون منابعه وأسبابه شريرة حاقدة، المُفْضي إلى العراك والقتل. لأن هناك غضباً حميداً هو الذي قال عنه بولس الرسول: «اغضبوا ولا تخطئوا» (أف 26:4). ولكن على العموم فالغضب كما قال يعقوب الرسول: «غضب الإنسان لا يصنع بر الله» (يع 20:1)، فالغضب الباطل غضب قاتل. وعلى أية حال فالوصية الجديدة قائمة على أساس المحبة، فكل ما يتنافى مع المحبة محظور وممنوع وله عقوبة. وهنا تأتي الشتيمة: مَنْ قال لأخيه يا أحمق، أو حتى رقا وهي الأقل خروجاً عن المحبة؛ فإن ذلك يدخل في عصيان وصية الله بالمحبة. وكل ما يجرح المحبة يسيء إلى الله، ويعود بالنقمة على الإنسان.

فالله لا يقبل قربان مَنْ أساء إلى أخيه، فقبل أن تصلِّي وقبل أن تقدِّم قربانك، اذهب اصطلح مع أخيك أولاً. وويل لمن يختصم الله، فهو الديان ورضاه يساوي الحياة، فمراضاة الله هي مصالحة الإخوة، وطالما لنا خصومة مع أحد فالخصومة مع الله قائمة والحياة مهدَّدة وبالنهاية هلاك أبدي.

(ج) لا تزنِ: الوصية السابعة من الناموس:

وهي شديدة الصلة بالوصية العاشرة عن الزواج.

وقد استغرق المسيح في شرح ما يتعلَّق بها في العهد الجديد من (27:5ـ30)، إذ هي قوام الحياة الزوجية وسعادة البشر. والمسيح يصنع مقارنة شديدة الوطأة بينها وبين الزنا في قول في القديم: «لا تشته امرأة قريبك» (خر 17:20). والمسيح لمَّا كشف الغطاء عن وصية الطهارة أوضح أنها لا تنبع من العلاقات، ولا هي في محيط الجسد، بل هي «**طهارة القلب**». فالزنا يبدأ من داخل القلب، لذلك انتقل العقاب على الزنا من أيدي الشهود إلى فحص القلوب.

+ «**سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزنِ. وأمَّا أنا فأقول لكم: إن كل مَنْ نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه.**» (مت 27:5و28)

إذن، فليست العلاقات الأسرية أو الاجتماعية هي المطلوب رفعها إلى درجة الطهارة، بل القلب. حيث تُحسب طهارة القلب في الدرجة العظمى من الأهمية للمدعوين إلى الملكوت.

وحينما أعطى المسيح إمكانية قلع العين وقطع اليد اليمنى ليحتفظ الإنسان بطهارة قلبه، يكون المسيح قد رفع طهارة القلب لتكون أهم للإنسان بالنسبة لحياته وللملكوت من العين واليد اليمنى. فالقصد من قلع العين وقطع اليد هو رفع خطورة طهارة القلب إلى أقصى ما يمكن من تصوُّر

الإنسان، ليضحِّي بجسده وأعضائه في سبيل طهارة القلب، التي إن أخفق الإنسان في الاحتفاظ بها يكون قد أهلك نفسه مجَّاناً.

(د) **الطلاق:**

+ «**وقيل مَنْ طلَّق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأمَّا أنا فأقول لكم: إن مَنْ طلَّق امرأته إلاَّ لعلة الزنا يجعلها تزني. ومَنْ يتزوَّج مطلَّقة فإنه يزني.**» (مت 5: 31و32)

هذا هو البند الثالث بعد القتل والزنا، فالطلاق في اليهودية كان يتناسب مع قساوة قلوبهم من ناحية المرأة، إذ كانت مهانة. فالرجل يصلِّي كل يوم ويقول: "أشكرك يا رب لأنك لم تخلقني امرأة"!

والمسيح أوقف حركة الطلاق التي كانت سارية بأمر الناموس، باعتبار أن موسى صرَّح بها من أجل قساوة قلوبهم. وأوضح المسيح قاعدة الزواج الأصلية: إن الله خلقهما ذكراً وأنثى، فلا زواج بثانية ولا طلاق البتة. ويبدو أن علَّة الطلاق وهي الزنا أُضيفت، لأن الله لم يُدْخِلها في الاعتبار عند الخلقة.

لذلك أيضاً نجد المسيح لمَّا عرضوا عليه المرأة التي أُمسكت في ذات الفعل أنه لم يَدِنْها، بل حضَّها على التوبة: «ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً (ثانية)» (يو 8:11). فماذا لو كانت هذه المرأة رجلاً؟ فالزنا خطية يمكن التوبة عنها، وكم من زناة وزانيات تابوا فصاروا قديسين وقديسات. والشيوخ الذين أقاموا عليها الحدّ، لمَّا كشف الله ضمائرهم، وضح أنهم كلهم خطاة. خاصة وأن الزنا قد رفعه المسيح بهذه الوصية من ذات الفعل إلى زنا الشهوة بالعين والقلب، حيث ما من إنسان قادر بعد أن يقيم الحدَّ على رجل أو امرأة.

(هـ) **لا تحلف:**

كان أصل الوصية ينص على أن مجرَّد ذكر اسم الله، مجرَّد ذكره، ممنوع منعاً قاطعاً، حتى أن مَنْ ينطق باسم الله نطقاً موتاً يموت، ولكن عدَّله الربيُّون على مدى التاريخ ليصبح مَنْ نَطَقَ باسم الله باطلاً موتاً يموت، أمَّا القَسَم أي الحلفان باسم الله فهو مطلوب في العهد القديم لتـذكُّر اسم الله والفخر به ولتمجيده. أمَّا المسيح فجعل تعامل بني الملكوت: «نعم نعم، لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير» (مت 5:37)، باعتبار أن المسيحي يقول الحق ولا شيء غير الحق. فهو غير محتاج إلى إثبات قوله لأنه قول الحق. ففي الملكوت الحق يملك على الجميع، والجميع يملكون بالحق.

(و) **لا تنتقم:**

لقد أخذت التوراة "**الانتقام بالمثل**" كقانون الحكم الطبيعي (خر 21: 23-25، لا 24: 17-21، تث 19:21). ولكن بالرغم من هذا التصريح، فالتوراة تجعل الانتقام من عمل الله وليس من

عمل الإنسان: «لي النقمة والجزاء» (تث 35:32، مز 1:94). وكان موسى رجلاً حليماً أحلم الناس جميعاً (عد 3:12). وكل هذه الاستثناءات ضرب بها اليهود عرض الحائط وتمسَّكوا بحرفية الناموس مع تعارضها مع الناموس نفسه، لأنه يقول: تحب قريبك كنفسك. ولكن التمسُّك بالانتقام يكشف مستوى الانحطاط في الأخلاق والسلوك الوحشي. ولكن كان الناموس لازماً لشعب بدائي حتى يضبط التوحُّش في الانتقام ويحدّه. وليس منظر أبشع من هذا المنظر: إذا خَبَطَ إنسان (ولو خطأ) ابنة إنسان آخر وحدث أنها ماتت، فإنه بحكم الناموس يكون أبو البنت المقتولة له الحق أن يقتل بنت ذلك الرجل!! وإذا أخطأ رجل وهو يبني بيتاً وحدث أن أصاب ابن صاحب البيت فقتله، فصاحب البيت بحكم الناموس له أن يقتل ابن هذا البنَّاء. هنا دخل الناموس الذي للحياة في صميم الموت. ولهذا أعطى المسيح وصيته المضيئة: «لا تقاوموا الشر، بل مَنْ لطمك على خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً. ومَنْ أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومَنْ سخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. مَنْ سألك فأعطه. ومَنْ أراد أن يقترض منك فلا تَرُدَّه.» (مت 5: 38-42)

هذا لم يمنع المسيح من أن يترك للحاكم والقاضي تدخُّلهما والحكم بما يقضيان به. ولكن على أي حال فروح الانتقام تقل وتنعدم إزاء أحكام القضاء العام. فالإنسان يذهب إلى المحكمة ليؤدِّي واجباً حزيناً وبتغصُّب، ولكن أمر المحكمة يسود. الرب أعطاها كلمة قاطعة: لا تقاوموا الشر ولا الأشرار، لأن المحبة تحتمل كل شيء وتصبر على كل شيء (1كو 7:13). فإذا تحتَّمت المقاومة والردع لخير الناس أو ربما لخير المتعدِّي نفسه فليكن ذلك بروح المحبة. فإذا انتهت المشكلة بقيت المحبة. هكذا يقول القديس كبريانوس(16). وكم من شهداء باحتمالهم عن حبٍّ قسوة المضطهدين جرُّوهم إلى المسيحية. وهكذا فليشرق نورنا في الضيق وفي الاضطهاد والمذلَّة. نحن نُذل ونُهان، وليرتفع المسيح والإنجيل.

وحينما قال المسيح: «كل مَنْ سألك فأعطه» فلم يستثن اللص ولا اختص العطية للفقير نفسه والمسكين، ومَنْ طلب رداءك فاخلع له الثوب أيضاً لتستر عريه، إن لم يكن جسده فنفسه.

(ز) أحبُّوا أعداءكم:

الحب والبغضة في الناموس:

«تحب قريبك وتبغض عدوك» هكذا صرَّح الناموس ليتمشَّى مع بدائية الشعب الجاهل، ولكن ارتفع المسيح رفعة فائقة إذ قال: «أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى

(16) Cyprian, *De bono patientiae,* cited by A. Plummer, *op. cit.,* p. 86.

مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات!» (مت 5: 44و45). أصل النقلة هي من بني آدم إلى بني الله! فالمدعو أن يكون لله ابناً وللملكوت مواطناً ووريثاً، فهو يحب بلا مقابل؛ بل يحب حتى في مقابل الظلم والمهانة والطرد والبغضة، لكي يثبت أنه يحب بلا ثمن، يحب من مصدر عطاء سماوي لا يفرِّق بين صديق وعدو. أخذ المحبة مجاناً ويعطيها بلا مقابل، أخذناها بغير استحقاق ونعطيها كذلك بلا استحقاق ولا تحقيق. ويلاحظ القارئ اللبيب أن المسيح يوصي بأن يكافئ الإنسان بعكس ما يكافَأ، إن كانت إساءة فالإنسان يُكافئ بالمحبة حتى ولو كوفيء بالعداوة، ويُلعن مجاناً فيبارِك، ويُبغَض بلا سبب فيُحسن بلا ثمن، ويُساء إليه ويُطرد أمَّا هو فيصلِّي لكي لا تُحسب لهم خطية. وهكذا يضيء النور في الظلمة! وهكذا يُشرق الله شمسه على الجميع لا فرق بين بار وقاتل، وبالمثل يأتي المطر ليرتوي الجاحد والقديس.

فإن أحببنا الذين يحبوننا فأي أجر لنا، ولكن إن قدَّمنا الحب الصادق للذين لا يحبوننا فثمنه عند الله مضاعف.

وإن سلَّمنا على الذين يسلِّمون علينا فأي فضل لنا، ولكن إن سلَّمنا على الخطاة والمزدرى بهم وغير الموجود فقد تسجَّل لنا ذلك فضلاً. وبنو الملكوت يلزم جداً أن يكونوا كأبيهم!

(ح) كونوا كاملين: ختام الكلام:

المسيح جاء ليكمِّل الإنسان بالكمال المسيحي الذي يرضي الآب، فهو لم يكمِّل الناموس إلاَّ ليكون الإنسان كاملاً في ملكوت الآب، وهو لم يستقرئ في الناموس ما لا يُقرأ؛ بل جعل الناموس نفسه يتكلَّم، فلمَّا قال الناموس: «تحب قريبك كنفسك» شكَّلها المسيح على يديه فأخرج منها بدائع وروائع، والأصل هو محبة الإنسان للإنسان. وهكذا يصير الناموس كاملاً لدى الكاملين. فالخاطئ عند الفرِّيسيين مزدرى به وغير موجود، ولَمَّا جاء المسيح أحبَّ الخطاة ونزل إليهم وجالسهم وآكلهم وعزَّاهم وتعزَّى بهم! وبالنهاية شاركهم حمل خطيتهم وموتهم ولعنتهم، ثم قام بهم مبرَّرين ببرِّه وقديسين بقداسته!! وحينما وثق أنه تَّم فداءهم وخلاصهم نكَّس رأسه وقال: «قد أُكمل» أكمل الناموس فأكمل الإنسان، فأهَّله ليكون في الملكوت ليتأمَّل في محبة الله ويعيش كماله وحبه إلى ما لا نهاية.

39 ـ السلوك الروحي في المسيح مقابل السلوك بحسب الناموس

تكلَّمنا عن المثاليات المسيحية مقابل مثاليات الناموس القديم بحسب تعليم الكتبة والفريسيين كما قدَّمها المسيح في التطويبات وما بعدها. والآن يأتي المسيح على السلوكيات عند الفرِّيسيين وما يقابلها عند بني الملكوت. ذلك باعتبار أن الفرِّيسيين يدَّعون أنهم معيار السلوك الكامل تبعاً

للناموس، ولكن المسيح لا يذكرهم بالاسم وإنما يدعوهم بالمرائين.

والسلوكيات التي تكلَّم عنها المسيح هنا هي:

(أ) الصدقة. (ب) الصلاة. الصلاة الربَّانية.

(ج) الصوم. (د) التخزين والاكتناز في الأرض.

(هـ) لا تدينوا لكي لا تدانوا.

ويمتد المسيح بالتعليم من التخزين والكنوز الأرضية ويستمر (من مت 6:19-7:12) يعرض كل دقائق الحياة المسيحية بحسب مشيئة الله.

(أ) الصدقة:

وإن كان المسيح قد ابتدأ بالصدقة، ولكن في الحقيقة وحسب أصل الكلمة ـ كما اتفق العلماء ـ أنها مقصود بها أعمال البر عامة، حيث تتضمَّن بالضرورة الصلاة والصوم أيضاً.

والمسيح يقدِّم صورة فاضحة للفريسيين: كيف يقدِّمون صدقتهم، إذ يسير واحد من أتباعهم ومعه بوق ينبِّه الناس إلى ما سيقدِّمه سيده الفرِّيسي. وهو تصوير يكشف عن كل ما أضمره الفرِّيسي أن تزداد كرامته بين الناس ويُدعى أبو المحسنين أو عطّوفة الرابِّي فلان صانع الحسنات. وقد جعلها الفرِّيسيون دعاية يُعلن عنها في الأزقة وداخل المجامع بالصوت العالي. وبهذه الصورة يكون الفرِّيسي قد نال أجره من الناس كرامة وتعظيماً، وأمَّا الصدقة عند المسيح فتُعطى لمشاركة الفقير في ضيقه. ولكي يرفع المسيح كل لَبْس عن نية الصدقة وعطائها، تبنَّي شخصية المحتاج فقيراً كان أو مسكيناً أو غريباً أو مريضاً أو محبوساً، إذ اعتبر نفسه هو هذا المعوز المحتاج، وهذا في شكل مسجون وجائع وعطشان وعريان! وبذلك حقَّ أن الذي يصنع الصدقة والرحمة إنما يقدِّمها للمسيح شخصياً. والمزمور يقول: «طوبى للذي ينظر إلى المسكين، في يوم الشر ينجِّيه الرب» (مز 41:1)، وسفر الأمثال يحذِّر: «مَنْ يرحم الفقير يُقرض الرب» (أم 19:17)، والرب نفسه قال: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع 20:35). والتجاهل في فحص المستحق من غير المستحق مطلوب، وعدم الدعاية أوصى بها المسيح فلا تعرف شمالك ما تصنع يمينك، أي بدون مظاهر العطاء التي تلغي أجر نعمتك، بل تكون في الخفاء، فأبوك الذي في الخفاء هو يجازيك علانية.

(ب) الصلاة:

يحرص الفرِّيسي أن تكون صلاته ظاهرة بقصد متعمَّد أن يراه الناس فيحمدوه على برِّه وتقواه. وهذا يقوم على الادِّعاء بأنه ذو قربى من الله وحظوة، فيلتجئ إليه الناس ويمدحوه. هذا أيضاً يكون

قد استوفى أجره من الناس.

وهنا يتكلَّم المسيح عن الصلاة الخاصة وليست العامة، فيقول: ادخل مخدعك وأغلق بابــك، لأن الصلاة إلى الله هي عمل يختص بالله وحده. إلى هنا تنتهي المقارنة، ولكن المسيح يعطــي بالمناســبة نصائح للصلاة:

1- لا تكرروا الكلام دون فهم فليس بكثرة الكلام تستجاب الصلاة كما يظن الفرِّيسيون، فــلا تتشبَّهوا بهم فإن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. إذن أنت واقف أمام مَنْ يعرف كل مشيئات قلبك.
2- نموذج الصلاة التي يجب أن تحوي عناصر الصلاة الأساسية.
«صلاة أبانا الذي في السموات» وقد سبق أن شرحناها في صفحة 193 وما يليها.

(ج) الصوم:

جعله المسيح من أخص خصائص النفس المتقرِّبة إلى الله، فهو لا يحتمل الظهور أو التظاهر: «وأمَّا أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الــذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية» هنا اختفت كل أعمال الظهور أمــام النــاس وكسب تزكية الذات؛ بل هو تقرُّب إلى الله برفع القلب والجسد كذبيحة طاهرة بلا عيب أمــام الله وللتذلُّل الحقيقي بالنفس في حضرة الله من أجل نوال رحمة في يوم الافتقاد. والصوم هو حداد علــى الشبع وملذَّات العالم والجسد، وتحدٍّ لجبروت البطن التي أهلكت كثيرين وأورثت البــؤس لمحبيهــا. فالصوم عودة إلى مشاعر المسكنة كفقير واختزال البطن ليليق بالإنسان الدخول من الباب الــضيق. ويحكي إشعياء النبي مُساقاً من روح الله عن الصوم هكذا:

+ «أليس هذا صوماً أختاره (الرب) حلَّ قيود الشر، فكَّ عقد النير وإطلاق المسحوقين أحــراراً وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تُدخِل المساكين التــائهين إلى بيتــك، إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمِكَ. حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبــت صحتك سريعاً، ويسير برُّك أمامك ومجد الرب يجمع سَاقَتَكَ. حينئذ تدعو فيُجيــب الــرب، تستغيث فيقول: هأنذا. إن نزعت من وسطك النير والإيماء بالأصبع وكلام الإثم، وأنفقــت نفسك للجائع وأشبعت النفس الذليلة، يُشرق في الظلمة نورك ويكون ظلامك الدامس مثــل الظهر، ويقودك الرب على الدوام ويُشبع في الجدوب نفسك، ويُنَشِّطُ عظامك فتصير كجنــة ريًّا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه. ومنك تُبنى الخِرَب القديمــة. تُقــيم أساســات دورٍ فــدورٍ فيُسمُّونك مُرمِّم الثغرة، مُرجِعَ المسالك للسكنى!» (إش 58: 6-12)

هذا هو الله الذي يرى في الخفاء ويجازي علانية!!

وقد يكون الصوم من الشروق إلى الغروب حسب التقليد (قض 26:20، 1صم 24:14)، أو يكون لسبعة أيام كما صام الشعب بعد دفن شاول (1صم 13:31)، أو لثلاثة أسابيع في المسوح والدموع: «في تلك الأيام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام لم آكل طعاماً شهياً» (دا 10: 2و3)، أو أربعين يوماً (خر 28:34، تث 9:9و18، 1مل 8:19). وكان الفرِّيسيون المراؤون يصومون يومين في الأسبوع (لو 12:18). والمسيح أعطى نموذجه الكبير للصوم 40 يوماً دون طعام وشراب. والذين تدرَّبوا على الصوم أدركوا عمق السر الكائن فيه، حيث تنجلي الرؤية وينفتح وعي الروح لقبول إعلانات الله.

(د) التخزين والاكتناز في الأرض:

لقد امتد ق. متى بهذا البند كثيراً لأنه ضارب في أعماق العالم، على أن الطمع في جمع المال والصلاة الفارغة من الروح متلازمان، وإحدى الموبقات الأخلاقية عند الفرِّيسيين هي الطمع (لو 14:16). فالفريسي رجل غنيّ بحكم وظيفته في المجتمع، لأنه يعتبر أن الغِنَى هو الجزاء الحقيقي لاشتغاله بالدين وغيرته على الناموس. والفرِّيسي يصنع من نفسه وصلة طبيعية بين البر والغِنَى. وباستنكار المسيح لعبادتهم أفسد عليهم معنى غناهم. إذن، على المسيحي أن يبحث له عن الغِنَى الحقيقي ويجعله كنزه الدائم. والمسيح يقسِّم حديث الغِنَى المسيحي على ثلاثة أقسام:

1 ـ الكنز السمائي، 2 ـ المال والعين البسيطة القانعة،

3 ـ القضاء على مصدر القلق.

1 ـ الكنز السمائي:

أمَّا بالنسبة للنوعية فيما يخص الكنوز، فالمسيح يخاطب جماعة بسيطة بيوتها من طين يمكن نقبها في ساعة وسرقة كل ما فيها، لذلك فالأضمن للإنسان أن يكنز كنوزه حيث لا سارق ولا فساد هناك في السماء. ولكن الذي يهم الإنسان بالدرجة الأُولى أن يطمئن على أين يعيش قلبه وبما يهتم؟ لأن في هذا هناء حياته أو غمها، لأنه حيث يكون الكنز يكون القلب أيضاً والفكر. لذلك إن أردنا لأنفسنا حياة سماوية علينا أن نكنز كنوزنا في السماء، حينئذ يعيش قلبنا مشغولاً بالمصير المبارك والهدف السعيد. هنا قلب الملكوت النابض! «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء.» (مت 6: 19ـ20)

2 ـ المال والعين البسيطة:

ومن هنا يهيبُ المسيح بالمسيحي أن تكون له عين بسيطة، ومعنى بسيطة هو غير طامعة ولا طامحة، راضية بما في يديها قانعة بنصيبها. فالعين الكثيرة التطلُّع إلى المقتنيات لا تقنع بحالها، وهذه تورِّث الهم والبؤس لصاحبها. وبالنهاية تفقد رؤيتها الصحيحة، وتصبح النفس لها انحياز واضح نحو الأباطيل تجمع وتكدِّس ولا تقنعه أبداً. فالعين البسيطة عند المسيح عين قانعة خالية من الطموح الكاذب، وبذلك تصبح حرَّة غير مقيَّدة بشهوات العبودية المادية الأرضية يسهل رفعها إلى فوق. والعين المشتهية مسجونة في محيط شهوتها، والطامحة عين غير مستقرة فاقدة الرؤية الحقيقية لكل ما هو حق وصالح ومقدَّس.

ومعروف أن الله نور وكل ما يحيط به نور، والعالم ظلمة وكل ما يحيط به ظلام.

النور قد جاء إلى العالم ليعطي العيون المفتوحة شعاع النور الذي يبدِّد ظلمة النفس. وظلمة العالم عميقة وخطيرة، ولكن شعاعاً بسيطاً من النور بنعمة القناعة يبدِّد ظلاماً كثيفاً مقيماً. «الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إش 2:9). فالنور هو الحق الإلهي المعروض علينا اقتناؤه، والظلمة هي متعلِّقات العالم التي تستعبد النفوس والعيون.

+ «سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً (سجين شهوات العالم)، فإن كان النور الذي فيك ظلاماً، فالظلام (الموجود في العالم) كم يكون!» (مت 6: 22و23)

المال سيد قاسٍ يستعبد محبيه ومريديه، فإذا أحبوه سقطوا في سجنه المظلم. لذلك قال المسيح لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين، تماماً كما نقول: لا يستطيع أحد أن يعيش في الظلمة والنور بآن. إمَّا الظلمة حيث لا يشرق نور فيرضى الذين في الظلام بالظلام، وإمَّا النور فلا يرضى الذين في النور بالظلام بأي حال.

العين الطامعة والطامحة هي طاقة ظلمة تُسرِّب الظلام إلى داخل الحياة برمتها، حيث يعيش الإنسان عبداً لعينه وسجيناً لظلامها.

وكما يذهب راغب القداسة والعبادة يبيع كل ما له وحاله وأصدقاءه وبيته وكل الدنيا ليتعبَّد لله بقلب واحد، هكذا يذهب عابد المال والقنية يبيع كل شيء إلاَّ ماله فلا يهتم بحاله ولا بأصدقائه أو بيته ولا كل الدنيا ليتفرَّغ لعبادة ذلك السيد المفتري الذي لا يترك عُبَّاده في النهاية إلاَّ قصاصة أو مصاصة أو العدم، العدم من الصحة والفرح والحرية والسلام والهدوء والخلاص الأخير. إذن، فالمسيح على حق حينما

جعل المال السيد الباطل الكبير الذي يعادل السيد الإله الحق وينازعه ويغلبه في الجولات الأُولى.

3 ـ القضاء على مصدر القلق:

والله يحيلنا أن نلتفت إلى الزهور والطيور، فالأُولى تلبس من يد الله أبهى حُلل الجمال، والثانية تخرج اليوم من الفجر وتعود في المساء مليئة البطن هادئة البال. فالأُولى لا تغزل، والثانية لا تجمع إلى مخازن. والأُولى ترفل بلباس المجد، والثانية تنام ملء الجفون. والاثنان يعيشان تحت تدبير الله الواحد. فهلا نعيش تحت هذا التدبير ولا نحمل هَمَّ لباس أو طعام؟ فجهاد كل يوم كفيل بسد أعواز كل يوم.

وينتهي المسيح من هذا العرض المثير لعمل الله في الحياة ليحضَّنا أن يكون اهتمامنا بالدرجة الأُولى لفوق، للسماء لملكوت الله، التي يصح بل يجب ويتحتم أن نخزِّن لها ونكنز لها، لأننا إن كنا نعيش على الأرض زمناً فهناك نحيا أبداً. وأخذ الله على عاتقه إن طلبنا ملكوت الله وبره تكفَّل هو بحاجات الزمان والجسد.

وآخر رجاء للمسيح أن لا تهتموا للغد!! «أَلْقِ على الرب همَّك فهو يعولك.» (مز 22:55)!

(هـ) لا تدينوا لكي لا تدانوا:

لا يربطها بسابقتها إلاَّ التحذير القاطع، فسابقتها: لا تهتموا للغد، وهذه: لا تدينوا. السابقة خروج خارج الزمن للتدبير وهو أمرٌ وُضع في يد الله، واللاحقة خروج خارج النفس لنقد نفس أخرى وهو أمرٌ يخص الله وحده.

والذي شجَّع المسيح للدخول في هذه القضية هو أنها أولاً تخصه وحده، وثانياً أنها قادرة أن تتلف مصير النفس. فالإنسان في غِنَى من أن يجلب على نفسه قضاء الله بالعقاب إن هو دان الآخرين! كانت النصيحة في السابقة يكفي اليوم شرُّه، وفي هذه يكفي الإنسان قضاؤه. إنها كانت علَّة الفرِّيسيين معلِّمي البر أن يتدخلوا في شئون الناس ويدينوا ويحكموا بغير تحفُّظ. علماً بأن الله لم يضع الدينونة على أفكار الناس وأعمالهم الداخلية في يد أحد.

فإن كان حب المال يُهلك النفس، كذلك حب الدينونة وإخراج الأحكام على أفكار الناس وضمائرها أو أعمالها. ومن هنا جاءت الحكمة: [الذي بيته من زجاج لا يضرب الناس بالطوب].

وإن هذه الوصية تشابه إلى حد كبير: «اغفروا يُغفر لكم» والذي لا يَغْفر لا يُغْفَر له. هكذا دينونتنا للآخرين هي مساوية لعدم مغفرتنا، ولكنها أبسط بكثير. فالمطلوب منَّا أَن لا ننطق في القلب أو الفكر أو الضمير أو الفم بما يسيء ويجرح الآخرين، حتى ولو كانوا مسيئين ومجروحين. فلو انتبهنا

لوجدنا أن دينونتنا للآخرين تهدم حياتنا نحن وتفضح أفكارنا وضمائرنا وتقدِّمنا لقضاء الله.

على أن موقفنا كرقباء على أفكار الناس وأعمالهم وأخلاقهم هو عمل غير مسيحي، إنه تخريب لقانون المحبة الذي تقوم عليه المسيحية. وكأننا أعطينا لأنفسنا أن نكون رقباء على أسرار وأعمال وأخلاق الآخرين، وخصَّصنا جزءاً من أفكارنا واهتمامنا لذلك الأمر، وبذلك تضيع منَّا الرقابة على أنفسنا ومحاسبة ضمائرنا وأفكارنا وأعمالنا، لذلك لا تأخذ أفكارنا منّا أي انتباه أو اعتراف أو تصحيح. فإذا ثبت أننا نحن المستحقون الدينونة والملامة والقضاء ما كنَّا حكمنا على الآخرين. مثل إنسان ذهب يبكي على ميت غيره وميِّته بلا دفن! والذي ينشغل بميت نفسه لا يجد فرصة ليبكي على ميت غيره. وأين محبة القريب كالنفس؟

والملاحظ أن الإنسان يدين في غيره ما هو واقع فيه، ولايلفت نظره من أخطاء الآخرين إلاَّ الأخطاء الساقط هو فيها. يعقوب الرسول قد نبَّه كثيراً على الدينونة وسمَّاها ذَمّاً: «لا يَذُمَّ بعضكم بعضاً أيها الإخوة. الذي يذم أخاه ويدين أخاه يذم الناموس ويدين الناموس ـ (أي يذم عدالة الله ويدين كرسي قضاء الله) ـ وإن كنت تدين الناموس ـ (عدل الله) ـ فلست عاملاً بالناموس (بعدل الله)، بل ديَّاناً له. واحد هو واضع الناموس، القادر أن يُخلِّص ويُهلك، **فمَنْ أنت يا مَنْ تدين غيرك؟**» (يع 4: 11و12)

والمسيح يتكلَّم عن علم علاَّم الغيوب، فهو يقصد حركة الضمير الداخلية بالدينونة التي قد يلمحها الإنسان، ولكن هذه أيضاً تفسد النفس وتسد أمامها باب النمو والتقدم. فمهما تحايل الإنسان أن يردّها إلى العطف أو المحبة فعبثاً يصنع، لأن الدينونة هي تعدٍّ صارخ على اختصاص الله: «فمَنْ أنت الذي تدين عبد غيرك؟ هو لمولاه يثبت أو يسقط. ولكنه سيُثبَّت، لأن الله قادر أن يثبِّته.» (رو 14: 3و4)

فإذا أراد الإنسان أن يحفظ عدم الدينونة عليه أن يحتاط بدقة وبحكمة، يدبِّر ضميره وفكره وفمه خاصة، وعلى وجه الخصوص خادم الإنجيل!

أمَّا مَثَل القذى في العين عند الآخرين الذي نفحص عنه، والخشبة (لوح) في عيننا الذي نتجاوزه، فهو عملية تصوير ناجحة جداً لإظهار الفرق الهائل بين العيوب التي نفحص عنها وندينها عند الآخرين، وبين عيوبنا التي نتغاضى عنها. فهذا ليس صعباً على الضمير من أن يكتشفه عندما يعود إلى الله باكياً!

القاعدة الذهبية ختاماً لجزء من العظة:

في نهاية المقارنة مع الفرِّيسيين يعطي المسيح معياراً تعليمياً يصح أن يكون لكل ما قيل بالناموس: «**فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء**» (مت 12:7). ولكن هذا المعيار لا يركب على أعمال الضمير بالنسبة للمسيحي، فالمحبة هي "المعيار" أو المحرِّك الذي يؤهِّل الضمير بكل تأكيد أن يعمل أفضل مما يريد الإنسان أن يُعمل له. لأنه يبلغ حتى البذل بالذات!

40 ـ الباب الضيِّق والطريق الكرب

إنكار الذات:

عندما أكمل المسيح خصائص وصفات المدعوين للملكوت، وصل في النهاية إلى كيفية الدخول إلى الملكوت وعقبات الطريق. لقد أفاض المسيح جداً في سهولة حياة بني الملكوت وصفاتهم البسيطة ومستوى القامات البسيطة للغاية للمختارين المساكين بالروح الباكين والودعاء والجياع إلى البر والرحماء أنقياء القلب ـ وهكذا. ولكن حينما نأتي إلى الباب والطريق نجد صفات أخرى تخلو منها الراحة وتتنكَّب عنها البساطة، ويعلو فيها قرن العالم علينا حتى ننزل إلى التراب. وبالرغم مما في هذه الصفات من ضيق وعنت، ولكنها على نفس مستوى المساكين بالروح. فالمسكين بالروح إن وجد الباب ضيقاً للغاية، فإنه يمرق من تحت عقبه؛ والباكي السائر يطلب وجه الله إن وجد الطريق كَرِباً، احلوّ في عينيه وتناسق مع دموعه ورغب منها المزيد!!

فمَنْ الذي ينصدّ عن الباب الضيِّق إلاَّ الذي انتفخ في ذاته، ومن الذي يتوه عن الباب الضيِّق إلاَّ الذي اعتاد الدخول من البوابات المزدانة. أمَّا الباب الضيِّق والطريق الكَرِب فهو شديد التناسق والمناسبة مع الساعين للخروج من العالم، الذين استلموا رسمه من بين ثنايا الآيات والكلمات، وعرفوا أوصافه ودرسوا انحناءاته وكسراته، وما يحدّه شمالاً من هوَّة ويميناً من ظلمة. يدخلون من الباب بعد فحص دقيق وسؤال وتمحيص، ولا يُفتح لهم إلاَّ بعد قولهم كلمة السر وبحضور رئيس العالم الذي يودِّعهم باللعنات باعتبارهم مواطنين فاشلين فاسدين، قد خرجوا عن كل أصوله وواجباته وازدروا بسلطانه وتوعداته. أمَّا الطريق ففي البداية تضيء، ولكن قليلاً تعتمّ الدنيا وتضيق، وقليلاً قليلاً تعلو صخورها وتهبط ولا يعرف السائر أين يضع قدميه؟ ولولا معونة سريعة تأتيه من خلف لما خطا خطوة. يسير بتوجيه الكلمة، فلا نور ولا شمس ولا قمر؛ بل ظلمة حالكة يخترقها

الإنسان معتمداً على رجاء خفي وإيمان متحرِّك مع كل خطوة إلى الأمام يدفعه لما بعدها. وتنتهي الطريق عند نقطة اللاعودة بعدها يظهر صاحب الطريق ليعطي إشارة العبور، حيث محنة الإيمان الأخيرة حرجة كمحنة الموت، ولكنها هي باب الحياة.

41 ـ التعليم الصادق والتعليم الكاذب

يتابع المسيح العظة بضرورة التمييز بين معلِّمي الحق ومعلِّمي الباطل. فتعاليم المسيح المحفوظة، والتي استُودعت صدور التلاميذ وقلوبهم وعقولهم، هي الحد الذي يفصل بين الصادق والغاش فيما يخص الأفكار والمبادئ العامة والسلوك.

وابتدأ وكأنه يضع أساس الكنيسة مشبِّهاً بإنسان بنى بيته: فالذي يحفر ويعمِّق ويبني على الصخر الذي هو الإيمان، الذي سُلِّم مرَّة للقديسين، فهذا هو البيت والكنيسة والتعليم الذي يقوم ويدوم وينمو ويرتفع ضد تيَّارات العالم وأهوائه العنيفة. أمَّا الذي لا يدقِّق في التعليم ويستسهل ويتنازل ليتوافق مع أفكار الناس وتصوراتهم، فهذا كمن يبني على رمل، فإذا هبَّت عليه عواصف العالم وأخلاقياته وفلسفاته فإنها تودي بذلك البناء فلا يبقى منه شيء على حق. وبهذا المنطق التأسيسي في التمسُّك بأصول الإيمان والتعليم وحفظ الوديعة والعودة دائماً إلى القاعدة والأصول المسلَّمة والموروثة، أنهى المسيح العظة كما بدأها: «وأما مَنْ عمل وعلَّم فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات.» (مت 19:5)

الفصل التاسع

النزول من على الجبل والذهاب إلى كفرناحوم

42 - شفاء الأبرص

بعد أن أكمل المسيح عظته ذات التأثير البالغ على الجموع، نزل من الجبل مع تلاميذه، فاستقبلته الجموع وهو ذاهب إلى كفرناحوم. وجاءه أبرص يقول له: «يا سيد، إن أردتَ تقدر أن تطهِّرني» (مت 2:8)، فما كان من المسيح إلاَّ أن مدَّ إليه يده «ولمسه قائلاً: أريد فأطْهُرْ. وللوقت طَهُرَ برصه» (مت 3:8). وهكذا تخطَّى المسيح الناموس والنجاسة، لأن الناموس يحذِّر من لمس الأبرص وإلاَّ يصبح الإنسان نجساً، ولكن المسيح جاء ليرفع البَرَص والنجاسة إلى مستوى الطهارة بلمسة يده وكلمة فمه: «والبُرص يطهَّرون» (لو 22:7). ولأن المسيح لم يوصه بالذهاب إلى الهيكل وتكميل فروض الديانة ولإعطاء شهادة بيد الكاهن، لذلك يُظن أن هذا الأبرص كان إمَّا أُممياً أو دخيلاً.

43 - شفاء عبد قائد المائة

وبوصوله إلى مداخل كفرناحوم استقبله بعض رؤساء المجمع في وساطة وتوسُّل، أن يشفي عبد قائد مائة أصابه الشلل فأقعده متألِّماً، وطبعاً كان وثنياً قد تأثَّر باليهود وعبادتهم وسمع عن المسيح فالتجأ لرؤساء المجمع ليتوسَّطوا له عند المسيح، اعتقاداً منه بيهوه إله اليهود أنه قادر على شفائه. أمَّا اهتمام ضابط أُممي بعبد له بهذا القدر مما دفعه أن يذهب بنفسه ويتوسَّل من أجل شفائه، فهذا يزيد اليقين على تقوى ذلك الرجل والاعتقاد أنه كان دخيلاً. وبسبب شدة المرض واقتراب العبد من الموت جعل الضابط يُسرع نحو المسيح. فلمَّا رأى ترحيب المسيح وبدأ يتجه مع الرؤساء نحو منزله، حثَّه قلبه ليتوسَّل لدى المسيح ـ وقد اعتقد في سلطانه الروحي الإلهي ـ «أن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي» (مت 8:8)، معتقداً أن للمسيح سلطاناً غير منظور ليتمِّم إرادته، كما يُرسل هو جنوده! إيمان من نوع جديد لم يرقَ إليه الفكر اليهودي. فلمَّا سمع المسيح تعجَّب فأعلن للذين حوله والذين يتبعون: "أنه لم يجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا" (انظر: مت 10:8)، إذ بإيمانه أنه ابن الله يكون قد قَبِلَ المسيح ربًّا، ولو أنه لم يستطع أن يعبِّر عن ذلك الإيمان الذي ليس في إسرائيل حقًّا،

وقد بلغه قائد المائة قبل أن يبلغه أكثر المقرَّبين إلى المسيح. لأن أُمياً يكون قد آمن بالمسيح وأحسَّ به إلى هذا القدر من الإحساس، لم يَعُدْ يحجزه عن الإيمان ما كان يحجز اليهود من القيود. وهكذا أُعطِيَ قائد المائة رؤية مسبقة، ولكن مضيئة لما سينتظر جميع الأُمم!!

44 - شفاء إنسان به شيطان أخرس وأصم

كان من الملاحَظ أنه كلما نجح المسيح في تأثيره على الشعب، كلما زاد حنق الفرِّيسيين وثورهم عليه. فبدأت حركة بين صفوفهم لم يستطيعوا أن يضبطوها بسبب ما حاق بموقفهم من تدهور، وبروحهم من انهزام أمام تعاليم المسيح.

ولكن، ومرَّة واحدة، فاض الكيل بهم بعد شفاء هذا المريض بالذات، الذي كان عليه شيطان أخرس وأصم، وأظهروا عداءهم بغير تعقُّل. فبينما رحَّب الشعب بهذا الشفاء على أنه علامة من علامات مسيَّا وقوته بحسب النبوَّات، نجد أن الفرِّيسيين لم يتقبَّلوها بل اعتبروها أنها من عمل رئيس الشياطين وأن المسيح به شيطان، لكي يطمسوا فكر الشعب وتصوُّرهم لقيمة هذه المعجزة وعلاقتها بالمسيَّا الآتي. فإذ وجدوا أن المعجزة لا يمكن إرجاعها للطبيعة ولا لأي مصدر آخر، قالوا إنها برئيس الشياطين عُملت، حتى إذا انطلت على الشعب خِدعتهم امتدوا بها ليثبتوا أنه نبي كاذب وهو يعمل لحساب ملكوت الشيطان: «فعلم يسوع أفكارهم، وقال لهم: كل مملكة منقسمة على ذاتها تُخْرَبُ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يَثْبُتُ. فإن كان الشيطان يُخْرِج الشيطان فقد انقسم على ذاته. فكيف تَثْبُتُ مملكته؟» (مت 12: 24-26)، والشر لا يفعل الخير.

ومعروف أن في إسرائيل كان يوجد أشخاص يهود يعزِّمون على المصابين بأرواح نجسة ويخرجون الشيطان، فبادرهم المسيح: «وإن كنت أنا ببعلزبول أُخرج الشياطين، فأبناؤكم بمن يُخرجون؟ لذلك هم يكونون قضاتكم. ولكن إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين، فقد أقبل عليكم ملكوت الله!» (مت 12: 27و28)

وهنا ابتدأ المسيح يصنع مقارنة في غاية الأهمية: بين عمله وعمل الشيطان، وفارق القوة بينهما وهو معلوم: «كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي وينهب أمتعته، إن لم يربط القوي أولاً، وحينئذ ينهب بيته؟» (مت 12:29)

ولكن يوضِّحها ق. لوقا أكثر في إنجيله: «حينما يحفظ القوي داره متسلِّحاً تكون أمواله في أمان، ولكن متى جاء مَنْ هو **أقوى منه** فإنه يغلبه وينزع سلاحه الكامل الذي اتكل عليه (الخطية

وكل متعلِّقاتها) ويوزِّع غنائمه.» (لو 11: 21و22)

وواضح أن ربط الشيطان تمَّ أثناء التجربة، ثم بعدها على الصليب، ونَهْبِ بيت الشيطان تمَّ بشفاء جميع الذين كانوا تحت سلطان إبليس (انظر: أع 10:38)، وبعد الصليب فكَّ أسرى الرجاء الذين كانوا في الهاوية وخرج بهم ظافراً وأعطاهم كرامات (انظر: أف 4:8).

45 - المسيح يؤكِّد صحة إخراجه للشيطان بصورة مطلقة

ولكي يؤكِّد المسيح لسامعيه قوة وصحة إخراجه للشياطين، أوضح ما تعمله الشياطين حينما تخرج تحت تأثير سلطان غير سلطان الله الذي يعمل به هو، موضِّحاً أنه إذا خرج شيطان بدون سلطان الله يعود مرَّة أخرى ومعه سبعة شياطين أُخَر ليسكن نفس الإنسان، إذ يجد مسكنه الأول خالياً من الموانع. كالمرض الذي يُشفى بعلاج غير ناجح فإنه يعود بصورة أقوى: «متى خرج الروح النجس من الإنسان، يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة، وإذ لا يجد يقول: أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيأتي ويجده مكنوساً مزيَّناً. ثم يذهب ويأخذ سبعة أرواح أُخَر أشر منه، فتدخل وتسكن هناك، فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله» (لو 11: 24-26). بمعنى أنه يمكن لإنسان أن يُخرج شيطاناً، ولكن إن لم يكن بسلطان الله الذي يربط الشيطان ويحرمه من العودة إلى مريضه مرَّة أخرى، فإنه يعود ومعه أرواح أُخَر أشر منه. وهكذا من الممكن أن شيطاناً يُخرج شيطاناً آخر باتفاق ثم يعود مرَّة أخرى. ولكن جميع المرضى الذين شفاهم المسيح كانوا على مستوى الشفاء الكامل والمطلق نفساً وروحاً وجسداً. فالمسيح يربط الشيطان وينزع سلاحه (مغفورة لك خطاياك)!

ثم وضع المسيح خطاً فاصلاً يحدِّد الذين يُخرجون الشيطان باسمه بالحق من عدمه. فالذين مع المسيح بالروح القدس في شركة الملكوت، هؤلاء يجمعون المختارين ويشفون بالحق جميع المتسلِّط عليهم إبليس. أمَّا الذين ليسوا مع المسيح ويخرجون الشياطين، فهؤلاء بالنهاية يمزِّقون الرعية ولا يجمعون للملكوت، بل يعملون لحساب الشيطان: «مَنْ ليس معي فهو عليَّ. ومَنْ لا يجمع معي فهو يفرِّق.» (لو 11:23)

46 - التجديف على الروح القدس وعلى ابن الإنسان

بعد ما ردَّ المسيح على الفرِّيسيين وشرح بطلان فرضهم بطلاناً ظاهراً كونه ببعلزبول يُخرج الشياطين، وأثبت عمله وقوة سلطانه الإلهي؛ عاد ليكشف لهم عن الجُرم الشنيع الذي اقترفوه بنسبتهم إخراج الشياطين لبعلزبول رئيس الأرواح النجسة. إذ أن هذا قد أعثرهم في الروح القدس وفي شخصه، لأن المسيح بالروح القدس كان يُخرج الشياطين بكلمته. لأنه شيء أن يَعثر الفرِّيسيون في شكل المسيح البشري الظاهري، وشيء آخر أن يعثر الفرِّيسيون في الوسيلة التي أخرج بها المسيح الشيطان وهو الروح القدس، خاصة أن المسيح نفسه أعلن ذلك. ولكن بالعودة مرَّة أخرى إلى شخص المسيح كونه يعمل بالروح القدس وبسلطان ذاتي، لم يعد خافياً عن كل ذي معرفة أنه ابن الله، وبتأكيد النبوَّات التي يحفظونها. ولكن يقولها المسيح صراحة: «مَنْ قال كلمة (تجديف) على ابن الإنسان يُغفر له. وأمَّا مَنْ قال على الروح القدس فلن يُغفر له، لا في هذا العالم ولا في الآتي» (مت 32:12). ولكن المسيح يعطي علَّة عثرة الفرِّيسيين بصورة أخرى، وهي تسلُّط روح الكذب وأبو الكذَّاب على عقولهم، لدرجة أنه يستحيل عليهم أن يصدِّقوا الحق: «لأن من الثمر تعرف الشجرة. يا أولاد الأفاعي! كيف تقدرون أن تتكلَّموا (أو تقولوا) بالصالحات وأنتم أشرارٌ؟ فإنه من فضلة القلب يتكلَّم الفم. الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يُخرج الصالحات، والإنسان الشرير من الكنز الشرير يُخرج الشرور. ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطَّالة يتكلَّم بها الناس سوف يُعطون عنها حساباً يوم الدين. لأنك بكلامك تتبرَّر وبكلامك تُدان.» (مت 12: 33-37)

47 - عثرة الأقارب «ها أمي وإخوتي»

كانت الآية التي صنعها المسيح مع «**المجنون الأصم والأخرس**» - ويضيف القديس متى «**والأعمى**» - ذات رنين عالٍ دوَّخت الفرِّيسيين، لأنه بكلمة شَفَاهُ المسيح وأظهر أقصى سلطانه مما لم يحتمله الفرِّيسيون، لذلك نسبوا عمل الآية لبعلزبول وأشاعوا الأمر بهوس حتى يزيلوا تأثير هذه المعجزة من عقول الناس. فبلغ الأسرة في بيت العذراء مريم هذا الأمر - وإنما بصورة مثيرة - فجاءوا يستطلعون الخبر، ولمَّا وقفوا من بعيد بسبب الازدحام أرسلوا إليه مَنْ يقول إنهم في الخارج يطلبونه، فكان رد المسيح في الحال: «مَنْ هي أمي ومَنْ هُم إخوتي؟ ثم مدَّ يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وإخوتي. لأن مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأُمي» (مت 12: 48-50).

هنا يرفع المسيح العلائق التي ارتبطت مع الأهل بالجسد إلى مستوى العمل بمشيئة الآب كأساس. فأهلي هم الذين يصنعون مشيئة الآب، والذي لا يصنع مشيئة الآب لا يصبح من أهلي. هنا في الحقيقة مدخل سرِّي عميق لمفهوم من أين جاء المسيح ولماذا؟ فعلى أساس المصدر الذي جاء منه المسيح ينسب علاقته بأمه وإخوته. أنا جئت من عند الآب لأصنع مشيئته. فأمي وإخوتي إن لم يصنعوا مشيئة أبي الذي في السموات لا يكونون في الحقيقة أمي وإخوتي. هنا تنكشف علاقته بإخوته، لأن المعروف في الإنجيل أن إخوته فقط ـ وليس أُمه ـ هم الذين لم يكونوا يؤمنون به، فهم ليسوا إخوته!

48 - يطلبون آية ولا تُعطى لهم آية إلاَّ آية يونان النبي

حينما طلب الفرِّيسيون من المسيح آية من السماء، أدرك المسيح أنه طَلَبٌ ليس للإيمان بل للمقاومة: «وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجرِّبوه» (مر 11:8). وكان رد المسيح بعدها هكذا: «هذا الجيل شرير. يطلب آية، ولا تُعطى له آية إلاَّ آية يونان النبي ـ لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوى ـ كذلك يكون ابن الإنسان أيضاً لهذا الجيل» (لو 11: 29و30). وواضح المعنى للغاية أن يونان أُرسل لأهل نينوى ليبشِّرها إمَّا بالتوبة وإمَّا بخرابها كسدوم، ولكنها تابت. أمَّا إسرائيل فلم تتب برغم قول المسيح: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل (الإسرائيلي) ويدينونه، لأنهم تابوا بمناداة يونان. وهوذا أعظم من يونان ههنا.» (لو 32:11)

والمسيح لم يكن نوراً تحت مكيال ولا مُخبَّأً في مخادع، ولكن كان مدينة على جبل ونوراً على أعلى البيت، ومع هذا لم يروه لعمى بصائرهم. فالنور عند العين المريضة كالظلام، والظلام أريح للعين المريضة من ضياء الحق المؤذي للقلوب المريضة. فإن كانت عين الإنسان الروحية كليلة صار الإنسان في العالم لا يرى إلاَّ العالميات، ونور الحق لا يُشرق من خارج القلوب والعيون، بل من عمقها الداخلي يتجلَّى الله وأعماله البديعة. فإن غاب القلب الرائي في الإنسان فلن يرى إلاَّ نفسه، ومهما أُعطيت له العلامات والإشارات والنداءات فهو كذلك الإنسان الأعمى الأصم!

49 - رياء الفرِّيسيين والكتبة والناموسيين

كان فرِّيسي من بين الفرِّيسيين أكثر سعة عقل من الباقين أخفى ما لهم من مشاعر تجاه المسيح ودعاه بمعنى الضيافة على مائدته، ولكنه كان يضمر أن يمسك شيئاً على المسيح بنوع من الملاطفة. ولكن المسيح كان يرى ألاعيب القوم مكتوبة على جباههم كما على صفحة بيضاء.

وبدأ الفرِّيسي مناورته لَّما رأى المسيح يتقدَّم على المائدة دون أن يغسل يده كعادة الفرِّيسيين، فأبدى اندهاشه متصنِّعاً البشاشة، و لم تفتْ على المسيح، فبادره بالإفصاح عمَّا يدور في قلوبهم: «أنتم الآن أيها الفرِّيسيون تُنقُّون خارج الكأس والقصعة، وأمَّا باطنكم فمملوءٌ اختطافاً وخبثاً. يا أغبياء، أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضاً؟» (لو 11: 39و40). والمعنى أن من الداخل تبدأ الأخلاق الحسنة والذوق والكياسة والواجب والأصول والنيَّات الطيبة، وها أنت قد اعتنيت جداً بأدوات الضيافة وأحسنت جمعها وترتيبها على المائدة، وأهملت واجب المحبة واحترام الضيف وإظهار مشاعر الود والإخاء والصداقة، وبدأت تدينه على عدم غسل يديه وكيفية استخدام آنيتك الأنيقة والنظيفة من الخارج؛ كالفم الذي تخرج منه الكلمات الناعمة والتقوى مع أن القلب يطفح بالدينونة ومشاعر العداء والقتل.

وهل الإنسان إن نقَّى أدوات أكله وشربه واعتنى بغسل يديه وجسده يصير نقيًّا؟ أم الذي يعطي ماله صدقة، فالكل يتطهَّر له! «**أعطوا ما عندكم صدقة، فهوذا كل شيء يكون نقياً لكم**»! «**تعشِّرون النَّعْنَع والسَّذَاب وكل بقلٍ، وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله**»! (لو 11: 41و42)، أليس الذي يعمل هذه يعمل تلك؟

«**تحبون المجلس الأول في المجامع، والتحيَّات في الأسواق**» (لو 11:43)، ونفوسكم تتكرَّه المرضى وتزدري بالفقراء وتحتقر البؤساء وتتعالى عن عامة الشعب. فجعلتم خارجكم بهيًّا نقيًّا تتقبَّلون عنه الكرامات، وداخلكم مملوء نجاسة واختطافاً مخفيًّا لا تراه أعين الناس.

فلمَّا اعترض ناموسي على قول المسيح بادره أيضاً بما لهم:

وأنتم أيها الناموسيون يا مَنْ تُتقنون عرض بنود الناموس وجمع واجباته ووضعها على أكتاف الناس بغيرة ظاهرة وحماس؛ أثقلتم ظهور الناس وأنتم لم تحملوا ولا على أصبعكم أي ثقل منها.

شَغلتُم عقول الناس ببناء المقابر وتزيين مدافن الصديقين، و «هلك شعبي من عدم المعرفة» (هو

6:4)، «**أخذتم مفتاح المعرفة، ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم**» (لو 11:52) بقدوتكم السيئة!

احترسوا من رياء الفريسيين:

استمرَّ الحديث الساخط على الكتبة والفرِّيسيين والناموسيين. وكان كل همِّهم أن يصطادوه بشيء ليشتكوا ضدَّه. فبعد الحديث، إذ اختلى بتلاميذه ومَنْ معه، أعطاهم هذه النصيحة أن يحترسوا لأنفسهم من رياء الفرِّيسيين الذي أسماه "الخمير"، بمعنى أن هذا "الخمير" قادر على إتلاف كل تعاليم المسيح التي هي بمثابة "عجنة الملكوت"، التي إن دخلها عنصر الرياء الفرِّيسي اختمرت كلها وفسدت. فالخمير يرمز إلى الفساد وسرعة انتشاره.

وقول المسيح: «تحرَّزوا لأنفسكم من خمير الفرِّيسيين الذي هو الرياء» (لو 12:1)، ذلك لأن عملهم يأتي في الخفاء خلسة بدعوى التقوى وزيادة الاهتمام بحرف الناموس. ولأن أعمالهم الرديئة في الخفية، لذلك فإنها سريعاً ما تنتشر بين الناس وتلوِّث أفكار الناس حتى يتبلبل إيمانهم.

ولكن الحق الذي في كلمة المسيح سيكشف كل أسرارهم وأعمالهم التي في الخفاء: «فليس مكتوم لن يُستعلن، ولا خفي لن يُعرف» (لو 12:2). أمَّا أنتم فليكن كلامكم وأعمالكم وتعاليمكم في العلن وفي النور: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ... بل شعور رؤوسكم أيضاً جميعها محصاة فلا تخافوا» (لو 12: 4و7)

50 - شفاء المفلوج في كفرناحوم واتهام المسيح بالتجديف

يشترك القديس متى في هذه القصة ويقول بإنها حدثت بعد أن اجتازوا البحيرة إلى مدينة. وق. مرقس يشترك بأن هذه المدينة هي كفرناحوم، حيث كان الازدحام على باب البيت يمنع أي أحد من الدخول، فاعتلوا السقف وفتحوا طاقته (الروشن) بسبب آلام المريض. فلمَّا رأى المسيح إيمانهم قال للمفلوج: «مغفورة لك خطاياك»

وهنا بدأ تذمُّر الفرِّيسيين واتهامهم له في ضمائرهم بالتجديف: «يفكِّرون في قلوبهم: لماذا يتكلَّم هذا هكذا بتجاديف؟ مَنْ يقدر أن يغفر خطايا إلاَّ الله وحده» (مر 2: 6و7). ولكن المسيح، وهو واثق أنه صاحب هذا السلطان وقادر أن ينفِّذه عملياً برفع المرض الذي سبَّبته الخطية، قال أمامهم موبِّخاً تفكيرهم: «أيُّما أيسر، أن يُقال للمفلوج: مغفورة لك خطاياك، أم أن يُقال: قُم واحمل سريرك وامشِ؟ ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا. قال للمفلوج: لك أقول قُم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك. فقام للوقت وحمل السرير وخرج قدَّام

الكل، حتى بُهت الجميع ومجَّدوا الله قائلين: ما رأينا مثل هذا قط!» (مر 2: 9ـ12)

ولكن المسيح اختار الأنسب لخدمته لاستعلان ملكوت الله، ليس بالقوة الشافية فقط، ولكن بـ**"غفران الخطية"** التي هي أساس الشفاء، بل والإقامة من الموت! فالآية صنعها المسيح ليمهِّد لاستعلان قوة الكفَّارة العظمى على الصليب. ولكن بحسب الأصول، فالكفَّارة هي التي أعطت المسيح أن يغفر الخطايا ويُقيم من بين الأموات. فالذي لا يرى في سلطان المسيح القوة على مغفرة الخطايا، فهو كذَّاب حتى ولو آمن بالمعجزة. لذلك فالمسيح بكلامه هذا أثبت عمى الفرِّيسيين وقصور فهمهم.

51 ـ شفاء صاحب اليد اليابسة والاعتراضات وتفنيدها

كان ذلك في مجمع كفرناحوم حيث دخل المسيح ليحضر خدمة السبت، وكان هناك رجل يده اليمنى يابسة (مشلولة). ويبدو أن الفرِّيسيين هم الذين استحضروا صاحب اليد اليابسة خصيصاً، فصاروا يراقبونه هل يشفيه في السبت لكي يشتكوا عليه. أمَّا هو فعلم أفكارهم وقال للرجل الذي يده يابسة: قُم وقف في الوسط، لكي يرى الشعب بؤس حاله؛ فقام ووقف، ثم قال لهم يسوع أسألكم شيئاً: هل يحل في السبت فعل الخير أم فعل الشر؟ تخليص نفس أو إهلاكها؟ أي إنسان منكم له خروف واحد فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه. فالإنسان كم هو أفضل من خروف؟ ثم نظر حوله إليهم بغضب حزيناً على غلاظة قلوبهم وقال للرجل: مد يدك، فمدها، فعادت صحيحة كالأخرى. فخرج الفرِّيسيُّون للوقت مع الهيرودسيين وتشاوروا عليه لكي يهلكوه!

والمعنى في ذلك أكثر عمقاً من شكل الرواية، لأن سؤال المسيح: هل يليق صنع الخير في السبت أم صنع الشر؟ فالرد واضح وهو صنع الخير. ولكن وراء هذا السؤال سؤال عن حقيقة أخرى، وهي إذا كان في مقدور أحد أن يصنع خيراً هكذا ولم يصنعه ـ وكانت الحالة مؤدِّية إلى موت ـ أفلا يكون قد حُسب متهماً بهلاك نفس؟ هذا يعني أن المسيح إنما يعمل واجباً أخذه من الله على عاتقه وهو لا يستطيع إلاَّ أن يشفي طالما عنده قوة للشفاء خلواً من سبت أو أي عائق آخر. لذلك كان خطأ الفرِّيسيين الفاضح أنهم لم يفكِّروا في مصدر الشفاء عند المسيح أو سببه، الأمر الذي عيَّرهم به في إنجيل ق. يوحنا: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.» (يو 10: 37و38)

52 - شفاء المرأة المنحنية في السبت واعتراض رئيس المجمع

وفي السبت أيضاً وفي المجمع رأى المسيح «امرأة كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة، وكانت منحنية و لم تقدر أن تنتصب البتَّة. فلمَّا رآها يسوع دعاها وقال لها: يا امرأة، إنك محلولة من ضعفك. ووضع عليها يديه، ففي الحال استقامت ومجَّدت الله» (لو 13: 11ـ13). فاغتاظ رئيس المجمع، وإذ كان أضعف من أن يواجه المسيح، رفع صوته مكلِّماً الشعب وكان يوبِّخهم على كسر السبت: «وقال للجمع: هي ستة أيام ينبغي فيها العمل، ففي هذه ائتوا واستشفوا، وليس في يوم السبت» (لو 14:13)، مما اضطر المسيح أن يكلِّمه جهاراً بكلام لاذع: «يا مرائي، ألا يحلُّ كل واحد منكم في السبت ثوره أو حماره من المذود ويمضي به ويسقيه؟ وهذه، وهي ابنة إبراهيم، قد ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة، أما كان ينبغي أن تُحلَّ من هذا الرباط في يوم السبت؟ وإذ قال هذا أُخْجِلَ جميع الذين كانوا يعاندونه، وفرح كل الجمع بجميع الأعمال المجيدة الكائنة منه.» (لو 13: 15-17)

53 - شفاء المريض بداء الاستسقاء

لم يكن في مجمع، بل كان مدعوًّا لدى أحد الفرِّيسيين في السبت (بعد المجمع ليأكل عنده)، وكانوا يراقبونه. وحدث، إمَّا مصادفة وإمَّا بتدبير الفرِّيسيين، أن جاءوا بمريض يعاني من داء الاستسقاء وأجلسوه قدَّامه وظلوا يراقبونه. أمَّا المسيح فإذ أُعطي سلطاناً على الشفاء فكيف يقف مكتوف اليدين أمام مريضٍ يعاني من مرضه، وهذا هو عمله واختصاصه! فابتدأ المسيح يكلِّم الناموسيين والفرِّيسيين قائلاً: «هل يحل الإبراء في السبت ـ فسكتوا ـ فأمسكه وأبرأه وأطلقه. ثم أجابهم وقال: مَنْ منكم يسقط حماره أو ثوره في بئر ولا ينشله حالاً في يوم السبت؟ فلم يقدروا أن يجيبوه عن ذلك.» (لو 14: 3ـ6)

والمسيح هنا كما يراه العلماء كان يتحدَّى الفريسيين ويتحدَّى الناموس نفسه. ولكنه في الحقيقة لم يكن يتحدَّى لا الفرِّيسيين ولا الناموسيين، بل جاء لِيُظهر عجز الفرِّيسيين وقصور الناموس، جاء لينادي بالتكميل بعصر النعمة. لذلك نجده يتعمَّد كسر السبت بنوع من إلفات نظر النائمين أن هنا مَنْ هو أعظم من السبت. ثم كونه يشفي المريض ـ وداؤه عضال ـ هكذا بكلمة واحدة، أليس في هذا تنبيه أعظم تنبيه أن الذي أمامهم حامل لقوة الله وسلطانه؟

54 - التسابق الذميم على المتكآت الأُولى
منظر لدعوة عشاء مثالية أقامها سيد وهي دعوة الملكوت عينها

في ذات الوليمة التي شفى فيها المريض المستسقي، لاحظ المسيح كيف أن المدعوين كانوا يختارون لأنفسهم المتكآت الأُولى، فابتدأ يعلِّم عن آداب الجلوس على المائدة: «متى دُعيت من أحد إلى عُرس فلا تتكئ في المتكأ الأول، لعلَّ أكرم منك يكون قد دُعي منه. فيأتي (ذلك) الذي دعاك وإيَّاه ويقول لك: أعطِ مكاناً لهذا. فحينئذ تبتدئ بخجل تأخذ الموضع الأخير. بل متى دُعيت فاذهب واتكئ في الموضع الأَخير، حتى إذا جاء الذي دعاك يقول لك: يا صديق، ارتفع إلى فوق. حينئذ يكون لك مجدٌ أمام المتكئين معك» (لو 14: 8-10). وهنا أعطي المسيح المثل المسيحي السائد الآن: «**مَنْ يرفع نفسه يتضع ومَنْ يضع نفسه يرتفع**» (لو 14:11). فالعين التي تتثبَّت على الملكوت لا تعود تطيق كرامات الدنيا، والذي يبتغي الملكوت لا يطلب الرُّقي أو المراقي الدنيوية. فلاحَظ أحد المدعوين كيف أن المسيح يفكِّر في الملكوت، وبذكاء رفع صوته: «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله» (لو 14:15)، وهكذا فتح للمسيح الباب ليحكي عن خبز الملكوت ومن الذي سيذوق ويتنعَّم به، فكان المسيح فيه مبدعاً حقًّا: إذ صوَّر دعوة لعشاء عظيم صنعه رجل عظيم - وكل شيء هنا بالتورية - وأرسل عبده يدعو المدعوين - وكان الداعي على مستوى المنادى بالملكوت والمدعوون على مستوى الفرِّيسيين - ويقول لهم قد أُعدَّ كل شيء تعالوا ... فاعتذر الأول لأنه اشترى حقلاً لتوِّه وهو مضطر أن يذهب وينظره للمعاينة، وطلب منه بأدب المتضعين أن يعفيه. وآخر اعتذر بأنه كان قد اشترى خمسة أزواج بقر وأنه ماضٍ ليمتحنها، وطلب بالأدب إياه أن يعفيه. وآخر كان قد تزوَّج حديثاً وعذره معه. وكأنَّ العشاء العظِيم وحتى هذا العظيم نفسه صانع العشاء بغير ذي بال بالنسبة للمهام التي انشغلوا بها أو شغلوا بها أنفسهم، سيّان. فذهب العبد الحائر يُخبر سيده، فغضب ذلك السيد العظيم لأن الأمر يخصه قبل أن يخص العشاء، فقال ذلك السيد لعبده: اخرج عاجلاً إلى الشوارع في المدينة وأزقتها، أَدْخِل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمي، فذهب وصنع وأتى يقول: قد صار كما أمرت، ولكن يوجد أيضاً مكان شاغر. فقال السيد للعبد: اخرج إلى الطرق والسياجات خارج المدينة في العشوائيات وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي! وهنا رفع المسيح نظره نحو الجالسين وأخرج من صدره سر ملكوته المُعدّ!! «لأني أقول لكم: إنه ليس واحد من أُولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي!!» (لو 14:24)

وهكذا أصاب الفرِّيسيين ومَنْ هم على شاكلتهم كونهم مشغولين بمهامهم الدنيوية عن صميم غاية الدين! بل وأعطوا الداعي وصاحب الملكوت القفا دون الوجه. وكيف أن دعوة الملكوت التي أطلقها المسيح لم تُصب أسماعهم ولا لقيت هوى في نفوسهم!

أمَّا المدعوون الجُدد فلم يُحسب حسابهم على مدى سنين التوراة كلها، إذ أسقطت التوراة كل الأُمم من حسابها؛ ولكن أخيراً جاءتهم الدعوة على عجل، لأن أصحاب الملكوت رفضوها. رفضوا الملكوت لأنهم أحبوا الدنيا وخيراتها لَمَّا استغلوا اسمه وتاجروا بالدين وتعظَّموا بعظمة العالم وسحقوا تحت أرجلهم الفقراء والمساكين، فامتلأ العالم من المسحوقين والمظلومين. أمَّا أُولئك فقد استوفوا الخيرات من الدنيا، وهؤلاء استوفوا من الدنيا البلايا.

55 - التلاميذ يفركون سنابل القمح ويأكلونها في السبت

كان أول سبت بعد عيد الفصح، لأن هذا معنى القراءة الصحيحة بحسب ما حقَّقه ق. لوقا وعبَّر عنه هكذا: «وفي السبت الثاني بعد الأول اجتاز بين الزروع» (لو 1:6). فالسبت الأول في التوراة هو بلا نزاع السبت الذي يأتي في الفصح، فالسبت الثاني هو أول سبت يأتي بعد الفصح.

ويقول القديس متى: «فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون» (مت 1:12)، وواضح جداً السبب: فقد حضر المسيح وتلاميذه المجمع هذا السبت بعد العيد، ولَمَّا خرجوا من المجمع لم يدعوهم أحدٌ ليأكلوا في بيته. والآن نحن في أواخر إبريل، والقمح أخرج سنابله ناضجة، ولكن طرية يصلح أكلها بشهية. كانوا يقطفونها ويفركونها بين راحتي أيديهم وينفخون القش ويأكلون الحب ـ وهي عادة أهل فلسطين ـ وكان الفرِّيسيون يتربَّصون بهم من بعيد، فلمَّا اقتربوا راجعوهم: «لماذا تفعلون ما لا يحل فعله في السبوت؟» (لو 2:6) (ولكن هذه التهمة موجهة أصلاً وطبعاً للمسيح شخصياً)، فأجاب المسيح نافياً عن تلاميذه أن يكون فعلهم خطأ وهم في حضرته، وإليك الشرح مع رجاء التأني والفهم: استحضر المسيح من الذاكرة التي تعي التوراة والمزامير والأنبياء جميعاً كيف أن داود لَمَّا جاع دخل خيمة الاجتماع التي هي بمثابة الهيكل هو وأتباعه، وطلبوا من الكاهن المكلَّف بتقديم خبز الوجوه الساخن كل أسبوع أن يعطيهم من الخبز الذي خرج لتوِّه من فوق المذبح، وهو خبز الوجوه المقدَّس، فأعطى داود، فأكل داود ومَنْ معه ما لا يحل أكله إلاَّ للكهنة فقط، ويبدو أن ذلك كان أيضاً في يوم السبت.

كان الدفاع إلى هنا فيه الكفاية، فهنا كسر للناموس وطقس الهيكل والمقدَّسات وداود لم يدخل

تحت ملامة الناموس.

ثم عاد وأعطى معلومة أخرى أخطر، وهي أن كهنة الهيكل كان عليهم جميع أعمال الهيكل من ذبح وسلخ وشيّ وتنظيف ورفع أثقال وغسيل من كل صنف، فكانوا كلهم يدنِّسون الهيكل والسبت وهم أبرياء.

وهنا يرتفع المسيح مرَّة واحدة برؤيا سماوية لموقع تلاميذه من داود والكهنة في الهيكل إلى وجودهم في حضرته وهو الحامل لحضرة الله ووجوده! «ههنا أعظم من الهيكل» (مت 6:12)، « فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مت 8:12)، «إني أريد رحمة لا ذبيحة» (هو 6:6). لقد وُضِعَ السبت ليظل يعمل إلى أن يأتي رب السبت ليعلن ما وراء السبت وما بعده!

56 - التطهير بالغسل في الظاهر

كان مظهر التلاميذ وهم يعيشون حريتهم مع المسيح موضع ملاحقة ومراقبة واتهام دائم من طرف الكتبة والفرِّيسيين، الذين كانوا يقيسون حركاتهم وتصرفاتهم على جدول الناموس بهوامشه ونوافله. وكان هذا يعطيهم الفرص الكثيرة لنقد المسيح نفسه. فانتهزوا فرصة الجمع الكثير الملتف حول المسيح وفجَّروا سؤالهم لينالوا من صحة تعاليم المسيح واحترامه للناموس وتقاليد الشيوخ! «حينئذ جاءَ إلى يسوع كتبة وفريسيون الذين من أُورشليم قائلين: لماذا يتعدَّى تلاميذك تقليد الشيوخ. فإنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزاً» (مت 15: 1و2). أمَّا المسيح فوجدها فرصة ليتَّهمهم هم أنفسهم في هيكل تعليمهم وحياتهم كلها مؤكِّداً أن تقواهم ظاهرية ورياية. ومن واقع حياتهم أثبت لهم أنهم يحرِّفون ناموس الله المقدَّس ويتهرَّبون من الملامة بتخريجات كلامية هكذا:

+ «فأجاب وقال لهم: وأنتم أيضاً، لماذا تتعدَّوْن وصية الله بسبب تقليدكم؟ فإن الله أوصى قائلاً: أكرم أباك وأُمك، ومَنْ يشتم أباً أو أمَّاً فليمت موتاً. وأمَّا أنتم فتقولون: مَنْ قال لأبيه أو أُمه قربان هو الذي تنتفع به مني (بمعنى أن المساعدة التي أقدِّمها لك سأقدِّمها في الهيكل) ـ (فأصبح حرًّا) ـ فلا يُكرِم أباه أو أُمه. فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم! يا مراؤون، حسناً تنبأ عنكم إشعياء قائلاً: يقترب إليَّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه، وأمَّا قلبه فمبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلِّمون تعاليم هي وصايا الناس.» (مت 15: 3ـ9)

وهكذا بعد أن أسكت المسيح الفرِّيسيين وفضح تعليمهم ورياءهم، استدار نحو الجمع وابتدأ يشرح لهم كيف أن غسل اليد والأشياء لا يُطهِّر في الحقيقة، وأن الطهارة الحقيقية هي طهارة القلب، والغسل الحقيقي هو غسل الضمير! (وواضح أن اليهود كانوا يخلطون بين طهارة العبادة التي هي القداسة، وبين غسل اليد مما يعلق بها من الأوساخ). وأن الفرِّيسيين بتعاليمهم إنما يتوهون عن التقوى اليهودية الصادقة، وأنهم ينحرفون بالعبادة إلى شكليات تحت أكوام من الممارسات الظاهرية: «ثم دعا الجمع وقال لهم: اسمعوا وافهموا. ليس ما يدخل الفم ينجِّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجِّس الإنسان» (مت 15: 10و11). وهكذا لم يستخدم المسيح قط التهاون مع الانتقادات التي كانوا يقدِّمونها ضد المسيح وتلاميذه، ولم يحاول التقليل من شأنها أو خلق الأعذار أو الاستثناءات، بل استخدم الهدم المباشر وبقسوة لكل تخريجاتهم. وفي نفس الوقت كان يرتفع بالناموس عن النوافل، ويكشف ما استبطنه من العمق الروحي الذي رفع من شأن تعليم

المسيح للدرجة التي أخرس بها الفريسيين.

فلما أخبره التلاميذ أن الفرِّيسيين لَمَّا سمعوا هذا غضبوا: «أتعلم أن الفرِّيسيين لَمَّا سمعوا القول نفروا »(مت 15:12)، أي امتعضوا وذهبوا بعيداً. فكان رد المسيح يحمل عدم الاكتراث برضاهم ونفورهم: «فأجاب وقال: كل غرس لم يغرسه أبي السماوي يُقلع. اتركوهم هم عميان قادة عميان »(مت 15:13). وقد كان، فقد سقط هيكل الفرِّيسيين التعليمي عن آخره.

ولكن لم يكن تعليم المسيح هنا القائم على الطهارة الداخلية وعدم نجاسة الأشياء في ذاتها سهلاً، فقد ظل التلاميذ يسقطون فيه حتى بعد أن سندهم الروح القدس. فبطرس الرسول رفض أن يذهب لرجل أُممي ليبشِّره بالخلاص، مما اضطر الله للإعلان له برؤيا وعلى ثلاث مرَّات حتى يقتنع ـ كما قال هو ـ «أن لا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس» (أع 10:28). فالتعليم اليهودي ومن أيدي الفرِّيسيين كان كالكي على الجلد لا يزيله إلاَّ خلقة جديدة.

لذلك لَمَّا اختلى التلاميذ بالمسيح سألوه عن معنى التطهير الداخلي هذا وعدم قيمة الغسل الخارجي، مما أثار دهشة المسيح، أنهم إلى الآن وبعد هذه الحياة والتعاليم كلها، لم يفهموا حقيقة الطهارة والنجاسة: «فقال يسوع: هل أنتم أيضاً حتى الآن غير فاهمين؟ ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج؟ وأمَّا ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر، وذاك ينجِّس الإنسان. لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف. هذه هي التي تنجِّس الإنسان. وأمَّا الأكل بأيدٍ غير مغسولة فلا ينجِّس الإنسان[1].» (مت 15: 16ـ20)

57 - إرسالية الاثني عشر إلى الجليل

بقية وقت المسيح الذي أمضاه في الجليل خصَّصه لتلاميذه الاثني عشر في التعليم: حينما اتَّبعوه أينما سار وحيثما علَّم، يشاهدون ويسمعون ويسألون ويتعلَّمون، ومن حين لآخر كان يسألهم ليطمئن على ما استوعبوه وما تقلَّدوه منه للخدمة. وأخيراً أرسلهم ليخدموا مع توصيات وتحذيرات للتعليم والتمرُّن وذلك في كل أنحاء الجليل بمدنه وقراه. أما هم فلم يكونوا بعد على مستوى الكرازة بحقائق الخلاص. فهذه كانت مؤجَّلة إلى ما بعد الوعد بحلول الروح القدس ونوال قوة من الله للخدمة. على أن المسيح كان معلِّمهم الوحيد الذي يستقون منه المعرفة ويستلمون تدبيرات العمل. وكان عليهم أن ينادوا بملكوت الله كمشتهى ما يطلبه الناس، ويشيرون لأهل الجليل نحو معلِّمهم

(1) فرق أن نغسل الأيدي عشرات المرَّات في النهار للتطهير وأن نغسلها للنظافة.

كمؤسِّس للملكوت الآتي. وكانت خدمتهم هذه تعبِّر عما ينتظرهم من الكرازة في كل العالم بلا حدود، وذلك حينما يكمُل عمل الملكوت في داخلهم أولاً. وكان عليهم أن يكتفوا الآن بالكلمة والروح والقوة التي يمنحهم إياها المعلِّم أولاً بأول جزئياً.

«ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراض. وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى» (لو 9: 1و2). وهكذا يتضح لنا أن المسيح سلَّمهم بالفعل قوة منحها من ذاته لتكريس نفوسهم وأرواحهم للعمل، إذ نالوا بالفعل قوة من منبع القوة الإلهية التي له. وهكذا بهذه القوة التي نالوها مجَّاناً من المسيح بدأوا يبذلون ويخدمون.

58 - تعليمات للاثني عشر من أجل الخدمة

خرج التلاميذ من لدن المسيح محمَّلين بقوة غير عادية وحرارة وحب وفرح للخدمة، فكانت خدمتهم ملتهبة ومؤيَّدة بالمعجزات من شفاء أمراض إلى إخراج شياطين. أمَّا التعليم فقد التزموا فيه بالنداء بالأيام المباركة التي هلَّت عليهم والكشف عن الملكوت بالآية والمعجزة، الأمر الذي سهَّل على التلاميذ أن يستمع لهم الشعب، إذ كان التعليم مؤيَّداً بالآيات وأصبح قادراً أن يُشعر الناس بالحياة الجديدة التي ينادون بها. أمَّا ماهية الملكوت ومعناه وعمله، فتركوه للمسيح الذي سيستعلنه على العالم، إن بصليبه أو بروحه القدوس:

+ «ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها، ويشفوا كل مرضٍ وكل ضعفٍ.» (مت 10:1)

على أن المسيح قد حدَّد لهم عملهم في دائرة الجليل فقط، واستثنى السامرة من خدمتهم، وكذلك المدن التابعة للأُمم: «إلى طريق أُمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين: إنه قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا مرضى. طهِّروا برصاً. أقيموا موتى. أخرجوا شياطين. مجَّاناً أخذتم مجَّاناً أعطوا.» (مت 10: 5-8)

نعم كان ينبغي أن يُعرَّف بملكوت الله عند الشعب المختار والمعيَّن للملكوت أولاً قبل أن يُستعلن للأُمم بواسطة التلاميذ، بعد أن تنفتح بصائرهم وتستضيء قلوبهم بالروح القدس حتى يضيئوا في ظلمة العالم. وقد حرص المسيح أن يجعل نضجهم الروحي يسير الهُوَيْنَى مع اتساع فكرهم وقلبهم وسخونة روحهم، ليليقوا بعدئذ أن يقذف بهم في محيط العالم الواسع بكثافة ظلمته وعثراته.

وكان يلزم أن يكونوا على مستوى الإنجيل لينقلوه كما هو. لذلك حجز المسيح عنهم كل ما يختص بكرازة الأُمم إلى أن يحين الميعاد ويصيروا قادرين على استيعاب الروح القدس وأعماله.

+ «**إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمَّا متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق.**» (يو 16: 12و13)

على أن المسيح لم يُعلن لهم حتى الأسباب التي من أجلها حدَّد الكرازة بالجليل فقط، لأن المسيح ترك أموراً كثيرة يرشدهم إليها الروح القدس عندما يتقدَّمون في الطريق.

أمَّا على سبيل المثال، لماذا منع المسيح التلاميذ من الذهاب إلى السامرة؟ فواضح في سلوك ابني زبدي بعد ذلك بمدة حينما رفض السامريون عبور المسيح من أرضهم في ذهابه إلى أُورشليم، فغضب ابنا زبدي يوحنا ويعقوب أخوه قائلين: «أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم ...» (لو 54:9). وهكذا كانت غيرتهم غير مملَّحة بملح النعمة، وكان المسيح يعلم مقدار محدودية روح التلاميذ التي بكل صعوبة كانت تليق لخدمة اليهود أولاً.

أمَّا منعهم من الذهاب إلى الأُمم، فمعروف في الفكر اليهودي أن الأُمم لا يدخلون الإيمان بالله إلاَّ بعد أن يتهوَّدوا، لذلك كفاهم المسيح هذه التجربة التي دوَّخت ق. بولس وكنيسة أُورشليم. ولكن من الملاحَظ بشدة أن التلاميذ كانوا آلات طيِّعة للمسيح بسبب عدم احتكاكهم بأي تعاليم أخرى. فأميَّة التلاميذ هيَّأت لحكمة الروح مكاناً مكرَّساً أميناً في قلوبهم بعيداً عن المفاهيم والمعلومات الغريبة التي تلوِّث الحقائق الإلهية، خاصة في الابتداء. فالتلاميذ كانوا أوعية لائقة بالحكمة السماوية واستيعاب الحق بالقدر الذي يُعلن لهم أولاً بأول.

مزيد من التعليمات للتلاميذ من أجل الخدمة:

كانت أهم مقوِّمات كارز الملكوت أن لا يحمل من همِّ الدنيا شيئاً خاصة بالنسبة لترحاله بين البلاد، وبالمقابل يكون الاتكال على الله الذي يعيِّن ويدبِّر أمور الحياة كلها، وأن يكونوا مكتفين بما يُقدَّم لهم، ويستقروا في المنزل الذي يقابلهم بسلام، ويمتدوا لخدمة كل ما حواليه. وقد وجدوا بالفعل صدق معلِّمهم فيما لاقوه وجرَّبوه. وكانوا مسالمين و لم يشتبكوا مع المعارضين في خدمتهم: «مجَّاناً أخذتم مجَّاناً أعطوا. لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم. ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا. لأن الفاعل مستحق طعامه» (مت 10: 8-10)، «وأيَّة مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا مَنْ فيها مستحق، وأقيموا هناك حتى تخرجوا. وحين تدخلون البيت سلِّموا عليه، فإن كان البيت مستحقاً فليأتِ سلامكم عليه، ولكن إن لم يكن مستحقاً فليرجع سلامكم إليكم.» (مت 10: 11-13)

59 - أخبار أعمال المسيح تنتشر بين الناس

قليلٌ مَنْ أدرك أن المسيح مسيًّا حقــًّا. والكثيرون ارتابوا، إذ ربطوا بين مجيء المسيَّا وقيام مملكة داود للمحاربة، فعثروا في المسيح. والبعض ظنَّ أن روح المعمدان قد ظهرت من جديد بعد قتله وأنه هو الذي يعمل هذه الآيات، ووصلت هيرودس هذه الظنون فأقلقته لأنه هو الذي قتل المعمدان ظلماً وبلا رحمة: «فقال هيرودس: يوحنا أنا قطعت رأسه. فمَنْ هو هذا الذي أسمع عنه مثل هذا؟ وكان يطلب أن يراه» (لو 9:9)، وكان يقول: «هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات، ولذلك تُعمل به القوات» (مت 2:14). وآخرون قالوا إنه إيليا أو واحد من الأنبياء قد ظهر ليعدَّ لمملكة المسيَّا. والواضح أن الفكر العام كان يرى في أعمال المسيح شيئاً أعظم من يوحنا، ولكن كان الكل غير مستقر على رأي.

60 - عودة الاثني عشر وإشباع الجموع من خمس خبزات وسمكتين

الآن يكون المسيح قد أمضى سنة كاملة في الجليل، وقد اقترب ميعاد الفصح وعاد التلاميذ مــن إرساليتهم، والجموع لا تزال تتقاطر على المسيح بُغْيَةَ الشفاء وسماع الكــلام والتعلــيم. وابتــدأت جماعات الحج في القدس إلى أُورشليم تتألَّف وتتزايد، ولكــن المــسيح رأى أن لا يعــرِّض نفــسه للمقاومات في أُورشليم كما حدث سابقاً، ففكَّر إلى حين أن يستمر في خدمته في الجليل وتعليمــه للرسل، الذي كان همّه الأول أن يعدّهم للخدمة من بعده، وكان يبحث عن مكان هادئ يجتمع فيه بهم ليسمع أخبار رحلاتهم التي قاموا بها، ويعطيهم تعليم المستقبل الذي لاح قريباً: «واجتمع الرسل إلى يسوع وأخبروه بكل شيء. كل ما فعلوا وكل ما عملوا. فقال لهم: تعالوا أنــتم منفــردين إلى موضع خلاء واستريحوا قليلاً. لأن القادمين والذاهبين كانوا كثيرين، و لم تتيسَّر لهم فرصة للأكل. فمضوا في السفينة إلى موضع خلاء منفردين.» (مر 6: 30-32)

فأقلعوا من ساحل كفرناحوم من شاطئ جنيسارت إلى الشمال على سهول الجبال بالقرب مــن بيت صيدا يولياس (بيت صيدا الأخرى هي على الشاطئ الشرقي).

ولكن كان الشعب يرصد تحركاتهم، فحالما رأوا السفينة تبحر باتجاه بيت صيدا يولياس تبعــوهم مسرعين.

وهكذا تجمَّعوا حوله وأمضوا اليوم كله حضوراً أمامه وهو يعلِّمهم ويتلاطف معهم، وقبــل أن

يمسي عليهم اليوم رأى يسوع ضرورة إطعامهم وتلاميذه معهم أيضاً. وكانت معجزة الخمس خبزات والسمكتين اللاتي وُجدت مع صبي دسَّتها أُمه في مخلته لعلَّه يأكل مع أحد أصدقائه. وكانت هذه المعجزة قمة ما صنع المسيح من معجزات، لأن فيها عنصر التخليق واضح مشتبكاً مع عنصر البركة والشكر، غير أن عنصر التخليق ليس بصورته المادية الصرف حيث يخلق الله من لا شيء، بل هنا امتداد بالموجود ليغزو حدود العدد والكمية والمعقول. فالمادة دخلها عنصر سماوي جعلها تتحدَّى الأعداد والكميات، وبثَّ فيها عنصر الشبع وترك الفائض ليشهد على الصانع. بل ونلمح عنصراً آخر هو عنصر التحويل، هذا ألمح عنه المسيح بصورة سرِّية عندما تقابل مع هؤلاء القوم لَمَّا سعوا وراءه بعد هذه المعجزة. فابتدرهم بالقول الكاشف لضعف فهمهم لِمَا حدث، إذ حسبوه خبز جسد وهو خبز روح: «الحق الحق أقول لكم: أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم. اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو 6: 26و27). فهنا ألمح المسيح أنها كانت آية أكثر منها خبزاً للشبع، وأنها خبز باقي للحياة الأبدية وليس خبزاً بائداً. ثم استعلن قليلاً السر الذي يربط هذا الخبز الباقي للحياة الأبدية بشخصه إذ قال: «الذي يعطيكم ابن الإنسان. لأن هذا الله الآب قد ختمه» حيث بعد قليل سيستعلن نفسه في الخبز استعلاناً إلهياً فائقاً للغاية حينما يقول: «أنا هو خبز الحياة ... أنا هو الخبز النازل من السماء» (يو 6: 48و50)، «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.» (يو 6:51)

وهكذا وبهذا يكون المسيح قد كشف عن عنصر التحوُّل العجيب، أن الخبز كان بالسر هو: "جسد المسيح المكسور لأجلنا"، لذلك كل مَنْ يأكل منه يحيا إلى الأبد، لأنه يأكل جسد الفدية التي فدى المسيح بها الإنسان من خطية ومن موت!

ولكن أكثر ما يدهش القارئ ويفرِّحه بآن واحد، أن المسيح لم يترك لنا معجزة نعيش بها إلاَّ هذه المعجزة، نصنعها كلما اجتمعنا باسمه وكسرنا الخبز! يحضر في الوسط ويكسر بيده ويعطي الآكلين السر. وبهذا يحوِّل لنا الحياة الحاضرة إلى الحياة الأبدية من وراء المادة خلسة ومن وراء العالم. والمنظر "أَكْلٌ" ولكن ليس لشبع الجسد، بل للامتداد إلى فوق لتذوُّق الحياة الأبدية كالعربون.

ومن روائع هذه القصة الممتعة للروح أن التلاميذ في البداية أنكروا على الشعب هذا النوع العالي من الأكل، فقالوا بأن يذهبوا إلى الحقول المحيطة والقرى ليجدوا ما يأكلون، ولكن المسيح رأى غير

ذلك، إذ رأى القوم في حاجة إلى أكل آخر لا يعرفه التلاميذ، ولكن يلزم أن يعرفوه. فالقوم الذين سمعوا له ثم سعوا وراءه حول البحيرة لاهثين ناسين أكلهم وشبعهم، كانوا يطلبون شيئاً آخر غير الطعام، ولو أنهم كانوا يجهلونه. ولكن المسيح عرفه في الحال، فوفَّره لهم وأطعمهم إياه، لكي تنفتح أعينهم فيما بعد مع التلاميذ ومعنا لندرك هذا الخبز الحقيقي الذي نطلبه بدموع ولا يستطيع أن يوفِّره لنا العالم. صحيح أن الجموع لم تدرك قيمة الخبز كما هو بالسر، ولكن أدركوا المسيح أنه يتحتَّم أن يكون ملكاً على الأقل ليعطيهم هذا الخبز كل حين ولو لم يعرفوه، لأن الخبز أثَّر في نفوسهم ولا يعلمون كيف! لقد أدركوا بحسِّهم الروحي أنه المسيَّا ويتحتَّم عليهم أن يعلنوه للعالم، ولكن لم تكن هذه الخطة البشرية داخلة في خطة الصليب، فتركهم وذهب ليصلِّي.

61 - المسيح يمشي على المياه

من متابعة قصة معجزة الخمس خبزات والسمكتين يقابلنا في الرواية كلمة استرعت انتباهنا على غير العادة، وهي بعد أن شبع الشعب حاول الجمع القبض على المسيح عنوة وإعلانه ملكاً من فوق الرؤوس، وهنا نسمع أن المسيح كما يقص ق. مرقس: «**ألزم تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوا إلى العبر**» (مر 45:6). ولماذا الإلزام؟ وهل لم يذعنوا في البداية؟ وماذا دار في أفكارهم؟ الحقيقة هنا تكاد تكون واضحة، فالجمع لمَّا التفَّ حول المسيح ليجعلوه ملكاً، اشترك معهم التلاميذ، إذ كانوا أيضاً منفعلين من المعجزة، فكان الأمر بالنسبة للمسيح خطيراً، فهنا شبه اتفاق وتمرُّد على انتظار تعليمات المعلِّم. لأن التلاميذ كانوا أكثر انبهاراً من الجموع من واقع المعجزة، إذ كانوا داخلين فيها!

وهنا ابتدأ المسيح يتحرَّك أولاً تجاه التلاميذ: فبالأمر والإلزام وجّههم نحو سفينتهم ليركبوها في الحال ويمضوا عبر البحيرة، «وللوقت ألزم تلاميذه» ليفك هذا الاشتباك. ويُكمل ق. مرقس: «حتى يكون قد صرف الجمع» (مر 45:6)، أي بعد التلاميذ اتجه نحو الجمع الهائج وبسلطانه المعهود أمرهم بالهدوء، فهدأوا وبدأوا يتفرقون عائدين إلى بيوتهم: «وبعد ما ودَّعهم مضى إلى الجبل ليصلِّي» (مر 46:6). فقد كانت تجربة استطاع الشيطان أن يضع فيها أصبعه كالسابق حينما كان على جبل التجربة: «وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي» (مت 9:4). وهكذا تقهقر الشيطان من هذه الموقعة مدحوراً، فذهب إلى التلاميذ وهم في عرض البحر يهيِّج عليهم الطبيعة التي تحت سلطانه. فقامت زوبعة عصفت بالمركب، وهيَّج البحر فطمت عليهم أمواجه، فأخذ التلاميذ يترنَّحون يميناً وشمالاً، وجذبُ الأمواج يتقاذف بالسفينة عائدة إلى الوراء بعنف تيَّارات الماء العميقة. فأدرك المسيح ما أصاب التلاميذ وسمع صراخهم على بعد الأميال فعوَّل على إنقاذهم. وهكذا وقد

قرب الفجر، بعد أن أصاب التلاميذ ما أصابهم من خوف وهلع؛ ورأوا المسيح آتياً إليهم على وجه المياه، وهو مقبل عليهم كنور يتحرَّك، ولكنه أراد أن يتجاوزهم، فصرخوا لأنه انتظر عليهم حتى يتعرَّفوا عليه أولاً، فللوقت كلَّمهم: «ثقوا. أنا هو. لا تخافوا» (مر 50:6)، «فصعد إليهم إلى السفينة فسكنت الريح، فبُهِتُوا وتعجَّبوا في أنفسهم جداً إلى الغاية.» (مر 51:6)

وهنا وفي هذه الوقفة بالذات يذكر ق. مرقس أمراً يجعلنا ملتزمين أن نعود مرَّة أخرى إلى معجزة الخمس خبزات، إذ يقول: «فبهتوا وتعجَّبوا في أنفسهم جداً إلى الغاية. **لأنهم لم يفهموا بالأرغفة إذ كانت قلوبهم غليظة**» (مر 52:6)، فما هذا؟

هنا يرى ق. مرقس رؤية خاصة لهاتين المعجزتين، فما هي؟ نعتقد أنها سرِّية للغاية، فكسر الخبز إن كان قد أشار إلى موت المسيح، فالسير على المياه قد أشار إلى قيامته. فبالأُولى أي الخبز حوَّل **الطبيعة** من الخبز إلى جسده، وبالثانية ارتفع فوقها (العاصفة والبحر جميعاً).

62 - الذين أكلوا الخبز فشبعوا يتبعون المسيح

كانوا يطلبون يسوع، لأنهم أكلوا الخبز وشبعوا بتعبير المسيح. هنا يرفع تفكيرهم من الخبز الذي يُشبع إلى الخبز الذي يُحيي. كان ذلك في كفرناحوم وفي المجمع حينما عيَّرهم المسيح بأنهم يطلبونه من أجل الخبز الذي أكلوه: «**أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم**» (يو 26:6). وفجأة يرفع المسيح فكرهم إلى السر الذي جعل الخمس خبزات تُشبع الخمسة آلاف: «**اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه**» (يو 27:6). والمعنى أن الخبز العادي صار في يد ابن الإنسان خبزاً سماوياً فائقاً للطبيعة أعلى من الأرقام والكميات. فأصبح ليس الخبز بعد، بل المسيح هو الذي يشبعهم من فوق. والمعنى ببساطة: لا تطلبوا خبز الجسد، بل اطلبوا المسيح نفسه فهو خبز الروح، الذي نزل من عند الآب وعليه ختم الروح القدس، والذي يأكل منه لا يجوع إلى الله بعد، بل يشبع شبع الحياة الأبدية ولا يموت.

ولكن كان القوم مربوطين بفكر الجسد وخبز الجسد، ولم يستطيعوا أن يتسلقوا على هذه المعجزة ليدركوا سر الروح والمسيح فيها، فطلبوا مزيداً من الآيات تأتيهم من السماء ليؤمنوا بالمسيح. وكان في تقليد اليهود أن المسيَّا حينما يأتي سيُنزل لهم المن من السماء كأيام موسى باعتباره موسى الجديد. فالمسيح ببساطة أخذها من فمهم وقال لهم: أنا هو الخبز النازل من السماء، أنا هو المن الجديد. فتشجَّعوا ببساطة هم أيضاً وقالوا له: أعطنا هذا الخبز يا سيد في كل حين!! ـ (حتى لا نجوع، كرد السامرية: أعطني هذا الماء حتى لا أعطش وأجيء إلى البئر كل يوم!) ـ فما كان الماء الحي سوى المسيح نفسه، وما كان الخبز الحي الباقي إلى الأبد إلاَّ المسيح نفسه أيضاً، وقد نزل من السماء بشبه المن، ولكن المن كان لا يبقى للغد والمسيح باقٍ بقاء الحياة الأبدية. والذي كان يأكل المن يأكله ويموت أيضاً، وأمَّا المسيح فالذي يأكله يحيا به إلى الأبد ولا يأتي إلى موت.

ولأول مرَّة يكشف المسيح عن أكل يتم بالروح وشرب يتم بالروح. فكما يغتذي الجسد بالخبز، هكذا تغتذي الروح بالكلمة، والكلمة هو المسيح الذي كان عند الله، وكان هو الله، تجسَّد فصار جسده روحاً هو وجسداً معاً، وهو الكلمة المتجسِّد. فلما أمسك المسيح بالخبز وكسره استودع المسيح ذاته في الخبز المكسور، فأصبح مَنْ يأكل من الخبز المكسور بيد المسيح يأكل المسيح بالسر، يأكل جسده وروحه معاً.

كانت علامة وجود المسيح في الخبز المكسور واضحة، إذ أنه أطعم من خمس خبزات خمسة

آلاف شخص ويزيد. هذا الإطعام الإعجازي الفائق أصبح من صميم طبيعة المسيح. فالخبزة المكسورة خبزة قمح، ولكن الإطعام الفائق إلى حد الشبع ليس من عمل القمح بعد، بل من عمل المسيح وطبيعته التي أصبحت تؤكل من داخل الخبزة المكسورة. فأصبحت الكنيسة حينما تقدِّم الخبز على المذبح وتصلِّي عليه وتطلب حضور المسيح، وكسره للخبز، قادرة أن تُعطي المسيح في الخبز المكسور، وأصبح مَنْ يأكل الخبز المكسور يأكل المسيح. وكل مَنْ يأكل المسيح يأكل الحياة الأبدية ولا يموت. لذلك سمَّى الآباء الخبز المكسور: "ترياق عدم الموت"، أو خبز الخلود أي دواء الحياة الأبدية. كل هذا تمَّ بالفعل المنظور والمحسوس في معجزة الخمس خبزات والسمكتين التي أطعم بها المسيح خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال، وفاض منهم اثنتا عشرة قفة مملوءة بالكسر. حيث الكسر الفائضة من هذه الوليمة السمائية لا تزال شاهدة على وجود المسيح في الخبز المكسور. فكل زيادة بعد الخمس خبزات أصبحت شاهدة على وجود المسيح، وتعني أن المسيح يُعطي أكثر من الشبع! فلو تصورنا أن الخمسة آلاف رجل كانوا هم العالم كله، فالعالم كله كان سيأكل حتى الشبع ويفيض عنه. فالشبع يغطِّي الواقع الزمني، والفائض يغطي المستقبل. هذه هي كفاية المسيح للعالم، حاضره ومستقبله.

إذن، فأكل المسيح عملية حقيقية من داخل الخبز المكسور.

فالمسيح حقَّ له أن يقول: «**أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء**»، أو «**أنا هو خبز الحياة**» (يو 6: 51و35)، وأن: «**مَنْ يأكل من هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد.**» (يو 58:6)، «**والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي.**» (يو 51:6)

على أن المسيح بعمل الفداء «حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة» (1بط 24:2) لمَّا حوكم على أنه خاطئ، **وقَبِلَ الحكم وصُلب بناءً على هذا الحكم**، ومات بالجسد الذي حمل عليه خطية الإنسان. فأكمل حكم الموت الذي كان على البشرية كلها في جسد البشرية الذي حمله، وقام من الموت بجسده بعد أن أمات الخطية فيه، وبرَّأ الإنسان من حكم الموت، فقام الإنسان الجديد بقيامة جسده.

وهكذا أصبح أن الذي يأكل جسد المسيح يأكل حقًّا الفداء والخلاص والحياة الأبدية مع البراءة من حكم الموت. لهذا أكمل المسيح القول بصورة مستيكية قائلاً: «**والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله (بموت الفدية) من أجل حياة العالم.**» (يو 51:6)

لذلك أصبح هو الوسيط الوحيد بين الله والناس: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي» (يو 6:14)، لأنه أصبح هو الوجود الإلهي على الأرض الذي يصل الإنسان بالله. والجسد الذي يقدِّمه في الخبز المكسور أصبح طعام الحياة الأبدية.

63 - «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي»

كان الحديث في موضوع الخمس خبزات والسمكتين مقصوراً على ''الجسد'' باعتبـاره الخبـز النازل من السماء بمفهوم المقابل للمن الذي نزل من السماء. ولكن أدخل المسيح عنصر الفدية على مفهوم الجسد النازل من السماء لمَّا قال: «الخبز الذي أنا أُعطي **هو جسدي الذي أبذله من أجـل حياة العالم**» وهنا دخل بالضرورة عنصر الفداء بالصليب، وهو أيضاً وبالتالي يحمل ''سمة الكسر'' في كسر الخبز، حيث الكسر هو الجسد الذي تمزَّق على الصليب، فاعتُبر "**كسر الخبز**" عملية تحمل في ذاتها سر ذبح المسيح وكسر جسده على الصليب. وبهذا اكتشف اللاهوتيون أن سر الكثرة الذي تمَّ أثناء كسر الخبز راجع إلى أن كسر الخبز يحمل سر كسر الجسد وذبحه على الصليب، أي يحمل سر الموت والحياة الذي أُكمل بالصليب والقيامة. بمعنى أن كسر الخبز يحمل سر الفداء الذي نال الإنسان بواسطته غفران خطاياه والحياة الأبدية.

ولكن كسر الجسد على الصليب وتمزُّقه يحمل مضمون **سفك الدم**. وهذان هما عنـصرا الفـداء الأساسيان: الجسد والدم. وهذا ارتدّ على ''كسر الخبز'' بالضرورة، فأصبح ''كسر الخبز'' يحمـل أيضاً "**سفك الدم**".

فأصبحت الكنيسة حينما تقيم سر ''كسر الخبز'' تضيف إليه حتماً سر ''سفك الدم'' كعمليـة واحدة تحمل معنى الفداء والكفَّارة.

لذلك تقدَّم المسيح في حواره مع جماعة آكلي الخبز من الخمس خبزات والسمكتين خطوة جديدة بعد أكل الخبز النازل من السماء الذي أشار إليه أنه جسده حينما أضاف: «**الذي أبذله**»، فدخل في الحال عمل الصليب ومعه سفك الدم، لهذا أضاف:

+ «**الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكـم حيـاة فيكم.**» (يو 53:6)

والمعنى يتقدَّم خطوة على أكل الجسد، بأنه "**أكل المسيح ككل**"، أي حياته ''البشرية الإلهيـة'' التي استُعلنت وتحدَّدت على الصليب «**بالجسد والدم**»، «**فمن يأكلني فهو يحيا بي.**» (يو 57:6)

الجسد يتحد بالجسد الجديد فينا، والدم يعطيه الروح الذي فيه، فيصير المسيح حيًّا فينـا، كمـا صرَّح بها ق. بولس: «فأحيا لا أنا بل **المسيح يحيا فيَّ**» (غل 20:2)، هذا هو مصدر الحياة الأبدية.

وهكذا بدأ الشرط يظهر بوضوح: أنه لكي تدخل الحياة الأبدية فينا يتحتَّم أكل جسده وشرب دمه.

ولكن بدا الفهم صعباً للغاية، فالمسيح قائم أمامهم فكيف يأكلون جسده ويشربون دمه؟ فلمَّا أُعثر بعض التلاميذ وتركوه بالفعل، بدأ يوضِّح لتلاميذه هكذا: «فقال كثيرون من تلاميذه، إذ سمعوا: إن هذا الكلام صعب! مَنْ يقدر أن يسمعه؟ فعَلِمَ يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمَّرون على هذا، فقال لهم: أهذا يعثركم؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً! الروح هو الذي يحيي. أمَّا الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة» (يو 6: 60-63). والمعنى أنكم تنظرون إليَّ بفكر جسدي، وكأن الأكل والشرب من لحمي ودمي على المستوى الحسِّي. هذا خطأ. فما بالكم عندما ترونني صاعداً إلى السماء حيث كنت أولاً؟ هل سيكون لحم ودم أم أن الكلام روحي ويلزم أن تفهموه روحياً بمعنى تأكلون الحقيقة الروحية، تأكلون الواقع الروحي للجسد وتشربون الواقع الروحي للدم. الحق شيء والمادة شيء آخر. المادة هنا في الخبز والخمر تحمل الحق، ولكن ليست هي الحق. الخبز المكسور يحمل بالإيمان حق الجسد الروحاني القائم من بين الأموات، والخمر في الكأس كذلك يحمل بالإيمان حق الدم المسفوك. وهكذا حينما تأكلون وتشربون الحق، تأكلون الخبز والخمر بفم، وبآن واحد تأكلون وتشربون بالروح. لذلك أوضحها المسيح: «لأن جسدي **مأكل حق** ودمي **مشرب حق**» (يو 6:55). فأكل الحق وشرب الحق هو عمل الإيمان وليس عمل الفم والأكل، ومعناه الثبوت أو الاتحاد بالمسيح.

+ «**مَنْ يأكل جسدي (الحق) ويشرب دمي (الحق) يثبت فيَّ وأنا فيه.**» (يو 6:56)

فلو كان الأكل والشرب مقصوراً على أكل وشرب الخبز والخمر(2) أي أكلاً جسدياً وشرباً جسدياً، فلا يستفيد الإنسان منه شيئاً، ولكن الأكل أكل الإيمان بالسر فهو روحي والشرب روحي. لذلك أصبح الأكل والشرب الروحي يحيي بالضرورة، ووضَّحها المسيح هكذا: «**الروح هو الذي يُحيي، أمَّا الجسد فلا يفيد شيئاً**». وعاد المسيح على كل ما سبق من كلام عن الجسد والدم قائلاً: «**الكلام الذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة**».

وبهذا أصبح سر الجسد والدم، لأنه روحي، قائماً في الكنيسة إلى اليوم وإلى الأبد وفي كل كنائس العالم، لأنه ليس بالجسد المحصور ولا بالدم المحصور في الزمان والمكان، بل أصبح المسيح الروحي مالئ السماء والأرض بكيانه وبجسده الروحي ودمه الروحي، موجوداً في كل مكان

---

(2) الخمر الذي يوضع في الكأس على مائدة الكنيسة قانونه أن يكون الخمر ثلثين والماء ثلث، ويتناول منه جميع الحاضرين وقد يبلغ منه مائة شخص.

وزمان. وبهذا أيضاً يتم الاتحاد بين كل المؤمنين في كل مكان وزمان باتحادهم بالجسد الواحد والدم الواحد المالئ لكل الكيان. وعلى هذا القياس الذي فهمه بولس الرسول يقول:

+ «أقول كما للحكماء: احكموا أنتم فيما أقول. كأس البركة التي نباركها، أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره، أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحد، جسدٌ واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد (الجسد).» (1كو 10: 15-17)

أمَّا الذين حاولوا أن يستغنوا عن ''الخبز'' وعن ''الكأس'' ليكوِّنوا وحدة بين المؤمنين بدون سر الجسد والدم، فقد تاهوا عن أصل الإيمان والإنجيل والخلاص. لأن الذي صُلب على الصليب ليس فكرة ولا مبدأ ولا روحاً ولا مجرَّد إيمان، بل جسد محسوس يجري فيه الدم كالتزام حتمي لكي يكمِّل به وفيه الفداء والخلاص، لكي يُذبح ويُكسر على الصليب ويُسفك دمه بأيدي الناس. كذلك فإطعام الجموع الحاشدة: خمسة آلاف رجل مع نساء وأطفال لم يتم بأن حرَّك المسيح يديه في الهواء وكأنه يكسر رغيفاً ويعطي من الهواء خبزاً ليوزِّعه التلاميذ، بل مسك خبزاً محسوساً مصنوعاً من الدقيق والماء، ومخبوزاً في النار، وكسره بكلتا يديه وأعطى الكسر للتلاميذ، والناس أكلوا خبزاً حقيقياً وشبعوا بالجسد، وهو في الحقيقة وبآن واحد، خبز روحاني غير بائد لم يستعلنه الشعب لانغلاق بصيرتهم. إذن، فالسر الإلهي الذي اعتمد على ذبح الجسد المحسوس اعتمد على كسر الخبز المحسوس. إذن، فسر الاتحاد القائم أصلاً في الجسد المكسور على الصليب هو ذاته سر الاتحاد قائماً بالتالي على الخبز المكسور! فالروح الذي يقول عنه المسيح إن «الروح هو الذي يُحيي» هو الروح الكائن في الخبز المكسور، وبدون الخبز المكسور لا وجود للروح الذي يُحيي برسم الجسد المكسور. وهذا هو نفسه روح سر الاتضاع الذي جعل ابن الله يتجسَّد بالروح في جسد بشري. وبدون الجسد البشري لاستحال معرفة الابن أو معرفة الآب والروح، ولاستحال الفداء والخلاص والحياة الأبدية.

والأمر أوضحه إنجيل ق. يوحنا الأصحاح السادس: إن الإيمان بالجسد والدم والأكل من الجسد والشرب من الدم هو أكل حقٌّ وشرب حقٌّ. والإيمان بالحياة الأبدية الكائنة في أكل الجسد وشرب الدم، هذا الإيمان بالخبز والخمر والجسد المكسور والدم المسفوك هو بعينه الذي فصل فصلاً نهائياً بين تلاميذ يؤمنون وتلاميذ لا يستطيعون أن يؤمنوا. والمسيح كشف السر في هذه الفُرقة الخطيرة: **«ولكن منكم قوم لا يؤمنون، لأن يسوع من البدء عَلِمَ مَنْ هم الذين لا يؤمنون، ومَنْ هو الذي يسلِّمه. فقال: لهذا قلت لكم إنه لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم يُعطَ من أبي.»** (يو 6: 64و65)

ولا يغيب عن البال أن عشاء الخميس الذي هو سر الإفخارستيا سمَّاه المسيح "الفصح": «فأرسل بطرس ويوحنا قائلاً: اذهبا وأعدَّا لنا الفصح لنأكل» علماً بأنهم لم يذبحوا الخروف ولم يذكر في العشاء أنهم أكلوا من لحم الخروف عن قصد مبيَّت أن يكون الفصح المذبوح الذي يأكلونه هو هو المسيح نفسه، الذي قدَّمه لتلاميذه في سر كسر الخبز وسر سفك الدم!

وهنا يتضح استحالة أن يكونوا قد أعدوا خروفاً للفصح أو أكلوا من خروف الفصح، لأن هذا يلغي تدبير المسيح أنه بفصحه الذي أكمله في نفسه ألغى خروف الفصح إلى الأبد. وهنا استحالة أن يكون المسيح أكل الخروف مع تلاميذه في هذا العشاء!

بهذا نفهم أن الخبز المكسور برسم الجسد المكسور، والخمر في الكأس برسم الدم المسفوك، أصبح هو فصحنا الحقيقي، وهذا هو السر في قول المسيح: «أنا هو الخبز **الحي** الذي نزل من السماء ... والخبز الذي أنا أُعطي **هو جسدي** الذي أبذله عن حياة العالم» وعقَّب بعد ذلك على أكل الخبز هكذا: «مَنْ يأكل جسدي (خبز الإفخارستيا) ويشرب دمي (كأس الإفخارستيا) فله حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» ثم عاد يؤكِّد على حقيقة أكل الخبز الذي هو جسده هكذا: «لأن جسدي (خبز الإفخارستيا) مأكل **حق** (أي يؤكل بالروح) ودمي (كأس الإفخارستيا) مشرب **حق** (أي يشرب بالروح)» إذن، فالخبز المكسور والكأس الممزوج يؤكل ويُشرب على مستوى الحق، والحق روح! إنه فصح إلهي بالحق. إنه المسيح المذبوح.

الفصل العاشر

رحلة المسيح إلى الشمال وقيصرية فيلبُّس

كان المسيح لا يزال يتحيَّن الفرص للجلوس مع التلاميذ العائدين من الإرسالية، ليعدّهم لعواصف المستقبل الوشيكة، وإذ رأى أنه من الصعب الحصول على هذا الغرض في المنطقة المحيطة، قرَّر أن يتجه نحو الشمال خارج حدود إسرائيل. وقد ألحَّت عليه ظروف أخرى للقيام بتلك الرحلة، فهيرودس كان قد سمع بأعمال المسيح وأبدى رغبة في أن يراه. وإن كانت اتجاهاته غير معروفة، ولكن من المؤكَّد أنها لم تكن روحية، لهذا تحاشاها المسيح. أمَّا حاكم المنطقة التي سيذهب إليها فكان فيلبُّس رئيس ربع. وكانت الرحلة صوب بانياس أو قيصرية فيلبُّس، ولكنه اتجه أولاً إلى بيت صيدا يولياس على الساحل الشمالي الغربي لبحيرة طبرية. وهنا جاءوا إليه بأعمى فأراد المسيح أن يُجري شفاءه بعيداً عن المدينة والازدحام. وفي هذه المرَّة أجرى المسيح عليه عملية تفتيح عينيه على مراحل، وأمره أن لا يقول لأحد حتى يتسنَّى له البعد عن التجمُّع (مر 8: 22ـ26).

64 - اعتراف بطرس بالمسيح

عندما اختلى المسيح بتلاميذه بالقرب من مدينة قيصرية فيلبُّس سألهم عن ماذا يقول الناس عني: « فأجابوا يوحنا المعمدان. وآخرون إيليا. وآخرون واحد من الأنبياء. فقال لهم: وأنتم مَنْ تقولون إني أنا. فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه» (مر 8: 27-30). ولكن في إنجيل ق. متى يضيف على هذه الآية تطويب بطرس، إذ نال هذا الاستعلان من الآب السماوي هكذا: «فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يُعْلِنْ لك، لكن أبي الذي في السموات. وأنا أقول لك أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات. وكل ما تحلُّه على الأرض يكون محلولاً في السموات. حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد» (مت 16: 17-20). وهنا جاء الوعد للكنيسة أن أبواب الجحيم لن تقوى عليها بمعنى مملكة الموت وسلطان الشيطان، وهذا يعني أن كنيسة المختارين الشركاء في الحياة الإلهية لا يعود للموت سلطان عليهم، وهم لا يخافون الموت. أمَّا اسم بطرس أنه الصخرة فهو الاسم الجديد الذي منحه المسيح لسمعان يوم دعاه باسم كيفا أي **"رجل الصخرة"**.

أمَّا بخصوص مفاتيح ملكوت السموات والحل والربط فقد أُعيد النطق بها في (مت 18:18) لكل الرسل معاً: «الحق أقول لكم: كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلُّونه على الأرض يكون محلولاً في السماء» وأيضاً: «مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر له، ومَنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يو 23:20). على نمط ما كان يعمل المسيح بالنسبة للمرضى فيشفون. والقصد منها أن يزيلوا من أفكار الناس وقلوبهم الإحساس بالخطية ورعبها، أي يُعدُّوا ويُسهِّلوا الطريق إلى الملكوت. وقد كرَّرها ق. بولس بأسلوب آخر: «لأننا رائحة المسيح الذكية لله، في الذين يخلصون وفي الذين يهلكون. لهؤلاءِ رائحة موت لموت، ولأولئك رائحة حياة لحياة. ومن هو كفؤٌ لهذه الأمور.» (2كو 2: 15و16)

بعدها رفع المسيح عينيه إلى السماء وقال: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه (هذه الحكمة) عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال (التلاميذ وأبناء الملكوت).» (مت 25:11)

ثم أعلن عمَّا قد صار له: «كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَنْ أراد الابن أن يُعلن له» (مت 27:11). بالمعنى الذي فهمه ق. بولس وكشفه: «المذَّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم.» (كو 3:2)

أمَّا منع التلاميذ من أن يذيعوا سر المسيَّا، فذلك خوفاً من أن يُفهم ذلك على المستوى السياسي عند اليهود ويكون له الأثر السيئ على الرسالة كُلِّها. وحتى يمنع المسيح تسرُّب مثل هذه الأفكار عن مسيانيته بالنسبة لتلاميذه، ابتدأ منذ هذه اللحظة يكشف لهم عن آلامه وموته المزمع أن يكون، بمعنى أنه مسيَّا الروح لخلاص الروح، وليس مسيَّا المُلك والحرب والسلطان الأرضي.

ولكن لمَّا لم يحتمل بطرس فكرة آلام المسيح وصلبه، ابتدر المسيح بنصيحته الفاشلة: «فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره (ينتهر المسيح!) قائلاً: حاشاك يا رب! لا يكون لك هذا» (مت 22:16)! وهذا الفكر أزعج المسيح مما جعله يوبِّخه: «فالتفت (المسيح) وقال لبطرس اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت 23:16). فهذا التوبيخ العلني يضع تكريم المسيح لبطرس في السابق على أساس غير شخصي، بل بمقتضى صورة الإيمان الصحيح الذي استعلنه من الآب، فيصبح هذا الاستعلان والإيمان هو مصدر الطوبى وليس شخص بطرس، الذي أصابه هنا انتهار عنيف على مستوى الشيطان. وهنا في الحال حوَّل المسيح عثرة بطرس (التي فيها ظهر أن اهتمامه بأمور الناس هو الذي جعله يعطي هذه النصيحة الفاشلة للمسيح) إلى توعية جديدة لإنكار الذات، حتى لا يرى الإنسان فيما ينفعه بشريًّا، بل فيما يخص الله والإيمان والحياة الأبدية: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني، فإن مَنْ أراد أن يخلِّص نفسه

يهلكها، ومَنْ يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» (مت 16: 24-26). وهذا الشرط الهام جداً لصلاحية السير وراء المسيح تكرَّر في كل الأناجيل (مر 8: 34و35، لو 9: 23و24، يو 12: 25و26).

65 - أهمية الوداعة للخدَّام
«كونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام»

على أثر سماع المسيح لتقرير الرسل عن إرساليتهم وما قابلهم من صعوبات، بدأ المسيح يضع لهم أساس السلوك للخادم. وأول ما شدَّد عليه المسيح: الوداعة. خاصة وأن الخادم لا يملك ولا حق له أن يملك أي سلاح للدفاع عن نفسه. فالدفاع بالنسبة للخادم هو إبراز حُسْن النية مع الإعلان عن المحبة والوداعة: «ها أنا أرسلكم كغنم (أو حملان) في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام» (مت 16:10). بمعنى أن يكون لهم براءة الحمل أو الطفل ونقاوة القلب التي تمثلها الحمامة، كما يكون لهم حكمة التدبير للأمور التي تمثلها الحية الحريصة على حياتها: «أيها الإخوة، لا تكونوا أولاداً في أذهانكم، بل كونوا أولاداً في الشر، أمَّا في الأذهان فكونوا كاملين» (1كو 20:14). هنا لا يتجاوز المسيح عمل الروح القدس إلى الإمكانيات الجسدية، بل يعطي مع الروح القدس السلوك الذي يتوافق مع الروح القدس، فروح الله وديع وهادئ! فسلطان الخدمة لا يعمل إلاَّ في القلوب الوديعة، ولا يكون له قوة أو فعل إلاَّ مع الأذهان الحكيمة الكاملة بشبه الله. فالقلب القاسي والفكر المتشدِّد المتهوِّر إذا استخدم سلطان الروح قتل وخرَّب وأعثر الناس وهيَّج الشيطان والرئاسات: «أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم؟» (لو 54:9). فالوداعة والحكمة هما شرط أساسي للعمل بسلطان المسيح والروح.

كذلك فلينتبه القارئ والخادم أن «**حكمة الحية**» لا تجوز ولا يُعمل بها إلاَّ مع «**وداعة الحمام**»، فإذا لم تمتلك الوداعة في القلب فإن الحكمة تعمل لحساب الحية وليس الحمام. فحكمة الحية بالنسبة للحيَّة هي اتقاء شر الإيذاء من الآخرين وحسب، أمَّا الوداعة بشبه الحمام فهي كسب ودّ الآخرين ومحبتهم واستماعهم لتعليم الملكوت. ومنطق هذه النصيحة من المسيح شديد الواقعية والأهمية، لأن فيها مضادة شنيعة، فذهاب الحَمَل ليخدم وسط الذئاب معناه أنه مأكول حتماً، ولكن مع الوداعة ونقاوة القلب تتدخَّل حكمة الروح وتدبير النعمة، فإن الذئاب تفقد وحشيتها: «إذا أرضت الربَّ طرقُ إنسان (الوداعة) جعل أعداءه أيضاً يسالمونه» (أم 7:16)، وهذا هو منطق المضادة المحلولة أو المستجابة عند المسيح والروح. فالحمل يذهب للذئاب حاملاً روح المسيح وحبه

ليغيِّر الذئاب إلى حملان، لأن المقصود من الذئاب هو الروح الوحشية التي يتقمَّصها بعض الناس.

66 - لا تطرحوا درركم قدَّام الخنازير

ومع الحكمة والوداعة اللازمَيْن للخدمة والخدام، يأتي بالضرورة الاحتراس من التعليم والوعظ بالإلهيات والأمور المقدَّسة أمام القوم المستهزئين الذين يعيشون لبطونهم وشهواتهم، هذه مثَّلها المسيح بإلقاء الدُّرر أمام الخنازير أو المقدَّسات للكلاب:

+ «**لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدَّام الخنازير، لئلاَّ تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزِّقكم.**» (مت 6:7)

فالمعارف الروحية الثمينة وأسرار الملكوت ومقدَّساته لا تُقدَّم إلاَّ لمن يقيِّمونها حق قيمتها، فيتقبَّلونها بخشوع وتقوى وخضوع. ولكن إن كانوا قوماً مستهزئين ماديين شهوانيين فإنهم يستهينون بأمور القداسة والملكوت، بل ويهاجمون القائلين بها ويسخِّفون من معانيها وحقائقها ويحتقرونها هي وقائلها. لذلك لا ينبغي التسرُّع في التعليم لقوم إلاَّ بعد التأكُّد من مستواهم الإيماني: «وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا مَنْ فيها مستحق» (مت 11:10). وهذه الوصية هي امتداد للوصية السابقة: كونوا حكماء وودعاء، فالحكمة من ضمن مهامها قياس قامة السامع ليُعطى له ما يوافقه. فالشجاعة والغيرة في الخدمة بالإنجيل واجبة، ولكن لابد أن يتحكَّم فيها الحكمة والتدبير الحسن. ومعروف أن الصليب هو عثرة للجهلاء.

67 - وكيل الظلم

الموضوع هام وخطير لذلك آثرنا أن نفرد له شرحاً مفصَّلاً:

المال بين أيدي أبناء الظلمة، وكيف يكون بين أيدي أبناء النور؟

هنا أعطى المسيح مثلاً محتواه مرفوض روحياً، ولكنَّه يوضِّح حكمة أبناء الظلمة، كيف يستخدمون المال ولو بالحرام حتى يعيشوا في عالم ظالم شرير. هذا المَثَل مؤدَّاه أن وكيلاً لرجل غنيّ وُشي به، فعرف أنه سيُطرد من وكالته حتماً، فذهب وغيَّر الوثائق التي تفيد مديونية الناس للغني. فالذي عليه مائة بثِّ زيت جعله يغيِّر الصك المكتوب إلى خمسين، والذي عليه مائة مكيال قمح جعله يكتب ثمانين، حتى إذا طُرد من وظيفته يمكنه أن يسترد جزءاً من هذه المختلسات لنفسه ليعيش منها. فلا شك أن هذا الإجراء الماكر مرفوض روحياً، فهذا الشخص مختلس، ولكنه عمل ذلك بحكمة الأشرار من أجل حياته على الأرض. والمسيح يقصد من هذا المثل، لا أن نقتدي به،

ولكن أن نتعلَّم منه ماذا نصنع في هذا العالم الظالم الشرير؟ لكي يكون لنا حياة أفضل في العالم الآخر. واضح إذن، أن المطلوب أن نبدِّد مال هذا العالم الظالم الشرير على الفقراء والمساكين والمعوزين، حتى إذا طُردنا من هذا العالم الشرير نجد رحمة وعزاءً عند الله في عالم النور. وهذا يُحسب لنا عمل حكمة ممتازاً في مالنا الخاص الذي هو مال العالم الظالم الشرير. فالمال كله هنا حُسب «مال الظلم» على كل حال مهما حصلنا عليه بالأصول والحلال، فهو مال هذا العالم الظالم الشرير. ولكي نحوِّله إلى مال مقدَّس ـ الذي يسمُّونه الآن عملية غسل الأموال ـ بالعملة السماوية التي عليها صورة الله، علينا أن نبدِّده على مساكين هذا العالم الذين ظَلَمَهم العالم وحَرَمَهم من خيراته الظالمة. والآية الرائدة التي جاءت في هذا المثل لتوضِّحه تماماً جاءت هكذا: «وأنا أقول لكم: اصنعوا لكم أصدقاء (في السماء) بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية» (لو 16:9). هكذا فإن منفعة المال في العالم هو أن نشتري به النصيب الحسن السماوي.

يلزمنا أن نجد جواباً على عدة أسئلة لندرك حقيقة هذا الوكيل الحكيم دنيوياً والمزوِّر والسارق والمختلس روحياً:

ماذا كان يعمل هذا الوكيل؟

كان يغيِّر الصكوك التي يدوِّن فيها ديون الزبائن بكتابة أرقام أقل، حتى إذا طرده صاحب المال يكون له عند الزبائن الذين كتبوا على أنفسهم فيها أرقاماً أقل من الحقيقة، فيقاسمهم الفرق عند طرده من الوكالة.

ما هو القصد الذي قصده المسيح من هذا المثل؟

كان القصد واضحاً أن أبناء النور يكون لهم نفس هذه الحكمة دون سرقة أو اختلاس؛ بل بعكس ذلك، فلأن هذا العالم ظالم فماله كله هو مال ظلم، فعلى الإنسان أن يبدِّد هذا المال على الفقراء والمساكين ليتحوَّل كل ما سيبدِّده إلى رصيد سماوي، فعندما يذهب إلى فوق يجد رصيده في انتظاره: رحمةً من الله ومحبةً كما أحبَّ ورحم فقراءه على الأرض.

+ «**وقال أيضاً لتلاميذه (خاصة): كان إنسانٌ غنيٌّ له وكيل، فوُشيَ به إليه بأنه يُبذِّر أمواله. فدعاه وقال له: ما هذا الذي أسمع عنك؟ أعطِ حساب وكالتك لأنك لا تقدر أن تكون وكيلاً بعد.**» (لو 16: 1و2)

لا يزال المسيح يتكلَّم وسط الجمع، والكتبة والفرِّيسيون سامعون، ولكن المسيح يوجِّه هنا كلامه لتلاميذه لأن المَثَل في الحقيقة يصلح للاثنين.

يُلاحَظ أن الإنسان الغنيّ كان له وكيل، وكان يتعامل مع متاجر يبيع لهم الزيت الخارج من معصرته وطبعاً زيت زيتون، والقمح من حقله؛ فهو إنسان ثريّ حقاً، ووكيله وكيلٌ قانوني للبيع والتحصيل، وفي هذه الحالة يكون له صلاحيات كبيرة في المطالبة بالديون ورفع القضايا وقفل المحلات في حالة عدم السداد، نظير ذلك فهو يعمل عند صاحب الأرض إمَّا بالعمولة أو بالأجر، وغالباً كان يعمل بالعمولة. ويبدو أنه **كان يحابي التجَّار على حساب صاحب الأرض** (كان يبذِّر أمواله **التي تُحسب نوعاً من التبديد**، ولهذا صمَّم الغنيّ على عزله ـ وهنا على القارئ أن يلاحظ أننا مطالبون بمثل هذا السلوك روحياً كما سيتضح ـ فدعاه صاحب العمل وأمره أن يسلِّم دفاتر الوكالة وجميع الإيصالات.

وهذا أيضاً سيحدث لنا حينما يجدنا السيد رئيس هذا العالم غير أمناء لحسابه لأننا نبذِّر "مال الظلم" ـ ومال العالم هو مال الظلم كثر أو قلَّ، جُمع بأمانة أو غير أمانة ـ فحينما يجدنا رئيس العالم نبذر أمواله على أولاد رئيس العالم السماوي يحقد علينا (وهو وضع أولاد الله القديسين في وسط هذا العالم موظفين وتجاراً، أو العاملين بأي عمل حينما يسخون على الفقراء والضعفاء ويبذِّرون "مال الظلم" على الأعمال التي يحتاجها المسيح على الأرض، فإنهم يكونون مُبغَضين من رئيس هذا العالم جداً). وإن طالت حياتهم مهما طالت سيودِّعهم رئيس العالم بالإهانة وربما بالاضطهاد أو بالأمراض. وهذا هو القصد من: «أعطِ حساب وكالتك» بالنسبة لرئيس العالم، أي نعطيه حساب وكالته الرديَّة ونمرق إلى السماء؛ حيث نَجد أن كل الأرصدة من مال الظلم التي خُنَّا (من خيانة) فيها رئيس العالم وسَرَّبْنَاها إلى فوق، قد تحوَّلت إلى أموال طاهرة مقدَّسة التي هي مواهب نِعَم الله في السماء. وهذا بلغة هذه الأيام هو محاولة جريئة لِغَسْلِ أموال الظلم (أي مال العالم)، وتحويلها إلى أموال سماوية!

علماً بأننا حينما يقبلوننا فوق في السماء يسألوننا عن "إخلاء طرف" من رئيس العالم، فالذي يجدونه لم يُخلِ طرفه تماماً لا يُقبل. ورئيس العالم يعطي إخلاء الطرف مع شهادة بعدم الصلاحية في العالم وصفات رديئة كثيرة، منها أنه كان يضيِّع وقته في الصلاة والذهاب للكنائس وتبديد أموال العالم على الغرباء من العالم كالشحَّاذين والمساكين، وكان يمتّ بصلات شديدة بعدونا الأكبر صاحب السماء وابنه.

+ «**فقال الوكيل في نفسه: ماذا أفعل؟ لأن سيدي يأخذ مني الوكالة. لست أستطيع أن أنقُب وأستحي أن أستعطي. قد علمت ماذا أفعل، حتى إذا عُزلت عن الوكالة يقبلوني في**

بيوهم. فدعا كل واحد من مديوني سيده، وقال للأول: كَمْ عليك لسيدي؟ فقال: مئةُ بثٍّ زيت. فقال له: خُذْ صكَّكَ واجلس عاجلاً واكتب خمسين. ثم قال لآخر: وأنت كم عليكَ؟ فقال مئة كُرِّ قمحٍ. فقال له: خُذْ صَكَّك واكتب ثمانين.» (لو 16: 3ـ7)

طبعاً أخذ الوكيل العلم بتسليم الوكالة، وعليه أن يرتِّب الدفاتر والإيصالات، ولكنه فكَّر كيف يعيش بعد الطرد؟ ويبدو أن العمل شحيح في هذه الكورة. ففكَّر: أنا لا أستطيع أن أنقب أي أسرق (مع أنه حرامي) ولا أستطيع أن أشحذ، فهداه فكره لعملية الاختلاس. فتاجر الزيت كان عليه مائة بث زيت، والبث بحسب يوسيفوس المؤرِّخ يساوي 8,6 جالون أو 39 لتراً تقريباً، وبحسب الاكتشافات الأثرية يساوي 20 لتراً تقريباً. فجلسا معاً هو وتاجر الزيت وزوَّرا إيصالات الاستلام والدفع حتى صارت خمسين بثًّا، وهي تساوي في ذلك الزمان 500 دينار بعد خصم السرقة، رقماً لا بأس به.

ودعا تاجر القمح وصنع معه نفس الشيء، إذ كان عليه مائة كُرّ قمح. فقال: خُذ صكك واكتب ثمانين، والكُرّ kÒroj هو مكيال يبدو أنه بالزكيبة ويساوي 48 جالون. وكان ثمن القمح آنئذ بحسب العلاَّمة يوسيفوس المؤرِّخ بين 25ـ30 ديناراً للكُرّ الواحد، الذي يساوي في جملته 2500 دينار. وهكذا خرج من إيصالات القمح بسرقة قدرها 500 دينار، لا بأس بها أيضاً.

+ «**فمدح السيد وكيل الظلم إذ بحكمةٍ فعل، لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم.**» (لو 8:16)

المسيح هنا هو المتكلِّم، فواضح جداً أن السيد ''ذ kعrioj كيريوس'' هنا هو الغنيّ صاحب الأرض. والكلام هنا غير واضح، لأن الغنيّ ـ الذي وصفه المسيح بالسيد بنوع من التهكُّم ـ وجد في وكيل الظلم حكمة (ظالمة طبعاً) وفي غير مصلحة الغنيّ، ولكن استطاع بها أن يعيش بأن يرحِّل مال الظلم الذي اختلسه مع زبائن الرجل الغنيّ، لكي يقبلوه حينما يأتي إليهم بعد الطرد يسترزق. وعلَّق المسيح على ذلك: هل أبناء النور يستطيعون أن يكون لهم حكمة مثل هذا الرجل؟ ويسرِّبوا مال الظلم في هذا العالم إلى فوق: «حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية»

+ «**وأنا أقول لكم: اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية.**» (لو 9:16)

واضح من القصة التي قالها المسيح، ومن تصرُّف وكيل الظلم، أنه تصرَّف بحكمة في مال الظلم

بحسب مهارة أولاد العالم. وأن المسيح قال هذه القصة لنأخذ هذا الأسلوب عينه. والشرح كما سبق وقلنا في المقدِّمة يكون كالآتي:

إن هذا العالم الظالم الشرير هو السيد، ونحن رغماً عن أنفنا أقامَنَا هذا السيد وكلاءَ له لنكدح ونشتري ونبيع ونعمل في مكاتبه الحكومية، وفي أعماله الخاصة في الزرع والبناء والتجارة والبنوك والصناعة، واكتشاف الفضاء والنزول على القمر لكي نجمع له المال ونسلِّمه لمن يستلم، ونجمع له العلم والبيانات والاختراعات ونسلِّمها له. فمطلوب منَّا من وراء هذا السيد القاسي الشرير أن نأخذ نصيبنا من مال الظلم هذا، ولكن ما نستحقه بأمانة كاملة، ثم نبدِّده على الفقراء والمساكين والمذلِّين والمرضى وذوي العاهات حتى لا نُبقي له شيئاً عندما يطردنا ونذهب إلى فوق، حيث نجد أموالنا كلها قد تحوَّلت من أيدي الغلابة والمساكين إلى أيدي الملائكة فوق، ووُضِعت كُلُّها رصيد نعمة وحكمة ووعي روحي لكشف أسرار ملكوت الملك العظيم السمائي. فنؤهَّل للعمل مع الله الغنيّ في الرحمة. ذلك أفضل جداً.

الأمانة في المال:

+ «**الأمين في القليل أمينٌ أيضاً في الكثير، والظالم في القليل ظالمٌ أيضاً في الكثير.**» (لو 10:16)

لا تُفهم هذه الآية إلاَّ على ضوء الآية السابقة، حيث الأمانة لحساب المسيح فوق للملكوت. بمعنى أن الذي يكون العالم الظالم الشرير قد سلَّمه وكالة صغيرة لكي يخدمها لحسابه، فإذا انتهز الفرصة وكان أميناً للمسيح والملكوت والحياة الأبدية، وبدَّد منها شيئاً على الفقراء أمثاله والمساكين أيضاً، ولو قروشاً قليلة؛ ثمَّ إذا استحسنه رئيس العالم الظالم الشرير ورفعه إلى وكالة أعظم، فانتهز الفرصة نفسها وكان أميناً لسيده المسيح وأخذ من المال الزائد من عمله وبدَّده يميناً وشمالاً على كل مسكين وذليل وكل معوز ومتضايق ـ فإن هذا كله يُحسب له أمانة للمسيح في الكثير، ويُحفظ له فوق كأجر عظيم لا يتدنَّس ولا يضمحل.

+ «**فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم، فمن يأتمنكم على الحق؟**» (لو 11:16)

الأمر واضح يا عزيزي القارئ، فالأمانة في مال الظلم هي جمعه بالأمانة والدقة، ولكن صرفه بالتبديد على الفقراء والمساكين والمظلومين والمتضايقين لفك ضيقهم. هذه هي الأمانة في مال الظلم تحت رئاسة رئيس هذا العالم الظالم الشرير. أمَّا أن يأتمنَّا المسيح على الحق بالمقابل، فهذا بحقٍّ هو المعادلة السرِّية بيننا وبينه التي سيكشف عنها بعد قليل.

+ «**وإن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير، فمَنْ يعطيكم ما هو لكم؟**» (لو 12:16)

وأيضاً بمقتضى ما سبق من آيات، الأمانة فيما للغير هي الأمانة فيما للمساكين والمذلِّين وبائسي الأرض، هؤلاء هم "**الغير**" الذين يتبعون المسيح رأساً. أمَّا ''عطية ما هو لكم'' فهي هنا النعمة والبركة والستر والرضا والفرح والرجاء والسرور الكامل، والعلاقة السرِّية مع الله الآب وابنه يسوع المسيح. إذن، فهي معادلة تسير هكذا: بدِّد ما هو هنا على مساكين الله، يسكب الله عليك من فوق من غِنَى مجده.

+ «**لا يقدر خادم أن يخدم سيدين، لأنه إمَّا أن يُبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال.**» (لو 16:13)

واضح جداً الآن بمقتضى شرح ما فات، أنه يستحيل أن نخدم المال بأمانة لحساب العالم ونكون في ذات الوقت أمناء في خدمة المسيح بالروح والحق. هنا مضادة عظمى يستحيل حلها إلاَّ بما استطعنا أن نقوله ونوضِّحه في الآيات السالفة. فلكي نكون أُمناء للمال لابد أن نجاهد ونبذل ما في وقتنا وصحتنا وأعصابنا لنستزيده لحساب رئيس هذا العالم الشرير، الذي يعطينا إذا نجحنا وجمعنا له الملايين لنضعها في البنوك، يعطينا شهادة الدكتوراه في الإخلاص في خدمة العالم ومال الظلم. ولكن أن نخدم المسيح تصبح خدمتنا للمال لحساب السيد المسيح، أي نأخذ منه الكفاف والباقي في مشروعات لحساب الفقراء والمساكين فيكون لنا كنزٌ في السماء، والله لا يكذب. يستحيل أن نحب المال ونحب الله، هذا رياء فرِّيسي. إذا أحببنا الله فعلاً من كل قلبنا وفكرنا، يلزم ويتحتَّم أن المال إذا وقع في أيدينا يكون مال الله، ومال الله يُعطى للمحتاجين من أولاد الله ولا يخصنا منه إلاَّ كفافنا.

يستحيل أن نخدم المال ونخدم الله، إن أردنا أن نخدم المال، فيلزم بالضرورة أن يكون مال الله بالفعل وليس بالكلام.

وإلى هنا ينتهي موضوع المال، ويؤسفني أن أقول أن الشرَّاح الذين اضطلعوا بشرح هذا الأصحاح أعطوا شرحاً متحيِّزاً للعالم ولمال الظلم. لذلك نوعِّي القارئ أن المسيح يقول الحق، والحق لا يجوز اللعب به ليتناسب مع ظروفنا أو مبادئنا نحن أو واقعنا المالي. فإن كنَّا نحسب أنفسنا أننا أبناء الملكوت، فالملكوت له شروط يلزم أن تُراعى جيداً هنا في العالم. وأي محاولة للخلط بين العالم والملكوت مجازفة نحن فيها خاسرون:

+ «وأمَّا الذين يريدون أن يكونوا أغنياء، فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبيَّة ومضرَّة، تغرِّق الناس في العطب والهلاك. لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلُّوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة.» (1تي 6: 9و10)

توبيخ الفرِّيسيين الذين أرادوا أن يخدموا الله والمال:

هنا تعقيب على كلام المسيح بخصوص المال وخدمته، فلمَّا سمعه الفرِّيسيون استهزأوا به مثل كل إنسان يريد الآن أن يزكِّي الغنَى واقتناء المال والادعاء بإمكانية خدمة الله والمال. ويكشف المسيح عن سرّ الإصرار على خدمة المال مع خدمة الله أنها محاولة لكسب رضا الناس وتكريمهم.

ولكن شهادة لله(1) نقولها: إن بعض العلمانيين الجبابرة في هذا الجيل قاموا بمشاريع ينتفع منها الفقير والمريض. هؤلاء لا يمكن أن نضعهم في صفوف الأغنياء الذين يطلبون الكرامة ومجد الناس، لأن أعمالهم تشهد لهم. والمسيح هنا يتكلَّم قاصداً الفرِّيسيين الذين يضمرون في قلوبهم ـ كما يراها ـ محبة المال والجري وراءه.

+ «وكان الفرِّيسيون أيضاً يسمعون هذا كله، وهم محبون للمال، فاستهزأوا به. فقال لهم: أنتم الذين تبرِّرون أنفسكم قُدَّام الناس! ولكن الله يعرف قلوبكم. إن المستعلي عند الناس هو رجسٌ قُدَّام الله.» (لو 16: 14و15)

إن كلام المسيح مثل صليب المسيح وعلى مستواه. فكما أن الذي قاله المسيح يبرهن صدقه على الصليب، كذلك يريد المسيح منَّا، إن كنَّا نؤمن بصليب المسيح والملكوت الذي أعدّ، فحتماً نؤمن بصدق كلامه والحق الذي فيه. فالذي يرى في كلام المسيح تعارضاً مع حياة الإنسان ومنفعته، لن يستطيع أن يؤمن بصليب المسيح وأن يمارس الموت معه. فموقف الفرِّيسيين هنا أنهم استهزأوا به، مما أدَّى في النهاية إلى أنهم اشتركوا في صلبه. فإن أخطر ما في محبة المال أنها تؤدِّي إلى الكبرياء والاعتداد بالذات التي وصفها المسيح أنها رجسٌ عند الله.

68 - المرأة الكنعانية

[من خلف صرامة وجهه كان يُخفي ابتسامته].

حدث بينما كان المسيح يواصل رحلته نحو الشمال أن اقترب من الحدود الخارجية للجليل التي تفصلها عن فينيقية (لبنان) حيث أهالي الأُمم، ومرَّ بتلاميذه قرب قرية كانت فيها امرأة كنعانية فينيقية سمعت بمرور المسيح مع تلاميذه، وكانت لها ابنة مريضة بها روح شرير يعذِّبها عذاباً أليماً. فخرجت من

---

(1) لا يسعنا المجال هنا أن نذكر ما يقوم به رجال هذا الجيل وسيِّداته من مشاريع للنهوض بالشعب القبطي، الذي يجعلنا ندعو لكي يزداد إيمانهم مع غناهم، حيث يصبح المال وسيلة فعَّالة للبذل والتضحية والاتضاع والسهر على خدمة المعوزين أيًّا كانوا. وهنا يصبح الغني قادراً حقًّا أن يدخل من ثقب الإبرة الذي هو الباب الضيق الموصِّل من هذا العالم إلى الملكوت، ومعه جمل محمَّل بدعوات الأيتام والأرامل والمرضى والمساكين.

دارها مسرعة تتعقَّب المسيح بعويلها وصراخها: «ارحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جداً» (مت 22:15). عجب، ما لهذه الأُممية "وابن داود"؟ من أين أتاها هذا اللقب اللاهوتي ومِمَّنْ استلمته؟

لو سمعنا هذا التوسُّل من رئيس مجمع أو رابِّي من الرابيِّين لاستغربنا على انفتاح بصيرته وقوة استعلانه، ولقد بحث المسيح عمَّنْ يستعلنه على مستوى هذا اللقب في كل إسرائيل فما وجده! أيجده عند هذه الأُممية التي لا تملك ميراثاً لاهوتياً ولا تراثاً تعليمياً؟ إنها عابدة وثن ابنة عابدي وثن! وها هي تنادي المسيح بأعز لقب عنده. وقف المسيح مبهوراً أمام هذه المرأة "لا يجيبها بكلمة"، كان يتأمَّل في جحود بني وطنه وهو للتو خارج من مؤامرة لقتله على أيدي قومه، وأمامه مندوبة فوق العادة خرجت من تخوم الأُمم تحييه وتناديه باسم داود والرسالة. فلمَّا تغاضى عن صراخها وواصل المسير ضاق صدر التلاميذ بصراخ المرأة، وكأنها تزفّهم في وسط هذه الأحياء الغريبة. فطلبوا إليه أن يصرفها: «لأنها تصيح وراءنا» وهنا أجاب المسيح بكلمة لتوعِّي التلاميذ بهدف الرسالة ومضمونها: «فأجاب وقال: لم أُرسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت 24:15). فما أن سمعته هذه المرأة الذكية الحصيفة، حتى اقتربت منه وقطعت عليه الطريق: «وسجدت له قائلة: يا سيِّد أَعِنِّي» هنا أثبتت هذه المرأة إنها تتعبَّد له كما يتعبَّد خرافه، فلها حق عنده إن كان هو الإله!!

فتعجَّب المسيح من جرأتها واقتحامها الطريق إليه! ولكن المسيح عاد ليضع خرافه الذين أتى إليهم موضع البنين ليرفع من قَدْر الهوَّة التي تفصل الأولاد عن العبيد والغرباء: «فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب» (مت 26:15). فما أن سمعت حجَّته إلاَّ وأخرجت له حجَّتها، إذ ردَّت عليه قائلة: «**نعم يا سيِّد، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها**» (مت 27:15). وكأنها تقول له إن الفائض من البنين هو من حق الكلاب. وهكذا كانت حجتها أقوى من مطلبها مما أذهل المسيح. فكأنها قدَّمت دفاعاً مشروعاً للأُمم أن تأخذ حقها من فائض قدسه، فتخصيص الخبز للبنين وحدهم فيه إجحاف للجائعين. فهل من عُرف ابن داود أن يفيض الخبز عن الشباعى ويموت الجياع. إنها لم تذهب إلى كفرناحوم لتقاسم البنين خبز ديارهم، بل ها هو المسيح الذي عبر إليهم إلى عقر دارهم، فأصبح لهم عليه حق الضيافة، فلولا أنه مرَّ على دارها ما جرأت أن تجري وراءه. ولو لم يقل: إن الخبز للبنين، ما كانت تمسَّكت بحقِّها أن فائض البنين هو حق للكلاب!

إلى هذا الحد قطعت عليه كل مهرب وأجبرته على الاستجابة وقد كان! «**حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة، عظيم إيمانك! ليكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة**» (مت 28:15). وهكذا اغتصبت الكنعانية حق الأُمم اغتصاباً!

لقد دخلت إليه هذه المرأة اللوذعية(2) حسنة المنطق ذربة(3) اللسان، من الباب الذي دخل منه هو إلى العالم، فإن كان قد أخلى ذاته ودخل إلى العالم بشكل العبد، فقد أخلت ذاتها ودخلت إليه بشكل الكلب. لقد حاصرته في موهبته الأُولى والعظمى: في "اتضاعه"!! فنزلت حتى التراب لتلحس ما يفيض من بركاته، فهل هو بمستطيع أن يصدّها؟ وهل هي التي اقتحمت تخومه؟ أم هو الذي اقتحم تخومها؟ فعليه أن يدفع الضريبة! وهل جاءت إليه لتغتصب الخبز من بنيه أو تخطفه من أيدي أولاده؟ أم إنها انتظرت انتظار الأمم حتى تساقط الفتات تحت أرجلهم. فإن كان حقًّا عليه وله أن يطعم بنيه أولاً، فما اقتحمت الأولوية عنده، ولكنها اصطبرت اصطبار الكلاب حتى شبع البنون وامتلأوا، فابتدأت الكلاب تلعق الأرض من تحت أرجلهم، وكأنها لم تأخذ من يديه شيئاً بل اغتصبت حقها من تحت رجليه!! لذلك لم يقل لها، إلاَّ أن يكون لها ما أرادت، اعترافاً منه بأنها بإيمانها نهبت حقها نهباً! «فملكوت السموات يُغصب، والغاصبون يختطفونه.» (مت 11:12)

انظروا يا إخوة ما صنعته هذه الكنعانية التي أثبتت أنه ليس كل الكلاب يُمنَع عنها القدس في قول الرب: «لا تعطوا القدس للكلاب» فهنا "كلاب ناطقة" اغتصبت القدس من يد القدوس.

69 - التجلِّي

+ «**وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام، أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلِّي. وفيما هو يصلِّي صارت هيئة وجهه متغيِّرة، ولباسه مُبْيَضًّا لامعاً.**» (لو 9: 28و29)

حادثة التجلِّي تُحسب بالفكر الروحي خروجاً عامداً متعمَّداً عن مستوى الأرض والزمن والأجساد لتلاحُمٍ روحي فائق بالسماويات، ولكن على مستوى الاختبار الذهني وحضور الوعي المفتوح لإعادة رسم وصياغة الرؤيا لتجئ على المستوى التاريخي والتسجيل الفعلي المقروء والمفهوم. فالتجلِّي رؤية سماوية بمعنى الكلمة، إنما تسجَّلت لينعم بتصوُّرها كل مَنْ لم يشترك في مضمونها الإلهي الفائق.

وقد أخذ ق. بطرس على عاتقه أن يسرد لنا اختباره بتدقيق وحماس شديدين كشاهد يشهد: « لأننا لم نتبع خرافات مصنَّعة، إذ عرَّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو

---

(2) لوذعي: ظريف ذكي سريع الجواب.
(3) ذرِبٌ: فصيح اللسان.

ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدَّس»(2بط 1: 16ـ18). كذلك يشهد ق. يوحنا في إنجيله نفس هذه الشهادة: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا (عمانوئيل)، **ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب،** مملوءًا نعمة وحقًّا.» (يو 14:1)

أمَّا النعاس الذي عاناه الثلاثة تلاميذ الذين رافقوا المسيح: بطرس ويعقوب ويوحنا، فهو في حقيقته لحظة مفارقة الذهن للارتفاع إلى المستوى الروحي العالي حيث يرتخي الجسد في شبه نعاس، ولكن من شهادتهم يتضح أن الجزء الفائق الذي أراد المسيح أن يشتركوا فيه كانوا على منتهى الوعي به. كذلك التعرُّف على موسى وإيليا وسماع وفهم حديثهما مع المسيح عن الخروج، أي الموت المزمع أن يكمِّله خارج أُورشليم، الأمر الذي ظلَّ لاصقاً بعقلهم حتى سجَّلوه لنا في الإنجيل.

والقصة تبدأ هكذا:

تاقت نفس المسيح أن يُمضِّي ليلة في الصلاة مع تلاميذه الثلاثة المحبوبين: بطرس ويعقوب ويوحنا، فأخذهم وصعد بهم إلى الجبل ليصلِّي. وكلمة "صعد" هنا بحسب التقليد تفيد ضمن ما تفيد "التجلِّي"! صعد وقد غابت الشمس وبدأ نسيم الليل الآتي من فوق الجبل يبلِّل جباههم المجهدة. فبرودة الجو على أعلى الجبل كافية أن تزيل عن الإنسان عناء النهار وحرّه، وما أن بلغوا أعلاه حتى كان الليل قد أسدل ستاره. وهكذا بدأ هدوء المكان وهَدْأة الليل السادر توحي للنفس التي تشتهي الصلاة بالانطلاق. بدأ المسيح الصلاة وجلس التلاميذ يراقبون، وإذا بهم قليلاً قليلاً يرون هالة من النور يتوسَّطها المسيح وهو رافع يديه نحو السماء. وهذه الهالة من النور هي التي تسمَّى في اللغة العبرية في التوراة بالشاكيناه. والشاكيناه هي نور حضرة الله، ولكنه نور يختلف عن نور الشمس والقمر وأي نور صناعي، فهو نور من درجة فائقة بالرغم من عدم إيذائه للعين، ولكنه نفَّاذ يخترق كل شيء، الأجسام والأفكار والقلوب والضمائر. هذا النور عينه هو المدعو باللغة اليونانية بالذُّكصا العظمى، أي المجد الأسنى، فنور الله هو مجده. وحينما نقول: المجد للآب والابن والروح القدس، فنحن نطلب أن يشرق الله علينا بنوره أو يدخلنا حضرته. والمسيح حينما يقول: إنه هو "النور" فهو مجد الآب. وحينما تقول الآية: «الجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور» (مت 16:4)، فهذا هو مجد الله في وجه يسوع المسيح (2كو 6:4). وحينما يقول ق. بطرس: «الذي دعاكم مِنَ الظلمةِ إلى نورِه العجيب» (1بط 9:2)، معناه أنه نقلنا إلى حضرته بعد أن كنا مرفوضين وعائشين في الظلمة. وإذا انتبه القارئ إلى أن معنى النور الإلهي هو المجد، سيجد في تطبيقها مجالاً للتأمل لا ينتهي. هكذا كان التجلِّي صورة فريدة لابن الإنسان في شركته السرية مع

الآب. وجهه بدأ يضيء، وشيئاً فشيئاً صارت الأعين غير قادرة أن تحدِّق في بؤرة هذا النور. لقد اكتسى ابن الإنسان بالنور، وملابسه ابيضَّت ولمعت واختفت معالمها: «وفيما هو يصلِّي صارت هيئة وجهه متغيِّرة ولباسه مُبْيَضًّا لامعاً» (لو 29:9)، «وتغيَّرت هيئته قدَّامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور» (مت 2:17)، «رأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب» (يو 14:1)، هنا المجد هو النور الإلهي.

وظهر بجانبه من هنا ومن هنا رجلان تبيَّنوهما في الحال بالروح أنهما: موسى النبي كليم الله، وإيليا عظيم الأنبياء. وكانت هيئتهما هيئة القيامة: وجوه مضيئة، وثياب لامعة. وفي صمت الكون وهدوء الليل السادر سمعوهما يتكلَّمان مع المسيح عن الموت الذي حان ميعاده وصلبه خارج أُورشليم. وإلى هنا انحجبت الرؤيا، وضاع الصوت، وتوقَّف الوعي، وضغط عليهم النعاس اللاإرادي؛ فدخلوا في اللاوعي. وبعد مدة مديدة لا تقل عن الليل بطوله تيقظوا فجأة على المنظر وهو يذوب في الظلام المحيط، ولكن المسيح لا يزال بسطوع نوره يتألَّق كالشمس في الظهيرة ومعه النبيَّان العظيمان يؤدِّيان تحية الخضوع والوداع. فاندفع بطرس، وكأنه يريد أن يمنع النهاية ويمسك بتلابيب النور حتى لا يزول، يتوسَّل إلى المسيح أن يكون حسناً لو صَنع لهم ثلاث مظال تكريماً وتذكاراً على هذا الجبل!

ولكن كان قد أُخفي عن عيني بطرس مجد الصليب ومظلة الآب على الجلجثة والابن يسجِّل مجد وجوده مذبوحاً إلى الأبد!

وبينما بطرس غارق في أحلامه يشتهي البقاء في التجلِّي ولو في مظلة، إذا سحابة نيِّرة من السماء أحاطت بالمكان ودخل الكل في نورها الأخَّاذ حتى كلَّت عيونهم من بهاء نورها، وصوت مُقبل من السماء من المجد الأسنى مرَّة أخرى: هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا. فخافوا جداً وسقطوا مغشياً عليهم حتى أفاقهم المسيح، فرفعوا رؤوسهم ووجدوا كل شيء كما كان ونور الفجر يبزغ من وراء الجبل!! «كنا معاينين عظمته ... ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء، إذ كنا معه على الجبل المقدَّس» «وأمَّا هم فسكتوا و لم يخبروا أحداً في تلك الأيام بشيء مما أبصروه.» (لو 36:9)

70 - إيليا قد جاء وعملوا به كل ما أرادوا

كان ظهور إيليا مع المسيح على جبل التجلِّي حافزاً شديداً ليسألوا المسيح عن حقيقة دور إيليا، فلماذا يقول الكتبة إنه ينبغي أن يأتي إيليا أولاً قبل المسيَّا؟

ويُلاحظ أن في بدء السؤال الذي تقدَّم به التلاميذ هنا جاء في مقدِّمته باللغة اليونانية حرف oân الذي يساوي الفاء في كلمة ''فلماذا''، مما يشير أن التلاميذ إنما كانوا يكمِّلون حديثاً آخر مع المسيح، وهو الذي جاء في إنجيل ق. متى (21:16)، الذي فيه كشف المسيح عمَّا سيحدث قريباً: «من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يُظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أُورشليم ويتألَّم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويُقتل، وفي اليوم الثالث يقوم» فلما رأى التلاميذ منظر التجلِّي وظهور إيليا مع المسيح وقول المسيح عن نفسه أنه سيموت خارج أُورشليم، بادروا بالسؤال الذي حيَّرهم وهو كيف يقول الكتبة إذن أن إيليا ينبغي أن **يأتي أولاً أي قبل المسيَّا**. فإن كان الموت للمسيَّا على الأبواب، فأين زمن مجيء إيليا؟ هنا كشف المسيح سرَّ المعمدان أنه هو إيليا الذي جاء ذكره في النبوَّة: «فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيليا يأتي أولاً ويردُّ كل شيء. ولكن أقول لكم: **إن إيليا قد جاء** و لم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألَّم منهم. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.» (مت 17: 11-13)

71 - التلاميذ يتعذَّر عليهم إخراج شيطان

في الصباح الباكر نزل المسيح مع تلاميذه من فوق جبل التجلِّي، وأحاطت به الجموع كالعادة حاملين مرضاهم. وإذا برجل يحمل ابنه المريض ويتقدَّم حزيناً غاية الحزن. وكانت عوارض المرض كنوبات الصرع المعروفة مع هلوسة. ولكن الذي كشف أنه ليس مجرَّد مرض، بل كان روحاً شريراً يتقن علامات الصرع إتقاناً شديداً، أنه أراد أن يقتل الصبي بأن يلقيه إجباراً في النار أو في البحر، وكان الأب قد عرض الحالة على تلاميذ المسيح فعجزوا عن إخراج الروح الشرير، فالتجأ أخيراً إلى المسيح. وتهيَّأ للتلاميذ أن هذه حالة غير عادية، وكان بعض الكتبة حاضرين، وفجأة ظهر المسيح وتقدَّم إليه أبو الولد بالشكوى: «يا معلِّم، قد قدَّمت إليك ابني به روح أخرس، وحيثما أدركه يمزِّقه فيزبد ويَصِرُّ بأسنانه وييبس (يتشنَّج). فقلت لتلاميذك أن يخرجوه فلم يقدروا» (مر 9: 17و18). ولكن بدت من أبي الولد كلمة لفتت نظر المسيح إذ قال له: «إن كنت تستطيع شيئاً فتحنَّن علينا

وأعنّا» (مر 9:22)، فردّ عليه المسيح بنفس سؤاله: «**إن كنتَ تستطيع أن تؤمن. كل شيء مستطاع للمؤمن**» (مر 9:23). هنا يرد المسيح المعجزة أو الشفاء إلى الإيمان عند الرجل، وليس إلى عامل الرحمة من عنده. فهو يرحم الجميع، ولكن المعجزة والشفاء رهن إيمان الإنسان، الذي يربطنا بالله من جهة استجابة الصلاة، إذ تتوقَّف على مقدار إيماننا وثقتنا في الله: «**كل ما تطلبونه حينما تصلُّون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم**» (مر 11:24). بمعنى أن يكون لنا الإيمان والدالة معاً في الله الآب وابنه يسوع المسيح، بحيث حينما نريد شيئاً مُلحًّا منه نمد أيدينا فنأخذ من سخاء الله كطفل يمد يده ويأخذ ما يشاء من جيب أبيه، لأن كل ما عند أبيه له، فالله غنيّ ومحب ومتواضع جداً. وقد أوضحها المسيح هكذا: «اطلبوا **تأخذوا** ليكون فرحكم كاملاً» (يو 16:24). فالذي يطلب على أساس أنه يأخذ.

وحينما اختلى المسيح مع تلاميذه سألوه: «لماذا لم نقدر نحن أن نُخرجه؟ فقال لهم: هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيء إلاَّ بالصلاة والصوم.» (مر 9: 28و29)

وبحسب إنجيل ق. متى: «وقالوا: لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه؟ فقال لهم يسوع: **لعدم إيمانكم**. فالحق أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم» (مت 17: 19ـ21). هذه هي الإضافة التي أضافها ق. متى على القصة وذكر بعدها موضوع الصلاة والصوم. ولكن كما سبق وشرحنا، فالصلاة والصوم إنما هما عمل روحي على قاعدة الإيمان المسيحي. فبدون الإيمان بالذي صنعه المسيح على الصليب بالنسبة للخطايا وغفرانها وغلبة الموت والشيطان، فلا الصلاة تفيد ولا الصوم. فالصلاة والصوم هما قوتان تعملان مع الإيمان كجناحين يطيران بالإيمان ليحلِّق في السماء حيث العون والقوة العظمى. كذلك فالإيمان يعمل في الصلاة والصوم ويجعل لهما فاعلية نارية تحرق كل ما هو باطل وشرير. لأن بالصلاة ندخل حالة وجود في حضرة الله، ويصبح عملنا منظوراً أمامه، ومنه نستمد القوة والسلطان؛ وبالصوم ندخل في حالة تجرُّد من العالم والجسد التي هي أدوات الشيطان وملجأه، فلا يصبح للشيطان مدخل فينا ولا شكوى ضدنا يعيِّرنا بها. وهكذا ندخل للعدو أقوياء باسم الله قادرين أن نهدم كل أعماله وظلمه.

72- العودة إلى كفرناحوم و«مَنْ هو الأعظم»

ولَمَّا جاءوا إلى كفرناحوم سألهم المسيح: بماذا كانوا يتكلَّمون فيما بينهم في الطريق؟ إذ علم المسيح بالروح أنهم كانوا يتشاحنون على مَنْ هو أعظم. ويبدو لنا أن كل مشاحنة من هذا النوع كانت بين بطرس ويهوذا الإسخريوطي، لأن يهوذا كان هو الأكبر سناً، وبحسب الطقس اليهودي كان الأكبر سناً هو المتقدِّم في كل شيء وخاصة على المائدة. ولأن المائدة كانت في الزمان السالف مستديرة (طبلية)، فكان رأس العائلة أي الأب يجلس، وأكبر الأولاد عن يمينه باعتباره مَنْ يخلف أباه في كل شيء، والأصغر جداً يجلس عن شمال الأب وكأنه في حضنه والأقرب إلى قلبه. ولكن كان بطرس يعتمد في الأولوية أو العظمة على ثقة المسيح، أما يهوذا فكان ينازعه في ذلك لأن الصندوق كان معه، فهو الأَولى بالثقة، ولكن الكل كانوا يعرفونه أنه يسرق كل ما يوضع فيه. لذلك كان المنطق مع يهوذا، ولكن الحق مع بطرس: أمَّا عند المسيح فكانت الوداعة والتواضع، وكانت تعوز الاثنين. لذلك لم ينحز المسيح لا لبطرس ولا ليهوذا، بل أعطى الاثنين درساً كانا في احتياج إليه.

+ «**فجلس (المسيح) ونادى الاثني عشر وقال لهم: إذا أراد أحد أن يكون أولاً – (عند الله والمسيح) – فيكون آخر الكل وخادماً للكل. فأخذ ولداً وأقامه في وسطهم ثم احتضنه وقال لهم: مَنْ قَبِلَ واحداً من أولاد مثل هذا باسمي يقبلني، ومَنْ قَبِلني فليس يقبلني أنا بل يقبل الذي أرسلني.**» (مر 9: 35–37)

كلنا نعلم أن المسيح قال: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت 29:11)، كان هذا استعلاناً لروح الطفولة التي كان يتحلَّى بها المسيح كابن الله حقَّاً. ولكن وداعة وتواضع الطفولة لها حكمة وسلطان الله. فلمَّا احتضن المسيح الطفل كأب، كان يُعطي أجمل وأبهى صورة للآب السماوي والابن الوحيد المحبوب في حضنه: «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو 18:1)، فأصبح الدخول الرسمي إلى الآب هو بروح الابن أي الوداعة والاتضاع. ومن ذا الذي له القدرة على قبول الولد إلاَّ الأب الذي أعد له حضنه! هنا المسيح يدخل في سر وحدانية الروح التي في المحبة الإلهية، التي جعلت من الآب والابن وحدة واحدة لا تنفصم. فروح الطفولة الطاهرة هي وحدها القادرة أن تجمع الابن بالآب والآب بالابن. فالوديع والمتواضع هو بشبه المسيح. والوداعة والاتضاع لَمَّا تتحلَّى بالحكمة تضاهي الألوهة. وعلى هذا القياس، يكون مَنْ يقبل ولداً يكون قد قبل المسيح، ومَنْ قَبِلَ المسيح قَبِلَ الآب حتماً وبالضرورة. وبهذا إن سادت روح الطفولة في الكنيسة

ساد الحب، وسر البنوَّة والأبوَّة التي لله، من أجل هذا ألحَّ المسيح علينا: «تعلَّموا مـــني لأني وديـــع ومتواضع القلب» وللمثل الذي صنعه المسيح مدلول أخلاقي آخر هام، وهو أن الولد بالرغم من إنه يحسب نفسه أقل وأصغر وأحقر الجميع إلاَّ أن إحساسه ووجدانه يُحسب أمام الله أنه أعظـــم مـــن الكل. هنا أعظم مثل هادئ قدَّمه المسيح للتلاميذ لإنكار الذات، حيث يتبخَّر ويتلاشى أي استحقاق لأي فضيلة أو امتياز مهما كان مادياً أو روحياً.

إذن، فليس ما يعمله الإنسان هو الذي يرفعه ويعلِّيه على الآخرين، **بل الروح الذي يعمـــل بـــه باسم المسيح**. فالروح والضمير والإحساس الداخلي للإنسان هو الذي يحكم على العمـــل ولـــيس العمل ذاته، كبر أو صغر. فكون العمل يُعمل بروح أنه باسم المسيح وليس باسمي أو باسم أحد آخر، يكون مقبولاً عند الله والمسيح، لأنه معمول باسمه وله. ومثل هذه الروح تكون مقبولة ومرضية عند الله. بهذا يكون المفروض في التلاميذ وفي المسيحيين عموماً أن العمل الذي يعملونه يكـــون باســـم المسيح وبروح إنكار الذات. حينئذ تكون الأعمال كلها متساوية، لأنها معمولة بروح واحد من أجل اسم واحد هو اسم المسيح. فلا مجال للأعظم في الإيمان المسيحي، لأن مقياس العمل غائب وحلَّ محله مقياس الروح الواحد والاسم الواحد.

73 - المسيح يقف ضد الانقسامات العقائدية

تبدأ الرواية بدون مقدِّمات وبدون ربط بالكلام السابق، مما يجعلها تقليداً ثميناً محفوظاً بذاته وضعه ق. مرقس هنا في هذا الموضع على أساس واحد مع الرواية السابقة كونها من يقبل ولداً ''بـــاسمي''، فالجزء المشترك بين الروايتين هذه والسابقة هو في "**اسمي**".

ولكن الرواية هنا خطيرة، فهي تتعرَّض لمبدأ حرمان العقائد بعضها لبعض على أساس أنه طالمـــا ليس يتبعنا نحرمه «فمنعناه لأنه ليس يتبعنا» (مر 38:9). وهنا انبرى المسيح بغيرة ظاهرة يُخطِّئ هذا المنهج في المعاملات مع الآخرين، ويضع أساس التعامل بين العقائد ذات العمل الواحد باسم المسيح. فقال يسوع: «لا تمنعوه لأنه ليس أحد **يصنع قوة باسمي** ويستطيع سريعاً أن يقول عليَّ شراً» (مـــر 39:9). إذن، فشرط الإخاء والتسامح والتعاون بين العقائد يقوم على أساس أن الكل يقول قـــولاً صالحاً أميناً عن المسيح. والكل يعمل عملاً واحداً، سواء إخراج شياطين أو شفاء أمراض أو تعليمـــاً صالحاً باسم المسيح. إذن، يكون الكل في هذه الحالة يخدم المسيح واسمه.

ثم يصرِّح المسيح بالقانون الذي يضبط التعامل بين العقائد في (مر 40:9) هكـــذا: «**لأن مَـــنْ**

ليس علينا فهو معنا». أي طالما صاحب المبدأ أو العقيدة لا يعمل ضدنا ولا ضد ما نعمله أو نقوله أو نؤمن به فهو بالضرورة معنا، حيث يكون الذي يربطنا معاً هو الذي نعمل لحسابه ونخدمه كلانا وهو المسيح. هذا يُحسب أخطر مبدأ يحكم الجماعة المسيحية، الذي لمَّا تجاوزوه وكسروه، انكسرت وحدة الجماعة إلى عقائد منقسمة على بعضها تعادي بعضها البعض، وكل واحد يعمل **ضد** الآخر **باسم المسيح**؛ مع أن الكل يخدمه بأمانة، وهذا خروج عن المسيح جملة، فكيف يستقيم الأمر؟

إنه عار على الكنيسة وعار على أصحاب الإيمان، بل وهي مهانة كبرى للإيمان والمسيح، أن كل عقيدة تكون أمينة للمسيح وتعادي عقيدة أخرى وهي أمينة للمسيح أيضاً، فهنا العداء هو للمسيح. فالعقائد الأساسية القائمة اليوم تقول قولاً صالحاً في المسيح وتعبده بالروح والقلب بكل أمانة وصدق، فكيف نبرِّر الانقسام والعداوة الحادثة بين الثلاثة؟ هل هذه العداوة أو القطيعة أو الانفصال الجذري الحادث بينها هو من أجل المسيح؟ هل هو لصالح المسيح؟ هل هو لصالح الشعب، والشعب معروف أينما كان وتحت أي شعار كان، أنه هو شعب المسيح!!؟

إن مبدأ المسيح: «مَنْ ليس علينا فهو معنا» ومَنْ يقول قولاً صالحاً في المسيح وبإيمان صالح هو معنا، ينبغي أن يُلزم الكنيسة بأن تكون عقيدة واحدة وإيماناً واحداً، لأن الكل مخلص للمسيح الواحد.

وحتى الذين ليسوا معنا في عبادة المسيح الواحد، لا يصح ولا يجوز أن نعاديهم ولا نفرزهم من محبتنا، لأن قانون: «أحبوا أعداءكم» يقف سدًّا منيعاً ضد أي عداوة لأي إنسان مهما كانت عداوته. فالمحبة من عندنا قائمة على أساس البذل والعطاء خلواً من تعويض أو مبادلة المثل بالمثل.

يا لحزننا العظيم أن مبدأ المسيح: «مَنْ ليس علينا فهو معنا» مكسور في كنيسة المسيح، وهذا تسبب في تحطيم المحبة على الأرض. فالمسيح هو محبة بلا قيود ولا شروط.

+ «فأجابه يوحنا قائلاً: يا معلِّم، رأينا واحداً يُخرج شياطين باسمك وهو ليس يتبعنا، فمنعناه لأنه ليس يتبعنا. فقال يسوع: لا تمنعوه، لأنه ليس أحدٌ يصنع قوة باسمي ويستطيع سريعاً أن يقول عليَّ شرًّا. لأن مَنْ ليس علينا فهو معنا.» (مر 9: 38-40)

هذا ما يواجه الكنيسة أمس واليوم. الكنيسة ممزَّقة بتيار المنع والحرم والقطيعة بين العقائد. وهنا لأول مرَّة في الأناجيل نجد القديس يوحنا يقوم بدور قيادي ويطرح قضية خطيرة على المسيح.

«**فمنعناه لأنه ليس يتبعنا**»:

كررها القديس لوقا كما هي أخذاً بتقليد ق. مرقس حرفياً. وهذه هي قضية اليوم والأمس

والغد وبعد غد: المنع والحرم والعداوة والقطيعة للعقائد التي تخدم باسم المسيح لمنفعة وشفاء وتعليم الشعب باستخدام "اسم المسيح" أي سلطانه الشخصي وقوته وهويته ولاهوته. قضية هي قضية الكنيسة الآن!! أين أنت يا يوحنا؟ بل أين أنتَ يا رب من الكنيسة اليوم؟ فقد مَنَعَتْ وقَطَعَتْ وحرمتْ وآذتْ ولَعنتْ بعضُها البعضَ، والكل يخدم الاسم المبارك، ويعبد بالروح والحق ويتبع من كل القلب، والشعب يدفع الثمن، والمسيح مطعون في القلب، وكل الجسد يدمي متألِّماً، والكل قانع وراضٍ على هذه الجريمة في حق المسيح وجسده واسمه.

من أجل اسم المسيح انقسمت الكنيسة وتشاجرت، وباسم المسيح أقامت المجامع للحرم والاضطهاد. الكل يقول: لأنهم ليسوا يتبعوننا، والكل يتبع المسيح!!

لقد أخذوا بعكس مبدأ المسيح، وهو مبدأ لا يجوز أصلاً إلاَّ على الشياطين: «مَنْ ليس معنا فهو علينا» حيث مَنْ ليس مع المسيح هم الذين قال عنهم المسيح: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة.» (لو 35:22)

هذه هي قضية الكنيسة اليوم مرفوعة باسم المسيح ليقضي فيها المسيح، فإمَّا تُعطَى كل كنيسة له وإلاَّ قضت على نفسها. فإما العودة إلى الوحدة والمحبة والقلب الواحد تحت اسم المسيح الواحد، وإلاَّ تَفَتُّت بالعداوة والأحقاد ثم زوال.

لَمَّا طرح يوحنا قضية المنع تحت الاسم المبارك، حَكَم المسيح كقاضي العدل بحكم أن لا تمنعوهم. فالاسم لا يفرِّق بل يوحِّد، ولا يخلق أحقاداً وعداوات ومرارات، بل يخلق الحب والحنان وعودة القلب على القلب: «لئلاَّ آتي وأضرب الأرض بلعن» (ملا 6:4)!!

يا قارئي المبارك، أتوسَّل إليك أن تقف معي، بل تقف مع المسيح، بل تقف مع الإنجيل والحق. لقد تعاهد الشرَّاح السطحيون ذوو الميول المنحازة فشرحوا هذه القضية المسيحية الكنسية الخطيرة بأنها لا تزيد عن كونها تعزيم على الشياطين غير قانوني!! واستطاعوا أن يهربوا من المسيح والإنجيل والحق ويحوِّلوا قول المسيح الرب الإله القاضي بالعدل: «**مَنْ ليس عليَّ فهو معي**» إلى قضية إخراج شياطين غير قانوني، ولاذوا بالفرار من غضب المسيح وحكمه: «**مَنْ لا يجمع معي فهو يفرِّق.**» (مت 30:12، لو 23:11).

أتوسَّل إليك، أيها القارئ، أن تردَّ للمسيح حقَّه وترفع رأس الإنجيل وصدقه وتنادي معي: إمَّا الوحدة الكنسية، وإلاَّ لعنة التفريق والخراب المحتَّم.

74 - الإستار في بطن السمكة

كان شهر آذار الموافق عندنا لشهر مارس هو الشهر الذي تُجبى فيه الجباية الخاصة بالهيكل. وتصادفت زيارة المسيح لكفرناحوم أن جاءت في شهر آذار. وجاء الجباة إلى بيت بطرس لعلمهم أن المعلِّم كان قد نزل فيه وباعتبار أن بطرس هو المتكلِّم باسم الجماعة. وكان قد فات على زمن الدفع مدَّة، فسألوا بطرس: لماذا لم يدفع معلِّمكم الجزية؟ وكان المعروف عن المسيح والتلاميذ أنهم كانوا يدفعون كل ما يُطلب منهم. ولكن هذه الجزية بالذات كان رجال الدين معفيين منها، لهذا كان السؤال حرجاً باعتبار أن المسيح قد عُرف أنه المسيَّا أو هكذا يُقال، فهل يدفع الجزية؟

وكان بطرس في هذه الأيام وبعد الاستعلان الذي أخذه من الآب السماوي، مفعماً بمشاعر التأكيد أن المسيح هو المسيَّا، وقد رأى وعاين كل العلامات التي تُثبت تأكيده. فكان متحرِّجاً من أن يسأل المسيح، فدخل البيت وهو صامت ومرتبك، فبادره المسيح وكأنه قد عرف كل شيء: «ماذا تظن يا سمعان؟ ممَّنْ يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية، أمِنْ بنيهم أم من الأجانب؟» (مت 25:17). أجاب بطرس: طَبعاً من الأجانب، فأجاب المسيح: «فإذاً البنون أحرار» (مت 26:17). أمَّا ضيقة بطرس وارتباكه فكانت بسبب أنه لا يوجد مقدار هذه القيمة لا عنده ولا عند المسيح! ولكن أسعفه المسيح بالحل، إذ أمره أن يعود إلى مهنته لحظة، ويرمي صنارته، وقد أوصى المسيح السمك أن يقدِّموا الجزية للمعلِّم ولبطرس. فخرجت السمكة وفي فمها إستاراً ـ المبلغ بالكامل ـ وحتى السمك كان يطيعه ويقدِّم المطلوب.

ولكن لماذا هذه القصة في هذا الموضع بالذات؟ فالمسيح هنا كان يتكلَّم عن مصدر إنكار الذات حتى يصبح العمل صحيحاً. والجزية جزية الملك العظيم (أبيه) ومن غير المفروض أن تؤخذ من البنين بل من الغرباء. فهنا المسيح خضع للنظام السائد مع أنه "الكاهن الأعظم"، وجعل نفسه واحداً من الغرباء. فعملية الإستار ودفع الجزية تحكي عن الإخلاء الذي أخلى به المسيح نفسه ليأخذ شكل العبد. كان عمل المسيح هذا يحكي عن المبدأ إننا ليست لنا حقوق ولكن علينا واجبات! وطوبى لمن يتخلَّى عن الحق الذي له ليعمل الواجب الذي عليه: «حقي عند الرب» (إش 4:49)! كذلك فإن هذه القصة أوردها الإنجيل بدقائقها، ليس من أجل معجزة السمكة، ولكن ليكشف مقدار استعداد المسيح لطاعة **النظام الاجتماعي السائد** دون تذمُّر، حتى ولو كان على غير وجه حق. كذلك واضح جداً من هذه القصة أن المسيح والتلاميذ كانوا مُعدمين مالياً يعيشون بالكفاف مما يتبقَّى في الصندوق بعد سرقته بواسطة يهوذا أولاً بأول.

الفصل الحادي عشر

الرحلة إلى أُورشليم لحضور عيد المظال

[كان الخريف، وكل الجليل يستعد للرحلة السنوية لأحد الأعياد الثلاثة الكبار: عيد المظال. وهذا العيد هو عيد الحصاد، وكان يقصد به ذكرى ارتحال الإسرائيليين في البرية، وكان يُقام بفرح عظيم حتى أن يوسيفوس وفيلو يلقِّبانه بالعيد ''الأقدس والأعظم''. وكان اليهود يخصُّونه بلقب ''العيد''، وكان يُحتفل به سبعة أيام متتالية من الخامس عشر إلى الحادي والعشرين من شهر تشرين (أكتوبر) ويختتم في اليوم الثامن بخدمة دينية. ولكي يتذكروا أيام ارتحالهم في البرية في العراء، كانوا يعيشون هذا العيد في ''سكوث'' أي مظال صغيرة تُقام من أغصان الزيتون والنخيل والصنوبر والريحان الشامي، ويحمل كل شخص سعفة مجدولة من سعف النخل فيها فروع الزيتون وزيزفون وفروع مشمش وليمون. وفي هذا الأسبوع كانت تتناوب الخدمة جميع فرق الكهنة، ويقدِّمون سبعين من الثيران ذبيحة عن سبعين أُمة من أُمم الأرض، وكان الناموس يُقرأ في كل يوم وكانت تُقرع طبول الهيكل يومياً مثيرة الحماس وفرح الانتصار. وهذا العيد يأتي بعد أربعة أيام فقط من عيد الكفَّارة الرهيب المبهج الذي كانت تُقام فيه كفَّارة مقدّسة□ □ من أجل خطايا كل الشعب.](1)

الآن للمسيح ثمانية عشر شهراً وهو يبذر بذار الملكوت في كل أرجاء الجليل، ويقوم بتدريب التلاميذ للدعوة له. وعلى هذه المدة بطولها أحجم المسيح عن زيارة أُورشليم في الأعياد الثلاثة كعادته. وعيد المظال يحين زمانه في شهر أكتوبر، وقد نوى هذه المرة أن يحضره في أُورشليم، ليكمِّل العمل الذي كان قد بدأه في أُورشليم مع الكتبة والفرِّيسيين والكهنة والحجيج من الشعب القادم من الشتات، ولكي يُبعد عنه المظنَّة أنه يهاب الخدمة وسط الشعب في حضور السنهدرين والإعلان عن دعوته الإلهية جهاراً. غير أنه عن حكمة وتدبير إلهي كان يتحاشى مثل هذه الصدامات لحساب تتميم زمن الخدمة حتى كمالها. لهذا صمَّم أن يظهر فجأة في وسط أُورشليم بعد أن يكون قد تكامل حضور الآتين من الشتات والبلاد، حيث يخشى السنهدرين أن يعمل أعماله المتهوِّرة تجاهه خوفاً من الشعب.

ولكن كان إخوته ـ من يوسف ـ متغرِّبين عنه في الفهم والفكر والتقدير، إذ لمَّا عزموا على

---

(1) Frederic W. Farrar, *The Life of Christ,* pp. 240, 241.

الذهاب إلى العيد وجدوه غير راغب في الذهاب معهم، فبدأوا بالظن أنه يود أن تكون خدمته في الخفاء وهو دبَّر أن تكون في عمق العلن الكامل! فكان سؤال إخوته: أين أعماله الكبيرة في المعجزات والآيات؟ هل يخفيها عن الناس؟ «إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم» (يو 4:7). ولكن ق. يوحنا يرد على هذا الحوار المتدنِّي بقوله: «لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» ! (يو 5:7). أمَّا المسيح فردّ عليهم: أنتم تطلبون الإسراع بالنهاية، والنهاية لابد أن تأتي في ميعادها. أنتم نهايتكم حاضرة في كل لحظة، أمَّا نهايتي فتحسب حسابها السموات العُلا حيث مكاني فوق ينتظر قدومي. أنتم ليست لكم مع العالم ملحمة، أمَّا معركتي معه فجاهزة لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة. اصعدوا أنتم إلى العيد وعيِّدوا لأن وقتكم حاضر لكم، أمَّا صعودي فأنا أُحدِّد وقته.

فلما صعد إخوته صعد هو أيضاً ولكن دون أن يلحظه أحد «كأنه في الخفاء.» (يو 10:7)

أمَّا غياب المسيح هذه المرَّة اليسيرة فجعلت الكل يتهافت عليه والكل يطلبونه ويفتشون عليه، فقد اعتادوا وجوده في الأعياد وباتوا ينتظرونها بفارغ الصبر ليستمعوا إليه ويسألونه وترتاح قلوبهم.

تعاليم في الهيكل

75 - تعليم المسيح: طبيعته ومصدره

+ «**تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني.**» (يو 16:7)

ومرَّة أخرى تفرض تعاليم المسيح نفسها على مسامع الناس وقلوبهم، حتى الذين كانوا متحيِّزين ضده استعجبوا كيف أنه لم يتعلَّم وله هذا العلم؟ كيف وهو لم يتعلَّم على يد كاتب تصدر منه تفاسير للتوراة لم يفسِّرها غيره؟ وبالرغم من ذلك لم يقووا على الاعتراف بأن مصدر هذه التعاليم سماوي وذلك بسبب تحيُّزهم الذي كبَّل حرية القرار. وانتهوا إلى نهاية عاجزة عرجاء، أن التعاليم مهما كانت عظيمة إذا لم تخرج من مصدر معترف به فهي غير صحيحة! فأغلقوا باب الإلهام وسدوا على الله منافذ اتصاله بالإنسان. وجلسوا يجترُّون علمهم الذي خرج عن المضمون. ولهؤلاء رفع المسيح صوته: «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» بمعنى لا تربطوا بيني وبين تعليمي، ولكن ابحثوا في الصلة والمناسبة واللياقة بين تعليمي وبين الحق فيه ولا تحرموا الحق من صلته بالله. لا تتعجَّبوا أني غير متعلِّم بعلمكم، فهو ليس من وضعي أو اختياري كإنسان، ولكن التعليم نفسه يشهد ويُعلن عن أن الله مصدره، بل والله هو الذي أعلنه ويستعلنه. إن علَّة عدم اهتدائكم إلى مصدر تعليمي هو أنكم ربطتم مشيئتكم بغير مشيئة الله، حرِّروا مشيئتكم من الانحياز الضيق

لتعليمكم لترتفع إلى مشيئة الله والحق. فإن أردتم أن تعرفوا وتعملوا مشيئة الله، يتحتَّم أن يكون قراركم حرًّا حتى تستطيعوا أن تعرفوا أن تفرِّقوا بين ما هو لله وما هو للإنسان. انظروا وافحصوا فأنا ليس لي قصد فيما أقول، وما أقوله ليس له بواعث بشرية في ذاتي، ولكنه كله يهدف إلى تمجيد الله الذي أرسلني. إن كنت أتكلَّم من نفسي فمعناه أني أُمجِّد نفسي، وإن كنت أطلب تمجيد الله يصبح كلامي ليس من نفسي ولا لنفسي بل لله. أنا لا أظلم الحقيقة حينما أقول إن الله أرسلني، فكلامي وأعمالي تشهد لذلك. هذا العمل الذي تعملونه الآن برفض تعليمي ورفض مصدره يكشف أنكم لستم أمناءَ على تعليم موسى، وأنكم لا تعملون بحسب الناموس، وإلاَّ لماذا تريدون أن تقتلوني وأنا أقول الحق وأُمجِّد الله الذي أرسلني؟ وهل قول الحق، وهل تمجيد الله يخالف ناموس موسى؟

كان الجمع يسمع هذا الحوار بين المسيح والكتبة والفرِّيسيين، فاندهشوا وتعجَّبوا جداً من وضوحه وصراحته، وأنهم عجزوا عن أن يردُّوا عليه، بل عجزوا عن تتميم تهديدهم أن يقبضوا عليه! فهل قد استقر المجمع أن يسوع هذا هو مسيًّا؟ «ها هو يتكلَّم جهاراً ولا يقولون له شيئاً! ألعل الرؤساء عرفوا يقيناً أن هذا هو المسيح حقاً؟» (يو 26:7)

ولكن كان الجمع قد تأثَّر من نقد الرؤساء ومقاومة الكتبة ووضعوا في عقولهم أن مجيء المسيَّا لا يعرف أحد من أين يأتي، وهذا نعرف جميعنا أنه نجَّار الناصرة ونعرف أباه وأُمه فكيف يستقيم هذا الأمر؟

فرد عليهم المسيح مباشرة:

«تعرفونني وتعرفون من أين أنا» ولكن أنا من نفسي لم آتِ، بل الذي أرسلني وهو الحق الذي أتكلَّم باسمه وأتكلم به. فإن كنتم لم تعرفوني فذلك لأنكم لم تعرفوا الحق بعد. أمَّا أنا فلابد أن أتكلَّم بالحق لأني أعرفه وهو الذي أرسلني. الذين يعرفون الحق ويعرفون الله ويريدون أن يعملوا مشيئته هم الذين يعرفونني. لأني بالحق الذي أقوله أستعلن لكم الله الذي لم تروه ولم تعرفوه. ولكن الذين استُعبدت إرادتهم لمشيئات قلوبهم يظنون أنهم يعرفون الله وهم في الحقيقة لا يعرفونه.

76 - محاولة القبض عليه

+ «**فطلبوا أن يمسكوه.**» (يو 30:7)

كان كلما علَّم المسيح كلما زاد تأثيره على الشعب. وكان هذا بحد ذاته يثير الغيرة والحقد معاً عند الفرِّيسيين، لأن سلطانهم كان يهتز وكانت تعاليمهم تواجه خطورة حقيقية من ازدياد القوة الروحية للمسيح التي أصبحت في مضادة واقعية لا يمكن إنكارها أو السكوت عليها، خاصة في

أُورشليم وفي الجليل، مع نجاحه الواضح في تكذيب ادعاءاتهم كلما أذاعوها أنه ضد الناموس وأنه مجدِّف، واختفوا وراء السبت حتى افتضح ادعاؤهم، لأنه يكرم السبت بعمل الخير أكثر منهم. فكلماته سهام مبرية أصابتهم أينما حاولوا التعرُّض له. وأخيراً لم يَعُدْ أمامهم إلاَّ التخلُّص منه، لأنه أصبح قوة لا تُطاق. ففكَّروا أن يقبضوا عليه. فأصدر كلمات أرعبتهم وشلَّت أيديهم: «فأرسل الفرِّيسيون ورؤساء الكهنة خداماً ليمسكوه، فقال لهم يسوع: أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» (يو 7: 32-34). وبالرغم من هذا الوضوح بين: «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» وبين: «أنا أمضي إلى الذي أرسلني» فلم يفهموا شيئاً، لأن عقولهم كانت تعمل على مستوى المشيئة الأرضية والأفكار الذاتية.

ولكن قولهم الضمني: «ألعلَّه مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلِّم اليونانيين» (يو 7:35)، يكشف عن فكرهم بخصوص مستوى تعليم المسيح أنه اتسع وصار على مستوى العلماء والأُمم، ومن هنا جاءت فكرة الهرطقة والتجديف، لأن الارتفاع الروحي بالتعليم لم يستطيعوا أن يرتفعوا إليه ليروا التوراة على مستوى الحق العام والعالم.

77 - «أنا هو الماء الحي»

المسيح هنا أراد أن يُهيئ لعقول الشعب والعلماء فهم التعليم الفائق المستوى بتصويره على مستوى فهمهم وإحساسهم، وانتهز فرصة استخدام الطقس في العبادة ليستعلن من خلاله المقابل المنظور للأمور الفائقة للطبيعة، خصوصاً وأن المسيح لن يراهم مرَّة أخرى، فهذه آخر فرصة يأتي فيها إلى أُورشليم معلِّماً في العيد. فأراد أن يترك في أذهانهم صورة منطبقة على أعيادهم وطقوسهم لن ينسوها أبداً. فانتهز فرصة مسيرة رهط من الكهنة ليستقوا ماءً من بركة سلوام في القِدْر الفضية كطقس عيد المظال ـ برسم الصخرة التي أخرجت لآبائهم الماء وشربوا وماتوا في القفر ـ ثم يذهبون بها إلى المذبح في الهيكل ويدقونها بشدة، كما ضرب موسى الصخرة بالعصا مرتين، فتنكسر القِدْر ويخرج منها الماء ليفيض على المذبح وما حوله. في هذه اللحظة رفع المسيح صوته من وسط الجمع قائلاً: «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. مَنْ آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو 7: 37و38). إذن، ما كانت الصخرة إلاَّ نبوَّة عن المسيح: «والصخرة كانت المسيح» (1كو 4:10)، وانكسارها كان انكسار الجسد وخروج الدم وفيه الحياة! «قال هذا عن **الروح (القدس)** الذي كان **المؤمنون به** مزمعين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطِيَ بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد (مات وارتفع) بعد.» (يو 39:7)

هنا رَبْطٌ بين **الإيمان والروح والماء الحيّ**، وهذا هو سر العهد الجديد المختفي في المعمودية والإفخارستيا معاً، الذي مثَّلهما طقس عيد المظال بالصخرة وضَرْبها فوق المذبح. إنها روعة في التعبير المستيكي، فحينما يقول المسيح: «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب» فهو يصوِّر سر الحياة الجديدة التي انبثقت من موته وقيامته.

78 - «أنا هو نور العالم»

المسيح بصدد حديثه عن تعليمه الذي له من الآب والذي هو الحق، فلم يجد تشبيهاً للتعليم الفائق النازل إليهم من عند الآب إلاَّ بالنور. فأَمْيز صفات النور الطبيعي في العالم، الآتي من الشمس، هو أن فيه ومن خلاله تتم رؤية ومعرفة الأشياء وفحصها والتدقيق في معرفتها، كما أن النور قرين الحرارة، حيث حرارة الشمس فيها سر الإنبات والنمو والحياة والإثمار، فإنه قد قيل لولا الشمس لانعمت الناس ومات كل حي. هكذا رأى المسيح أن يصوِّر الحق الإلهي الذي يُعلِّم به والذي يقود الناس إلى الحياة الأبدية في طريق المعرفة الإلهية الفائقة. فإن كان في الماء يكمن سر الحياة على الأرض، فالنور أيضاً بالدرجة الأُولى. فإن أشار الماء في المسيح إلى الروح، فالنور يشير إلى معرفة الحق.

والنبوَّات اتجهت نحو النور لترى فيه استعلان مسيَّا الآتي. فبلعام رآه ''كوكباً'' يبرز من يعقوب (عد 17:24)، وملاخي يراه كالشمس: «ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها.» (مل 2:4)

ونور الله هو الشاكيناه باللغة العبرية الذي يعبِّر عن حضرته. والشاكيناه من السكنى حيث كان يسكن الله بحضرته في قدس الأقداس فوق التابوت، وكان نور الله (مجده) يسير مع الشعب في البرية بهيئة سحابة مضيئة بالليل، وهو الذي ظهر لموسى في العُلَّيقة المشتعلة بالنار الإلهية ونورها ولم تحترق، مما جعل الموضع مقدَّساً فاضطر موسى أن يخلع نعليه بأمر الله. وفي داخل الحضرة الإلهية تقبل موسى أول دعوة للخروج الفصحى. ونور الله هو المعبَّر عنه بالذُّكصا الكبرى أي التمجيد في المجد الأسنى. وكلما هتفت الكنيسة بالذكصاباتري وبقية التسبحة للآب والابن والروح القدس، فمعناه أن الشعب متواجد في نور الحضرة الإلهية يسبِّحه، وهو ذات النور ذو البهاء الفائق جداً الذي رآه شاول في السماء وأبرق حوله، فهو الحضرة الإلهية التي للمسيح حيث تكلَّم معه. والنور الإلهي هو نور الاستعلان فهو يختص بالمعرفة الإلهية، وهو نفَّاذ يخترق العقول والقلوب والضمائر ويكشف خفياها. وحينما قال المسيح: إن «المجد (النور الإلهي) الذي لي (أي الخاص بالابن) أنا أعطيتهم» فمعناه أنه سلَّمنا الاستعلان الذي للابن للمعرفة الإلهية، لندرك حقيقة الآب والابن وأمور الله التي للخلاص والمجد.

وقد أُعطِيَ لنا أن نتطلَّع إلى مجد الرب أي نور حضرته بالصلاة وعمل الإيمان: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو 11:40)، فنتغيَّر نحن أيضاً من مجد إلى مجد، أي من استنارة إلى استنارة: «ونحن جميعنا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس أي بدالة البنين)، كما في مرآة، نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها، من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» (2كو 3:18). ولكن لا نبلغ النهاية أو الكمال إلاَّ بعد أن نكمِّل لبس الجسد الجديد الذي سيغيِّره المسيح ليكون على صورة (جسد) مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخْضِعَ لنفسه كل شيء (في 3:21).

فالمسيح حينما يقول: «أنا هو نور العالم» فهو يقصد إشراق نور المعرفة والاستعلان المستمد من الله، حيث معرفة الله هي صميم وقوة النور، بل منبعه وسرّه ودوامه. غياب الله عن العالم كان هو سر الظلمة، والظلام هو الجهالة والموت؛ وبإشراق نور الله في المسيح يسوع، استُعلن الله في العالم فصار نوره كواقع حي: «أنا هو نور العالم» فالحياة الأرضية بدون معرفة الله هي الظلمة بعينها، لأن غياب الله هو غياب الحياة الحقيقية وتملُّك الموت عن طريق الخطية. لذلك أكملها المسيح: «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو 8:12). نور الحياة هو الله والحق والتحرر من الخطية والخوف والجهالة. مَنْ يتبع المسيح يضيء له الحق ولا تستطيع الظلمة أن تسود عليه. ونور الله في ذاته هو المعرفة الكلية أو المطلقة، وهي التي في جوهرها الحق الكامل أو المطلق. ومعرفة الله وحق الله هي بكاملها في المسيح يسوع. فالمسيح هو النور وهو الحق، ولمَّا أرسله الله متجسِّداً، أرسله ليوصِّل معرفة الله وحق الله للإنسان. لذلك أصبح أن يعرف الإنسان المسيح هو أن يعرف الله، والذي يقبل الحق في المسيح يقبل الحق في الله: «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو 14:7)، «ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني» (مت 10:40). «تعرفون الحق والحق يحرِّركم» (يو 8:32)؛ حيث معرفة الحق هي معرفة الله وهي تُحرِّر الإنسان من كل ما هو ليس حقَّاً، وأخطره الجهل بالله الذي يؤدِّي إلى كل المعاصي والخطايا.

والظلمة في حقيقتها هي الجهالة بالله، لذلك قال المسيح لتلاميذه: «لا أعود أُسمِّيكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سمَّيتكم أحبَّاء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو 15:15). والذي عند الآب هو الحق وهو العلاقة الجوهرية بين الآب والابن. فمعرفة الله تُحرِّر وتُصيِّر الذي كان عبداً للخطية والظلمة معلِّماً للنور والحق: «أنتم نور العالم.» (مت 5:14)

كذلك فنور المسيح يحتوي سر المحبة الإلهية. لأن سر الله كآب وابن الذي هو سر الحق ومنبع النور يقوم أساساً على المحبة التي بين الآب والابن. فسرّ الوحدة الإلهية هو سر الحق وهو أيضاً سر الحب وأصله ومنبعه؛ يحوِّل العبيد إلى أحبّاء. وهذه هي مجمل رسالة المسيح كُلِّها: «عرَّفتهم اسمك

وسأُعرِّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم» (يو 26:17). فالمسيح هو نور العالم لأنه كشف سر حب الله للعالم: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 16:3). والمسيح نفسه هو سر حب الله للعالم الذي ارتضى الله أن يبذله لكي يُوَصِّل الحياة الأبدية إلى العالم.

فإذا أردنا أن ننزل بهذه المطلقات إلى الواقع الإنساني نجد "الحق" هو الصدق وهو الحب وهو الإيمان بالله. لذلك يميِّز الله الإنسان بالعقل العارف القادر أن يميِّز الحق، لأن الإنسان أصلاً مخلوق على صورة الله ومطلوب منه بعد السقوط أن يعود مرَّة أخرى إلى صورة الله. والعقل الواعي بالحق هو في الإنسان الطاقة المفتوحة على الله. لذلك لَّما جاء المسيح كان همُّه الأعظم أن يوصِّل الإنسان إلى الله ليعود إلى صورته الأُولى بمعرفة الحق عن طريق نور المعرفة المتحرِّرة من كل ما هو ليس حقًّا وما هو ليس من النور.

فإن كان الله هو النور وهو الحق، والمسيح أيضاً كذلك، كان الذي هو ليس نوراً وبالتالي ليس حقًّا، بمعنى غياب الله والمسيح كُلِّيةً، يكون هو الضد لله والمسيح، والضد لمعرفة الله والمسيح، والضد للحق في الله والمسيح. وهذا الضد هو الشيطان القوة العقلية السالبة المقاومة والمعاكسة لله والمسيح، وهو بالتالي خالٍ كُلِّيةً من نور الله والمسيح ومن حق الله والمسيح. لذلك نُعت الشيطان بسلطان الظلمة (لو 53:22 وكو 13:1)، «كذاب وأبو الكذَّاب» (يو 44:8). وهكذا، فالظلمة تعني غياب الله من نور وحق. والشيطان لأنه قوة عقلية (سالبة)، فطريقه الوحيد للدخول إلى الإنسان ليوحي إليه بكل ما هو ليس نوراً أو حقًّا هو عقل الإنسان، ولكن أُعطي الإنسان قوة التمييز بين المعرفة الحقيقية والمعرفة الكاذبة، والحق والكذب.

بهذه المقدِّمة يكون من السهل معرفة حقيقة النقاش الذي دار بين المسيح والفرِّيسيين.

فالفرِّيسيون احتجوا عليه: «أنت تشهد لنفسك. شهادتك ليست حقًّا» (يو 13:8)، وذلك حينما قال: «أنا هو نور العالم. مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو 12:8). لقد أخطأ الفرِّيسيون بالحكم على المسيح لأنهم حكموا عليه حسب الظاهر وظاهر الكلام، ولكن المسيح لم يعبأ بالظاهر لأنه يعرف من أين أتى وإلى أين هو ذاهب، لذلك رد عليهم: «وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب» (يو 14:8). فالنور الذي يحكي عنه أنه هو نور العالم يعلم من أين جاء، فهو نور الآب، فإن شهد لنفسه فهو يشهد بآن واحد للآب، لذلك فهو يؤمن أن شهادته حق. أمَّا الفرِّيسيون فيحكمون على الظاهر ولا يعلمون من أين أتى ولا إلى أين يذهب، فظنوا أن المسيح جاء من نفسه. هذه خطيتهم، لأنه أثبت بالأعمال

والمعجزات أنه يعمل أعمال الآب، فإن لم يريدوا أن يؤمنوا به أنه جاء من الله، كان عليهم أن يؤمنوا به بسبب الأعمال التي لم يعملها أحدٌ غَيْرَه قَطٌّ.

إذن، فلمَّا قال المسيح: «أنا هو نور العالم» فهي شهادة له وللآب الذي أرسله كنور من نور وحق من حق، وبدونه لا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب. لذلك قال: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو 6:14)؛ لأنه النور الموصِّل إلى مصدر النور، والحق الموصِّل إلى مصدر الحق، والحياة الموصِّلة إلى الحياة. لذلك مَنْ يعرف الآب يعرف الابن، فإذا عَثَروا في الابن فمعناه أن معرفة الآب غائبة عنهم.

هذه هي حقيقتهم، فإذا أرادوا أن يعرفوا الآب عليهم أن يعرفو المسيح ويؤمنوا بـه، وبحسب واقعهم المرّ هذا: «لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو 19:8). ولكنهم عثروا في اتضاعه إذ حسبوه إنساناً مجدِّفاً، وهم الذين يجدِّفون على لاهوته.

+ «**أنا أمضي وستطلبونني وتموتون في خطيتكم.**» (يو 21:8)

واضح أنه يحدِّد فرصة وجوده معهم أنها لرفع خطاياهم، فبمجرَّد أن يذهب تذهب فرصة غفران خطاياهم وتبقى كحجر رحى في عُنُقهم. ثم أضاف: إنه إن مضى، تعذَّر عليهم أن يجدوه بعد ذلك. فلمَّا لم يفهموا، أوضح لهم أنه سيذهب إلى فوق حيث موطنه الذي نزل منه من عند الآب، ولأنهم من أسفل استحال عليهم العبور. فإن آمنوا به صار لهم نصيب معه فوق، وإن لم يؤمنوا به بقوا أسفل ليموتوا في خطاياهم.

79 - الحرية والعبودية: المعنى والجوهر

[الذين عرفوه أظهر لهم ذاته فآمنوا به وهؤلاء هم المختارون منذ البدء].

نحن لا زلنا في التعليم، فالمسيح كما فهمنا هو الحق الذي يعلِّم الحقيقة، والحق والحقيقة هي معرفة الله واستعلان أبوَّته والإيمان به.

+ «**تعرفون الحق والحق يحرِّركم.**» (يو 32:8)
+ «**إن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.**» (يو 36:8)

يبتدئ الحوار هنا على أساس حديث مطوَّل انتهى بأن «**آمن به كثيرون**» (يو 30:8)، فأراد أن يرتفع بمفهوم الإيمان حتى ينالوا قوته فقال لهم: «إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي» (يو 31:8). لأن مجرَّد الإيمان يحتمل النكوص، ولكن الثبوت في الإيمان يعني أن الإنسان قد تتلمذ أي

أعطى حياته للإيمان أو جعل الإيمان حياته. وهذا يؤدِّي بالإنسان إلى كشف الحق الذي في الإيمان. والحق لمَّا يُعرف يسكن، لأن معرفة الحق في أساسها هي انفتاح وعي الإنسان لقبول الله. وحلول وقبول الله معناه أن الإنسان لم يعد من العالم، بل يكون قد تحرر من العالم والخطية التي في العالم. الابن وحده هو الذي يعرف الآب، وهو وحده الذي خبَّر وأعلنه: «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو 18:1). فبدون الابن ـ كما اتفقنا ـ استحال على الإنسان أن يعرف الله الآب، أو أن يعرف "الحق". لهذا فكل مَنْ يؤمن بالابن يعرف الحق. والحق ـ وهو الله ـ يحرِّر الإنسان من العالم والخطية والموت. لذلك قالها باختصار: «تعرفون الحق والحق يحرِّركم»

فلمَّا عثروا في كلمة "الحرية" وقالوا: «إننا ذرية إبراهيم و لم نُستعبد لأحد قط» (يو 33:8)، ابتدأ يعرِّفهم بالحرية في مفهومها الجوهري أن الإنسان الذي يقترف الخطية هو عبد للخطية، وهو يخطئ لأنه ابتعد عن الله مصدر الحق.

الله أرسل ابنه إلى العالم ليرفع الخطية من طبيعة الإنسان، أي جاء ليحرِّر الإنسان من الخطية ويقرِّبه إلى الله الآب، بل ويصالحه مع الله الآب وينقله من حالة عبد للخطية إلى حالة ابن حر لله. فإن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً، بل وبنين مصالحين مع الله أيضاً. هذا قاله المسيح ليوعِّيهم بمعنى الإيمان به لمَّا وجد أن كثيرين قد آمنوا به. وقد أدرك المسيح أن إيمانهم به كان على أساس أنه هو الذي سيحرِّرهم من الرومان، فأوضح لهم أن عمله الوحيد معهم هو أن يحرِّرهم من الخطية ويعرِّفهم بالحق والله، ليصيروا أحراراً حقيقيين وليس أحرار وطن وأرض، ويجعلهم أبناءً حقيقيين لله وليس عبيد خطية.

80 - انشقاق بين المجمع، والسنهدرين يتحرَّك

ظلَّ المسيح يعلِّم في الهيكل على مدى أيام العيد. وكان السنهدرين قد حبس غضبه وضيقه خوفاً من الجموع الحاشدة التي كانت منفعلة به ومتمسِّكة بتعاليمه. حتى انفضَّ العيد وظلَّ المسيح يعلِّم في الهيكل تحت هذه التهديدات. ولمَّا أراد السنهدرين أن يتحرَّك واجه انقساماً حاداً بين جماعة الغيورين المتعصبين، فكثيرون من المعتدلين مانعوا في أي إجراء من هذا، بل وحدث بالفعل وأثناء العيد أيضاً أن أرسل السنهدرين الضباط المنوط بهم القبض عليه وتوجهوا إليه أمام الشعب وهو يعلِّم، فما كان منهم إلاَّ أنهم نسوا مهمتهم ووقفوا يسمعون وهم مندهشون وعادوا أدراجهم خجلين. فلمَّا عاتبهم رؤساء الكهنة لماذا لم تقبضوا عليه؟ قالوا قولتهم المشهورة في الإنجيل: «**فقال**

هؤلاء لهم: لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدَّام: لم يتكلَّم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان.» (يو 46:7)

ولمَّا انفعل الفرِّيسيون لهذا التصرُّف وطلبوا أن يُقبض عليه ويُحاكم فوراً، لأنه ينقض الناموس ويجدِّف على الله، ردّ عليهم الذين سمعوه وعرفوه وأدركوا الأعماق المهيبة التي تسند فكره وتعليمه وسمو شخصه؛ إذ قالوا لهم بفم نيقوديموس الجليل، أحد أعضاء السنهدرين البارزين، موبِّخاً الذين يحاولون سرعة الحكم دون تعقُّل وفحص وسماع: «ألعلَّ ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟» (يو 51:7)

فلمَّا رأى الغيورون والمتعصبون من الفرِّيسيين أنهم خُذلوا نادوا بمبدأ المقاومة والمحاصرة، حتى لا تتسع دائرة نفوذه وتعاليمه، وأصدروا قراراً من السنهدرين وكان أول قرار رسمي ضدَّه: «تعاهدوا أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح يُخرَج من المجمع.» (يو 22:9)

أعمال وتعاليم خارج الهيكل

81 - شفاء المولود أعمى ومحاولة السنهدرين التغطية على المعجزة

كان أساس هياج الغيورين والمتعصبين من الناموسيين على المسيح في تعاليمه السابقة كسره ليوم السبت، إذ اعتبروه خروجاً عن الدين وكسراً للناموس. ولكن المسيح لم يكن يعتقد ذلك أبداً في نفسه، فهو يحترم الناموس وأعلن أنه جاء ليكمِّله باعتباره ابن الله المسئول عن الناموس. ولكن راحة السبت في نظره لا تمنعه بصفته ابن الله من أن يعمل يوم السبت ما هو لخير الإنسان، وأعلن مبدأه بوضوح: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو 17:5)، باعتبار أن السبت كان راحة لأعمال الخلقة، ولكن الله لا يزال يعمل لصالح الخليقة، وها هو الابن ينزل ليقدِّم نفسه فدية من أجل خلاص العالم. وكما قال هو إن: «ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مت 8:12). فالسبت جُعل للإنسان وليس الإنسان الذي جُعل للسبت (انظر: مر27:2). لهذا صمم المسيح أن يكمل تعاليمه ويشفي يوم السبت أيضاً بعد هذه الزوبعة التي مرَّت بسلام، والقصد هو بالطبع ضرورة أن ترتفع كلمة الحق والمسيح فوق رأي وفكر الغيورين والمتعصبين.

وبمرور المسيح مع تلاميذه وجد إنساناً أعمى منذ ولادته، فسأله تلاميذه: «يا معلِّم، مَنْ أخطأ: هذا أم أبواه حتى وُلد أعمى؟» (يو 2:9). بمعنى أنهم أرادوا أن يربطوا بين الخطية وقصور الخلق، ولكن المسيح لم يقبل هذا القرار فقال لهم: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه.» (يو 3:9)

هنا أراد المسيح أن يرفع مسئولية الإنسان عن عجز خلقته وكأنه بسبب الخطية، فنقلها المسيح من مسئولية الإنسان وجعلها لتمجيد الله كعمل من أعماله.

ومن هنا يصير التطبيق على المولود أعمى هكذا: إذ يدخل حزنه وألمه وإحساسه بالمرارة والحرمان، ودموعه الغزيرة وعجزه عن تأدية واجبات الحياة، وحرمانه الكبير من النور والبهاء والجمال؛ يدخل تحت مسئولية الله مباشرة. فهنا يتجه السؤال لله: فماذا عمل الله له ليتمجَّد فيه؟ الجواب نسمعه في عظة الجبل: طوبى للمساكين والباكين لأن لهم ملكوت الله. فالعمل الذي عمله الله لكل مولود أعمى وكل مريض بكل مرض وكل إنسان متألِّم وباكٍ بكل ألم، هو أن جعل المسيح يتحمَّل ثقل أتعابه وأمراضه وآلامه من جهة السبب والعلة، بأن حمل خطايا الإنسان التي تسببت في كل ذلك. فأصبح الإنسان يمرض ويتألَّم بدون أن تكون الخطية سبباً لذلك، وأصبح

الإنسان إذا رَضِيَ بمرضه ورَضِيَ بآلامه كان هذا تمجيداً لله! تمجيداً مباشراً حرًّا. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى، فإن كل ما يُقدَّم لذلك الإنسان من إشفاق ومواساة ومعونة ومحبة وأموال هذا يمجِّد الله أيضاً، فأصبح المريض والمتألِّم سبباً لتمجيد الله تمجيداً غير مباشر. وهذا هو كلام المسيح: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن **لتظهر أعمال الله فيه**» وتأكيداً لقول المسيح هذا تقدم لكي يعمل في الأعمى: "عمل الله لتمجيد الله".

وهكذا طلى عيني الأعمى بتراب الأرض بعد أن بلَّله بريقه، وكأنها عملية خلق جديدة من تراب الأرض ومن جسده الخاص. وقال له: اذهب اغتسل، فذهب واغتسل وجاء بصيراً!

محاولة السنهدرين التغطية على المعجزة:

«العُمْي يُبصرون، والمبصرون يعمون»:

كانت حادثة مثيرة للجماهير: عودة المولود أعمى للبصر والنظر والمسيرة في وسطهم بعينين صحيحتين برَّاقتين، يتفحص فيهم كما يتفحصون فيه. إنه أمر مُسر جداً ومُعزٍّ لأقصى درجة. وللحال بدأ السنهدرين حركته لإطفاء لهب هذا الحدث الذي سرى خبره بين الناس كأعظم حدث سُمع به، وإليك الحوار:

س: الفرِّيسيون يسألون الأعمى الذي أبصر: كيف أبصرت؟

ج: الأعمى يجيب: «وضع طيناً على عينيَّ واغتسلت، فأنا أبصر»

— الفرِّيسيون يقررون: «هذا الإنسان ليس من الله، لأنه لا يحفظ السبت»

— رد القوم على الفريسيين: «كيف يقدر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات» فكان بينهم شقاق.

س: الفريسيون: «ماذا تقول أنت عنه من حيث إنه فَتَحَ عينيك»

ج: الأعمى يجيب: «إنه نبيٌّ»

هنا استدعاء لأبوي الأعمى وبدء التحقيق معهما.

س: الفرِّيسيون يسألون: «أهذا ابنكما الذي تقولان أنه وُلِدَ أعمى؟ فكيف يُبصر الآن»

ج: الأبوان: «نعلم أن هذا ابننا، وأنه وُلِدَ أعمى. وأمَّا كيف يُبصر الآن فلا نعلم! أو مَنْ فَتَحَ عينيه فلا نعلم! هو كامل السن. اسألوه فهو يتكلَّم عن نفسه. قال أبواه هذا لأنهما كانا يخافان من اليهود، لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح يُخرَج من المجمع. لذلك قال أبواه: إنه كامل السن، اسألوه»

استئناف التحقيق: دعوا ثانية الإنسان الذي كان أعمى وقالوا له:

س: الفريسيون: «أعطِ مجداً لله (جملة خطيرة كان يُستَنطق بها المجرم قبل إعدامه حتى لا يُحرم بعد الموت من رحمة اللهَ). نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ»

ج: الأعمى يجيب: «أخاطئ هو؟ لست أعلم. وإنما أعلم شيئاً واحداً: أني كنت أعمى والآن أُبصر»

س: الفريسيون: «ماذا صنع بك؟ كيف فَتَحَ عينيك»

ج: الأعمى يجيب: «قد قلت لكم و لم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟ ألعلَّكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟» (تهكُّم).

وهكذا إذ لم ينفع معه لا سلطانهم ولا تهديدهم، ركنوا إلى الشتيمة.

- الفرِّيسيون يشتمون الأعمى قائلين له: «أنت تلميذ ذاك. وأمَّا نحن فإننا تلاميذ موسى (هذا القول يعني أنهم أخرجوه من المجمع). نحن نعلم أن موسى كلَّمه الله، وأمَّا هذا فما نعلم من أين هو»

ج: الأعمى يرد على الفريسيين: «إن في هذا عجباً! إنكم لستم تعلمون من أين هو، وقد فَتَحَ عينيَّ. ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة. ولكن إن كان أحد يتَّقي الله ويفعل مشيئته، فلهذا يسمع! منذ الدهر لم يُسْمَع أن أحداً فَتَحَ عيني مولود أعمى. لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً»

- الفرِّيسيون يردون على تهكُّم الأعمى: «في الخطايا وُلِدتَ أنت بجملتك، وأنت تعلِّمنا! فأخرجوه خارجاً»

لقد دفع الأعمى ضريبة شفائه على يد المسيح أن أخرجوه خارج المجمع.

المسيح يجد الأعمى كأنها مصادفة، ويسأله أتؤمن بابن الله؟ أراد المسيح أن يعوِّضه عن خروجه من المجمع بدخوله الملكوت.

الأعمى: «مَنْ هو يا سيد لأُومن به»

المسيح: «قد رأيته، والذي يتكلَّم معك هو هو» !

الأعمى: «أُومِن يا سيد! وسجد له»

وكان الأعمى أقوى مَنْ دافع عن المسيح بمنطق فائق القوة والشجاعة؛ وأُعطي له، وهو الذي كان أعمى، أن يرى ابن الله رؤيا العين، ويسجد له!!

وفي ختام هذه الرؤية شديدة التعبير والتأثير قال المسيح قولته: «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يُبصر الذين لا يبصرون، ويَعْمَى الذين يبصرون!» (يو 9:39)

82 - راعي الخراف وبابها والخراف الأُخر

كانت معاملة الفرِّيسيين مع المولود أعمى تكشف عن قسوة جاهلة مريرة لمعلمي إسرائيل، فبدلاً من أن يرحبوا بالأعمى الحامل لمعجزة الله الخالقة، يُخرجونه من المجمع بشبه حرم! هذا دفع المسيح ليتكلَّم عن الراعي الصالح الذي يحنو على خرافه، يحمل الضعيف ويقود المرضعات (انظر: إش 11:40)، فقال مثله البديع: «أنا هو راعي الخراف» !

+ «أنا هو الراعي الصالح»
+ «أنا أضع نفسي عن الخراف»
+ «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة»

ابتدأ المسيح توصيفه البديع عن كونه راعي الخراف الإلهي بقوله: إن الذي يدخل إلى حظيرة الخراف من غير الباب يكون سارقاً ولصًّا، وما باب حظيرة الخراف الإلهي إلاَّ المسيح نفسه. فالحظيرة في مَثَل المسيح هي ملكوته، هي كنيسته. والخراف هي الرعية الصالحة. والباب الذي أقامه الله للحظيرة السماوية هو ابنه الوحيد الذي دخل أولاً كسابق، فوجد للخراف فداءً أبدياً. فهو باب السماء الوحيد. لذلك فكل مَنْ دخل إلى الحظيرة الآن في مستواها الأرضي بدون الباب حسبه المسيح سارقاً ولصاً. والقصد هم المعلِّمون الذين رفضوا المسيح: كتبةً وفريسيين.

فالمسيح احتسب نفسه الباب الوحيد للملكوت المُعدّ، كل مَنْ يأتي بواسطته يدخل ويخرج ويجد مرعى. وقد أتى المسيح من أجل خراف إسرائيل الضالة، لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل في السماء. جاء ليرعاهم، بمعنى يطعمهم ويسقيهم وينيرهم ويحييهم، فهو الراعي الصالح والوحيد، لأنه له الآب وله الملكوت.

أمَّا كيف صار هو الباب الذي يفتح على الملكوت؟ عندما قدَّم نفسه فدية عن حياة العالم، لكل مَنْ يؤمن به. فصار المدخل والباب والطريق والسُلَّم، كلها مصنوعة من جسده ودمه.

أمَّا لماذا هو الراعي الصالح والوحيد؟ فلأنه لم يأتِ ولن يأتي راعٍ آخر يستطيع أن يقدِّم نفسه فدية عن الخراف.

أمَّا لماذا هو الوحيد الذي يرعاها؟ فلأنه الوحيد الذي له معرفة الآب وله الحظيرة.

وأمَّا لماذا هو الوحيد الذي تدخل بواسطته الخراف إلى الحظيرة؟ فلأنه الوحيد الذي صالحها مع

الآب بدم نفسه.

وأمَّا لماذا هو الوحيد الذي تتبعه الخراف؟ فلأنه الوحيد الذي مات من أجلها ونقش أسماءها على كفِّه.

وأمَّا لماذا له خراف أخر ينبغي أن يأتي بها لتكون رعية واحدة لراعٍ واحد؟ فلأنه ذُبح على الصليب ومات من أجل حياة العالم كله.

83 - انقسام الشعب والعودة إلى الجليل

وكالعادة حدث انشقاق بين اليهود من أجل هذا الكلام.

والسنهدرين يتربَّص ويزداد توتراً وحيطة. فترك المسيح أُورشليم عائداً إلى الجليل واستقر في كفرناحوم.

ومن كلام ق. يوحنا يمكن أن نفهم أنه لم يترك أُورشليم فوراً بعد العيد، بل تأخَّر مدة وهو يعلِّم حتى عيد التجديد(2).

\+ «وكان عيد التجديد في أُورشليم، وكان شتاء. وكان يسوع يتمشَّى في الهيكل في رواق سليمان، فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تُعلِّق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً. أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون ... لأنكم لستم من خرافي، كما قلت لكم!» (يو 10: 22-26)

(2) **A. Neander, *op. cit.*, p. 332, n.k.**

الفصل الثاني عشر
ترك كفرناحوم والسفر نحو أُورشليم عن طريق السامرة

بعد إقامة قصيرة في كفرناحوم فكَّر المسيح أن يترك المكان نهائياً كمركز لخدمته، واتجـه نحـو أُورشليم في عيد التجديد الذي يجيء في شهر ديسمبر. فكثير من الشعب في أُورشليم آمن وتعلَّق به في زيارته الأخيرة هناك. والذي اضطره إلى مغادرة أُورشليم الأخيرة هي مؤامرة رؤسـاء الكهنـة. ولكن لزم الآن أن يقوِّي إيمان الناس هناك بظهوره الشخصي مرَّة أخرى، ورأى أن يعبر في الطريـق الأقصر خلال السامرة حتى يستطيع أن يلقي البذار في السامرة قدر ما يستطيع بانتظار خدمة الكنيسة ورعايتها هناك، وكان هذا يحتاج إلى وقت أطول من العادة، لذلك أسرع في ترك كفرناحوم لينطلق إلى أُورشليم.

84 - اختيار السبعين رسولاً

والآن والوقت قد أزف، والإعداد للخدمة بعد ''خروجه'' قد وجب، حيث يتطلَّب عدداً أوفـر من التلاميذ ليبدأوا الخدمة في طول البلاد وعرضها والسامرة أيضاً وإلى أقصى الأرض، وهو سـيترك كفرناحوم على أن لا يعود إليها مرَّة أخرى. وقد رفع عينيه وأشار لتلاميذه برؤيا المستقبل القريـب وقال: الحصاد كثير والفعلة قليلون، فاطلبوا من رب الحصاد أن يُرسل فعلة إلى حصاده. بعدها بـدأ فوراً في اختيار سبعين آخرين ليكونوا له تلاميذ من بين الذين تبعوه وآمنوا به ليكونوا خاصته الذين ينادون بالملكوت، وأرسلهم أمامه ليعلنوا قدومه. فكما اختار الاثني عشر بعدد أسـباط إسـرائيل الجديد، هكذا اختار السبعين بعدد شيوخ إسرائيل الحكماء، وعلى نمط السبعين عضواً للـسنهدرين المأخوذ أيضاً من السبعين شيخاً الذين عيَّنهم موسى بأمر الرب وقتئذ ليعلِّموا الشعب ويرعوا قطيعـه الكبير. ويقول لاهوتيو اليهود المتنصرين أن ذلك كان وفقاً لعدد الشعوب آنئذ وكان عددهم سبعين أُمة على الأرض، وهذا إن صح يكون الأكثر لياقةً للواقع والمستقبل أيضاً، لأن في هذا الرأي مطابقة لفكر المسيح لَّما قال لهم اذهبوا واكرزوا للعالم أجمع.

تعليمات للسبعين:

كان من أهم الأمور الواجبة في الخدمة وحدة الرأي والعمل والروح بين الـسبعين رسـولاً الجـدد، يشدِّدون بعضهم بعضاً. كذلك عضدهم بوعده الإلهي: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون

في وسطهم» (مت 20:18). هذا كان رائدهم في التقارب والتلاحم في الخدمة والرأي والروح. وهكذا وبناءً على هذا الوعد أرسلهم اثنين اثنين، ليكون المسيح معهم دائماً يشدِّد الصلح، والمحبة تؤازرهم.

ويُلاحظ القارئ الباحث أن ق. لوقا ينفرد بذكر السبعين رسولاً وتعيينهم لخدمة الأُمم، وأن التعليمات التي قالها لهم في موضعها هنا تبدو غريبة نوعاً ما عمَّا ذكره ق. متى مع الاثني عشر (مت 9: 37و38، 10 كله). والفارق بين التعليمات التي أُعطيت للاثني عشر والتي أُعطيت للسبعين، أن في تعليمات الاثني عشر ذكر المقاومات والمصاعب التي ستقابلهم، لأن خدمتهم كانت بين اليهود والمقاومين وعلى مرأى من السنهدرين ورفضه؛ أمَّا خدمة السبعين فتخصَّصت للأُمم حيث لا مقاومة ولا اضطهاد. كذلك نجد أن الويلات التي أعطاها المسيح لمدينتي كورَزين وبيت صيدا توافق بدء ترك المسيح لهاتين المدينتين في بداية خدمة السبعين وليس الاثني عشر. وواضح أن السبعين قد ظهر عملهم فور صعود الرب عندما اجتمعوا جميعاً، وهذا يظهر في أول كلمة ألقاها ق. بطرس الرسول حينما أرادوا اختيار تلميذ بدلاً من يهوذا: «وفي تلك الأيام قام بطرس **في وسط التلاميذ، وكان عدة أسماء معاً نحو مائة وعشرين** ...» (أع 15:1). ويذكرهم ق. بولس في رسالته الأُولى إلى أهل كورنثوس (6:15): «**نحو خمسمائة أخ**»، هؤلاء كلهم اختارهم المسيح حلقات حلقات، من الأضيق (12) إلى الأوسع (70) إلى الأوسع (500)(1).

وقد كان مجمل التعليمات هي بعينها التي أعطاها للاثني عشر، إلاَّ أنه لم يتكلَّم معهم عن منعهم من الخدمة في بلاد السامرة أو في الأُمم.

85 - عودة السبعين بفرح

بعد أن أدُّوا المهمة عادوا بفرح ولهم روح الطفولة مبتهجين، حتى الأرواح الشريرة خضعت لهم. وقد أعاد المسيح ذكر الصلة بين إخراج الشياطين عنوة ودخول ملكوت السموات. فكما قال إنه بأصبع الله يُخرج الشياطين، فكانت هذه علامة على أنه قد أقبل عليهم ملكوت الله؛ هكذا كان رد المسيح أنه رأى الشيطان ساقطاً من السماء مثل البرق، بمعنى سقوطه من مركز السيادة والقوة على الإنسان. وهي رؤية تشمل ما بعد الصليب بصورة أساسية، بمعنى نصرة ملكوت الله فوق مملكة الشر الروحية. وهو لم يقل إني أرى، بل رأيت كعمل ختامي. ثم عاد وسلَّمهم قوة إلهية لإخضاع العدو بكل مؤذياته الأرضية دون أن يصيبهم منها سوء. ولكن حذَّرهم من أن تكون هذه

(1) Neander, *op. cit.,* p. 334, N.I.

الآيات والمعجزات مصدر الفرح عندهم: «بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كتبت في السموات» (لو 20:10)، كدعوة اختيار تمموها بالطاعة والوداعة ومؤازرة الروح.

86 - علامات التلميذ الأمين للمسيح
إنكار الذات، حمل الصليب، اتِّباع الرب

[إن سرِّي لي ولأهل بيتي](2)

الشروط الحاسمة جاءت هكذا: عدم التعلُّق بالأسرة أو تدليل الذات: «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأُمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً»(لو 26:14). هنا لا يزال فكر المسيح يعلِّق على القوى الباهرة التي فرح لها التلاميذ لمَّا أخرجوا الشياطين باسم المسيح. فليس العمل العظيم هو الذي يُفرِّح قلب التلميذ، بل إنكار الذات هو الأعظم. بمعنى إنكاره لذاته ولأهله ولأقاربه ولكل ما للإنسان، فهذا هو الذي يكشف أول علامة ناجحة لاتِّباع المسيح والصيرورة تلميذاً للملكوت. ومن علامات إنكار الذات الناجحة جداً محبة الآخرين بدون عائد، بل بروح العطاء وبذل الذات مجَّاناً. فكل الأعمال العظيمة مهما كانت قوية وناجحة إذا خلت من المحبة الباذلة صارت نحاساً يطن أو صنجاً يرن، أي تكون بلا قيمة. فإنكار الذات الملهم بقوة المحبة هو الأساس لكل عمل عظيم مقبول في ملكوت السموات.

وحينما تأثَّر أحد السامعين من كلام المسيح انفعل وأخذ يعطي وعوداً أكثر من قامته في اتباع المسيح: «يا معلِّم، أتبعك أينما تمضي» (مت 19:8)، «فقال له يسوع: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار» وأمَّا المعلِّم الذي يريد أن يتبعه، فليس له أين يسند رأسه. وآخر طلب منه المسيح أن يتبعه لكنه وضع شرطاً: «ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي» (مت 21:8)، «فقال له يسوع: دع الموتى يدفنون موتاهم، وأمَّا أنت فاذهب وناد بملكوت الله» (لو 60:9). بمعنى أن التلميذ قد كرَّس حياته لخدمة الأحياء وليس لخدمة الموتى. وآخر أيضاً قال: «أتبعك يا سيد، ولكن ائذن لي أولاً أن أودِّع الذين في بيتي. فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (لو 9: 61و62)، أي ليس أحد يضع يده على المحراث ـ أي يسير متجهاً على خط مستقيم إلى الأمام ـ وينظر إلى الوراء فيتلف العمل منه، يصلح لملكوت الله.

(2) من كلمات يسوع غير المدوَّنة. ذكرها كليمندس الإسكندري (فارر: حياة المسيح ـ الترجمة العربية صفحة 286).

وفي هذه الأمثلة المصوّرة يتضح أن المسيح يفترض في التلميذ أن يترك كل شيء تركاً كاملاً شاملاً من حياته ومن قلبه ويتفرَّغ لخدمة الملكوت، ولا يستقيم للتلميذ أن يخدم العالم ويخدم المسيح بآن واحد.

حمل الصليب واتِّباع الرب:

حمل الصليب له معنى واحد: الرضا بالنصيب الذي أعطاه الله بشكر وهدوء وسكوت، واحتمال الآلام والضيقات والمهانة والظلم بلا تململ. فالآية لا تقول: **يحتمل** الصليب، بل **يحمل** الصليب، أي يضعه على نفسه كشرط للمسير خلف الرب بمعنى اقتفاء أثره، حيث تكون كل ضيقة ومعها آلامها مفروضة ومنتظرة سابقاً بل ومقبولة بلا زعزعة أو شكوى أو طلب الإعفاء منها، وأن يكون في الاعتبار إزاء أي ضيقة عظمى أنها قد تؤدي إلى الموت. لذلك فالموت ينبغي أن يكون مقبولاً باستعداد تسليم النفس والروح منذ البدء بالمسير وراء الرب واتباع المسيح حتى الصليب والموت.

والمسيح في هذا الشرط ليس قاسياً؛ بل هو يسلِّم الإنسان إلى يد الله كما سلَّم هو نفسه ليد الآب حتى إلى الموت، لأن في الموت يُستعلن الجزاء والخلاص، وتُستعلن الحياة وبنوَّة الله ومجدها. فالدعوة لحمل الصليب واتباع المسيح دعوة لشركة المجد وميراث الحياة الأبدية.

87 ـ مَنْ أقامني قاضياً عليكما، والمرأة الممسوكة بذات الفعل

+ «مَنْ أقامني عليكما قاضياً أو مقسِّماً؟» (لو 12:14)

+ «موسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجم فماذا تقول أنت» في أمر الزانية (يو 8: 2-11).

القضية الأُولى جاءت في إنجيل ق. لوقا، والقضية الثانية جاءت في إنجيل ق. يوحنا، ولكن العنصر الذي يربطهما هو نوع القضاء. ففي القضية الأُولى رفض المسيح القضية، وهو الإجراء الذي يسمونه في المحكمة "الشطب" لعدم الاختصاص **الشخصي**: «مَنْ أقامني قاضياً؟» أمَّا القضية الثانية، فبالرغم من أنها استوفت شروط الحكم لقيام البيِّنة والشهود، ولكنه رفضها أيضاً وأسقطها، ولكن لعدم اختصاص **المحكمة**: «لأنه لم يُرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليَخْلُص به العالم» (يو 3:17)، وهذا العنصر بديع حقًّا ولكنه مختفٍ نوعاً ما في القصة.

فالقضية الأُولى قُدِّمت على أساس قيام واحد من الجمع يطلب مباشرة من المسيح: «قل لأخي أن يقاسمني الميراث» (لو 12:13)، فكان رد المسيح أن هذا ليس من اختصاص عملي، ولو إني قاضي المسكونة بالعدل، فالسبب في قيام هذا النزاع هو الذي يخصّني وليس نوع النزاع. أمَّا بخصوص

السبب، فأنا أقول كقاضي الأمور الروحية، إن سبب هذا النزاع هو الطمع، فكل واحد منهما يريد أن يأخذ النصيب الأفضل، وهذا لا يستقيم مع مبادئ الملكوت والحياة الأبدية، لأن الميراث الكثير لا يوفِّر لهما الحياة المقبولة والسعيدة مع الله. ثم ضرب لهم المسيح مثلاً تعليمياً يكشف جهالة الطمع وما ينتهي إليه من الموت بعيداً عن الله، خلاصته أن رجلاً غنياً طمَّاعاً في الأمور المادية يختزن كل شيء ليسعد نفسه في الحياة بأمواله ومخزوناته، تذمَّر على القليل الذي يخزنه، فهدم المخازن وبنى مخازن كبرى واختزن فيها من المال والماديات ما يكفي لكثير من السنين، وإذا بالرب الناظر بالمرصاد أرسل ملاكه ليأخذ روحه: «فهذه التي أعددتها لِمَنْ تكون؟» (لو 20:12)

أمَّا القضية الأخرى فتحتاج إلى مزيد من الذكاء، فالمرأة التي قدَّمها الكتبة والفرِّيسيون امرأة مستوفاة الحكم بالرجم بحسب الناموس، قدَّموها ودخلوا معها كشهود عيان لذات فعل الزنا، وذلك لإحراج المسيح بسبب إحساسهم أنه يرحم الخطاة ويحبهم ويعطف عليهم ويجالسهم ويأكل معهم، فحتماً ظنوا أنه سيتساهل معها، وهنا يكون الاستهتار بالناموس والأخلاق ويكون لهم مأخذ مُحكم للشكاية عليه. كل هذا كان يعلمه المسيح. فصحيح أنه محبٌّ للعشَّارين والخطاة، ولكن حكم القانون بالرجم ضرورة، خاصة وأن هناك أكثر من شاهدَيْن. فانتظر قليلاً وجلس وكأنه يكتب على الأرض، ولكنه كان يتحادث سرًّا مع ضمائرهم. ثم انتصب فجأة وقال لهم: بما أنكم أنتم شاهدتم الخطية فأصبح عليكم أنتم أن ترجموها. فمَنْ كان فيكم بلا خطية فليرمها بأول حجر. وهكذا لَّما أوقفهم أمام ضمائرهم ما استطاعوا أن يقفوا أمامه، فتركوا المرأة وخرجوا واحداً واحداً مبتدئين من الشيوخ. ثم سأل المسيح المرأة أين الذين يشتكون عليك؟ أما دانك أحدٌ؟ فقالت: لا أحد؛ فما كان من المسيح إلاَّ أن قال لها: ولا أنا أدينك أيضاً فاذهبي ولا تخطئي ثانية!

ويُلاحِظ القارئ الذكي أن المسيح إنما يتكلَّم ويحكم ويدين من رصيد حياته ودمه!

فالصليب القادم كان يسند ظهره ودمه يتساقط على هذه المرأة أثناء حكمه. هذا هو الديَّان: «لم آتِ لأدين العالم، بل لأخلِّص العالم.» (يو 47:12)

88 - البذار التي تنمو وصاحبها ينام ويقوم وإذ هي سنبل

اختزال شديد لعملية زراعة القمح في الأرض الجيدة، فهي لا تخرج عن أن الفلاح يلقي البذار على الأرض المحروثة، ويسحِّفها بالسحافة حتى يخبِّئها في باطن الخطوط كي لا تأكلها الطيور، ثم ينزل المطر، وينمو القمح أولاً نباتاً أخضر بديع الشكل واللون، ثم يحبل طرف الساق وتظهر فيه السنبلة، ثم تنتفخ السنبلة وتمتلئ حبًّا في السنبل وهو القمح بعينه، ثم يُرسل الفلاح المنجل ليحصد ويجمع في البيدر. قصة قصيرة ملآنة بالتلميحات: فباذر البذرة هو التلميذ الذي ذهب ليكرز بالملكوت، والكلمة تنزل وتستقر في القلوب الطيبة بعيداً عن الطيور والعيون والشهوات فتنمو في هدوء. يذهب الكارز ويستمر في زراعته، وينام ويقوم وإذا بالكلمة في القلوب تنمو ويظهر جمالها في الكلام والسلوك، بعدها يتحوَّل الجمال إلى ثمر حديث عن ذات الملكوت الذي زرع. وهكذا بالكلمة تَبْيَضّ الحقول، ويأتي الحاصد السماوي يحصد للملكوت.

وهكذا كان المسيح حينما ينظر إلى السبعين الذين أرسلهم، كان يرى حقول النعمة التي ابيضَّت في كل أنحاء العالم، وصارت بانتظار الملائكة الحصَّادين ليجمعوا ويرسلوا إلى المظال الأبدية. ومن هذه الرواية يمكننا أن نحكم على مقدار سعادة المسيح وهو يسير مع السبعين يخطِّط لأجيال الحنطة وملء الملكوت.

89 - «جئت لألقي ناراً على الأرض» (لو 49:12)، «ولي صبغة أصطبغها» (لو 50:12)، «ما جئت لألقي سلاماً بل انقساماً» (لو 51:12)

ألقي ناراً:

هي كلمة الرب. هكذا عرفها الأنبياء: «أليست هكذا كلمتي كنار، يقول الرب، وكمطرقة تحطِّم الصخر» (إر 29:23). والكلمة والروح لهما خاصية النار! إذا تعرَّضت لهما طبيعة الإنسان مع طواعية تسري فيها سريان النار الطيبة ذات التمييز والإفراز بين ما هو للحريق وما هو للتطهير. وهي نار لا تُطفأ لأنها عمل النعمة، ولا يُثني النعمة عن العمل إلاَّ اكتمالها. فتظل الكلمة والروح يعملان في الإنسان الذي أوقع نفسه صريعاً لفعلهما حتى يبيض أكثر من الثلج! ويقول المسيح: «**جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت**»؟ بمعنى هذه مشيئتي أن تمسك النار في

قلوب خاصتي ومحبيَّ لأني جئت من أجل هذا، والكلمة تُضرم الروح فلا يبقى منها إلاَّ الذهب المصهور، هذا هو فكر ق. بطرس: «لكي تكون تزكية إيمانكم، وهي أثمن من الذهب الفاني، مع أنه يُمتحن بالنار، توجد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح» (1بط 7:1). وما قول المعمدان عن المعمودية إنه سيعمِّدكم «بالروح القدس ونار» (مت 11:3) إلاَّ فعل الإحراق للتطهير. فنار الله تأكل المضادين وتقدِّس المختارين.

صبغة المعمودية بالدم:

«ولي صبغة (بابتزما أي معمودية b£ptisma) اصطبغها (أعتمد بها baptisqÁnai)، وكيف أنحصر حتى تُكْمَل» (لو 50:12)؟ هكذا بعد أن وصف المسيح كيف جاء وكلمته معه كنار يكمِّل بها عمله حتى النهاية، دخل بعدها للتو في تكميل عمله على الصليب، وكيف بدم صليبه يعمِّد الجسد ليدخل به الموتَ ملفوفاً بالحياة ومدَّثِراً بالنور، فارتعبت منه جحافل الظلمة، وسلطان الموت ألقى سلاحه. وبقي في الموت محفوظاً بالحياة إلى أن أكمل مدة العقوبة وقام.

والمعنى أن المسيح جاء لتطهير البشرية بنار الكلمة والروح ودم صليبه!

ومن هذا نستخلص جوهر القضية التي يقصدها: إن عمله سواء بالكلمة أو تكميله على الصليب لا يمت للفهم الفكري أو العمل الظاهري بصلة، بل هو في العمق الضارب في قلب الطبيعة البشرية التي دخل إليها عن طريق الكلمة الإلهية النافذة، كما يقول بولس الرسول: «لأن كلمة الله حيَّة وفعَّالة وأمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميِّزة أفكار القلب ونياته» (عب 4: 12و13). فتصوَّر عزيزي القارئ، أن يكون لكلمة الله أيضاً القوة الحارقة التي للنار الإلهية التي تميِّز بين الحق والباطل! الحق تجلِّيه والباطل تلغيه. كذلك فإن عمل المسيح على الصليب ليس هو مجرَّد آلام يجوزها كما يظن بعض الناس، وكأنها آلام ظاهرية وفداء ظاهري، ولكن هنا يُلبس المسيح عملية الآلام والصلب والموت ثوب الدم للتعميد، حتى يجوز الجسد نقع الموت بكامله حتى القاع وهو مغطًّى بدم الحياة.

لذلك قيل إن الموت ما أمكن أن يمسك فيه: «الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت، إذ لم يكن ممكناً أن يُمسَك منه» (أع 24:2). إلى هذا العمق وصل خلاصنا من الخطية والموت!!

إذن، فالمسيح لم يأتِ بالمعجزات والآيات ليخلِّص الناس، ولا عن طريق البحث والنقاش والتعليم وإظهار القوة والجبروت، بل سلَّم نفسه لأوجاع الموت وشرب كأسه وانصبغ بفعله، لكي يرفع ثقله

عن الإنسان كما ترفع النار زغل الذهب. فالخلاص كلَّف المخلِّص أن يصطبغ بدم صليبه الذي سكبه حتى أسلم الروح! لذلك سبق ونبَّه تلاميذه أنه لم يأتِ ليلقي سلاماً على الأرض، بل انقساماً وألماً وعناءً وموتاً زعافاً. خاض معركتها بنفسه وترك لنا أنَ لا نجزع من أن نقتدي به ونحمل ذات الصليب لنبلغ ذات الغاية. ولكن، وبروح المحبة التي سكبها علينا، يُخرج من الألم راحة، ومن العناء سعادة، ومن الموت حياة. أمَّا الانقسام فهو يعمل من أجل تنحية الباطل وتكميل الوحدة بالنهاية. فهو ألقى انقساماً يثمر وحدة، لا سلاماً يثمر انقساماً. هذه كانت نظرة المسيح للمسيحية في العالم.

90 ـ ملكوت الله لا يأتي بمراقبة

كان هذا ردًّا على سؤال سأله الفريسيون: «متى يأتي ملكوت الله» «أجابهم وقال: لا يأتي ملكوت الله بمراقبة. ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك، لأن ها ملكوت الله داخلكم» (لو 17: 20ـ22). ليس معنى هذا الكلام أن المسيح قال للفرِّيسيين إن ملكوت الله داخلهم، ولكن القصد من الكلام أن ملكوت الله يظهر في داخل الإنسان وليس خارجه. فمعنى التعبير الصحيح هو: "لأن ملكوت الله يكون داخلكم. هذا لو قبلتموه". بمعنى أنه من الخطأ انتظار ملكوت الله كعمل خارج الإنسان، بل هو في حقيقته استعلان لوجود الله داخل الإنسان، هذا هو ملكوت الله. فالإنسان لا يربطه بالمكان «ههنا أو هناك» أو بالزمان الآن أو في المستقبل؛ لأن ظهوره يلغي من الإنسان الإحساس الشديد بالمكان والزمان: «لأنهم ليسوا من العالم، كما أني أنا لست من العالم، لست أسأل أن تأخذهم (من المكان) من العالم، بل أن تحفظهم (قلوبهم) من الشرير» (يو 17: 14و15). وقد عبَّر المسيح عن حلول ملكوت الله في الإنسان عندما قال للآب: «وعرَّفتهم اسمك (وهذا هو الملكوت) وسأعرِّفهم، ليكون فيهم (ملكوت السموات) الحب الذي أحببتني به (قبل إنشاء العالم)، وأكون أنا فيهم» (يو 26:17). وحينما علَّمنا المسيح صلاة «أبانا الذي» أعطانا أن نطلب الملكوت: «ليأتِ ملكوتك» هنا مجيء الملكوت يكون داخل القلب. وظهور ملكوت الله في القلب لا يأتي بمراقبة، بل ظهوره يكون مفاجأة، كما قال، كظهور البرق في السماء ليملأها من أقصاها إلى أقصاها. حيث يكون فيه الفرح الذي لا يُنطق به، والحب الإلهي الملتهب، ونسيان الذات والدنيا وكل ما فيها، حيث يصرخ الإنسان: قد كمل!!

91 - مجيء ابن الإنسان

كان من المعروف منذ أن بدأ المسيح الكرازة بقرب ملكوت الله، ثم الكرازة بدخول ملكوت الله، أن المسيح كان يربط بين مجيئه الشخصي وظهوره بينهم وبين مجيء ملكوت الله. فكان التعبير عن الملكوت وقربه والدخول إليه تعبيراً عن الإيمان بالمسيح وقبوله والدخول معه في شركة. لذلك فشهوة التلاميذ بعد أن يرحل المسيح أن يروا يوماً من أيام ابن الإنسان، كانت تعبيراً عن رؤية ومعاشرة ملكوت الله عن واقع حي ملموس ومسموع. لذلك في مرَّة كشف المسيح عمَّا في قلبه من جهة هذا الأمر بالنسبة لخواصه التلاميذ الذين أحبَّهم وقال لهم: «إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا. ولكن طوبى لعيونكم لأنها تُبصر ولآذانكم لأنها تَسمع!» (مت 13: 17و16). هنا ما رآه التلاميذ وما سمعوه هو المسيح وهو الملكوت مشتهى كل الأُمم!

ومن هذا الإحساس المرهف الرقيق المملوء بالانفعالات الإلهية المملوءة حبًّا، انطلق المسيح يُنبِّئ بمجيئه ثانية على الأرض، وابتدأ يوعِّيهم أن لا يزيِّف أحد لهم هذا المجيء أنه سريع أو أنه مكاني أو زماني؛ بل هو مجيء كلِّي يملأ الوجود والكيان والزمان. ووصفه وكأنه البرق يملأ كل الأنحاء في لحظة. كذلك أيضاً يكون ابن الإنسان في يومه، فلا يستطيع أحد أن يقول هنا أو هناك كما لا يستطيع أحد أن ينكره!

أمَّا مجيئه فهو للدينونة لتفريق الإنسان البار من الشرير: «اثنان على فراش واحد، يؤخذ الواحد ويترك الآخر» «اثنتان تطحنان على الرحى، تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى» ثم إذ تمادى التلاميذ في محاولة ابتزاز معرفة أكثر عن أين تكون الدينونة؟ أعطاهم المسيح مثلاً، إذ ردَّ عليهم: «لأنه حيثما تكون الجثة، فهناك تجتمع النسور» (مت 28:24). ومعناها أن الجثة هي التي تجمع النسور حولها، والشرح ـ كما سبق وقلناه ـ إمَّا يؤخذ فردياً بمعنى أن جثة الجريمة يجتمع حولها في الحال ضباط البوليس ذوو نياشين النسور (وهم ضباط الرومان)، أو الجثة هي الجزء الساقط من كيان الكنيسة الذي ستُعقد عليه الدينونة. فالجزء الذي سيُخطف ويكون مع المسيح يكون قد عَبَرَ الدينونة. والمعنى **أن الدينونة لا تخص ولا ينبغي أن تسترعي اهتمام أولاد الله.** والذي يؤكِّد هذا المعنى هو قول المسيح: اثنان على فراش واحد، يؤخذ الواحد فلا يوجد، والآخر يُترك كالجثة تنتظر النسور الجارحة، كذلك اثنتان على الرحى، تؤخذ الواحدة فلا توجد، وتترك الأخرى كالجثة تنتظر الدينونة.

معنى انتظار مجيء ابن الإنسان بحسب الإنجيل:

انتظار مجيء المسيح والسهر والاستعداد والصلاة تأخذ جزءاً كبيراً من حيز الإنجيل، ولكن ليس بمفهوم انتظار مجيئه الثاني الذي هو يفوق المكان والزمان المحدود بساعاته وأيامه وسنيه، ولكن ينصبُّ بالأكثر على مجيء المسيح في حياة الإنسان، حيث ينتقل مفهوم الانتظار والسهر بالترقُّب إلى طلب المجيء والشوق إليه والحنين الذي يزداد بالحب والصلاة والعبادة. وحينئذ يسهل أن نفهم لماذا هذا الإلحاح الشديد جداً على انتظار العريس وسهر الليل والزيت والمصابيح ومراقبة الساعة في تحركها من المحرس الأول إلى الأخير برجاء مجيء الرب! إنه انتظار ورجاء اللقيا: متى، ومتى يجيء وتكتحل عيناي برؤية مَنْ تحبه نفسي؟ من إشعياء سمعنا هذا الحنين والشوق والشهوة العارمة: «بنفسي اشتهيتك في الليل. أيضاً بروحي في داخلي إليك أبتكر» (إش 26:9). من الليل إلى فجر النهار والشهوة تحرق قلبي متى يأتي وأنظره؟ هذا التوتر البالغ الحساسية بين شهوة التمنِّي والتمادي في غياب الحبيب، هو محسوب جزءاً حياً من اللقيا، إذ في كل مرَّة تنتشي النفس وفي توترها البالغ العنف تحس بالراحة وكأنها رأته. ثم لجوع الروح التي لا تشبع تعود وتكرِّر المحاولة، وكأنها لم تَرَ مع أنها رأت! فالمسيح المحبوب هو في حقيقته غائب حاضر للنفس التي تبحث عنه. إذا حضر، نسيت النفس كل دموعها وتوسلاتها؛ وإذا غاب، تنسى حضوره البديع! لا يمكن أن يغيب المسيح عن مجيئه، كما لا يمكن أن يوجد بالدرجة التي يفكر بها الإنسان ويتمنَّى، ومهما رأته العين لا تقنع، ومهما أكلت وشربت تعود إليه جائعة عطشانة. «وأنتم مثل أُناس ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس (السماوي)، حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت. طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين ... وإن أتى في الهزيع الثاني أو أتى في الهزيع الثالث ووجدهم هكذا، فطوبى لأولئك العبيد ... فكونوا أنتم إذاً مستعدين، لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان.» (لو 12: 36-40)

فلو تأمل معي القارئ يجد أن الطوبى كلها في السهر!! وكلما طال طالت الطوبى!! فالمسيح يرتاح في الساهرين له وكأن نقطة التلاقي في قمة السهر!! ولكن هذا لا يتضمن الزمن كتحرّك عقارب الساعة، ولكن يحمل مضمون سهر النفس بالشوق الملتهب.

92 - الأرملة المظلومة وقاضي الظلم
«أفلا يُنصف الله مختاريه؟»

أراد المسيح أن يزكِّي عدله الرحيم لكل بائس ويائس ومظلوم، فأعطى هذه القصة: امرأة أرملة والأرامل لحوحات لا يطاق لهن إلحاح، لأهن يتسلَّحن بضعفهن، وسلاحهن المسكنة ومَنْ يطيق؟ حتى قاضي الظلم الذي اشتهر اسمه في المدينة بهذا الوصف بسبب طبيعته الظالمة التي لا يفلت من تحتها صاحب حق إلاَّ بشق الأنفس، جاءته بقضية رفعتها على خصم لها، فأجَّلها، ثم أجَّلها، وهي كل مرة تأتي إلى المحكمة في الفجر وتقف على بابه مع أن قضيتها مؤجَّلة دائماً إلى آخر الجلسة. ولكن يا ويله في هذه اللحظة الذي ينادي باسمها: تبتدئ تسرد قضيتها من جديد مع ترافع لا يهدأ، وإذ يدَّعي الإنصات يكون قد قفل أذنيه وانتظرها حتى تنتهي من كلامها ليؤجِّلها مرَّة أخرى. ولكنه راجع نفسه في هذه القضية، فوجد أنه هو الخاسر فيها، فقد أتلفت أعصابه وضايقت نفسه، فقال: إني أنصفها رغماً عن إرادتي، وأنصفها لئلاَّ تزعجني.

ثم عاد الرب يخاطب تلاميذه: انظروا إلى إلحاح هذه المرأة كيف حطمت به ظلم القاضي، واغتصبت بإلحاحها حقها من بين يديه. فما بالكم لو كانت صلاتكم على هذا القياس: «أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً وهو متمهِّل عليهم؟ أقول لكم إنه ينصفهم سريعاً!!» (لو 18: 7و8). وهكذا كشف المسيح عن أهمية الإلحاح في الصلاة، ليس لأن الله قاضي ظلم لا يسمع من أول مرة، ولكن مسرَّة الله كقاضٍ أن يسمع إلحاح مختاريه حتى يعطيهم فوق ما يستحقون. على أن الإلحاح في الصلاة إلى عدم الملل ينشئ عند الإنسان دالة مع الله وقربى، وإن تمهَّل فالاستجابة أقوى.

93 ـ ادخلوا من الباب الضيق ـ قبل أن يُغلق

أمَّا أن الباب ضيق، فهو ضيق حقـًّا، ولكنه مفتوح الآن. فاجتهدوا أن تدخلوا فيه قبل أن يُغلق، كل يوم وكل صباح هو فرصة. وطالما توجد مشيئة ويوجد عزم، فالدخول ممكن، ولكن ماذا يكون بعد أن تصبح الأيام بلا صباح، وتُطلب مشيئة الإنسان فإذا هي قد وهنت والعزم انحل! إن الباب يُغلق أمامنا هنا ونحن على الأرض حينما لا يوجد جهد أو اجتهاد، فاجتهدوا طالما كان لكم اجتهاد أن تدخلوا من الباب الذي يؤدِّي إلى السماء والحياة الدائمة الأبدية. الثمن رخيص الآن، ولكنه بعد الأوان غالٍ جداً ولا يوجد، حينما يشتهي الإنسان أن يدخل ولا يقدر! والمسيح الآن يدعو للوليمة وبابه مفتوح، ولكن حينما ينتهي زمان الدعوة ويأتي زمان الوليمة، يُقفل الباب ولا يُسمع لأحد صوت رجاء ولا صراخ.

هنا صورة في صفحتين متقابلتين

هنا صورة في صفحتين متقابلتين

94 - علامات الزمان(3)

علامات الزمان تُفيد ترصُّد الحوادث الزمانية، أمَّا علامات السماء فهي حاضرة ومنظورة ولا تحتاج إلى ترصُّد أو اجتهاد. فالزمان زمان توبة والرب واقف على الباب يقرع، فالآن زمان الفتح والترحيب بالمسيح، قبل أن يأتي زمان غلق الباب وبدء الدينونة، فلا يُسمع رجاء ولا يُقبل توسُّل: «أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير» (مت 5:26). فالقاضي في زمان الدينونة هو نفسه الآن محاميك في زمان التوبة والعودة والمصالحة. فابذل الجهد الآن وأنت لا تزال في الطريق لتتخلَّص من ديونك قبل أن تغرَّم بما لا تطيق. الزمن الآن زمن مصالحة وحب وودّ وغفران مجاني. هذا هو الزمان الذي ينبغي أن نبحث عنه، وليس زمان القضاء والدينونة والندم وصرير الأسنان! لذلك يؤنِّب المسيح الذين يسعون لمعرفة زمان مجيئه وهو زمان دينونة، ويتركون معرفة قيمة الزمان الحاضر وهو زمان المصالحة والخلاص بقوله: «**يا مراؤون تعرفون أن تميِّزوا وجه الأرض والسماء، وأمَّا هذا الزمان فكيف لا تميِّزونه؟**» (لو 12:56)

95 - لعازر والغنيّ

قصة حزينة ولكنها مثيرة وذات نفع. الرجل الغنيّ جالس في قصره يتنعَّم بمأكولاته وضيوفه والموسيقى تشجي أسماعه، وعلى بابه ملقى رجل فقير معدم مريض ومجروح، وكان يتنازع مع الكلاب في السبق على اختطاف الفتات الساقطة من مائدة الغنيّ، التي كانت تُرمى أصلاً للكلاب، فنازعها حقها بدافع جوعه. ومات الغنيّ ومات الفقير، فإذا بالغنيّ وهو في الهاوية يرى لعازر في حضن إبراهيم يلاطفه، فتوسَّل الغنيّ لدى إبراهيم أن يُرسل لعازر ليبلّ لسانه بطرف أصبعه ليبرِّده من لهيب الجحيم. فردّ عليه إبراهيم: «يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك لعازر البلايا!» (لو 16:25) والآن قد جاء ميعاد الجزاء: «هو يتعزَّى وأنت تتعذَّب» وفوق هذا كله بينكما هوَّة لا تُعبر! فتوسَّل الغنيّ أن يُرسل لعازر إلى بيت أبيه لأن له إخوة لكي يشهد لهم بما آل إليه حاله، لكي لا يأتوا إلى الهوّة والمعاناة، فردّ عليه إبراهيم والرد من المسيح: «عندهم موسى والأنبياء، ليسمعوا منهم» (لو 16:29)، فرد الغني على إبراهيم: «بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون» (لو 16:30). فردَّ عليه إبراهيم والكلام للمسيح أيضاً: «إن كانوا لا يسمعون

---

(3) لو 12: 54-58، قارن مع إنجيل متى: 16: 2-3.

من موسى والأنبياء، ولا **إن قام واحد من الأموات يصدِّقون**.» (لو 16:31)

والقصة مليئة بالنصح والحكمة والتحذير والإنذار، ولكن أقوى ما فيها ـ مع أنها كلها تتسم بالقوة ـ أنه لو قام واحد من بين الأموات لا يصدِّقون**!!** فالمسيح يتكلَّم عن قيامته والقول للفرِّيسيين الذين ما سمعوا من موسى ولا من الأنبياء، وما سمعوا للمسيح حيًّا ولا مقاماً من بين الأموات. والقصة جيدة ينبغي أن يسمعها الفقراء والأغنياء وكل مترف ومحروم. ولكنها قيلت أصلاً والمسيح سائر مع تلاميذه صوب أُورشليم ليموت هناك ليقوم.

الفصل الثالث عشر

المسيح في أُورشليم في عيد التجديد

96 - المسيح يعلن جهاراً عن مسيانيته ووحدته مع الآب

«وكان عيد التجديد في أُورشليم وكان شتاء. وكان يسوع يتمشَّى في الهيكل في رواق سليمان» (يو 10:22). كان ذلك في شهر ديسمبر، وكان سكان أُورشليم شديدي التعلُّق بـه، وسمعـوه كثيراً وأحبوه كثيراً وتمنوا أن يسمعوا منه كلمة أنه مسيَّا لترتاح قلوبهم: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلِّق أنفسنا، إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً» (يو 10:23). لقد آلم هذا السؤال المسيح جداً، لأنه ليس من الضروري أن يقول لهم: أني أنا! يكفي أنه علَّم بما لم يعلِّم به أحدٌ غيره، لا نبي ولا حكيم ولا فرِّيسي. ويكفي أنه عمل أمامهم أعمالاً تنطق بأن عاملها هو الله، ألا يكفي هذا. فردَّ عليهم آسفاً: «إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي. ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي، كما قلت لكم. خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني» (يو 10: 25ـ27). الخراف لا تحتاج من راعيها أن يُقْسِم لهم بالقول أنه راعيها، بل تتبعه في رضا وهدوء؛ لأنه يطعمها من دسم المراعي، ويزود عنها، ويضمِّد جراحها، ويحمل على كتفيه الضعيف منها، والمرضعة يقود! «وأنا أُعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي» (يو 10:28). أنا لم أجمعها حولي، بل الذي ناداها وجمعها هو أبي، فهو: «الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل (ليس من رابِّي ولا من فرِّيسي ولا من رئيس كهنة ولا من السنهدرين أنـا أخذها)، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي» (يو 10:29). هذا لأنهم كانوا يقولون إنه لم يستلم تعليمه من أحد. وعاد المسيح يؤكِّد لهم أنه ليس نبياً هو ولا ابن نبي، بل هو الواحد الوحيد مع أبيه: «أنا والآب واحد» (يو 10:30). وإلى هنا انتهى صبر السائلين عن مسيَّانيته. وامتدت أيـديهم كالبرق على الحجارة ـ وهي عندهم كثيرة ـ ليرجموه!

فابتدأ المسيح يداعب عقولهم الجاهلة ونفوسهم الحاقدة بلا سبب: «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي، بسبب أي عمل منها ترجمونني!!» (يو 10:32). مع أنه لم يقل عن نفسه أكثر مما قيل عن المسيَّا، فالمسيَّا عند اليهود في التعبير اللاهوتي السري هو ابن الله وهو المـتكلِّم والعامـل بـالله،

والله أعطاه أن يستعلن شخصه لهم.

ولكن إن ضاقت الرؤية وفسد الذهن، فلا يُرى فيمن يتكلَّم بكلام الله ويعمل أعماله إلاَّ مجـــدِّفاً! لأن وحدانية الله عند اليهود حصرت الله في مفهوم الواحد العددي وأضاعت من الله اتساعه اللانهائي ووجوده الكلِّي، وحبست كلمته في المكتوب، وأنكرت عليها التجسُّد ليُرى الله بين الناس، رؤيـــة العين، ويتكلَّم معهم بسماع الأُذن حتى يعلِّمهم الحق بعلم نفسه، ويفديهم بعمله ويحييهم بدمه بعـــد أن أفلس الأنبياء في خلاص الإنسان، وأفلس معهم كلُّ المعلِّمين والمتكلِّمين والحالمين! قالوا له: «لسنا نرجمك لأجل عمل حسن، بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو 33:10). لقد أخطأوا التعبير والبداية والنهاية، بل إنه وهو إله جعل نفسه إنساناً!! هنا ليت بـــصيرة الإنـــسان تنفتح ليرى ما عمله الله باتضاعه، إذ أخفى مجد لاهوته وأخذ شكل العبد لكي يرثي لحـــال العبيـــد ويرفعهم لحال الله في المجد. إذن، فالذين لم يتعرَّفوا عليه بعد، هم الذين جدَّفوا، لأنه إن كان الله أظهر نفسه في الجسد، أتقول له قد كذبت؟

أنقبل الناس عندما يمجِّدون أنفسهم فننحني أمامهم ونسجد، ولا نقبل الله لما يتضع ونُنكر تقـــديم السجود له؟ وإن كان في التوراة كثيراً ما استُخدمت كلمة «**ابن الله**» للتعبير عن الـــشعب أو عـــن الآباء بنوع من شدة التعلُّق والقُرْبى من الله. وهنا تعجب المسيح وقال: «**فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم، أتقولون له: إنك تجدِّف، لأني قلت إني ابن الله؟**» (يو 36:10). ما هو حلال عنـــدهم أن يُقال لهم أبناء الله وهم بشر، حرام على ابن الله بالحق أن يقول إني ابن الله؟

وعاد المسيح يتمسَّك بالأعمال التي يعملها: فإنْ ضَعُفَ الإحساس عندهم لإدراك الحق في شخص المسيح كابن الله، فهل إلى هذا الحد انعدم الفهم والبصر في إدراك هذا الحق في الأعمال؟

الفصل الرابع عشر

المسيح في بيت عبرة (بيرية)

97 - حديثه عن الطلاق

لم يكن ممكناً أن يظل المسيح في أُورشليم أكثر من هذا بعد أن التهب الجو من حوله، خاصة بعد إعلانه الجهاري عن مسيانيته. فالتجأ إلى عبر الأُردن، منطقة بيرية: «فطلبوا أيضاً أن يمسكوه (في أُورشليم) فخرج من أيديهم، ومضى أيضاً إلى عبر الأُردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمِّد فيه أولاً ومكث هناك» (يو 10: 39و40)، «وجاء إلى تخوم اليهودية من عبر الأُردن» (مت 1:19). وهذا المكان هو أول مكان ظهر فيه المسيح في بداية خدمته بعد العماد (يو 28:1)، وكان يلجأ إليه كثيراً. وفي هذا المكان كان الشعب يعتبره أعلى مقدرة من المعمدان، لأن المعمدان لم يعمل آيات: «فأتى إليه كثيرون وقالوا: إن يوحنا لم يفعل آية واحدة ... فآمن كثيرون به هناك» (يو 10: 41و42). وكان القوم متقدِّمين في المعرفة وواثقين من مستوى استنارته كنبي. فبدأوا يسألونه أسئلة صعبة، إذ سأله سائلٌ عن موضوع الطلاق الذي حيَّر تلاميذ هلِّيل الكبير قبالة شماي المقارِن له. فكلا المدرستين لم يجد الحل الأخلاقي والسياسي لمسألة الطلاق. فلمَّا قدَّموا السؤال للمسيح ليقرِّر رأيه فيه تخطَّى حل هلِّيل وشماي معاً: الأخلاقي والقانوني، ولكنه كان الأقرب إلى فكر شماي. وكان المسيح قد سبق في عظة الجبل أن قطع بأن عقد الزواج لا يُحَلُّ. فالرجل والمرأة هما بعد الزواج وحدة واحدة غير قابلة للانفصال، يقيمان حياة واحدة، فقد صارا جسداً واحداً. ومن هذا الجسد الواحد يخرج الأولاد وقد أعاد المسيح للزواج صفته الأُولى الطبيعية أن الله من البدء خلقهما ذكراً وأُنثى. فالزواج تأسيس إلهي. هكذا يجب أن يتحقَّق في الحياة. وأن هذا الكيان الذي ينشأ من زواج الرجل بامرأة هو كيان جسدي مستمد من المسيح كوحدة عضوية فيه، أي أن المسيح أساس الوحدة فيه ككل، بمعنى أن المسيح في تجسُّده بجسد إنسان مَثَّل فيه الطبيعة البشرية بكلا الجنسين متحدين بالله. ففي المسيح ليس رجل ولا امرأة بعد، بل هما واحد فيه. وهكذا أصبح الزواج في المسيحية هو تعبير جديد عالي القدر والمضمون، يتحتم أن يحقق نموذج المسيح، حيث يمتنع التعالي أو التفريق بين الجنسين، لأن عنصر اتحادهما إلهي هو. فبالحياة المسيحية المتفقة تنصهر الشخصيتان معاً، بحيث يحفظ الكيان المتحد لهما مميزات كل عنصر منهما، فلا يطغى الواحد على الآخر، وإلاَّ يفقد مفهوم

الوحدة الكيانية في المسيح مضمونه الروحي المتكامل. والمسيح وحده هو الذي يعطي مضمون هذا السر وقيمته. وهنا يأتي المسيح بالتعبير الحقيقي العالي والصادق جداً: «فالذي **جمعه الله** لا يُفرِّقه إنسان» (مت 19:6، مر 10:9)، سواء في صورته الخلقية الأُولى حينما خلقهما الله ذكراً وأُنثى، أو بعد ما احتواهما المسيح في جسده، فألغى تباعدهما كائنين وصارا واحداً فيه.

فلمَّا احتج القوم بأن ناموس موسى أجاز الطلاق، ردَّ المسيح عليهما فوراً أن هذا الاستثناء كان لقساوة قلوبكم، فالقانون بطبيعته لا يُنشئ الأخلاق أو المُثل العليا للأخلاق، أو يخلق حسًّا أخلاقياً رفيعاً، ولكنه وُضع ليحاصر التسيُّب والنزول بالقيم، وليس الارتقاء والنمو بها. وهذا لا يتوافق مع ناموس الله الروحي الذي يرتقي بالإنسان ليرتفع به فوق طبيعته!

«فلماذا الناموس؟ قد زِيدَ بسبب التعدِّيات، إلى أن يأتي النسل (المسيح) ...» (غل 19:3). ولما استصعب التلاميذ صيغة الزواج في المسيحية التي لا تحتمل الانفصال إلاَّ للعلَّة، لم يشأ أن يدخل معهم في حقيقة هذا العمل المسيحي الفائق قبل أن يحل الروح القدس، ويدركوا من أنفسهم قوة هذا "السر العظيم". ولمَّا أجاز البتولية أجازها لحساب الملكوت، على أن الزواج زواج من أجل الملكوت.

98 - مباركة الأولاد

«فقدَّموا إليه الأطفال أيضاً ليلمسهم» (لو 15:18)، ولكن تدخَّل التلاميذ على وجه السرعة ومنعوهم، لأن الأولاد كالنساء في العرف اليهودي لا ينبغي أن يظهروا مع الكبار، وليست لهم حقوق وطنية، ولا يعترف بهم المجتمع اليهودي، ولا يدخلون في تعداد الدولة. ولكن المسيح دعاهم: «دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله. الحق أقول لكم: مَنْ لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله» (لو 18: 16و17). فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم.

وهنا إشارتان واضحتان: الأُولى من التلاميذ، وهي توضح أن خدمتهم للملكوت لا تزال مربوطة بالمظاهر والكرامات وعدم لياقة الأولاد أن يأتوا إلى المسيح وبالتالي إلى الملكوت. والإشارة الثانية من المسيح، وهي تكشف مفهوم الملكوت عند المسيح أنه ملكوت قلوب وبراءة وبساطة روح وقلب. فملكوت التلاميذ لا يزال خارجياً لذوي الكرامات، وملكوت المسيح لا يزال يلح أن يكون داخلياً قلبياً روحياً غير منظور، حيث دخوله يعتمد كلياً على روح عدم الاعتداد بالذات وإنكار الكرامة والمجد المضاف في طاعة وخضوع واتضاع الطفل ووداعته. وبدون هذه الروح تفقد المسيحية مضمونها وهدفها وطريقها وبابها: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت

29:11). وإن خطية الحياة المسيحية التي ستحرمها من الانجذاب إلى الملكوت يوماً هي اعتبار المعرفة والعلم والدراسات العلمية **الروحية** مدخلاً للديانة أو تأهيلاً للملكوت. والمحك الرادع لمثل هذه المبادئ هو قول المسيح هنا إن مَنْ لا يقبل ملكوت الله كولد فلن يدخله!!

فكون المسيح يرى في الولد النموذج الذي يصلح للملكوت وليس غيره، يجحد ـ بآن واحد ـ اعتبار التقدُّم والتبحُّر في علوم الإلهيات، التي هي من وضع الناس، مدخلاً للعبادة أو التديُّن الصحيح. فزيادة المعرفة العقلية في أمور الله تصب في الإرادة تعالي الذات لتعظيم قدر الإنسان، وهذه تعمل بلا شعور للابتعاد عن حقيقة الله البسيطة وطبيعته. وهكذا أصبح سر التقدُّم نحو الملكوت يعتمد على سر العودة إلى بساطة روح الطفولة. على أن الطفولة بكل مفاخرها الروحية لا تزال حيَّة وفعَّالة في وجدان كل إنسان ينتبه إليها حتى ولو كان أعلم العلماء. فمن العلماء العظماء من فاقوا جيلهم في روح الوداعة والمحبة وبساطة الطفولة. فالعلم الصادق والحقيقي يزيد العالِم شعوراً بصغره، فكلما اقترب الإنسان من الحق اقترب من الله.

99 - رئيس مجمع يسأل المسيح: كيف يرث الحياة الأبدية؟ وكان غنياً

كان هذا في بيرية. إذن، فهذا الإنسان كان رئيس مجمع بيرية. وبحسب إنجيل ق. متى نعرف أنه كان شاباً. إذن، فهو على مستوى التأهيل الناموسي العالي حتى يُنتخب رئيساً وهو صغير السن. فهو يتكلَّم عن حداثته وكأنها قريبة العهد به. هذا كان يستمع إلى المسيح فتأثر تأثُّراً شديداً دخل أعماق قلبه فاشتهى هذه الحياة الأبدية التي يدعو إليها المسيح، فتقدَّم إلى المسيح كمعلِّم يرجوه أن يعطيه وسيلة عملية لكي يفوز بواسطتها بالحياة الأبدية. وواضح أنه كان من الساعين إلى البر بالناموس أو البر الذاتي بالأعمال واعتقد أن الحياة الأبدية تُربح بالأعمال: «أيها المعلِّم الصالح، **ماذا أعمل** لأرث الحياة الأبدية؟» (لو 18:18). لقد توقَّف المسيح عند كلمة "**الصالح**" منسوبة إليه، فلو قبلها يكون قد اغتصب صفة أساسية لله وحده. فهو وإن كان حقـاً ابن الله الصالح، ولكن هذا ينبغي أن يـراه الناس، وإلاَّ يكون المسيح قد أخفق في استعلان ذاته. لذلك راجعه المسيح ليعطيه فرصة لكي يتعرَّف عليه، ليس كمعلِّم كما توهَّم: «لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلاَّ واحد وهو الله.» (لو 19:18)

ثم ابتدأ المسيح معه على سلّم التعليم مبتدئاً من الوصايا، لا لأنها تكفي لكي تورِّث الحياة الأبدية، ولكن لأنها تلزم كمعرفة لما يأتي بعدها. فلمَّا قال رئيس المجمع إن هذه قد حفظها منذ حداثته، انتقل به على سلّم التعليم إلى الشيء الوحيد الذي إذا أُضيف إلى الوصايا العشر يمكنه به أن يرث الحيـاة الأبدية، قال له: «يعوزك شيءٌ واحد. اذهب بع كل ما لك وأعطِ الفقراء، فيكون لـك كنـز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب» (مر 21:10). وهكذا رَسَا به على أعلى درجـات الـسلم المورِّث للحياة الأبدية. والمعنى مستتر، فالذي يبيع كل شيء يكون قد أخضع ما له وذاته لمطالـب الملكوت. فإذا تبع المسيح حاملاً صليبه يكون قد ضمن الوصول، وإن طال الطريق. ولكن الغنيّ كان قد حفظ مطالب الناموس منذ حداثته، لكنه كان تحت سيطرة المال والغنى الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة (1تي 10:6). فالذهب إله، ومَنْ باع نفسه له عسير عليه أن يستردها. على أن كمال الناموس والأنبياء في محبة الله، ولكن الذي أحبَّ الغِنَى كيف يحب الله، فالذي حفظه منذ حداثته ليس الناموس بل الذهب.

ويقول الكتاب إنه: «مضى حزيناً، لأنه كان ذا أموال كثيرة.» (مر 22:10)

100 - مضرَّة الغِنَى

من قصة الرئيس الغنيّ نُدرك أن الغِنَى كان عائقاً هائلاً لقبول الميراث في الحياة الأبدية، ولكي يعطي المسيح هذه الصعوبة مقدارها التصوُّري للناس قال: «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيّ إلى ملكوت الله» (مت 24:19). ولكن عاد المسيح في (26:19) يقول: «هذا عند الناس غير مستطاع، ولكن عند الله كل شيء مستطاع» والمعنى أن الطبيعة البشرية بحكم التصاقها الشديد بمغريات العالم عسير عليها جداً أن تترك العالم باختيارها الطبيعي وتلتحق بالله والروحيات، ولكن بمساعدة القوة الروحية الفائقة على الطبيعة تستطيع الطبيعة البشرية أن تفرِّط وبسهولة في العالم وغناه وتلتحق بالله والروح. ولكن مَثَل المسيح أزعج السامعين، وكان ردّهم: «ومَنْ يستطيع أن يخلص» ولكن بطرس الرسول أدرك المعنى وأدرك الاستثناء الذي وضعه المسيح أن عند الله كل شيء مستطاع، فبادر بالإعلان عن فرح ومسرَّة ونصرة: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (مت 27:19). فكانت استجابة بطرس تأكيداً لإعلان المسيح أن الله يستطيع أن يجعل الإنسان يترك كل شيء ويتبعه. وهذا هو المحور الذي يدور حوله موضوع إمكانية أن يغلب الإنسان مغريات العالم ويتبع المسيح. ثم ابتدأ المسيح يشرح بماذا يعوِّض الله مَنْ يترك شيئاً من أجل ملكوت الله بأكثر منه! ليصير قانون البيع أو التخلُّص من أمور العالم سهلاً حبًّا في ميراث الحياة الأبدية التي اشتهاها ذلك الغنيّ و لم يَقْوَ على دفع الثمن: «كل مَنْ ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي، **يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية**» (مت 29:19). وهنا يعطي هذا الوعد ردًّا إلهياً عن قيمة ومضمون التخلِّي الإرادي عن غِنَى العالم وملذَّاته ومسرَّاته، بأن الله كفيل أن يسد ثغرة الحرمان التي تحيِّر فكر الإنسان كيف يُحرم من البيت والأهل والمال؟ وماذا يعوِّضني عن هذا الحرمان؟ إذ يقول الرب: إنه يردّ إليه كل ما تخلَّى عنه مائة مرَّة هنا في هذا العالم. هنا تنتهي خرافة الحرمان التي يصوِّرها الشيطان للذي يطلب وجه الله مثل هذا الغنيّ. ولكن لئلا يحسبها القوم أنها فرصة للغنى الأكثر أن يترك ليأخذ، أضاف إليها المسيح: "مع ضيقات": «يأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان ... مع اضطهادات» (مر 30:10). وذِكْر الاضطهادات هنا، لأنها الضريبة التي يفرضها العالم ورئيسه على كل مَنْ يحتقره ويثبِّت وجهه نحو ميراث الحياة الأبدية ويختار النصيب الصالح.

الفصل الخامس عشر
في الطريق نحو أورشليم

101 - النصيب الصالح: مرثا ومريم

لَمَّا ازداد إلحاح الدعوة للمسير إلى أُورشليم، ترك المسيح بيرية واتجه نحو أُورشليم صاعداً. وعلى بعد ميل ونصف من أُورشليم وعلى سفح جبل الزيتون تقع مدينة بيت عنيا، حيث كان يعيش هناك رجل أحبه المسيح اسمه لعازر مع أختين له: مرثا ومريم، كان يذهب إلى منزلهم ليستريح، وقد أحبهم المسيح. وقد قدَّم لنا ق. لوقا صورة لهذه الأسرة بنفس بريقها الذي يقدِّمه ق. يوحنا في إنجيله، غير أن قصة ق. يوحنا تشير إلى أن علاقة المسيح بهذه الأسرة وبيت عنيا مبكِّرة جداً. وإن كان ق. لوقا لم يذكر مدينة بيت عنيا فذلك لأن القصة طغت على الفرعيات.

ويحكي ق. لوقا عن الذكريات الموروثة لهذه العائلة، أنه بينما كان المسيح في ضيافتهم يوماً، بدأت الأخت الكبرى مرثا تخدم المسيح بإعداد الخبز الساخن وطهي الطعام بأصنافه، وأجهدت نفسها كثيراً. أمَّا الأخت الأخرى مريم فتركت كل شيء وجلست عند قدميْ المسيح تسمع منه عن الحياة الأبدية، والتهبت روحها فنسيت أختها ونسيت كل شيء مما أحزن مرثا، فجاءت تعاتب مريم، ولكن الكلام للمسيح: «فوقفت وقالت: يا رب، أما تُبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي؟ فقل لها أن تعينني! فأجاب يسوع وقال لها: مرثا مرثا، أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها.» (لو 10: 40-42)

هنا الواحد الذي أشار إليه المسيح، الذي نحن في حاجة قصوى إليه، هو الحياة الأبدية - وهو المسيح بكل تأكيد - التي من أجلها نعيش ونعمل، أمَّا الأمور الكثيرة فهي حاجات العالم التي تُطلب اليوم ولا تبقى ولا تدوم وتفنى بفناء الجسد والعالم، فهي في حقيقتها ليست "حاجة" بالمرَّة. أمَّا الحياة الأبدية فهي حاجة ملحَّة تفوق كل الحاجات. فالحاجة في مفهومها الأُخروي الإلهي هي الحياة الأبدية؛ مثَّلتها مريم بالجلوس والاستماع إلى المسيح. والمعنى هو الحاجة إلى كلمة الحياة الأبدية التي تقودنا في طريق غربتنا إلى الغاية السعيدة، أو النصيب الصالح الذي حقًّا لا يُنزع منّا. أمَّا الانشغال بأمور كثيرة، فكلها وإن لم تُنزع منّا الآن، فسوف نُنزع منها نحن ومن الأرض كلِّيةً حتماً. والمسيح لم يحسم بين ما اختارته مريم "كأفضل"، ولكن نبَّه مرثا بالصالح الواحد: "الأبقى".

102 - مرض لعازر الذي يسير في النهار لا يخاف

وقبل أن يدخل المسيح بيت عنيا، وهو لا يزال في بيرية على بعد 20 ميلاً من بيت عنيا، وقع لعازر في مرض يبدو أنه كان شديداً وميئوساً منه. فأرسلت الأختان رسولاً إلى المسيح يخبرانه: «يا سيد، هوذا الذي تحبه مريض» (يو 11:3). كان المسيح يود أن يرفع الحزن عن هاتين الأختين ويشفيه، ولكن كانت الخدمة أو الرسالة تطغي على المشاعر الشخصية عند المسيح، فآثر المسير على الطريق يكرز. وإذ كان المسيح يعلم أنه بإمكانه أن يقيم لعازر من المرض مهما بلغ، وحتى من الموت، لم يُسرع المسير: «فلمَّا سمع أنه مريض مكث حينئذ في الموضع الذي كان فيه يومين» (يو 11:6). ولكن النيَّة كانت متجهة عنده لشفائه وقد ضغطت عليه. وهكذا صرَّح لتلاميذه: «لنذهب إلى اليهودية أيضاً» (يو 11:7)، لأنهم كانوا في عبر الأُردن في بيرية ويلزم أن يعبروا النهر، لكي يبدأوا المسير تجاه بيت عنيا. فلمَّا سمع تلاميذه أنه يود العودة إلى اليهودية، وقد تركها قبلاً بسبب اشتداد المقاومة وتدبير الخطط لقتله، انزعج التلاميذ وواجهوه بانزعاجهم: «يا معلِّم، الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضاً إلى هناك؟» (يو 11:8). وتعجَّب المسيح من خوفهم هكذا، وإذ كان واثقاً أنه النور الحقيقي أو شمس الحياة التي لا تنطفئ، قال لهم ما معناه: ما دمتم سائرين معي فلا تخافوا الظلمة، لكنه وضعها في مَثَل: «**أليست ساعات النهار اثنتي عشرة؟ إن كان أحد يمشي في النهار لا يَعْثُر، لأنه ينظر نور هذا العالم، ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يَعْثُرُ، لأن النور ليس فيه**» (يو 11: 9و10). والمعنى واضح، طالما أنتم تسيرون معي، فأنتم في النور تسيرون ولا عثرة لكم. وقصد المسيح واضح أنه يركِّز على إحساسهم بأنه حقاً هو نور العالم، وطالما يسيرون معه فهم بمنأى عن الظلمة وكل أعمالها. ولكن لمَّا أبطأ المسيح مات لعازر! ولكنه استمر في المسير إلى بيت عنيا.

103 - موت لعازر

وصلت أخبار مجيء المسيح، وهو لا يزال بعيداً عن البيت، فأسرعت مرثا الأخت العاملة، وتخلَّفت الأخت المتأملة، إذ كانت غارقة في أحزانها مع المعزِّين وهم كثرة، لأن أفراد عائلة لعازر كانوا من الفضلاء المحبوبين أيضاً. جرت مرثا لتقابل المسيح، وشعاع أمل يبرق في قلبها أن صاحب الأشفية والمعجزات قد حضر، يا عزائي! يا عزائي!! وكتمت الرجاء الذي يتحرَّك في قلبها بعنف وتكلَّمت عن

إمكانية كانت وقد ذهبت: «يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي» (يو 21:11). ولكن عاد الرجاء في قلبها وانفجرت تفصح عن أملها الباقي: «لكني الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه» (يو 22:11). هذا إيمان جاهز قد مهَّد للمعجزة قبل أن يرى المسيح الميت. قال لها يسوع وكأنه يرد على إيمانها: «**سيقوم أخوكِ**»! وفي لحظة فلت الإيمان والرجاء والأمل المنشود، فالميت في القبر قد أنتن، وكأنها تحلم ثم استيقظت على صراخ النادبات! «أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير» (يو 24:11)، لمَّا فلت الإيمان الحي بقي الإيمان المحفوظ!! مدَّ المسيح يده وأمسك بقلبها حتى لا يفلت الإيمان منه: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا!! ... أتؤمنين بهذا؟» (يو 11: 25و26). عاد الإيمان إلى قلبها، وأخذ المسيح هيئته الإلهية أمامها «نعم يا سيد. أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله، الآتي إلى العالم» (يو 27:11). وأسرعت عائدة وكأنها ستُسِرُّ إلى لعازر أنه سيقوم سيقوم. ذهبت إلى مريم وهي جالسة بين المعزِّين قائلة لها سرًّا: «المعلِّم قد حضر»

قامت مريم مسرعة فجأة، فظن المعزُّون والمعزِّيات أنها قامت إلى القبر لتبكي، فأسرعوا الخطى وراءها، وما أن رأت المسيح حتى خرَّت ساجدة عند رجليه وببكاء قالت ولم تترجَّى: «يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي» (يو 32:11). فلمَّا رآها المسيح تبكي، واليهود الذين جاءوا معها يبكون بنحيب النسوة الذي يُقطِّع نياط القلوب، «**بكى يسوع**»!! ... وفي صمت قال: «أين وضعتموه؟» (يو 34:11)

لم يبكِ المسيحُ لعازرَ كما ظن اليهود، ولكن بكى مع الباكين!! فهو: «قادر أن يرثي لضعفاتنا، **بل مجرَّب في كل شيء مثلنا، بلا خطية**» (عب 15:4)، مع أنه سيرفع البكاء حالاً عن عيون كل الباكين. ولكن كثيرين رأوا أنه بكى لأنه كان يحب لعازر، لا!! ولكنه بكى لأن لعازر مات وفرح إذ لعازر قام. فالبكاء والفرح هما المشاعر التي جعلته مثلنا في كل شيء! ولكن البعض أيضاً تفلسف ووازن بين أعمال المسيح العظيمة وبكائه الآن فقال: «ألم يقدر هذا الذي فَتَحَ عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟» (يو 37:11). آراء وفلسفات البشر على طريق القيامة!!

104 - قيامة لعازر

كان المسيح قد بلغ أقصى حالة التوتُّر الجسدي من جراء المناظر التي يراها، فنفسه بلغت حالة الحزن الشديد، لا لشيء إلاَّ لأجل الموقف الذي يقفه الآن وسط أحزان صادقة جداً ومُرَّة جداً، وخاصة من الأختين. وقد أوضح الكتاب هذا بكلمتين: «**فانزعج يسوع أيضاً في نفسه**» (يو 38:11). أليست هذه هي بشرية المسيح الحرة المعبِّرة عن نفسها أصدق تعبير؟ والذي يزيد من هذا

التعبير قوة وسمواً ومجداً أنه تهَيَّأ لإقامة إنسان من بين براثن الموت!! فهو انزعاج القوة والجبروت الذي – والدموع في عينيه – يقيم الميت من القبر!! النفس منزعجة، فهي في مواجهة سلطان الموت والهاوية، تنتهره ليترك الفريسة من بين أظافره. لم يعبأ المسيح بقوانين الطبيعة والموت وعوامل الفناء التي بدأت تدب في الجسد المسجَّى في القبر منذ أربعة أيام. ووقف وصلَّى: «**ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني!**» (يو 11: 41و42)

لم يكن هناك توسُّل أو حتى طلب، بل الشكر على الاستجابة وكأنها حاضرة، وليس من أجل المسيح بل من أجل أن يعرفوا أن الآب أرسله، وليس ليعزِّي القوم بل ليؤمنوا. صلاة لا يقال فيها إلاَّ كونها من المثيل للمثيل، من الابن إلى الآب بكل معنى ووقار، و لم تكن الصلاة لتعطيه القوة على إصدار الأمر للروح بالمجيء وقيام الجسد، بل للشكر على ترافق الصلاة مع القيامة. و لم تكن الصلاة تعبيراً جديداً عمَّا للمسيح من دالة وسلطان، فحياته كلها كانت صلاة وشكر واستجابة. وضمَّن المسيح صلاته سر وجوده وعمله كمُرْسَل من الآب. فهو يربط بين قيامة لعازر وقيامته العتيدة كغاية الرسالة والإرسالية، فمن أجل هذا جاء. ومن أوضح الأمور في هذه الصلاة أنها تكشف عن سر قوة المعجزة في المسيح، ليس كأنها قوة ممنوحة له، بل قوة الابن عاملة بقوة الآب، إذ لمَّا أكمل التعبير عن ظروف هذه المعجزة بهذه الصلاة المسموعة من كل الجموع: «**صرخ بصوت عظيم: لعازر، هَلُمَّ خارجاً**» (يو 43:11)، كمَنْ يأمر الموت أن يترك فريسته، والهاوية تنكسر مصاريعها، ليخرج سجين الرجاء كاستجابة فورية لإرادة الابن الوحيد. أدرك المسيح هذا مقدَّماً وشكر الآب قبل أن يقوم لعازر لأنه كان بحكم الذي قام!!

105 - إجراءات عاجلة في السنهدرين بسبب إقامة لعازر من الموت

شاع خبر إقامة المسيح للعازر من الموت بسرعة البرق، وتناقلت أُورشليم بما فيها السنهدرين والكتبة والفرِّيسيون الخبر، فأحدث زلزلة في قلوب الواجفين من خطر ازدياد سلطان المسيح للدرجة التي تنضم له كل جماهير الشعب. فكثير من الشعب قد آمن بالفعل بدعوة المسيح الإلهية وأنه مُرسل حقًّا من الله. وفي المقابل كان خبر إقامة لعازر من الموت حافزاً للغيورين على مصلحة اليهود السياسية ليقوموا قومتهم، فاجتمعوا مع رؤساء الكهنة وبدأ الحوار الملتهب: «ماذا نصنع؟ فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة. إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأُمتنا» (يو 11: 47و48). وهكذا حوَّلوا كرازة المسيح بالملكوت والحياة الأبدية إلى قضية وطنية خطرة، وأدمجوا أعمال المسيح في ملف قضية الخيانة العظمى للأمة اليهودية. وأمسك رئيس الكهنة بهذا الخيط، وأخرج منه نبوَّة ليكرِّس بها قتل المسيح على مستوى ضحية تنجو بها الأُمة اليهودية، وكأنه نبي الهلاك: «فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً. ولا تفكِّرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأُمة كلها» (يو 11: 49-51). وقد نجح الشيطان في استخدام رئيس الكهنة لتلك السنة ليُخرِج النبوَّة معكوسة، تبدو جيدة وكأنها من الله، وهي من صنع الشيطان، ليُهلك مسيَّا اليهود وشعب اليهود معاً. وقد استحسنوا هذه النبوَّة لأنها تفي بالتخلُّص من المسيح.

وهكذا كان هذا اليوم هو اليوم الأول في تقديم أول خطة مسببة تخرج من المجمع مع نبوَّة من فم رئيس الكهنة قابلة للتنفيذ لقتل المسيح: «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يو 11:53). وكان ذلك قبل عيد الفصح، وقد صدرت الأوامر بالقبض عليه حال مجيئه إلى العيد في أورشليم.

106 - المسيح في أفرايم
المسيح يعلِّم حتمية موته!

إزاء التربُّص الذي احتاط بالمسيح في أُورشليم، لم يعد يمشي بين اليهود علانية، بل مضى إلى الكورة القريبة من البرية التي يقال لها أفرايم ومكث هناك. وهي تبعد عن أُورشليم نحو 20 ميلاً رومانياً(1). وهي قرية خاملة الذكر في جبال اليهودية.

---

(1) Jerome, cited by Neander, *op. cit.*, p. 379, n. 9.

وابتعاده عن مخاطر الكتبة والفرِّيسيين وفخاخ السنهدرين لم يكن لإطالة حياته أو خدمته، ولكن لاكتمال عمله وشهادته التي بعدها سيُسلِّم نفسه طواعية، لأن تعليمه لابد أن يختمه ببذل حياته على الصليب. على أن ميعاد الصليب يتحدَّد باكتمال الخدمة فقط.

الفصل السادس عشر

رحلة المسيح الأخيرة لأُورشليم للفصح

107 - نحو أريحا

اتجه المسيح من أفرايم إلى أريحا، وهي مدينة صغيرة على بعد 6 ساعات سيراً على الأقدام من أُورشليم. وهناك كان يمكنه أن يرى قوافل الحُجَّاج المتجهة إلى أُورشليم. وفي الطريق كشف لتلاميذه ما ينتظره في أُورشليم: «وأخذ الاثني عشر وقال لهم: ها نحن صاعدون إلى أُورشليم، وسيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان، لأنه يُسلَّم إلى الأُمم، ويُستهزأ به، ويُشتم ويُتفل عليه، ويجلدونه، ويقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم.» (لو 18: 31-34)

وبحسب رواية ق. مرقس يقول: «وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير، كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالساً على الطريق يستعطي. فلمَّا سمع أنه يسوع الناصري، ابتدأ يصرخ ويقول: يا يسوع ابن داود، ارحمني!» (مر 10: 46و47). ويبدو أن لقب ابن داود كان اللقب المحبوب الذي شاع بين أوساط المرضى، لأنهم كانوا يرون في هذا اللقب قرباً ونسباً. فهو ملك اليهودية المحبوب، وكان هذا اللقب أيضاً يصيب هوى في قلب المسيح. فوقف المسيح واستدعاه، فما أن علم أن المسيح دعاه حتى ألقى بعكازه وألقى بردائه من على ظهره، وفرد ذراعيه كقرني استشعار يتحسَّس بهما الطريق، وحِس الأعمى لا يخيب، حتى جاء إلى المسيح ووقف أمامه وقلبه يطفر من الفرح. فلمَّا سأله المسيح ماذا تريد أن أعمل بك؟ صاح: «يا سيدي، أن أبصر. فقال له يسوع: اذهب إيمانك قد شفاك. فللوقت أبصر، وتبع يسوع في الطريق» (مر 10: 51و52). وبحسب ظني أن المسيح لم يدخل مدينة إلاَّ وخرج منها بأعمى يسير وراءه يتفرَّس في الناس مشيراً إلى عينيه. ودخل الأعمى في موكب "أوصنا" شهادة على المسيح الذي رفضوه!!

108 - المسيح يدخل بيت زكَّا

يرتبط اسم زكَّا بأريحا تذكاراً أبدياً، إذ لمَّا دخل المسيح أريحا واجتاز فيها والجمع يسير حول المسيح، وإذا بإنسان اسمه زكَّا، وكان قصير القامة، وقد اشتهى أن يرى المسيح عن قرب ويتفرَّس فيه دون زحمة الناس، فتسلَّق جميزة، وهي شجرة طيبة سهلة التسلُّق على فروعها، وجلس على فرع

مستعرض فيها؛ وإذا بموكب المسيح مقبلٌ نحوه، وما كان ممكناً أن يتحاشى المسيح رؤية زكَّا وهو فوق الشجرة. فلمَّا اقترب نحوه رفع المسيح بصره وناداه بالاسم: «**يا زكَّا، أسرع وانزل، لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك**. فأسرع ونزل وقَبِلَه فرحاً.» (لو 19: 5و6)

زكَّا عشَّار ومرابي، رجل في عرف اليهود خاطئ يتعامل مع الأُمم ويوالس في الصرافة ويربح من الحرام كثيراً. لذلك لمَّا رأوا المسيح يقبل ضيافة زكَّا تذمَّر الجميع: «إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ!» (لو 7:19). أمَّا زكا، فكانت لمناداته بالاسم من فوق الشجرة فرحة غامرة ملأت كيانه، وبدا منفعلاً. فلمَّا دخل المسيح بيته وجلس، قام زكَّا وكأنه يخطب في الجمع موجِّهاً كلامه إلى المسيح: «ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أرُدُّ أربعة أضعاف» (لو 8:19). وكان اعترافاً مؤثِّراً للغاية، وتوبة صادقة حاضرة، وتعهُّداً فاق الحد. فما كان من المسيح إلاَّ أن ردّ عليه بأحسن مما قدَّم: «اليوم حصل خلاصٌ لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن إبراهيم »(لو 9:19). وهكذا بإشارة محبة على الطريق، جذب المسيح الخاطئ إلى التوبة وإلى الخلاص! عيَّروه بمحبته للعشَّارين والخطاة، وكيف لا يحبّهم وقد جاء ليسفك دمه ثمناً لحبهم!

109 - هل يتحقَّق حلم سالومة أن يجلس ابناها على جانبي المسيح

كان منظر المسيح مهيباً وهو يُستقبل من جمهور قوافل الحجاج الآتية من الجليل مارة بأريحا، وكلهم أحباؤه وكلهم شفى مرضاهم وأكل في بيوتهم وعزَّى قلوبهم، فحيُّوه تحية ملك وأعظم من ملك. كانت سالومة امرأة زبدي أم يعقوب ويوحنا ضمن الآتين من بعيد، هالها منظر المسيح وهو يُتوَّج من قلوب محبيه، فاشتهت من قلبها أن ترى ابنيها واحداً عن يمينه والآخر عن يساره في المجد الوشيك أن يُستعلن بإعلان ملوكيته في أُورشليم! فتجرَّأت، وليس بدون علم ولديها، جاءت وسجدت أمامه وطرحت أمنية قلبها كأم، وربما تحتفظ بنسب قريب مع العذراء. فتعجَّب المسيح أن كل حديثه عن آلامه وصليبه القادم كيف استطاع الشعب أن يصرف نظره عنه جملة، ويرى مجد الملوكية قائماً عِوَض الصليب المنصوب! فعاد المسيح يستقرئ يعقوب ويوحنا الدرس، لأنهما كانا على نفس اشتياق أمهما: هل تستطيعان أن تشربا كأس عاري مع صليبي؟ قالا وكأنهما في غيبوبة عن الحق والحقيقة: نعم نستطيع! ثم عاد يستجوبهما: وتستطيعان أن تصطبغا بالدم؟ وفي نشوة المجد المرتقب تجاوزا معنى الكأس ومعنى صبغة الدم وقالا أيضاً: نعم! فإن كان المسيح سيجوزهما كيف لا نحتملهما؟ كل شيء يُحتمل من أجل الملكوت!! عاد المسيح ليرفع أعينهما إلى عمل الآب السماوي في تدبير ملكوته وقال: أمَّا شركة آلامي وموتي فيمكن أن توهبا نعمتها، أمَّا الجلوس عن

يميني وعن يساري في ملكوت أبي فهذا للذي يعطيه أبي.

استشاط غضب التلاميذ، وكأن يوحنا ويعقوب أخاه قسَّما الأنصبة من دونهم، فبدأوا يصادرون الأخين فيما نزعا إليه؟ كيف وأين نحن؟ التفت إليهم المسيح ونبَّه قلوبهم أن منازعات الأفضل والأعظم هي عند أهل العالم في الأنصبة الترابية، أمَّا تلاميذ الرب فلا يليق بهم إلاَّ وحدة الرأي والقلب بالمحبة. فشركة الملكوت لا يَقْرُبها متنازعان! فعليهم فقط أن يحملوا نير الأُخوَّة الباذلة والمحبّة المضحِّية في خدمة بعضهم والملكوت بالحب الأخوي الصادق. ولفت نظرهم: انظروا هل جئت ليخدمني الناس أم أخدمهم أنا؟ هل ليبذل أحد دمه عنِّي أم أبذل أنا دمي عن الجميع فدية وخلاصاً؟ في هذا تناظروا وفي هذا تنازعوا: مَنْ يحمل الأكثر ومَنْ يخدم الجميع! فابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم بل ليَخدُم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين. تفكَّروا في معلِّمكم!!

110 - منهج المسيح في العمل والجزاء

(أ) مَثَل الوزنات كمجال للتنافس، ولا مجال في الملكوت للكسلان

+ «**وإذ كانوا يسمعون هذا عاد فقال مثلاً لأنه كان قريباً من أُورشليم، وكانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال.**» (لو 11:19)

وبدأ القصة في وصف «إنسان شريف الجنس» وفي الحقيقة لا يوجد ولن يوجد إنسان شريف الجنس إلاَّ ابن الله الذي تجنَّس بجنس البشر وهو صاحب جنسه الإلهي!! هذا الشريف الجنس ذهب في القصة إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكاً! وكأنه من روما ـ وهو من السماء التي يُنصَّب فيها الملوك بالحق، على أنه بعد أن ينال المُلك يرجع ـ هذا دعا عشرة من عبيده وأعطاهم عشرة أَمْناء وقال لهم تاجروا حتى آتي! ـ وتجارة الملكوت بذل وعطاء: «وأمَّا أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة قائلين: لا نريد أن هذا يملك علينا» (لو 14:19)، وطبعاً يقصد الكتبة والفرِّيسيين ورؤساء الكهنة. «ولمَّا رجع بعد ما أخذ المُلك» ـ وهنا يؤكِّد المسيح تأكيداً على مجيئه الثاني الظافر المجيد ـ «أمر أن يُدعى إليه أُولئك العبيد الذين أعطاهم الفضة، ليعرف بما تاجر كل واحد! فجاء الأول قائلاً يا سيد مناك ـ (ولا يقصد العبد إلاَّ موهبة الرسولية الثمينة) ـ ربح عشرة أمناء» (لو 19: 15و16)، ولا يقصد إلاَّ ما يساويها تماماً من النفوس التي ربحها لحساب الملكوت. فقال له ذلك السيد الشريف الجنس الذي صار ملكاً متوَّجاً: «نعمَّا أيها العبد الصالح، لأنك كنت أميناً في القليل» ـ ولا يقصد إلاَّ المتاجرة بموهبة الرسولية ـ «فلْيَكن لك سلطان على عشر مدن»

ولا يقصد إلاَّ الأمانة العظمى في الملكوت حيث المواهب الفائقة والعمل الفائق. وهكذا لَمَّا جاء الثاني أخذ سلطانه على خمس مدن، ثم جاء **الآخر** فلمَّا استجوبه قال له: «هوذا مناك الذي كان عندي موضوعاً في منديل» ـ ولا يعني إلاَّ الموهبة التي أخذها كيف عطَّلها وأخفاها ـ ولَمَّا طلب منه التفسير، قال: إنه كان يخافه إذ رآه صارماً يحصد ما لم يزرع، فراجعه الملك قائلاً: إن كنت قد خفت مني واعتقدت أني أحصد ما لم أزرع، فلماذا لم تعطِ فضتي للصيارفة يتاجرون بها فتحفظها مع الأرباح؟ ويقصد الكنيسة التي تعمل بمواهبه وتربح لحساب سيدها. ثم قال للحاضرين: «خذوا منه المنا وأعطوه للذي عنده العشرة الأمناء» فلمَّا استفسروا قال لهم مَثَلَه المشهور: «إن كل مَنْ له يُعطى، ومَنْ ليس له فالذي عنده يؤخذ منه» (لو 26:19). ومحور هذه القصة في هذا القانون الإلهي أن الذي عنده القدرة على المتاجرة والربح، يُعْطَى مزيداً، والذي ليس عنده القدرة على المتاجرة والربح فما استؤمن عليه يؤخذ منه ويُعطى لِمَنْ له القدرة على الربح الأوفر.

هذا المَثَل أعطاه المسيح ردًّا على التوسُّط في تنصيب يعقوب ويوحنا على جانبي الملك في مُلكه. فالتملُّك فوق هو وفق قانون القدرة على التجارة والربح في الأرض لحساب الملكوت. وفي ظننا أن الربح لحساب الملكوت في العمل على الأرض لا يُحسب بالكم ولا بالمظهر، بل بمستوى التجرُّد الذاتي والإيمان بالاسم! «**مَنْ لا يقبل ملكوت الله مثل ولد** فلن يدخله» ! (لو 17:18)، «ومَنْ قَبِلَ ولداً واحداً مثل هذا باسمي فقد قبلني» (مت 5:18)، «والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني.» (يو 20:13)

واضح من هذا أن المسيح يضع **ميزان التأهُّل** لقبول الملكوت أو قبول المسيح والآب على أساس قبول ولد، أي من منطلق الأقل والأصغر والأضعف وغير الموجود عند ذاته، وهو المَثَل الذي قدَّمه المسيح للتلاميذ الذين كانوا يتعاركون فيمن هو الأعظم بينهم في ملكوت الله. العراك الذي تمخَّض عنه طلب يعقوب ويوحنا أن يجلسا عن يمين المسيح ويساره في مُلكه. وهكذا يكون المسيح قد قدَّم قصة الولد وقبوله كأساس لدخول الملكوت، ثم قصة الملك والمتاجرة بالمواهب الرسولية للحصول على مراكز مرموقة في الملكوت. ويمكن تلخيص النتيجة التي نخرج بها من القصتين أو المثلين في أن الذي عنده هنا مواهب التجارة والربح في الروحيات توزن بقبول الأقل والأصغر والأضعف وغير الموجود عند ذاته. وهذا يلفت نظرنا إلى الرد على هذه الأسئلة: لماذا تعمل؟ وبأي روح تعمل؟ ولمن تعمل؟ علماً بأن جميع الأعمال تُحسب بالروح التي عُملت بها وليس بكميتها، ويُجازَى عنها، ليس بأهميتها، ولكن بروح إنكار الذات وقوة الإيمان بالاسم الذي عُملت بها.

(ب) قصة عمال الكَرْم والدينار الواحد للجميع

في ذات الموضوع الذي كان يشغل التلاميذ، وهو موضوع مَنْ هو الأعظم في الملكوت؟ ومَنْ هو الذي يجلس عن يمين الملك وعن يساره؟ وكيف توزَّع الأنصبة فوق؟ يجيء هذا المَثَل عن الكرم والفعلة والدينار الواحد.

وتتلخَّص القصة في أن رجلاً رب بيت له كَرْم، خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه، فاتفق معهم على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه. ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطَّالين فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم، فمضوا. وخرج نحو الساعة السادسة والساعة التاسعة وفعل كذلك. ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطَّالين، فسألهم لماذا وقفتم هنا طول النهار بطَّالين؟ فردُّوا: إنهم لم يستأجرهم أحد. فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله: «ادْعُ الفَعَلَة وأعطهم الأُجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً. فلمَّا جاء الأولون ظنوا أَنهم يأخذون أكثر. فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً. وفيما هم يأخذون تذمَّروا على رب البيت قائلين: هؤلاء الآخِرون عملوا ساعة واحدة، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثِقَل النهار والحر» فأجاب رب البيت وقال لواحد منهم: «يا صاحب، ما ظلمتك! أما اتفقت معي على دينار؟ فخُذ الذي لك واذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك، أَوَ مَا يحل لي أن أفعل ما أريد بما لي؟ أم عينك شريرة لأني أنا صالح؟ هكذا يكون الآخِرون أوَّلين والأوَّلون آخِرين، لأن كثيرين يُدعون وقليلين يُنتخبون!» (انظر: مت 20: 1-16)

واضح أن قصد المسيح هنا من القصة يكمِّل قوله في الأمثلة السابقة عن العمل والاستحقاق، وتجيء هذه القصة لتؤكِّد أنه ليس هناك في الملكوت استحقاق على عمل! وبالتالي لا كرامة ولا تعويض عن عمل سابق كان ما كان.

ولكي نلقي ضوءاً على مضمون هذه القصة المثيرة يلزمنا أن نرفعها إلى منظرين: منظر أثناء العمل على الأرض، ومنظر أعلى في السماء. ولنبدأ بالمنظر العلوي حيث نجد جميع الذين أطاعوا الإيمان وقد قبلوا التجديد الروحي وكانوا حارين **عاملين بالروح**، سواء منهم مَنْ جاءوا في الزمان المبكِّر جداً أو الذين اختتم بهم المسيح أعماله على الأرض، نجدهم كلهم شركاء في نعمة الله وسعادة الحياة الأبدية.

فإذا عدنا إلى صورهم وهم يعملون جاهدين في حياتهم السابقة نجد التفاوت هائلاً بين القامات والأعمال والجهد المبذول وأنواع الألقاب والضيقات. كما نجد تفاوتاً هائلاً في الظن بالأجرة، فمنهم مَنْ يطلب حقه بالمزيد، ومنهم مَنْ يُسْتَكثر عليه الحق الذي ناله كأصحاب الساعة الحادية عشرة، ومنهم مَنْ يطلب بالتعويض عمَّا ترك كقول بطرس الرسول: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. فماذا يكون لنا؟» (مت 27:19)

ولكن عودة مرَّة أخرى إلى الصورة العليا، فإذا عبرنا عليهم جميعاً نجد أن لا أحداً يطلب شيئاً له، فالكل يحسب نفسه أنه أخذ ما لا يحق له، فالنعمة فوق قد غمرتهم جميعاً، ولم يعد مجال لاحتياج، وبالتالي إلى سؤال. فالفداء الذي نالوه والرحمة والنعمة فاقت حد العقل. أمَّا الزيادة التي تبدو بين واحد وآخر فهنا المسيح يعزوها لا إلى استحقاق الفاعل، بل إلى صلاحه هو وجوده الإلهي.

ولكن إذا عُدنا إلى مَثَل المواهب والوزنات نجد أن صاحب العشر وزنات ربح عَشْراً، وصاحب الخمس وزنات ربح خَمْساً. فصاحب العشر وزنات استؤمن على عشر مُدن فوق؛ وأمَّا صاحب الخمس وزنات على خَمْساً، حيث تفاوت المواهب الممنوحة أصلاً هو الذي أحدث تفاوتاً في الربح. فاستخدم الله هذا التفاوت في المواهب وتوزيعها لحساب العمل فوق وليس عن استحقاق أو تكريم للعمل تحت. لهذا يُعتبر مَثَل الوزنات مكمِّلاً تعليمياً بديعاً لَمثَل الدينار الواحد في مَثَل فعلة الكرم.

أمَّا القصد من القول إن الآخِرين أولون والأولين آخِرون، فهو بسبب التساوي فوق بين الأولين والآخِرين سواءً بسواء، فليس ثمة تمييزٍ بين الأولين والآخرين. فالامتياز متساوٍ.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن هذا المَثَل ـ مَثَل الدينار للجميع الذي يشير إلى النعمة للجميع ـ يعطي للمبدأ اللاهوتي الذي انشغل به بولس الرسول انشغالاً كبيراً جداً ملأ منهجه الروحي من أوله إلى آخره: «بالنعمة أنتم مخلَّصون» (أف 5:2) قوة السند والدفع!!

(ج) لا فضل على واجب

«متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا: إننا عبيد بطَّالون»:

لقد ظن التلاميذ خطأً أن ظهور الملكوت وشيكٌ يحمل ضمناً جزاءً ومكافأة لسيرهم وراء المسيح وعمل مشيئته، أو بلغة فعلة الكرم الأوائل: «احتملنا ثقل النهار والحر!» (مت 12:20). وإذ كان يتحتَّم أن يدخل المسيح أولاً إلى مجده ويترك التلاميذ يخدمون الملكوت الذي دُعُوا إليه، فإن خدموا بالحب دُعوا أحبَّاءَ ونالوا شركة معه في ملكوته، لا كخدام بعد بل كأحباءَ.

فرق بين خادم يعمل ما أُمر به، وابن يعمل لمحبة أبيه. لذلك فعمل الواجب لا يزكِّي عند المسيح. الذي يزكِّي فقط هو عمل المحبة مع إنكار الذات. لذلك فالعبد الذي يعمل بأوامر سيده ليس عنده سبب ولا رصيد أن ينتظر من سيده الشكر على ما عمل، لأنه عمل ما أُمر به وما هو واجب عليه. ولكن إن كان دافع العمل ليس لطاعة الأمر فقط، بل عن حب شديد حتى إلى الموت، فهنا لا يكون العمل واجباً بل صار حبًّا، ولا هو على قدر الأمر وتنفيذه، بل زاد حتى صار أكثر من الأمر وأكثر من المطلوب. حينئذ يصير العمل، ليس عمل عبد بل عمل ابن؛ ويصير الاستحقاق هو استحقاق حُبٍّ، وليس استحقاق جُهد.

هذا هو مضمون التعليم الذي قدَّمه المسيح في هذا المَثَل:

+ «ومَنْ منكم له عبدٌ يحرث أو يرعَى، يقول له إذا دخل من الحقل: تقدَّم سريعاً واتَّكئ. بل ألا يقول له: (هوذا أنت جئت ...) أَعْدِدْ ما أتعشَّى به، وتمنطق واخدمني حتى آكل وأشرب، وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت. فهل لذلك العبد فضلٌ لأنه فعل ما أُمر به؟ لا أظن. كذلك أنتم أيضاً، **متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا: إننا عبيدٌ بطَّالون**(1). **لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا.**» (لو 17: 7-10)

هذا الدرس المفيد والبليغ أعطاه المسيح لتلاميذه خاصة، بعد ما بدر منهم ما بدر من عراك على مَنْ هو أعظم في ملكوت الله؟ وعلى مَنْ أراد الجلوس عن يمينه ويساره في ملكه. فإذا أُضيف هذا المَثَل للأمثال السابقة عن العمل: مَثَل الوزنات والمتاجرة الروحية بها، ومَثَل عمال الكرم أصحاب الدينار الواحد، يُضاف لهما هذا المثل للعبد الذي ليس له فضل فيما عمل من الواجب الذي أُمر به؛ يكون عندنا منهج عجيب لفلسفة المسيح في العمل والجزاء في المسيحية.

111 - مريم تدهن المسيح بمسحة التكفين

ابتدأ المسيح رحلته من أريحا إلى بيت عنيا قبل الفصح بسبعة أيام، وكان ذلك يوم الجمعة فجراً على أن يصلوا إلى بيت عنيا قبل المساء، أي قبل دخول السبت، على أن يقضي يوم السبت للاستراحة في بيت لعازر ومريم ومرثا. وكان عشاء السبت بشبه وليمة حيث أكل المسيح مع الذي أقامه من بين الأموات. ولكن المفاجأة كانت من مريم، إذ بينما أختها تخدم المائدة كالعادة، جاءت مريم من خلف المسيح وهو متكئ وسكبت زجاجة من طيب "ناردين Spikenard" غالي الثمن على

قدميه ومسحتهما بشعر رأسها، وذلك بمثابة تكريم الضيافة، حيث كان في الأصل يتقدَّم العبد ويغسل رجلي الضيف بماء دافئ ليزيل عنه التعب من وعثاء السفر. وكان أن امتلأ البيت برائحة الناردين. وهنا ظهر التلميذ الذي تعيَّن أن يكون خائناً لسيده، فلم يحتمل تكريم المسيح إلى هذا الحد، ونفَّث عن غيظه لمَّا رأى في هذا البذخ إتلافاً للمال فقال: «لماذا لم يُبَعْ هذا الطيب بثلاث مئة دينار ويُعطَ للفقراء» ويرد الكتاب هكذا: «قال هذا ليس لأنه كان يُبالي بالفقراء، بل لأنه كان سارقاً وكان الصندوق عنده، وكان يحمل ما يُلقى فيه» (يو 12: 5و6). فتحرَّك المسيح ليدافع عن عمل المحبة: «اتركوها. إنها ليوم تكفيني قد حفظته. لأن الفقراء معكم في كل حين، وأمَّا أنا فلست معكم في كل حين.» (يو 12: 7و8)

لم يكن يهوذا الإسخريوطي على مستوى عمل المحبة، ولم يَطِقْ مشاعر الأمانة للمسيح لأن فكرة الخيانة كانت تأكل قلبه. وكان ق. يوحنا أول مَنْ كشف في إنجيله عن اسم التلميذ (يهوذا) الذي اعترض على هذا العمل وعن السبب الحقيقي الذي جعله يقول ذلك. ويبدو أن ق. يوحنا كان يتكلَّم بما كان يعرفه بقية التلاميذ. ولكن المدهش أن المسيح لم يعبِّر عن شعوره بشيء لأنه كان وديعاً وهادئاً هدوء الطفل، وهو عالم أنه سيسلِّمه. أمَّا تعليق يهوذا الوقح على هذا العمل الخارج من مشاعر نبيلة، فكان كشفاً لما يحسّه من انهيار روح الأمانة والتمجيد لمعلِّمه. أمَّا تعليق المسيح، فكان محاولة لإيقاظ قلوب التلاميذ الغافلة على أنه سيؤخذ منهم وشيكاً!! إذ أشار أن اليوم، وهو سبت، قد سبقت مريم وكفَّنت الجسد الذي سيقضي السبت القادم مسجًّى في قبر!

الباب الثاني

من الدخول المنتصر إلى أُورشليم حتى الصعود

الفصل الأول

من الدخول المنتصر إلى أُورشليم حتى العشاء الأخير

112 - دخول المسيح أُورشليم دخول الملك الظافر

كانت أُورشليم قد اكتظَّت بالحجاج الآتين من الشتات من كل أجناس العالم. ويمكن أن تتعرَّف على أجناس الشعوب التي انطلقوا منها كما جاءت في سفر الأعمال: «... فرتيون وماديون وعيلاميون، والساكنون ما بين النهرين، واليهودية وكبدوكية وبُنتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر، ونواحي ليبيَّة التي نحو القيروان، والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء، كريتيون وعرب ...» (أع 2: 8-11). وكان متوسط عددهم بحسب يوسيفوس(1) بالإحصاء أيام نيرون 2.700.000 حاج.

وكانت أخبار إقامة لعازر من الموت قد ملأت أُورشليم في كل أرجائها، وأحدثت حماساً وتوثباً شديداً من نحو المسيح. وبمجرَّد أن انقضى السبت اندفعت الجموع إلى بيت عنيا لينظروا يسوع وأيضاً لعازر الذي أقامه من بين الأموات، ليروه رؤية العين ويسألوه إن أمكن: «فعلم جمع كثير من اليهود أنه هناك (في بيت عنيا)، فجاءوا - ليس لأجل يسوع فقط - بل لينظروا أيضاً لعازر الذي أقامه من الأموات» (يو 12:9)، وغالباً كان ذلك يوم الأحد.

ومن ملابسات الحوادث التي تدخَّل فيها المسيح بنفسه لإعداد موكب الدخول إلى أُورشليم، يتيقَّن عندنا أن المسيح قد خطَّط لهذا الدخول، وإلاَّ فإنه كان يمكن أن يتحاشى الدخول وسط هذه الجموع كعادته. ولكن لأول مرَّة نرى أن المسيح يدبِّر موكبه الظافر في أثناء دخوله أُورشليم، مما يوجِّه فكرنا أنه عزم أن يتحدَّى السلطات اليهودية ويرفع هيجان حفيظتهم لدرجة محاولة القبض عليه، لأنه حدَّد أن يكون الفصح هو يومه الذي يموت فيه على مستوى التدبير الإلهي.

وهنا كان مظهره وهو داخل أُورشليم، ليس على هيئة المعلِّم السابق، بل بهيئة الملك الظافر، ولكن ليس بخطة منفصلة عن حياته العادية وسط تلاميذه. فارتأى لأول وهلة أن يستسلم لغيرة الشعب ولا يتدخَّل لإسكات الجموع الحاشدة وهي تتبعه وتتقدَّمه هاتفة بأصوات رجَّت أُورشليم: "أوصنَّا في الأعالي أوصنَّا لابن داود"، لأنه كان يرى في تلقائية الشعب الصورة الصحيحة لمجيء

---

(1) **Josephus, *B.J.* vi, 9, § 3.**

الملكوت والاحتفاء به والإعلان عنه، باعتباره المسيَّا الآتي ليخلِّص إسرائيل وكل مَنْ يؤمن به من الشعوب. فكان دخوله كالملك الظافر وسط حشود الشعب اليهودي الآتي من كافة أرجاء العالم الصورة الصحيحة لمناداته بالملكوت وتعليمه هذه السنين الثلاث ونصف، حين تلاقت ساعة السماء مع ساعة الأرض في بؤرة الصليب. فكان دخول المسيح كالملك الظافر القادم لفداء شعبه والعالم الإجابة الملحَّة لكل أعماله السابقة، بل لكل التوراة والأنبياء. فارتفع الحدث ليكون حدث العالم الفريد منذ الدهور.

وكون الإنجيل بحسب القديس يوحنا يؤكِّد أن المسيح طلب بنفسه الجحش الذي يركبه، لا يُخرج المنظر عن تلقائية عادية؛ فكون المسيح يمشي على قدميه وسط هذه الجموع الحاشدة أمرٌ مرفوضٌ، بمعنى أن ركوبه على الجحش كان أمراً أساسياً تفرضه الساعة وظروفها. ولكن كونه يتمشَّى مع نبوَّة زكريا، فهذا يأتي وفاقاً وليس عمداً ككل أعمال المسيح.

أمَّا جمهرة الشعب من حوله، فقد فرضتها معجزة إقامة لعازر من الموت التي جعلت المسيح يسير في موكب فريد من نوعه، ألوف مؤلَّفة سارت وراءه، الذين أتوا ليروا لعازر، وألوف مؤلَّفة خرجت من أُورشليم إذ سمعوا ضجيج الهتاف آتياً من بعيد. فالمسيح لم يصنع هذا الموكب الظافر الفريد للملك الآتي باسم الرب، ولكنه رضي به ورآه الصورة الصحيحة لتلقائية الشعب الذي آمن بحسِّه ووجدانه بأنه هو المسيَّا الآتي الذي أتى، لولا أن رؤساء اليهود قد حجزوا صوته هذه السنين التي علَّم فيها كلها. ولكن كان مظهر الملك الآتي باسم الرب ليس كأي ملك آخر. فقد أتى وديعاً ومتواضعاً كملك للسلام. يشهد على ذلك سعف النخل بدل السيوف، والجحش الصغير الذي بالكاد قادر أن يحمل المسيح رمز البساطة والمسكنة بدل الخيول المطهَّمة. والشعب السائر ليس في نظام العساكر المدرَّبة بل تغشاه النسوة ويغلب عليه الأطفال الذين يصيحون بـ"أوصنَّا" بكل صياح، والذين ضجَّ رؤساء الكهنة من صياحهم الذي كان يسد الآذان. كان موكباً سلامياً بكل كلام وكل معنى! وإن كان قد حاول التلاميذ أن يجعلوا هتاف الشعب الذي يتقدَّم والذي يرد عليه الشعب الذي يتبع على صورة الأنتيفونا التي اشتهر بها التسبيح لله، فقد أتى جزافاً وبلا نظام مُحكم. وكانت الآية التي سيطرت على قلوب الشعب وهتافه هي آية المزمور (118: 25و26): «هوشعنا! يا رب خلِّص! مبارك الآتي باسم الرب»

أمَّا موقف الفرِّيسيين فكان سلبياً للغاية، فقد أنكروا في أنفسهم إعلان أنه مسيَّا دون رأيهم وتحرَّكوا محاولين أن يُسكتوا الجمع و لم يستطيعوا، فلمَّا يئسوا قالوا لبعضهم: «انظروا إنكم لا

تنفعون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو 12: 19)

فلمَّا دخل المسيح المدينة تقدَّم الفرِّيسيون باحتجاج يطلبون إليه أن يُسكت الجمع والتلاميذ: «يا معلِّم انتهر تلاميذك. فأجاب (المسيح) وقال لهم: أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ» (لو 19: 39و40). أمَّا الفرِّيسيون الذين تحمَّسوا لهذا فهم الآتون مع القوافل من الجليل. أمَّا الكهنة فانفلت زمام غيظهم لَّما وجدوا الأولاد يصيحون داخل الهيكل: "أوصنَّا": «فلمَّا رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التي صنع، والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون: أوصنَّا لابن داود، غضبوا وقالوا له: أتسمع ما يقول هؤلاء؟ فقال لهم يسوع: نعم! أما قرأتم قط: من أفواه الأطفال والرُّضَّع هيأت تسبيحاً؟ »(مت 21: 15و16 وانظر مز 8: 2)

حدث كبير وأمر بلغ معناه إلى أعلى وأقصى ما يمكن أن يعبِّر الشعب البسيط والأطفال عنه، إنه وإن لم يزلزل الأرض فقد زلزل التاريخ، فابن الله قادم ليسلِّم جسده ليُصلب في وداعة الحمل وليس فقط في بساطة الملوك. والذين يهلِّلون والذين يصرخون كانوا كمن يردِّد صدى الحدث الذي رنَّ في السماء، وكان المشهد كفيلاً أن يحرِّك مشاعر أقسى القلوب وأضيق العقول. ولكن ضاق صدر الفرِّيسيين ورؤساء الكهنة بالآتي حاملاً مجداً لإسرائيل ونوراً للأُمم. وحينما ردَّ المسيح على ضيقهم بأنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ، كشف مدى رسمية الموكب في عُرف المسيح وتدبير السماء، بل مدى ما يحمل دخول المسيح أُورشليم ليُصلب من تحقيق مئات النبوَّات وآلاف السنين من إعداد وانتظار. فإن كان إسرائيل قد تاه عن فاديه وسُدَّ قلبه ولسانه، فالخليقة تصرخ حجارتها لأنها بانتظار فاديها.

113 - المسيح يبكي أُورشليم

دخلها كثيراً وأحبها، وصلَّى فيها مع المصلِّين. شفى مرضاها، وعزَّى بؤساءها، وكان يحمل لها بين ضلوعه قلباً يخفق بأمجادها ويكرِّم تاريخها وآباءها ويحنّ إلى ملوكها وأنبيائها. جاءها يحمل لها حب خالقها وفاديها، فما أحسَّت به وما درت بوجوده. أعمى قلبَها معلِّموها، والذين تولُّوا العبادة فيها استعبدوها وأطفأوا روحها وأوغروا صدرها على عريسها، فدبَّرت لذبحه يوم عيدها. "بكى عليها"، لأنه رأى يوم خرابها، فحدَّثها حديث عريس لعروس: «إنك لو علمت أنتِ أيضاً حتى في يومكِ هذا ما هو لسلامكِ!؟ ولكن الآن قد أُخفي عن عينيكِ. فإنه ستأتي أيام ويحيط بكِ أعداؤكِ بمترسة، ويحدقون بكِ ويحاصرونكِ من كل جهة، ويهدمونكِ وبنيكِ فيكِ، ولا يتركون فيكِ حجراً على حجر،

لأنكِ لم تعرفي زمان افتقادكِ» (لو 19: 42-44). وكان يعلِّم بالنهار ويذهب ليبيت في بيت عنيا.

114 - لعن شجرة التين

موضوع شجرة التين يحتل جزءاً هاماً في هذه الأيام الأخيرة، وخاصة بعد أن بكى المسيح أُورشليم ورثاها وتنبَّأ بخرابها. فالمسيح وهو ذاهب من بيت عنيا إلى أُورشليم في الصباح جاع، فنظر شجرة تين من بعيد مورقة وكأنها مثمرة. فذهب نحوها ليأكل من تينها، فلمَّا وجدها غير مثمرة لعنها: «لا يأكل أحد منكِ ثمراً بعد إلى الأبد» (مر 11:14)، فيبست التينة في الحال. وقد كان. فقد مرَّ التلاميذ عليها في الغد فوجدوها أنها قد ذبلت. فهنا في الحقيقة، كما يبدو في الظاهر، معجزة: «كيف يبست التينة في الحال» (مت 21:20)؟ كل معجزات المسيح السابقة كانت بدافع المحبة وذاتَ ثمرٍ للمحبة واضح. فلماذا ـ إذن ـ هذه المعجزة وكأنها تأديبية لخليقة لا تحس ولا تشعر؟ وبلا ذنب اقتُرِف. فهي بهذا تختلف كثيراً جداً عن باقي أعمال المسيح الأخرى، لأنه لم يأتِ ليهدم بل ليكمِّل ويشفي ويحيي!

ولكن واضح أن في هذا العمل كلِّه نوعاً من الرمزية عنيفاً ومستتراً. ولهذا العمل علاقة جدّ شديدة وخطيرة بالموقف القائم بعد خدمة المسيح الطويلة وقد بلغت النهاية فعلاً، ببكائه على أُورشليم وتنبُّئه بخرابها. أليس في هذا العمل تعبير عن مظهر الأُمة اليهودية التي تبدو كشجرة التين الخضراء الجميلة من الخارج، وهي من الداخل عفنة شبه ميتة غير مثمرة البتة! عَمِلَ فيها صاحب الكرم المستحيل لثلاث سنوات مضت لكي تفْلَح فلم تفْلَح. أليس في وقوفها هكذا في بستان الله عقيمة غير مثمرة ومورقة بمظهر كاذب تعطيل لأرض السلام وتزييف لأشجار الله وإحباط لعمل المسيح الذي عمل؟ لقد عُرفت شجرة التين بين الأشجار الطيبة أنها تكني عن الأُمة اليهودية، وهذه الأُمة اليهودية رفعت يدها على بعلها وجابلها تتوهَّم أن بقتله تستقل عن خالقها، فحكمت على نفسها بالهلاك لتخرج من دائرة ملكه قبل أن يُنصَّب هو ملكاً على الصليب.

وهكذا كان لابد، وقبل أن تمد يدها بخلع «غصن يسَّى» من أرض ميراثه، أن تتقبَّل اللعنة إلى الأبد. وما صنع المسيح بأكثر مما صنعت الأُمة اليهودية في نفسها، فهي بواقعها الداخلي الذي تعفن وذبل واستقال من مجرى حياة مصيرها الموضوع، تركت إلهها مصدر الوجود والحياة، فحكمت على نفسها ـ قبل أن تحكم على المسيح ـ بالفناء الوشيك. فالمسيح بلعن شجرة التين لم يَزِدْ عن مجرَّد إعلان وفاة قبل الحدث. ولم يشرح المسيح لتلاميذه معنى موت التينة، لأنه شرحه لمَّا بكى على

أُورشليم. لقد رثاها بدموعه قبل أن يأمر بجفافها. وهناك هناك في بداية خدمته رأى هذه التينة عينها وتكلَّم عن قطعها: «كان لواحد شجرة تين مغروسة في كرمه ـ و لم يكن هذا الواحد إلاَّ الواحد الوحيد ـ فأتى يطلب فيها ثمراً و لم يجد. فقال للكرَّام: هوذا ثلاث سنين آتي أطلب ثمراً في هذه التينة و لم أجد. اقطعها. لماذا تُبَطِّل الأرض أيضاً؟» (لو 13: 6و7). فبناءً على توسُّل الكرَّام أبقاها سنة أخرى، فلمَّا جاء ميعاد التين و لم يجد فيها ثمراً قطعها!! «يا سيد، اتركها هذه السنة أيضاً، حتى أَنْقُب حولها وأضع زبلاً. فإن صنعت ثمراً، وإلاَّ ففيما بعد تقطعها» (لو 13: 8و9). وهكذا لم يصنع المسيح إلاَّ ما صنعه الكرَّام، ففكَّ لغز المَثَل.

115 - تطهير الهيكل

+ «ولمَّا دخل الهيكل ابتدأ يُخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه. قائلاً لهم: مكتوب إن بيتي بيت الصلاة. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص.» (لو 19: 45و46)

ويضيف ق. يوحنا هذه الآيات:

+ «ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً، والصَّيارف جلوساً. فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكبَّ دراهم الصيارف وقلَّب موائدهم. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة.» (يو 2: 14-16)

ويُلاحِظ القارئ أن ق. يوحنا يسجِّل هذه الحادثة في بداية إنجيله قبل البدء بالخدمة العامة، في حين أن القديس مرقس يضعها قرب النهاية في الأصحاح (11) وق. متى في الأصحاح (21).

وهكذا يكشف ق. يوحنا بوضوح أن تطهير الهيكل يُعتبر جزءاً هاماً من منهج العهد الجديد، بل ويُحسب أساساً له. بمفهوم أن المسيح منذ البدء كان مزمعاً أن يلغي الذبائح كلها بكل أنواعها وكل ما يترتب عليها من بيع وشراء وطقوس ذبح وحريق، كما أراد أن يحدِّد العبادة والصلاة بالحدود الروحية الخالصة دون خلط بالأمور المادية. فهو القائل للسامرية التي أرادت أن تعرف العبادة والسجود بالحق إنه لا في أُورشليم ولا في جرزيم ينبغي السجود، لأن الله روح، والساجدون له ينبغي أن يسجدوا بالروح والحق، والله طالب مثل هؤلاء الساجدين. أي أن الله يفرض العبادة والسجود فرضاً، ولكن على المستوى الروحي الصرف، فلا مدينة ولا جبل ولا هيكل بالحجارة ولا شواهق المنارات والقباب الضخمة ولا مذهبات ولا فضيات. فهذه كلها حسبها المسيح خروجاً عن روح العبادة، وبالتالي عمَّا يطلبه الله في العبادة، ومن العابدين.

لذلك لمَّا تصدَّى اليهود الذين كانوا ينظرون المسيح وهو يطرد الحيوانات والبائعين والشارين معاً وسألوه: «أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟» (يو 18:2)، بمعنى: أثْبِتْ لنا أنك أهل أن تصنع هذا العمل العظيم، لأن الهيكل كان عندهم أقدس المقدسات وهيبته من هيبة الله. فمَنْ ذا الذي يصنع مثل هذه الأعمال بهيكل الله؟ فكان رد المسيح بمنتهى القوة والإعلان عن بدء العهد الجديد، عهد العبادة بالروح، حيث هيكل العبادة هو هيكل المسيح القائم من بين الأموات، الجسد الروحاني الذي سلَّمه لنا ليكون فينا ويكون هو هو هيكل الله وروح الله يسكن فيه: «أجاب يسوع وقال لهم: انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقيمه ... وأمَّا هو فكان يقول عن هيكل جسده، فلمَّا قام من الأموات تذكَّر تلاميذه!!» (يو 2: 19و21و22)، «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم» (1كو 16:3). من هذا يتبيَّن للقارئ حتمية البدء بنقض الهيكل كأساس لبناء الهيكل الجديد الذي خدم المسيح شكله الإلهي ثلاث سنوات وبناه في ثلاثة أيام!!

وعندما دخل المسيح أُورشليم دخل كنبي يلبِّي الدعوة، وقد حقَّقها بعمل المعجزات، وهتف الشعب معترفاً بنبوَّته: «ولمَّا دخل أُورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: مَنْ هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (مت 21: 11و12). ولمَّا دخل الهيكل وجده يموج بالتجَّار والبائعين والشارين وبهائم الذبح وباعة الحمام والصيارفة، وذهبت هيبة الهيكل والصلاة واسم الله. كان منظراً أهاج في نفسه روح العبادة الحقة ومقاومة الفساد والمفسدين، وأظهر غضبه وصنع من بعض الحبال ما يشبه السوط وأخذ يطرد الجميع خارج الهيكل: «ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يو 16:2). ولم يكن المسيح في موقع المقاومة، ولكن كمن يُخيف المعتدين على المقدَّسات من وجهة نظر الله. ولم يكن هذا العمل أكثر من إظهار سلطان الله الذي يخيف الناس بلا إيذاء(2).

---

(2) [كانت التعليمات الصارمة بخصوص الدخول إلى الهيكل تمنع الظهور على جبل الهيكل نفسه بعصا السير أو حمولة أو حتى بأقدام معفَّرة بالتراب، وكان يُمنع البصاق، بل وممنوع الدخول بأحزمة بها أموال. وعلى الداخل للهيكل أن يخلع نعليه خارجاً. لذلك كانت أعمال المسيح قد لاقت استحساناً من جميع الشعب. ولكن هذا العمل أهاج غضب رؤساء الكهنة، ولم يستطع السنهدرين أن يُبدي حراكاً خوفاً من الشعب؛ بل وحتى ضُبَّاط وجنود الرومان لم يجدوا فرصة أو سبباً للتدخُّل. فالعملية لم تستغرق وقتاً طويلاً وكان ملايين الحجاج يغص بهم الهيكل والمدينة كلها ـ ولكن ما أراده المسيح تحقَّق له، أن الشعب ينتبه إلى تجاوزات رجال السنهدرين ويستيقظ لحقوق الله وواجبات العبادة الحقة ـ وقد كتم رؤساء الكهنة والكتبة والفرِّيسيون غيظهم إلى المساء حتى يواجهوه، ولكنه ترك الهيكل وخرج وذهب ليبيت في جبل الزيتون].

J. Klausner, *Jesus of Nazareth,* (1926), pp. 312-315.

116 - بدء تحرُّك الفريسيين

(الحركة الأُولى: بأي سلطان تفعل هذا؟):

لم يكن دخول المسيح أُورشليم بموكبه الملكي الظافر وآلاف الهتافات بهوشعنا يمرُّ بسلام على الفرِّيسيين، ومعه الإحساس بالمرارة التي خلَّفتها إقامة لعازر من الموت جهاراً وإشاعة الخبر في كل البلاد. وبلغ غيظهم القمة لَمَّا رأوه يطرد الباعة من الهيكل بقوة وسلطان مثير. فقد تحرَّك الجزء الأكثر انفعالاً في السنهدرين لوضع نهاية حتمية للمسيح. وقد كان العامل الأساسي للتحرُّك هو دخوله أُورشليم بموكب الملك الظافر، ولم يعلموا في الحقيقة أنه إنما صنع ذلك عامداً لكي يسرعوا هم أيضاً بالعمل الذي خطَّطوا له في السر ـ أي قتله ـ والذي أرادوه أن لا يكون في العيد، والذي أراده هو وحتَّم به أن يكون في العيد؛ وهم تحاشوا الشعب، وهو أراد اشتراك الشعب، لأن الضحية ضحيتهم والذبيحة ذبيحتهم. وكانوا قد أذاعوا خبراً سريًّا مرَّروه بينهم هكذا: «فكانوا يطلبون يسوع ويقولون فيما بينهم، وهم واقفون في الهيكل: ماذا تظنون؟ هل هو لا يأتي إلى العيد؟ وكان أيضاً رؤساء الكهنة والفرِّيسيون قد أصدروا أمراً أنه إن عرف أحد أين هو فليَدُلَّ عليه، لكي يمسكوه.» (يو 11: 56و57)

لذلك كان دخوله المظفَّر العلني بهتاف يشق عنان السماء بـ"مبارك الآتي باسم الرب، ومباركة هي مملكة أبينا داود"، أمراً مفاجئاً جداً وغير مصدَّق عند السنهدرين، وكأنه ضربة قاصمة نزلت على ظهورهم. فنظروا إلى الموكب بحسرة بالغة وعبَّروا عن كل مخاوفهم وأحقادهم معاً: «انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو 19:12)

أمَّا قبل الموكب وهو لا يزال في بيت عنيا، فكانت النية هي مداهمته والقبض عليه وقتله، ربما اغتيالاً وربما قتلاً، بحسب الناموس ادعاءً: «وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه. ولكنهم قالوا: ليس في العيد لئلاَّ يكون شغب في الشعب» (مت 26: 4و5). ولكن يسوع تشاور أيضاً مع الآب أنه يتحتَّم أن يكون في العيد! على أن التهم وشهود الزور كانوا جاهزين، إذ قد تجمَّعت أدلة كثيرة من الذين يتسقَّطون الأخبار ويتخابرون لحساب السنهدرين. ولكن، وبصورة رسمية، أوفد السنهدرين بعضاً من رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب للمسيح وهو يعلِّم في الهيكل، لكي يستجوبوه رسمياً في مَنْ هو؟ وما هو سلطانه في أعماله هذه كلها؟ ليفوزوا بتصريح منه يأخذونه ضدَّه كمستند رسمي. «ولَمَّا جاء إلى الهيكل تقدَّم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلِّم قائلين: بأي سلطان تفعل هذا، ومَنْ أعطاك هذا السلطان؟» (مت 23:21). وكانت بغيتهم أنه سيتكلَّم عن نفسه

وعلاقته بالله وعن سلطانه في كل ذلك، ولكنه خيَّب أملهم وأوقعهم في مأزق خطر كان يمكن أن يثير عليهم كل الشعب؛ إذ حوَّل سؤالهم إلى سؤال منه إليهم هكذا: «وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة، فإن قلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضاً بأي سلطان أفعل هذا: معمودية يوحنا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟» (مت 21: 24و25). فتحيَّروا حيرة شديدة، لأنهم لو قالوا: من السماء، وهي كذلك، يقول لهم: ولماذا لم تؤمنوا به؟ وإن قالوا: من الناس، تكون الطامة أكبر، لأن يوحنا معروف عند كل الشعب أنه نبي: «فأجابوا يسوع وقالوا: لا نعلم» «فقال لهم هو أيضاً: ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا» (مت 27:21). ولو أنه بسؤاله هذا ألمح أن سلطان المعمدان هو من سلطان المسيح لأنه السابق والمعمِّد له. وبصريح العبارة، أفهمهم بلا كلام أن سلطانه من الله الذي أنكروه في يوحنا. وفي نفس الوقت، سجَّل عليهم عدم إيمانهم بسلطان المعمدان، وبالتالي مخالفة تدبير الله.

117 - تحرُّك الفرِّيسيين والهيرودسيين

(الحركة الثانية: أنعطي جزية لقيصر أم لا؟):

وهنا كان التدبير مشتركاً بين الفرِّيسيين والهيرودسيين مع أنهم في عداوة وبغضة معاً ومبادئهم تختلف مع بعضها اختلافاً شديداً، ولكن العداوة للمسيح قد جمعتهم معاً ليتقدَّموا وكأنهم يسألون مجرَّد سؤال: «يا معلِّم، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، بل بالحق تعلِّم طريق الله» (مر 14:12). مقدِّمة مؤدَّبة غاية الأدب وإطراء ومديح بالكيل الوافر والنيَّة السوداء مخبَّأة في القلب، وأخيراً أفصحوا عنها: «أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ نعطي أم لا نعطي؟» (مر 14:12). ولكن المحزن حقـًّا أنهم يتكلَّمون ويخطِّطون في الخفاء ويتكلَّمون من وراء ظهر المسيح، والمسيح يسمع ويرى: «فعلم (المسيح) رياءهم، وقال لهم: لماذا تجرِّبونني؟ ايتُوني بدينار لأنظره. فأتوا به. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له: لقيصر. فأجاب يسوع وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. فتعجَّبوا منه» (مر 12: 15-17)

وليلاحظ القارئ أن الهيرودسيين هم فئة سياسية أكثر منها دينية، وعملها هو الموالاة لروما وحفظ هدوء الشعب من المؤامرات المضادة لروما. فمجيؤهم هنا وسؤالهم هذا مع الفرِّيسيين هو لتدبير مؤامرة سياسية يكون الفرِّيسيون فيها شهوداً. فلو كان المسيح قد أنكر أحقية الرومان في الجزية المفروضة على اليهود الذين يعتبرون أنفسهم أحراراً ولم يستعبدهم أحد قط، لاعتُبر المسيح زعيماً ثائراً ضد الرومان، أمَّا إذا قبلها فإنه يقع في استنكار اليهود والشعب بأجمعه لأنهم أُمة أبيَّة

ذات ملك فكيف يسلبها أعز صفاها وهي الحرية. ولكن في طلب المسيح للدينار وإظهاره لـــصورة قيصر، يضعهم في بؤرة الحقيقة أهم هم الذين يتعاملون بعملة قيصر، وعليـــه فهـــم يعتمـــدون في سياستهم على الامبراطورية الرومانية. وها هو الدينار الذي يربطهم سياسياً بروما والـــذي يمـــسكه ضدَّهم هو أن أعطوا ما لله لله. والمعنى هو أن علاقتهم بقيصر لا تمنعهم من أن يمارسوا عبـــادهم لله، فهم عبيد الله أولاً وبالدرجة الأُولى، وهم يحملون في كيانهم صورة الله الذي جبلهم ووضع صـــورته فيهم. والكلام فيه تلميح ذكي إلى وقوفه بينهم كحامل لصورة الله وشخصه.

118 - الصدوقيون

(الحركة الثالثة: في القيامة لَمنْ تكون زوجة؟):

حركة مفردة من قبل الصدُّوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالملائكة ولا بالأرواح. تقدَّموا بسؤالهم الذي يضرب في اتجاهين: الأول سلبي وهو استهزاء بعقيدة القيامة، والثاني إيجابي أن الحياة الأخرى هـــي امتداد للحياة الحاضرة. وكان سؤالهم يحمل مشكلة تحتاج إلى حل، وفي الحل ينكشف نوع صحة الإيمان بالقيامة. إذ تخيَّلوا أن إنساناً تزوَّج ومات وترك زوجته بدون إنجاب. والناموس يقول بأن على أخيـــه أن يتزوَّجها ويُنجب لأخيه أولاداً، حتى لا يضيع نسبه من الأسباط، لعلَّ يأتي المسيَّا من نسله. وكـــان هـــذا الأخ الذي مات أحد سبعة إخوة كانوا مصابين بالعقم، ماتوا جميعاً ولم يُنجبوا نسلاً في الحياة الحاضـــرة. ففي القيامة لَمنْ تكون زوجة؟ وفي سؤالهم سخرية بالفريسيين الذين يؤمنون بالقيامة وبالحياة الأخرى، وقد شجَّعهم على مواجهة المسيح بهذا السؤال رؤيتهم كيف أخرس المسيح الفرِّيسيين أمامهم في موضوع قيصر والدينار لعلَّهم يفوزون بشيء يعجز المسيح عنه. ولكن كان المسيح يتقبَّل هذه الأسئلة بصدر رحب حتى يجتث جذور المبادئ والتعاليم الخاطئة. فلهؤلاء الصدوقيين أوضح المسيح صدق القيامة كصدق الله نفسه، لأن الله دُعي إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، والله ليس إله أموات، ولا ينسب نفسه إلى أموات مآلهم إلى العدم حسب ظن الصدوقيين؛ بل هو روح وإله الأرواح، وهو حي وإله الأحياء. فالعلاقة التي تـــربط الإنسان بالله هي علاقة عدم الفناء أو عدم الموت، فالإنسان أصلاً مخلوق حي خُلق ليحيا إلى الأبد، ولكن جاءه الموت ودخل حياته كعقوبة للعصيان على الله للتأديب، على أن الله أرسل ابنه ليرفع عن الإنـــسان عقوبة الموت ويُدخل المختارين من البشر إلى الحياة الأبدية مع الله مرَّة أخرى. بمعنى أن الإنسان مربـــوط أصلاً بالحياة مع اللهَ.

119 - الكتبة

(الحركة الرابعة: أية وصية هي أول الكل؟):

عندما أسكت المسيح الفرِّيسيين والصدوقيين كُلاًّ بدوره، تعاطف معه بعض الكتبة الذين أحبُّوا المسيح فعلاً، ولكن بصورة غير ملحوظة. وهنا تحرَّكوا ليكشفوا في المسيح أعماقاً من المعرفة يعلمون مسبقاً عنها. فابتدروه وكأنه سؤال وإنما هو طلبة لاستعراض عظمة المعلِّم في إدراكه للناموس. وهذا قد ظهر في تعليقهم الأخير عن المسيح، إذ علَّق الكاتب: «جيداً يا معلِّم» (مر 32:12). والسؤال بدأ هكذا: «أيَّة وصية هي أول الكل؟» (مر 28:12). فكان رد المسيح كما في التوراة: «اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأُولى. وثانيةٌ مثلها هي: تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين» (مر 12: 29-31). «فقال له الكاتب: جيداً يا معلِّم. بالحق قلت» ثم عاد الكاتب يثني ما قاله المسيح تأكيداً من عنده لهذا الحق! «لأن الله واحد وليس آخر سواه ومحبته من كل القلب، ومن كل الفهم، ومن كل النفس، ومن كل القدرة، ومحبة القريب كالنفس، هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح» (مر 12: 32و33). فأراح هذا التعقيب صدر المسيح ومدحه وحكم المسيح عليه: «لست بعيداً عن ملكوت الله» (مر 34:12). أمَّا كون هذا الكاتب قريباً من الملكوت وليس بعيداً، فلأنه تخلَّص من خبث الفرِّيسيين وتمسُّكهم بأعمالهم وبرِّهم الذاتي. وأمَّا كونه لا يزال بينه وبين الملكوت خطوة، فهو لأن وعيه لم يستيقظ بعد عن حاجته إلى الفداء والمسيَّا لأن «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو 5:15)

120 - قصة السامري الصالح

(الحركة الخامسة: يرد بها على الناموسي):

وإن كانت هذه القصة قد جاءت في بكور التعليم إلاَّ أن وضعها هنا يكمِّل الصورة. وهي تبدأ بناموسي، وهو من فئة الدكاترة المتخصِّصين في الناموس الذين شغلوا أنفسهم بالأصول الأولي للتوراة والناموس أكثر من التقليد. قام ليجرِّب المسيح وسأله كأنه يطلب الحق والخبث تحت ردائه: «ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» (لو 25:10). فأحاله المسيح على الناموس: «كيف تقرأ؟ فأجاب وقال: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك. فقال له: بالصواب أجبت. اِفعل هذا فتحيا» (لو 10: 26-28). لاحِظ أيها القارئ العزيز، أن المسيح

أضاف على هذه الوصية بالنسبة للرئيس الذي جاءه بنفس الطلب: «بع كل ما لك وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب» (مر 21:10)، لأنه أراد ما بعد الناموس. ولكن، لأن المسيح يعرف هنا أن هذا الناموسي لا يطلب ميراث الحياة الأبدية عن حق بل مجرَّد محاولة لتجربة المسيح، اختصر عند حد الوصية، لأن المحبة هي في الواقع تكميل الناموس. وهكذا ظهر ما خبَّأه الرجل، إذ يقول الكتاب إنه أراد أن يبرِّر نفسه، فقال للمسيح: «ومَنْ هو قريبي؟» (لو 29:10). وهنا أراد المسيح أن يضع حلاًّ أبديًّا **لمَنْ هو قريبي**؟ وهو الذي يقف عنده كل يهودي ويرى أنه اليهودي الذي من جنسه وحسب، ورفعها المسيح ليكون «حتى عدوِّي» ؟

فقال هذه القصة التي تحكي عن إنسان ـ و لم يذكر هويته عمداً ـ كان نازلاً من أُورشليم منحدراً إلى أريحا فوقع بين اللصوص، فعرَّوه وجرَّحوه، ومضوا وتركوه بين الحياة والموت. فَعَرَضَ أن كاهناً أنهى نوبته ونزل إلى قريته، فرأى هذا المجروح المعرَّى شبه الميت ونظر إليه وجاز مقابله. وكذلك أيضاً لاوي، صار عند المكان، وجاء ونظر وجاز مقابله. وأخيراً، مرَّ رجل سامريٌّ كان مسافراً راكباً على دابته، جاء ولمَّا رآه تحنَّن، فتقدَّم وضَمَدَ جراحه، وصبَّ عليها زيتاً وخمراً، وأركبه دابته، وأتى به إلى فندق واعتنى به؛ وفي الغد لمَّا أراد أن يمضي أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق، وأوصاه أن يعتني به، ومهما أنفق أكثر فعند رجوعه وعد أن يوفيه حقه. وهنا نظر المسيح إلى الناموسي وسأله: فمَنْ مِنْ هؤلاء الثلاثة تحسبه قريباً للذي وقع بين اللصوص؟ فردَّ الناموسي: «الذي صنع معه الرحمة» فقال له يسوع: اذهب وافعل أنت أيضاً هكذا! ومعروف أن السامري هو عدو اليهودي!!

121 - ابن داود كيف يكون ربَّه؟

هكذا وفجأة أراد المسيح أن يضرم هذه القضية اللاهوتية وهو يعلِّم في الهيكل والكتبة يسمعون، وهي أن داود النبي في المزمور (1:110) يقول: «قال الرب لربي: اجلس عن يميني، حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فداود نفسه يدعوه ربًّا. فمن أين هو ابنه؟» (مر 12: 36و37). والمعنى الذي يقصده المسيح من سؤاله أنه إن كان داود يتكلَّم عن المسيَّا موضِّحاً أنه ربه فمن أين يكون هو ابنه؟ وقالها ليرد على مَنْ هو المسيَّا الآتي، ابن مَنْ؟ فالمعروف أنه سيكون ابن داود. ومن هنا نشأ السؤال فإن كان ابنه فكيف يدعوه ربه؟ أي أن المسيح ينطلق من الجزء المعروف في التقليد أن المسيَّا هو ابن داود إلى الجزء غير المعروف عن شخصه المبارك أنه رب! وبذلك يبدو أنه أراد الارتفاع بأفكار الذين ينتظرون المسيَّا إلى المستوى الذي يدركون فيه ربوبيته المساوية لله، كابن الله. وذلك تمهيداً لذهنهم لكي يفهموا لماذا يقول ويعيد القول دائماً إن الله أبوه وأنه ابن الله؟ حتى يفهموا أنه إنما يعني بذلك أنه المسيَّا ـ على أن الجلوس عن يمين الله هي درجة مساواة. والكلام في مجموعه عن ابن داود، ثم رب داود، أو الجلوس عن يمين الله؛ إنما يعبِّر عن أمور لا تجوز لإنسان بأي حال من الأحوال. وبهذا يتواجه لقب ابن داود بالمفهوم الجسدي مع لقب رب داود بالمفهوم الإلهي تواجهاً مضاداً يحتاج إلى حل تركه المسيح دون الإشارة إليه، لأن هذا اللقب نبوَّة عن المسيح، وفيه وحده تمَّت بصورة فائقة عن العقل أو المنطق أو أي حلّ بشري. وقد كان هذا اللقب وظلَّ في العهد القديم في إطار النبوَّة فقط. ولكن بعض النبوَّات الأخرى جاءت لتلقي على هذا اللقب ضوءاً يُدخلها في العهد الجديد كنبوَّة تحقَّقت: «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل» الذي تفسيره الله معنا (إش 14:7، مت 23:1)، أو «لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً ...» (إش 6:9)، حيث اجتمع معاً **الابن البشري والإله القدير**. وفي الموضع الآخر يحمل اسمه «**الله معنا**». كل هذه النبوَّات أدخلتنا العهد الجديد، والأصبع يشير بشدَّة على المسيح في ولادته البشرية مع استعلانه الإلهي بآن واحد.

والمسيح بإثارة هذه القضية يضع أساساً يصلح كعتبة للفكر اللاهوتي القادم، فهو يشير إلى استعلان واقع كامل حادث لم يُستعلن بعد بالقدر الكافي، وكأنما من خلال ستارة يحسُّهُ الإنسان ولا يراه.

122 - أعطت الأرملة كل ما عندها

هي مفارقة شديدة الوقع على النفس عندما كان المسيح يتكلَّم عن الكتبة الذين يأكلون بيوت الأرامل ولعلَّة يطيلون الصلوات. ثم بعدها مباشرة، إذ كان جالساً في مواجهة الخزانة التي توضع فيها صناديق العطايا نظر كيف يلقي الجميع نحاساً في الخزانة، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً، وجاءت امرأة فقيرة وألقت فلسين قيمتهما ربع، عبَّر عنها المسيح أهما يمثِّلان كل ما عندها!! فنادى تلاميذه وقال لهم: «الحق أقول لكم: إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة، لأن الجميع من فضلتهم ألقوا. وأمَّا هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها، كل معيشتها» (مر 12: 43و44). وهكذا يقارن المسيح بين قلب كاتب ينهب بيوت الأرامل ويقف يصلِّي، وقلب أرملة تعطي كل ما عندها عطية للرب. ثم يعود ويقارن أغنياء يعطون من فضلة حياهم، وأرملة تعطي كل معيشتها. فهنا قياس العطية ليس بالكميَّة والعدد، بل بمقدار حاجة الإنسان إليها. فالذي يعطي ما لا يحتاجه، ليس كمن يعطي كل ما يحتاجه. فالأُولى عطاء مال، أمَّا الثانية فبذل نفس!!

123 - التنبُّؤ بقضاء الله على أُورشليم

كانت كلمات المسيح الخاصة برؤيته العامة عن أحوال الكتبة والفرِّيسيين بأن صبَّ عليهم الويلات تلو الويلات، لها تأثير واضح على قضاء أُورشليم ذاتها بأشد ما يكون القضاء. فهذا هو حصيد عدم الاستجابة لتعليم المسيح، سواء بالنسبة للمعلِّمين الذين قفلوا بعلمهم ملكوت السموات في وجه الداخلين فامتنع عليهم هم الدخول بالتالي، أو المدن التي رفضت تعليمه بعد أن عمل آياته في الجليل ثم في أُورشليم ذاتها؛ وكأن المسيح قد أخلى الأرض من ساكنيها قبل أن يفرِّغها الرومان بالسيف والدمار، ثم أحرقها بالكلمة قبل أن تحرقها نيران الرومان. وهكذا تمَّت اللعنات في أقرب مواعيدها سواء على العلماء أو الشعب الرافض، وسواء على المدن الصغيرة أو المدينة العظمى أُورشليم.

ففي الأصحاح الثالث والعشرين من إنجيل ق. متى صبَّ المسيح ويلاته على الكتبة والفرِّيسيين هكذا:

- ويل لكم أيها الكتبة والفرِّيسيون المراؤون، لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدَّام الناس.
- ويل لكم أيها الكتبة والفرِّيسيون المراؤون، لأنكم تأكلون بيوت الأرامل.
- ويل لكم أيها الكتبة والفرِّيسيون المراؤون، لأنكم حينما تكسبون دخيلاً واحداً تجعلونه ابناً لجهنم.
- ويل لكم أيها القادة العميان القائلون: مَنْ حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن مَنْ حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيُّها الجهَّال والعميان، أيما أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدِّس الذهب.
- ويل لكم أيها الكتبة والفرِّيسيون المراؤون، لأنكم تعشِّرون النعنع والكمون وتركتم الحق والرحمة والإيمان.
- ويل لكم أيها القادة العميان، لأنكم تصفُّون عن البعوضة وتبلعون الجمل.
- ويل لكم، لأنكم تنقُّون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة.
- ويل لكم، لأنكم تشبهون قبوراً مبيَّضة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم من خارج أبرار ومن داخل مشحونون رياءً وكذباً.
- ويل لكم، لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزيِّنون مدافن الصديقين، وتقولون: لو كنا في أيام آبائنا ما شاركناهم دم الأنبياء، وهكذا تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء.
- أيها الحيات أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم؟
- ها أنا أُرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة. لكي يأتي عليكم كل دم ذكي سُفك على الأرض

من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا ... الحق أقول لكم إن هذا كله يأتي على هذا الجيل. (نحن الآن سنة 30م وخراب أُورشليم وحرق الهيكل وقتل الشعب حدث سنة 70م).

والآن يأتي دور أُورشليم:

+ «يا أُورشليم يا أُورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرَّة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا. هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً! لأني أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن **حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب!** »(مت 23: 37-39)

وهكذا لم يشأ المسيح أن يختم على مجيئه الأول إلاَّ بعد أن يَعِدَ وعداً مؤكَّداً أنه سيأتي ثانية ومعه بركة الآب ليفتح باب الملكوت على مصراعيه.

124 - التنبُّؤ بالأيام الأخيرة ومجيء الملكوت ومجيء المسيح ثانية

بعد ما ترك المسيح الهيكل هو وتلاميذه، وبعد تنبُّئه عن خراب أُورشليم، عزَّ على تلاميذه فخامة الهيكل ولم يتخيَّلوا إمكانية تخريب وإسقاط هذه الحجارة الهائلة بنقوشها ورخامها ـ ولفتوا نظر المسيح إلى ذلك ـ فما كان من المسيح إلاَّ أن يؤكِّد لهم أن هذه الأبنية العظيمة لن يُترك فيها حجر على حجر إلاَّ ويُنقض. هذا أثار فكرهم وخيالهم وهالهم الأمر، فسألوه إذ كانوا جالسين منفردين على جبل الزيتون تجاه الهيكل ـ بطرس ويعقوب ويوحنا ـ متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟

كان من الصعب أن يعطيهم المسيح تصوُّراً كاملاً عن تطور الأمر فيما يخص الحوادث المتعلِّقة باكتمال الزمان وتعاقب الحوادث التي تختص بملكوت السموات، ولكنه بدأ يعطيهم ما يلزم لتوعيتهم ضد الضلالات التي ستحدث، ومعظم الأمور كانت فوق طاقة تصوُّرهم، والتي تركها المسيح لعمل استنارة الذهن بحلول الروح القدس وإمكانية استيعاب الأحداث من تطورها وتدرجها الزمني.

ولكن المسيح اكتفى دائماً بإلقاء بذار الحقيقة، ثم تركها لتنمو مع الحوادث والزمن حتى تُستعلن في حينها. على أن إعطاء صورة دقيقة للحوادث قبل وقوعها، فوق أنها لا تفيدهم شيئاً، فهي غير مناسبة مع طريقة المسيح في بناء الإيمان. فمن جوهر التعليم أن تبقى الحوادث الهامة الخاصة بالإيمان والحياة مخفية حتى حين ظهورها لتعمل عملها الإلهي في الذهن والقلب. وقطع عليهم بالنهاية أي إمكانية لمعرفة مُسْبَقة لميعاد مجيئه: «أمَّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة

السموات، إلاَّ أبي وحده» (مت 36:24). والسبب في ذلك ليس صعباً علينا أن ندركه، فالابن جاء وملائكته معه ليخدم قضية في واقع الزمان، وهي خلاص الإنسان من الخطية والموت وعبودية الباطل والزمن. فحدود عمله يبتدئ بالزمن وينتهي بالزمن، ولكن مجيئه بعد اكتمال الزمن، لا يخص الابن في وضعه الزمني بعد، ولا الملائكة المعيَّنين لخدمة المخلَّصين؛ فهي أمور لا زمنية، هذا من جهة الاختصاص. أمَّا من جهة الصلاحية، فالأمور اللازمنية التي تختص بالمجيء الثاني، لا يمكن بأي حال من الأحوال تحديدها بتاريخ أو حادثة زمانية على أي وجه كان؛ فعلاماتها وحركاتها فوق الزمان، ويستحيل استحالة قاطعة تحديدها أو حصرها لعقل يعمل تحت قياسات الزمن. لذلك قال: لا الملائكة، ولا الابن حال تجسده، يعرف بالفكر الزمني أو يحدِّد بالحوادث الزمنية متى يجيء المسيح!

غير أن هناك عنصراً وسيطاً بين الزمني واللازمني في الحوادث المزمعة أن تكون. بمعنى أن انتهاء الهيكل العام للملكوت الأرضي العالمي المادي سيعقبه استعلان ملكوت الله الحي الروحي في الحال. لذلك أصبحت العلامة الوحيدة التي يمكن رصدها عن: متى سيأتي ملكوت الله؟ هي: متى سينتهي هذا العالم؟ ولهذا فقط بدأ المسيح يتكلَّم عن تغيير وانحلال صورة هذا العالم، وعندما فرغ المسيح من تصوير نهاية هذا الدهر قال: «وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً.» (مر 26:13)

وقد أعطى المسيح علامة زمنية نعرف بها أن نهاية الزمن قد قربت بهاتين الآيتين:

+ «وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كَرْبُ (قلق « sunoc » أُممٍ بحَيْرَةٍ ™n ¢por…a. وتصادم المياه في البحار (حسب الترجمة اليونانية). والناس يُغْشَى عليهم من خوفٍ وانتظارِ ما يأتي على المسكونة، لأن قوات السموات تتزعزع. **وحينئذ** يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحابةٍ بقوة ومجد كثير.» (لو 21: 25-27)

ويعلِّق المسيح على هذه الحوادث وأهميتها لمعرفة النهاية بقوله: «ومتى ابتدأت هذه تكون، فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب» (لو 28:21). بمعنى أن بدء الحركة الأخيرة لنهاية العالم تصبح نقطة انطلاق في التأكيد بالآتي. ثم عاد المسيح هنا وأعطى علامة رمزية واقعية زمانية كان قد سبق ونوَّه عنها: «وقال لهم مثلاً: انظروا إلى شجرة التين (التي لعنها) ... متى أفرخت تنظرون وتعلمون من أنفسكم أن الصيف قد قَرُبَ ...» (لو 21: 29و30). والقصد واضح، وهو الأُمة اليهودية، فإذا رأيتم بدء تجديدها روحياً في الكرم أي الكنيسة، تكون علامة النهاية: «فاعلموا أن ملكوت الله قريب.» (لو 31:21)

125 - مَثَل وليمة الملك في عُرس ابنه

في هذه المدة الزمنية أعطى المسيح، وقبل دخوله في آلامه مباشرة، عدة أمثلة ناطقة بالمعاني التي تدور حول الملكوت. وبدأها ق. متى بعرس ابن الملك والوليمة التي أقامها، إذ قال: إن إنساناً ملكاً صنع عُرساً لابنه، وهكذا ينقل المسيح لنا صورة إبداعية عن إحساسه ونظرته إلى نفسه كعريس، وبآن واحد، ابن الملك. والوليمة هي للفرحة العظمى التي أكمل بها المسيح صليبه وارتفع ومعه البشرية عروسه المفدَّاة، ومسرَّة الآب بالخلاص الذي تمَّ، وإقامته الوليمة الملكوتية الدائمة إلى الأبد. أمَّا الضيوف فهم أعضاء المملكة القديمة في الأُمة اليهودية التي رفضت الحضور كلية. ويدخل المَثَل مباشرة في: كيف أُعدَّ العُرس؟ وهو يشير إلى اكتمال التدبير الإلهي للملكوت، وكيف أرسل الملك خدَّامه (الأنبياء) إلى المدعويين الذين دُعُوا في السابق ومنذ البدء، والآن قد حلَّ ميعاد بدء العُرس. ولكن المدعوين رفضوا. فأرسل عبيداً آخرين (أنبياء) ليؤكِّد: «هوذا غدائي أعددته. ثيراني ومسمَّناتي قد ذُبحت، وكل شيء مُعَدٌّ. تعالوا إلى العرس» (مت 4:22)! وإذ هم يتهاونون بالدعوة والداعي، ومضوا واحد إلى تجارته، والآخر إلى حقله، والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم. فلمَّا سمع الملك غضب، وأرسل جنوده، وأهلك أُولئك القتلة وأحرق مدينتهم! وقد تمَّ ذلك بالفعل.

ثم قال لعبيده: أمَّا العُرس فمستعد، وأمَّا المدعوون فلم يكونوا مستحقين. فاذهبوا إلى مفارق الطرق وكل مَنْ وجدتموه فادعوه إلى العُرس. فخرج أولئك العبيد وجمعوا كل الذين وجدوهم أشراراً وصالحين، فامتلأ العُرس من المتكئين. هنا ثغرة يلزمنا أن نملأها حتى نفهم لماذا «أشراراً وصالحين» إذ أن المدينة أُحرقت فلم يَعُد من يُدعى من المدعوين الأولين، لذلك لزم الذهاب بعيداً للأُمم. وهكذا انفتحت أبواب الملكوت إلى منتهى اتساعها. والمدعوون ـ أشراراً وصالحين ـ اغتسلوا ولبسوا لباس العرس. فلمَّا دخل الملك لينظر المتكئين، رأى إنساناً لم يكن عليه لباس العرس، فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس؟ أمَّا لباس العرس فهو ثوب المعمودية الذي يُكنى به إلى لبس المسيح بالإيمان: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل 27:3). هذا هو الذي رفضه المدعوون الأولون، فحُرموا من العُرس والملكوت. وفي الحقيقة، يُحسب لباس العُرس في هذا المَثَل أنه هو نفسه حَمْل المسيح في القلب في الأعماق، الذي هو مصدر الحياة التي سنحياها في الملكوت: «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل 20:2)، الذي عبَّر عنه المسيح لاهوتياً: «وأنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو 20:14). فهو ليس مجرَّد ثوب يُلبس، بل كيان جديد يُولد: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن

يرى ملكوت الله» (يو 3:3). فالإنسان الجديد الروحي هنا غائب.

126 - الكرَّامون الأردياء الذين قتلوا ابن صاحب الكرم

لقد صوَّر المسيح كيف عامل اليهود أنبياء الله منذ القِدَم وقتلوهم، مع أنهم كانوا يطالبون بحق صاحب الأرض البهية التي أسكنهم إيَّاها؛ ثم كيف في النهاية خطَّطوا ونفَّذوا لقتل المسيح، وهو ابن الله صاحب الأرض والهيكل. إنه تصوير شديد التعبير، صارخ الجرم، ماسكٌ بخناق القتلة بصورة منقطعة النظير.

فإن كان في مَثَل وليمة عرس ابن الملك صوَّر المسيح الملكوت بأعلى ما يمكن أن يتصوَّره إنسان في حفلة ملكية يقيمها الملك لمناسبة عُرس ابنه الوحيد المحبوب، وصوَّر فيه رداءة عنصر المدعوين الذين أهانوا الملك وحرموا أنفسهم وخرَّبوا ديارهم؛ ففي مَثَل الكرَّامين الأردياء قد صوَّر الروح الشريرة التي تملَّكت على هؤلاء الذين أعطاهم الله الأرض كَكَرْمٍ يُفَلِّحونه بالروح لحسابه، كيف بلغت بهم شهوة الكبرياء والتحرُّر من الله وتملُّك مواريث الله لحسابهم، حتى قتلوا ابنه، ليس عن خطأ بل عن إصرار وعناد وتعمُّد لكي يتخلَّصوا من نير الحق!!

وقد صوَّر المسيح هذا المَثَل بربٍّ كَرم غرس كَرماً واعتنى به جداً من الخارج حماية من الأعداء، ومن الداخل بكل ما يلزم الكرم من تأسيس لحياة الساكنين فيه، وسلَّمه إلى كرَّامين يعرفون في شئون الكرم وفلاحته على أُسس مكتوبة ومعرفة متوارثة. ولمَّا قارب الكرم أن يعطي ثماره ـ الروحية طبعاً ـ أرسل عبيده ـ الأنبياء والرسل والآباء ـ إلى الكرَّامين ليأخذ من ثمار الكرم بما يفرِّح قلبه ويوازي صلاحه ونعمته وحفظه ورعايته؛ ولكن الكرَّامين أخذوا عبيد صاحب الكرم، وجلدوا وأهانوا وقتلوا منهم مَنْ شاءوا. ثم عاد صاحب الكرم وأرسل عبيداً آخرين ـ أنبياء وراء أنبياء وراء أنبياء، كثيرين جداً ـ ففعل الكرَّامون بالآخرين ما فعلوه بالأولين. وأخيراً، أرسل لهم صاحب الكرم ابنه الوحيد قائلاً: إنهم يهابون ابني؛ وأمَّا الكرَّامون فلمَّا رأوه قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرَّامين؟ وكان المسيح يُلقي المَثَل مخاطباً به الكتبة والفريسيين، فلجمال الأسلوب وحبك القصة تاه الكتبة والفرِّيسيون عن غرض المسيح وواقع حياة إسرائيل وحياتهم، وثارت نفسهم فيهم وحكموا بلا تريُّث، فكان حكمهم طبق الأصل مما عملوه ومما حاق بهم! قالوا له: أُولئك الكرَّامين الأردياء يهلكهم هلاكاً رديًّا، ويسلِّم الكرم إلى كرَّامين آخرين يعطونه الأثمار في وقتها!

هكذا انكسرت وتحطَّمت علاقات الله مع إسرائيل أصحاب مملكته الأرضية، وآلت إلى الأُمم في وضعها الروحي السمائي!!

127 - العشر عذارى

من القصص ذات الجمال الفائق في توجيه أولاد الله إلى السهر والصلاة والعبادة والتقوى بـــروح التبتُّل لله، وكأن مع الله لا يوجد شيء آخر للإنسان على الأرض ـ ولكن لكي يبلغ النفع بهذا المَثَل البديع أقصاه يلزم أن نمتد بكلمة السهر بانتظار العريس السمائي إلى الوضع الداخلي في حياة الإنسان ـ فعندما تنشأ علاقة إيمان بالمسيح يبدأ الإنسان بحرارة يقدّم العبادة اللائقة بالمسيح كمخلِّص وفاد؛ ولكن وبنفس المستوى، تزداد حرارة الإنسان بالعبادة، فتبدأ زيارات النعمة وفيها يحس الإنـــسان أنّ المسيح جاء ليفتقده فعلاً. وهنا ينشغل الإنسان بالمسيح كعريس حقيقي ويبدأ يُعِدُّ نفسه كـــل يـــوم بحرارة جديدة وسهر جديد وتوسلات لطيفة ولغة كلها هيام بالرب. وفي لحظة من اللحظات يـــأتي بالفعل ويأخذنا إليه. هنا السهر والزيت والنور والمصباح والفرح كل يوم. إنه عمل كعمل العذارى!

والقصة التي يسوقها المسيح لتلاميذه ومحبيه يصوِّر فيها عشر عذارى، خمس حكيمات وخمـــس جاهلات. وهنا الحكمة قصرها المسيح على الذين يستخدمون وقتهم ومواهبهم بمهـــارة في خدمـــة المسيح والاستعداد لمجيئه.

وصوَّر الحكيمات والجاهلات كأنهن يستعددن لحفل عُرس فيه سيأتي المسيح في وقت ما بالليل لا يعلمه أحد. فالحكيمات احتراساً منهن، لعل العريس يتأخر، أخذن مع المصابيح أواني فيها زيت حتى يغذِّين المصابيح كلما شحَّ الزيت فيها. أمَّا الجاهلات فأخذن المصابيح وبها زيتها القليل، ولم يأخذن زيتاً إضافياً. فلمَّا تأخَّر العريس ونعسن قليلاً، استيقظن على الصراخ: هوذا العريس قد أقبل. فقامت الحكيمات وبسرعة ملأن مصابيحهن وأشعلنها، فأضاءت لهن الطرق لزفَّة العريس؛ ولكن الجاهلات انطفأت مصابيحهن، فلمَّا أردن أن يأخذن من الحكيمات، اعتذرن قائلات: لعله لا يكفينا وإياكن. فلمَّا ذهبن ليبتعن زيتاً، جاء العريس ودخلت معه الحكيمات صاحبات المصابيح المضاءة وأُقفل الباب!

والمَثَل خصب وبليغ وبه منافع للذين يريدون أن يخدموا العريس، ويتعلَّموا مهنة السهر البديع.

128 - الخراف والجداء والأعمال

الإيمان يتحتَّم أن يعبِّر عن نفسه بالأعمال،

والمسيح يمكن أن يُرى في الجائع والعريان والغريب والمريض والمحبوس:

أساسيات:

لكي نفهم هذا المَثَل يلزم أن نعرف: من الذين سيُدانون؟

الجواب: 1 – الذين رفضوا الإيمان عن معرفة.

2 – الذين أساءوا إلى الإيمان بأعمالهم وأفكارهم.

ثم مَنْ هم الذين لا يدخلون الدينونة؟

الجواب: المؤمنون بالمسيح، الذين أثبتوا إيمانهم بالفعل والقول.

«الذي يؤمن به لا يُدان. والذي لا يؤمن به قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد.» (يو 18:3)

ولكن في مَثَل الخراف والجداء يدخل عنصر جديد على الذين سيدانون، وعلى الذين لا يدخلون الدينونة.

- فالذين سيُدانون يُضاف لهم صنف آخر من الناس ـ وهم رقم (3) ـ الذين آمنوا بالمسيح، ولكن حجزوا المحبة والعطف والرحمة والبذل عن إخوتهم المعوزين من كل صنف الذين اعتبرهم المسيح كشخصه.

- والذين لن يدخلوا الدينونة زاد عليهم، أو على الإيمان بالمسيح كابن الله الوحيد، الذين سكبوا محبتهم وعطفهم ورحمتهم وبذلهم على إخوتهم المعوزين الذين اعتبرهم المسيح كشخصه.

فالمفروض الآن قبل أن ندخل إلى المَثَل أن نعلم أن المَثَل الذي أعطاه المسيح لا يمثِّل الشرط الوحيد في الرفض والدينونة، ولا هو الشرط الوحيد الذي يمنح حق الدخول إلى ملكوت الله.

والمَثَل يقوم أولاً على أساس الذين ربحوا الملكوت:

+ «ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم. لأني جعت فأطعمتموني. عطشت فسقيتموني. كنت غريباً فآويتموني. عرياناً فكسوتموني. مريضاً فزرتموني. محبوساً فأتيتم إليَّ. فيجيبه **الأبرار** حينئذ قائلين: يا رب، متى

رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشاناً فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم!» (مت 25: 34-40)

ويُلاحَظ هنا أن المسيح دعا هؤلاء بالأبرار حيث يصبح عملهم هذا مضافاً إلى برِّهم الذي بالإيمان.

+ «ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدَّة لإبليس وملائكته، لأني جعت فلم تطعموني. عطشت فلم تسقوني. كنت غريباً فلم تأووني. عرياناً فلم تكسوني. مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً و لم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر، فبي لم تفعلوا. فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية.» (مت 25: 41- 46)

والذي نخلص به من هذا التصوُّر الشديد التحديد لكيفية معالجة الفقر والعوز والجوع والعطش والمرض والهجرة والسجن في العالم، هو أن التقصير في ذلك قادر أن يلغي الإيمان بالمسيح جملة ويحرم من نعمة الله والحياة الأبدية إذا لم يوضع في أجندة كل إنسان وكل رئيس وكل مسئول، من أول الجار ثم الحارة ثم الشارع ثم الحي وبعد ذلك القرية والمدينة. وها نحن نرى أن سر اختلال توازن العالم اليوم راجع إلى إهمال هذا الجزء شبه الميت من جسم البشرية والساقط من جميع ميزانيات الدول.

ويتبقَّى لنا اعتبار لاهوتي هام من مَثَل الخراف والجداء في موضوع خدمة المعوزين، وهو أن الذين خدموهم لم يربطوا قط بين خدمتهم لهؤلاء المعوزين وشخص المسيح في ذاته! فكون المسيح نفسه يعتبر أن خدمة هؤلاء المعوزين تُحسب خدمة له شخصياً، يُستشف من هذا كيف اعتبر أن محبة الآخرين هي بعينها محبة الله في الوصية العُظمى والأُولى: تحب الرب إلهك من كل قلبك ... إلخ، وقريبك كنفسك. ففي هذا المَثَل الذي أعطاه المسيح في قصة الخراف والجداء وَضَحَ أن المسيح احتسب خدمة الآخرين ـ هؤلاء المعوزين ـ هي خدمة موجَّهة لشخصه، مما يفيد أن الله لا يفرِّق بين حبنا لشخصه وحبنا للآخرين المعوزين. فمحبة القريب عند المسيح هي ومحبة الله على التساوي أو التوازي في اعتبار الله. لذلك في موضوع هذه الوصية الأُولى والعظمى قال: «**والثانية مثلها**»!! (مت 22:39)، والاثنان وصية واحدة!! والله هو الذي يدعونا للمحبة والمعونة في الآخرين! بهذا المعنى فقط تكون محبة الآخرين هي محبة الله. وهنا فالإجابة العجيبة على سؤال ذلك الكاتب: مَنْ هو قريبي؟ هي: ‘‘هو الله في المحتاج’’، هو المسيح في الجائع والعطشان والعريان والمريض والمسجون والغريب!

وحينما يقول المسيح: «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (مت 44:5)، فالله يعلن عن عدم قبوله أو رضاه للحواجز التي يضعها الإنسان بينه وبين أخيه الإنسان، ويدعونا في قوة محبته أن نتجاوزها لحساب الله.

129 - اليونانيون يطلبون أن يروا يسوع وحبة الحنطة أتى ميعادها لتقع على الأرض

كانت أُورشليم تضج بالحجاج اليهود الآتين من كل أرجاء العالم، ولكن كان يوجد كثيرون بينهم ليسوا يهوداً، وإنما إمَّا دخلاء من الأُمم أو مواطنون أجانب أحبُّوا عبادة يهوه واحترموها واعتادوا أن يحضروا الفصح. هؤلاء سمعوا عن المسيح فتكتَّلوا وجاءوا يطلبون أن يروه. ولكنهم تخشَّعوا و لم يذهبوا إليه مباشرة، فتوسطوا إلى فيلبُّس أحد تلاميذ المسيح أن يقدِّم رغبتهم للمسيح، ولكن فيلبُّس بدوره خشي ذلك فقال لأندراوس. أمَّا يسوع فكان ردُّه أن تؤجَّل الزيارة لما بعد أن تقع حبة الحنطة وتموت، حتى يستطيع العالم كله أن يأكل منها ويعيش، وليس أن ينظر ويتكلَّم وحسب. لأن الساعة كانت ساعة ختام أعمال وقفل حسابات وقبول دعوة سريعة للمجد. ثم أعطى المسيح تعبيراً إلهياً عن قيمة موته، كحبة حنطة اختيرت لأن تُلقى في الأرض لتموت إلى حين وتختفي عن الأنظار، ولكن بعد ذلك توجد بثوب جديد يملأ العالم بهاءً ومجداً. وهكذا إن بقيت حبة الحنطة وحدها للنظر والحديث والحدث فهي تحيا لنفسها، ولكن إن وقعت وماتت تحيا في ملايين الناس بلا حصر. فلو نُظر إلى موت المسيح وآلامه بنظرة الوحدة والتفرُّد في الذات نجدها حزينة، ولكن إن رؤيت بعد قيامها ومجدها فلن يتصوَّر العالم مقدار الفرح والسعادة التي عمَّت وتعم الناس من جراء قيامته ظافراً غالباً الموت والخطية. ولذلك قال مَنْ جَزَعَ من موت الشهادة للإيمان عن حب لنفسه فإنه بجهالة يهلكها إذ يبقى وحده ليموت وحده، ولكن إن أبغض ذاته وقدَّمها قرباناً وشهادة فإنه يحفظها إلى حياة أبدية وسعادة بلا حصر.

وهكذا مَنْ ينشغل بخلاص الآخرين لا ينشغل بآلامه أو موته.

130 - حينما أحس المسيح بقرب الساعة وانزعجت نفسه

كان ذلك قبل الصليب بأيام قليلة، وكانت الظروف والحوادث التي تجري بسرعة تباعاً مشبَّعة برائحة الصليب وقد ألقى عليها ظلَّه الثقيل. وفجأة يمثُل أمامه منظر الكأس المذاب فيه كل خطايا

العالم الذي رأت مشيئة الآب إلاَّ أن يشربه! فجفل المسيح من شناعة الفضيحة والعار! وانحنت نفسه فيه تأبى أن تتجرَّع أوساخ الناس وتضع عليها أوزارهم! «**الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الآب نجِّني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة. أيها الآب مجِّد اسمك**» (يو 12: 27و28). وكأن الاسم الكريم الذي حمله، اسم الآب، قد طالته هذه الخطايا والأوساخ فصرخ أن يتمجَّد الاسم! ولكن الاسم قد تمجَّد بالصليب و لم يطاله إثم. فردَّ الآب: «مجَّدت وأُمجِّد أيضاً» (يو 28:12). «مجَّدت» لأن كل ما وُضِعَ على المسيح من أوزار وأوساخ كلمات الكتبة والفرِّيسيين نفضه الآب عن ابنه وارتد نحو صانعيه؛ «وأُمجِّد أيضاً» فيما هو مزمع أن يوضع عليه من ''آثام جميعنا''. الأمر الذي ستظهر معركته الختامية في جثسيماني وشيكاً. ولَمَّا ظنَّ الناس أن السماء تكلِّمه، كشف الغطاء عن واقع الحديث أنه من أجل الناس قد صار: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو 30:12)، لأن الذي سيتمجَّد لا يتمجَّد من أجل نفسه، بل يتمجَّد في عيون الناس لمجد الله بالنهاية.

العالم تجمَّع باليهود وتدبيراتهم وأعلن دينونتهم للمسيح وملكوته. حسناً، فبهذه الدينونة انكشف كذب العالم وكذب رئيس هذا العالم. وهكذا بدينونة المسيح، كأن العالم قد أدان نفسه وأدان رئيسه جهاراً. وهكذا طُرح خارج ملكه الكاذب وأُسقط من علوه المزيَّف: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو 31:12).

والمسيح يصوِّر عملية رَفْعِهِ على الصليب أنها هي بذاتها رِفْعَةٌ إلى السماء، حيث من مصدر القوة والحب يجذب إليه الجميع: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو 32:12)، ليشتركوا في ارتفاعه، إن بالصليب أو بالقيامة، ويكون لهم النصيب في ملكوته السمائي.

131 - المسيح يختتم أعماله

+ «**النور معكم زماناً قليلاً بعد، فسيروا ما دام لكم النور لئلاَّ يُدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب. ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور. تكلَّم يسوع بهذا ثمَّ مضى واختفى عنهم.**» (يو 12: 35-37)

الفصل الثاني

العشاء الأخير

[دواء الخلود وترياق عدم الموت.](1)

[أكل الإنسان الأول فسقط ومات بعيداً عن الله، وأكل الإنسان الجديد فارتفع وعاش مع الله].

لقد ثبَّت المسيح وجهه نحو أُورشليم بعد أن أكمل عمله، وفي أُورشليم كان ينتظر الساعات بثقة من قدَّم نفسه للآب لتكميل المشيئة المرسومة. وكان المعروف وقتها، والآن أيضاً، أنه كان عالماً بكل ما سيأتي عليه، لأنه لم يكن غريباً عن صميم عمله الذي جاء ليكمِّله بالخروج المُحْكَم، لتكميل خلاص العالم.

ولابد أن أخبار خيانة يهوذا وتخاطبه مع رؤساء الكهنة كانت قد بلغته من أصدقائه في المجمع مثل: يوسف الرامي ونيقوديموس. لذلك رتَّب المسيح أن يخرج هذا التلميذ من وسط الجماعة قبل البدء في الفصح.

والمعروف عند العلماء أن المسيح رتَّب أن يكون العشاء قبل الفصح مساء الخميس 13 نيسان صابح الجمعة 14 نيسان ميعاد ذبح الحمل(2). وواضح أنه في صباح الجمعة عند بدء المحاكمة، رفض رؤساء الكهنة أن يدخلوا دار الولاية ليتابعوا التحقيق مع المسيح بحجة: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صبح. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجَّسوا، فيأكلون الفصح» (يو 28:18). وأيضاً يوضِّح إنجيل ق. يوحنا أن الصلب حدث يوم الجمعة، وكان الخوف أن تبقى الأجساد على الصليب فيدخل السبت، وهذا محرَّم بالناموس: «ثم إذ كان استعدادٌ (= باراسكيفي أي يوم الجمعة، وهو استعداد للسبت)، فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت، لأن يوم ذلك السبت (الذي يقع في عيد الفصح) كان عظيماً، سأل اليهود بيلاطس أن تُكسَر سيقانهم ويُرفعوا.» (يو 31:19)

وهكذا أكمل المسيح خطته المضادة لخطَّة رؤساء الكهنة؛ إذ رتَّبوا أن لا يحدث، لا القبض ولا الصليب يوم العيد. ولكن إذ أكمل المسيح تدبيره بالدخول الملكي المظفر إلى أُورشليم وترائيه في

---

(1) القديس إغناطيوس الشهيد، رسالته إلى كنيسة أفسس 20.

(2) Ideler, Lücke, Sieffert, *De Wette and Bleek*, cited by A. Neander, *op. cit.*, p. 425, n.t.

وسط الهيكل وجموع الشعب الغفيرة التي تعلَّقت به، أجبرهم على سرعة القبض والصلب، لأنه رأى أن يكمِّل فديته في ميعاد ذبح الحمل تماماً، ليكون فصحاً جديداً للعالم: «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا» (1كو 7:5)، بعد أن ألغى الفصح القديم إلى الأبد. ويلاحظ أن رؤساء الكهنة أُجبروا تحت ضغط الحقد والكراهية أن يخالفوا الناموس ويقترفوا جريمة قتل يوم العيد لتُحسب ضدَّهم!

أمَّا العشاء(3) كونه كان يوم الخميس مساءً **"عشية الجمعة"** التي خرجوا فيها بالليل وتوجَّهوا إلى جبل الزيتون، فقد أشار إليه ق. بولس في رسالته الأُولى إلى أهل كورنثوس هكذا: «لأنني تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم أيضاً، إن الرب يسوع **في الليلة** التي أُسلم فيها (عشية الخميس ثم ليلة الجمعة)، أخذ خبزاً ...» (1كو 23:11)

كذلك هناك شهادة أخرى من إنجيل ق. متى تؤكِّد أن عشاء الخميس كان بشبه فصح تعويضي عن الفصح الذي كان يتعذَّر فيه على المسيح أن يحضره لأنه سيصلب فيه حسب التدبير، هكذا لَّما أرسل المسيح تلميذيه ليُعِدُّوا للفصح: «فقال: اذهبوا إلى المدينة، إلى فلان (الاسم سرِّي حتى لا يسمعه يهوذا مسبقاً) وقولوا له: المعلِّم يقول **إن وقتي قريب** (بمعنى لن أحضر يوم الفصح وعليَّ أن أرسمه قبل ذهابي). عندك أصنع الفصح مع تلاميذي» (مت 18:26)، أي الفصح قبل الفصح، بمعنى أصنعه اليوم، أي قبل الفصح. وفعلاً صنعه في نفس اليوم، وكان يوم الخميس قبل الغروب، ولكنه انتهى في المساء؛ فيكون مساء الخميس هو "عشية الجمعة"، وهو اليوم الذي صُلب فيه!

لذلك فإن المسيح باشر في عشاء الخميس كل طقس الفصح اليهودي ما عدا أكل الخروف، إذ استبدل به الجسد والدم. والأمر الطريف في الموضوع أن اليهود الذين تنصَّروا أصبحوا يقيمون الفصح في ميعاده، ولكن بطقس مسيحي(4). هذا هو الذي دعا الأناجيل الثلاثة المتناظرة أن تقول إن العشاء تمَّ في اليوم الأول من الفصح.

وقد تميَّز هذا العشاء الأخير بأمرين:

الأمر الأول: غسل أرجل التلاميذ.

الأمر الثاني: تأسيس سر الإفخارستيا.

---

(3) ولو أن العشاء الأخير امتدَّ إلى ما قبل نصف الليل من يوم الجمعة إلاَّ أن كونه بدأ قبل غروب شمس يوم الخميس دُعي عشاء الخميس.

(4) يوسابيوس القيصري، التاريخ الكنسي 6:24:5.

132 - غسل أرجل التلاميذ

+ «**مَنْ أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبـــداً.**» (مر 10:44)

- **وهوذا السيد والمعلِّم غسل أرجل تلاميذه ... من هنا يبدأ معنى السيادة والتعليم في المسيحية.**

لكي لا يكون هذا الفصل غريباً عن الأذهان، يلزم أن نسجِّل للمسيح أقواله السابقة التي تكشف عن سر هذا التقليد الجديد:

(**لو 22: 26و27**): «وأمَّا أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم لــيكن كالأصــغر، والمتقــدِّم كالخادم. لأن مَنْ هو أكبر؟ ألذي يتكئ أم الذي يخدم؟ ألــيس الــذي يتكئ؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم»

(**مت 20:26–28**): «فلا يكون هكذا فيكم (التسارع للمكان الأعظم). بــل مَــنْ أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومَنْ أراد أن يكون فــيكم أولاً فليكن لكم عبداً. كما أن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخْدِم، وليبــذل نفسه فدية عن كثيرين»

واضح، إذن، من غسل المسيح لأرجل تلاميذه، أنه أراد أن يضع قاعدة العمل في المسيحية التي هــي بعينها قاعدة العمل لحساب الملكوت. وهو أن يكون المتقدِّم في الجماعة هو أكثرهم قرباً من المسيح والملكوت، وهذا لن يتأتَّى إلاَّ بالرجوع والعودة إلى روح الطفولة في إنكار الذات والإحساس بعدم الاستحقاق عن صدق ويقين الضمير والفكر. فنحن بصدد ملكوت جلال ومجد الله، وقداسة وطهــارة ملائكة وأرواح قديسين أبرار. فأين نقف من هؤلاء إلاَّ بقامة طفل يتودَّد ويتقرَّب بدالة العدمية!!

وقصة غسيل أرجل التلاميذ في العشاء الأخير لا تأتي هامشية، بل تقع في صميم الاحتفال المقدَّس، إذ تقول الرواية وهم جالسون للعشاء: «**قام عن العشاء، وخلع ثيابه (كما يفعل الخادم والعبــد)، وأخــذ منشفة واتَّزر بها ــ أي ربط وسطه كما يفعل الخادم ــ ثم صبَّ ماءً في مِغْسَلٍ، وابتدأ يغسل أرجــل التلاميذ** (وهم جلوس أمامه) **ويمسحها بالمنشفة التي كان مُتَّزراً بها.**» (يو 13: 4و5)

اندهش التلاميذ للمنظر وأخذتهم الحيرة كيف يتصرَّفون! لأن المسيح في مقام الكرامة العليا بينهم، فأن يقوم بعمل وضيع هو عمل الخدم والعبيد، أمر أربك مــشاعرهم، ولكــن لمخافتــهم كمُّــوا

أفواههم وتبادلوا نظرات الحيرة والخوف، وجمدوا في أماكنهم دون مقاومة. غير أن بطرس كالعـادة انفجر بالتذمُّر: «لن تغسل رجليَّ أبداً» (يو 13:8). ولكن في هدوء الأطفال ووداعة الحملان ردَّ عليه: «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب» ! والمعنى عميق عمق الأبدية! فأنا أغسل عنك كبرياءك وادِّعاءك بالأولوية، لتصير مثلي عبداً بالمشيئة بعد ألوهية المجد! لتملك معي في مجدي ويكون لك معي نصيب!

وبالرغم من أن بطرس لم يفهم إلاَّ التهديد فقط فَقَبِلَ، بل طلب غسيل يديه ورأسه أيضاً. لكن المسيح أقنعه أن الذي اغتسل (اعتمد) فهو طاهر لا يحتاج إلاَّ لغسل رجليه (للاتضاع). ولا يعني المسيح بها إلاَّ عمله هو: «كخادم يغسل الرجلين» حتى يتعلَّم بطرس ومعه بقية التلاميذ العِبْرة من ذلك. بمعنى أن يعمل كعمل المسيح، أي ينزل إلى مستوى العبد، إن هو أراد أن يكون له نصيب مع المسيح العبد الذي يخدم وهو الإله. فالطاهر لا يحتاج إلاَّ أن يأخذ شكل العبد!! ثم عاد ليقول: «وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم» (يو 13:10)، لقد استثنى الذي نجَّس الشيطان قلبه: «لأنه عرف مسلِّمه.» (يو 13:11)

+ «فلمَّا كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً، قال لهم: أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلِّماً وسيداً، وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلِّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض. لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً.» (يو 13: 12ـ15)

وكأن المسيح أراد في نهاية تعاليمه كلها أن يعطي الدرس الأخير وهو قمة التعليم، ومضمونه أنه جاء ليكون مثالاً للذين عزموا عزم الإيمان واليقين أن يتبعوا الرب من كل قلوبهم. غسل أرجلهم لا ليغسلوا أرجل بعض وحسب، بل ليعملوا عمل العبد لا السيادة. فإن كان وهو الإله أخذ صورة عبد، فأصبح الطريق إليه معروفاً من خلال صورة العبد ذاتها. وهكذا أنهى قوله: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده (المسيح)، ولا رسول أعظم من مُرسله. إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه!!» (يو 13: 16و17)

وهذا هو نفس الدرس الذي استوعبه بولس الرسول من الرب نفسه وقدَّمه لنا بلغته العملية هكذا:

+ «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً: الذي إذ كان في صورة الله، لم يَحْسِبْ خُلْسَةً أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، **وضع نفسه وأطاع حتى الموت** موت الصليب.» (في 2: 5ـ8)

133 - خروج الخائن من وسط الجماعة

[كل الظروف كانت مواتية ليهوذا ليكون كبطرس ويوحنا، ولكنه وثق في نفسه أنه أعظم، فخسر الكل].

لقد سبق المسيح وأشار في عدة مواقف إلى يهوذا، مثل قوله السالف: «أنتم طاهرون ولكن ليس كلكم» لكي يشير إشارة واضحة إلى يهوذا حتى لا يؤخذ التلاميذ بفعلته السوداء حينما تظهر للعلن. كذلك لئلاَّ يعتقد التلاميذ أن المسيح نفسه كان على غير دراية بأعمال يهوذا وخيانته. وأيضاً لعلَّ ضمير الخائن يستيقظ، ولكن لمَّا لم يرعوِ يهوذا، بل سار في غيِّه سادراً، كشف المسيح عن شخصه: «أنا أعلم الذين اخترتهم، لكن ليتم الكتاب: الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عقبه ... الحق الحق أقول لكم: إن واحداً منكم سيسلِّمني» (يو 13: 18و21). فكانت مفاجأة أتعبت الأبرياء منهم وجعلتهم يستفسرون عن الفاعل، وأوعز بطرس إلى يوحنا، وهو الجالس على شمال الرب كأصغر الجماعة سنًّا، أن يسأل المسيح. فأعطاه المسيح العلامة بأن غمس اللقمة وأعطاها ليهوذا. ويقول الكتاب إن بعد اللقمة دخله الشيطان، فقام عن المائدة، ولعلَّ قيامه واضطرابه كان لمَّا أحسّ بأن التلاميذ قد كشفوا سريرته. وما كان من المسيح بعدها إلاَّ أن قال له: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو 13:27)، ليس كأنه يعطيه أمراً أن يعمل، بل أن يكمِّل خيانته التي نوى عليها لعلَّه يراجع ضميره؛ فما راجع وما رجع، بل سار يقوده الشيطان إلى حتفه.

فلمَّا خرج يهوذا في ظلام الليل كان أن تنفَّس المسيح الصعداء وكأن كابوساً كان على صدره، فقال مشيراً إلى موته الذي بدأ يتحقَّق بذهاب يهوذا لتسليمه: «الآن تمجَّد ابن الإنسان وتمجَّد الله فيه ... فإن الله سيمجِّده ... سريعاً» (يو 13: 31و32). ولم يَقُلها المسيح إلاَّ في يقين إحساسه بأن ذبيحة موته سيتمجد الله فيها ويتمجَّد هو بمجد الله هذا. لقد كان المسيح يحس بطهارة حياته ونقاوة قلبه وفكره، فلمَ تتعكَّر نفسه لا بأعمال التهديد ولا بأعمال الوعيد. فإن كان الموت للقديس بولس ربحاً، فكم يكون الربح للمسيح من أجلنا جميعاً؟ فبافتخار البشرية فيه قالها مرَّة: مَنْ منكم يبكتني على خطية واحدة فعلتها!! فأين يسكن فيه الخوف من الموت أو المحنة وهو قد سَمَا بروحه فوق قمم البشر. لقد طال السماء لشموخ قداسته وما خانته نفسه لحظة ولا هوى جسده لطرفة عين!

لقد استمدَّت الطفولة منه وداعتها، واستودع نفسه لمن يقوده في طاعة الحمل حتى إلى الموت. ولكن السر الذي نودّ أن نعرفه: كيف احتمل المسيح يهوذا ثلاث سنوات ونصف؟ أليس معه كان

يعاشر الموت كل يوم! أليس هنا، وليس هنا فقط، نكتشف وداعة المسيح وحلمه ونسيانه للخطايا وتحمُّله للرزايا وصفحه للإساءة حتى ولو بلغت حجم الموت؟ ثم أليس من هنا، وليس من هنا فقط، ندرك سر تعليمه بل سر علمه لا كمَنْ يحكي عن نموذج يراه، بل عن نموذج يتكلَّم منه وعنه. هذا هو الإنسان يسوع المسيح، قياسه كقياس السماء في صفائها، وطبيعته كطبيعة النور في وضوحها، ومحبته كينبوع لا يكف عن فيضانه.

134 - تأسيس الإفخارستيا(5)

[أراد أن يغذِّينا على جسده ودمه فأسَّس السر! وفي القربانة والكأس جعل له إقامة دائمة على المذبح وفي حياتنا!]

يؤسفنا للغاية أن ق. يوحنا لم يأتِ بصيغة التأسيس، إذ أخذ خروج يهوذا من العشاء الانتباه الأكثر ضغطاً على الأعصاب، مما جعلَ الحديث في العشاء ينفرط عقده خاصة بعد أن أخذ يهوذا اللقمة وقام وخرج. ولكن لا نعدم إشارة واحدة عنه كشفت عن موضوع التأسيس حينما قال لتلاميذه: «وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً» (يو 13:34)، إذ تُحسب هذه هي لحظة توزيع الكأس!

ولكن يعطينا ق. لوقا باتفاق مع ق. بولس صورة جيدة للتأسيس كما ينطبق على الفصح (1كو 11: 23-26)، وتبدأ صيغة العشاء بإبداء حديث الوداع الصعب مع مشاعر جيَّاشة في الصدر وجدت زمانها ومكانها على العشاء الأخير:

+ «ولمَّا كانت الساعة اتكأ والاثنا عشر رسولاً معه، وقال لهم: شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألَّم، لأني أقول لكم: إني لا آكل منه بعد حتى يُكْمَل في ملكوت الله.» (لو 22: 14-16)

ثم بدأت أول حركة في العشاء، وهي تتبُّع طقس الفصح بتقديم كأس الخمر ـ الممزوج بالماء ثلث إلى ثلثين في الإفخارستيا ـ قبل الخبز، وتُدعى في الفصح الكأس الأُولى: «ثم تناول كأساً وشكر وقال: خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأني أقول لكم: إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله.» (لو 22: 17و18)

ثم تبدأ أول حركة في طقس تأسيس عشاء الإفخارستيا، وبعدها تأتي الحركة الثانية في

---

(5) مت 26: 26-30، مر 14: 22-26، لو 22: 14-23، 1كو 11: 23-25.

الإفخارستيا إنما بعد مدة كبيرة من بدء العشاء:

1 - «وأخذ خبزاً وشكر وكسَّر وأعطاهم قائلاً: هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكري.» (لو 19:22)

2 - «وكذلك الكأس (وهو الكأس الرابع في طقس الفصح) أيضاً **بعد العشاء** (حسب طقس الفصح وبعد غسل الأيدي الذي أبدله ق. يوحنا بغسل الأرجل) قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم» (لو 20:22). انتهى التأسيس عند القديس لوقا.

وهكذا أخذ المسيح من عشاء الفصح حركتين: الحركة الثانية بكسر الخبز، والحركة الأخيرة بكأس الخمر. وقدَّسهما تقديساً خاصاً لتكون الخبزة المكسورة جسداً والكأس الممزوجة دماً.

[والعادة في عشاء الفصح الرسمي أن يُقدَّم أربع كؤوس خمر. وكأس الخمر آنذاك تحوي ما يقدَّر بثلاثين سنتيمتراً مكعَّباً، أي أن الأربع كؤوس لا تزيد عن 125 سنتيمتراً مكعَّباً أي ثُمن لتر خمراً صافياً. والكأس آنئذ تساوي نفس كأس الخمر المتوسِّط الحجم في هذه الأيام. أمَّا من جهة نوع الخمر فتقاس بمقدار تأثيرها على العقل، ومعروف أن 500 سنتيمتراً مكعَّباً من هذه الخمر تُصيب الإنسان بالسُّكر، خاصة وأن الأربع كؤوس تُشرب على أربع دفعات متباعدة، والخمر الجيدة (الإيطالية المستوردة) تخفَّف بالماء إلى ثلاثة أضعاف أي خمر: ماء = 3:1 على أن يظل ربع الكأس فارغاً حتى الحافة. أمَّا خمر فلسطين فهي ضعيفة فيزاد الماء إلى الضعف فقط. وكانت البركة تُقال على الخمر بعد إضافة الماء. وإضافة الماء تكون إلى كل كأس وليس للخمر كلها دفعة واحدة. لذلك نسمع في لغة الفصح "ومزج له الكأس الأول"، على أن الكأس الذي بعد العشاء هو أهم أجزاء العشاء، والكأس يلزم أن يكون مزخرفاً جيد الصُنع ليس فيه عيوب، وأن يكون مغسولاً قبل وضع الخمر فيه. وعند البركة يرفعه (رب البيت) بيده اليمنى فوق المائدة بمقدار شبر وعيناه على الكأس. ولكن المسيح رفعها نحو السماء][6]، وأعطاهم كأس البركة هذه ليشربوا منها كلهم على أنها دمه الذي يُسفك.

والمعنى شديد الوضوح والتأثير الناطق. حيث تحوّل كسر الخبز إلى واقع صَلب وتمزيق جسد كنبوَّة محقَّقة في وقتها، فالآكلون أكلوا جسداً مكسوراً. وتحوّل شرب الخمر الممزوج إلى شرب دمٍ مسفوكٍ، فالشاربون شربوا دماً مسفوكاً.

والمعروف أن أكلة الفصح تعطي رؤية مستقبلية لفداء قادم كما يقول العالِم المدقِّق دالمان:

---

(6) Gustaf H. Dalman, *Jesus-Jeshua,* (1929), pp. 148-153.

[إن التعييد للفصح كان يفجِّر الإحساس بالرجاء بفداء قادم أكبر من الذي تمَّ. وهكذا كان التعييد للفصح يعطي الرجاء بفجر فداء مستقبلي قادم **في مثل هذا اليوم**. وكانت تسمَّى ليلة الفصح بليلة الحفظ أو الملاحظة lfl shimmarim (خر 42:12)، وصار معناها وشرحها فيما بعد أن في هذه الليلة تمَّ الفداء وفيها **سيتم** الفداء. وبعد ذلك شرحها أونكيلوس أنها ليلة جديرة بالملاحظة. وشرحها الترجوم أنها تفيد انتظار مجيء المسيَّا من روما مكان اختبائه.](7)

فهنا استطاع المسيح أن ينقلهم عبر الزمن إلى يوم الجمعة والصليب والجسد المكسور والدم المسفوك، والذي سيرونه يوم الجمعة تمَّمه مسبقاً في عشاء الخميس. وفي هذا وفي ذاك كان فصحاً مذبوحاً، عِوَض حَمَل اليهود!

ولكن السر الأعظم هو في أن المسيح جعل الخبزة المكسورة تحمل قوة وفعل وطبيعة الجسد المذبوح، تُؤكل الخبزة فيؤكل الجسد ولا عبرة لما يستطعمه الفم واللسان، العبرة في الذي يستطعمه الإيمان. كذلك الكأس تُشرب فيُشرب منها الدم ولا عبرة لما يذوقه اللسان، فالعبرة لما يرتوي به الإيمان.

أمَّا قوله: «اصنعوا هذا لذكري» فهو ينصبُّ على العملين معاً: عمل الخميس، وعمل الجمعة. فهو ذَبْح حقيقي للجسد وسَفْك حقيقي للدم مصنوعاً في خبزة وفي كأس! فالذكرى ليست ذكرى عشاء بسيط، بل عشاء فصح دموي كان فيه المسيح مذبوحاً بين تلاميذه ومسفوكاً دمه على واقع الخبزة والكأس، والمأكول جسد حقيقي والمشروب دم حقيقي. هذا هو عمل وتأسيس سر الشكر الذي صنعه المسيح من لحمه ودمه ليأكل منه كل مَنْ آمن واعتمد. وهو قد وعد أن يكون حاضراً فيه ومع الحاضرين ليكمِّل بالفعل ما ينقص عنهم بالفهم ليبقى الخبز المكسور جسداً حقيقياً والكأس دماً حقيقياً.

التذكار: «اصنعوا هذا لذكري»:

وواضح الآن إذا نظرنا إلى موضوع العشاء الأخير باعتباره الفصح الحقيقي الذي ذبح فيه المسيح نفسه لأجلنا، ثم أوصى أن نصنعه تذكاراً له كلَّما أكلنا، أنه يكون على نفس نمط تذكار الفصح الذي عُمل في مصر الذي كان لتذكار الخلاص من عبودية فرعون، والذي كله كان مثالاً، مجرَّد مثال للفصح الحقيقي الذي سيعمله المسيح من جسده ودمه ليخلِّصنا من الخطية وعبودية الموت. فإذا كان تذكار الفصح السنوي لليهود ليس مجرَّد أكل لحم أيّ خروف، **بل أكل لحم خروف الفصح الذي أخرجهم من أرض مصر**؛ هكذا أصبح تذكار فصح المسيح ليس مجرَّد أكل خبز وشرب خمر،

(7) Ibid, p. 124.

بل تذكار ذبح حقيقي: كسر جسد وسفك دم. والمأكول والمشروب هو جسد حمل الله الذي قدَّمه فصحاً للعالم ودمه المسفوك لخلاص الإنسان. فالتذكار تذكار "ذبح"، وليس تذكار "أكل". فالإفخارستيا هي تذكار ذبح المسيح على الصليب وسفك دمه. تذكار فصحي حقيقي من جسد ودم حقيقي. والمسيح لَّما قدَّم لتلاميذه لم يُقدِّم لقمة خبز فصح وكأس خمر فصح، بل جسداً مكسوراً حقيقياً ودماً مسفوكاً حقيقياً باعتباره الفصح الجديد أي الخروج من عبودية الخطية والموت!

وحينما قال: «اصنعوا هذا لذكري» فهو ذِكْر الفصح الذي عمله كعمل خلاصي من عمق الفداء بذبح الصليب. وأيضاً ذِكْر شركته الحيَّة التي استعلنت في عشاء الخميس، حيث أكل معهم المسيح الفصح: «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألَّم» (لو 15:22). لقد كانت شركة سرية عالية المستوى جداً، حيث حينما أكلوا جسده وشربوا دمه صار فيهم وصاروا فيه، فأنشأت ثبوتاً متبادلاً: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو 56:6). هذا الثبوت المتبادل هو الشركة على أعلى مستواها. لذلك يُصرُّ المسيح ونُصرُّ بإيماننا على ما قال: «إن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق» فالأكل أكل سرِّي أقوى في معناه ومضمونه من أكل لحم كلحم وشرب دم كدم. فالخبز المكسور المقدَّس والخمر الممزوج بالماء المقدَّس يحملان واقعاً إلهياً حيًّا وكياناً ذاتياً لابن الله بالجسد.

[إنها حقيقة مختبرة أنه لا يمكن أن تقرب الإفخارستيا بكسر الخبز دون أن يحدث اتصال حقيقي بشخص يسوع المسيح وقت كسر الخبز، لا على المستوى الروحي فقط، بل وعلى المستوى الواقعي السرِّي الحقيقي. وكأن المتناول متكئ حقًّا وفعلاً مع التلاميذ في المائدة في أُورشليم، وفي العليَّة، وفي تلك الليلة.](8)

وواضح أن المسيح لم يشأ أن يقول لهم: لا تنسوني أو اذكروني، بل أسَّس هذا الطقس العشائي السرائري حتى يصبح التذكار حقيقة ووجوداً حيًّا بالسر من خلال اجتماع المحبة وشركة كأس الحب والخلاص، ويستمر في المستقبل حتى يجيء!!

[فإن كان يتكرَّر فهو على أساس إقامة شركة من نوع جديد بينه وبين تلاميذه لتحقيق شركة كاملة مع الله.](9)

---

(8) Dalman, Ibid., p. 179.

(9) Dalman, Ibid., p. 181.

[والإفخارستيا محسوبة أنها وليمة الملكوت، لا بالمثال؛ ولكن بالحقيقة، والتي سوف يشترك فيها المسيح شخصياً بخمر جديدة في السماء.](10)

كان الكأس الرابع بعد العشاء، أي الكأس الأخير الذي تُليت عليه البركة، هو الكأس الذي تعيَّن أن يكون كأس العهد الجديد. وقد قدَّمه ق. متى على أنه "دمي": «وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، **لأن هذا هو دمي** الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا.» (مت 26: 27و28)

أمَّا ق. لوقا فقدَّمه على أنه كأس العهد: «وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي **العهد الجديد بدمي** الذي يُسفك عنكم» (لو 20:22). وطبعاً واضح أن ق. لوقا ـ لأنه يكتب للأُمم ـ لذلك خفَّف من العثرة وجعل الشرب من الكأس يكني عن الدم الذي فيه، فالكأس لَمَّا يُشرب يعني أن الذي يُشرب فيه هو الدم. كذلك ق. بولس انتحى ناحية ق. لوقا وجعل الكأس يكني عن الدم في الشرب: «كأس البركة التي نباركها، أليست هي شركة دم المسيح؟» (1كو 16:10)، «كذلك الكأس أيضاً بعد ما تعشُّوا قائلاً: هذه الكأس هي **العهد الجديد بدمي**. اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري.» (1كو 25:11)

أمَّا ما تحويه هذه الكأس فهو "العهد نفسه" المدعو بـ"العهد الجديد"، ومحتوى الكأس هو "دم المسيح". على أن هذا العهد "الذياثيكي diaq»kh في العبرية يسمَّى yAm «k : قيام"، وهو يعبِّر عن **إرادة وعهد، حيث العهد هو الوصية أو الميثاق أو الوثيقة التي تعني حتماً ميراث أو أيلولة أو شركة** ما يخص الإنسان بعد الموت. وهنا سفك دم المسيح المقدَّم في الكأس على أنه وصية العهد الجديد يعني ضمناً الميراث، ميراث كل ما للمسيح وميراث المسيح نفسه ... ليس هو اتفاق كالعهد الأول الذي صنعه الله مع إبراهيم، بل عطية ميراث الابن "بدم المسيح" وهو محسوب في مفهوم العهد القديم "كقَسَم"، "كوصية مقدَّسة".

ولكن هذا العهد الجديد في نفس الوقت محسوب أنه اتفاق مع الله الآب لحياة داخلية مرضية أمامه، قائمة على أساس "دم العهد".

في العهد القديم قام العهد بالدم فعلاً، ولكن دم ذبائح حيوانية (خر 24: 4و8): «وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال: هوذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال»

(10) Dalman, Ibid., p. 182.

[واضح جداً أن عهد الله مع الآباء لو كان قائماً ما كان المسيح قد أقام عهداً جديداً، ولكن الشعب خان وخالف وحنث فرُفع العهد القديم من الوسط. ولكن الله أنشأ من جديد عهداً جديداً يفوق العهد القديم في كل فحواه ومبناه، ووصايا جديدة تفوق الأُولى: "قيل لكم في القديم ... وأنا أقول لكم" (انظر: مت 5: 21و22). والمعنى الذي فهمه التلاميذ أنهم يبنون حياتهم من جديد ومستقبلهم مع الله على أساس دم المسيح أي موته الفدائي.](11)

وكما استحضر المسيح فعل يوم الجمعة ليعطيه بيده من واقع وجوده يوم الخميس جسداً مكسوراً ودماً مسفوكاً، هكذا وَعَدَ أن ما نعمله اليوم وكل يوم هو الذي عمله المسيح، وعلى أساس ما عمله يوم الخميس من واقع فصح يوم الجمعة: «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا.» (1كو 5:7)

+ «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكلٌ حقٌّ ودمي مشربٌ حقٌّ. مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو 6: 54-56)

والذي يؤمن بهذا يكون له!

+ «فإن آمنتِ ترين مجد الله!» (يو 11:40)

(11) **G.H. Dalman, *op. cit.,* pp. 168 f.**

الفصل الثالث

أحاديث المسيح مع تلاميذه

في العليَّة بعد العشاء الأخير

135 - الوصية الجديدة

الآن وقد رسم المسيح لتلاميذه سر الشركة معه بالحق والروح لتدوم معهم كل يوم، أوصاهم كما يوصي أب أولاده الوصية الأخيرة بعد أن كشف لهم وسلَّمهم كنز الميراث: «يا أولادي، أنا معكم زماناً قليلاً بعد. ستطلبونني، وكما قلت لليهود: حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن. وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي: إن كان لكم حُبٌّ بعضاً لبعض.» (يو 13: 33-35)

أمَّا لماذا هي وصية جديدة؟ فلأنها نابعة من عمل جديد لم يكن موجوداً قبل، وهو البذل العظيم الذي قدَّمه المسيح على الصليب والذي رسمه لهم في سر الإفخارستيا، الذي هو في الحقيقة سر الحب المذبوح! فالوصية هي جديدة، لأنها نابعة من حب قدَّمه المسيح بسكب ذاته حتى الموت. فإن كان المسيح قد ارتبط بل واتحد في شركة مع تلاميذه بسر الإفخارستيا الذي هو أعمق تعبير عن المحبة: «ليس لأحد حُبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو 13:15)، فأصبحت الإفخارستيا هي بمثابة الوصية الجديدة لربط تلاميذ المسيح بالمحبة على مستوى المسيح!!

136 - سؤال بطرس والحديث عن إنكاره المزمع

كان من العسير كل العسر على التلاميذ أن يصدِّقوا أن المسيح سيتركهم، لأنه كانت في الحقيقة العلاقة التي تربطهم بالمسيح قد توثَّقت على مستوى الروح، فتعلَّقت أرواحهم به تعلُّقاً لم ينتبهوا له أنه ليس من هذا العالم.

فهو تعلُّق فائق عن العالم والزمن والطبيعة البشرية، فكيف يتصوَّرون أنهم سيُحرمون منه كُلِّيةً

فلا يرونه وهو كائن في قلوبهم وأعماقهم. وكان صعباً على المسيح أن يقنعهم بتركه لهم، لأنه في الحقيقة كان يعلم أنه تركٌ وقتي زمني قليل، وبعد ذلك يستعيدون علاقتهم به التي هي فوق مستوى الوجود الزمني والعالم. فلم يضغط عليهم لكي يقطعوا نهائياً بغيابه، فتركهم بمشاعرهم ينعمون بها. لذلك قال لهم بعد ذلك: «بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضاً ترونني، لأني ذاهب إلى الآب »(يو 16:16)، «فأنتم كذلك، عندكم الآن حزن. ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد (بعد) فرحكم منكم» (يو 22:16)، «قال له سمعان بطرس: يا سيد، إلى أين تذهب؟ أجابه يسوع: حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيراً. قال له بطرس: يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟ إني أضع نفسي عنك. أجابه يسوع: أَتَضَعُ نفسك عني؟ الحق الحق أقول لك: لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرَّات.» (يو 13: 36-38)

137 - أحاديث أخرى سجَّلها القديس لوقا

أراد المسيح أن يُعِدَّ أذهان التلاميذ إلى الحوادث الصعبة الآتية في الطريق سريعاً. وكان منظر الجماعة القادمة من عند رؤساء الكهنة مع عساكر السنهدرين وغوغاء الشعب ماثلاً في ذهنه وكأنه يراهم. فبدأ الحديث معهم بتذكرة لنصائحه التي سلَّح بها تلاميذه عندما أرسلهم: «حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية، هل أعوزكم شيء؟ فقالوا لا. فقال لهم: لكن الآن، مَنْ له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومَنْ ليس له فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً» (لو 22: 35و36). مضمون القول إنهم قادمون، لا على بشارة بملكوت الله وسلام، ولكن قادمون على معركة بسيوف وعِصيٍّ كما على لصوص!! فالقصد من الكيس والمزود تعبير عن تخلية من الله لدخول الضيق بأشد معناه كامتحان نهائي لدخول ملكوت الله. أمَّا القصد من السيف فهو تعبير عن أن السلام انتزع وأُشهر عوضه السيف، وهذه أصعب صور التخلية التي يتركنا فيها الله بلا حماية ونكون تحت رحمة سيف الأعداء. انظر إلى المسيح! لقد ذُبح بأصعب من ذبح السيف! هنا يكشف المسيح عن واقع دخله هنا بنفسه وأراد أن يشترك تلاميذه فيه. فأصعب وأقسى ما قاله المسيح في حياته قاله هنا: «مَنْ ليس له فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً» هنا أراد المسيح أن يُدخلهم معه في منظر السيوف والعصي والموت على الصليب: «مَنْ يُهلك نفسه من أجلي يجدها» (مت 25:16). فالمسيح في الحقيقة لم يتكلَّم عن شراء السيف أو حمله إلاَّ ليُدخل التلاميذ في جو الصليب الدامي والإحساس بالموت، لا كتجربة بل مسيرة المشيئة لهلاك الذات من أجل الخلاص والحياة الأبدية. والكلمة التي قالها المسيح تعليقاً على ما عمله بطرس حينما ضرب عبد رئيس الكهنة بالسيف فقطع أُذنه: «لأن كل الذين يأخذون السيف

بالسيف يهلكون» (مت 52:26)، أرادها المسيح حينما قال لهم: اشتروا سيفاً، فالمعنى دعوة للموت. هذا شأن كل مَنْ أراد أن يتبع الرب على طريق الجلجثة، فالمسيح لم يقصد سيفاً لحرب ودفاع، بل لموت وانكسار! فطريق الخلاص طريق سيف وجلد، طريق هلاك وتخلية حتى الموت. فبعدها قال المسيح مباشرة: «إنه ينبغي أن يتم فيَّ أيضاً هذا المكتوب: وأُحصي مع أثمة.» (لو 37:22)

138 - وعد المسيح بالعودة

كان الحديث في هذه الساعة ثقيلاً معبَّأً بشعور الحزن والخوف مما سيأتي، لأن التلاميذ لم يكونوا قد كوَّنوا فكراً معيناً بالنسبة لفراق المسيح. ولكن المسيح على كل حال حاول أن يهدِّئ عقولهم ويجعلهم يستعدون بقدر الإمكان لمواجهة المحنة الشديدة والعنيفة القادمة التي ستعصف بهم بعيداً عن المخلِّص. فكان من ضمن الحديث على المائدة لمَّا ابتدأ يفتح ملف الأيام القادمة وابتدأوا يشعرون بالخوف، أن قال لهم: «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلاَّ فإني كنت قد قلت لكم. أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً، وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو 14: 1-3)

هكذا كان يتكلَّم المسيح بهدوء عن مجيئه الثاني، على أن غيابه سيتبعه حتماً شركة سرِّية بالروح، فالمسيح وسيط حي فعَّال بين التلاميذ والآب، لذلك لن يدوم إحساسهم بالفراق: «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم» (يو 22:16). هذا يعني مجيئه السرِّي بالروح وزيارته لهم سواء مجتمعين كما في العلية أو أثناء أسفارهم اثنين اثنين: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم »(مت 20:18). هذا المجيء السرِّي كان أقوى معزٍّ حقيقي بالنسبة للتلاميذ بعد قيامة الرب، إذ رأوه وتحدَّثوا معه وأكلوا أيضاً معه وعلَّمهم واستمعوا إليه كالماضي. والعلاقة التي تكوَّنت بين التلاميذ والمسيح بعد ذهابه كانت أقوى وأكثر فاعلية وعزاءً وقوة مما كانت. ولو أنهم لم يفهموا و لم يصدِّقوا أن أياماً أخرى ستأتي ليستعيدوا عشرهم مع المسيح والآب. ولكن كان الكلام معزِّياً على كل حال.

139 - كيف نعرف الطريق؟

حينما قال المسيح: «أنا هو الألف والياء»، كشف أن في معرفته بلوغ منتهى القصد. وحينما قال: «أنا هو الأول والآخر»، أدركنا أنه الباب والطريق والنهاية، ولمَّا قال: «أنا البداية والنهاية»، لم يعد لنا سواه.

عندما أكَّد المسيح أن بعد ذهابه سيكون للتلاميذ علاقة معه كما كانت وأقوى، هذا فتح شهيتهم لكي يسألوه أين هو ذاهب؟ وكيف يصلون إليه؟ أمَّا هو فأعطاهم فرصة ليطمعوا أكثر في السؤال، فقال: «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق!» (يو 4:14)، «فقال له توما: يا سيد، لسنا نعلم أين تذهب، فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟» (يو 5:14). هنا وجدها المسيح أعظم فرصة ليرفع عقولهم وقلوبهم إلى ما هو أعلى من الجسد وأرفع من الزمن والمكان المحسوس والملموس: «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو 6:14). حينما قال: «أنا هو الطريق» بدت الكلمة شديدة الغموض، ولكن لمَّا أضاف إليها «الحق» انفتحت في الحال أذهانهم ليفهموا أنه يتكلَّم عن طريق المعرفة للحق الذي يستطيعون أن يصلوا إليه. ثم لمَّا أضاف مع الطريق والحق «الحياة» أيضاً، ارتفع الفكر بإحساس الروح القلبي أن الوجود مع المسيح بعد ذلك سيكون داخلياً في القلب كحياة روحية جديدة من داخل الإنسان وليست خارجه. ثم أضاف المسيح: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي» وضح هنا أنه عن طريق معرفة الحق والحياة بالروح في المسيح داخل القلب يمكن للتلاميذ أن يبلغوا إلى معرفة الآب نفسه، ولهذا أضاف: «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» (يو 7:14). هنا اقترب المسيح جداً من كشف علاقته بالآب، عندما ارتفع بذهن التلاميذ من مستوى الجسد والمادة والعالم والحسيَّات إلى مستوى الروح والحق والحياة.

حينئذ ابتدأ يتحرَّك قلب فيلبُّس مع روحه المنطلقة طلباً في أن يرى الآب: «قال له فيلبُّس: ياسيد، أرِنا الآب وكفانا» (يو 8:14). هكذا نجح المسيح أن يُطْلِق روح فيلبُّس لتبحث عن الآب في الحق والحياة بواسطة المسيح. وبذلك يكون المسيح قد بلغ مع ذهن التلاميذ إلى نهاية الشوط لكي يكشف لهم عن الحقيقة التي غابت عن عقولهم كل هذه السنين وهم يتفرَّسون في المسيح ولا يرون فيه شيئاً إلاَّ أملاً كالسراب، كلما اقتربوا منه هرب من أيديهم. هنا أفصح المسيح عمَّنْ هو: «قال له

يسوع: أنا معكم زماناً هذه مدته (ثلاث سنين ونصف) ولم تعرفني يا فيلبُّس: الذي رآني فقد رآى الآب، فكيف تقول أنت أرِنا الآب؟» (يو 9:14). المسيح هنا يوبِّخ ذكاء فيلبُّس، لأن المسيح لم يكف عن القول بالنسبة لكل أعماله أنها بالآب معمولة، وأقواله أنها من الآب مسموعة، ومشيئته وإرادته أنها هي مشيئة الآب وإرادته، وأن فكره هو فكر الآب، بل وحياته هي حياة الآب. لهذا يسأله مستنكراً: كيف تقول أنت أرِنا الآب؟ ألم تَرَني؟ ألم تسمعني؟ ألم تحس بقوة عملي؟ أنه الآب فيَّ. وهكذا انتهى فيلبُّس إلى الإيمان، وهنا نبَّه إيمانه: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ؟» (يو 10:14). وعاد يحقِّق للتلاميذ مدى العلاقة الشديدة التماسك بين المسيح والآب: «الكلام الذي أُكلِّمكم به لست أتكلَّم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال» فإن كنت أعمل أعمال الآب فأنا والآب واحد: «صدِّقوني أني في الآب والآب فيَّ» (يو 11:14). فإن نظرتم إليَّ ووجدتم أمامكم إنساناً يتكلَّم، فكان يحق لكم أن لا تؤمنوا بسبب الشكل؛ ولكن إن رأيتم العمل الذي أعمله وهو فائق جداً ولا يستطيع أي إنسان أن يعمله «فصدقوني لسبب الأعمال نفسها» الآب هو الذي أعطاني هذه الأعمال لأعملها لأتِّمم مشيئته لفداء الإنسان وخلاصه ومصالحته مع الآب، ولكن إن آمنتم بي حينئذ أعدكم أن: «مَنْ يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها» (يو 12:14)، لأن الآب سيعطيه أن يعمل عملي ليتمِّم رسالتي. فالآب هو الكل في الكل: «لأني ماضٍ إلى أبي. ومهما سألتم باسمي – "لتكمِّلوا عملي" – فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالابن. إن سألتم شيئاً باسمي فإني أفعله.» (يو 13:14و14)

140 - فاعلية السؤال باسم المسيح

المناداة باسم الله والمسيح هي بمثابة الدخول في حضرته، لأن الاسم هو المعبِّر عن الذات والشخصية، فالذي يدعو باسم الرب كأنه أُدخل إلى حضرته ليتواجه مع شخصه. فالشخص مقابله في اليونانية "**بروسوبون**"، والبروسوبون هو أيضاً **الوجه**. لذلك لمَّا قال موسى لله: «إن لم يَسِرْ وجهك فلا تصعدنا من ههنا» (خر 15:33) كانت كلمة "وجهك" هي المؤدية للتعبير عن الشخص، وهذا قاله الرب ردًّا على قول موسى: « **وجهي** يسير فأريحك» (خر 14:33). والذي يؤكِّد ذلك هو ما عاد موسى يطلبه بوضوح: «فَلْيَسِرْ **السيد** في وسطنا ...» (خر 9:34). والاسم هو التعبير عن الشخص أي البروسوبون، فالذي ينادي بالاسم كمَنْ ينادي ذات الله، فللحال يوجد قائماً في حضرته. لهذا أكَّد المسيح أن الذي يسأل باسمه إنما هو كمن ينادي شخصه ويتراءى أمامه، فيسمع صوته ويُجاب: «**مهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالابن. إن سألتم شيئاً**

باسمي فإني أفعله» (يو 14: 13و14). وكلمة سأل هنا هي الصلاة المخصَّصة للطلب.

كذلك: ''سؤال الآب باسم المسيح'' يُحتسب كرفع المسيح ذبيحة أمام الآب كوسيط ليسمع الآب ويستجيب باستحقاق ذبيحة الابن: «الحق الحق أقول لكم: **إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم»** (يو 16:23). وهكذا نرى أن المسيح يُهيِّئ ذِهْن التلاميذ أن في حال غيابه تكون الصلاة والسؤال باسمه بديلاً لوجوده، وستكون مضمونة الاستجابة لدى الآب. وهكذا نرى أن الدعاء بالاسم يحل محل وجود المسيح بالجسد.

141 - الوعد بإرسال الروح القدس

هذا قرَّره المسيح تحت شروط محدَّدة: **أولاً**: المحبة، **ثانياً**: التدقيق في حفظ وصايا المسيح وأهمها الخاصة بملكوت الله، على أن الأُولى مربوطة بالثانية.

+ «**إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب** من الآب فيعطيكم **معزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد.**» (يو 14: 15و16)

بمعنى إن كان المسيح قد جاء معزِّياً لمدة زمنية محدودة، فمجيء المعزي الروح القدس سيبقى إلى الأبد.

والمسيح كان بحسب تعبيره أنه هو "**الحق**"، أمَّا المعزِّي الروح القدس فهو "**روح الحق**" «**لأنه يأخذ مما لي ويخبركم**» (يو 16:14)، لذلك معرفة المسيح والآب معقودة على الروح القدس الذي يعرفكم «**كل الحق**».

والمسيح لم يقبله العالم، لأنه ليس من العالم. هكذا الروح القدس لا يعرفه العالم ولا يراه، لذلك لا يستطيع أن يقبله. وأمَّا التلاميذ فيعرفون الروح القدس لأنه: «ماكث معكم ويكون فيكم» (يو 14:17)، كالمسيح الذي كان معهم وهو الآن فيهم بسبب الروح القدس الذي فيهم. وقد عبَّر عن ذلك بقوله: «لا أترككم يتامى - (بدون أب معزٍّ) - إني آتي إليكم (بالروح القدس)» (يو 14:18). وبمجيء المسيح بالروح القدس ليمكث فينا ويكون معنا، حينئذ سنعرف أن الروح القدس الذي في الآب والابن يأتي ويكون فينا، وبهذا يعلِّم المسيح قائلاً: «في ذلك اليوم (حلول الروح القدس) تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم فيَّ، وأنا فيكم» (يو 14:20)، ذلك بعامل الروح القدس الذي يمكث فينا ويكون معنا، وهو بآن واحد روح المسيح والآب.

لذلك لَمَّا اختفى المسيح بذهابه إلى الآب، لم يَعُدْ يراه العالم؛ أمَّا نحن فنراه رؤيا الروح للروح:

«لا يراني العالم أيضاً، أمَّا أنتم فترونني» (يو 19:14). كذلك فالمسيح في السماء عند الآب يكون حيًّا بالآب وبالروح، وهكذا نحن نكون بالروح أحياءً: «إني أنا حيّ فأنتم ستَحْـيَوْن.» (يو 19:14)

ولكن الروح يعمل ويوحِّد بقوة المحبة. وقوة المحبة تعمل بحفظ الوصايا: «والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أُحبه، وأُظهر له ذاتي» (يو 21:14)، «إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً» (يو 23:14)، و «المعزي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلِّمكم كل شيء، ويذكِّركم بكل ما قلته لكم» (يو 26:14). وهنا نقلة حية متحرِّكة داخل الإنجيل!

142 - سلام المسيح الذي يفوق كل عقل

[مَنْ ذاق سلام المسيح استهان بالدنيا].

عندما وُلِدَ المسيح حلَّ السلام على الأرض والمسرَّة بين الناس بشهادة وإعلان الملائكة من السماء مقروناً بتمجيد الله في السماء. وعاش المسيح يعطي سلامه للقلوب والعقول والأجساد والنفوس المتعبة. وهكذا حرص المسيح بعد أن أكل عشاء الفصح الأخير مع تلاميذه أن يعطيهم كلمة الإنصاف المدموغة بالسلام ليكون عطاؤه الدائم مقروناً بهذا الطقس الإلهي، حتى نعيش سلام المسيح الفائق العقل مع شركة جسده ودمه: «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم» (يو 27:14). وسلام المسيح ليس كسلام العالم والناس، لأنه سلام من «رئيس السلام» (إش 6:9)، الذي هو نفسه سلامنا (أف 14:2)! الذي دفع ثمنه كل صنوف الآلام والتعذيب والموت. فهو سلام إلهي خالٍ من ضريبة العالم الشرير. سلام لا يستطيع أحد أن ينزعه منّا، لأنه سلام الروح الخفي الذي يعزِّيً ولا يراه أحد. ولأنه سيمكث معنا طالما مكث الروح، ويمكث في إنساننا الجديد بعيداً عن متناول الناس والعالم.

143 - آخر وعد:
«لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب سمعتم أني قلت لكم: أنا أذهب ثم آتي إليكم»

فهو هنا يطالب التلاميذ بالتمسُّك بالإيمان والوعد. فالآن هنا المحك: «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأني قلت أمضي إلى الآب» (يو 28:14). وطبعاً مصدر الفرح مفروض أن يكون بسبب مجيئه الثاني المجيد. ثم يعطي سبباً آخر بضرورة الفرح الغامر وهو أنه بذهابه إلى الآب سيضيف على عطاياه **عطايا الآب أيضاً، وأهمها: الحب والمصالحة والتبني**، مضافة إلى عطايا الابن: **الفداء والخلاص والبر**. وعطايا الآب أعظم من عطايا الابن، لأن عطايا الابن كلها إنما تمهِّد لعطايا الآب،

فالفداء والخلاص مهَّد للمصالحة، والموت مهَّد للتبني لحياة جديدة. والمسيح حينما قال: «لأن أبي أعظم مني» (يو 28:14)، فهو يقولها وهو لا يزال يحمل جسد خطايا البشرية كلها قبل أن يكون قد حملها على الصليب. فهو يتكلَّم كابن الإنسان كما هو ابن الله، فهو تحت الآلام مثلنا.

ثم تحت ضغط الساعة المحسوبة أنها ساعة الأعداء وشيطان الظلمة اعتذر عن الإطالة في الكلام: «لا أتكلَّم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي» (يو 30:14). ولكن، ليس رهبة منه ولا أي اهتمام لأن المسيح حتى هذه الساعة لم يكن مديوناً للعالم ولا لرئيس العالم بخطية واحدة. فإن كان بإرادته يسير إلى الصليب فهذه علامة حبِّه للآب وطاعة لتنفيذ وصيته!

الفصل الرابع

بقية أحاديث المسيح بعد ترك العلية

144 - الكرمة والأغصان

[مَثَل "أنا الكرمة وأنتم الأغصان" يحوي كل اللاهوت المسيحي].

كان الجو مفعماً بالروح والسريَّة، وبهذه الروح بدأ المسيح يصف علاقته الداخلية السريَّة بالتلاميذ، وبالتالي بالمؤمنين به، وهي العلاقة التي ابتدأت من خلال التعليم واستعلان الحقائق والأمور الروحية. والمسيح يؤكِّد أن هذه العلاقة ليست وقتية ولا هي جسدية أو حتى عاطفية، بل هي علاقة بدأت لتبقى إلى الأبد علاقة سريَّة داخلية من المستحيل العثور على دقائق معناها، ولكن يمكن تشبيهها إلى حدٍّ كبير بالكرمة والأغصان. فالآب هو الكرَّام، والمسيح هو الكرمة، والتلاميذ أو المؤمنون هم الأغصان. فالعصارة تأتي من جسم الكرمة وتسري في الأغصان التي هي رمز الحياة الروحية، وتدخل الورق وتصنع الثمرة التي هي نتيجة نشاط الفروع. فالعصارة المستمدة من الكرمة فيها عنصر الإثمار، ولكن تخصُّص الفروع هو تحويل العصارة إلى ثمر. والآن، فالفروع لا يمكن أن تثمر إلاَّ بالعلاقة الشديدة المشتركة غير المتوقفة ولا المنفصلة مع الكرمة. هذه الشركة تثمر بالاتصال الوثيق، ولكن أي توقف لسير العصارة تؤدِّي حتماً إلى ذبول الفروع ولا تثمر بعد بل تموت. لذلك حينما تظهر الثمار الناضجة والنضرة، فهي تحكي عن علاقة وثيقة صحيحة وسليمة مع الكرمة. والكرَّام يأتي ويقطع الأفرع العاطلة عديمة الإثمار أو المتباعدة عن جسم الكرمة، لأنها تسيء إلى الإثمار. هكذا الآب السماوي بالنسبة للمؤمنين، الناجح المثمر يعتني به أكثر، وغير المثمر ينزعه لئلاَّ يُعطِّل عمل الكرمة ويمتص عصارتها بلا منفعة. وهكذا، فالأعمال المثمرة تحكم على المؤمنين بصحة شركتهم مع المسيح ومنفعتهم لحساب الملكوت.

وحتى الأفرع المثمرة، نجد الكرَّام يقلِّمها وينزع الأجزاء الضعيفة منها ويُبقي الجزء المثمر فيها. هكذا يحتاج المؤمنون إلى عناية الآب السماوي لبقاء نشاطهم وإثمارهم لحساب الملكوت. وإذا لاحظ الكرَّام أي نموَّات في الأغصان زيادة عن حاجة الإثمار، فهو يزيلها أولاً بأول حتى يكون امتصاص الغصن يساوي إثماره. هذا هو تنقية القلب وتمحيصه بالتجارب، التجارب التي يُهذِّب بها الآب

السماوي المؤمنين العاملين المثمرين، ويُقمع تطلعاهم ونشاطهم الزائد عن حدود الإثمار. وهكذا حينما يأتي التلميذ بالثمر المكافئ لِمَا امتصه من عصير المعرفة والحب وعناية النعمة، يُثبت في الحال أمانة الفرع وأحقيته في الحياة: «بهذا يتمجَّد أبي أن تأتوا بثمر كثير!» (يو 15:8)، «الذي يثبت فيَّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير. لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو 15:5)

والمسيح يكشف علاقة الكرَّام بالكرمة ثم امتدادها في التلاميذ هكذا: «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي» (يو 15:9). لهذا أصبحت الوصية الأساسية في تركيب العلاقة بين المسيح وتلاميذه على مثال الكرمة هي المحبة التي تمثِّل العصارة السرِّية التي تموِّن بها الكرمة الأغصان أولاً بأول لتنمو وتنضج وتأتي بثمار؛ وكأنما دم المسيح هو عصارة هذه الكرمة.

والمسيح أعطى نموذج المحبة الصادقة غير الغاشة والقادرة أن تُحيي وتُثمر هكذا: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو 15:13)، هذا النموذج أكمله المسيح على الصليب ليبقى مصدر الحب الأبدي لكل المؤمنين به.

أمَّا سر هذا الحب فيبقى أغنى مصدر للحياة في المسيحية، لقد قبله الابن من الآب؛ ولذلك، فالابن والآب واحد. ثم أصبح عمل المسيح الأول والأعظم أن **يسلِّمنا هذا الحب عينه، في كأس دمه،** وهو هو حب الآب له، وحينئذ نرتفع إلى درجة أحباء الله ولا نصير بعد عبيداً: «لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سميتكم أحباءَ لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو 15:15). أمَّا الذي أعلمهم به من عند الآب، فهو محبة الآب لهم التي نفَّذها المسيح بالفداء الذي أكمله حبًّا لهم من عند الآب: «عرَّفتهم اسمك وسأعرِّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم!» (يو 17:26)

145 - الوعد الأخير بإرسال الروح القدس

[لولا مجيء الروح القدس لعزَّ علينا إدراك سر موت المسيح وقيامته].

إزاء عدم ثبات التلاميذ وشدة قلقهم الذي ابتدأ يزداد، لما صرَّح المسيح بأكثر وضوح عن الضغطة القادمة، أعطاهم رجاءً جديداً كوعد **بإرسال الروح القدس الذي سيتولَّى تعريفهم بكل الحق.** ثم ربط ذهابه بمجيء الروح القدس الذي سيكون عوناً عظيماً لهم، حتى يجعل هناك توازناً بين ما سيفقدونه بذهابه وما سيربحونه بمجيء الروح القدس: «لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم

أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» (يو 7:16). ثم بدأ يوضِّح لهم منهج الروح القدس الكامل في المسيحية الذي يقوم على ثلاثة أساسات:

الأساس الأول: إن عمله سيكون تبكيت العالم على خطية كائنة.
الأساس الثاني: تبكيت العالم على برٍّ ضاع ويضيع من بين أيديهم بسبب عدم إيمانهم.
الأساس الثالث: تبكيتهم على دينونة مزمعة أن تأتي كمحاكمة وقضاء رهيب.

الأول: عمل كائن، وهو الخطية، يكشفها ويعلنها في الضمائر؛ **والثاني**: مضى ويمضي كل يوم وهو البر الذي منحه إيانا بقيامته من بين الأموات الذي كان ينبغي أن نقيِّمه ونتمسَّك به، والذي يتحتَّم الآن أن نتعرَّف عليه ونتمسَّك به من أجل خلاصنا وحياتنا الأبدية؛ **والثالث**: آتٍ، وهو الدينونة لتصفية أعمال الناس وإعطاء الجزاء.

فإن كان هذا هو عمل الروح القدس، يكون قد أصبح أكبر سند وعامل مع التلاميذ في كرازتهم، لأن طبيعة الروح القدس ستكون وفق مشيئة الله من جهة مطالب الكرازة والتعليم. والثلاثة سيؤسِّسهم الروح القدس في ضمير الإنسان: ضمير خطية، وضمير بر، وضمير دينونة. وهذه الثلاثة هي أعمدة تأسيس ملكوت الله على الأرض التي سيقيم عليها التلاميذ بالروح القدس كل ما يؤدِّي إلى ملكوت الله.

لذلك وإن كان المسيح يعتذر أن الوقت الآن غير متسع أن يعلِّمهم عن ذلك بالتفصيل، ولكن يثق أنهم بقبولهم الروح القدس سيعوِّض الروح كل ما كان يريد أن يعلِّمه المسيح، إذ سيكشفه لهم الروح ويعرِّفهم به أولاً بأول. لذلك يكرِّر أنه خير لهم أن ينطلق حتى يأتيهم المعزِّي الذي سيكمِّل كل ما بدأه المسيح، ويضيف عليه كل ما كان المسيح يودّ أن يُعلِّمهم إياه، وذلك عن طريق الروح القدس. لأنه لولا هذه النعمة العظمى، وهي عطية الروح القدس، ما عرفنا حقيقة المسيح ولا استعلنَّا موته وقيامته والخلاص العظيم الذي أكمله. على أن الروح القدس هو روح الحق الذي ينبثق من عند الله، والذي يكشف كل ما هو حق. ولكن لا يوجد ما هو جديد في الحق غير المسيح، فالروح لا يعلِّم أو يكشف لهم شيئاً من نفسه، بل كل ما للمسيح يأخذه منه ويخبرهم به.

وأخذ ينبِّههم أن يلتفتوا إلى أنفسهم، فبعد قليل سيختفي عنهم، إذ سيذهب عبر الصليب والقيامة إلى الآب، ولكن بعد قليل أيضاً بالقياس الزمني سيرونه أيضاً وتتعزَّى نفوسهم. ولكن انتظارهم الروح القدس هو القضية الهامة جداً في هذه الساعة التي ينبغي أن يعقدوا عليها الرجاء والصلاة والانتظار. **فحياتهم الجديدة متوقفة على مجيء الروح القدس**. والميزة العظمى التي وعدهم

المسيح بها أنها ستكون أعظم معين لهم في الحياة من بعده: إنه مهما قدَّموا من صلاة باسمه فهو سيسمع وسيستجيب، سواء باسمه مباشرة أو إلى الآب باسمه، لأن الآب يحبهم. وأكَّد لهم أن وجوده في السماء سيزيد من وساطته عند الآب من أجلهم، وشجَّعهم للطلب: «اطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً» (يو 24:16)، لا كأنه سيطلب من الآب لأجلهم، ولكن الآب سيعطيهم لأنه يحبهم: «لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتم أني من عند الله خرجت. خرجت من عند الآب، وقد أتيت إلى العالم، وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو 16: 27و28)

فلمَّا ظن التلاميذ أنهم استطاعوا أن يدركوا هذه الحقيقة الإلهية السرِّية العظمى: كيف أن الابن خرج من عند الآب، وتجرَّأوا وقالوها: «نؤمن أنك من الله خرجت» (يو 30:16)، تأسَّف المسيح لأن هذا ليس هو حالهم وكشف لهم عن حالهم الحقيقي: «أجابهم يسوع: الآن (تقولون إنكم) تؤمنون؟ هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرَّقون فيها كل واحد إلى خاصته (بيته)، وتتركونني وحدي» (يو 32:16). وهكذا كشف المسيح إلى أي مدى كان التلاميذ غير قادرين أن يستوعبوا الحقائق الأخيرة، ولهذا حتَّم الآب والمسيح بضرورة إرسال الروح القدس الذي يعزِّي ويبكِّت ويبرِّر ويدين، حتى يقبلوا الطبيعة الجديدة التي يستطيع الروح القدس أن يسقيها الحق كل الحق.

الكلمة الأخيرة:

+ «**قد كلَّمتكم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم** (**لحسابكم**).» (يو 33:16)

146 - المسيح ككاهن أعظم يقدِّم أعماله للآب ويُعدّ نفسه لترك العالم

ليست صلاة في كل التوراة والإنجيل تشبه ولا من بعيد هذه الصلاة.

هي صلاة لأنها مرفوعة إلى الآب، وبآن واحد، هي تقديم أعمال وحساب وكالة واستعلان أمجاد وكشف حقائق.

وهي حديث سرِّي خاص بين الابن المُرسَل وقد أكمل الرسالة، والآب الذي أرسل يسمع ويبارك ويوافق.

وهذه الصلاة لا تنتظر نتيجة، فالنتيجة هي العمل الذي عمله المسيح؛ فهي تضمنه وتحكي عنه.

وفيها يدخل المسيح في حديث سرِّي مع الآب، يعلن لنا فيه العلاقة التي تربط الابن بالآب، والتي

تربطنا بالمسيح والآب.

ويتحدَّث مع الآب عن الوحدة المنتظرة مع الناس التي كانت بذرتها الأُولى وأساسها الأول في علاقة المسيح بالآب.

ويختمها المسيح بأن استعلان سر الآب الأخير هو في انسكاب محبته الأبوية في الإنسان ككل كما في المسيح الابن.

بعد أن تحدَّث المسيح مع تلاميذه الحديث الأخير، انطلق في حديث حر مع الآب، وهو رافع عينيه نحو السماء يخاطب الآب:

+ «**قد أتت الساعة**»: ساعة الانطلاق ليكون مع الآب وهي نفسها ساعة محنة وشدة عظمى، وهنا يتكلَّم المسيح كابن مع الآب.

+ «**مجِّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً**»: يطلب استعلان ''مجد الابن'' في محنته القادمة، ليس لنفسه، ولكن من أجل الذين آمنوا به، لأنه أخذ من الآب سلطاناً على كل ذي جسد ليعطي الحياة الأبدية لكل مَنْ اجتذبه الآب إليه (إلى المسيح). وهنا استعلان مجد الابن سيكون لتشديد إيمان الذين آمنوا به، الذين جذبهم الآب إلى الابن ليحصلوا على الحياة الأبدية التي أعطاها المسيح. بمعنى أن المجد الذي يطلبه الابن يطلبه ليتحوَّل في ساعة المحنة إلى سبب ثقة في المسيح، وبالتالي التمسُّك بالحياة الأبدية التي أُعطيت لهؤلاء الذين جذبهم الآب إليه. وهكذا يكون المجد الذي يطلبه المسيح يطلبه لحساب دخول المختارين ملكوت الله.

ثم يعرِّف المسيح الحياة الأبدية بالنسبة لعمله الذي عمل:

+ «**وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته**».

وهذا ما أكمله المسيح في هذه الثلاث سنوات ونصف!!

+ «**العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته**».

ولكن لكي ينزل الابن من عند الآب ويتمجَّد ويعمل هذا العمل، يتطلَّب بالضرورة أن يتخلَّى الابن عن مجده ليصير في شكل العبد. لذلك، وبما أن العمل قد أُكمل، أصبح من حق الابن أن يطلب مجده السابق:

+ «**والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم**».

ولكن لا يغيب عن البال أنه الآن لابس جسد إنسان**!!** فالمجد سيطال البشرية فيه**!!**

ثم دخل المسيح مع الآب في التركة التي سيتركها على الأرض وهم الذين عرفوا اسم الآب. نخبة من الذين في العالم وقد علموا وتأكَّدوا أن كل ما للمسيح من عند الآب، وقبلوا كلام الآب الذي أعطاهم المسيح، وقد أصبحوا للآب كما هم للابن. هؤلاء يتركهم المسيح في العالم ويذهب إلى الآب. فالآن يسأل المسيح:

+ «**احفظهم في اسمك ... ليكونوا واحداً كما نحن.**» (يو 17:11)
+ لَّما كان المسيح في العالم كان يحفظهم في اسم الآب؛ ولكن الآن، وقد أتت الساعة ليذهب الابن إلى الآب قد أصبحوا لحساب الآب يعيشون في العالم تحت تهديد الآلام والموت.
+ لَّما سلَّمهم المسيح سرَّ الآب وكلامه وعلمه ومعرفته، أبغضهم العالم، لأنهم أصبح لهم صورة غير صورة العالم، والعالم يحب خاصته فقط.
+ فكما أن المسيح لم يكن له صورة العالم، كذلك تلاميذه.
+ والمسيح لا يطلب من الآب أن يأخذهم من العالم، بل أن يحفظهم من الشرير، بأن يقدِّسهم في حق الآب ويغرس كلامه في قلبهم، لأن كلامه هو الحق.
+ كان المسيح يقدِّس ذاته من أجلهم ليكونوا مقدَّسين فيه.
+ ولكن لم تكن طلبة المسيح وسؤاله من أجل تلاميذه فقط، بل من أجل كل الذين يؤمنون بالمسيح إيمان القلب والفم.
+ حتى يكون كل المؤمنين بالمسيح واحداً، كما أن الآب في الابن واحد.
+ «**ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.**» (يو 17:21)

ومن أجل أن يكون لهم قوة الوحدة في الابن والآب، أعطاهم المسيح مجد بنوته،

+ «**وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.**» (يو 17:22)، أي صاروا أبناءً في الابن.
+ «**أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد**» (يو 17:23)،
+ ليعلم العالم حينما يرى وحدتهم في المسيح والله أن الله أرسل المسيح حقَّاً،
+ «**وليعلم العالم أنك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني.**» (يو 17:23)

وهذا أمر حقيقي أن ظهور المؤمنين في وحدة المحبة مع المسيح والله، تُعلن مجدالله فيهم وتُمجِّد الله في ذاته، لأن المظهر الجليل الخارجي لوحدة المحبة يُعلن مجد الله الحقيقي في الداخل.

+ ثم يطلب المسيح طلبة أخيرة أن يكون المؤمنون به حيث يكون هو ليروا مجده في وحدة الحياة الأبدية، لأنه وعد!

وعندئذ يشهد المسيح للآب ضد العالم:

+ «**العالم لم يعرفك، أمَّا أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني.**» (يو 25:17)

ويطلب المسيح طلبته الأخيرة التي فيها خلاصة الحق والمعرفة والحياة:

+ «**عرَّفتهم اسمك** (ذاتك) **وسأُعرِّفهم** (بالروح)، **ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.**» (يو 26:17).

وكانت هذه الصلاة على مرأى ومسمع من تلاميذه الأخصاء.

الفصل الخامس

جثســيماني

+ «الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة، لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر.» (1بط 24:2)
+ «هكذا المسيح أيضاً، بعد ما قُدِّم (للموت) مرَّة لكي يحمل خطايا كثيرين ...» (عب 28:9)

147 - المسيح يصلِّي ليعد نفسه للتسليم

إن أعنف صلاة سُمع بها لدى كل البشر لا تبلغ عنف صلاة جثسيماني.

والكل يندهش ويتعجَّب، والبعض يشك ويسأل ويتعثَّر: هل من هدوء العشاء الأخير تخرج هذه الصلاة التي تبعتها فوراً؟ هل تعبيرات المحبة والسلام: «إذ كان قد أحبَّ خاصته الـذين في العـالم، أحبَّهم إلى المنتهى» (يو 1:13) التي قالها المسيح وهو جالس على العشاء، أو هل تعـبيرات الألفـة والحب المنقطع النظير لتلاميذه في جلسة العشاء الحبي: «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألَّم» (لو 15:22)؛ تأتي بعدها صلاة جثسيماني بدموع وعرق يتقطَّر كالدم، ووجه مسبَّخ على التراب «بصراخ شديد ودموع» (عب 7:5)؟ كيف ولماذا؟ هل هو خوف من الموت؟ وهـل كان المسيح لاهياً عنه كل أيام حياته السابقة مع أنه ذكره مراراً وتكراراً؟ ثم فجأة لَمَّا قربت سـاعة الموت ارتعب، أهذا يكون المخلِّص؟ إنه حتماً إذا لم يكن لهذا الفزع المرعب ـ «نفسي حزينة جداً حتى الموت» (مت 38:26) ـ مبرِّر، فجثسيماني كلها ليس لها مبرِّر!!

إذن، فعلينا مراجعة أوراقنا وكلماتنا، فمحور الصلاة الحزينة الكئيبة الضاغطة علـى الـنفس في جثسيماني كان شيئاً واحداً وهو الكأس؟ هذا هو الذي أفزعه وأحسَّ أنه غير قادر على شربه حـتى ولو كان بيد الآب!! طلب ثلاث مرات أن يجوز عنه هذا الكأس وكان طلبـه مـشفوعاً بـدموع وتوسلات ونفس حزينة حتى الموت. هل كان هذا خوفاً من الموت؟ فلماذا أخلى ذاته وأخذ شـكل العبد؟ ولماذا أطاع حتى الصليب إن كان يفزع من الموت، ويقدِّم دموعاً كالدم ليُعفى منـه؟ ولمـاذا وهو يكرِّر في كل المناسبات أن ابن الإنسان سوف يُقتل، فإن كان والأمر كذلك ـ أي أنه يخـاف

من الموت ـ فلماذا لم يستعفِ من البدء وكفانا هذه الفضيحة!؟

أمَّا سر فزعه فرهيب! وهو كفيل أن يزلزل، لا الأرض كلها، بل والسماء! ففي الكأس مذاب سم زعاف، كل خطايا الناس من: زنا وقتل وتجديف وعهارة ونجاسة وفجور وفحشاء، أشياء تُكتب وأشياء لا تُكتب محفوظة في سجلات جهنم. هذه كلها ظهرت مرَّة واحدة أنه يتحتَّم أن يقبلها المسيح الابن ويشربها حتى الثمالة ويقف أمام الله أبيه مفضوحاً، ليس مَنْ يستر عورته أو يرد عنه خجله كمجدِّف على مجد الله الآب، كيف؟ ومَنْ يستطيع؟ أن يموت، نعم وألف نعم، ولكن أن يموت على هذه الحال مرفوعاً على خشبة العار كمجدِّف على الآب؟ كيف وهو الطاهر القدوس الذي لم يوجد في فمه غش ولم تُمسك عليه خطية قط. أين توضع عليه هذه؟ وإن **حملها في جسده** ليقف بها أمام محكمة الأرض وأمام الديان ليُعطي جواباً عنها، فلا إجابة! وأن يُحكم عليه بمقتضاها فلا يستعفي ولا يبرِّئ نفسه ولا يحتج على محكمة ولا على قاضٍ، ويقف صامتاً تماماً لا يجيب حتى تخرج عليه القضية كما خُطِّط فيها من خطايا وتعديات، ويُجرّ إلى الصليب كنعجة تحت يد الذي يجزّها ليتحمَّل الضربات القاسية كمَنْ يستحقها، لا يقول كفى ولا يستعفي من آلامها!! ويُسحب إلى الصليب ويُصلب، وهو لا يفتح فاه إلاَّ بقوله قد أُكمل!!

هذا هو الكأس، ليس هو موت بعد بل عار فوق عار، كل خطايا البشرية وفضائح بني الإنسان التي سُجِّلت والتي لم تُسجَّل، حملها كلها ليموت بها كلها موت الخطاة. هذه هي التي كسرت نفسه قبل أن ينكسر الجسد على الصليب، وأحزنته حزن الموت أعمق من الموت الذي ماته على الصليب ألف مرَّة!

أمَّا السؤال: لماذا تستقر في جسده كل هذه الخطايا؟ فالجواب: لأنه جاء خصيصاً ليرفعها عن الإنسان، فأخذها في جسده البشري ليموت بها مع الإنسان ليلغيها بقوة قيامته وقدوسيته.

أمَّا السؤال: ما العلاقة بين هذه الخطايا وموت المسيح؟ الإجابة: لولا أنه ثبت عليه أنه خاطئ ما كان قد صدر ضدَّه حكم الرومان بناءً على طلب اليهود. ثم لولا أنه معتبر أنه خاطئ ما أمكن أن يجوز فيه روحياً حكم الموت! **فهو حمل الخطايا ليستطيع أن يموت**، وهذا حكم أزلي من أحكام الله: «مَنْ أخطأ إليَّ أمحوه من كتابي» (خر 33:32). ولو لم يحمل المسيح خطايا البشرية ما أمكن أن يجوز فيه حكم الموت أو يسلِّم روحه بأي حال من الأحوال. وبآن واحد، لولا أنه الابن الوحيد ما قام من مثل هذا الموت أبداً.

لذلك كان جزعه من هذه الساعة مريعاً: «ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يو

27:12)، «وكان يصلِّي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (مت 39:26)، وإلى ثلاث مرَّات كما في إنجيل ق. مرقس (41:14).

وهكذا مات المسيح كخاطئ ومتعدٍّ! واحتجب وجه الآب عنه، لأنه حمل خطايا الإنسان كلها باستحقاق، فصرخ بفم كل إنسان خاطئ: «إلهي إلهي لماذا تركتني» لأن الآب يتحتَّم أن يتركه ـ يتركه ليموت بخطايا البشرية كخاطئ متغرِّب عن الآب ـ فهذا هو الفداء، ليعود إليه ثانية حاملاً البشرية المعذَّبة المطهَّرة من خطاياها ليقدِّمها إليه للمصالحة والتبنِّي.

فجثسيماني تحمل سر كل رعبة موت الخطاة! احتملها المسيح وحده.

148 - القبض على المسيح: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة»

حينما كان المسيح في جثسيماني يصلِّي كانت العيون تترصَّده من بعيد، وكان يهوذا قد أرشد عن المكان والزمان، فاجتمعت جنود الهيكل مع ضبَّاطه، وفِرقة من جنود الرومان ليكون القبض من قِبَلِ الحكومة الرومانية ولحفظ النظام، وجماعة من الرعاع يقودهم رؤساء من السنهدرين ليعطوا الصفة اليهودية الرسمية للقبض، وكان يسير في المقدِّمة يهوذا متخفِّياً، خرج في الظلام وجاء في الظلام لأنه فقد النور. كان المسيح يُعِدُّ نفسه للتسليم، كان دائماً يقف موقف الناهر للشيطان، ولكن كان لابد الآن أن يمد يده ليُقبض عليه، فهي ساعة الظلمة، حيث جاء السنهدرين مُمثَّلاً برؤسائه، والشيطان مُمثَّلاً بيهوذا. لم ينتظر المسيح ليأتوه حيث وقف، بل سار إليهم يتبعه تلاميذه من بعيد. وفي هدوء الملوك سألهم: مَنْ تطلبون، لكي يريح يهوذا ويزيحه من مهمته ويُسقط قبلته. فلمَّا قالوا: يسوع الناصري، عرَّفهم بنفسه "أنه هو"، فتراجعوا لمهابته إلى الوراء وزحموا بعضهم بعضاً، فسقطوا على الأرض، ثم أسرعوا بالوقوف. فبادرهم مرَّة أخرى: مَنْ تطلبون؟ فقالوا: يسوع الناصري. فقال لهم: «فإن كنتم تطلبوني فدعوا هؤلاء يذهبون» (يو 8:18). ولكن سمعان بحركة تمثيلية فاقداً شجاعة الجندي استل سيفه كأنه يدافع عن سيده، وبيد مرتعشة ضرب عبد رئيس الكهنة ملخس، فقطع أذنه. لاحظه المسيح فأمره أن يضع السيف في غمده قائلاً: «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (مت 52:26)، ولمس أذن ملخس فشُفيت في الحال. وبعدها «قال يسوع لرؤساء الكهنة وقوَّاد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه: كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعِصيٍّ! إذ كنت معكم كل يوم في الهيكل لم تمدُّوا عليَّ الأيادي. ولكن **هذه ساعتكم وسلطان الظلمة**.» (لو 22: 52و53)

وبعد أن قبضوا عليه أخذوه إلى بيت حنَّان وهو حمو قيافا رئيس الكهنة في هذه السنة. **أمَّا التلاميذ فتركوه كُلُّهم وهربوا**، ما عدا بطرس الذي تبعه من بعيد، ويوحنا الذي دخل معه دار رئيس الكهنة لأنه كان معروفاً عندهم، فيوحنا كان من عائلة كهنوتية.

ولكن لا يفوتنا هنا قصة الشاب الذي كان يتبع المسيح الذي لَمَّا حاولوا أن يقبضوا عليه ترك لهم الإزار الذي كان مُتَّزراً بها وهرب؛ إذ تتركَّز عليه الأنظار أنه هو يوحنا مرقس صاحب العليَّة وصاحب بستان جثسيماني وصاحب الإنجيل، وهو الذي ذكر هذه الحادثة مشيراً إلى نفسه بطرف أصبعه. ويُظن أنه هو الذي دخل مع المسيح إلى دار الولاية، وكان هو المترجم من اللغة اللاتينية التي أتقنها من دراساته في القيروان بليبيا قبل أن يهاجر مع الأسرة إلى فلسطين. وبهذه المناسبة، فالقديس مرقس هو أول مَنْ ذكر الآلام والمحاكمة بالتفصيل، لأنه أول مَنْ كتب من الإنجيليين، وأخذ عنه الجميع.

الفصل السادس

المحاكمة والحكم

149 - المحاكمة أثناء الليل

بمجرَّد وصول المسيح مقبوضاً عليه إلى دار حنان – وهي نفس دار قيافا، إنما في الجناح القبلي منها – اجتمع السنهدرين على عجل لمحاكمة مبدأية للمسيح، لأن محاكمة الليل معروفة أنها غير قانونية. والوحيد الذي ذكرها هو ق. يوحنا في إنجيله، ويبدو من ذلك أنه كان شاهد عيان، لكنه لم يسجِّل في هذه المحاكمة أي شيء إلاَّ أسئلة من حنان عن تلاميذ المسيح وعن تعليمه: «أجابه يسوع: أنا كلَّمت العالم علانية. أنا علَّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلَّم بشيء. لماذا تسألني أنا؟ اسأل الذين قد سمعوا ما كلَّمتهم. هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا. ولمَّا قال هذا لطم يسوعَ واحدٌ من الخدَّام كان واقفاً، قائلاً: أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟ أجابه يسوع: إن كنت قد تكلَّمت رديًّا فاشهد على الردي، وإن حسناً فلماذا تضربني؟» (يو 18: 20-23)

150 - المحاكمة في الصباح

أُحيل المتهم إلى السنهدرين رسمياً من قِبَلِ حنَّان، فأصبح تحت رئاسة قيافا. حاول قيافا محاولة حنَّان في ابتزاز أجوبة من المسيح من أي نوع، فلم يكن نصيبه أوفر، إذ لجأ المسيح إلى الصمت إزاء كل الأسئلة. ولم يكن هذا غريباً الآن على ذهننا، فنحن قد علمنا من صلاة جثسيماني أن المسيح قد قَبِلَ شرب الكأس حسب مشيئة الآب، ولم تكن الكأس إلاَّ خطايا البشرية جميعاً. فها هو الابن يُسأل ظاهرياً عن خطاياه فلم يَرُدّ إطلاقاً، لأنه لم يكن له خطية ولا كان في فمه غشٌّ. أمَّا هو فاحتُسب أمام الآب السماوي أن كل ما سُئل عنه من أخطاء وخطايا هو أقل بكثير مما ارتضى أن يحمله. فكان ردّه الداخلي منتهى الرِّضا والسرور بهذه الاتهامات الصحيحة والمزوَّرة – بآن – لأنه أصبح في واقع نفسه وحياته خاطئاً بكل معنى الخطية – مع أنه بلا خطية وحده – وقَبِلَها، لا كأنها استعارة، بل كمن يُحاكم بمقتضى اقترافها، لكي يصدر الحكم الأخير بأنه نظير البشرية جمعاء خاطئٌ ومذنبٌ أمام الله والناس.

وقد حاول قيافا بكل جهده أن يدافع عن نفسه كقاضٍ يبرِّر قضيته على المسيح كخاطئ، وقد جرَّ شهود الزور الذين جمعهم، وكأنهم يشهدون على حق؛ ولكن، ولا كل محاولاته أصابت هدفها. وأخيراً، لجأ قيافا إلى حيلة خطيرة لإحراج المسيح وإجباره على الكلام، بأن ألقى عليه سؤالاً صحيحاً يمس صدق المسيح وواقع حياته وكيانه ووجوده، عالماً أنه لابد وسيتكلَّم. وفعلاً ردَّ المسيح وتكلَّم، إذ قدَّم رئيس الكهنة لسؤاله بقسم بالله: «أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟» (مت 26:63). آه نعم، لقد أصاب الحقيقة التي طالما جاهد ليطمسها، والآن أصبحت دينونة هذا الرئيس الكاذب المرائي الحالف باسم الله العظيم خلسة وخدعة ليُسقط المسيح في قول الحق فقاله. فما كان منه إلاَّ أن أخذه مأخذ الغش والتجديف ... ردَّ عليه المسيح باختصار إلهي مهيب: « أنت قلت» بمعنى هذا هو الحق، وأنا كذلك!! وأضاف المسيح شهادة لهم وهي عليهم: «وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة، وآتياً على سحاب السماء» (مت 26:64)، وهي تعني أنكم سوف ترون كيف يتحقَّق هذا بالفعل، ولكنها يوم الدينونة التي ستعطون فيها حساباً عن كل أعمالكم كلصوص. قالها ليثبت بها حقـًّا أنه المسيَّا ابن الله لكي لا يكون لهم مهرب مما سمعوا. ولكن رئيس الكهنة سدَّ أذنيه عن سماع الحق الذي سمع، وفتح قلبه المملوء بالغش والخداع ليؤكِّد ما قد دبَّر له بأن يجعله ينطق مرغماً أنه ابن الله، ليأخذها شهادة من فمه ضده، مع أنها شهادة سيُحاكم بها هو وأُمته حكماً مرعباً يوم استعلان سرائر الناس!

أمَّا رئيس الكهنة فقد قام بتمثيلية قديمة: لأن رئيس الكهنة إذا سمع تجديفاً يُسرع بأن يشق ثوبه شهادة دامغة أن جُرماً عظيماً حدث في إسرائيل، صارخاً: ها أنتم قد سمعتم! «ما حاجتنا بعد إلى شهود. ها قد سمعتم تجديفه! ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت!» (مت 26: 65و66). على أساس أنه ادَّعى كذباً أنه المسيَّا وابن الله معطياً لنفسه مجد وكرامة الله! ولكن أين التجديف وأين الخطأ؟ وبناء عليه اعتبر السنهدرين أن المسيح قد قُطع من مملكة إسرائيل والله، وهذا يعني أن يصير طُعمة يتبارون فيه بالضرب والتعذيب إلى أقصى ما في وسع الأشرار!!

> وكانت هذه اللحظات بالنسبة للاهوت الفداء معجزة فلتت من أيديهم أن يُثبت المسيح بقسم أنه هو المسيَّا الذي أتى، وهو ابن الله المتجسِّد أمامهم، وبآن واحد، توضع عليه خطايا الخطاة ليلقى نصيبهم!! ويتألَّم قبل أن يموت. فالآن هو معه شهادة رسمية من أعلى محكمة يهودية تمثل الله أنه خاطئ ومذنب، وعلى هذه الصورة قدَّموه لبيلاطس لينطق بالحكم الأخير بالموت.

151 - إنكار بطرس

عندما قبضوا على المسيح وساروا به من جثسيماني إلى دار رئيس الكهنة حنَّان، كان سمعان بطرس ويوحنا يتبعان يسوع، وكان ق. يوحنا معروفاً عند رئيس الكهنة وأهل بيته وخدَّامه. لأن بعض الباحثين يقولون إن ق. يوحنا كان من عائلة كهنوتية(1). فدخل يوحنا مع المسيح في دار رئيس الكهنة، أمَّا بطرس فحُجز عند الباب؛ ولكن ق. يوحنا خرج وكلَّم البوابة فأدخلته. فتفرَّست البوابة في بطرس، وقالت له: «ألست أنت **أيضاً** من تلاميذ هذا الإنسان (المسيح). **قال ذاك (بطرس): لست أنا** (الإنكار الأول)» (يو 18:17). وكون أن البوابة تكلَّمت مع ق. بطرس، فهذا يفيد أنها تعرَّفت أيضاً على ق. يوحنا قبله، و لم يكن هناك اعتراض ما منها، فهي بوابة. ولكن بهذا السؤال شعر بطرس أنه أصبح مكشوفاً، فكان مرتبكاً. ولَّما انضم إلى الخدم ليستدفئ معهم، إذ كانوا قد أشعلوا النار، ولمعت النار في وجه بطرس فكشفت أنه جليلي من لبسه وسحنات وجهه، فرأته جارية أخرى. فلمَّا رأته وتطلَّعت جيداً في وجهه وعرفته: «نظرت إليه وقالت: وأنت كنت مع يسوع الناصري! فأنكر قائلاً: لست أدري ولا أفهم ما تقولين! وخرج خارجاً إلى الدهليز، فصاح الديك (الإنكار الثاني) ... وبعد قليل أيضاً قال الحاضرون لبطرس: حقًّا أنت منهم لأنك جليلي أيضاً ولغتك تشبه لغتهم. فابتدأ يلعن ويحلف: أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه! وصاح الديك ثانية (الإنكار الثالث)، فتذكَّر بطرس القول الذي قاله له يسوع: إنك قبل أن يصيح الديك مرَّتين، تنكرني ثلاث مرَّات.» (مر 14: 67-72)

في كل هذا، وبينما كان بطرس يستدفئ وابتدأ ينكر، كان المسيح قد انتهى من جلسة المحاكمة. ولَّما خرجوا به إلى دار الولاية مرُّوا من المبنى إلى الدهليز وعبروا على بطرس: «فالتفت الرب ونظر إلى بطرس» (لو 22:61)، وبها تذكَّر بطرس ما قاله المسيح: «فخرج إلى خارج وبكى بكاءً مُرًّا.» (مت 26:75)

---

(1) **Euseb., *H. E.*, V. 24; Epiph., *Adv. Haer.*, LXXVIII. 14, quoted by B. F. Westcott, *The Gospel According to St John*, p. 256.**

في محكمة الرومان
152 - المسيح أمام بيلاطس البنطي(2)
الحاكم الروماني (26-36م)

---

(2) **بيلاطس البنطي**: كان في ذلك الوقت والي اليهودية الذي قام بدور القاضي وإصدار الحكم على المسيح. ومنذ ذلك الحين وهو يُذكر باللعنات، ولكن لو فُحص دوره عن دقة، يتضح أنه كان إلى حدٍّ كبير ضحية الظروف الشاذة التي وُضع فيها، حتى أن الدارس الواعي ربما يشفق على موقفه الفريد. لقد كان مثال الروماني الملتزم والعملي الذي عُرف عنه كما عند كل الرومان إزدراؤه بالخرافات التي كانت ترزح تحتها كل الديانات في ذلك الوقت. يُضاف إلى ذلك، الكره الطبيعي ضد اليهود المتألهين بختانتهم، ومن حظِّه أنه يأخذ سمعته من معالجة هذه القضية ومع اليهود بالذات، الجنس الذي اشتهر بضيق ديانته وانفعاله الجنوني ضد أي ما يمس تقليده وميراثه. لذلك كان التعامل معهم يحتاج إلى تصرف لبق ومحايد. وبيلاطس رجل امبراطورية لا يعرف إلاَّ اليد المرتفعة والطاعة بالإرغام، لذلك كانت الاضطرابات لا مفر منها، ولكنه ما أن وضع قدمه في أرض اليهودية حتى بدأ الصراع. فالحاكم السابق له، إذ كان قد درس أخلاق القوم، كان يتحاشى أن يُدخِل الجنود أُورشليم حاملين شارة النسر، أو صورة الإمبراطور، أو أن يرفعوها على الأبنية؛ لأن هذا رجس في إسرائيل كفيل أنَ يـنجِّس الأرض والناس. ولكن بيلاطس ازدرى بهذا التنازل المحتقر، وأمر كتيبته التي عسكرت في أُورشليم أن تدخل حاملة شاراتها الرسمية، وأن يرفعوا الشارة فوق القلعة، ولكن كان دخول الكتيبة مساءً و لم ينتبه الشعب إلى ما حدث. فما أن استيقظوا حتى رأوا هذا الجرم الشنيع والأعلام ترفرف على القلعة، فجُنَّ جنون القوم والتهبت عصبيتهم إلى درجة إعلان التحدِّي، وقام جماعة منهم إلى قيصرية وطالبوا برفع هذا الشعار الذي يُعتبر تحدِّياً لأمتهم. ولكن ما كان من بيلاطس إلاَّ أن احتقر مطلبهم، فما كان من جماعة المتعصِّبين الغيورين إلاَّ أن رابطوا خمسة أيام بلياليها منبطحين على الأرض بتوسُّل حزين. وفي اليوم السادس، دعاهم للمقابلة، ولمَّا كرروا إلحاحهم أعطى الإشارة لجنوده، فأحاطوا بهم وهدَّدوهم بالموت إن لم يكفُّوا عن شغبهم ويعودوا بسلام إلى بلادهم. وظن أنهم بهذا يرتدعون أو يخافون، ولكن لدهشة بيلاطس، وجدهم ينبطحون على وجوههم ويمدِّدون رقابهم للذبح مظهرين استعدادهم للموت دون المساس بناموسهم! وأخيراً انهزم أمام إصرارهم المذهل ورفع شارة النسر والعلَم (**Josephus, *Antiq.*, xviii, 3, § 1; *De Bell. Jud.*, ii, 9 §§ 2,3**). وقد كان لتراجع بيلاطس المهين عن إنذاره النهائي انكساراً لكبريائه لم يُشفَ منه مع هؤلاء اليهود. وللحال أخذها اليهود كمقياس لصلابته وكمعيار لمقداره! وأيقنوا أنه بالصراخ والصياح يرغمونه للعودة إلى الوراء.

ولكن استعاد بيلاطس كبرياءه في موقعة أخرى استعد لها مقدَّماً، عندما بدأ بمشروع مدّ المياه لأُورشليم بقناة توصِّل المياه. ولمَّا ابتدأ يبني القناة، وكانت مكلِّفة جداً، فأراد أن يصرف عليها من حصيلة خزانة الهيكل، فاعتبر اليهود ذلك تدنيساً للهيكل ذاته. وبحضور الوالي إلى أُورشليم أحاطوه بالصياح والصراخ واستخدام الاستفزاز. فإذ كان على دراية بما سيحدث مقدَّماً أنزل قوة عسكرية دون ملابس رسمية في ثياب مدنية، ولكن مسلَّحين بالهراوات، وأمرهم بالاختلاط بالشعب. فعندما زاد هياج الشعب، أعطى الإشارة، فانقضُّوا على الثائرين بالضرب حتى مات الكثيرون، وكثيرون ماتوا تحت الأقدام. وهكذا أخمد بيلاطس الثورة في مهدها، لكن خرج الشعب من هذه المحنة وقد ازداد سخطه (**Josephus, *Antiq.*, xviii, 3, § 1; *De Bell. Jud.*, ii, 9 §§ 4**). فإذا أُضيف إليها الحادثة التي تكلَّم عنها إنجيل ق. لوقا: «عن الجليليين الذي خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم» (لو 1:13)، ندرك إلى أي مدى كان الشعب معبَّأً بالكراهية والتحفُّز ضد بيلاطس (**David Smith, *The Days of His Flesh*, pp. 477-479**).

ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية وكان صُبحٌ ـ وبحسب تقدير ق. يوحنا كانت الساعة السادسة صباحاً وهو ميعاد غير مألوف ـ ولكن المحاكم الرومانية كانت تبدأ جلساتها من الساعة الثامنة صباحاً(3) . فكان هذا التبكير يعكس قلق السنهدرين ومحاولة عدم الظهور وسط الشعب في ميعاد معتاد.

إعداد ذهن القارئ للمحاكمة:

الناموس:

+ «**لا تحرِّف حق فقيرك في دعواه. ابتعد عن كلام الكذب، ولا تقتل البريء والبار. لأني لا أُبرِّر المذنب.**» (خر 23: 6و7)

الأنبياء:

+ «**هكذا قال رب الجنود قائلاً: اقضوا قضاء الحق، واعملوا إحساناً ورحمة، كل إنسان مع أخيه. ولا تظلموا ... ولا يفكِّر أحد منكم شرًّا على أخيه في قلبكم.**» (زك 7: 9و10)

معروف أن مجلس السنهدرين قد توقَّف عن إصدار قرارات رسمية بالإعدام أربعين سنة قبل هدم الهيكل وأورشليم(4)، لذلك لا نعثر على قرار واضح أُجري عليه التصويت ولا كانت الإجراءات قانونية. كذلك لم يكن لمجلس السنهدرين سلطة قضائية للمحاكمة أو لإصدار القرارات بعد دخول الرومان: «لا يجوز لنا أن نقتل أحداً» (يو 31:18)، وكل ما عملوه هو وصولهم إلى قرار موحَّد يستطيعون تقديمه لبيلاطس ليحكم هو بمقتضاه. فالمسألة كانت مجرَّد اجتهاد، وقد استخدموا كافة وسائط الغش وشهادة الزور والتلفيق للتهم، واستخدام رفع الصوت بالصراخ ثم الإرهاب بالذهاب لقيصر، حتى أخذوا ما أرادوا.

وقد اكتشف بيلاطس العوامل النفسية الواضحة وراء حركاتهم وصراخهم المفتعل ضد المسيح: «**لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً**» (مر 10:15) كما اكتشف عدم وجود أدلة أو شهود حق لإقامة هذه القضية. لذلك أراد منذ البدء أن يتنازل عنها: «خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم» (يو 31:18). وبعد قليل لمَّا سمع أن يسوع كان يخدم في الجليل وجدها فرصة أن يتخلَّى عن هذه القضية برمتها، فحوَّلها لهيرودس باعتباره كان والياً على الجليل.

---

(3) David Smith, *The Days of His Flesh*, p. 477.

(4) Edersheim, *op. cit.*, vol. II, p. 556.

يهوذا يخنق نفسه:(5)

حينئذ لَّما رأى يهوذا بعد قرار السنهدرين بالحكم بإعدام في الصباح، وأن المسيح الذي أسلمه قد دِيْنَ، ندم وردَّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً: قد أخطأت إذ أسلمت دماً بريئاً. فقالوا: ماذا علينا؟ أنت أَبْصِرْ! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه.

المحاكمة أمام بيلاطس على سبعة أجزاء:

وكانت المحكمة منعقدة في مقر إقامة الوالي الروماني في أُورشليم، وكانت تسمَّى: «دار الولاية Praetorium»، وهو أصلاً مقر هيرودس الملك الذي بناه لنفسه عندما كانت اليهودية تتمتع بحرية "المملكة". وكان في الجزء الغربي من المدينة، وإلى هناك ساقوا المسيح مقيَّداً. ولكنهم لم يدخلوا دار الولاية لئلاَّ يتنجَّسوا فلا يأكلون الفصح، فبقوا خارج دار الولاية، مما اضطر بيلاطس أن يكلِّمهم، ثم دخل ليستجوب المسيح في الداخل. ولهذا كان من المهم أن نقسِّم المحاكمة إلى: ما هو خارج الدار، وما هو داخل الدار.

الجزء الأول: خارج دار الولاية: وفيه يلقي بيلاطس على اليهود تنفيذ رغبتهم في إعدام المسيح بمعرفتهم (يو 18: 28-32).

الجزء الثاني: داخل دار الولاية: الاعتراف الحسن: المسيح يقول إنه ملك! (يو 18:33-37).

الجزء الثالث: خارج دار الولاية: الإعلان الأول عن براءة المسيح، وموضوع باراباس (يو 18: 38-40).

الجزء الرابع: داخل دار الولاية: الحكم بالجلد والاستهزاء الأول بالمسيح (يو 19: 1-3)

الجزء الخامس: خارج دار الولاية: الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح: «هوذا الإنسان» (يو 19: 4-7).

الجزء السادس: داخل دار الولاية: مصدر السلطان، والخطية الأعظم (يو 19: 8-11).

الجزء السابع: خارج دار الولاية: تهديد القاضي، يحيا قيصر ولْيَمُتْ المسيح (يو 19: 12-16).

الجزء الأول من سير القضية: خارج دار الولاية:

إن آخر مرحلة عبر عليها المسيح في المحاكمة كانت باشتراك جميع رؤساء الكهنة بقيادة قيافا مع شيوخ الشعب حيث قرروا قتله. ذلك بحسب رواية إنجيل ق. متى. بعدها أوثقوه ومضوا به إلى بيلاطس الوالي الروماني (مت 27:1و2).

كانت أحكام اليهود بلا قوة، لأنها غير قابلة للتنفيذ بدون السلطة الرومانية. لذلك ذهبوا إلى

(5) مت 27: 3-10.

دار الولاية، وكان بيلاطس يقيم في قلعة أنطونيا في الشمال الشرقي، على أن مقره الدائم كـــان في قيصرية، لكنه كان ينتقل إلى أُورشليم في الأعياد ليشرف بنفسه على الأمن والنظام.

وقد قلنا إن حضوره كان مبكِّراً حوالي الساعة السادسة صباحاً. وبحسب تعبير اليهود: الهزيـــع الرابع من الليل الذي يبدأ بعد نصف الليل وينتهي الساعة السادسة صباحاً. وهذا استلزم منهم أن يجتمعوا مرَّة أخرى في الصباح الباكر جداً ليصدِّقوا على قرار الليل لمجرَّد استيفاء الشكليات القانونية. لأن قـــرارات الليل وخاصة التي تحكم بالقتل، تُعتبر لاغية؛ وهذا هو العبث بالقانون، يكسرونه عمداً وبجرأة، ويستوفونه شكلاً خوفاً وجبناً. ولكن بالرغم من كل الاحتياطات لاستيفائه الشكلي بقي مخالفـــاً للنـــاموس أشـــد المخالفة، إذ يمتنع تنفيذ حكم الموت في نفس اليوم الذي يصدر فيه الحكم بـــالموت، لأن روح النـــاموس كانت شديدة الحرص على حق المحكوم عليه. ولكن للأسف كان في أيديهم كل مقاليد الأمور فكـــانوا يعبثون بالقانون ظانِّين أنهم بلا رقيب أو مَنْ يؤاخذ. ولكن هذا العالم كله بعلمائه أدركوا مدى فساد هيئة القضاء اليهودي أيام المسيح. وكل هذه الإجراءات تشهد على فساد ذمة رؤساء الكهنة. فإن كان هـــذا شأنهم في القضاء، فيكون مثل هذا في تعاملهم مع التوراة والناموس والسياسة وكل شئون تدبير الأمة.

كان مجيئهم في الصباح الباكر لا يختص بمواعيد الرومان، فالمحاكمة الرومانية لا تبدأ أعمالهـــا إلاَّ بعد شروق الشمس. وكما قلنا لم يدخلوا لئلاَّ يتنجَّسوا فلا يأكلون الفصح، ولكن كان ســـفك دم بريء لا يشغل لهم بال.

سؤال بيلاطس: فخرج إليهم بيلاطس وسألهم بجفاء واضح وكأن القضية غير مدروسة عنده: «**أية شكاية تقدِّمون على هذا الإنسان؟**» (يو 18:29). هنا يفيدنا خبر قدّمه لنـــا ق. متى: إنه بينما كان بيلاطس جالساً على كرسيه، جاءه من المنزل خبر خاص سريع يقول له على لسان زوجته (وتُدعى كلوديا بروكيولا ـ وقد كانت أولاً دخيلة أي بروزوليت في الديانة اليهودية، ولكن المعروف في التقليد الكنسي أنها تنصَّرت، بل وبيلاطس أيضاً، والروايات غير مثبوتة وقُيِّد اسمها في سجل القديسات): «إيـــاك وذلك البار، لأني تألَّمت اليوم كثيراً في حلم من أجله» (مت 27:19). لهذا بـــدأ بيلاطس متشكِّكاً من القضية. وفي الحقيقة، فإن أخبار المسيح من المـــستحيل أن لا تكون قد بلغت مسامع بيلاطس وزوجته وكل الذين في دار الولاية، فالمسيح لثلاث سنين ونصف بلغت معجزاته إلى كل البلاد. فالسؤال الذي بدأ به بيلاطس التحقيق هو هو الذي ظل يرافقه حتى نهاية القضية ونهاية الحكم!

إجابة اليهود: بجفاء مقابل وبنوع من التحدِّي أجابوه: «**لو لم يكن فاعل شرٍّ لما كنا قد سلَّمناه إليك!**» (يو 30:18)

إجابة بيلاطس: من رد اليهود اتضح له أنهم قرروا ما قرروا ولا يريدون إلاَّ الموافقة. بمعنى أنهم استقلوا برأيهم وتمسَّكوا بهذا الرأي، فما كان من بيلاطس إلاَّ أن حاصرهم في عزلتهم بجفاء أشد ليشعرهم بعجزهم وعدم مقدرتهم على الاستقلال بالرأي، وليلزمهم بالخضوع للقانون الروماني، فقال لهم: «**خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم.**» (يو 31:18)

إجابة اليهود: واليهود إذ ضيَّق عليهم بيلاطس، ابتدأوا في الإصرار على مطلبهم، لكنهم أعطوه توضيحاً أكثر يكشف موضع الخطورة بالنسبة للقانون الروماني وحتمية الحكم به، فقالوا له: «**لا يجوز لنا أن نقتل أحداً**» (يو 31:18). وهكذا أعلنوا عن نواياهم وما انتهى إليه قرارهم، وما على بيلاطس إلاَّ التنفيذ، فلمَّا قالوا: لا يجوز لنا أن نقتل أحداً، نقلوا القضية إلى يد بيلاطس عن اضطرار.

وهنا يتدخَّل ق. لوقا ويكمِّل الموقف الدرامي بإضافة عنصر جديد للاتهام كان كفيلاً أن يشد انتباه الوالي: «**وجدنا هذا يُفسد الأُمة، ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر، قائلاً: إنه هو مسيح ملك.**» (لو 2:22)

هكذا داس هؤلاء المراؤون على ضمائرهم وقدَّموا هذا الاتهام الذي يشهد الجميع أنه باطل ومعكوس، والكل يشهد بدينار قيصر والحكمة البليغة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»

الجزء الثاني من سير القضية: داخل دار الولاية:

بمجرَّد أن سمع بيلاطس مناداته بالملوكية، دخل دار الولاية واستدعى المسيح وسأله:

سؤال بيلاطس: «**أنت ملك اليهود**»؟ لاحظ أن داخل دار الولاية ليس هناك رؤساء كهنة ولا شهود من أي نوع، فتطلَّع بيلاطس إلى وجه المسيح المضيء بجلال الملوكية حقاً وراجع نفسه، إنه حقاً ملك وليس كالملوك جميعاً!!

إجابة المسيح: «**أَمِنْ ذاتك تقول هذا، أم آخرون قالوا لك عني؟**» (يو 34:18). (المسيح لم يسمع اتهام رؤساء الكهنة).

إجابة بيلاطس: «أجابه بيلاطس: ألعلِّي أنا يهودي؟ **أُمَّتك ورؤساء الكهنة أسلموك إليَّ. ماذا**

فعلت؟» (يو 35:18). واضح هنا أن بيلاطس قد أسقط تهمة: «أنت ملك اليهود» وأراد أن يشغل عقله بموضوع آخر: ماذا فعلت؟ لأن كون أن المسيح ملك قد سلب قلب بيلاطس وجعله يقطع في أعماقه أنه حقاً ملك، ولكن ليس كأي ملوك الأرض!!

إجابة المسيح: «**مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدَّامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا**» (يو 36:18). هذا القول أرجف بيلاطس، إنه لا يكذب، ولكن بيلاطس احتار جداً في قلبه: من أين هذا الرجل، ومَنْ هو؟ إنه لغز. وسوف نسمع حالاً كيف سأله: من أين أنت؟ لأنه شك بالفعل أن يكون ليس من سكان الأرض!!

سؤال بيلاطس: «**أفأنت إذاً ملك؟**» (يو 37:18). لم يقُلْها تهكُّماً، بل بمزيد من الاستفسار. لذلك ردَّ عليه المسيح بحسب قلبه.

إجابة المسيح: «**أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل مَنْ هو من الحق يسمع صوتي**» (يو 37:18). كل ملك يجاهد ليكون ملكاً، أمَّا أنا فوُلدت لأكون ملكاً، ولكن ليس على الناس بل على الحق، والذي يسمع صوت المسيح ويقبل الحق يصير عضواً في مملكته. وهنا أدرك بيلاطس بما لا يتطرَّق إليه الشك أن المسيح شخص آخر غير الذي يتهمه اليهود ويطلبون قتله، فهو مسالم إلى أقصى حد، ويتكلَّم بالحق ويعيشه. أي إنسان هذا؟

وانتهى الحديث الثنائي الودِّي بين القاضي والمسيح أن استفهم بيلاطس من المسيح: «**ما هو الحق**»؟

الجزء الثالث من سير القضية: خارج دار الولاية:

الإعلان الأول عن براءة المسيح:

إجابة بيلاطس لليهود: «**أنا لست أجد فيه علَّة واحدة**» (يو 38:18). كانت شخصية المسيح ووجهه الهادئ العذب، ووثوقه من نفسه ومن الحق وعدم دفاعه عن نفسه قط؛ قد أقنع القاضي الروماني أن المتَّهم اليهودي المطلوب قتله بريء!! واعتقد بيلاطس أنه ممكن أن يليِّن قلب اليهود بأن يطلقه في العيد باعتباره سجيناً عُفي عنه إكراماً للعيد!!

سؤال بيلاطس: «**لكم عادة أن أُطلق لكم واحداً في الفصح. أفتريدون أن أُطلق لكم ملك اليهود؟**» (يو 18:39)

إجابة رؤساء الكهنة: «**ليس هذا بل باراباس. وكان باراباس لصاً.**» (يو 18:40)

كان هذا الاقتراح من القاضي نوعاً من السخرية والتهكُّم الخفي على إدانة اليهود بأنه ملك. فإذا بالقاضي يقترح أن يطلق سراح ملكهم!! كان هذا إحساساً منه بتجلة المسيح من ناحية وامتهان كرامة اليهود من الناحية الأخرى. ولكن أيضاً كان هذا الاقتراح يخفي حالة من العجز أصابت القاضي، لأنه وهو يؤمن تماماً ببراءة المتهم لم يتخذ المسلك القانوني، بل أخذ الطريق الملتوي الذي انتهى به إلى السخرية منه.

إجابة رؤساء الكهنة: لمَّا وجدوا أن اتهامهم بأن المسيح ملك وأنه يمنع الجزية لقيصر لم يأتِ بأي نتيجة، أضافوا إليه تهمة أخرى: «**فكانوا يُشدِّدون قائلين: إنه يُهيِّج الشعب وهو يعلِّم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا.** فلمَّا سمع بيلاطس ذِكْرَ الجليل، **سأل: هل الرجل جليلي؟ وحين علم أنه من سلطنة هيرودس، أرسله إلى هيرودس، إذ كان هو أيضاً تلك الأيام في أُورشليم.**» (لو 23: 5-7)

المسيح أمام هيرودس الملك: في أورشليم:

الذي ذكر هذه الوصلة من داخل محاكمة المسيح أمام بيلاطس هو ق. لوقا في إنجيله: «**وأمَّا هيرودس فلمَّا رأى يسوع فرح جداً، لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه، لسماعه عنه أشياء كثيرة، وترجَّى أن يرى آية تُصنع منه. وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء**».

«**ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد،** فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به، وألبسه لباساً لامعاً، وردَّه إلى بيلاطس. فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما في ذلك اليوم، لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما.» (لو 23: 8-12)

بيلاطس: «فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب، وقال لهم: **قد قدَّمتم إليَّ هذا الإنسان كمَنْ يُفْسدُ الشعب. وها أنا قد فحصت قدَّامكم ولم أجد في هذا الإنسان علَّة مما تشتكون به عليهِ، ولا هيرودس أيضاً ... وها لا شيء يستحق الموت صُنع منه. فأنا أُؤدِّبه وأُطلقه. وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحداً.**» (لو 23: 13-17)

الجزء الرابع من سير القضية: داخل دار الولاية:

بيلاطس: «فحينئذ أخذ بيلاطس يسوع وجلده.» (يو 1:19)

+ «**بذلت ظهري للضاربين، وخدِّي للطم، ووجهي لم أستر عن خزي البصاق.**» (إش **6:50** حسب السبعينية)

كان لا يزال بيلاطس يأمل في إطلاق المسيح، ورأى أنه بهذا الإجراء يمكن استرضاء الشعب الهائج. ذلك بإجراء عقوبة شديدة ـ دون حكم رسمي ـ تستدر عطف الشعب فأقدم على هذا العمل وهو مقتنع ببراءة المسيح. لذلك جاء هذا العمل بنتائج عكسية، ولكن كان ضمن أهم العوامل اللاهوتية لتكميل الخلاص، لأنه أُكمل للمسيح على أساس الفدية كمستحق بالفعل بصفته الحامل للبشرية الخاطئة المستحقة كل عقوبة. وقد أجرى بيلاطس عليه عمليات للستهزاء بملوكيته لاسترضاء اليهود، وهو في حقيقته استرضاء لعدل الله في محاكمة الخطاة.

«**فعروه وألبسوه رداءً قرمزياً**»، وهو لباس الملوك.

«**وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه**» وكأنه إكليل الغار الذي يوضع على رؤوس الملوك الظافرين، وكان تكميلاً لقول الله لآدم: «وشوكاً وحسكاً تنبت لك (الأرض).» (تك 18:3)

«**وقصبة في يمينه**»، باعتبارها صولجان المُلك.

«**وكانوا يجثون قدَّامه**»، كما يسجد العبيد للملوك.

«**وبصقوا عليه**»، نهاية الاستهزاء.

«**وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه**»، استهزاءً بملوكيته (مت 27:27ـ30).

وكان هذا ثمناً لكبرياء الإنسان وخطيته الأصلية، كونه أراد أن يكون كالله. وبهذا أكمل المسيح كأس آلام الخطاة منذ آدم.

الجزء الخامس من سير القضية: خارج دار الولاية:

الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح:

بيلاطس: «فخرج بيلاطس أيضاً خارجاً وقال لهم: ها أنا أُخرجه إليكم لتعلموا أني لست أجد فيه علة واحدة» (يو 4:19). كانت حيرة بيلاطس واضحة، فلو كانت لديه الأدلة الكافية لإدانته كان قد تشجَّع وحكم إزاء إصرار اليهود. فمن جهة، كان اقتناعه ببراءة المسيح يحذِّره من المُضيِّ في القضية؛ ومن جهة أخرى، كان ضغط اليهود يدفعه للحكم، وليس من أدلة.

المسيح: «فخرج يسوع خارجاً وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان. فقال لهم بيلاطس: هوذا الإنسان » ECCE HOMO(يو 19:5)

+ «**يا جميع عابري الطريق، تطلَّعوا وانظروا، إن كان حزن مثل حزني ...**» (مرا 1:12)
+ «**بليت عظامي. عند كل أعدائي صرت عاراً، ... ورُعباً لمعارفي ... الذين رأوني خارجاً هربوا عني، نُسيت من القلب مثل الميت، صرت مثل إناء مُتْلَف، لأني سمعت مذمة من كثيرين، الخوف مستدير بي بمؤامراهم معاً عليَّ. تفكَّروا في أخذ نفسي.**» (مز 31: 10-13)
+ «**اذكر يا رب عار عبيدك. الذي أحتمله في حضني!! الذي به عيَّر أعداؤك، ... عيَّروا آثار مسيحك!!**» (مز 89:50و51)

رؤساء الكهنة: «**فلمَّا رآه رؤساء الكهنة والخدَّام صرخوا قائلين: اصْلِبْهُ اصْلِبْهُ!**» (يو 19:6)

بيلاطس: «**قال لهم ... خذوه أنتم واصلبوه، لأني لست أجد فيه علَّة.**» (يو 19:6)

هكذا لا يكفيهم الجلد والضرب واللطم والبصاق، هذا كله لا يكفي لغسل خطاياهم. إنهم بروح جميع الأنبياء يطلبون أن: ''يُصلب المسيح''، فلا فداء إلاَّ بالصلب، ولا خلاص إلاَّ بموته.

وهذه هي المرَّة الثالثة التي يؤكِّد فيها بيلاطس أنه لا يوجد فيه علَّة. إذن، فهو مصلوب رسمياً بعلَّة غيره، بخطايانا جميعاً.

وهوذا كلام بطرس الرسول يصف هذه المأساة بعد وقوعها، حيث لا يذكر بيلاطس الصالب، بل رؤساء الكهنة: «إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إله آبائنا، مجَّد فتاه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس، وهو حاكم بإطلاقه. ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يُوهَبَ لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات، ونحن شهود لذلك. »(أع 3: 13-15)

اليهود: «**لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعل نفسه ابن الله.**» (يو 19:7)

لم يكن قول المسيح عن نفسه إنه ابن الله تجديفاً على الاسم. فهو معروف قطعاً أنه لقب المسيَّا. ولكن كان قول المسيح هو السهم الأخير الذي لم يحسب بيلاطس حسابه، فهو تدخُّل في شئون دينهم. ولكن هذا اللقب أثار دهشة بيلاطس، بل وأخافه في نفس الوقت. فدخل دار الولاية ليستفسر عن هذا الأمر.

الجزء السادس من سير القضية: داخل دار الولاية:

بيلاطس: «**فلمَّا سمع بيلاطس هذا القول ازداد خوفاً**» (يو 8:19). لقد أحس بالرهبة تجاه المسيح حينما تحدَّث معه وديًّا وتفرَّس في وجهه وعينيه، والقضاة ذوو فراسة ورؤيا لا تخيب في معرفة المجرمين من ملامح وجههم ونظرة عيونهم؛ أمَّا هذا فهو ليس أبداً من الخطاة ولا حتى من عامة الناس، فالنُّبل والشيماء وسماحة النفس وسويتها الفائقة أخذ بلبِّه، وها هو اللقب الجديد: "ابن الله". ويقول الكتاب إنه: «ازداد خوفاً» أي خوفاً على خوف سابق. «فدخل (بيلاطس) أيضاً إلى دار الولاية وقال ليسوع: **من أين أنت؟**» (يو 9:19)

يســــوع: «**وأمَّا يسوع فلم يُعْطه جواباً**»!!

بيلاطس: «**أما تكلِّمني؟ ألست تعلم أَن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟**» (يو 10:19) لم يقل هذا ليرهب المسيح، بل ليجعله يثق فيه ويكلِّمه.

المســــيح: وهنا لم يكسر المسيح صمته الذي أخذه على نفسه، ولكن ليصحِّح لبيلاطس مقولته، فأجاب يسوع: «**لم يكن لك عليَّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أُعطيت من فوق. لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم.**» (يو 11:19)

كان هذا من فم المسيح القولَ الفَصْلَ في العلاقة بين السلطة المدنية والسلطة الإلهية في حكومة الناس والعبث بمصائرهم. ففوق العالي أعلى: «ليس سلطان إلاَّ من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتَّبة من الله.» (رو 1:13)

كان رد المسيح: ليس لك عليَّ سلطان لو لم تكن **قد أعطيت من فوق!** هو الإشارة للردِّ على سؤال بيلاطس: «من أين أنت» هذه أوليات المعرفة المسيحية عن سلطان الله:

+ «قامت ملوك الأرض، واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع، الذي مسحته، هيرودس وبيلاطس البنطي مع أُمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا **كل ما سبقت فعيَّنت يدك ومشورتك أن يكون.**» (أع 4: 26-28)

+ «هذا أخذتموه **مسلَّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق**، وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه.» (أع 23:2)

والمسيح بردِّه هذا **خطَّأ** بيلاطس في تصرُّفه وحكمه حينما قال: إن مَنْ سلَّمني إليك له خطية أعظم.

الجزء السابع من سير القضية: خارج دار الولاية:
فليحيا قيصر وليُصلب المسيح!

«من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يطلقه، ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين»:

اليهود: «إن أطلقت هذا فلست محبًّا لقيصر. كل مَنْ يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر.» (يو 19:12)

لقد تيقن بيلاطس في نهاية حديثه مع المسيح أنه إنسان سامٍ ليس على مستوى الناس، والبراءة تنطق من عينيه، وتفكَّر أنه حتماً ولابد أن يصنع شيئاً لهذا الإنسان، فالأمر فعلاً هو من فوق، ولكن ما معنى الحق وما معنى فوق؟ وكأنه كُشف لبيلاطس ما كُشف لنبوخذنصر في أيامه: «تعلم أن العليَّ متسلِّط في مملكة الناس، وأنه يعطيها من يشاء ... وعند انتهاء الأيام، أنا نبوخذنصَّر، رفعت عينيَّ إلى السماء، فرجع إليَّ عقلي وباركت العليَّ وسبَّحت وحمدت الحي إلى الأبد، الذي سلطانه سلطان أبدي وملكوته إلى دور فدور. وحُسِبَتْ جميع سكَّان الأرض كلا شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض. ولا يوجد مَنْ يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل؟ ... الذي كل أعماله حق وطرقه عدل، ومَنْ يسلك بالكبرياء (مثل نبوخذنصَّر نفسه)، فهو قادر على أن يذلَّه.» (دا 4: 32و34و35و37)

وهكذا بعد أن أفرغ قيافا كل خططه ولعب بكل أوراقه الدينية من جهة الولاء للناموس وتعدِّي الناموس والالتزام بالناموس، وانكشفت كل أوراق لعبته الكبيرة لدى بيلاطس الذي بحثها وفحصها بعقلية قاضٍ روماني حاذق لا تفوت عليه ألاعيب رجال الدين، أخرج أخيراً ورقته الأخيرة: اللعب بالسياسة والارتماء تحت أقدام قيصر لتقديم الولاء له أكثر من بيلاطس! وعشق قيصر أكثر من احترام بيلاطس: «من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يُطلقه، ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين: إن أطلقت هذا فلست محبًّا لقيصر. كُل مَنْ يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر.» (يو 19:12)

و لم يدرِ قيافا أن بهذا الهتاف الأخير، يكون قد قطع بيده صلته بيهوه إله إسرائيل إلى الأبد. ويكون قد ارتمى في حضن الشيطان لينقذه من المسيَّا. ولكن الثمن باهظ إلى أقصى حد، فقد قُطع وقُطعت معه الأُمة.

فهذا هو قيصر الذي بعد أربعين سنة تماماً؛ خرَّب أُورشليم، وأحرق الهيكل، وقتل ونكَّل بالشعب والنساء والأطفال، وأفرغ الأرض من ساكنيها. فليُصلب المسيح ويحيا قيصر يا قيافا!!

بيلاطس: «**فلمَّا سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع، وجلس على كرسي الولاية في موضع يُقال له "البلاط" وبالعبرانية "جباثا"»**،

«**وكان استعداد الفصح، ونحو الساعة السادسة (ظهراً). فقال لليهود: هوذا ملككم.**» (يو 19: 13و14)

[«أنا هو الرجل!!(6)
الذي رأى مذلَّةً بقضيبِ سخطه،
أبلى لحمي وجلدي. كسَّر عظامي،
سيَّج عليَّ فلا أستطيع الخروج،
ميَّل طُرقي، ومزَّقني. جعلني خراباً،
مدَّ قوسه ونصبني كغرض للسهم،
أدخل في كُليتيَّ نبال جعبته،
صرت ضحكة لكل شعبي، وأُغنية لهم اليوم كله،
أشبعني مرائر، وأرواني أفسنتيناً، وجَرَشَ بالحصى أسناني،
ذِكراً تذكر نفسي، وتنحني فيَّ،
جيد أن ينتظر الإنسان ويتوقَّع بسكوت خلاص الرب!»] (مرا 3: 1ـ26)

رؤساء الكهنة: «**فصرخوا: خذه! خذه اصلبه**»**!** قال بيلاطس:

بيلاطس: «**أأصلب ملككم**»؟ أجاب رؤساء الكهنة (فقط):

رؤساء الكهنة: «**ليس لنا ملك إلاَّ قيصر**»!!

بيلاطس: «فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلب، فأخذوا يسوع ومضوا به.» (7) (يو 19: 15و16)

---

(6) تُقرأ هذه النبوَّة في نهاية أسبوع الآلام (الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة الكبيرة)، ويلاحظ فيها أن عبارة: «أنا هو الرجل»، تقابل قول بيلاطس: «هوذا الإنسان» (يو 19:5)، أي الإنسان بصفة مطلقة الذي اختزل في نفسه آلام البشرية منذ آدم إلى آخر الدهور.

(7) بحسب القوانين الرومانية يتحتَّم أن يمر يومان – على الأقل – بين صدور الحكم بالإعدام وتنفيذ الحكم، ولكن لم تكن القوانين الرومانية مرعية في هذه القضية بالذات. (**Edersheim, *op. cit.*, vol. II, p. 582**)

الفصل السابع

الصـــليـب

153 - «فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلب»

+ «**فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلب. فأخذوا يسوع ومضوا به.**» (يو 19:16)

ما أن نطق بيلاطس بهذه الجملة حتى تسارع الجنود واليهود على السواء يتصارعون في السبق بالتشفِّي والفتك بفريستهم: الرومان بإحساس من غطرسة الجنس الروماني المتفوِّق المتعصِّب لسيادته؛ واليهود، خاصة الرؤساء، للانتقام من الذي صغَّر نفوسهم بأعماله الفائقة.

والملاحَظ أن بيلاطس لم ينطق بالجملة الرسمية للصلب، ولكنه اكتفى بأن سلَّمه لهم، وكانت محاولة منه لاختزال الإجراءات الخاصة بهذه القضية التي أثارت أحاسيسه وخيَّبت آماله في إقامة العدل. إذ كما يفيدنا ق. متى: «فلمَّا رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغبٌ، أخذ ماءً وغسل يديه قدَّام الجمع قائلاً: **إني بريء من دم هذا البار. أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا.**» (مت 27: 24و25)

ويُلاحَظ أيضاً أن الإنجيل لم يقل إن بيلاطس: ''أسلمه إليهم ليصلبوه'' كما يعطيهم حق الصلب، بل جعل النطق مبنياً للمجهول، إذ قال: ''ليُصلب''. وهذه هي الإشارة التي قيلت في سفر الأعمال: «وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أع 2:23). وذلك يعني: بأيدي الأُمم، بمعنى أنهم هم المسئولون عن صلبه، ولكن تمموا الصلب بواسطة الأُمم. ويقول ق. مرقس: «وبعدما استهزأوا به، نزعوا عنه الأرجوان (الثوب الأحمر) وألبسوه ثيابه، ثم خرجوا به ليصلبوه.» (مر 15:20)

154 - طريق الآلام: VIA DOLOROSA

+ «**فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يُقال له: "موضع الجمجمة"** (باليونانية ''كرانيون'') **ويُقال له بالعبرانية: "جلجثة"** (وباللاتينية: ''Calvaria'').» (يو 19:17)

''خرج'' هنا لها رنين نبوي، فهو خروج خارج أُورشليم التي توازي خارج المحلة، حيث تُحرق ذبيحة الكفَّارة!! وهو الاصطلاح الذي تكلَّم به موسى وإيليا مع المسيح في رؤيا التجلِّي: «وتكلَّما

عن **خروجه** الذي كان عتيداً أن يكمِّله في أورشليم» (لو 31:9). أمَّا حمله الصليب، فهو الموازي في أعمال النبوَّة لحمل إسحق حطب المحرقة، لذلك يصر إنجيل ق. يوحنا أن المسيح حمل الصليب: « فخرج وهو حامل صليبه» (يو 17:19). ولكن التقليد يقول: إنه سقط تحت الصليب مما جعل الجند يسخِّرون إنساناً كان آتياً من الحقل أعطى القديس مرقس اسمه وهو: سمعان القيرواني، وكان ق. مرقس يعرفه فقال: إنه أبو ألكسندرس وروفس. ويبدو أنهما صديقان للقديس مرقس، والعائلة كلها من القيروان وعلى قرابة، بل ويُقال إنه كان يسكن في بيت مرقس. ويؤكِّد العلماء أن سمعان هذا هو المصدر الذي أخذ عنه الإنجيليون قصة الصليب بدقائقها، ولكن الذي نعتقده أن ق. مرقس نفسه هو الذي تتبع المسيح من العلية إلى المحاكمة في السنهدرين، لأنه كان معروفاً أيضاً عند رئيس الكهنة، وهو الذي قام بترجمة الحوار بين بيلاطس والمسيح ورؤساء الكهنة، لأنه الوحيد في التلاميذ الذي كان يتقن اللاتينية.

أمَّا طريق الآلام VIA DOLOROSA، فهو الطريق الذي سار فيه المسيح وهو حامل الصليب، ويقول التقليد إنه لم يستطع حمله إلاَّ إلى باب المدينة، إذ يقول ق. متى ما يفيد أن المسيح حمله حتى باب المدينة فقط: «وفيما هم **خارجون** وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان، فسخَّروه ليحمل صليبه »(مت 32:27). ويُقال إن المسيح سقط به ثلاث مرات على هذا الطريق الضيِّق الممتد من قلعة أنطونيا عبر الطريق المرتفع الذي يُقال له: جباثا أي البلاط إلى خارج المدينة، وكان مقرَّراً أن يعبر في كل الطرق المهمة في المدينة[1]، حيث قابلته النسوة بالنواح واللطم، فرد عليهن المسيح: «يا بنات أُورشليم، لا تبكين عليَّ بل ابكين على أنفسكن ...» (لو 28:23). علماً بأن القانون اليهودي كان يمنع البكاء وتشييع المجرمين للقتل[2]. وهكذا وهو في منتهى ضعفه احتفظ بمستواه الإلهي الملكي، فليس هو الذي يُبْكَى عليه.

وحتى بعد أن أخذوا الصليب عن كاهله، يبدو من كلمة قالها ق. مرقس (مر 22:15) إنه لم يقدر على السير من شدة ضعفه وآلامه، "فحملوه fšrousin aÙtÒn"[3] التي تُرجمت: «**جاءوا به**»، وهي نفس الكلمة التي تُرجمت: "حَمَل"، وليس: "جاء به" كما في الآية الخاصة بالمفلوج: « وإذا برجال يحملون fšrontej على فراش إنساناً مفلوجاً.» (لو 18:5)

(1) Josephus, *Ant.*, xx. 6 § 3; *De Bell. Jud.*, IV. 6 § 1.

(2) John Lightfoot, *A Commentary on the New Testament from the Talmud and Hebraica*, (1658, repr. 1989) vol II, pp. 365, on Mt 27,31.

(3) David Smith, *op. cit.*, p. 493, n. 4.

ولا يزال هذا الطريق أحد المزارات العالمية، والذي يُقام فيه مسيرة يوم الجمعة الكبيرة من كل سنة تذكاراً لمسيرة المسيح فيه، وتقف المسيرة في أربع عشرة نقطة، بعضها مأخوذ اسمه من الكتاب المقدَّس، والآخر من التقليد. وينتهي طريق الآلام الآن عند كنيسة القبر المقدَّس، حيث تُقام صلاة احتفالية كبرى بواسطة الفرنسيسكان (انظر الصورة في كتاب شرح إنجيل ق. يوحنا ج 2 صفحة 1197).

وكان المكان الذي صلبوه فيه أي الجلجثة قريباً من باب المدينة (يو 20:19).

155 - «حيث صلبوه، وصلبوا اثنين آخرين معه من هنا ومن هنا»

- **[الصليب أكثر العقوبات ترويعاً وقسوة في وسائل قتل الإنسان نقمة على الإنسان.]** شيشرون
- **[إنه موت الازدراء.]** تاسيتوس

وقد خرج وراء الموكب رؤساء الكهنة وسط رعاع الشعب. ولم يوجد من تلاميذه ولا واحد إلاَّ ق. يوحنا يرقبه من بعيد وهو حامل صليبه. ولم يكمِّل المسيرة معه حتى الجلجثة، لذلك سجَّل فقط أنه رأى المسيح حاملاً الصليب، أي قبل أن يسخِّروا سمعان القيرواني لحمل الصليب. كذلك فإن منظر تقديم الخل والمر للمسيح قبل الصليب، لم يذكره ق. يوحنا، لأنه ذهب ليحكي للقديسة مريم القصة كلها، ورافقها عائداً إلى الجلجثة وكان قد انفضَّ من حوله الجماعات التي رافقته في المسيرة. وكان مع مريم العذراء بقية النسوة الآتيات من الجليل وراء المسيح، فتركها ق. يوحنا بعيداً وذهب ووقف بجوار الصليب.

أمَّا موضع الجلجثة، فهو المكان الذي اكتُشف بواسطة الملك قسطنطين في مكانه المعروف الآن الذي بُني فوقه كنيسة. ويقص ذلك المؤرِّخ جيبون المشهور(4). وهذه الكلمة "جلجثة"، هي ترجمة عبرية لكلمة جمجمة. ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم في شرح إنجيل ق. يوحنا (عظة 84): إنها المكان المتوارث حيث دُفن آدم، لكي يمتلك الحياة عِوَض الموت.

وكان من عادة المحكمة الرومانية(5) أن المتهم الذي يُحكم عليه بالصلب يخرج، بينما تتقدَّمه لوحة يحملونها أمامه مكتوب عليها اسمه، وسبب الصلب. فانتهز بيلاطس هذه الفرصة لينتقم من اليهود بأن كتب على اللوحة: «يسوع الناصري ملك اليهود» وبالثلاث لغات: العبرانية،

---

(4) Gibbon, *Decl. & Fall,* Ch. xxiii.

(5) Eusebius, *H.E.,* Cited by David Smith, *op. cit.,* p 491.

واليونانية، واللاتينية. فلمَّا رآها رؤساء الكهنة، ذهبوا ليعاتبوا بيلاطس على أساس أنه هو الذي قال هذا وليس هم. فردَّ عليهم بجفاء: «ما كتبت قد كتبت.» (يو 19:22)

والمسيح لم يذهب إلى الجلجثة وحده، بل رافقه في المسيرة اثنان من اللصوص. ويقول العالم ليتفوت(6): إن ذلك كان إغاظة لليهود، لأن القانون اليهودي كان لا يسمح بالصلب إلاَّ لواحد فقط في اليوم.

«وتبعه جمهور كثير من الشعب، والنساء اللواتي كُنَّ يلطمن أيضاً وينحن عليه» (لو 23:27). وعلى العموم لم يجد من يعزيه أو يرثى لحاله.

+ «العار قد كسر قلبي فمرضت. انتظرت رقة فلم تكن، ومعزِّين فلم أجد.» (مز 69:20)
+ «وكان المجتازون يجدِّفون عليه وهم يهزُّون رؤوسهم قائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلِّص نفسك! إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب! وكذلك رؤساء الكهنة أيضاً وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا: خلَّص آخرين وأمَّا نفسه فما يقدر أن يخلِّصها. إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به! قد اتكل على الله، فلينقذه الآن إن أراده! لأنه قال: أنا ابن الله!» (مت 27: 39-43)

وكانت عملية الصلب عملية مروعة. وكان الصالبون وهم عسكر الرومان، يوزِّعون ملابس المحكوم عليهم قبل الصليب. وفي توزيع ملابس المسيح، كان هناك ثوب ثمين منسوجٌ قطعة واحدة، هذا ألقوا عليه القرعة فيما بينهم. ويقول ق. إيسيذوروس الفرمي: إن القديسة مريم هي التي نسجته له بيديها (الرسالة 1:74)، وكذلك ذهبي الفم (شرحه لإنجيل ق. يوحنا عظة 84).

وكان الصلب يتم بربط الجسد بحبال، ثم دق المسامير بعد ذلك لتثبيت الجسد على الصليب ولكي يساعد النزيف على استنزاف الحياة أيضاً. وكان من المعتاد تقديم مشروب مخدِّر للمصلوب حتى يزيل بعضاً من آلامه، وذلك بواسطة بعض النساء من الشعب. ولكن المسيح لَّما ذاقه رفض أن يشرب ليستقبل الآلام بكامل وعيه: «أعطوا مُسكراً لهالك وخمراً لمرِّي النفس. يشرب وينسى فقره ولا يذكر تعبه بعد» (أم 31: 6و7). وهذا ما تمَّ بالفعل، ففي كامل وعيه صلَّي لغفران أعمال صالبيه، وتكلم مع ق. يوحنا ومع أُمه العذراء القديسة، واستودع روحه بالصلاة.

وكانوا قد علَّقوا فوق رأسه اللوحة التي حملها والمكتوب عليها: يسوع الناصري ملك اليهود،

---

(6) John Lightfoot, *op. cit.*, on Mt 27, 31, p. 365.

بالثلاث لغات: العبرانية واليونانية واللاتينية.

ويقول ق. مرقس وق. متى: إنهم صلبوا معه لصين واحداً عن يمينه وواحداً عن يساره، لكي يتم القول بإشعياء النبي: «وأُحصي مع أثمة» (إش 12:53). ويختص ق. لوقا بتسجيل الحديث الذي دار بينهما، والمتكلِّم هو اللص التائب يرد على الآخر الذي كان يعيِّر المسيح كالباقين: «أَوَلاَ أنت تخاف الله» (لو 40:23)، ثم عاد يوجِّه الكلام للمسيح: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك» (لو 42:23)، وهو النشيد الذي تردِّده الكنيسة طوال يوم الجمعة الحزينة، (واسم اللص في التقليد ديماس اللص). فما كان من المسيح إلاَّ أن ردَّ عليه: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لو 43:23)، مما يكشف لنا ضمناً أن بالصليب افتتح المسيح باب الفردوس الذي كان قد أُغلق منذ آدم، وكان أول مَنْ دخل هو ديماس اللص التائب.

وفي تقليد ق. لوقا كان نُطْق المسيح هذا هو النطق الثاني بعد: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو 34:23)

[«إلهي إلهي لماذا تركتني ...،
كل الذين يرونني يستهزئون بي، يفغرون الشفاه،
وينغضون الرأس، قائلين: اتكل على الرب فلينجِّه
لينقذه لأنه سُرَّ به ...،
كالماء انسكبتُ. انفصلت كل عظامي، صار قلبي كالشمع،
قد ذاب في وسط أمعائي، يبست مثل شقفة قوتي
ولصَقَ لساني بحنكي ...،
جماعة من الأشرار اكتنفتني، ثقبوا يديَّ ورجليَّ،
أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرَّسون فيَّ،
يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون»] (مز 22: 1-18)

156 - «وكانت واقفات عند صليب يسوع، أُمه، وأخت أُمه، (و) مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية»

هؤلاء كُنَّ واقفات من بعيد، ولكن بعد أن خفَّت الجمهرة من الشعب والجنود ورؤساء الكهنة والرعاع المأجورين للهتافات، وتفرَّق رؤساء الكهنة لأن الساعة التاسعة من النهار كانت من أحرج الساعات التي يتحتَّم أن يكونوا فيها في الهيكل يؤدون وظائفهم بالصلوات وذبح خراف الفصح وإعدادها. فلمَّا ابتعد كل هؤلاء، اقتربن من الصليب، ووقف ق. يوحنا معهن يحرسهن. وكانت المجموعة تضم أقرب المقرَّبين من المسيح: أولاً مريم أُمه القديسة وأختها، ثم مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. هذا التقسيم أخذ به العالم وستكوت(7). وكانت هناك نساء أُخريات كثيرات جئن معه سائرات على أقدامهن من الجليل. على أن أم ابني زبدي، وهي سالومة، تمتّ بقرابة كثيرة لمريم العذراء، ويُعتقد أنها أختها الوحيدة. والأمر المحيِّر للعلماء هو مجيء اسم مريم المجدلية مفاجأة باعتبارها شخصية معروفة دون ذكر أي إشارة عنها قبل ذلك في الأناجيل.

+ **«فلمَّا رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال لأُمه: يا امرأة، هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هوذا أُمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.»** (يو 19: 26و27)

وقفت العذراء تنظر إلى ابنها، وكما قال لها سمعان الشيخ بالنبوَّة: «وأنتِ أيضاً يجوز في نفسكِ سيف» (لو 2:35). وها قد جاء ميعاد هذا السيف، إذ وقفت أمام الصليب مصلوبة تشخص نحو ابنها وقلبها يتقطَّع حزناً وألماً لا يُطاق وأشد أنواع الحزن هو الذي لا يكون له عزاء. وإن كان المسيح قد سبق ووعَّاها تماماً بكل ما سيجوزه، لذلك وقفت صامتة. وقد حرص ق. يوحنا أن لا تحضر مريم القديسة إلاَّ في آخر مشاهد الصليب لتسمع كلمة الوداع، وكان القديس يوحنا هو التلميذ الوحيد الذي رآه المسيح تحت الصليب.

وقول المسيح لأُمه: يا امرأة هوذا ابنكِ، على يوحنا التلميذ الذي كان يحبه، هو الدليل القاطع والنهائي أنه لم يكن للعذراء أبناء إلاَّ المسيح. على أن القديسة مريم هي الصلة القائمة والدائمة بالجسد بالآباء والأنبياء والسماء أيضاً. فكان تسليم القديسة مريم إلى ق. يوحنا لتكون أُمه فكأنما يسلِّمه ميراث العهد القديم بآبائه وأنبيائه وقديسيه لتكون أُمًّا ليوحنا والكنيسة كلها، ليكون ميراث

(7) B. F. Westcott, *The Gospel According to St John*, pp. 275, 276.

العهد القديم كله لنا كالعذراء للمسيح، صلة حيَّة ثابتة دائمة كميراث وتراث. لذلك يُحسب تسليم المسيح أُمه ليوحنا وكأنه ومضة نور ربطت العهدين.

ولقد أسرع بعدها ق. يوحنا بأخذ مريم من أمام الصليب لكي لا تشاهد الساعة الأخيرة.

157 - النهاية: «قد أُكمل»

- **[الله يسألني أن أقبل قضاء الله عليَّ في موت المسيح، وأن أحيا بنعمته في قيامته.]**(8)

+ «**ويكون في ذلك اليوم، يقول السيد الرب: إني أغيِّب الشمس في الظهر وأقتم الأرض في يوم نور.**» (عا 8: 9)
+ «**إذ نحسب هذا: أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذاً ماتوا. وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام.**» (2كو 5: 14و15)
+ «**لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد.**» (عب 2: 9)

الآن بلغت الساعة السادسة نصف النهار.

الظلام وسط النهار:

لم يكن خسوفاً، فالقمر في أكثر استدارته، ولكن انحجب النور بسبب ستار كثيف من الظلمة التي بقيت ثلاث ساعات. تصادف أن بدأ ذلك بعد أن صرخ المسيح بصوت عظيم: «إلهي إلهي لماذا تركتني» فالظلمة كانت في هذا الميعاد مقصودة روحياً للتعبير عن مأساة موجعة اقترفها إنسان الأرض في حق السماء، وكأن الطبيعة تبكي سيدها، والشمس أخفت أشعتها بسبب ظلم الإنسان الذي فقد رؤية النور. والأناجيل سجَّلتها دون تعليق، ولكن بطولها ولمدى ثلاث ساعات: «وكان نحو الساعة السادسة، فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة. وأظْلَمَتْ الشمس» (لو 23: 44و45). ونداء المسيح: « إلهي إلهي لماذا تركتني» كان أيضاً لانحجاب وجه الآب عن المسيح لتكميل غضب الله على المسيح حامل خطايا البشرية بصفته الإنسان المذنب المستحق العقوبة وهو يجوزها. فلم تكن تمثيلية سمائية، بل كان تحقيق غضب وهجران وتأديب لتكميل عقوبة تمهيداً لوقفها. ولولا انحجاب وجه الآب وتركه للمسيح المصلوب ما استطاع أن يموت، لأن الصلة بالآب تمنع جواز الموت على الابن بأي حال من

(8) James Robenson, *A. New Quest of the Historical Jesus.*, p. 48.

الأحوال. فالموت على الصليب، كان حسب مشيئة الله، وقد ابتدأ من فوق وليس من الأرض: «أمَّا الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم» (إش 10:53)، أمَّا هو فقد «سكب للموت نفسه »(إش 12:53) لتكميل مشيئة الآب، لأنه «حمل خطايا كثيرين» (إش 12:53). «فالمسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا.» (غل 13:3)

انشقاق الحجاب الحاجز بين قدس الأقداس والقدس:

«وانشق حجاب الهيكل» (لو 45:23)، وهو الحجاب الذي يفصل قدس الأقداس حيث يدخل رئيس الكهنة مرَّة واحدة في السنة ليقدِّم دم ذبيحة الكفَّارة. هذا انشق بدون يد من أعلى إلى أسفل. وكان معناه ظاهراً أن الله قد أصبح بلا قيد لجميع الناس. لأن الحجاب كان يرمز إلى الخطية كفاصل بين الله والناس، والخطية رُفعت بالعقوبة على الصليب والموت. وقد شرحها بغاية الوضوح سفر العبرانيين هكذا:

+ «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع، طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حيًّا، بالحجاب، أي جسده ... لنتقدَّم بقلب صادق في يقين الإيمان.» (عب 10: 19و20و22)

وحسب إنجيل ق. متى: «الأرض تزلزلت، والصخور تشقَّقت، والقبور تفتَّحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدَّسة، وظهروا لكثيرين. »(مت 27: 51-53)

وبعد صرخته أحس بالعطش الشديد، فهو النزع الأخير. ولمَّا قال أنا عطشان، رفع الجندي قصبة في طرفها اسفنجة مشبَّعة بشراب البوسكار وهو خمر حامض؛ ولكن المسيح لمَّا أخذ الخل، قال: قد أُكمل، ونكَّس رأسه وأسلم الروح.

فقد أُكملت العقوبة، وبها أُكمل الفداء!! فالذي لم يجد لرأسه راحة كل أيام حياته، أراحها على الصليب. ومات ودخل إلى راحته الكبرى!

158 - شهادة قائد المائة

+ «**ولمَّا رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح، قال: حقًّا كان هذا الإنسان ابن الله!**» (مر 39:15)

وكانت الساعة قد صارت قرب الغروب الساعة الثالثة بعد الظهر. فلكي لا تبقى الأجساد على الخشبة، كانت عادة الرومان أن يكسروا سيقان المحكوم عليهم لينهوا على البقية من حياتهم.

فكسروا ساقيْ اللص الأول والثاني، ولمَّا جاءوا إلى المسيح وجدوه قد فارق الحياة، ولكي يستوثقوا من موته أخذ أحد الجنود ـ واسمه في التقليد لونجينوس ـ الحربة وطعنه في جنبه اليمين، وللدهشة خرج من جنبه دم وماء. وقد سجَّل هذه الحادثة ق. يوحنا في إنجيله، وكانت غير مفهومة عنده، ولكن أراد أن يؤكِّدها، فقال: إنه شاهدها بنفسه. ويُقال إنها طبيًّا تحكي عن انفجار حدث في القلب وتكوَّنت منه كميات كبيرة من الدم والماء خرجت عندما نفذت الحربة في الكيس المغلَّف للقلب(9).

159 - يوسف الرامي وإنزال الجسد

كان يوسف الرامي من أعضاء السنهدرين، وكان "مشيراً" رجلاً صالحاً باراً. وكان ينتظر تعزية إسرائيل واستعلان الملكوت. وكان من الرامة في الجليل، ويقول ق. يوحنا إنه كان تلميذاً ليسوع. وكان غير راضٍ عن أعمال السنهدرين بمعنى رفض إدانة المسيح وصلبه. هذا انتهز الفرصة وتقدَّم إلى بيلاطس يطلب جسد يسوع ليقوم بواجب دفنه، فأعطاه التصريح بذلك. ولكن بيلاطس تعجَّب، إذ كيف مات بهذه السرعة! ولكنه استفسر من قائد المئة فعرف الحقيقة. وكان يوسف قد اشترى كتَّاناً، ويقول ق. يوحنا إنه قد جاء معه نيقوديموس أيضاً؛ وهو عضو السنهدرين، وهذا جاء ومعه مزيج مر وعود نحو مائة مَناً. فأخذا جسد يسوع ولفَّاه بأكفان مع الأطياب كما لليهود عادة أن يُكفِّنوا.

وكان في الموضع الذي صُلب فيه بستان، هو ملك ليوسف الرامي، وقد حفر لنفسه فيه قبراً جديداً لم يوضع فيه أحد ـ فهناك وضعا جسد يسوع لسبب الاستعداد لأن القبر كان قريباً. وكانت تتبعهم نساء ونظرن القبر وكيف وُضِع الجسد.

---

(9) William Stroud, *Treatise on the Physical Cause of the Death of Christ,* cited by David Smith, *op. cit.*, p. 506.

الفصل الثامن

القيامة سر المسيحية وقيامها

- **[لقد وُلِدَ لكي يموت، ومات لكي يقوم، وقام لكـــي يجلــس حيث كان أولاً]**.

+ «**الذي أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنـــا.**» (رو 25:4)

+ «**كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فــدُفنَّا معــه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات، بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدَّة الحياة.**» (رو 3:6و4)

- **[في الموت ضرب الشيطان الراعي لتتبدَّد الخــراف. وفي القيامة أقام الله من بين الأموات راعي الخراف العظيم بدم عهد أبدي]** !

[كان موت المسيح بالنسبة للتلاميذ، بالرغم من كل التنبيهات السابقة، يمثِّل لهم كارثة ثقيلة لا خروج منها! وحتى بعد ما أدركوا وهو حي معهم أنه هو المسيَّا. وبالرغم مـــن تحذيراتـــه الكثيرة لهم، فقد كانوا ينتظرون أن يُعلن نفسه للعالم ملكاً على عرش داود. ولكن حـــوادث الصلب المريعة بدَّدت أحلامهم وأوقعتهم في مأزق فكري شديد الضيق، ودخلـــوا في حالـــة فقدان الأمل. ولكن، وبحسب الواقع، وجدوا أنفسهم في حالة عار يحاصـــرهم، فمعلِّمهـــم العظيم صلبوه ومات أشنع ميتة، وماذا يتبقَّى لهم من علمه وتعليمـــه؟ ووجـــدوا أنفـــسهم منظورين من الدولة والشعب كأتباع حمقى لمعلِّم ضيَّع حياهم. ولم يَعُدْ لهـــم في نظـــرهم إلاَّ العودة إلى بيوهم القديمة ومهنتهم المهجورة.](1)

ولكنهم، وبإيحاء من رجاء متعثِّر، فضَّلوا أن يجتمعوا في أُورشليم إلى أن ينجلي الموقف، ولكن في خفية دخلوا وأغلقوا الأبواب على أنفسهم وجلسوا يتحاورون. عبروا يوم السبت، وكـــان ســـبتاً عظيماً وأول أيام العيد، بلا تعييد ولا رجاء. ولكن ما طرأ على تفكيرهم قط أنه قد تكون قيامة أو

(1) David Smith, *The Days of His Flesh*, p. 508.

يقوم الجسد من بين الأموات، مع أنه قد سبق ونبَّه قلوبهم كثيراً جداً أنه لن يكون موت إلاَّ وبعده قيامة.

ولكن كانت هناك امرأة، صحيح قد لفَّها الحزن ولفَّت نفسها بالسواد، ولكن قلبها المحب جداً للمسيح كان يشدّها شداً إلى القبر! لماذا؟ لا تعرف، لقد اتفقت مع أُخريات أن يزرن القبر ومعهن حنوط للجسد، قامت والظلام باق، وذهبت تتحسَّس الطريق إلى الباب، "باب المدينة" الغربي، الذي يطل على متسع الجلجثة؛ ولكن بوصولها إلى الباب وجدته موصداً، فجلست على الأرض تنتظر انبثاق النور الذي يأذن بانفتاحه، لأنه لا يُفتح إلاَّ عندما يشرق أول شعاع من الشمس. وبمجرَّد أن انفتح الباب، انسلَّت إلى الخارج مسرعة لا تلوي على شيء، ومن ورائها بقية النسوة حاملات الطيب الكثير.

جئن إلى القبر، والخوف يملأ قلوبهن، ووقفن أمام القبر من بعيد أمام سؤال حيَّرهنَّ جميعاً! مَنْ يُدحرج لنا الحجر؟ والحجر ثقيل لا تحرِّكه إلاَّ أيدٍ قوية، والضعف أخذ منهن كل مأخذ! ولمَّا اقتربن، فجأة نظرن وإذا الحجر مدحرج عن فم القبر ومسنود على الجدار وحده. تقدَّمن والخوف والفزع يتقدَّمهن خطوة وراء خطوة، وإذ بدأ شعاع الشمس يتسلَّط على فم القبر، اقتربن وتجاسرن بأن مددن رؤوسهن لينظرن. فإذا، وللمفاجأة المذهلة، شاب وسيم لابس لباساً أبيضَ لامعاً جالساً على حافة القبر، وخاطبهن: لا تندهشن! أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب ـ قد قام ـ ليس هو ههنا، هوذا الموضع الذي وضعوه فيه. لكن اذهبن إلى تلاميذه وقولوا لهم ولبطرس: إنه يسبقكم إلى الجليل، هناك ترونه كما قال لكم: «فخرجتا سريعاً من القبر بخوف وفرحٍ عظيم، راكضتين لتخبرا تلاميذه» (مت 8:28). والقديس مرقس يقول إنهن: مريم المجدلية ومريم أُم يعقوب وسالومة، وق. متى يقول أنهما كانتا «مريم المجدلية ومريم الأخرى» (مت 1:28). أمَّا ق. لوقا فيقول: إنهن نساء دون تحديد الأسماء.

أمَّا يوحنا فينفرد بذكر أن أول مَنْ ذهب إلى القبر وحده كانت مريم المجدلية، ولمَّا رأت الحجر مرفوعاً عن القبر عادت مسرعة تُخبر التلاميذ، وكان هذا أول شعاع من النور يتسلَّط على ظلمة نفوسهم التي ادلهمت ولا رجاء. فركضت وجاءت إلى بطرس ويوحنا وقالت لهما: قد أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه. فذهبا كلاهما ركضاً، وسبق يوحنا ونظر داخل القبر، ثم خرج بانتظار وصول بطرس الذي دخل ونظر وإذا الأكفان بوضعها الذي كانت عليه ملفوفة، والمنديل الذي على الرأس وحده، والجسد غير موجود. الأول آمن، والثاني لم يفهم: «لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب: أنه ينبغي أن يقوم من الأموات.» (يو 9:20)

وللأسف فإن بطرس لم يُعْمِلْ عقله إلى لحظة، فالذي يسرق الجسد يأخذ لفائفه معه، ولكن أن

تُترك اللفائف على حالها التي كانت ملفوفة به حول الجسد ومنديل الوجه موضوعاً بحالــه، وكــأن الجسد تبخَّر أو انسحب وترك مكانه في اللفائف خالياً؛ هنا القيامة تصرخ في وجهه! ولكنه كــان متثاقل الإيمان. والعجيب أن اللفائف لم تهبط وتترك شكلها الدائري، بل بقيت ملفوفة حول نفسها. إنه إعجاز القيامة!! أمَّا على ق. يوحنا، فقد أشرقت بارقة القيامة فهزَّته حتى الأعماق.

160 - ظهور الملاكين لمريم المجدلية

ترك بطرس ويوحنا القبر وسارا يتطارحان الكلام عن احتمالات الأمر، ولكن تركا وراءهما المجدلية تبكي على القبر. وفجأة رأت ملاكين، واحداً عند الرأس والآخر عند الرجلين في نفس الموضع الــذي كان الجسد موضوعاً فيه.

الملاكـــــان: «يا امرأة، لماذا تبكين؟

مـــــــريم: أخذوا سيدي ولست أعلم أين وضعوه.

(هنا بدا على وجه الملاكين حركة أشعرت مريم أن وراءها يقف واحد)!

ولمَّا قالت هذا التفتت إلى الوراء، فنظرت يسوع واقفاً، ولم تعلم أنه يسوع.

المســــــيح: يا امرأة، لماذا تبكين؟ مَنْ تطلبين؟ فظنَّت تلك أنه البستاني، فقالت له:

مريم للبستاني: إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته وأنا آخذه

يــــــسوع: يا مريم!!

مريـــــــم: فالتفتت تلك وقالت له: ربُّوني الذي تفسيره يا معلِّم!

يــــــسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم!

فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قــال لهــا هــذا. »(يو 20:13-18)

161 - عصر الأحد، وتلميذا عمواس، وظهور المسيح لهما

+ **«وإنما أُظهرت الآن (النعمة) بظهــور مخلِّــصنا يــسوع المسيح، الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواســطة الإنجيل.»** (2تي 10:1)
+ **«لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقــدون بيسوع، سيحضرهم الله أيضاً معه.»** (1تس 14:4)
+ **«إن اعترفت بفمك بالرب يسوع، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خَلَصْتَ.»** (رو 9:10)

عمواس مدينة صغيرة تبعد سبعة أو ثمانية أميال جنوب أُورشليم بغرب، وربما موضعها الآن الخمــسة El-Khamasa، ويوسيفوس(2) يفسِّر اسمها حمَّات Hammath، أنه يعني ذات ينابيع المياه الساخنة. كان واحد من تلميذي عمواس يسمَّى كليوباس والآخر غير مذكور اسمه، ولم يكونا من الرسل، ولكن كانــا من أتباع يسوع. وكانا محزونَين بأشد الحزن، يسيران معاً نحو بلدهما يلفّهما الهم والغم وكسرة القلــب، معتقدين أن كل شيء قد انتهى بهذه النهاية الكئيبة. وكانا قد سمعا بأخبار الصباح، ولكن لم تنته بهما هذه الأخبار إلى شيء مؤكَّد. وكل ما بلغهم أن القبر وجدوه فارغاً، وأن بعض النسوة جئن وأخبرن أنهن رأين ملائكة يقولون إن المسيح حي! ولكن كل هذه الأمور كانت في نظرهم متاهة. وذهبا يمــشيان والحــزن يعتصر قلبيهما وهما يتطارحان كلمات الدهشة واليأس، ولكن كانا شغوفَين جداً أن يسمعا شيئاً ما. وفي لحظة وجدا إنساناً غريباً يُسرع خطاه حتى صار وسطهما، وكان هو يسوع ولم يعرفاه، وُيقال إن أعينهما قد أُمسكتا عن معرفته. وابتدرهما متعجباً: علامَ تتطارحان وأنتما سائران عابسَين هكذا؟

كليوبــــــــــاس: **«هل أنت مُتغرِّبٌ وحدك في أُورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟»** إذن، فأخبار يسوع وصلبه ملأت كل أرجاء أُورشليم، حــتى يكــون مستغرباً إن وُجِد واحد لم يسمع بها!

يــــــــــسوع: **«وما هي»**؟

التلميــــــــذان: «المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنساناً نبيًّا مقتدراً في الفعل والقول أمــام الله وجميع الشعب. كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحُكَّامنا لقضاء الموت وصــلبوه. ونحن كنَّا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. ولكن، مع هذا كله، اليوم لــه

---

(2) Josephus, *De Bell. Jud.* IV, 1, 3; *Antiq* XVIII, 2,3.

ثلاثة أيام منذ حدث ذلك، بل بعض النساء منّا حيَّرننا إذ كُنَّ باكراً عند القبر، ولمّا لم يجِدْنَ جسده أتين قائلات: إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حيٌّ»
«ومضى قومٌ من الذين معنا إلى القبر، فوجدوا هكذا ... وأمَّا هو فلم يروه»»

المسيح المتخفِّي حتى الآن: **"أيها الغبيان والبطيئا الإيمان بالقلب، كيف لا تؤمنان بالأنبياء والمكتوب، أليس كان محتوماً أن المسيَّا يتألَّم بهذه الآلام كلها ويدخل إلى مجده؟ وابتدأ المسيح يتلو عليهما النبوَّات التي جاءت عن آلام المسيَّا وموته من موسى والأنبياء والمزامير كيف أنها ذكرت واستوفت كل ما يختص بآلامه"**.

كان التلميذان يسمعان الكلام وقلبهما يتحرَّك ملتهباً فيهما. فالكلام يعرفانه، ولكن المتكلِّم يجعل الكلام وكأنه قيل أمس أو أول من أمس. كلام حي مقنع وواضح ومنطبق على الحوادث تمام الانطباق. وأخيراً، بلغا مشارف عمواس، فتظاهر المسيح أن أمامه مسافة أخرى يمشيها. فألحَّا عليه وقالا له: إن النهار قد مال للغروب، فتعال وبت عندنا، طمعاً في سماع باقي حديثه المحيي.

تأمُّل: ''تعال، تعال معنا يا حبيبنا أسمعنا كلامك الحلو،
النهار انقضى والشمس مالت للمغيب، فوجبت الضيافة. تعال لا تتمنَّع،
نفوسنا تعلَّقت بكلامك عن يسوع، إنه في فمك حي، وكأن لا موت ولا قبر.
أَبَعْدَ أن تشوِّقنا عن يسوع تتركنا وحدنا نكمِّل حديث حزننا وهمنا الثقيل.
كلامك أنار ذهننا وفتح قلبنا وأحسسنا أن وراء القبر حياة، فأخبرنا بها.
حقــاً يسوع لا يموت، وإن مات يتكلم بعد، هو حي معك ونحن نودّ أن نحياه، فتعال.
أخبارك غطَّت على أحزان أُورشليم كلها، وفجَّرت طاقات الرجاء والحب والأمل.
نرجوك تعال وبت عندنا لنسهر الليل كله نسمع حديثك عن يسوع فكأنه أنت،
لقد علَّقت نفوسنا بك، لأنك أحييت فينا المسيح الذي مات في أُورشليم، فإذا هو حي فيك.
تعال، ما لنا وأُورشليم والقبر الفارغ والنسوة والملائكة، قل لنا أنت هل أنت المسيح''؟

استجاب المسيح لرجائهما، لأنه أحبهما كما أحباه. ومال معهما وقلبه مفعم بالرضا، وكأنه وجد معهما مَنْ يترجَّى وجوده. فأسرعا بواجب الضيافة، وقدَّما مائدة عشاء مع خبز. فجلس المسيح في الوسط وكأنه ليس ضيفاً بعد بل رئيس المتكأ ورب مائدة. فكانت دهشتهما عجيبة لمَّا أمسك بالخبز ورفع عينيه إلى السماء، فطار قلباهما من نظرته إلى فوق، انخطف قلباهما إلى السماء حيث نظر، ولمَّا كسر الخبز ومدَّ يده به نحوهما، فإذا به تعلوه هالة المجد ويذوب جسده أمام أعينهما

ويختفي!! فأدركاه وتبادلا النظرات والتنهدات، وكأن كنزاً يفوق السماء في مجده وجلاله طار من بين أيديهما!! ثم تذكَّرا: أتذكُر يا كليوباس وقتما كان يتكلَّم معنا في الطريق؟ نعم، كان قلبي ملتهباً وكأن ناراً فيه تتقد، وما دريت أنه هو هو المسيَّا يسوع المحبوب. ثم أتذكُر وقتما كان يتكلَّم عن الأنبياء ويتلو الأسفار غيباً عن ظهر قلب؟ نعم، وكنت وكأني أسمع موسى نفسه أو يشوع، وكان الكلام يتصوَّر أمامي حقائق وحوادث.

فقاما للتو وانطلقا صوب أُورشليم يُسرعان الخُطا وقلبهما يطفر من الفرح والسعادة: لقد رأيا الرب! وكانا أول مَنْ رآه بعد المجدلية.

162 - ظهور المسيح
مساء الأحد للاثني عشر في العليَّة في غياب توما

فلمَّا صعدا للرسل وجدوهم مجتمعين معاً والبشر يملأ وجوههم، ولكن من داخل والأبواب مُغلَّقة عليهم بإحكام، فلا يزال الخوف من الحكام يرعبهم. وسمعوا من الرسل تأكيداً أن الرب قام حقاً وظهر لبطرس(3). فتقدَّما هما أيضاً ليخبرا باختبارهما العجيب: كيف ظهر لهما وشرح الكتب، ووبَّخهما على عدم إيمانهما بالأنبياء، وشرح لهما كل ما جاء عنه في موسى والأنبياء والمزامير (الأمر الذي صار مسجَّلاً في فكر الكنيسة وقلبها عن دراسة العهد القديم)! وكيف استُعلِن لهما وقت كسر الخبز، وهكذا ربط ظهوره بكسر الخبز والإفخارستيا. فكلامهُما ألهب قلوب الجماعة كلها.

وفي لحظة حدث سكوت فجأة في العليَّة المغلَّقة بإحساس رهيب، إذ في الوسط ظهر المسيح نفسه بكل سماته وملابسه. ثم بادرهم كالعادة: "سلام لكم" بنفس نبرات صوته وإيماءاته ونظراته، والكل منذهل يحدِّق فيه بأقصى الجهد.

ولكن عمَّتهم قشعريرة خوف، فالموقف أكبر من احتمال خبرتهم الإيمانية. وغمرتهم لمسة اندهاش، ألعلَّهم رأوا روحاً؟ ولكنَّ المسيح أسرع ومدَّ يديه وعرّى قدميه ليروا الجروح النازفة والدم عليها وهي مثقوبة ثقباً يُدخِل لا الأصبع بل اليد. ثم أراهم جنبه المفتوح، وقال لهم: لماذا تظنون أنكم ترون روحاً جسُّوني والمسوني، الروح ليس له لحم وعظام. فاستراحت نفوسهم وابتدأوا يفرحون ويُظهرون فرحهم. ولعلَّهم تذكَّروا وعده المبارك: «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو 22:16). ثم حدَّثهم عن إرساليته لهم: «كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا»

(3) كما قالها بولس الرسول (1كو 5:15).

(يو 21:16). ثم اقترب من وجوههم ونفخ فيهم وقال لهم: «اقبلوا الروح القدس. مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر له، ومَنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يو 20:22و23). وهكذا سلَّمهم الإرسالية والرسولية. ولكن كان توما غير موجود مع الرسل في هذه الليلة.

163 - ظهور المسيح في العلية الأحد(4) الثاني بعد القيامة لتوما مع الرسل

وهذا حدث ثانية وهم مجتمعون في العلية الأحد الذي يليه، ربما خصيصاً لأجل توما، لأن توما لم يصدِّق الخبر الذي سمعه منهم، وقال إن لم أضع إصبعي موضع المسامير في يديه، وأضع يدي في جنبه موضع الحربة، لا أُؤمِنْ.

وبينما كانوا مجتمعين والأبواب مغلقة كالعادة، ظهر المسيح في الوسط وبحث بناظريه عن توما، ثم خاطبه خصيصاً: تعال، وهات إصبعك والمس يدي، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بعد بل مؤمناً. فصرخ توما: «ربي وإلهي» فيبدو أن إصبعه لمَّا لمس الجرح أصابته هزَّة أيقظت إيمانه من رقاد. فعاتبه المسيح، وبالتالي ليمدح الدنيا كلها: «لأنك رأيتني يا توما آمنت! طوبى للذين آمنوا و لم يَرَوْا!!» (يو 29:20)

164 - ظهور المسيح في الجليل كالوعد

+ **«مَنْ هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا.»** (رو 34:8)

كان المسيح يرى أن ظهوره في أُورشليم فيه حرج للتلاميذ، فأراد أن ينفرد بهم في حرية وبعيداً عن مناورات رؤساء الكهنة، وأخبرهم بذلك بمجرَّد أن قام من بين الأموات وظهر لأول مرَّة للمرأتين. ذهب التلاميذ واستعدُّوا للقائه. فكان سبعة منهم مجتمعين معاً، ربما في بيت بطرس، واتفقوا للخروج معاً للصيد: سمعان بطرس وتوما ونثنائيل الذي من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه. وخرجوا ومضوا الليل كله في الصيد، ولكن لم يُمسكوا في تلك الليلة شيئاً من السمك. ولمَّا كان الصباح وهم عائدون فارغين، رأوا المسيح على الشاطئ، وفي البداية لم يعرفوه.

---

(4) ظهور المسيح في أحد القيامة ثم الأحد الذي يليه، أعطى ليوم الأحد دلالة قوية أنه اليوم الجديد الثامن بعد السبت، الفريد بين الأيام.

فقال لهم: يا غلمان، ألعلَّكم أتيتم بصيد؟ فأجابوه: لا. فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا، فألقوا. ويقول الكتاب: إنهم لم يعودوا يقدرون أن يجذبوا الشبكة من كثرة السمك. فقال يوحنا لبطرس: «هو الرب» (يو 7:21). فلمَّا سمع سمعان بطرس أنه الرب، اتَّزَرَ بثوبه لأنه كان عرياناً، وألقى بنفسه في البحر، والآخرون جدَّفوا ووصلوا الشاطئ يجرُّون الشباك والسمك. ولدهشتهم، لمَّا وصلوا الشاطئ، وجدوا جمراً موضوعاً لإعداد الغذاء وسمكاً. فأحضروا من السمك الذي اصطادوه، وكان تعداد السمك 153 سمكة، والشبكة لم تتخرَّق. ودعاهم المسيح: تعالوا تغذوا، وكان إفطاراً. وأخذ المسيح الخبز والسمك وبارك وأعطى ليأكلوا كالعادة، ولكن لم يجسر أحد أن يكلِّمه.

ثم وجدها المسيح فرصة ليراجع بطرس المراجعة الأخيرة لحياته، فسأله: يا سمعان بن يونا أتحبني، وكرَّرها لثلاث مرَّات!! ليذكِّره بالثلاثة إنكارات. ثم أخبره أنه حينما كان حَدَثاً كان يمنطق ذاته ويسير حيث يريد، ولكن سوف يمنطقونه ويحملونه حيث لا يريد، مشيراً إلى أية ميتةٍ كان مزمعاً أن يموت. ومات ق. بطرس في روما مصلوباً منكَّساً حسب التقليد.

القيامة فعل خلقي جديد وليست مجرَّد رؤية:

[من المؤكَّد ـ حتى وبأقصى معنى للتاريخ ـ أنه لم يكن هناك إنجيل ما، ولا حقيقة إنجيلية، ولا حتى حرف واحد من العهد الجديد، بل ولا إيمان ما، ولا كنيسة ولا عبادة ولا صلاة، بل ولا مسيحية جملة وإلى هذا اليوم؛ بدون قيامة يسوع المسيح من بين الأموات. حتى ولو كانت هناك صعوبة بل واستحالة أن نحصل على سند تاريخي أكيد عن كيف كانت حوادث يوم القيامة العظيم.](5) (عن جونثر بورنكام)

أمَّا نحن فنقول: إن الإنسان المسيحي يخطئ إن فَهِمَ أن القيامة نشأت بمجرَّد الإيمان بظهورات المسيح، لأن الإيمان قام على حدث خطير ومؤثِّر. فالقيامة فعلٌ جديد دخل العالم بموت يسوع المسيح الكفَّاري عن العالم. فقيامته بشارة جديدة لعالم جديد تُخلِّص الإنسان من إرهاب الخطية وتخريب فعل الموت، فهذان العدوَّان أُخْضِعا تماماً تحت رجلي القائم من بين الأموات. فالمسيح، وهو الكلمة ابن الله المتجسِّد آخذاً بشريتنا لذاته ليموت بها حاملاً خطاياها على الصليب؛ قام من بين الأموات بها هي نفسها خلواً من خطية، ودائساً بها الموت تحت قدميه وهو قائم مرتفع من هُوَّة الموت إلى حقيقة الحياة.

فعل القيامة ـ كما نقول ـ هو حدث أو فعل جديد لم يكن يعرفه العالم من قبل، هذا الفعل كان لا يَمُتُّ لبني الموت بصلة، صار إحدى مكونات الإنسان الجديد في المسيح يسوع! «مخلوقين في

---

(5) **Günther Bornkamm, *Jesus of Nazareth*, p. 181.**

المسيح يسوع لأعمال صالحة» (أف 10:2). فالقيامة فعل خلقي جديد للطبيعة البشرية التي كانت منسوبة للموت واللعنة وعبودية الشيطان.

فلمَّا قام المسيح من بين الأموات بجسده ـ الذي مات به وبجروحه ـ دخل به العالم دخولاً جديداً، ليس كدخوله الأول حين تجسُّده يومَ وُلِد. فدخوله الأول كان تمهيداً وعلة أو سبباً لدخوله العالم الجديد قائماً من عالم الأموات إلى ملء حياة الأبد التي لا يملك عليها موت ولا خطية ولا سلاطين هذا الدهر. فإن كان دخوله الأول إلى العالم أساساً لكي يحمل خطايا البشرية ويموت بها ليرفع عنها عقوبة الموت ولعنته، فقيامته من بين الأموات كانت البرهان الإلهي أن الآب قَبِلَ موته الكفَّاري على الأرض ودخل إلى السماء إلى الأقداس العليا بدم ذبيحته يقدِّمه إلى الآب فوجد لنا فداءً أبدياً.

فإن كان دخوله الأول استحدث في العالم وجوداً للطبيعة الإلهية، تعيش بين الناس في جسد إنسان، تتعرَّف على ضعفاتهم وآلامهم وأمراضهم وسحقهم وذلهم، ثم ظلمهم وموتهم، حاملة كل أثقال الناس لتلقيها في الهاوية بعيداً عن العالم والتاريخ وعين الناس. فقيامته أنشأت دخولاً ثانياً استحدثت به وجوداً جديداً للإنسان بلا نير خطية ولا رعبة موت ولا ذلة عوز، بل إنساناً جديداً بوعي إلهي دائساً الخطية والموت، ومترفِّعاً عن كل هم وثقل للخطية والموت، بانتظار قيامته وحياته الجديدة المرصودة في السموات محفوظة له لا تتدنَّس ولا تضمحل.

بمعنى أن القيامة حدث جَلَل، فعل خلقي شامل ومتعمِّق للطبيعة البشرية حتى الجذور، ورافع لثقلها في جسد المسيح القائم لترتفع به وقت أن تلقي جسدها على الأرض لترث أمجاد القيامة كفعل خلقي سماوي فائق القدر. أي أن القيامة ليست هي مجرَّد ظهور للمسيح، وتعرُّف عليه، واقناع بالصوت والصورة، ولمس الإصبع ووضع اليد في الجرح، ومحاولة جاهدة من المسيح ليقنعهم بحقيقة قيامته، وجهد بائس جهيد من طرف أعز تلاميذه وأوثقهم صلة به لكي يقتنعوا أو يؤمنوا.

فالقيامة بفعلها **الظاهري**، هي من نصيب عقل الإنسان، ونصيب عقل الإنسان من معرفة الحق في الظاهر زهيد تلعب به العين وتنغش به الأذن وتتقاذفه الظنون: أروح هو أم لحم وعظام؟ ومن أين يأتي اللحم والعظام وقد دخل العلية والأبواب محكمة الغلق؟ ثم ألف ظن وظن.

أمَّا القيامة في فعلها الحقيقي المتغلغل كيان الجسد الجديد، فهي فعل روحي فائق على العقل من نصيب وعي الإنسان الروحي الذي ينفعل بها انفعال المثيل للمثيل؛ فبمجرَّد أن يقبله الإنسان بحاسة الإيمان والحق، يدخل إلى عمق اليقين، وتهتز له أعتاب الروح اهتزازاً ينفض عنها كل قديمها، كل ضعفها، كل ماضيها، لتلبس ثوب التجديد لحياة أبدية لا يسود عليها موت!

القيامة فعل إلهي لا بشريٌّ هو، استطاع أن ينفض عن جسد المسيح ثقل الترابية فيه، فقام الجسد بلا وزن، يتحدَّى الأرض والتراب والمكان والزمان. والجسد هو الجسد عينه الذي ذُبح بـه علـى الصليب وجروحه عليه شاهدة بصدق بشريته وصليبه وموته، ولكن **لأنه** تخلَّص نهائياً ـ ولحـساب البشرية التي فيه ـ من اللعنة وعقاب الموت التي أحدرت الإنسان الأول آدم من سماء الحضرة الإلهيـة مع الله إلى التراب الذي أُخذ منه، وأخضعته صاغراً لجاذبية الأرض؛ تخلَّص بالتالي من علاقة الأرض وجاذبيتها، وارتفع عالياً بيمين الله وروحه القدوس وقد نال لحساب الإنسان صك انعتاق من الخطية ولعنتها وعبودية الأرض ومشقتها ومن الموت وسلطان الشيطان والزمان!

فالقيامة حدث وقع في صميم طبيعة الإنسان بقيامة المسيح منتصراً من بين الأموات وغالبـاً سـلطان الموت والهاوية. فمسألة الإيمان بالقيامة اعتماداً على ظهوراتها ومكانها ومقدار الثقة في مَنْ رأوا وشـاهدوا أمر لا يمتُّ لفعل القيامة الذي تغلغل طبيعة الإنسان ونقله نقلةً شاسعة من تحت سلطان الزمان والمكـان والفكر والعقل والبرهان، ليعيش حياة جديدة بيقين حياة المسيح من بعد موت، لا يتحكَّم فيها فكـر ولا ظن ولا قياس بالعقل أو المنطق. فالقيامة حق إلهي وقع في صميم كيان الإنسان ليغيِّره ويجدِّده، لا يحتاج إلى قناعة فكر أو برهان عقل أو نقل أو بحث زمان ومكان وقول إنسان، بل قبول مجرَّد قبول. فالحق الإلهـي المصنوع بالقيامة هو ملك للإنسان إن شاء وأراد. فكما استعبدته الخطية ظلماً، واستبدَّ به الشيطان، وطغى عليه الموت إرغاماً؛ جاءه الفداء والخلاص مجَّاناً، وأتته القيامة نعمة وعوناً وإلهاماً.

إذن، فرسالة القيامة هي التي تلحّ على إيماننا، وليس مجرَّد الإيمان بالقيامة مـن الوجـه المنظـور والمعقول. فالقيامة، نؤكِّد مرَّة أخرى، أنها ليست نتيجة إيمان الرسل أو الكنيسة، بل هي بحد ذاتهـا موضوع إيمان الرسل والكنيسة كرسالة فداء وخلاص وحياة أبدية. وإن بدأت القيامة بحسب التاريخ بالظهورات الأُولى وتطلَّبت الإيمان، إلاَّ أن حقيقة القيامة، بحسب قيمتها الجوهرية كفعـل وحـدث إلهي، هي عمل الله المباشر بقوته إزاء جحود العالم وظلمته وعدم إيمانه.

وبحسب إيمان الكنيسة الأُولى، تُحسب القيامة أنها برهان تصديق الله على عمل الفداء والخلاص الذي أكمله المسيح على الأرض من أجل الإنسان. فهي بمثابة بزوغ فجر جديد لحياة جديدة للإنسان هي بعينها ملكوته الجديد، الذي وضع نهاية للزمن الحاضر وعالم الإثم والخطية وسلطان الشيطان، الذي تركه زمانـاً ليتحرَّك نحو نهايته ليصنع حتفه بنفسه. لذلك، فالقيامة، ليست من هذا العالم، ويستحيل ضبطها في إطـار الزمان؛ فهي فائقة على الزمان ولا يمكن حصرها بالعقل وإخضاعها للمنطق، لأنها روحية إلهية. والقيامـة حدث إلهي وفعل تجديدي فعَّال منذ أن قام المسيح من بين الأموات لتغيير وتجديد الإنسان، لابد أن يسري ويمتد، لأن بامتداده يبلغ منتهاه، ومنتهاه بتجديد العالم. فهو فعـل حـي متحـرِّك يـسير بالإنـسان

والعالم حتى يُكمَّل، لذلك، فالكرازة بالقيامة عمل حتمي حتى إلى أقصى الأرض وأقصى الزمن إلى أن ينتهي هذا الدهر والعالم، وحينئذ تبلغ القيامة غايتها.

أمَّا نحن فنعيِّد للقيامة، لا لأننا نؤمن بها، بل لأننا قمنا من الموت مع المسيح والآن نحيا معه: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق، حيث المسيح جالس» (كو 3:1). ففعل الإيمان بَطُل أن يكون فعلاً ماضياً بل هو ''حال'' وحياة حاضرة، والذي قام لا يسود عليه الموت بعد: «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل مَنْ كان حيًّا (بالقيامة) وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.» (يو 11: 25و26)

وبفعل القيامة الذي فَعَلَهُ المسيح، شرح: أين كان؟ ومَنْ كان قبل أن يولد؟ ولماذا وُلد؟ وكيف جاز آلامه المروعة بصبر فائق واحتمال مذهل؟ وأخيراً، أعطى معنى مثيراً لموته! وهو نفسه شرح ذلك بنفسه لتلميذي عمواس: «أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلَّم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن المسيح يتألَّم بهذا ويدخل إلى مجده؟» (لو 24: 25و26)

ولكي يدرك القارئ معنى ما نقول فليتذكَّر كيف سار تلميذا عمواس مع المسيح نفسه القائم من بين الأموات، وظلاَّ يتكلَّمان معه ويتحاوران ما يقرب من الساعة وأكثر، ولم يعرفاه؟ ولكن أحسَّا به في قلبهما الذي كان ملتهباً وكأنه قد أصابه فعل ما! ثم أليس هذا هو فعل القيامة الذي سَرَى فيهما سرًّا من وراء العقل والحواس، فكيف يتواجهان وجهاً لوجه مع قوة القيامة ولا يتأثران؟ فالقيامة فعل إلهي هي، ولكن فعلها هو لمن هم تحت الزمان. والفعل الإلهي إن دخل الزمن صار خلقة، صار تجديداً لحساب العالم الآخر.

تلميذا عمواس كانا قد بلغ بهم اليأس إلى منتهاه، لأن رجاءهما الوحيد في ذلك النبي المقتدر الذي كان عتيداً أن يصنع خلاصاً لإسرائيل قد مات، فماتت معه كل آمالهم وبلغوا اليأس. ولكن أول ما أحسُّوا أن الذي مات هو حي، فأدركوا القيامة الحقيقية؛ انتعشت أرواحهم، إذ قبلوا روح القيامة ذاتها، وصاروا خلائق جديدة، وانطلقوا يبشِّرون. فإذا سألت تلميذَي عمواس عمَّا حدث لهما؟ كان عسيراً عليهما جداً أن يعلِّلوا ما حدث، فهو عمل جديد عليهما. ولكن لو لاحظ الإنسان بحاسة الزمن لاكتشف أن فعل القيامة يُحيي الماضي ويربطه بالحاضر ويدفعه إلى المستقبل البعيد. هو غلبة الزمن وقهر الماضي المنسحب نحو الظلمة، وإرغامه على دخول النور ومتابعة الحياة بلا توقف. لهذا قيل عن المسيح: إنه قاهر الموت ومبدِّد الظلمة، إذ حوَّل الموت إلى خرافة. فالماضي عنده صار حاضراً، إذ حطَّم عجلة الزمن وطرح سلطانه فوق الدهور. لذلك قال: أنا الألف والياء، والبداية والنهاية: «أنا هو الأول والآخِر، والحيُّ. وكنت ميتاً، وها أنا حيٌّ إلى أبد الآبدين.» (رؤ 1: 17و18)

مَنْ يستطيع أن يقنع تلميذي عمواس أن المسيح لم يقم من بين الأموات؟ استحالة، لأن القيامة قد أخذت طريقها كفعل في صميم كيانهما، وهو فعل تجديدي. لقد وُلدوا للعالم الآخر. لقد ذاقوا الملكوت المُعَدّ. لقد ذاق ق. بطرس الرسول القيامة أيضاً وعبَّر عنها تعبيراً حيًّا: «مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانيةً لرجاءٍ حيٍّ، بقيامة يسوع المسيح مِنَ الأمواتِ، لميراثٍ لا يفنى ولا يتدنَّس ولا يضمحلُّ، محفوظٌ في السماوات لأجلِكم.» (1بط 1: 3و4)

165 - تسليم الوديعة

+ «فتقدَّم يسوع وكلَّمهم قائلاً: دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين.» (مت 28: 18-20)

وهكذا يسند الخدمة والكرازة قوتان: الأُولى سلطان المسيح الكُلِّي على السماء والأرض، والثانية: حضوره غير المنظور وعلى الدوام إلى انقضاء الدهر. وقد حقَّق وعده واستمرت الخدمة والكرازة تسندها هاتان القوتان بصورة واضحة.

166 - صعود المسيح إلى السماء أمام أعين تلاميذه

بقي المسيح على الأرض بعد قيامته أربعين يوماً وهو يظهر لتلاميذه ولكثيرين. وفي اليوم الأربعين بحسب سفر الأعمال:

+ «الكلام الأول أنشأته يا ثاوفيلس، عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلِّم به، إلى اليوم الذي ارتفع فيه، بعد ما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم. الذين أراهم أيضاً نفسه حيًّا ببراهين كثيرة، بعد ما تألَّم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلَّم عن الأمور المختصة بملكوت الله ـ وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أُورشليم، بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني ـ لأن يوحنا عمَّد بالماء، وأمَّا أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس، ليس بعد هذه الأيام بكثير ... لكنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهوداً في أُورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض. ولمَّا قال هذا ارتفع وهم ينظرون. وأخذته سحابة عن أعينهم.» (أع 1: 1-9)

وبهذا الانسحاب المنظور من الوجود على الأرض في ختام الأربعين يوماً يكون المسيح قد أكمل

وجوده على الأرض، لا عبر الموت، ولكن بالقيامة من الموت، بنفس الجسد الذي صُلب به ومات. ولكن ليس بوضعه المادي الأول، إنما بحالة قابلة للظهور وقابله للاختفاء حسب قدرته الذاتية على الظهور والاختفاء، وحسب انفتاح عين المؤمنين لرؤية ما لا يُرى كموهبة خاصة تختلف في قوتها أيضاً. وأخيراً، انسحب المسيح كُلِّيةً من محيط الأرض، وارتفع إلى السماء ليكمِّل عمله هناك.

167 - جلوس المسيح عن يمين الآب

+ «وأمَّا هذا فبعدما قدَّم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله، منتظراً بعد ذلك حتى تُوضَع أعداؤه موطئاً لقدميه. لأنه بقربان واحد (بتقدمة واحدة) قد أَكْمَلَ إلى الأبد المقدَّسين.» (عب 10: 12-14)

وهكذا بذبيحة المسيح وقيامته وصعوده ثم جلوسه عن يمين الآب أصبح: «لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع، طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حيًّا، بالحجاب، أي جسده.» (عب 10: 19و20)

+ «فمِنْ ثمَّ يقدر أن يخلِّص إلى التمام الذين يتقدَّمون به إلى الله، إذ هو حيٌّ في كل حين ليشفع فيهم.» (عب 7:25)

168 - الوعد بالمجيء بلسان الملائكة

+ «وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق، إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض، وقالا: أيها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء.» (أع 1: 10و11)

بطرس الرسول يحدِّد زمان المجيء

+ «فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب.
ويُرسِلَ يسوع المسيح المبشَّر به لكم قبل.
الذي ينبغي أن السماء تقبله، **إلى أزمنة رَدِّ كل شيء**، التي تكلَّم عنها الله بفم جميع أنبيائه القدِّيسين منذ الدهر.» (أع 3: 19-21)

آمين

انتهى: سبتمبر سنة 1997م